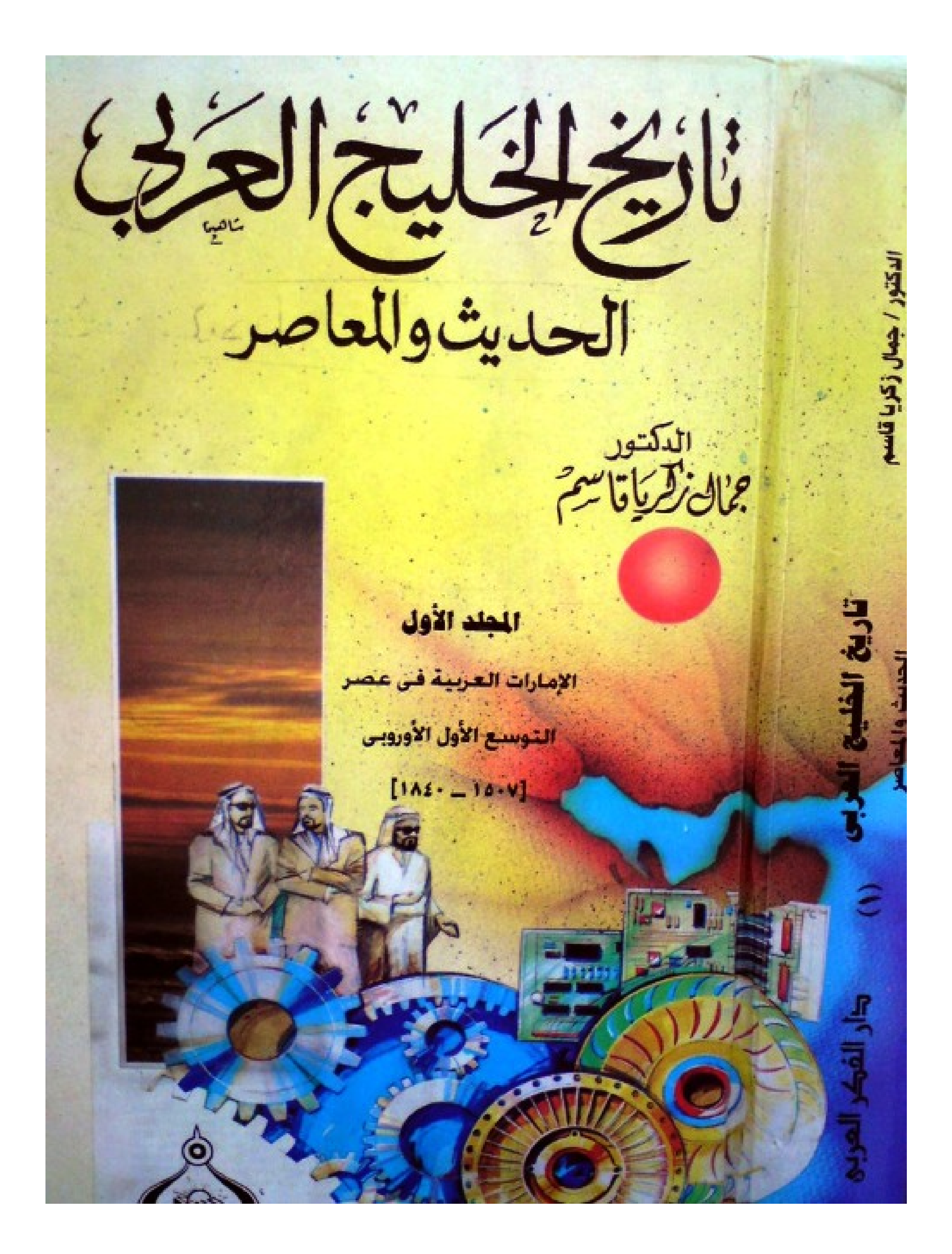
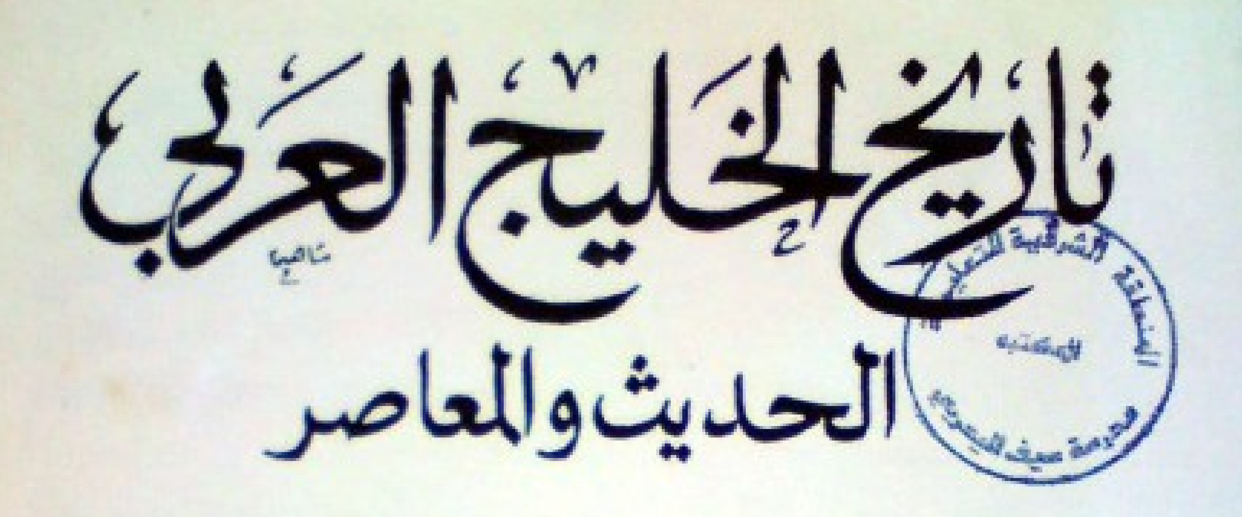

تاريخ الخليج العربي
الحديث والمعاصر
الدكتور
جمال زكريا قاسم
المجلد الأول
الإمارات العربية فى عصر
التوسع الأول الأوروبى
[١٥٠٧ ـ ١٨٤٠]
الدكتور / جمال زكريا قاسم
تاريخ الخليج العربي
الحديث والمعاصر
(١)
دار الفكر العربي



تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر

المجلد الأول

إمارات الخليج العربية فى عصر التوسع الأوروبى الأول

(١٥٠٧ ـ ١٨٤٠)

تأليف

الدكتور جمال زكريا قاسم

١٤١٧هـ / ١٩٩٧م

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربى

الإدارة : ٩٤ شارع عباس العقاد ـ مدينة نصر

ت: ٢٧٥٢٧٩٤ ـ ٢٧٥٢٩٨٤

٩٥٣,٠٠١ جمال زكريا قاسم.

ج م ت ا تاريخ الخليج العربى الحديث والمعاصر / جمال زكريا قاسم

ـ القاهرة : دار الفكر العربى، ١٩٩٦.

٥ مجلد؛ ٢٤سم.

يشتمل على بيلوجرافيات وملاحق.

تدمك : ٦ ـ ٠٨١٩ ـ ١٠ ـ ٩٧٧.

١ ـ شبه الجزيرة العربية ـ تاريخ ـ العصر العثماني. ٢ ـ شبه الجزيرة العربية ـ تاريخ ـ العصر الحديث. أ ـ العنوان.

أميرة للطباعة ـ ت : ٣٩١٥٨١٧

تصدير

تشتمل الدراسة ـ التى يسعدنى تقديمها إلى المؤرخين والباحثين العرب ـ على خمسة مجلدات تتناول فى مجموعها معالجة علمية شاملة لتاريخ الخليج العربى من مختلف جوانبها السياسية والاقتصادية والاجتماعية وذلك منذ بداية العصور الحديثة حتى وقتنا الحاضر أو إلى ما يقرب من الوقت الحاضر، أى أنها تتناول ما يقرب من خمسة قرون من تاريخ الخليج العربى الحديث والمعاصر، وعلى وجه التحديد بين عام ١٥٠٧ الذى يوافق بدء الغزو البرتغالى لمنطقة الخليج العربى وعام ١٩٩١ الذى شهد نهاية حرب الخليج الثانية وما أسفرت عنه من نتائج.

أما عن نقطة البداية التى اختيرت لتلك الدراسة فهى تتمشى مع ما اتفق عليه معظم المؤرخين العرب اصطلاحا على تحديد السنوات الأولى من القرن السادس عشر باعتبارها تشكل بداية لتاريخ العرب الحديث، وقد يكون ذلك قياسا على التقسيم الأوروبى للتاريخ من حيث اختيار المؤرخين الأوروبيين لتلك السنوات بداية للتاريخ الأوروبى الحديث لما شهدته من حركة الكشوف الجغرافية والإصلاح الدينى وغير ذلك مما أسفرت عنه النهضة الأوروبية الحديثة.

غير أن القياس يشوبه الفارق الكبير، ونعنى بين التطورات السريعة التى سار فيها العالم الأوروبى فى القرون التالية وبين الانهيار السريع الذى تعرض له العالم العربى منذ بداية تلك الفترة حتى السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر حين بدأت تدب فيه عوامل الحركة والتغيير.

ولعل التدهور الذى أصاب العالم العربى ـ بداية من القرن السادس عشر ـ يمكن إرجاعه أساسا إلى ما أصاب منطقة الخليج من غزو استعمارى واقتصادى تمثلا فى طلائع البرتغاليين على أثر اكتشافهم طريق رأس الرجاء الصالح ونجاحهم فى السيطرة على نقاط الخناق العربية فى البحر الأحمر والخليج العربى إحكاما لسيطرتهم الاحتكارية وضمانا لتحويل تجارة الشرق إلى الطريق الجديد. ومن ثم فإن الغزو البرتغالى لم يقتصر على أفول منطقة الخليج حضاريا واقتصاديا فحسب بل كان سببا فى أفول الحضارة العربية الإسلامية بصفة عامة.

وإذا كنا قد اتخذنا من السنوات الأولى من القرن السادس عشر نقطة بداية لدراسة تاريخ الخليج العربى الحديث والمعاصر باعتبارها تواكب مطلع العصور الحديثة فى الشرق والغرب بصفة عامة إلا أنه قد تثار أمامنا نقطة عاطفية وهى أنه قد يصعب على المؤرخ العربى

أن يبدأ دراسته للتاريخ الحديث لأحد أجزاء الوطن العربى بالغزو والاستعمار، ومع ذلك فإن ما يخفف ذلك الشعور تلك الصفحات المشرقة التى أمكن تسجيلها لأبناء الخليج فى كفاحهم لتحرير المنطقة من الاستعمار البرتغالى ثم مقاومتهم لمن جاء فى ركاب البرتغاليين من فرنسيين وهولنديين ومحاولتهم بعد ذلك التصدى للوجود البريطانى فى مراحله الأولى ونجاحهم فى المحافظة على كيانهم ومقوماتهم الذاتية وإكساب الخليج شخصيته العربية من جانبيه رغم التحديات الكثيرة التى واجهوها.

أما عن النقطة التى اختيرت لتكون نهاية للدراسة فترتبط بذلك الحدث الضخم الذى شهدته منطقة الخليج والذى تمثل فى الغزو العراقى للكويت وما أسفر عنه من نشوب حرب الخليج الثانية التى انتهت بتحرير الكويت وترسيم الحدود بينها وبين العراق والعودة من جديد إلى إثارة مشكلات الأمن فى المنطقة.

وقد راعينا فى منهج الدراسة لتلك الحقبة الزمنية الطويلة من بداية الغزو البرتغالى إلى غزو وتحرير الكويت ١٥٠٧ ـ ١٩٩١ تقسيمها إلى فترات متعاقبة حاولنا فيها التوفيق بين المنهج الزمنى ومنهج الموضوعات الدراسية فى آن واحد ومن ثم تمت معالجة هذه الدراسة على النحو التالى:

المجلد الأول: ويتناول إمارات الخليج العربية فى عصر التوسع الأوروبى الأول وذلك منذ الغزو البرتغالى حتى بداية تدعيم النفوذ البريطانى وعلى وجه التحديد بين عامى ١٥٠٧ و ١٨٤٠.

ويركز هذا القسم من الدراسة على السيطرة الاحتكارية الاستعمارية للبرتغاليين والدور الذى قام به اليعاربة فى عمان فى القضاء على النفوذ البرتغالى فى الخليج وتتبعهم فى مستعمراتهم فى شرق إفريقيا وما ترتب على انهيار النفوذ البرتغالى من إفساح المجال للهجرات العربية الكبرى التى اندفعت من أواسط الجزيرة العربية إلى سواحلها وما نجم عنها من تكوين الوحدات السياسية الحديثة ومدى ما وصلت إليه تلك الوحدات من قوة بحرية وازدهار اقتصادى إلى أن اصطدمت بالاستعمار البريطانى الذى عمد إلى إضعافها وتفكيكها والقضاء على قوتها البحرية تمهيدا للسيطرة عليها.

المجلد الثانى: ويعالج تطور النفوذ البريطانى فى إمارات الخليج العربية والمنافسات التى تعرضت لها بريطانيا من قبل القوى الإقليمية والدولية وذلك خلال الفترة من بداية تدعيم النفوذ البريطانى حتى نشوب الحرب العالمية الأولى ١٨٤٠-١٩١٤.

وقد واجهت بريطانيا خلال هذه المرحلة تحديات من قوى ثلاث هى على النحو التالى:

القوى المحلية : وقد استطاعت تدريجيا ربطها بسلسلة من الاتفاقيات والمعاهدات غير المتكافئة التى نجحت بواسطتها فى السيطرة عليها.

القوى الإقليمية : وتمثلت فى الدولة العثمانية والدولة السعودية وفارس وكانت هذه الدول تمثل تحديات كبيرة لبريطانيا باعتبارها دولا نابعة أساسا من المنطقة.

القوى الدولية : ونعنى بها فرنسا وروسيا القيصرية وألمانيا، وكانت تلك الدول تشكل قوى منافسة لبريطانيا من حيث منازعتها النفوذ فى المنطقة، وقد استطاعت بريطانيا بوسائلها الدبلوماسية أن تتخلص من منافسة فرنسا وروسيا كما ساعدتها هزيمة ألمانيا والدولة العثمانية فى الحرب العالمية الأولى لكى تنفرد بالنفوذ فى الخليج؛ لكى يصبح بمثابة بحيرة مغلقة على النفوذ البريطانى وحده، كما أصبح المقيم البريطانى بمثابة ملك غير متوج على الخليج.

المجلد الثالث: ويتناول الأوضاع الداخلية فى إمارات الخليج العربية وعلاقات الجوار خلال الحربين العالميتين وما بينهما ١٩١٤ - ١٩٤٥. حيث يعرض بصفة خاصة إلى المؤثرات السياسية للحربين العالميتين على الإمارات العربية فى الخليج وعلاقات تلك الإمارات بالقوى المجاورة لها : المملكة العربية السعودية والعراق وإيران.

المجلد الرابع: ويعرض لتطور الأوضاع السياسية والاقتصادية فى أمارات الخليج العربية ووصولها إلى الاستقلال وذلك منذ نهاية الحرب العالمية الثانية حتى تنفيذ بريطانيا لسياستها الخاصة بالانسحاب فى عام ١٩٧١.

ويركز هذا القسم على العوامل التى دفعت بريطانيا إلى الانسحاب وما ترتب على إنهاء الوجود البريطانى من استقلال قطر والبحرين وتكوين دولة الإمارات العربية المتحدة إلى جانب توحيد سلطنة عمان. ومن الملاحظ أن الكويت سبقت إمارات الخليج المجاورة لها فى إحراز استقلالها إذ كانت أسرع فى التطور السياسى والاقتصادى وذلك على الرغم من المشكلات التى كان يثيرها العراق سواء بانتهاك حدودها أو الطمع فى وجودها.

المجلد الخامس: ويتناول دول الخليج العربية فى مرحلة ما بعد الاستقلال من الانسحاب البريطانى إلى غزو وتحرير الكويت ١٩٧١ - ١٩٩١.

ويركز هذا القسم من الدراسة على مشكلات الأمن فى الخليج فى أعقاب الانسحاب

الانسحاب والتصدى للقوى الأخرى التى كانت تتأهب لملء ذلك الفراغ. كما تسجل السنوات الأولى من هذا الجزء من الدراسة نجاح دول الخليج العربية فى أعقاب حرب أكتوبر ١٩٧٣ فى السيطرة على مواردها والتحكم فى تسعير نفطها، وما نجم عن خطط التنمية والتحديث من إحداث طفرة عنيفة فى مجتمعاتها بما صاحب ذلك من مشكلات اقتصادية واجتماعية لا يستهان بها. وتمضى السنوات التالية لترصد الأحداث الضخمة التى أثرت على دول الخليج العربية عقب نشوب الثورة الإيرانية الإسلامية فى عام ١٩٧٩ وما تبعها من الحرب العراقية الإيرانية ١٩٨٠ ـ ١٩٨٨. وأخيرا تحلل الدراسة العوامل التى دفعت النظام العراقى إلى غزو الكويت وما ترتب على أزمة الخليج من نتائج سياسية واقتصادية بعيدة المدى.

وعلى الرغم مما أدت إليه حرب الخليج الثانية من تحجيم القوة السياسية والعسكرية للعراق إلا أنها أدت إلى إثارة مشكلة الأمن من جديد. وإذا كانت معظم دول الخليج العربية قد سارعت إلى عقد معاهدات دفاعية بينها وبين الولايات المتحدة الأمريكية وغيرها من دول الغرب باعتبار ذلك ضرورة حتمتها المرحلة التى أعقبت العدوان العراقى على الكويت إلا أن هذا الأسلوب لن يكون ـ فى تقديرا ـ ضمانا لأمن المنطقة على المدى البعيد مما يتعين على تلك الدول البحث عن صيغة أخرى لصيانة أمنهاواستقرارها والحفاظ على ثرواتها نتيجة لما قد يطرأ على المنطقة من تغيرات مستقبلية، إقليمية أو دولية.

بقى أن نشير إلى أن هذه الدراسة بأقسامها الخمس تعد أول دراسة عربية شاملة لمنطقة الخليج العربى على امتداد هذه الحقبة الزمنية الطويلة من تاريخها الحديث والمعاصر. ومن نافلة القول أنها حصيلة جهود علمية شاقة على امتداد أكثر من أربعين عاما بدأت منذ منتصف الخمسينيات. وقد رأينا تجميعها على هذا الشكل الذى عرضناه على أمل أن ينتفع بها الباحثون سواء فى الحاضر أو فى المستقبل.

ولا يسعنى فى هذه المناسبة إلا أن أوجه خالص الشكر والتقدير إلى دار الفكر العربى التى تجاوبت معى فى تنفيذ هذا المشروع العلمى، وذلك بإعادة إخراجه على تلك الصورة الماثلة أمام القارئ.

والله والوطن من وراء القصد.

دكتور

جمال زكريا قاسم

مصر الجديدة

٢٠ يولية ١٩٩٦



فهرس الموضوعات

مقدمة

تتميز الفترة الزمنية التى يعالجها هذا الكتاب بثرائها فى مصادرها وأحداثها التاريخية، ولعل أول أحداث تلك الفترة الغزو البرتغالى الذى تعرضت له منطقة الخليج العربى،ومن ثم كان تحديدنا لوصول البرتغاليين إلى سواحل الخليج العربى فى عام ١٥٠٧ نقطة إنطلاق لهذه الدراسة. ومما لاشك فيه أن نجاح البرتغاليين فى اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح والوصول إلى سواحل الهند الغربية؛ ثم اتجاههم إلى احتكار تجارة الشرق بالسيطرة على المنافذ البحرية التى كانت تعبر منها فى البحر الأحمر والخليج العربى فى طريقها إلى أوربا، عبر موانى البحر المتوسط، يشكل نهاية عصر قديم وبداية عصر جديد يختلف اختلافا كبيرا عن العصر الذى سبقه، ذلك أن منطقة الخليج العربى التى كانت تعيش عصرا ذهبيا فى الملاحة والتجارة خلال الفترة التى سبقت مجىء البرتغاليين إلى بحار الشرق لم تلبث أن فقدت أهميتها التجارية بتحول التجارة إلى الطريق البحرى المباشر حول إفريقيا إلى موانى الأطلنطى فى غرب أوروبا، وانتقلت منطقة الخليج العربى إلى مرحلة من التدهور والانكماش منذ بداية العصور الحديثة، بل إن أوضاع الخليج المتدهورة فى تلك المرحلة لم تلبث أن أحدثت تأثيرها على بقية أجزاء العالم العربى، وبصفة خاصة على الأقطار العربية التى كانت تمر من خلالها تجارة الشرق عبر بحارها وموانئها وتستفيد من وراء ذلك فائدة كبيرة.

ومن ناحية أخرى فقد أتى الغزو البرتغالى لمنطقة الخليج العربى بمرحلة جديدة فى تاريخ الشرق العربى وهى المرحلة التى يمكن أن نطلق عليها مرحلة التوسع الأوربى الأول التى تمتد من وصول البرتغاليين إلى بحار الشرق فى أواخر القرن الخامس عشر حتى استطاعت بريطانيا تدعيم نفوذها فى تلك البحار منذ

السنوات الأولى من القرن التاسع عشر، إذ إن المجال لـم يترك للبرتغاليين وحدهم فى تجارة الشرق وإنما نافس البرتغاليين العديد من الـقوى الأوربية وعلى الأخص هولندا وفرنسا وإنجلترا التى حـرصت كل واحدة منها عـلى الحصول على مـراكز تجارية لهـا على طول الطرق البحرية الموصلة إلى مناطق نفـوذها فى الهند أو جزر الهند الشرقيـة. ولاتكمن أهمية هذه المرحلة فى تنافس القوى الأوروبية فيـما بينها فحسب وإنما فى جـهود القوى الاسلاميـة والعربية للتخلص من نفوذ البـرتغاليين واحتكارهم التجارى أيضا. وقد بدأ الأتراك العثمانيون الذين تصدوا لزعامة العالم الإسلامى منذ السنوات الأولى من القرن الســادس عشر صراعهم ضد البـرتغاليين على غرار مافعله المماليك قبيل زوال دولتهم. ولكن الصراع العثمانى البرتغالى لم يكن صراعا متكافئا من حـيث موازين القوى البحرية والعسكرية [١]، ولاغرو فى ذلك فقد أثبتت منطقة الخليج العربى بحكم طبيعتها البحرية وفى مختلف عصورها التاريخـية على أن القـوة البحـرية هى القوة الوحـيدة القادرة على الســيطرة على ضفـافهـا ومما يؤكد ذلك أنه على أثر أنتـهاء العـصر الذهبى للمـلاحة والتـجارة الإسلامية فى الخليج العربى، والمحـيط الهندى تمكنت القوى الأوروبية التى تميزت بتفـوقها فى المجال البـحرى كالبـرتغاليين والهولنديين والإنجليـز من السيطرة على مقـدرات المنطقة ولم تجد مـقاومة إلا من القـوى البحرية التى ظهـرت فى منطقة الخليج العربى واستطاعت أن تنازعها البقاء فيـها كما حدث فى صراع اليعاربة ضد البرتغاليين أو محاولات القواسم وغيرهم من القوى المحلية الأخرى التصدى للقوة البحرية الإنجليـزية خلال النصف الأول من القرن التاسع عشـر الميلادى على نحو ماسوف نتعرض له فيما بعد. على أنه يهمنا الإشارة فى هذا المجال إلى أنه إذا كان التفوق البـرتغالى أمرا لا مفر منه فى محـصلة الصراع العثمانى البرتغـالى فى مياه الخليج نتيـجة للأسبـاب التى أشرنا إليهـا فإنه يمكننا أن نضـيف إلى جانب ذلك عـوامل أخرى أدت إلى إحـراز البرتغـاليين لـذلك التفـوق. ولعل من أهم تلك العوامل الصراع المـذهبى بين القوتين الإسلاميـتين الكبيرتين ونعنى بهـما الدولتين

(١) صالح أو زبران: البرتغاليون والأتراك العثمانيون فى الخليج العربى، ترجمة الدكتور عبدالجبار ناجى - من منشورات مركز دراسات الخليج العربى - جامعة البصرة ١٩٧٩، ص٨.

الصفوية والعثمانية. ومما يسترعى الانتباه أكثر مما يبعث على الدهشة ماسوف نلحظه فى بعض مراحل ذلك الصراع من تحالف بعض شاهات الدولة الصفوية مع البرتغاليين أو مهادنة العثمانيين للبرتغاليين![(١)] . أما على صعيد القوى الإسلامية المحلية فقد فشل الأتراك العثمانيون فى تكوين تكتل إسلامى، وربما يرجع السبب فى ذلك إلى الأساليب التعسفية الشاذة التى صدرت عن بعض القباطنة العثمانيين الأمر الذى أدى إلى شيوع أجواء من عدم الثقة بينهم وبين الأمراء المحليين.

وعلى الرغم من أن الدولة الصفوية قد اعتمدت على مؤازرة الإنجليز لها فى التخلص من النفوذ البرتغالى كما ظهر ذلك واضحا على عهد الشاه عباس الكبير، الذى استطاع بفضل مؤازرة الإنجليز له أن يسقط قلعة البرتغاليين الحصينة فى هرمز فى عام ١٦٢٢ إلا أنه قد ترتب على تلك المؤازرة أن استبدلت فارس النفوذ الإنجليزى بالنفوذ البرتغالى[(٢)].

وعلى عكس فارس اعتمدت القوى العربية فى الخليج العربى بزعامة اليعاربة فى عمان فى تحرير شواطئها من النفوذ البرتغالى على جهودها الذاتية، وتمكنت تلك القوى بفضل اتحادها من أن تحقق انتصارات كبيرة ضد البرتغاليين فى الخليج العربى. ولم تكتف بذلك فحسب وإنما تتبعت البرتغاليين فى معاقلهم الرئيسية فى سواحل الهند وشرق أفريقيا. ولعل من الصفحات المشرقة فى هذا الصراع ذلك التحدى الصلب الذى واجهت به القوى العربية البرتغاليين، ونجاح اليعاربة فى عمان أن ينتزعوا من البرتغاليين اعترافا بكسر الاحتكار التجارى والاعتراف بحرية الملاحة فى الخليج العربى والمحيط الهندى لجميع الأجناس، وبذلك كان عرب الخليج من أوائل الشعوب التى تنبهت إلى أهمية ذلك المبدأ الذى أصبحت تقره المواثيق والأنظمة الدولية فى عصرنا الحاضر[(٣)]. على أن مايثير الانتباه ذلك التفوق الكبير الذى أحرزته القوى العربية المحلية على أعتى الإمبراطوريات البحرية فى مطلع العصور الحديثة، وهذا التفوق يحتاج إلى تشخيص العوامل التى مكنت تلك

---

(١) صالح أوزبران: مرجع سبق ذكره ص٣٣.

(٢) Sykes, P., History of Persia vol. II P. 190.

(٣) Kassem, G. Z., Omani - Portuguese Conflict in the 17th Century, cf. Bulletin of Arab Reserch and Studies Institute - Cairo 1980.

القوى العربية التى مهما قيست بموازين القوى البحرية فى عصرها فهى لاتعدو أن تكون قوى محلية صغيرة ولكنها استطاعت، وهذا هو الجديد فى الأمر، أن تصل إلى مجال الصدارة البحرية بفضل نجاحها فى استغلال الطاقات البحرية الكامنة فى أبنائها، كما استطاعت بفضل اتحادها مع غيرها من القوى المجاورة لها أن تزيح عن كاهلها المعاناة التى تعرضت لها من جراء تعسف السيطرة البرتغالية، وساعدها على ذلك الظروف السياسية الحرجة التى كانت تمر بها الإمبراطورية البرتغالية والتى أدت فى نهاية الأمر إلى أفولها ثم انهيارها. وترتبط تلك الظروف السياسية بالعوامل الخارجية، وكذلك بالعوامل الذاتية التى أثرت على قوة الإمبراطورية البرتغالية. وتتمثل العوامل الخارجية التى أثرت على قوة البرتغاليين فى الشرق فى تلك المنافسات الاستعمارية الشديدة التى تعرضوا لها من قبل الهولنديين والإنجليز، أما العوامل الذاتية فترتبط ارتباطا كبيرا بسوء السياسة التى انتهجها البرتغاليون فى بحار الشرق، وما اتسمت به من تعسف واحتكار وسوء معاملة الأهالى. والأهم من ذلك عدم مقدرة البرتغال، وهى دولة محدودة المساحة قليلة السكان، فى السيطرة على إمبراطورية ساحلية ضخمة امتدت عشرات الآلاف من الأميال من لشبونة إلى كاليكوت، هذا بالإضافة إلى فقدان البرتغال استقلالها السياسى بخضوعها للتاج الأسبانى على عهد الملك فيليب الثانى واستمرارها تحت التبعية الأسبانية قرابة ستين عاما ١٥٨٠ - ١٦٤٠[1].

ويمكننا بشىء من التجاوز تحديد نهاية القرن السابع عشر أو السنوات الأولى من القرن الثامن عشر باعتبارها تشكل المرحلة النهائية من مراحل أفول الإمبراطورية البرتغالية فى الشرق. ولعل أهمية تلك المرحلة تكمن فى التطورات البالغة الأهمية التى وصلت إليها منطقة الخليج العربى والتى كان من أبرز خصائصها انفساح المجال أمام القوى العربية كى تؤكد لنفسها السيادة فى الخليج العربى، إذ إن أهم مايسترعى انتباه الدارس لتاريخ الخليج العربى فى النصف الأول من القرن الثامن عشر عودة موجات المد العربى إلى استئناف نشاطها من داخل الجزيرة العربية إلى سواحل الخليج، وذلك بعد فترة انكماش وركود استمرت أكثر

(١) Pearce, Zanzibar, The Island Metropolis of Eastern Africa P. 87.

وعن ازدهار وانهيار الإمبراطورية البرتغالية يمكن الرجوع إلى :

Boxer, C.R., Four Centuries of Portuguese Expansion, London 1961.

من قرنين من الزمان. ولم يقتصر الأمر فى تلك الفترة التى نتحدث عنها، وهى الفترة التى أعقبت انهيار النفوذ البرتغالى فى الخليج على مجرد هجرات تقليدية؛ وإنما اتخذت تلك الهجرات اتجاها جديدا يتناسب وشعور عرب الخليج بقوتهم الفعلية وسيادتهم البحرية مما دفع بهم إلى تكوين تشكيلات سياسية أخذت طريقها إلى النمو حتى اصطدمت بالاستعمار البريطانى خلال القرن التاسع عشر.

ولعل من أبرز التشكيلات السياسية تلك التشكيلات التى نجمت عن هجرات العتوب من أواسط نجد إلى سواحل الخليج العربى. ففى السنوات الأولى من القرن الثامن عشر استقرت فى الكويت تجمعات العتوب من آل الصباح وآل خليفة والجلاهمة ثم امتدت هذه التجمعات أو فروع منها بعد ذلك إلى كل من قطر والبحرين، أما فى منطقة الساحل الجنوبى للخليج العربى فقد ظهرت حول منتصف القرن الثامن عشر قوة بحرية كبيرة بزعامة القواسم الذين برزوا إلى القوة فى أعقاب انهيار دولة اليعاربة فى عمان، واستفادوا من انهيار القوة البحرية الفارسية وانشغال فارس فى صراعاتها الداخلية فى السنوات التى أعقبت اغتيال نادر شاه فى عام ١٧٤٧ فى تدعيم كيانهم[١]. وقد اتخذ القواسم من رأس الخيمة مركزا لهم يديرون منه عملياتهم البحرية ضد أساطيل الدول الأوروبية ولم تقتصر سيطرتهم على القسم الشمالى من الساحل الجنوبى للخليج العربى وإنما امتد نفوذهم إلى كثير من البنادر والجزر والموانى الواقعة على الساحل الشرقى للخليج. وإلى جانب قوة القواسم البحرية ظهرت فى ذلك الوقت أيضا قوة برية تألفت من مجموعة من القبائل بزعامة بنى ياس اتخذت من واحة ليوا فى منطقة الظفرة مركزا لها، ثم لم تلبث أن امتدت إلى جزيرة أبو ظبى والمناطق المجاورة لها لتسهم بدورها فى إبراز إحدى التشكيلات السياسية الهامة التى ظهرت فى منطقة الخليج العربى فى بداية النصف الثانى من القرن الثامن عشر[٢].

---

(١) جمال زكريا قاسم: الخليج العربى، دراسة لتاريخ الإمارات العربية - ١٨٤٠ - ١٩١٤ انظر تقديم الأستاذ الدكتور أحمد عزت عبدالكريم - القاهرة - جامعة عين شمس ١٩٦٧.

(٢) راجع الدراستين الخاصتين بالقواسم وبنى ياس فى مختارات حكومة بومباى.

Bombay Government, Selections from the Records of Bombay Government Vol. XXIV- Bombay 1856 cf. Historical Sketch of the Joasmee P. 299 ff and Beniyas Tribes of Arabs P. 461 ff.

وحـول هذه الفتـرة التى نتحـدث عنهـا، وهى الفتـرة التى أعقـبت انهيار الإمبراطورية البـرتغالية فى الشرق، انتقـلت السلطة السياسية فى عـمان من أسرة اليعاربة إلى أسرة البوسعـيد ١٧٤١ واستطاعت الأسرة الجديدة، التى لاتزال تحكم فى سلطنة عمـان حتى وقتنا الحاضـر، أن تصل إلى أقصى تفوقـها وازدهارها فى النصف الأول من القرن التـاسع عشر حين كونت لهـا إمبراطورية ضخمـة امتدت على طول سواحل شرق إفريقيا من رأس جردفون شمالا حتى خليج دلجادو شمال موزمبيق جنوبا، كما امتد نفوذها الاقـتصادى فى دواخل القارة الأفريقية حتى بلغ منطقة البحيرات الاستوائية وأعالى الكونغو[1].

ولعل مما تجدر الإشـارة إليه أنه عاصر ظهور تـلك التشكيلات السيـاسية فى الخليج العربى فى القرن الثامن عشر فترة هامة من فترات التنافس الاستعمارى بين إنجلترا وهولندا وفرنسا، والأمر الذى لاشك فيه أن انشغال تلك القوى الاستعمارية بشئون تلك المنافسـات والمنازعات فيما بينهـا هو الذى أتاح المجال لتلك الوحدات السيـاسيـة التى أشرنا إليـها أن تصل إلى تحـقيق درجـة من النمو والسـيادة على شواطئها، ولكن ما كادت بريطانيا تتخلص من المنافسات الاستعمارية التى واجهتها حتى أخذت تتصدى لتلك التنظيمات، واسـتطاعت بفضل صداقتها لسلطان مسقط وتحييدها للسعـوديين، أو تخلصها من نفوذهم على أثر سقوط عاصـمتهم الدرعية على يد إبراهيم باشـا فى عام ١٨١٨ أن تركز عـملياتها البـحرية ضـد القواسم، الذين أظهـروا مقاومـة باسلة أجبـرت بريطانيا على إرسـال العديد من الحـملات البحرية إلى سواحلهم. وكان مما ساعد القواسم على التصدى للحملات البريطانية المتعاقبة الطبيعة الجغرافية التى يتميز بها السـاحل الجنوبى للخليج، وصعوبة الملاحة فى مياهه بسبب وجـود الألسـنة الرملية والشعاب المرجانية والجزر المغـمورة؛ فضلا عن وجود الأخوار والخلجان الضيقة التى استخدمـها القواسم بمثابة ملاجئ طبيعية لسفنهم، ولعل ذلك هو الذى سيدفع بريطانيا بعد توقيعها لمعاهدة السلام العامة مع

---

(١) جمال زكريا قاسم: الأصول التـاريخية للعلاقات العربية الأفريقية، معهـد البحوث والدراسات العربية - القاهرة ١٩٧٥، ص ص ٢٠٥ - ٢٠٦.

القبائل العربية فى الساحل الجنوبى للخليج العربى فى عام ١٨٢٠ إلى إجراء عمليات المسح البحرى التى أسهمت فيها البحرية الهندية بالدور الكبير.

ومما تجدر الإشارة إليه أن معاهدة السلام العامة هى التى وضعت أسس التجزئة فى منطقة الساحل الجنوبى للخليج؛ إذ تبع توقيع تلك المعاهدة إخضاع الساحل للمراقبة البحرية البريطانية، كما تم لبريطانيا فرض سلسلة من اتفاقيات الهدنة البحرية التى وقعها شيوخ الساحل والتى على أثرها أصبح الساحل الجنوبى للخليج العربى يعرف بساحل الهدنة أو الساحل المتصالح أو الساحل المهادن Trucial Coast وذلك بعد أن كان يطلق عليه فى الخرائط والمصورات الجغرافية التى وضعت فى القرنين السابع عشر والثامن عشر بساحل القرصان Pirate Coast [(1)].

ومما يستلفت النظر ما كتبه المؤرخون الأوروبيون عن تاريخ الخليج العربى منذ بداية القرن السادس عشر حتى السنوات الأولى من القرن التاسع عشر بأنه كان قصة متصلة الفصول للصراع الأوروبى، متجاهلين الدور المهم والأساسى لسكان المنطقة فلخصوا تاريخ الخليج الحديث بمجىء البرتغاليين إليه وفرض سيادتهم على المنطقة ثم مجىء الهولنديين والإنجليز ونجاحهم فى التخلص من البرتغاليين ثم انفراد الإنجليز بالنفوذ فى الخليج منذ أواخر القرن الثامن عشر. على أن الواقع التاريخى لايتفق مع هذا الوصف إذ إن تصفية الوجود البرتغالى فى الخليج لم تتم على يد الإنجليز والهولنديين بل تمت على يد فريق من عرب الخليج، وتصفية الوجود الهولندى لم تأت نتيجة لتفوق الإنجليز بل أتت نتيجة لجهود فريق آخر من عرب الخليج[(٢)]، وقد يكون حقيقة أن الإنجليز قد نجحوا فى بسط نفوذهم وسيادتهم ولكن ذلك لم يتم إلا بعد معاناة شديدة استغرقت سنوات عديدة من القرن التاسع عشر.

ولم تكن القوى المحلية هى القوى الوحيدة التى كان على بريطانيا أن

---

(١) Great Britain F.O. No. 67 The Persian Gulf P. 44 London 1920 see also Sanger, Richard, The Arabian Peninsula, Cornell University Press 1954. P. 72.

(٢) عبدالأمير أمين : مقاومة إمارات شرق الجزيرة العربية وقبائل الخليج العربى للتغلغل الاستعمارى الأوروبى ١٥٠٠ - ١٨٢٠ من أعمال ندوة التجارب الوحدوية العربية المعاصرة - تجربة دولة الإمارات العربية المتحدة - مركز دراسات الوحدة العربية بيروت ١٩٨١. ص ص ٥٣ - ٥٤.

تواجهها بل كان عليها أن تواجه إلى جانب ذلك القوى الإقليمية الممثلة فى السعوديين وفارس، وكذلك القوات المصرية حين توغلت فى دواخل الجزيرة العربية ووصلت إلى سواحلها الشرقية على عهد محمد على باشا، وقد استطاعت بريطانيا التخلص من هذه القوى بإنسحاب القوات المصرية من نجد وسواحل الخليج العربى خلال الأزمة المصرية التركية ١٨٤٠/١٨٤١، وتعهد الدولة السعودية الثانية على عهد الإمام فيصل بن تركى ١٨٤٢/١٨٦٥ بعدم التوسع على حساب الإمارات العربية المرتبطة بمعاهدات خاصة مع بريطانيا، أما النزاع بين بريطانيا وفارس فقد اقتصر على المجادلات النظرية بشأن الادعاءات الفارسية على البحرين وغيرها من إمارات الخليج، واستطاعت بريطانيا فى ظل تلك الأوضاع التى تحركت لصالحها أن تدعم نفوذها فى الخليج العربى فى إطار ما أسمته بالسلام البريطانى Pax Britannica.

وقد حرصنا فى تتبعنا لأحداث الخليج العربى خلال الفترة موضوع الدراسة على إبراز صراع القوى الخارجية وتأثيرها على الأوضاع المحلية، بالإضافة إلى علاقات القوى المحلية بعضها بالبعض الآخر وعلاقتها بالقوى المجاورة لها وذلك فى ضوء السياسة البريطانية التى أصبحت منذ بداية القرن التاسع عشر هى المحور الذى تدور حوله أحداث الخليج العربى.

وعلى الرغم من اشتراك كثير من الدوائر البريطانية فى سياسة وإدارة شئون الخليج العربى خلال فترة السيطرة البريطانية إلا أن الفترة الزمنية التى نعالجها فى هذه الدراسة قد اقتصرت على شركة الهند الشرقية البريطانية التى بدأت علاقتها بمنطقة الخليج منذ عام ١٦١٦[1]، ولما كانت هذه العلاقة لم تقتصر على النواحى التجارية وإنما تعدتها إلى المجالات السياسية فإن التساؤل الذى يثار هو كيف أمكن لمؤسسة تجارية أن تبنى علاقة سياسية بالخليج العربى؟. ولعل التطور الذى حدث فى صلاحيات تلك الشركة هو الذى يعطى إجابة لذلك التساؤل إذ إن الشركة على الرغم من نشأتها كمؤسسة تجارية بحتة إلا أنها لم تلبث أن تطورت وأخذت

(١) من أفضل المصادر التى وضعت عن شركة الهند الشرقية البريطانية تلك التي وضعها جيمس بروس James Bruce بعنوان:
Annals of the Honourable East India Company, London 1810.

تكتسب طابعا سياسيا بعيد المدى. وكان أبرز معالم ذلك التطور حين ظهر فى بريطانيا اتجاه منافس ضد شركة الهند وتمكنت مجموعة من رجال الأعمال الإنجليز أن تصدر مرسوما برلمانيا فى عام ١٦٩٨ يقضى بتأسيس شركة لهم تحت اسم الجمعية العامة للتجارة مع الهند الشرقية، ودخلت هذه المجموعة فى صراع مع شركة الهند وهذا الصراع أدى مؤقتا إلى فقدان الشركة لمركزها فى الهند والخليج العربى. على أنه فى عام ١٧٠٨ اتحدت المؤسستان باسم اتحاد إنجلترا للتجارة مع الهند الشرقية ومنذ ذلك الوقت بدأت الشركة تكتسب طابعا قوميا حتى أنها حصلت من الملك على مرسوم بتعيين سفير لها لدى بلاط إمبراطور المغول، كما خول لرئيس مجلس إدارة الشركة صلاحيات قنصلية ومنح رتب مدنية. وفى عام ١٧٨٤ أصدر البرلمان البريطانى قانونا تشكلت بمقتضاه هيئة إدارية للإشراف السياسى والعسكرى والمالى على الممتلكات البريطانية فى الهند نيابة عن الحكومة البريطانية، وبعد ذلك التاريخ انتقل التوجيه السياسى من الشركة إلى الحاكم العام فى الهند وإلى مجلس الوزراء فى لندن، وكان ذلك تمهيدا لانتقال الإدارة من الشركة إلى الدولة، وهو الأمر الذى تحقق بعد ثورة الهند عام ١٨٥٧ حيث تغير لقب الحاكم العام إلى نائب الملك فى الهند Viceroy.

ويبدأ الدور التجارى فى علاقة شركة الهند البريطانية بمنطقة الخليج حين تمكنت الشركة فى عام ١٦١٦ أن تؤسس لها وكالة تجارية فى ميناء جاسك على الساحل الشرقى للخليج، وكان ذلك بفضل الصداقة التى ربطت بين الشركة وبين الشاه عباس الكبير ١٥٨٧/١٦٢٩. ومن المعروف أن التقارب الإنجليزى الفارسى كان موجها أساسا ضد البرتغاليين الذين كانوا يسيطرون على كثير من موانئ الخليج العربى، وقد حصلت الشركة على ميناء جاسك على أثر الفرمان الذى أصدره الشاه عباس فى أكتوبر ١٦١٥ والذى كان ينص على أنه يجوز للشركة أن تقيم مستودعات فى فارس وأن تعين وكلاء لها، ومن ثم وقع اختيار البعثة الإنجليزية التى أوفدت من قبل شركة الهند الشرقية البريطانية إلى البلاط الفارسى على ذلك الميناء الذى استمر يعمل فى خدمة التجارة الإنجليزية حتى عام ١٦٢٤ حين انتقل الإنجليز منه إلى ميناء جمبرون (بندر عباس)، وكان هذا المستودع الجديد

جزءا من عطاء الشاه عباس لشركة الهند حين ظاهرته على البرتغاليين فى هرمز فى عام ١٦٢٢[١].

ومما يستلفت النظر أنه حتى منتصف القرن الثامن عشر لم توجه شركة الهند الشرقية اهتماما كافيا إلى منطقة الخليج العربى وذلك باستثناء بعض المعاملات التجارية ولعل ذلك يرجع إلى أن جهودها كانت موجهة لإحراز مراكز لها فى شبه القارة الهندية حتى تحقق لها ذلك بالفعل فى معركة بلاسية عام ١٧٥٧[٢]. وعموما، فقد مرت علاقة شركة الهند الشرقية البريطانية بالخليج العربى بعدة مراحل تميزت المراحل الأولى منها باتجاه الشركة إلى الإتجار مع فارس ثم إلى ممارسة التجارة دون دفع رسوم جمركية بل والمشاركة فى الرسوم التى تأتى من التجار الآخرين نتيجة الامتيازات التى حصلت عليها الشركة من فارس. أما المراحل الأخيرة فقد نجحت الشركة بفضل إنشائها لوكالة بوشهر فى عام ١٧٧٦ أن تدخل فى النسيج السياسى للخليج، ولعل ذلك مما يدفع بنا إلى القول إلى أنه إذا كانت جاسك هى بداية الشركة فى الخليج، وجمبرون والبصرة، من مراكز المراقبة على أبواب الهند، فإن بوشهر غدت نواة النفوذ البريطانى الذى امتدت أطرافه إلى الخليج العربى[٣].

وقد استمرت علاقة شركة الهند الشرقية البريطانية بالخليج حتى نهاية القرن الثامن عشر يغلب عليها الطابع التجارى أكثر من الطابع السياسى، كما أن المراكز البريطانية التى تأسست فى الخليج حتى ذلك الوقت كانت مراكز تجارية أكثر من كونها مراكز سياسية على الرغم من تجهيزها بقوات عسكرية لتمكينها من الصمود أمام المنافسات التجارية الأوروبية التى كانت تتعرض لها، والتى كانت تأخذ شكلا عسكريا فى كثير من الأحيان. كما يلاحظ أيضا أن اهتمام شركة الهند الشرقية لم تكن وجهته فى تلك الفترة الساحل الغربى من الخليج بل كانت وجهته الساحل

(١) Sykes, Sir Percy, A History of Persia Vol. II London 1951, P. 190.

(٢) Grover, B.L. and R.R Sethi, Studies in Modern Indian History Delhi 1963, P. 41.

(٣) عبدالعزيز عبدالغنى: حكومة الهند البريطانية والإدارة فى الخليج العربى، دراسة وثائقية، الرياض ١٩٨١، ص ص ٩٢ ـ ٩٣.

الشرقى حيث فارس، كذلك كان يمتد نظر الشركة إلى العراق العثمانى وذلك باستثناء بعض الفترات التى ظهر فيها اهتمام الشركة بالساحل العربى للخليج. ولعل أهم تلك الفترات تلك الفترة الواقعة بين عامى ١٧٧٦ و ١٧٧٩ حين تحول بريد الشركة الصحراوى إلى الكويت خلال احتلال الفرس لميناء البصرة أو حينما انتقلت الوكالة التجارية التابعة لشركة الهند الشرقية من البصرة إلى الكويت فى عام ١٧٩٣ بسبب بعض الخلافات التى نشبت بين موظفى الوكالة والسلطات العثمانية فى البصرة وإن كان ذلك لم يدم إلا لفترة قصيرة لم تلبث بعدها أن عادت الوكالة التجارية إلى مركزها السابق فى البصرة(١).

على أنه منذ نهاية القرن الثامن عشر استجدت بعض العوامل التى دفعت شركة الهند الشرقية البريطانية إلى أن تتحول بعلاقاتها بالخليج من علاقات تجارية إلى علاقات سياسية واستراتيجية وحدث ذلك بعد أن تمكنت الشركة من أن تبسط سيطرتها على أقاليم واسعة فى الهند وبدأ يتغير وضعها من مجرد مؤسسة تجارية إلى سلطة سياسية. وبظهور الإمبراطورية البريطانية فى الهند إلى الوجود أصبح من المحتم أن تكتسب منطقة الخليج العربى أهميتها السياسية والإستراتيجية بالنسبة لتلك الإمبراطورية بسبب قرب موقع المنطقة من خطوط المواصلات البريطانية إلى الهند. وتمثل السنوات العشر التى أعقبت حرب السنوات السبع فترة متميزة فى تاريخ شركة الهند الشرقية البريطانية فى الخليج العربى إذ أخذت الشركة تمارس نشاطا عسكريا وسياسيا لم تكن قد مارسته طيلة تاريخها الطويل. وكان الوضع السياسى العام فى أوروبا ووضع الشركة الخاص فى الهند ملائمين لقيام الشركة بدور فعال فى الخليج فقد انتهت حرب السنوات السبع وحقق صلح باريس الذى جاء فى أعقابها مكاسب للإنجليز فى أمريكا والشرق، فقد طرد الفرنسيون من كندا وقضى على نفوذهم فى الهند وأحكمت الشركة سيطرتها على البنغال - أغنى الأقاليم الهندية على الإطلاق - وصارت الشركة فى وضع يمكنها من ممارسة أعظم

---

(١) Brydges (Sir Harford Jones), An Account of Transaction of His Majesty's Mission to the Court of Persia in the years 1807- 1811 to which is appended a brief History of the Wahabees Vol. II, London 1834.

لشئونها فى الخليج، ومن ثم تميزت الشركة بعد عام ١٧٦٣ بتكريس جزء كبير من جهودها الدبلوماسية والعسكرية فى الخليج. وجاء القرن التاسع عشر بتطورات جديدة ومهمة بالنسبة إلى الخليج العربى فإن حروب الثورة الفرنسية ونابليون بونابرت وغزوه لمصر وتهديده خطوط المواصلات الإمبراطورية البريطانية فى الشرق أظهر لبريطانيا بوضوح الأهمية الإستراتيجية للمنطقة، ومن ثم أخذت تكرس جهودها العسكرية والسياسية لتعزيز نفوذها وبسط سيادتها عليها. والأمر الذى لاشك فيه أن محاولة بونابرت اتخاذ مصر قاعدة للوثوب إلى الهند كان لها أثر كبير فى الجهود التى بذلتها بريطانيا لتأمين مصالحها الإستراتيجية فى السواحل الشرقية للجزيرة العربية والوقوف بصلابة فى وجه أية محاولة تبذل فى سبيل زعزعة المركز البريطانى فى الهند. ولذلك يمكننا أن نعتبر المعاهدة التى وقعت بين شركة الهند الشرقية البريطانية وسلطان بن أحمد سلطان مسقط فى عام ١٧٩٨ أول ملامح تغير العلاقات البريطانية مع منطقة الخليج. ونعنى بذلك التحول من الناحية التجارية إلى الناحية السياسية(١). وقد استمر الاهتمام البريطانى السياسى والعسكرى يتزايد بمنطقة الخليج العربى بعد زوال التهديدات الفرنسية للإنجليز وذلك بنجاحهم فى إجلاء الحملة الفرنسية من مصر فى عام ١٨٠١، ثم بإسقاطهم للمستعمرة الفرنسية فى جزيرة موريس فى عام ١٨١٠. ولم يأت منتصف القرن التاسع عشر حتى كانت شركة الهند الشرقية البريطانية قد فرضت هيمنتها السياسية والعسكرية على الساحل الجنوبى للخليج بما فى ذلك سلطنة مسقط وعمان ومشيخات الساحل العمانى.

ومما تجدر الإشارة إليه أن شركة الهند الشرقية البريطانية قسمت إدارتها فى الهند إلى ثلاثة مراكز رئيسية هى، بومباى ومدراس والبنغال، واستمر هذا التقسيم الإدارى قائما حتى قيام ثورة الهند الكبرى عام ١٨٥٧. وكانت حكومة بومباى بحكم موقعها الجغرافى هى المختصة بالقسم الغربى من المحيط الهندى وبذلك

(١) Aitchison, C.U., A Collection of Treaties, Engagements and Sanads relating to India and Neighbouring Countries, Calcutta 1929 vol. XII pp. 207- 208.



كانت منطقـة الخليج العربى والبحر الأحـمر تدخل فى مجـال اختصاصـها. وقد بذلت حكومة بومباى مجهودات كبيرة لإحكام سيطرتها على منطقة الخليج العربى خلال النصف الأول من القرن التـاسع عشر[1]. ونتيجـة للدور الجديد الذى كان على حكومة بومـباى أن تقوم به تغـير لقب الممثل الـبريطانى التابع لهـا من المقيم البريطانى فى بوشـهر إلى المقيم البـريطانى فى الخليج، كما تغيرت مسـئولياته تبعا لذلك من مسئوليات تجارية محدودة إلى مسـئوليات سياسية وعسكرية. وقد استمر المقيـمون البـريطانيون التـابعون لحكومـة بومبـاى يديرون شئـون الخليج ويملكون الصلاحيات الواسعة للتصـرف المطلق بما فى ذلك عقد الاتفاقيات وإبرام المعاهدات والقيام بالإجراءات العسكرية والبحرية التى تحقق أمن الوجود البريطانى فى المنطقة خـلال الفتـرة من عـام ١٨٢٠ إلى عام ١٨٥٧، وذلك باسـتثـناء بعض الفتـرات الطارئة التى تحـول فيـها الخليج إلى اهتـمام وزارة الخـارجيـة البريطانيـة فى لندن وخاصة خلال وقوع الأزمتين الفارسـية والمصرية، وقد ظهر ذلك ذلك واضحا فى معارضة وزير الخارجية البريطانية اللورد بالمرستون Palmerston للتوسع المصرى فى الخليج العربى على عهد محمد على فى عام ١٨٣٨/ ١٨٤٠.

وقد يكون من المفيد ختامـا لتلك الصورة أن نوضح إلى أنه أعقب قيام ثورة الهند إعادة تنظيم الإدارة البريطانية، حيث صدر من أجل ذلك مرسوم ملكى نص على حل شركـة الهند الشرقيـة البريطانية وبـذلك أصبحت شـئون الهند والمناطق التابعة لهـا يتم تصريفها عن طريـق وزارة الهند، كما اقتضى الأمـر إيجاد منصب جـديد هو منصب نائب الملك فى الهند، وقـد استـمر ذلك المنصب قـائما حـتى استقلال الهند والباكستان فى عام ١٩٤٧ حين انتقلت إدارة شئون الخليج إلى وزارة الخارجـية البـريطانية، وتحـولت وزارة الهند إلى وزارة العلاقـات الخارجـية لدول الكومنولث[2].

---

(1) Bombay Government, Selections from the Records of Bombay Government cf.Historical and Other Information Connected with the Province of Oman, Muscat, Bahrein and Other Places in the Arabian Gulf Vol. XXIV Bombay 1856.

(٢) جمال زكريا قاسم: مختارات من وثائق الكويت والخليج العربى - جامعة الكويت ١٩٧٢، ص٥.

وإلى جانب الزحف البريطانى على الخليج العربى كانت هناك مشكلة أخرى تمثلت فى الادعاءات الفارسية التى ظهرت فى المنطقة نتيجة عوامل اقتصادية تمثلت فى وجود مغاصات اللؤلؤ فى الماضى أو ظهور النفط فى السنوات الأخيرة. وكانت فارس تتمسك بتسمية الخليج بالفارسى وتؤكد بعض ادعاءاتها الإقليمية على أساس تلك التسمية، وإن كانت الأسماء فى اعتقادنا لاتشكل حقوقا، كما أنها لاتتمشى مع الواقع فى كثير من الأحيان، فمن الوجهة الجغرافية تبلغ طول السواحل العربية للخليج نحو ضعف سواحله الفارسية، هذا فضلا عن أن الساحل الشرقى الذى يخضع لسيطرة إيران فى الوقت الحاضر كانت تقطنه ولازالت قبائل عربية منها بنوكعب وبنو تميم[1]، وأغلب سكانه من أصول عربية وإن كان معظمهم قد استعجم وفشت بينهم اللغة الفارسية. وإلى عهد قريب كان يطلق اسم عربستان على أجزاء كبيرة من ذلك الساحل ومعناها أرض العرب، ولعل ذلك كان اعترافا ضمنيا من فارس أو من اللغة الفارسية على الأقل بعروبة هذا الساحل.[2] وليس من شك فى أن استقرار القبائل العربية على الساحل الشرقى للخليج قد أكد صفته العربية من الجانبين.

ولعل من المفيد أن نشير إلى أن قبائل بنى كعب قد دخلت عربستان فى القرن السابع عشر الميلادى، وهى تنتمى إلى قبيلة الأزد المعروفة فى الجزيرة العربية، وفى منطقة عربستان قويت سلطتها بسرعة، واستطاع شيخها العربى أن يحتفظ باستقلاله عن كل من فارس والدولة العثمانية، ولذلك لم تكن العلاقات بين بنى كعب وجيرانهم علاقات هادئة مما يفسر لنا كثرة التعديات التى كانت تقوم بها سفنهم، وقيام العديد من الحملات التأديبية التى اشترك فيها العثمانيون والفرس والإنجليز ضد شيوخ بنى كعب. وفى عام ١٨٣٧ نجح العثمانيون فى إخضاع إمارة المحمرة - وهى الإمارة التى أنشأتها تلك القبائل - وإن كانوا قد انسحبوا منها بعد احتلال قصير. ومما هو جدير بالذكر أن المنافسة العثمانية الفارسية ظلت قائمة على هذه الإمارة حتى تم توقيع معاهدة أرضروم الثانية بين الدولتين فى عام ١٨٤٧

(١) السويدى (أبو الفوز البغدادى): سبائك الذهب فى معرفة قبائل العرب، بغداد ١٢٨٠هـ ص٤٦.

(٢) تشكل عربستان فى الوقت الحاضر جزءا من إقليم خوزستان وعاصمته الأهواز.

والتى نصت على اعتبار المحمرة جزءا من الأراضى الفارسية[١]. وإن كانت فارس لم تمارس فى واقع الأمر سيطرة فعلية على تلك الإمارة التى ظل يحكمها أمراء من العرب حتى انهيارها وانضمامها إلى إيران فى عام ١٩٢٥ فى أعقاب الحرب العالمية الأولى، وصارت تعرف باسم خورمشهر، وكان ذلك تمشيا مع سياسة التفريس التى اتجه إليها الحكم القومى فى إيران على عهد رضا شاه بهلوى[٢].

ومما يستلفت النظر أن سكان الساحل الغربى كانوا هم المتغلبين فى الخليج وقد اهتموا بالملاحة والتجارة، وقامت على هذا الساحل دول كبيرة تملك الأساطيل الضخمة كما هو الحال فى سلطنة مسقط وعمان فى القرنين السابع عشر والثامن عشر وحتى النصف الأول من القرن التاسع عشر. وقد عبر كثير من العرب إلى السواحل الشرقية للخليج، ولاتزال توجد حتى الآن أقليات كبيرة من العرب أو على الأقل من أصول عربية فى هذه السواحل، كما قدر لسلطنة مسقط أن تحكم أجزاء كثيرة من السواحل الشرقية للخليج فى غضون القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وخضعت كثير من الجزر والموانى الفارسية للإدارة العربية كما حدث بالنسبة لجزيرتى قشم وهرمز وميناء بندر عباس وغيرها[٣].

ولعل ما أوردناه يوضح أن الخليج العربى قد احتفظ بشخصيته العربية، أما عن التصاق الصفة الفارسية بالخليج فقد كانت ناشئة عن التسمية الإغريقية القديمة إذ لم يتمكن الإغريق من التعرف إلا على السواحل الفارسية فقط، وحدث ذلك أثناء فتوحات الإسكندر الأكبر فى القرن الرابع قبل الميلاد حين كلف هذا الفاتح المقدونى قائد أسطوله نيارخوس[٤] ـ خلال حملته المشهورة على الهند ـ بالذهاب إلى الخليج لسبرغور مياهه واكتشاف مصب الفرات (٣٢٦ ق.م) فمر بالساحل الشرقى للخليج الذى تطل عليه فارس مما دعا الإغريق إلى إطلاق التسمية الفارسية،

---

(١) مصطفى عبدالقادر النجار: التاريخ السياسى لمشكلة الحدود الشرقية للوطن العربى فى شط العرب ـ دراسة وثائقية ـ منشورات جمعية الدفاع عن عروبة الخليج ـ البصرة ١٩٧٤ ص٧٦.

(٢) جمال زكريا قاسم: الخليج العربى، دراسة لتاريخ الإمارات العربية ١٨٤٠ ـ ١٩١٤ ـ جامعة عين شمس ١٩٦٧، ص٣.

(٣) Curzon, George. N., Persia & The Persian Question Vol. II P. 433 London 1892.

(٤) صادق نشأت (ميرد أماد): تاريخ الخليج السياسى (ترجمة وتحقيق) ص ص٨ ـ ١١

وظلت تلك التسمية غير الدقيقة متداولة منذ هذا التاريخ حتى تدفق المد العربى إلى الخليج فى ستينيات ذلك القرن. وإن كان من الملاحظ أن المؤرخ الرومانى بلينيوس Pliny يشير فى كتاباته لدى وصفه لمدينة خاراكس Charax إلى التسمية الصحيحة للخليج حين يذكر أن المدينة تقع فى أقصى طرف الخليج العربى حيث يبدأ الجزء الأعظم من العربية السعيدة، كذلك درج كثير من الجغرافيين العرب على تسمية الخليج العربى بخليج البصرة ومكمله خليج عمان، كما أطلق بعض المصنفين العرب على الشاطئ الممتد من البصرة حتى عمان بخط عبدالقيس، كما جرت فى بعض الأحيان تسميته بالبحرين[1].

وعلى الرغم من أن كثيرا من الكتاب الفرس يؤكدون أن فارس استطاعت فى فترات متقطعة من التاريخ، وخاصة على عهد الميديين والساسانيين، أن تبسط سيادتها على البصرة والبحرين وعمان وغيرها من المراكز الواقعة على الساحل الغربى للخليج فإن ذلك كان عملا مؤقتا لم يدم طويلا، ولم ينجم عنه أى تغير فى التركيب الاجتماعى فى السواحل العربية بعكس ماحدث فى السواحل الفارسية من تغيرات أساسية عندما قدر للعرب أن يندفعوا تحت لواء الدين إلى ما وراء جبال البختيارى فى الأراضى الفارسية[2].

والأمر الذى لاشك فيه أن شيوع اسم الخليج العربى فى الوقت الحاضر جاء مطابقا للواقع إلى حد كبير وخاصة إذا ما غلبنا طول سواحله التى تطل عليها الهضبة الفارسية، ولذلك لم يكن من العجيب أن تلفت التسمية الفارسية للخليج نظر كثير من الرحالة الأوروبيين من أمثال كارستن نيبور Niebuhr الذى جاب أطراف الجزيرة العربية فى عام ١٧٦٢ لكى يدون أخبار رحلاته فى مؤلفاته الشهيرة عن الجزيرة العربية وترك لنا فيها وصفا شيقا للقبائل العربية فى الخليج، وذكر بشىء من التفصيل أسماء هذه القبائل وعلاقة بعضها بالبعض الآخر، وتميز من بين جميع الرحالة الذين زاروا الخليج خلال القرن الثامن عشر بدقة الملاحظة وكان

---

(١) ياقوت الحموى : معجم البلدان جـ٣ ص٤٤٩، فاروق عمر فوزى: الخليج العربى فى العصور الإسلامية، دار القلم، دبى ١٩٨٣ ص ص ١١ ـ ١٢.

(٢) جان جاك بيربى: الخليج العربى (مترجم)، بيروت ١٩٥٩، ص٢٦ .

أكثرهم إدراكا للدور المهم الذى يلعبه العرب فى الخليج [١]، وأكد خطأ الجغرافيين الأوروبيين فى اعتبار سواحل الخليج تابعة لملوك الفرس حيث قرر أن هذه السواحل أبعد ماتكون عن ذلك إذ إن العرب يسيطرون على الشواطئ البحرية للإمبراطورية الفارسية من مصب نهر الفرات إلى مصب الإندس، وأن المستوطنات العربية على الساحل الفارسى مستقلة تماما عن فارس، ويستخدم أفرادها اللغة العربية، ويمارسون نفس العادات والتقاليد التى يتميز بها بقية إخوانهم العرب سكان الجزيرة العربية[٢]. وفى السنوات المعاصرة دافع الكاتب الفرنسى جان جاك بيربى عن عروبة الخليج وإن سمى كتابه بالخليج الفارسى مجاراة للتسمية التى كانت سائدة فى ذلك الوقت، كذلك أشار الكاتب الإنجليزى رودريك أوين Owen إلى الفكرة التى كانت تراوده عن منطقة الخليج قبل زيارته لها فى منتصف الخمسينيات واعترف بالخطأ الذى وقع فيه مؤكدا غرابة تسمية الخليج بالفارسى[٣].

وعلى الرغم من أننا قد استرسلنا بعض الشيء فى مناقشة تسمية الخليج العربية أو الفارسية فإن الأمر فى قناعتنا لا يعتمد على المسميات إذ من المعروف بداهة أن الأسماء لاتؤلف حقوقا إنما العبرة بواقع الخليج ومدى وعى أبنائه بالحفاظ على هويتهم العربية.

ومع ما تتميز به فترة الدراسة التى نعالجها فى هذا الكتاب بثرائها فى مصادرها ووثائقها المتنوعة التى لاغنى عنها للباحث إلا أن الأمر الذى يثير الانتباه غلبة المصادر الأجنبية على المصادر العربية والمحلية. وكان من نتيجة ذلك اعتماد الدراسات التاريخية التى صدرت عن الخليج العربى فى عصوره الحديثة على تلك المصادر بل لقد وصل الأمر إلى الاعتماد على الوثائق الأجنبية بشكل مكثف بحيث

---

(١) عبدالأمير أمين : القوى البحرية فى الخليج العربى فى القرن الثامن عشر ، بغداد ١٩٦٦ ص ص ٧٦ - ٧٧.

(٢) Neibuhr, Carsten, Travels Through Arabia and Other Countries in the East Vol. II P. 103.

(٣) Owen, Roderick. The Golden Buble - Arabian Gulf Documentary London 1957. P. 13

أصبحت بعض دول الخليج تعتمد على تلك الوثائق فى عرض أو إيجاد حلول لخلافاتها الإقليمية.

ولعل السبب فى كثرة المصادر والوثائق الأجنبية خضوع الخليج لمدة أربعة قرون لأنواع مختلفة من السيطرة الأجنبية البرتغالية والهولندية والفارسية والعثمانية والبريطانية مما أدى إلى وجودكم هائل من الوثائق المتنوعة باللغات المختلفة وإن كانت المجموعة البريطانية هى بطبيعة الحال أوسع مجموعة من الوثائق والمصادر التى صدرت عن منطقة الخليج إذ إن الإنجليز أخذوا يولون اهتماما زائدا بالمنطقة منذ تأسيس شركة الهند الشرقية البريطانية فى بداية القرن السابع عشر[١]. ومن ثم حظيت المصادر والوثائق البريطانية بالنصيب الأوفى من عناية الباحثين. ومن هذه المصادر تقارير الرحالة الأوروبيين الذين قاموا برحلات فى بعض مناطق الخليج والجزيرة العربية ابتداء من كارستن نيبور ومرورا بيكنجهام وولستد وبالجراف وغيرهم كثيرون، هذا بالإضافة إلى بعض الدراسات الهامة التى صدرت فى القرن الماضى ومن أبرزها دراسة شارل لو Low عن تاريخ البحرية الهندية ١٦١٣ - ١٨٦٣، وتقرير هارفورد جونز بردجيز عن بعثة حكومة صاحب الجلالة البريطانية إلى البلاط الفارسى ١٨٠٧/١٨١١. وقد ذيل هذا التقرير بتلخيص واف عن تاريخ الحركة الوهابية وقيام الدولة السعودية الأولى[٢]. كذلك ينبغى الإشارة إلى دراسة صموئيل ميلز Miles الذى عمل وكيلا سياسيا وقنصلا عاما لبريطانيا فى مسقط فى بداية الثمانينيات من القرن الماضى، وتقع هذه الدراسة فى مجلدين ركز فيهما على أقطار وقبائل الخليج العربى. وقد عرف عن ميلز اهتماماته الواسعة بالتاريخ والتراث المحلى للمنطقة التى عمل فيها[٣].

أما عن أبرز المصادر التى وضعت عن تاريخ الخليج العربى فى أوائل القرن الحالى فهى دراسة جورج لوريمر Lorimer، وتتكون من قسمين كبيرين تناول

---

(١) Low, Charles R., History of the Indian Navy 1613-1863 2 Vols. London 1877.

(٢) Brydges, Harford Jones, An account of Transaction of His Majesty's Mission to the Court of Persia to which is appended a brief Notes of Wahabbees. London 1871.

(٣) Miles, Samuel, The Countries and Tribes of the Persian Gulf 2 Vols. London 1919.

القسم الأول النواحى التاريخية، أما القسم الثانى فقد تناول الأوضاع الجغرافية والقبلية والاجتماعية. ويعد القسم التاريخى من أوفى الدراسات وأشملها فى تناول أحداث الخليج وأواسط الجزيرة العربية والعراق وفارس منذ أوائل القرن السادس عشر حتى السنوات الأولى من القرن العشرين. وتستمد هذه الدراسة صفتها الرسمية من أنها وضعت بتكليف من حكومة الهند البريطانية. وقد طبع القسم الجغرافى فى عام ١٩٠٨، والقسم التاريخى فى عام ١٩١٥ بمدينة كلكتا. ولم يطبع «دليل الخليج الفارسى»، وهو الاسم الذى عنون به هذا المصدر[١]، إلا بأعداد قليلة وزعت على الموظفين الرسميين فى حكومة الهند واعتبر عند صدوره فى حكم الوثائق السرية التى لايجوز الاطلاع عليها أو تداولها إلا بعد انتهاء الفترة الزمنية التى كانت تفرضها الحكومة البريطانية على حظر تداول وثائقها، ولذلك لم يسمح بتداول هذا المصدر بين الباحثين إلا بعد انتهاء هذه الفترة حيث وافقت وزارة الكومنولث على نشره ومن ثم صدرت طبعة حديثة لذلك المصدر الهام. وقد يكون من دواعى الغبطة ما أقدم عليه المكتب الثقافى بديوان حاكم قطر من إخراج ترجمة عربية وأخرى معدلة للقسمين التاريخى والجغرافى من هذا الدليل.

وعلى الرغم من أن دليل الخليج ينسب تأليفه إلى جورج لوريمر، وكان واحدا من المسئولين الكبار فى حكومة الهند البريطانية؛ إلا أن هذه الموسوعة الضخمة لايمكن أن تكون من إعداد فرد واحد، والأمر الذى لاشك فيه أن فريقا من الباحثين والسياسيين والعسكريين والجغرافيين عاونوا لوريمر فى تجميع المعلومات اللازمة لوضع ذلك الدليل الذى يعزى فكرته إلى اللورد كيرزون Cur-zon - نائب الملك فى الهند ١٨٩٩/١٩٠٤ - حين قرر فى عام ١٩٠٣ وضع دليل شامل عن الخليج العربى يتناول النواحى التاريخية والجغرافية والقبلية والاجتماعية وغيرها، ويحتمل أن يكون كيرزون قد قرر ذلك خلال زيارته المشهورة لسواحل الخليج العربى وحط فى خلالها فى إمارة الشارقة فى نوفمبر ١٩٠٣ حيث ألقى خطبته المشهورة على شيوخ الساحل العمانى، وكان لوريمر مرافقا لكيرزون فى تلك الزيارة التى فى خلالها أبدى كيرزون رغبته فى تجميع معلومات كافية يمكن

(١) Lorimer, G.G., The Gazetteer of the Persian Gulf, Oman and Central Arabia 2 Vols. Calcutta 1915.

أن يستعين بها المسئولون البريطانيون فى وقت اشتدت فيه أهمية الخليج السياسية والعسكرية وتعرضت بريطانيا لخطر التنافس من قبل الدولة العثمانية من ناحية والدول الأوروبية كفرنسا وروسيا وألمانيا من ناحية أخرى. وعلى الرغم من تقديرنا لأهمية ذلك الدليل إلا أنه ينبغى أن نقرر أن النزعة الاستعمارية كانت تغلب عليه شأنه فى ذلك شأن غيره من المصادر الأجنبية الكثيرة التى وضعت عن الخليج العربى فى القرن التاسع عشر.

أما عن الوثائق التى كان يتحتم علينا الرجوع إليها فى إعداد تلك الدراسة فتبرز من أهمها وثائق شركة الهند الشرقية البريطانية المتعلقة بالخليج العربى وبصفة خاصة سجلات الوكالات Factory Records والتى يرمز لها اختصارا بـ F.R. والوكالة فى ذلك الوقت كانت مقر ممثل شركة الهند الشرقية البريطانية ومستودعا للبضائع المخزونة الخاصة بالشركة فى هذا الموقع ثم أضيفت إليها مع تطور الأحداث بعض التحصينات ومساكن للموظفين الإنجليز، وكان يطلق على كل هذا كلمة الوكالة. ومن المعروف أن شركة الهند البريطانية قد نشطت فى فتح وكالات لها خارج الهند وخاصة فى فارس ومنطقة الخليج العربى. ويحفل أرشيف الوكالات بالعديد من المراسلات الخاصة بتأسيس الشركة والمنافسات التى كانت تتعرض لها من قبل الشركات التجارية الأخرى وعلاقتها بمنطقة الخليج وغيرها من المناطق، كما تشتمل بالإضافة إلى ذلك على تقارير الوكلاء الإنجليز فى المراكز التجارية التى أقامتها الشركة فى كل من البصرة وبندر عباس وبوشهر وجاسك وغيرها من الموانى العربية أو الفارسية، كما توجد بها تقارير على درجة كبيرة من الأهمية عن التجارة البريطانية مع فارس والجزيرة العربية، إلى جانب الإشارة إلى الأحداث السياسية التى كانت تؤثر على حركة التجارة كاحتلال الفرس للبصرة ١٧٧٦/١٧٧٩، أو النشاط الوهابى فى سواحل الخليج العربى والعراق فى السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر والسنوات الأولى من القرن التاسع عشر[1].

(١) جمال زكريا قاسم: مختارات من وثائق الكويت والخليج العربى، مطبوعات جامعة الكويت رقم ٨ - الكويت ١٩٧٢.

وقد تصعب قراءة هذه الوثائق بسبب طريقـة الكتابة فى القرنين السابع عشر والثامن عشـر، ونعنى بذلك اختلاف أشكال الحروف اللاتينية عن الحـروف الحالية المستخدمـة فى الكتابة إلى جانب نسخها باليـد، كما أنها غير مصنفـة فى جملتها بمعنى أنها لم ترتب حسب الموضوعات ولكنهـا جمعت على أساس تتابع السنوات وطبقـا لأوراق ومجلدات الإدارات المخـتلفة وتقـارير المجالس السيـاسيـة والسرية وإدارات شركة الهند ومجلس الرقابة وغيرها، مما يتطلب من الباحث جهدا للتعرف على مـايريده من معـلومات فى هذه المجـموعـات الضـخمـة من المجلدات ذات الموضوعـات المتناثرة على تـابع السنين. وكل هذه الأمور لاشك فى أنهـا تشكل صعوبات أمام الباحث ومع ذلك فإنه لامناص من الرجوع إليها لما تشكله من أهمية بالغة بالنسبة للأوضاع التجارية من ناحية ولما يتخللها من بعض الأحداث التاريخية من ناحية أخرى. وقـد ركزنا بصفة خاصة على الوثائق الخاصـة بوكالات البصرة وجمبرون (بنـدر عباس) وبوشهر والكويت، وعلى المراسلات التى كـان يبعث بها موظفو الوكالات المعينون فى بعض موانى الخليج إلى المركز الرئيسى للشركة.

كذلك كـان لابد لنا من الرجوع إلى التـقارير والمراسـلات الخاصة بشـئون الخليج، ومـعظم تلك التقـارير كان يضـعهـا الوكلاء الوطنـيون Native Agents التابعـون للمقيم البـريطانى فى الخليج، وكان مقـرهـم الرئيسى فى إمارة الشـارقة وذلك منذ عام ١٨٢٨ حين بدأت بريطانيا تستعـين بأولئك الوكلاء فى أعقاب عقد معاهدة السلام العامة فى عـام ١٨٢٠ . ومما تجدر الإشارة إليه أن الوكلاء الوطنيين لم يكونوا وطنيـين بمعنى الـكلمة إذ كـان مـعظمـهم من الفـرس أو الهنود الذين استوطنوا إمارات الساحل العمانى، وقد حـفلت تقاريرهم ومراسلاتهم بتوضيحات مسهبة لأوضاع مشيخات الساحل وعلاقة بعضها بالبعض الآخر من ناحية وعلاقتها بالإنجليز من ناحية أخـرى إلى جانب تفصيلات كثيرة عن أوضـاع تلك المشيخات الداخليـة، وكـذلك معلومـات عن الإمـارات العـربية الأخـرى كـالكويت وقطر والبحـرين وعلاقـتها بالقـوى المجاورة لهـا. ويمكن أن نضيف إلى هذه التـقارير المكاتبـات السيـاسيـة والقنصـلية والإدارية التى كان يـضعـها الوكـلاء والقناصل البريطانيـون فى مسقط، وكان هؤلاء يحتلـون المرتبة الثانية من حيـث الأهمية فى

الخليج بعد المقيم البريطاني، كما كانوا بحكم الوضع القانوني لسلطنة مسقط وعمان يتبعون حكومتي الهند ولندن معا باعتبارهم قناصل من قبل الحكومة البريطانية ووكلاء معتمدين من قبل حكومة الهند.

وإلى جانب تلك الوثائق الهامة حفلت المكتبة السياسية والسرية لوزارة الهند بمصادر ومجموعات وثائقية على جانب كبير من الأهمية، نخص منها مجموعة سالدانها Saldanha التي تشتمل على أوراق الدولة الخاصة بحكومة بومباي وعلاقتها بالخليج العربي في الفترة من القرن السابع عشر حتى نهاية القرن الثامن عشر، كما تشتمل مجموعة سالدانها بالإضافة إلى ذلك على عدة مختصرات تاريخية شاملة عن بعض إمارات الخليج كمسقط وقطر والبحرين ومشيخات الساحل العماني[1]. وتحتوي هذه المختصرات على التقارير والمراسلات التي كان يبعث بها موظفو الوكالات البريطانية في فارس والعراق وبعض القواعد الأخرى في الخليج إلى رئاسة الشركة البريطانية، وهي تتنوع من كونها تقارير ورسائل تجارية إلى وصف للأحداث التاريخية التي كانت تجري في هذه المناطق في السنوات الخاصة بكتابة تلك التقارير أو الرسائل، إلى جانب وصف الظروف التي كان يعيش فيها موظفو الوكالات في المناطق المقامة فيها، كما احتوت مختارات سالدانها على الكثير من مراسلات وكلاء الشركة إلى السلطات العثمانية والفارسية والتي كانت تستهدف منها توثيق العلاقات الاقتصادية أو الحصول على امتيازات للتجارة البريطانية إذ كانت شركة الهند الشرقية البريطانية حريصة إزاء المنافسات التي تواجهها في الحصول على امتيازات تعطي الأولوية لتجارتها في الدول الشرقية التي كانت تتعامل معها خاصة فارس والدولة العثمانية. ولدينا بصدد ذلك تقرير المستر جون مالكولم Malcolm مبعوث شركة الهند الشرقية البريطانية إلى البلاط الفارسي في عام ١٨٠٠، كذلك العديد من تقارير موظفي الوكالات البريطانية في كل من البصرة وبوشهر وبندر عباس. وليس من شك في أن هذه المختارات المشار

(١) East India Connexion with the Persian Gulf (1600-1800). Selections from Bombay State Papers, cf. Precis of Correspondence Regarding Trucial States (1839-1905).

إليهـا أفادت إلى حد كـبير فى تخـفيف بعض الصعـوبات التى يواجههـا الباحث بالنسبة للسجلات الرئيسية لشركـة الهند الشرقية البريطانية وإن كانت بحكم كونها مختصرات لاتحل المشكلة تماما.

وإلى جانب الوثائق غير المنشورة هناك الكـثير من الوثائق المنشورة التى تبرز من بينها مـجموعة أيتشـيسـون Aitchison عن المعـاهدات والاتفاقيـات والسندات البريطانية المرتبطـة بالهند والأقطار المجاورة لها[١]. وكان أيتشـيسـون قد كلف من قبل حكومة الهند بإعداد هذه المجموعة التى صدرت طبعتها الأولى فى عام ١٨٧٦ فى اثنى عشر مجلدا، ركزت المجلدات العاشرة والحـادية عشرة والثانية عشرة منها على منطقة الخليج ومايجاورها. وقد سبقت مجموعـة أيتشيسون مجموعة وثائقية أخرى ربما كانت هى المصـدر الرئيسى لمجموعـة أيتشيسون، وهى المجـموعة التى نشرها هيوتوماس عن معاهدات شركة الهند الشرقية البريطانية مع الأمراء الوطنيين فى غرب الهند والبحر الأحـمر والخليج العربى[٢]. وقد كلف هيـوتوماس بإعداد هذه المجموعـة من قبل حكومة بومباى التى كـانت تشرف على هذه المناطق بحكم مجاورتها لها. وقد نشرت هذه المجمـوعة فى عام ١٨٥١ وهى فيما نعلم تعد من أقدم المجموعات الوثائقية المنشورة عن المعاهدات بين شركة الهند الشرقية البريطانية ومنطقة الخليج العربى، وهى تركز بطبيـعة الحال على المعاهدات المبرمة مع سلطنة مسقط ومـشيخات السـاحل العمانى إذ إن النفوذ البـريطانى لم يكن قد وصل فى الفترة التى أعدت فيها هذه المجموعة إلى أبعد من السـاحل الجنوبى للخليج باستثناء اشتراك البحرين فى المعاهدة العامة التى أبرمت مع شيوخ السـاحل العمانى فى عام ١٨٢٠.

وإلى جانب مـجموعـة هيوتوماس نـشرت حكومة بومـباى مخـتارات من

(١) Aitchison, C.U. A Collection of Treaties, Engagements and Sanads relating to India and Neighbouring Countries Vols 10-12 Calcutta 1929.

(٢) Hughes, Thomas, Treaties, Engagements, and Agreements between the Honourable East India Company and the Native Princes, Chiefs and States in Western India, the Red Sea, the Persian Gulf etc. Bombay 1851.

سجلاتها تناولت النواحى التاريخية وغيرها من المعلومات الأخرى الخاصة بمسقط وعمان والبحرين والكويت وغيرها من إمارات الخليج الأخرى، كما حفلت بمجموعة من التقارير السياسية والقنصلية الهامة التى تضمنت دراسات عن الأوضاع السياسية والتكوينات القبلية لإمارات الخليج العربى إلى جانب دراسات خاصة عن تطورها السياسى وعلاقتها بحكومة بومباى منذ السنوات الأولى من القرن الثامن عشر أى منذ ظهور معظم تلك الوحدات السياسية حتى تاريخ الانتهاء من وضع تلك المختارات فى منتصف القرن التاسع عشر[١]. وقد شارك فى وضع وثائق حكومة بومباى المقيمون البريطانيون ومساعدوهم الذين تعاقبوا على المقيمية البريطانية فى الخليج، كذلك شارك فى وضع بعض هذه الوثائق ضباط البحرية الهندية الذين قاموا بزيارات استطلاعية فى المنطقة. كما حفلت هذه المختارات بالمعاهدات والاتفاقيات التى أبرمها المقيمون البريطانيون مع مسقط ومشيخات الساحل الجنوبى للخليج العربى إذ كان للمقيمين البريطانيين فى الخليج فى الفترة التى تضمنتها تلك المختارات صلاحيات وسلطات واسعة حيث كان مخولا لهم حق إبرام المعاهدات والتصرف فى شئون المنطقة. وكانت حكومة بومباى أو حكومة الهند فيما بعد تكتفى بالمصادقة على مايبرم من معاهدات، ولم يحدث لحكومة الهند أن اعترضت على المعاهدات التى يبرمها المقيمون البريطانيون إلا فيما حدث بالنسبة لمعاهدة شيراز الخاصة بالبحرين والتى أبرمها الكولونيل بروس Bruce المقيم البريطانى فى الخليج مع أمير مقاطعة فارستان فى عام ١٨٢٢ وذلك لتجاوزه فى الصلاحيات المخولة له من قبل حكومة الهند فضلا عن أن عقد هذه المعاهدة لم يكن يتمشى مع السياسة التى اختطتها الحكومة البريطانية بالنسبة للخليج العربى.

وتشتمل مختارات حكومة بومباى على معلومات تاريخية على جانب كبير من الأهمية عن مسقط وإمامة عمان منذ ظهورها كوحدة سياسية على عهد اليعاربة فى السنوات الأولى من القرن السابع عشر، كما تتناول تلك المختارات التشكيلات

(١) Historical Sketch of the Rise and Progress of the Government of Muscat (1614-1844).

السياسية والتنظيمات القبلية فى الخليج التى برزت فى السنوات الأولى من القرن الثامن عشر، فهناك تقرير عن القرين وهى التسمية القديمة للكويت وضعه جون فيلكس Felix من ضباط البحرية البريطانية فى الهند[١] . وهناك تقرير آخر عن مشيخات الساحل المهادن، بالإضافة إلى مجموعة أخرى من الوثائق المتعلقة بشركة الهند الشرقية البريطانية وعلاقتها بقبائل الساحل العمانى خلال الفترة من ١٨٠٦ إلى ١٨٥٣، وهى الفترة التى أبرمت فى خلالها الكثير من المعاهدات والاتفاقيات التى بدأت باتفاقية عام ١٨٠٦ ثم تتابعت حتى تم توقيع اتفاقية الصلح البحرى الدائم فى عام ١٨٥٣ . وإلى جانب ذلك حفلت مختارات حكومة بومباى ببعض الدراسات الهامة الخاصة بالقواسم وبنى ياس وبوفلاسة[٢]، إلى جانب دراسات أخرى عن اتحاد قبائل العتوب الذى تشكل من آل خليفة وآل صباح والجلاهمة. وقد ظهر ذلك الاتحاد فى عام ١٧١٦ ثم تعرض إلى الانهيار بعد انفصال آل خليفة ثم الجلاهمة[٣] . كذلك أفردت مختارات حكومة بومباى دراسة موجزة عن الحركة الوهابية وانتشارها بين قبائل ومشيخات الساحل الجنوبى للخليج[٤]، كما ركزت بصفة خاصة على العلاقات التى كانت قائمة بين حكومة الهند والقبائل العربية وخاصة قبيلة القواسم حيث تتبعت وصولهم إلى القوة فى عام ١٧٤٧ حتى انهيار نفوذهم البحرى فى عام ١٨٥٣[٥] .

وتعتبر وثائق حكومة بومباى ذات فائدة محققة لمن يحاول تتبع أسس السياسة البريطانية فى منطقة الخليج العربى خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادى. ولما كانت بريطانيا قد نجحت فى التوغل فى منطقة الخليج العربى خلال هذه الفترة تحت حجة قمع القرصنة وتجارة الرقيق فإننا نجد الكثير من

---

(١) Extracts from a Report on the Harbour of Grane (Koweit) by J. Felix, Indian Navy.

(٢) Historical Sketch of Joasmee, Beniyas, Boo Felasa Tribes of Arabs.

(٣) Historical Sketch of the Utoobee Tribe (1795- 1853). Bombay Govt., op. cit., Vol.XXIV pp. 437-460.

(٤) Ibid., pp. 427-460.

(٥) Historical Sketch of the Joasmee Tribe of Arabs 1747-1853, Vol. XXIV pp. 299-359.

الصفحات التى خصصتها تلك المختارات عن الدور الذى قامت به بريطانيا لقمع القوى البحرية فى المنطقة(١).

وإلى جانب المصادر والوثائق البريطانية التى تشكل الغالبية العظمى من المادة التاريخية التى أمكننا الرجوع إليها تجدر الإشارة إلى وثائق وزارة الخارجية الفرنسية Archives des Affaires Etrangers ووثائق وزارة المستعمرات الفرنسية Archives des Colonies وبصفة خاصة الوثائق المتعلقة بمستعمرة موريس الفرنسية التى كانت تعرف باسم جزيرة فرنسا Isle de France وتتناول العلاقات التى كانت تربط هذه المستعمرة الفرنسية بسلطنة مسقط وعمان منذ سيطرة فرنسا على هذه المستعمرة فى عام ١٧١٥ حتى سقوطها فى أيدى الإنجليز فى عام ١٨١٠ . ومن المفيد الإشارة أيضا إلى المجموعة الدراسية والوثائقية الهامة التى نشرها القبطان شارل جيان Guil-lain عن شرق إفريقيا. ولما كان الشرق الإفريقى قد شكل فى جانب كبير من تلك الفترة التى تتعرض لها بالدراسة القسم الإفريقى من سلطنة مسقط لذلك حفلت مجموعة جيان بالكثير من الأحداث والوثائق المتعلقة بسلطنة مسقط وعمان وعلاقتها بالقوى الأجنبية والقوى الإقليمية المجاورة لها فى الخليج العربى وشرق إفريقيا(٢). وبصفة عامة تأتى المصادر الفرنسية فى مرتبة تالية بعد المصادر البريطانية لأنها تقتصر على بعض الفترات التى كانت لفرنسا فيها اهتمامات خاصة بالمنطقة وعلى وجه التحديد خلال الصراع الإنجليزى الفرنسى فى مسقط فى القرن الثامن عشر والذى تصاعد خلال عهد الحملة الفرنسية على مصر والسياسة النابليونية فى الشرق، وأخيرا أثناء احتدام التنافس الاستعمارى بينها وبين إنجلترا فى أواخر القرن التاسع عشر والسنوات الأولى من القرن العشرين. أما الوثائق الأمريكية فهى تقتصر خلال فترة دراستنا على العلاقات الاقتصادية بين الولايات المتحدة الأمريكية وسلطنة مسقط وزنجبار حيث أبرمت الولايات المتحدة معاهدة تجارية مع مسقط فى

---

(١) Slave Trade, Paper relative to the measures adopted by the British Govt. between the years 1820 - 1844 pp. 635-687.

(٢) Guillain, Charles, Documents sur l'Histoire, la Geographie et le Commerce de l'Afrique Orientale 3 Tomes, Paris 1856.

عام ١٨٣٣ واقتصر نشاطها الاقتصادى فى مقاطعات الشرق الأفريقى التى كانت تابعة لسلطنة مسقط حتى انفصالها عنها فى عام ١٨٦٢.

ولابد أن نشير فى هذا المجال إلى أهمية الأرشيف الفارسى فى دراسة علاقة فارس بمنطقة الخليج العربى، ومن المؤكد أن دراسة الوثائق الفارسية يمكن أن تأتى بعمق أكبر فى دراسة تاريخ المنطقة، وعلى الرغم من أنه لم يقدر لنا الرجوع إلى الوثائق الفارسية إلا أنه أمكننا الرجوع إلى مجموعة من المراجع الفارسية أو المعربة عن الفارسية ومنها الدراسة التى وضعها عباس إقبال وعنوانها «مطالعاتى درباب بحرين وسواحل وجزاير خليج فارس»، ودراسة صادق نشأت ميرد أماد عن تاريخ الخليج السياسى، وعلى رضا ميرزا «أسانيد الخليج الفارسى» إلى جانب بعض الدراسات الأكاديمية التى وضعها باحثون إيرانيون ونشرت باللغة الإنجليزية، وتبرز من بينها دراسة فريدون أدميات، ودراسة عباس فاروقى، وتركز هاتان الدراستان على تاريخ البحرين والمباحثات الانجليزية الفارسية بشأن وضعية تلك الجزر[١]. وكان لابد لنا من مناقشة الدراسات الفارسية عن الخليج بوجهة نظر موضوعية وخاصة أن معظم تلك الدراسات اتخذت جانب المطالبة بالسيادة الفارسية على كثير من جزر وإمارات الخليج العربى لاسيما البحرين، بل إن بعض الدراسات وضعت بتكليف من وزارة الخارجية الإيرانية لتدعيم وجهة نظر سياسية معينة بالنسبة للادعاءات الإيرانية على الخليج العربى التى تصاعدت خلال الستينيات من هذا القرن.

أما عن الوثائق والمصادر التركية والتى يوجد أغلبها فى قصر يلدز باستانبول فربما تكمن صعوبة الرجوع إليها رغم ثرائها بالمادة التاريخية إلى مشكلة عدم تنظيمها؛ بالإضافة إلى ماتحتاجه دراسة الوثائق التركية من دراسة كافية باللغة التركية القديمة وبأسلوب الكتابة الذى كان شائعا فى الفترة العثمانية (خط القرمة). وقد يكون من دواعى الغبطة ماتوليه الدوائر العلمية العالمية فى الوقت الحاضر من

---

(١) Farroughy, Abbas, Bahrein Islands New York 1951, Adamyiat, F., Bahrein Islands, A legal and Diplomatic Study of the British Iranian Controversy, New York 1955.

اهتمام بالفترة العثمانية والعمل على التعرف على وثائقها، ومن المفيد أن نشير بصدد ذلك إلى اللجنة العالمية لدراسات العهد العثمانى والفترة السابقة له والتى يرأسها البروفسير روبيرت مونتران، وكذلك اللجنة العربية للدراسات العثمانية التى أعلن عن قيامها فى تونس عام ١٩٨٢ وكان لنا حظ المشاركة فى تأسيسها. وفى محاولة التعرف على السياسة العثمانية فى منطقة الخليج العربى فى بعض فترات هذه الدراسة كان اعتمادنا على أرشيف البصرة المحفوظ فى السجلات البريطانية العامة فى لندن، كذلك اعتمدنا على بعض الدراسات التى ارتكزت على الوثائق العثمانية ومن بينها الدراسة القيمة التى وضعها صالح أوزبران بعنوان « البرتغاليون والأتراك العثمانيون فى الخليج العربى »[١].

وقد يكون من المفيد أن نشير إلى أن الوثائق البرتغالية تحفل بمادة تاريخية كبيرة وخاصة أن البرتغاليين كان لهم سبق الاتصال بمنطقة الخليج العربى وسواحل الجزيرة العربية منذ السنوات الأولى من القرن السادس عشر الميلادى واستمرت علاقتهم بمنطقة الخليج مايقرب من قرنين من الزمان، وإذا كانت مشكلة اللغة قد حالت دون دراستنا لتلك الوثائق إلا أننا قد حاولنا سد هذه الثغرة بالرجوع إلى طائفة من المصادر البرتغالية التى ترجمت إلى اللغة الإنجليزية والتى نخص من بينها مذكرات أفونسودى البوكيرك[٢]، ورحلة تكسيرا Teixiera[٣] ودورات باربوسا Barbosa[٤]، ودراسة فاريا سوسا عن آسيا البرتغالية[٥]. ومع ذلك فإنه توجد كميات ضخمة من الوثائق المتعلقة بالخليج العربى فى توريه دى تومبو Torro Do Tombo وهو المبنى الرئيسى للأرشيف البرتغالى فى لشبونة، وتشتمل على المنشورات الملكية المتعلقة بالمستعمرات البرتغالية ومملكة هرمز بصفة خاصة بالإضافة

---

(١) صالح أوزبران: البرتغاليون والأتراك العثمانيون فى الخليج العربى - البصرة ١٩٧٩.

(٢) The Commentaries of Great Afonso Dalboquerque Translated by Gravy Birch, London 1881, Hakluyt society.

(٣) Travels of Pedro Teixiera with His Kings of Hormuz, London 1902.

(٤) The Book of Durate Barbosa.

(٥) Fariya Sousa, Asia Portuguesa.

إلى رسائل نائب الملك فى الهند، والأهم من ذلك مجموعة الوثائق الموسمية Liv-ros das Monsoes المتعلقة بالمحيط الهندى، وتحتوى على مراسلات بين التاج البرتغالى ونائب الملك فى جوا، وتوجد مخطوطات من هذه الكتب الموسمية فى جوا والأرشيف الوطنى بلشبونة(١). كذلك توجد فى الأرشيف البرتغالى مجموعة من الوثائق التى كتبت بلغات شرقية وجمعت تحت عنوان «الوثائق العربية»، وتناولت كل مايتصل بإفريقيا والمحيط الهندى(٢). وقد نشر العالم الفرنسى جان أوبين Aubin بعض هذه الوثائق الفارسية والعربية فى كتاب بعنوان بحار الهند البرتغالية. ولايزال الأرشيف البرتغالى منجما كبيرا لمنطقة الخليج العربى يشابهه فى ذلك الأرشيف الهولندى حيث ظهر النشاط الهولندى واضحا فى الخليج فى منتصف القرن الثامن عشر. وقد أمكن الرجوع إلى مختصرات لبعض الوثائق الهولندية المترجمة عن الإنجليزية والمتعلقة بشركة الهند الشرقية الهولندية ووكالاتها التجارية فى جمبرون ومستعمرتها فى جزيرة خرج، وتتناول بعض المراسلات المتبادلة بين القناصل الهولنديين وبين الحكومة العليا فى باتافيا.

أما الوثائق المصرية المعروفة بوثائق عابدين والمحفوظة حاليا بدار الوثائق القومية بالقاهرة فتتناول موضوعات كثيرة متعلقة بالتوسع المصرى فى الخليج والجزيرة العربية على عهد محمد على، ويمكن الرجوع إليها فى محافظ الحجاز وبحر برا، وهى تشكل مادة تاريخية لاغنى عنها لكل من يتصدى لعلاقة مصر بمنطقة الخليج العربى على عهد محمد على.

وتمدنا المصادر المحلية بمادة أولية هامة عن إمارات الخليج العربى ولعل من أبرز تلك المصادر المخطوطات المتعددة التى وضعها المؤرخ العمانى حميد بن رزيق والتى تناول فيها تاريخ الأئمة والسادة البوسعيديين حتى عهد سعيد بن سلطان

---

(١) Boxer, C.R., Some Aspects of the Struggle between the Omanis and the Portuguese A.D. 1650-1730.

وللتعرف على الأرشيف البرتغالى بجوا راجع دراسة بوكسر بعنوان:

Glimpses of the Goa Archives - Bulletin of SOAS Vol. XIV pp. 299-324 London 1952.

(٢) Cf. Arabic Documents in the Torro Do Tombo National Archives by Dr. Antonio Dias Farinha pp. 63-67.



١٨٠٦/١٨٥٦. والجدير بالذكر أن بعض هذه المخطوطات ترجمت إلى اللغة الإنجليزية ونشرها جورج برسى بادجر - وهو أحد الباحثين الثقاة فى تاريخ عمان - بعد أن أضاف إليها مقدمة تاريخية تحليلية امتد بها إلى عام ١٨٧٠[١]. كذلك تجدر الإشارة إلى مخطوطة عمانية ظلت مجهولة المؤلف حتى عثر على نسخة منها فى الدمام تحمل اسم سرحان بن سعيد الأزكوى، واشتهرت هذه المخطوطة التى تتناول تاريخ عمان منذ أقدم العصور حتى عام ١٧٢٨ بسبب ترجمتها إلى اللغة الإنجليزية، وقام بهذه الترجمة المستر روس E.C. Ross وكان معتمدا بريطانيا فى مسقط، وقد نشرت هذه الترجمة فى مجلة الجمعية الآسيوية فى البنغال فى عام ١٨٧٤ تحت عنوان حوليات عمان[٢]. كذلك تجدر الإشارة إلى مخطوطة المعولى بعنوان قصص وأخبار جرت في عمان. ومن المهم أن ننوه بالدور الهام الذى تقوم به وزارة التراث القومى والثقافة بسلطنة عمان فى الاهتمام بتجميع المخطوطات المتعلقة بتاريخ عمان بصفة خاصة وتاريخ الخليج العربى بصفة عامة. وكان من نتيجة ذلك أن وجدت كثير من المخطوطات الهامة طريقها إلى النشر والتحقيق بعد أن كانت حبيسة المكتبات الأجنبية أو فى حوزة بعض الأفراد والأسر[٣]. ولاشك أن دراسة المصادر المحلية هى من الأمور الهامة التي ينبغى أن يركز عليها الباحثون فى تناولهم لتاريخ الخليج العربى حتى يمكن الخروج عن طوق الخضوع المطلق للمصادر والوثائق الأجنبية.

وقد حرصنا في وضعنا لتلك الدراسة أن نتتبع أربعة محاور رئيسية: تناولنا فى المحور الأول الغزو البرتغالى لمنطقة الخليج العربى والمنافسات التى تعرضت لها

---

(١) History of the Imams and Seyyids of Oman by Salil Bin Razik. Introduction and Analysis by Badger. G. London 1871

(٢) Ross. E.C., Annals of Oman by Sirhan Bin Said from old days until 1728.

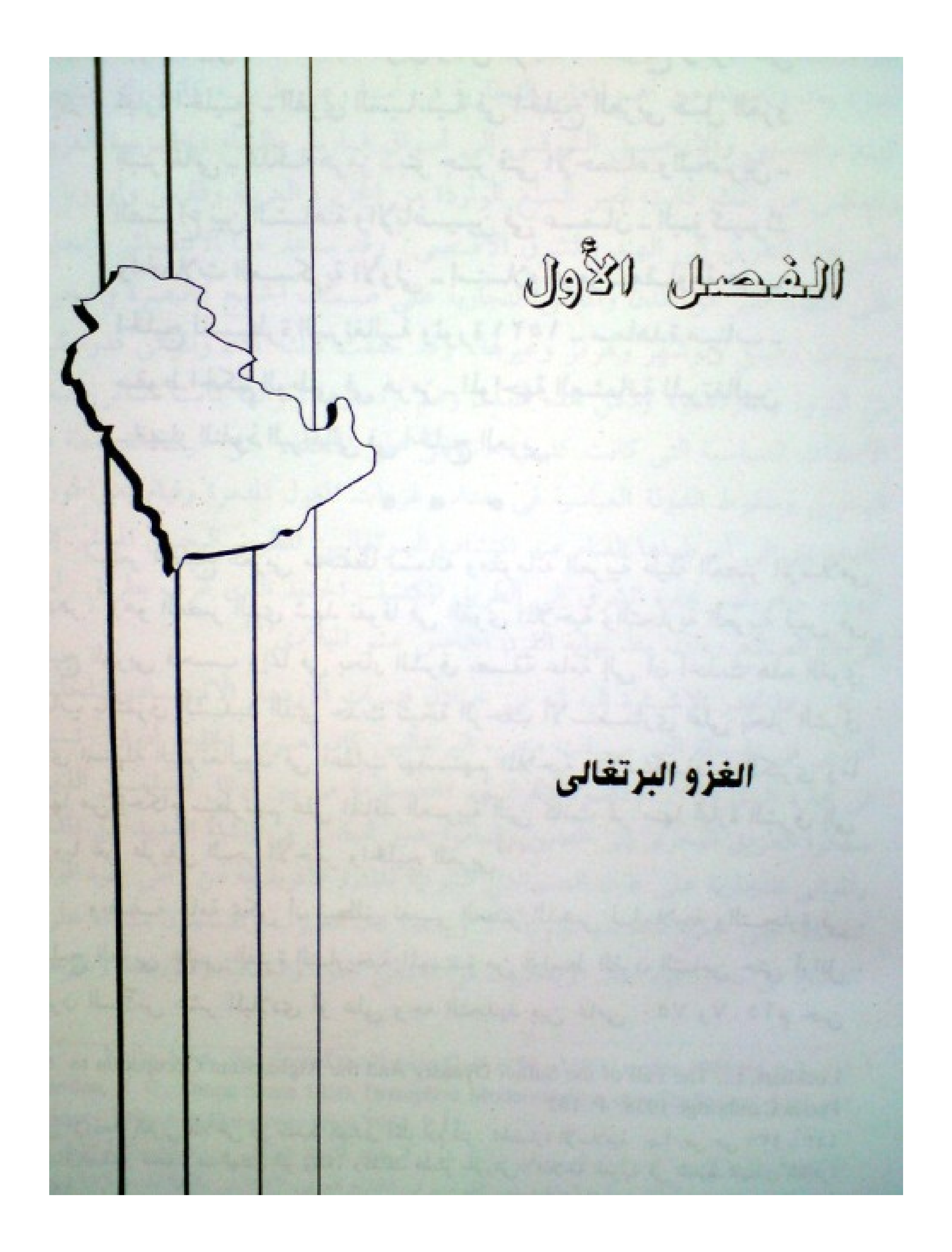
(٣) انظر على سبيل المثال الفتح المبين فى سيرة السادة البوسعيديين تأليف حميد بن محمد بن رزيق ١٢٧٤هـ وكذلك بدر التمام فى سيرة السيد الهمام سعيد بن سلطان تأليف ابن رزيق وتحقيق عبدالمنعم عامر والدكتور محمد مرسى عبدالله. وكذلك سيرة الإمام ناصر بن مرشد تأليف عبدالله بن خلفان بن قيصر وتحقيق عبدالمجيد القيسى. وقد نشرت هذه المخطوطات وزارة التراث القومى والثقافة بسلطنة عمان.

البرتغال من قبل القوى الأوروبية المنافسة، ثم أبرزنا إلى جانب ذلك الدور الذى قامت به القوى العربية المحلية فى التخلص من السيطرة البرتغالية.

أما المحور الثانى فقد ركزنا فيه على ظهور ونمو التشكيلات القبلية التي أخذت جانبا من التنظيم السياسى فى أعقاب انهيار السيطرة البرتغالية من سواحل الخليج العربى، وبصفة خاصة تحالف القواسم وبني ياس فى الساحل الجنوبى من الخليج وتنظيمات العتوب فى الكويت وقطر والبحرين. وتتبعنا فى المحور الثالث تطور السياسة البريطانية فى الخليج، وذلك منذ أن بدأت بريطانيا تنفذ إلى المنطقة تجاريا ثم سياسيا وما تبع ذلك من تصاعد نفوذها العسكرى وعلاقتها بالوحدات السياسية في الخليج حتى النصف الأول من القرن التاسع عشر.

أما المحور الأخير من محاور هذه الدراسة فقد عالجنا فيه علاقات القوى المحلية فى الخليج بالقوى الإقليمية المجاورة لها وعلى وجه خاص الدولة العثمانية وفارس والدولة السعودية الأولى وجانبا من عهد الدولة السعودية الثانية، بالإضافة إلى علاقة محمد على بإمارات الخليج العربى حين وصلت قواته إلى المنطقة فى النصف الأول من القرن التاسع عشر، وما ارتبط بسياسة محمد على فى الخليج من أزمات سياسية مع بريطانيا، واتخذنا من انسحاب القوات المصرية من الخليج والجزيرة العربية فى عام ١٨٤٠ معلما تاريخيا أنهينا به دراستنا هذه التى نرجو أن نكون قد وفقنا فى تناولها.

* * *



الفصل الأول

الغزو البرتغالى

دور الخليج العربى فى الوساطة التجارية بين الشرق والغرب ـ الازدهار الاقتصادى فى مدن وموانى الخليج العربى قبل مجىء البرتغاليين ـ اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح وأثره على تجارة الخليج ـ القوى السياسية فى الخليج العربى قبل الغزو البرتغالى ـ مملكة هرمز ـ بنو جبر فى الإحساء والبحرين ـ الصراع بين النباهنة والإباضيين فى عمان ـ البوكيرك والحملات العسكرية الأولى ـ استسلام هرمز ـ مقاومة عرب الخليج للسيطرة البرتغالية وثورة ١٥٢١ ـ معاهدة ميناب ـ سقوط الحكم الوطنى فى هرمز ـ المواجهة العثمانية للبرتغاليين ـ انهيار النفوذ البرتغالى فى الخليج العربى.

* * *

استمر الخليج العربى محتفظا بسماته ومقوماته العربية طيلة العصر الإسلامى المزدهر، وهو العصر الذى شهد تفوقا فى القوى الملاحية والتجارية العربية ليس فى الخليج العربى فحسب وإنما فى بحار الشرق بصفة عامة إلى أن أخذت هذه القوى تصاب بالتمزق الشديد الذى حدث نتيجة الزحف الاستعمارى على بحار الشرق الذى استهله البرتغاليون فى أعقاب نهضتهم الملاحية والاستكشافية الكبرى وما تبعها من إحكام سيطرتهم على المنافذ العربية التى كانت تمر منها تجارة الشرق إلى أوروبا عن طريقى البحر الأحمر والخليج العربى(١).

وبصفة عامة يمكن أن نطلق تعبير العصر الذهبى للملاحة والتجارة فى الخليج العربى على الفترة التاريخية الممتدة من أواسط القرن الثامن حتى أوائل القرن السادس عشر الميلادى أو على وجه التحديد بين عامى ٧٥٠ و١٥٠٧م حين

(١) Lockhart, L., The Fall of the Safavi Dynasty And the Afghanistan Occupation to Persia Cambridge 1938. P. 182

وعن الازدهار العربى الملاحى فى المحيط الهندى انظر آدم متز: الحضارة الإسلامية جـ١ ص ص ٤٣٩ ـ ٤٤٣ ترجمة الدكتور محمد عبدالهادى أبو ريدة، وكذلك فضلو حورانى: الملاحة العربية فى المحيط الهندى القاهرة ١٩٥٨.

كانت موانى الخليج العربى تقوم بدور رئيسى فى الوساطة التجارية بين الشرق والغرب، وتحدد هذه الفترة من نشوء الخلافة العباسية فى بغداد حتى وصول البرتغاليين إلى مياه الخليج العربى فى عام ١٥٠٧. وكان الخليج العربى خلال هذه الفترة يعد واحدا من أهم المعابر التجارية فى آسيا وعن طريقه كانت تمر منتجات الهند والصين والأرخبيل الشرقى إلى أسواق فارس والشام والجزيرة العربية والعكس من ذلك كانت تعبر السلع الواردة من الجزيرة العربية وفارس وأوروبا من نفس هذا الطريق إلى الهند والشرق الأقصى. وقد ساعد هذا الانتعاش التجارى على ظهور كثير من المدن والموانى التجارية على ضفاف الخليج كالبصرة والبحرين وسيراف وقيس وبوشهر وهرمز وغيرها، وقد حققت تلك المدن والموانى قدرا كبيرا من الثروة والازدهار، ولكن هذه المدن رغم ازدهارها وثرائها كانت تتأثر بضغط الأحداث السياسية التى كانت كثيرا ماتتوالى على المنطقة، مثل حركة القرامطة فى البحرين وسقوط الدولة العباسية فى بغداد وغزوات المغول المدمرة وقيام إمبراطورية الصفويين إلى أن طواها الفناء عند اكتشاف البرتغاليين للطريق البحرى المباشر إلى الهند، وتحويلهم تجارة الشرق إلى الطريق المكتشف الجديد الذى عرف بطريق رأس الرجاء الصالح وذلك منذ نهاية القرن الخامس عشر الميلادى(١).

ومما تجدر الإشارة إليه أنه فى خلال فترات الازدهار الاقتصادى للخليج العربى فى المرحلة التى سبقت مجىء البرتغاليين كان لعرب الخليج أدوارا رئيسية فى تجارة الشرق(٢). وكانوا كأقرانهم الحضارمة من بين أوائل المسلمين الذين سلكوا الطريق البحرى إلى الصين وقاموا بدور أساسى فى إنشاء العديد من المدن والموانى التجارية على طول السواحل الشرقية للقارة الأفريقية من رأس جرد فون شمالا حتى خليج دلجادو جنوبا(٣). وبينما كان العرب والمسلمون سادة على التجارة فى بحار الهند كان الإيطاليون من أهالى جنوة والبندقية وفلورنسة وغيرها

---

(١) Kelly, John., Britain and the Persian Gulf 1795 - 1880 London 1968 pp. 6-8 .

(٢) Landen, R. G., Oman Since 1856. Disruptive Modernization in a Traditional Arab Society, Princeton University press 1968, P.11

(٣) جمال زكريا قاسم: استقرار العرب فى ساحل شرق أفريقيا، المجلد العاشر من حوليات كليّة الآداب ـ جامعة عين شمس، وكذلك صالح العابد، دور القواسم فى الخليج العربى ١٧٤٧ ـ ١٨٢٠ بغداد ١٩٧٦ ص ص ٣٦ ـ ٣٧.

يحتكرون الوساطة التجارية فى البحر المتوسط بين آسيا وأوربا. ومن المعروف أن التجارة بين الشرق والغرب كانت منذ القدم تسلك أحد طريقين، إما طريق البحر الأحمر ومصر أو طريق الخليج العربى والشام، ولما كان كل من الطريقين يقع تحت السيطرة الإسلامية المباشرة فإن ذلك كان سببا فى أن يبحث تجار الفرنجة عن طريق آخر يصلهم ببلاد الشرق مباشرة. وظلت تلك الفكرة تراود الأوروبيين فترة طويلة من الزمن تغذيها حدة الاضطرابات والأزمات السياسية التى كانت تتعرض لها تجارة الشرق بين حين وآخر وتؤثر فيها تأثيرا شديدا[١].

ويمكننا أن نسوق بصدد ذلك مقدار ما أحدثه الغزو المغولى لفارس والعراق على يد تيمور لنك فى عام ١٢٥٨م من آثار سيئة على تجارة الخليج العربى وعلى دوره فى الوساطة التجارية التى كان يقوم بها بين الشرق والغرب، بالإضافة إلى تأثير ذلك الغزو فى الوقت نفسه على طريق التجارة البرى الوعر الذى كان يسلك أواسط آسيا إلى شبه جزيرة الأناضول. ومما تجدر الإشارة إليه أنه على الرغم من أن الظروف السياسية المضطربة كانت تجعل تجار الفرنجة يفضلون التعامل مع ذلك الطريق رغم قسوة مسالكه والخطورة التى كانت تتعرض لها قوافل التجارة العابرة فيه إلا أن فتح الأتراك العثمانيين للقسطنطينية فى عام ١٤٥٣م جعل المسلمين يتحكمون فى تجارة هذا الطريق أيضا، ولعل ذلك مما حفز الأوروبيين إلى التطلع إلى طريق آخر يتخلصون به من الوساطة الإسلامية فى تجارة الشرق فضلا عن تعرض تجارتهم لخطر التوقف فى بعض الأحيان بسبب الاضطرابات السياسية التى كان يتعرض لها المشرق الإسلامى؛ ناهيك عن وصول تجارة الشرق إلى أوروبا بأثمان باهظة بسبب ما كان يفرضه عليها المماليك فى مصر والشام من مكوس جمركية متعددة، وبسبب ما كان يقوم به تجار جنوة والبندقية من مغالاة فى وساطتهم التجارية حين كانت تصل هذه التجارة إلى موانئ البحر المتوسط ويحملونها بسفنهم إلى الأسواق الأوروبية[٢]. ومن ثم كان واضحا أن اكتشاف

(١) ج. ج لوريمر : دليل الخليج - القسم التاريخى جـ١ الدوحة ١٩٦٧. ص٣

(٢) شارل ديل : البندقية جمهورية أرستقراطية ترجمة توفيق أسكندر وأحمد عزت عبدالكريم، الجمعية الملكية المصرية للدراسات التاريخية القاهرة ١٩٤٧، ص ١٤٧ ومابعدها.

طريق بحرى مباشر غير مطروق بين أوروبا والشـرق سيعود بثروة ومكانة عظيمتين على الدولة التى تستطيع اكتشاف ذلك الطريق والإفادة منه.

وكـانت البرتغـال هى الدولة البـحرية الأولى التـى كرست أكـبر قـدر من جهودها فى البحث عن هذا الطريق، وحدث ذلك منذ بداية العصور الحديثة حين بدأت تزول كـثيـر من الأوهام والخـرافات التى كـانت تغلف أذهان الأوروبيـين، وساعد على التقـدم البحرى فى البرتغال تشجيع ملوكهـا وأمرائها لذلك النشاط. وظهرت بداية التحول الجديد فى سير التـجارة العالمية حين تمكن بارتلميو دياز Ba-rthlemo Diaz وكان واحدا من المغامرين البحريين الذين وجـدوا اهتماما وتشجيعا من فيكتـور عمانويل Emanuel ملك البـرتغال من الـوصول إلى أقـصى الطرف الجنوبى من القارة الأفريـقية، وعلى الرغم من أنه لم يتمكن من العـبور للوصول إلى سواحلها الشرقية وسواحل آسيـا الغربية بسبب العواصف الشديدة التى تعرض لها مما اضطره للعودة إلى البرتغال إلا أن ذلك لـم يثن الملك عمانويل عن تشجيع سلسلة المحـاولات الأخرى التى تمكن فـاسكودى جامـا Vasco De Gama فى إحداها من اجـتياز الطرف القـصى من القارة الإفـريقية الذى أصـبح يعرف باسم طريق رأس الرجاء الصـالح بدلا من رأس العواصف. ونجح فاسكو دى جـاما فى الوصول إلـى الهند فى أغسطس ١٤٩٧، وانتـهت رحلته بعـودته إلى لشبـونة فى سبتمبر ١٤٩٩ واعتبرت رحلته هذه من أشهر الرحلات الكشفية فى التاريخ[١].

وكانت النتيجـة السريعة والمحققة لتلك الرحلـة ثورة فى تجارة أوروبا ومجدا عظيما للبرتغال حتى أن ملوكها أصبحوا يطلقون على أنفسهم سادة الفتح والملاحة والتجارة فى الهند والحبشة وجزيرة العرب وفارس وسرعان ماصدق البابا على هذا اللقب[٢]. على أن ذلك المجد الذى حظيت به البرتغـال إنما تم على حساب زوال

(١) Grenville, Freeman, Select Documents, The East African Coast pp. 52- 53, Oxford, 1962 cf. Raventstein, Journal of the first voyage of Vasco da Gama, Haklyut Society London 1898, pp. 32- 46.

(٢) Philips, Wendell, Oman, A History, London 1967, P.30 See also Kassim, G., Omani Portuguese Conflict in the 17 th Century - Bulletin of the Institute for Arab Research and Studies Vol. X Cairo 1980.

السيادة الإسلامية على التجارة بين آسيا وأوروبا. ولم يقتصر الأمر على تدهور الأوضاع الاقتصادية الإسلامية فحسب وإنما كان واضحا أن فاسكو دى جاما بوصوله إلى سواحل الهند قد وضع أول ركيزة للاستعمار الأوروبى للشرق الإسلامى فى العصر الحديث[١].

ومن ناحية أخرى أثر اكتشاف الطريق البحرى المباشر تأثيرا سيئا على تجارة الخليج العربى نتيجة سياسة الاحتكار التى طبقها البرتغاليون فى تعاملهم مع أسواق الشرق وتحويلهم التجارة إلى الطريق المكتشف الجديد مما ترتب عليه تأثير اقتصادى سيئ على عرب الخليج الذين كانوا يجنون أرباحا كثيرة من جراء عبور التجارة الآسيوية ـ وخاصة تجارة التوابل التى كانت تجد رواجا كبيرا فى الأسواق الأوروبية ـ فى مياههم ويشهد بذلك ازدهار مدنهم وموانئهم ذلك الازدهار الذى اعترف به البرتغاليون أنفسهم[٢]. ولعل من سخريات التاريخ أن الملاح العربى الشهير شهاب الدين أحمد بن ماجد هو الذى قاد سفينة فاسكو دى جاما من ماليندة فى شرق إفريقيا عبر المحيط الهندى إلى كاليكوت على سواحل الهند الغربية، كما تشير إلى ذلك بعض الروايات التى إن تحقق ماورد بها فإن ذلك البحار العربى الخليجى المولد[٣] يكون قد ساعد ـ من غير إدراك ـ على إنهاء السيادة الإسلامية على تجارة المحيط الهندى وحرمان منطقة الخليج العربى من مصدر أساسى من مصادر ثروتها، تلك الثروة التى أقامت مدنا بل ودولا تجارية عظيمة الثراء كدولة هرمز التى سنتعرض لها فيما بعد[٤]. وما لبث البرتغاليون بعد وصولهم إلى مصادر تجارة الشرق أن صارعوا المسلمين بعنف وقسوة واستطاعوا أن يقضوا على

---

(١) صادق نشأت : تاريخ الخليج السياسى ـ ترجمة وتحقيق أحمد كمال حلمى وبدر الخصوصى، الكويت ١٩٧٢ ص٦٠.

(٢) The Commentaries of the Great Afonso Dalbouquerque. Translated by W. Gray. Hakluyt Society London 1884, P.187.

(٣) ولد فى رأس الخيمة وتدرب على فنون الملاحة فى سواحل الخليج العربى، ومن أبرز مؤلفاته الفوائد فى أصول علم البحر والقواعد، وحاوية الاختصار فى أصول علم البحار إلى جانب عدد من الأراجيز والمرشدات الملاحية وتوجد مجموعات من مؤلفاته المخطوطة فى المكتبة الوطنية بباريس، وقد حقق بعضا منها المستشرق الفرنسى جبريل فيران Ferranad الذى يرجع إليه الفضل فى اكتشاف تلك المخطوطات.

(٤) دونالد هولى: عمان ونهضتها الحديثة (مترجم)، مؤسسة سايس الدولية لندن (بدون تاريخ) ص٢٨.

وساطتهم التجارية[١]، ويحتكروا التجارة لأنفسهم ويضعفوا ما كان للعرب والمسلمين فيها من نشاط ظاهر، ناهيك عما اتسم به الصراع الذى نشب بين البرتغاليين والمسلمين بنزعات غير إنسانية وتعصب دينى صارخ أعاد إلى الأذهان ذكرى الحروب الصليبية فى العصور الوسطى[٢].

وقد بادرت الدول الإسلامية التى كان يهمها استمرار التجارة عبر الطرق البرية والبحرية القديمة بمساعدة القوى المحلية الإسلامية فى صراعها ضد البرتغاليين، فقامت دولة المماليك، التى كانت تحكم مصر والشام والحجاز واليمن، بالتعاون مع تلك القوى، وكذلك مع البنادقة التى انهارت تجارتهم بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح، ووحدت المصالح الاقتصادية بينهم وبين القوى الإسلامية بزعامة المماليك للتصدى للسيطرة البرتغالية. ونشط السلطان قنصوة الغورى نشاطا سياسيا وعسكريا حيث طلب من القوى الأوروبية التدخل لوقف الغزو البرتغالى ومنعهم من المضى فى سياسة الاستفزاز الدينى للمسلمين، وذهب فى تحذيره إلى حد التهديد بتدمير الأماكن المقدسة المسيحية فى فلسطين ومنع الحج إلى الأراضى المقدسة المسيحية فيها[٣]. وفى تحركه العسكرى وجه حملة من ميناء السويس بقيادة حسين الكردى باش تجريد الهند وصلت إلى الساحل الغربى للهند فى منتصف عام ١٥٠٨ وألقت مراسيها فى ميناء ديو Deo، وكان ذلك الميناء يتبع سلطنة كجرات الإسلامية التى استنجدت بالمماليك[٤]، ولكن هزيمة الأسطول المصرى المملوكى فى المعركة البحرية التى دارت فى عام ١٥٠٩ وضعت نهاية للتفوق الملاحى الإسلامى لتبدأ منذ ذلك التاريخ حقبة جديدة من السيطرة الاستعمارية الاحتكارية على تجارة الشرق، وخاصة بعد أن فشل المماليك فى

---

(١) يجدر الإشارة إلى أن كثيرا من الباحثين الأوروبيين أطلقوا على الوساطة التجارية التى كان يقوم بها العرب الاحتكار التجارى وإن كان من المعروف أن النشاط البحرى هو الذى جعل لهم دورا في تجارة الشرق وليس احتكارهم للتجارة كما فعل البرتغاليون، راجع ج.ج لوريمر جـ١ ص٣ الدوحة ١٩٦٧.

(٢) الشيخ زين الدين: تحفة المجاهدين فى بعض أحوال البرتغاليين، نشر دافيد لويز لشبونة ١٨٩٨ ص٤٥.

(٣) عبدالعزيز الشناوى: المراحل الأولى للوجود البرتغالى فى شرق الجزيرة، من أعمال مؤتمر دراسات شرق الجزيرة العربية جـ٢ الدوحة ١٩٧٦، ص ص ٦٥٢ ـ ٦٥٤.

(٤) ابن إياس: بدائع الزهور فى وقائع الدهور جـ٤ تحقيق محمد مصطفى، القاهرة ١٩٦٠، ص١٨٥.

محاولتهم الوصول إلى الهند بعد معركة ديو[1]، مما أدى إلى الإطاحة بمشروعاتهم في المحيط الهندي. حقيقة أن الأتراك العثمانيين تصدوا للبرتغاليين وبذلوا عدة جهود بهدف إعادة الحياة إلى الطرق التجارية القديمة، وكان ذلك بعد فتحهم لأقطار المشرق العربي في الشام ومصر والحجاز واليمن والعراق إلا أن جهودهم لم يقدر لها النجاح. كذلك فشل الصفويون في التصدي للبرتغاليين بسبب افتقارهم إلى القوة البحرية الفعالة التي كانت ضرورة حتمية لمنازلة البرتغاليين لما تميزت به امبراطوريتهم بتفوقها في ميزان القوى العسكرية البحرية. ومما تجدر الإشارة إليه أن البرتغاليين لم يكتفوا بتحويل تجارة الشرق إلى الطريق البحري المباشر إلى غرب أوروبا - طريق رأس الرجاء الصالح - وإنما عملوا على إحكام سيطرتهم على الطرق البحرية الأخرى حتى تصبح جميع منافذ التجارة في أيديهم، ومن ثم اتجهوا إلى السيطرة على الخليج العربي لمنع التجارة من النفاذ منه إلى نهر الفرات وسواحل الليفانت، أو الاستفادة من مرور هذه التجارة لصالحهم إمعانا في تطبيق سياستهم الاحتكارية[2].

وقد سيطرت الروح الصليبية على ضباط البحرية البرتغالية الذين نشأوا في وقت كان الصراع فيه يدور على أشده بين المسلمين والمسيحيين في شبه جزيرة أيبريا فأشربوا في قلوبهم الرغبة العنيفة في الانتقام من المسلمين، ويجسد هذه الحقيقة الضابط البحري أفونسو دي البوكيرك الذي استهل حياته العسكرية في الجيوب البرتغالية على سواحل المغرب ثم انتقل إلى ميدان الصراع الصليبي في بحار الشرق. وقد كلف البوكيرك من قبل عمانويل الثاني ملك البرتغال بإعداد مشروع يهدف إلى إنشاء إمبراطورية برتغالية كبيرة في الشرق ولذلك علق البوكيرك أهمية كبيرة على بناء القلاع العسكرية الحصينة وانتزاع اعتراف الحكام المحليين بالبرتغال كسلطة مسيطرة، ولتحقيق هذا المشروع اتجه إلى تدمير الأساطيل المحلية

---

(١) عن هزيمة ديو البحرية انظر:

Barbosa, Durate, A Description of the Coasts of East Africa and Malabar in the Begining of the Sixteen Century Trans. by H. Stanley, Haklyut Society, London 1866, pp. 75- 76.

(٢) Bent, Theodore, Southern Arabia. London 1905 P. 50

والتخلص منها، كما قام بأعمال شاذة غير إنسانية ضد البحارة المسلمين، وإلى أفونسو دى البوكيرك ينسب بناء مجموعة من الحصون البرتغالية التى وصفت بالحصون التى لاتقهر فى كل من هرمز ومسقط والبحرين، ولاتزال هذه الحصون باقية حتى يومنا هذا شاهدة على ماكان عليه البرتغاليون من غلظة وتسلط.

وكان أبرز ما استهدفه البوكيرك تحطيم مملكة هرمز التى كانت تتمتع بثراء كبير طيلة العصور الوسطى. ويمكن تأريخ بداية العمليات العسكرية البرتغالية فى الخليج حين تحركت ستة عشر سفينة برتغالية فى عام ١٥٠٧ يقودها البوكيرك بنفسه للسيطرة على هرمز لأهمية موقعها الإستراتيجى كمنفذ للخليج وباعتبارها أقوى تنظيم سياسى واقتصادي عرفته المنطقة فى ذلك الوقت[١].

وقد يكون من المفيد أن نتفهم الأوضاع السياسية فى الخليج العربى فى الفترة التى سبقت مجىء البرتغاليين إلى سواحل الخليج العربى ومن الطبيعى أن نبدأ حديثنا بمملكة هرمز التى كانت كما ذكرنا من أهم وأقوى التنظيمات السياسية والتجارية. وقد أخذت تلك المملكة تحتل مركزها التجارى المتفوق منذ القرن الحادى عشر الميلادى[٢]، واستطاعت أن تتبوأ مكان الصدارة فى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى حين أصبحت أهم منطقة لتجمع السلع التجارية فى الخليج وأكبر منافس لميناء قيس الذى حل خلال الفترة من القرن الثانى عشر إلى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى محل ميناء سيراف الذى كان من أهم الموانى التجارية فى الخليج العربى[٣].

وعلى الرغم من أن الكتاب الفرس يؤكدون على أن مدينة هرمز كانت مدينة فارسية بحكم نشأتها، إلا أنه لامجال للشك أن المدينة أخذت صبغة عربية حين اندفعت إليها القبائل العربية بعد الفتح الإسلامى لفارس، وأكثر من ذلك ـ كما يؤكد بعض الباحثين ـ أن الأسر المالكة التى تعاقبت على حكم هرمز ترجع إلى

(١) Wilson, Sir Arnold, The Persian Gulf, An Historical Sketch from the earliest times the begining of the 20 th Century, London 1954, p. 185.

(٢) Jean Aubin, le Prince d' Ormuz du XIIIE au XVE Siecles P. 7 ff, Mare Lusoindicum II, 1973.

(٣) Ibid., P.120 ff.

أصول عربية، كما كان أمراؤها سنيين على خلاف المذهب الشيعي السائد في بلاد فارس. أما المصنفون الجغرافيون المسلمون كالاصطخري والمقدسي والإدريسي فإنهم يؤكدون على عالمية المدينة حين يتحدثون عن سكانها الذين يخالطهم الكثير من التجار الفرس والهنود والزنوج والبلوش والترك والعرب والأوروبيين إلى الحد الذي كانت تظهر فيه المدينة كمنطقة تجمع عالمية، وإن احتفظت مع ذلك بطابعها العربي والإسلامي. واستمرت هرمز تحتل مكان الصدارة والتجارة البحرية إلى أن قضت جحافل المغول على الدولة العباسية وسقطت عاصمتها بغداد في عام ١٢٥٨، وحينئذ لم تسلم هرمز من الفوضى والدمار وخاصة بعد أن تمكن المغول في عام ١٣٠١م من الإغارة على المدينة والاستيلاء على كل شيء نفيس فيها وأعملوا الذبح والتقتيل في سكانها. وقدر للرحالة ماركوبولو Marco Polo أن يكون آخر شاهد على عظمة هرمز حين زارها في عام ١٢٩٢م وأعطانا وصفا شائقا عنها وأفاض في الحديث عن جوانب كبيرة من حركتها التجارية[١].

ومما يستلفت النظر أن الطاقة التجارية الكبيرة التي تمتع بها سكان هرمز لم تجعلهم يستسلمون لغارات المغول المدمرة وإنما انتقلوا بأميرهم بهاء الدين إلى جزيرة قيس ثم إلى جزيرة صغيرة عرفت باسم جزيرة جرون لاتبعد كثيرا عن مدينتهم القديمة، وأخذوا من هناك يزاولون نشاطهم التجاري. وبمضي الزمن أخذت جزيرة جرون تنتعش اقتصاديا وتستعيد مجد هرمز القديم، وتيمنا بعظمة مدينتهم السابقة هرمز أطلقوا على الجزيرة الجديدة اسمها التي نمت وأصبحت عاصمة لأكبر تنظيم سياسي وتجاري شهدته منطقة الخليج العربي حيث اشتملت على جزء كبير من سواحل شبه الجزيرة العربية من ناحية وسواحل فارس الجنوبية من ناحية أخرى، كما امتد نفوذها الإداري على طول السواحل الغربية للخليج حتى البصرة، واستمرت كذلك قرابة مائتي عام حتى استولى البرتغاليون عليها منذ أن وطئت أقدامهم الخليج العربي في أوائل القرن السادس عشر الميلادي[٢].

(١) Ricci, A., Travels of Marco Polo.

(٢) لعل من أوفى الدراسات التي كتبت عن أمراء هرمز وملوكها بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر دراسة جان أوبان.

Jean Aubin, Le Prince D'Ormuz du XIIIE au XVE siecles.

ومما يذكر أن جزيرة هرمز التى كانت قاعدة لتلك المملكة المترامية الأطراف كانت من بين المناطق الهامة التى زارها الرحالة ابن بطوطة وذلك فى رحلته الأولى التى قام بها فى الفترة من ١٣٢٥ إلى ١٣٤٩م[1]. وقد خلف لنا وصفا ممتعا عن هرمز وسلطانها وتجارتها وحياتها الاجتماعية، وقدم صورة شيقة عما كانت عليه المملكة من عظمة وثراء. وفى وصفه للجزيرة ذكر أن مدينة هرمز مدينة كبيرة بها أسواق حافلة وأنها مرسى السند وفارس وخراسان والهند ومنها كانت تحمل سلع الهند إلى العراق وفارس وخراسان، وقد بدأ ابن بطوطة رحلته إلى هرمز حين توجه إليها من بلاد عمان وقام أولا بزيارة المدينة القديمة التى وجدها خاوية مهدمة لاحياة فيها وليس بها سوى القليل من صيادى السمك الذين اتخذوها ملجأ لهم لقضاء أوقات راحتهم، وذكر ابن بطوطة أن هرمز الجديدة تبعد عن هرمز القديمة قرابة ثلاث فراسخ وأنها تقابلها من ناحية البحر، وأبدى إعجابه بأسواق المدينة المجهزة تجهيزا حسنا، كما وصف سلطان هرمز قطب الدين بالكرم والتواضع والأخلاق النبيلة غير أنه وجده مشغولا ومتهيئا للحرب ضد أخيه نظام الدين. وذكر ابن بطوطة أنه استقى معلوماته التاريخية عن مملكة هرمز من وزير السلطان شمس الدين محمد بن على والقاضى عماد الدين الشونكارى. وقد أسهب ابن بطوطة فى الحديث عن حياة السكان واعتمادهم فى معيشتهم على السمك والتمر الذى كان يجلب إليهم من البصرة وعمان، واسترعى نظر ابن بطوطة ندرة مياه الشرب الذى هو غالى الثمن يجمع عن طريق الأمطار، وذكر أن هناك صهاريج وخزانات صناعية كبيرة لجمع المياه حيث يذهب الناس لجلب مياه الشرب بآنية كبيرة من القرب يملأونها ويحملونها على ظهورهم.

ولم يكن الرحالة المسلمون وحدهم الذين استرعى انتباههم أهمية هرمز وإنما جذبت شهرة الجزيرة انتباه عدد كبير من الرحالة الأوروبيين نذكر من بينهم الرحالة لودفيج وارتمان Wartheman الذى زار الجزيرة فى عام ١٥٠٢، أى فى السنوات القليلة السابقة مباشرة لوصول البرتغاليين إلى هرمز، وكان بكتابته عنها خير شاهد على عظمتها، ومما ذكره بصدد ذلك أنه كان يوجد بميناتها مايزيد أحيانا على ثلاثمائة سفينة تجارية لمختلف بلدان العالم راسية على أرصفتها البحرية، كما كان

(١) راجع أبو عبدالله محمد بن بطوطة: تحفة النظار فى عجائب الأسفار وغرائب الأمصار جـ١، القاهرة ١٩٣٣.

يقيم فيها بصفة دائمة أكثر من أربعمائة تاجر وأن معظم تجارتها كانت من اللؤلؤ والأحجار الكريمة والحرير والعقاقير والتوابل. كما قدم الأب بيير رانيل Raynal وصفا شيقا لعظمة المدينة وازدهارها التجارى وأشار إلى أن التجار يفدون إلى هرمز من جميع أنحاء العالم ويتبادلون السلع ويعقدون الصفقات التجارية فى هدوء يندر أن نجد مثيله فى أى مكان تجارى آخر. كما ذكر الرحالة البرتغالى دورات باربوسا Barbosa أن المدينة ليست كبيرة على قدر ماهى جميلة، ووصف بيوت أثريائها بأنها أشبه ماتكون بالمتاحف لما تحويه من تحف وقطع أثاث واردة من الهند والصين والسجاد الفارسى الفاخر والقناديل المصرية ذات النقوش الشرقية البديعة[1]. ولاشك أن الازدهار التجارى الذى تمتعت به جزيرة هرمز كان يعود بالدرجة الأولى إلى موقعها الإستراتيجى فى المضايق المؤدية إلى الخليج العربى، وأضيف إلى ثرائها التجارى الدخل الذى كانت تحصل عليه من المكوس الجمركية التى كانت تفرضها على الموانى التابعة لها حتى قدر دخل الدولة من هذه الرسوم وحدها بأكثر من ستين ألف ريال هذا إلى جانب استغلالها لمصائد اللؤلؤ الذى أضاف إليها مصدرا هاما من مصادر ثروتها.

وعلى الرغم من المساحة الصغيرة للجزيرة فإن ملوك هرمز كانت لهم سلطة شكلية فقط إذ تركزت السلطة الفعلية فى أيدى مجموعة أوليجاركية من التجار، وعلى أية حال فقد ساعد على نمو وازدهار الجزيرة بعدها عن مراكز القلاقل السياسية داخل فارس، ورغم أن الجزيرة كانت تجمع الكثير من الأجناس إلا أن اللغة العربية كانت لغة التعامل، كما كان أغلب سكانها من العرب إذ إن طبيعة النشاط البحرى التجارى ساعد على أن يبرز فيها بحارة وتجار من اليمن وعمان والخليج العربى. واستطاعت هرمز بنشاطها التجارى أن تكون من أعظم الدول التى شهدتها المنطقة عظمة وثراء، وربما يرجع سبب ذلك الازدهار إلى أن دائرة النشاط التجارى قد اتسعت فى نهاية العصور الوسطى فلم تعد مقصورة على نقل التجارة بين الهند وسواحل شرق إفريقيا إلى قلب العالم الإسلامى بل أصبحت جزيرة هرمز تمثل الحلقة الهامة فى نقل التجارة العالمية بين الشرق والغرب وخاصة

---

(١) عبدالسلام عبدالعزيز فهمى: مملكة هرمز المجد في نشأتها وازدهارها والعبرة فى سقوطها واستسلامها بحث فى مجلة العربى الكويتية.

حين دخلت المدن الإيطالية ذلك الميدان، وأصبحت هرمز مثلا يضرب على الثراء ويعرفها رجل الشارع الأوروبى واعتبرت خاتم العالم وأن من يمتلكها يمتلك العالم بأسره![1].

ولعل من ينظر الآن إلى تلك الجزيرة التى تكاد تكون خالية من السكان يدهش كثيرا حين يعرف أن سكانها كانوا يبلغون فى الفترة التى سبقت مجىء البرتغاليين بأكثر من أربعين ألف نسمة، وأنهم كما سبق أن أوضحنا وطبقا لروايات الرحالة المعاصرين كانوا يعيشون على مستوى عال من الرفاهية والثراء بالرغم من أنهم يحضرون جميع احتياجاتهم الرئيسية من خارج الجزيرة بما فى ذلك مياه الشرب التى كانوا يضطرون إلى نقلها من خارج الجزيرة إذا ما قلت الأمطار. وقد اشتهر من بين ملوك هرمز السلطان قطب الدين فيروز شاه الذى حكم حتى عام ١٤١٧، وكان يلقب بملك هرمز والبحرين والإحساء والقطيف، وهو السلطان الذى كان قائما بالحكم حين زار ابن بطوطة الجزيرة. كذلك اشتهر من بين سلاطين هرمز سيف الدين مهار الذى حكم حتى عام ١٤٣٥م وكان يوصف بأنه صاحب هرمز والبحرين وكانت تتبعه كل من عمان والقطيف وقلهات[2].

ومع بداية القرن الخامس عشر بدأ الضعف يدب فى كيان هرمز بسبب تفاقم الصراع بين أفراد الأسرة المالكة، ولعل ذلك الصراع هو الذى شجع القبائل العربية المنتشرة على طول السواحل الشرقية للجزيرة العربية على التخلص من تبعية هرمز. والأمر الذى لاشك فيه أن عدم وجود سلطة مركزية قوية هى التى ساعدت

---

(١) لم تحصل هرمز على شهرة تجارية فحسب بل حصلت على شهرة فى عالم الأدب إذ أشاد بها بعض الكتاب والشعراء وعلى رأسهم الشاعر الإنجليزى جون ميلتون Melton فى ديوانه الفردوس المفقود Lost Paradise حيث أوردينا من الشعر جاء فيه إذا كان العالم مجرد خاتم فإن هرمز هى جوهرته If all the world were a ring Ormuz the Diamond should bring

كما كتب فى نفس القصيدة متحدثا عن الشيطان:

مرتفعا على عرش سام يليق بالملوك ... ويطغى دون عناء على ثروة هرمز والهند
أو حيث يغدق الشرق الفتان بأغنى الأيادى ... اللآلى والذهب البربرى على ملوك بلاده

انظر دونالد هولى: عمان ونهضتها الحديثة ـ مرجع سبق ذكره ص٢٦.

(٢) Aubin, J., op. cit., P. 120

المناطق التابعة لهرمز على الاستقلال وخاصة أن هذه المناطق كانت تختلف فى تبعيتها لهرمز بين التبعية الاسمية والفعلية، فعلى حين كانت مناطق القطيف والإحساء تعين حكامها كان حكام البحرين يعينون من قبل ملوك هرمز مباشرة، كما أن الامتداد الكبير الذى بلغته هذه الدولة كان عاملا هاما من عوامل تقويضها، إذ استطاعت أن تبسط سلطانها السياسى على أجزاء مترامية من شواطئ الخليج وجزره شملت السواحل العمانية وامتدت حتى القطيف شمالا كما دخلت جزر البحرين وجزيرة قشم فى تبعيتها إلى جانب قسم كبير من السواحل الفارسية المطلة على الخليج، وكانت كل هذه المناطق تشكل جزءا من تلك الدولة الواسعة الثراء.

ومن الطبيعى أن يؤدى تفسخ مملكة هرمز إلى إفساح المجال لظهور مجموعة من القوى السياسية خلال النصف الأول من القرن الخامس عشر الميلادى وقد استطاعت تلك القوى منازعة هرمز فى سيادتها. وظهر ذلك واضحا على عهد الملك سيف الدين مهار الذى شهد حكمه اضطرابا سياسيا وصراعا أسريا خطيرا مكن لبنى جبر من الإطاحة بسيادته وأحرزوا نجاحا فى انتزاع الإحساء والقطيف من أيدى حكامها السابقين الذين كانوا خاضعين لملوك هرمز. وساعد بنو جبر على تثبيت نفوذهم فى الإحساء ذلك الصراع الأسرى الذى كان قائما بين سيف الدين مهار وأخيه فخر الدين تورانشاه، بل إن ذلك الصراع أعطى لبنى جبر فرصة التدخل فى مملكة هرمز ذاتها حين استعان بهم فخر الدين ضد أخيه، وعندما انتهى الأمر بفوزه على أخيه ووصوله إلى الحكم فى عام ١٤٣٩ كانت المكافأة التى غنمها بنو جبر هى التوسع فى رقعة أراضيهم حيث ضموا إليهم القطيف. وما كاد ينتصف القرن الخامس عشر حتى كان بنوجبر قد نجحوا فى السيطرة على البحرين وامتدوا إلى بعض أقاليم نجد وتمكنوا من تسيير دفة أمورهم مستقلين تماما عن مملكة هرمز، وأصبح شيخ بنى جبر يلقب بسلطان البحرين والقطيف والإحساء ورئيس أهل نجد. ولم يقتصر امتداد سيطرة الجبور على تلك المناطق المشار إليها وإنما امتد نفوذهم إلى كثير من المقاطعات والموانى العمانية، وكان هذا التعاظم فى النفوذ الذى بلغه الجبور دافعا لاستئناف الصراع بينهم وبين ملوك هرمز، وإن كان من

سوء الطالع أن يواكب ذلك الصراع وصول البرتغاليين إلى سواحل الخليج فعملوا على تعميقه تحقيقا لمصالحهم[1].

وبينما كانت الأوضاع فى الإحساء والبحرين تتأرجح بين سيطرة بنى جبر وسيادة مملكة هرمز كانت الأوضاع السياسية فى إقليم عمان أكثر اضطرابا، ففى الوقت الذى كانت فيه المناطق الساحلية من عمان فى قبضة ملوك هرمز كانت المقاطعات الداخلية فى أيدى الملوك النبهانيين الذين كانوا يخوضون صراعا دائبا ضد الإباضيين المتحمسين لبعث الإمامة الإباضية، وكان يدفع الإباضيين إلى خوض ذلك الصراع رغبتهم فى التخلص من نفوذ هرمز والنباهنة معا. وحول منتصف القرن الخامس عشر نجح الإمام عمر بن محمد الخروصى فى انتزاع الحكم من النبهانيين وأعلن بعث الإمامة الإباضية إلا أنه لم يلبث أن أطيح به من قبل النبهانيين بعد سنوات قليلة قضاها فى الحكم، ولعل ذلك مما جعله يستعين ببنى جبر فى الإحساء الذين نجحوا فى إعادة تنصيبه إماما على عمان فى عام ١٤٨٧ وطرد الملك النبهانى سليمان. وكان من الطبيعى أن تصبح عمان الداخل فى دائرة نفوذ بنى جبر خاصة حينما تجدد القتال بين الإباضيين والنبهانيين على عهد الإمام محمد بن إسماعيل الذى خلف الإمام الخروصى ونجح فى قتل الملك سليمان النبهانى بفضل استعانته بالجبور فى عام ١٥٠٠.

ولعل ما يؤكد تفوق نفوذ بنى جبر فى عمان أن البرتغاليين حينما دخلوا الخليج أول مرة فى عام ١٥٠٧ تحدثوا عن قوتهم حتى أن أفونسو دى البوكيرك ذكر أن عمان الداخل كانت خاضعة لشيخ من شيوخهم الذى وصفه بملك الجبور، وذكر أن جميع جزيرة العرب تدين له بالولاء. وعلى الرغم من أن ذلك الوصف يحمل الكثير من المبالغة إلا أنه يحمل أيضا كثيرا من الحقائق فالأمر الذى لاشك فيه أن الجبور كانوا قد تمكنوا حول بداية القرن السادس عشر من السيطرة على كثير من المقاطعات الداخلية فى الجزيرة العربية، بالإضافة إلى الإحساء والقطيف

---

(١) عبداللطيف الحميدان: التاريخ السياسى لإمارة الجبور فى نجد وشرق الجزيرة العربية العدد ١٦ من مجلة كلية الآداب ـ جامعة البصرة ١٩٨٠.

والبحرين وعمـان الداخلية والساحلية، ويؤكد ذلك ما أشـار إليه المؤرخ البرتغالى باروس Barrotz من أن الجبـور كانوا يشنون هجـمات مسـتمرة على مملكة هرمز وأنهم كانوا يشكلون خطرا عليهـا، وسوف نشير فيمـا بعد إلى السلطان أجود بن زامل الجبرى الذى كان من أشهر سـلاطنة الجبور، والذى بلغت سلطة الجبور على عهده أقـصى اتساع لها فى الإحسـاء والقطيف والبحرين وعمـان ونجد بل إنه كان يفرض الزكاة على بعض ملوك العجم المجاورين له.

نخلص من ذلك أن الصراع الذى كان قائما بين ملـوك هرمز وشيوخ الجبور كان هو الـوضع السائد فى الخليج حـين وصل البرتغـاليون إلى سـواحله. وعلى الرغم من أن الجبور كانوا هم القوة الصاعـدة إلا أن هرمز كانت هى القوة الرسمية المتصدية لزعامة الخليج، وكان عليهـا أن تتكفل بحماية الخليج من الغزو البرتغالى المفاجئ رغم التفكك السياسى الذى كانت تعانى منه[١]. ولعل مما يلفت النظر أن الدولة الصفوية الناشئة فى فـارس حول ذلك الوقت لم تتعاون مع مملكة هرمز فى هذه المهمة وتلك الملاحظة لها أهميتهـا الخاصة؛ لأنها دليل واضح على عدم تبعية هرمز للدولة الصـفوية أو للدول التى سبقـتها فى فارس، وذلك خـلافا لادعاءات بعض الكتاب الإيرانيين المعاصرين الذين تمـادوا فى تطبيق النظرة القومية على ذلك العهد إلى حد ادعائهم بأن نفوذ فارس كـان يمتد على طول سواحل شرق الجزيرة العربية باعتبار تبعيـة هرمز للسيادة الفارسية[٢]. وحقيقـة الأمر أن مملكة هرمز لم تكن دولة عربية أو فارسـية وإنما كانت دولة إسلامية تضم مـختلف الجنسيات التى تسكن حول شواطئ الخليج ويؤمها عدد كبـير من العناصر الإسلامية الأخرى وإن تمتع فيها العرب بالنفوذ الأدبى.

وعلى الرغم من أن البـرتغاليـين بدأ أول احتكاكـهم بمنطقة الخليج الـعربى بوصولهم إلى هرمز فى عام ١٥٠٧، إلا أن عمليـاتهم العسكرية لم تظهر واضحة

(١) Adamyiat, F., Bahrein Islands, A legal and Diplomatic Controversy New York, 1955. p. 14.

(٢) صلاح العقاد : التيارات السياسية فى الخليج العربى القاهرة ١٩٧٤ ص ص ١٠ ـ ١١.



فى هذه الفترة المبكرة من أوائل القرن السادس عشر، إذ اضطر البرتغاليون إلى وقف عملياتهم فى هرمز بهدف التفرغ لحرب المماليك فى المحيط الهندى ولم يعاود البرتغاليون اهتمامهم بإخضاع هرمز إلا بعد ذلك بعدة سنوات وعلى وجه التحديد فى عام ١٥١٥. ومما يستوجب الأسف أنه فى خلال تلك الفترة التى انصرف فيها البرتغاليون مؤقتا عن هرمز لم تظهر تكتلات عربية فى منطقة الخليج العربى بهدف مواجهة التحديات البرتغالية وإنما على العكس من ذلك أخذت منطقة الخليج تعانى قدرا كبيرا من التفكك مما سيسهل عمل البرتغاليين فيما بعد، فقد انصرفت سياسة ملوك هرمز إلى محاولة سحق النفوذ المتصاعد الذى وصل إليه بنوجبر فى شرق الجزيرة العربية. ففى عام ١٥١١ قام الوزير خوجه عطاء الذى كانت بيده مقاليد السلطة فى هرمز بإرسال حملة عسكرية إلى البحرين نجحت فى احتلالها وانتزاعها من أيدى شيوخ بنى جبر الذين كانوا قد نجحوا فى مد السيطرة عليها على عهد سلطانهم أجود بن زامل قبل ذلك الوقت بقليل. وعلى الرغم من نجاح هرمز فى استعادة البحرين إلا أن شيوخ بنى جبر أعادوا السيطرة. عليها والأمر الذى لاشك فيه أن الصراع السياسى الذى حدث بين أكبر قوتين محليتين فى الخليج العربى فى ذلك الوقت ونعنى بهما مملكة هرمز ومشيخة الجبور قد أفاد منه البرتغاليون فائدة كبيرة، فمن الثابت لدينا أن البرتغاليين اتجهوا إلى الاستعانة ببعض القوى المحلية وتأليبها ضد الهجمات المتكررة التى كان يشنها شيوخ بنو جبر المتمركزين فى بعض المقاطعات الساحلية من عمان(١).

وعلى الرغم من أن هناك الكثير من المصادر التى تحدثت عن المقاومة التى قام بها عرب الخليج ضد البرتغاليين فى الفترة التى واكبت انهيار نفوذهم فى النصف الأول من القرن السابع عشر، إلا أن المقاومة التى وجهها عرب الخليج ضد البرتغاليين عند بداية تسلطهم على الخليج العربى فى أوائل القرن السادس عشر لم تظفر بما تستحقه من دراسة، ولاتزال فى حاجة إلى تسليط مزيد من الأضواء عليها. ولعل بنوجبر كانوا هم القوة العربية التى تحدت السيطرة البرتغالية فى

---

(١) على عبدالله أباحسين: من تاريخ العتوب خلال المخطوطات والوثائق، بحث منشور فى أعمال الحلقة الرابعة لمراكز دراسات الخليج والجزيرة العربية، أبو ظبى نوفمبر ١٩٧٩.

عنفوان قوتهـا ويؤكد ذلك أن كثيرا من المصادر البـرتغالية قد اعترفت بـقوة الجبور وتحديهم للنفوذ البرتغالى كما يتضح ذلك من تعليقات أفونسو دى البوكيرك، ومن كتابات المؤرخ والرحالة البرتغالى فاريا سوسا[١]. إذ يؤكد لنا البوكـيرك أنه عندما حاصر ميناء صـحار وصلت إلى الميناء نجدات عربية كانـت تتألف من عشرة آلاف مقاتل بزعامة شـيخ من شيوخ بنى جبر وحينما حاصر البرتغـاليون مسقط فى عام ١٥٠٧ سارع أحد زعـماء بنى جبر، إلى نجـدة المدينة. وأكدت كثيـر من التقارير البرتغالية أن مقاطعات بنى جبر كـانت تمتد امتدادا كبيرا على طول سواحل الخليج وأن أبناء السلطان أجـود الذى حكم خلال الفتـرة من ١٤٧١ إلى ١٤٩٦م أى قبل وصول البرتغاليين إلى منطقة الخليج بعدة سنوات كانوا يتقاسمون السلطة السياسية فيمـا بينهم، وكان أكبرهم يقـيم فى عمان ويدين له أخـواه الآخران بالولاء، وقد اشتهر من بينهـما محمد بن أجود الذى كان يحكم البـحرين والإحساء والقطيف. والأمر الذى لاشك فـيه أن هيـمنة البرتغاليـين على هرمز منذ عـام ١٥١٥ سوف تؤدى إلى مواجهتهم لبنى جبر وذلك بسبب الصراعات التى كانت قائمة بين ملوك هرمز وشيـوخ الجبور. وكان من الطبيـعى أن يعمد البرتغاليـون إلى مساندة ملوك هرمز للتخلص من نفوذ الجبور الذى وصل إلى درجة كبيرة من القوة والاتساع.

العمليات العسكرية البرتغالية فى الخليج العربى:

منذ أن عهد إلى أفونـسو البوكيرك قيادة الأسطول البـرتغالى فى بحار الهند عمل فى الدرجة الأولى على السيطرة على هرمز باعتـبارها مفتاحا للخليج العربى يستطيع بها أن يسيطر على مياهه. ومما يذكر أن البوكيرك وقد اشتهر بعنفه وصلابته قد عمد وهو فى طريقه إلى هرمز إلى إحراق وتدمير كل السفن الوطنية التى التقى بها معلنا بذلك الحرب على كل من يعارض سلطة البرتغاليين فى البحر، كما عمد إلى إشعـال النيران فى الموانى العربيـة التى مر بها كـقريات ومـسـقط وخورفكان، وهكذا كان خليج عمان أول منطقة تشهد فظاعة الغزو البرتغالى وقسوته.

(١) John Steven's Translation of Manual de Fariae Sousa, The Portuguese Asia Vol. I Part II London 1695 P. 126 ff. See also Commentaries of the Great Afonso Dalboquerque, Translated from the Portugese edition 1774, notes and introduction by Walter de Gray Brich vol. I Haklyut Society 1885, P. 75.



وكان الغزو البرتغالى لمنطقة الخليج العربى سببا فى التدهور الاقتصادى الذى ألم بها، وعانت الموانى العمانيـة من آثار ذلك التدهور حيث كانت أول الموانى فى الخليج تعرضا لذلك الغزو بعد ماكان لهـا من أهمية بالغة فى تجارة المحيط الهندى وكان بحارتها على درجة عالية من الكفاءة. ومما يذكر أن البوكيرك قد اعتمد ـ كما اعـتمـد فاسكو دى جـاما من قـبله ـ على المرشـدين العـمانيـين من سكان المدن السـاحلية العـمانيـة التى كانت على درجـة كبـيرة من الازدهار، وأكـد أنه يدين بفتوحاته والأحرى بتسلطه على السواحل العربية للبحر الأحمر والخليج العربى إلى خارطة بحرية متقنة من صنع أحد الربابنة العرب، وذكر فى تعليقاته بصدد ذلك أن ملاحا عربيـا يدعى عمر وقع فى أسر البرتغاليين عـند جزيرة سقطرة، وكان ربانا عظيما ذا معرفة جـيدة بالسواحل العربية، وقد صحبه البوكيـرك معه واستحوذ منه على دليل للطرق البحـرية مبين عليه جـميع موانى مملكة هرمز وكـان ذلك المرشد الملاحى من صنع ذلك الملاح العربى[١].

ولم تخل العمليـات البرتغالية العـسكرية الأولى رغم ضراوتها من مـقاومة عربية تصدت لها فبعد أن استولى البـوكيرك على قريات توجه إلى مسقط فوجدها معززة بالرجال الذين لجأوا إليها من جميع الجهات بعد سماعهم بالتدمير الذى حل بقريات[٢]. وكانت مسقط من أقوى المعاقل العمانية حيث كانت مزودة بوسائل دفاع قـوية وبقـوة من الجنود الذى جـاءوا إليهـا من داخل البـلاد[٣]. وعندمـا وصل الأسطول البرتغالى إلى ميناء مـسقط حضر عرب مسقط على رأس وفـد كبير من قبل شيخ بنى جبر وناشدوا البوكيرك عدم تعريض المدينة لأى تدمير وأبدوا رغبتهم فى التبـعيـة للبرتغـاليين ودفع مايقـرره القائد البـرتغالى من ضـريبة كالـتى كانوا يدفعونها لملك هرمز. وفيما يبدو أن هذه المفاوضات لم تكن إلا مراوغة من شيوخ بنى جبر ولذلك بادر البوكـيرك، حين أحس بأن عرب مسقط قد أخـذوا يستعدون فى الخفـاء لتنظيم صفوفـهم للمقاومـة والدفاع عن بلدهم بقـصف المدينة، وحين ناشده الـسكان بألا يدمر المدينة أو يحـرقهـا وافقهم عـلى ذلك بشرط أن يدفـعوا

(١) أنور عبدالعليم: ابن ماجد الملاح، العدد ٦٣ من سلسلة أعلام العرب القاهرة ١٩٦٦، ص٥٧.

(٢) Commentaries of the Great Afonso Vol. I pp. 75-77.

(٣) ويلسن: تاريخ الخليج (مترجم)، وزارة التراث القومى والثقافة ـ سلطنة عمان ١٩٨١ ص٦٧.

۱۰,۰۰۰ زيرافين[1]؛ على أن يصل إليه المبلغ فى اليوم التالى وعندما لم يصله المبلغ أصدر أوامره بإشعال النار فى البلدة بما فى ذلك مساجدها والسفن الراسية فى مينائها، ولم يطلق سراح سوى بعض الشيوخ والنساء بعد أن أمر بجدع أنوفهم وآذانهم[2]. ولم يلبث بعد ذلك أن أوقف عملياته العسكرية فى مسقط متوجها إلى حصار هرمز.

وقبل أن نعرض للعمليات العسكرية فى هرمز قد يكون من المفيد الإشارة إلى أن البوكيرك رغم ما عرف عنه من تسلط وقسوة إلا أنه كان يبدى إعجابه بالازدهار الاقتصادى الذى كانت عليه المدن العمانية. وفيما يبدو أن الزراعة تركت انطباعا قويا لدى البوكيرك فكتب عن قلهات، وهى أول ميناء تصل إليه سفنه فى الخليج، أن كل مؤن سكانها من القمح والشعير والذرة والتمور تأتى إليها من الداخل الذى يفيض بهذه المحاصيل، كما ذكر عن قلهات بأنها ميناء عظيم للشحن البحرى إذ كانت تأتى إليها الكثير من السفن لنقل التمور والخيول إلى الهند. أما عن مسقط فقد ذكر عنها أنها مدينة كبيرة كثيفة السكان محاطة من الداخل بسلسلة من الجبال الشاهقة، وأما على الجانب الساحلى فهى تطل على البحر ومیناؤها صغير محمى من جميع الجهات من العواصف، وهى المنطقة الحرة الرئيسية لمملكة هرمز ولابد أن تمر فيها جميع السفن التى تزاول الملاحة فى هذه المناطق وذلك بدلا من الساحل المواجه الذى تكثر فيه المياه الضحلة. وذكر البوكيرك أن مسقط تعد جزءا من مملكة هرمز وإن كانت مقاطعاتها الداخلية تخضع لحكام الجبور التى تمتد سلطتهم جنوبا إلى عدن وشمالا إلى سواحل الخليج ومنها إلى نجد والحجاز[3]. كما وجد البوكيرك فى صحار مدينة جميلة ذات منازل أنيقة، ولاحظ أن الأراضى الواسعة الممتدة وراءها مزروعة بالقمح والذرة والشعير، كما أن تربية الماشية والخيول تكثر بتلك المزارع لوجود المراعى والأشجار بها[4]، ومن صحار اتجه

(١) يعادل الزيرافين مايقرب من ثلاثمائة ريال.

(٢) أرنولد ويلسون: مصدر سبق ذكره، ص٦٨.

(٣) Commentaries of Afonso Dalboquerque P. 78.

(٤) دونالد هولى: مرجع سبق ذكره ص٢٩.

الأسطول البرتغالى إلى خورفكان، وبما أن سكانها هبوا لمقاومة البرتغاليين فقد قام البوكيرك بتدميرها ونهبها وقطع آذان وأنوف الأسرى[1]، ومن خورفكان اتجه الأسطول البرتغالى إلى رأس موساندم ومنها إلى هرمز.

وفى هرمز تصدى لأسطول البوكيرك أكثر من أربعمائة سفينة منها ستون سفينة كبيرة الحجم كان قد خصصها ملك هرمز لحراسة الجزيرة والدفاع عنها. ولم يكن البوكيرك يمتلك أكثر من سبع سفن حربية كبيرة لم يتجاوز عدد بحارتها أكثر من أربعمائة وستون شخصا. غير أن البوكيرك القائد المحنك لم يجد فى قلة عدد السفن والجنود ما يمنعه من نيل مأربه فى الاستيلاء على الجزيرة[2]. وقد أبدى البرتغاليون استماتة فى القتال حين بدءوا الهجوم وخاصة حينما أكد البوكيرك لجنوده أنه لاخيار لهم بين أمرين إما الانتصار أو يقطع المسلمون رءوسهم وأعناقهم ويحملونها ضمن غنائمهم!. ولدينا الكثير من التفصيلات عن معركة هرمز التى تعد أقوى المعارك البحرية التى خاضها البرتغاليون فى بلاد الخليج العربى، حيث ذكر فاريا سوسا أنه عند وصول البوكيرك إلى هرمز كان يحكمها سيف الدين وهو فتى صغير، وكان يرأس مجلس البلاد ويدير أمور الدولة خوجه عطاء، وكان رجلا حاذقا شجاعا بدأ استعداده للقتال عندما سمع بما فعله البوكيرك فى البلدان التى مر بها والتى كانت تعد تابعة لهرمز ولذلك بادر بالاستيلاء على جميع السفن الموجودة فى الميناء واستأجر بعض الجنود من الأقاليم المجاورة وخاصة من الفرس والبلوش، وهكذا عندما وصل البوكيرك إلى هرمز كان قد احتشد فى الميناء ما لايقل عن ثلاثين ألف جندى كما كان فى الميناء مايقرب من أربعمائة سفينة مسلحة بالمدافع إلى جانب عدد لايحصى من زوارق الشاطئ يستقلها مقاتلون خبراء فى رمى الرماح والسهام[3]. وبالإضافة إلى ذلك عمل خوجه عطاء على استنفار ملوك المسلمين لنصرة هرمز ولجأ إلى الشاه إسماعيل الصفوى يلتمس منه العون والمساعدة، ولكن الشاه لم يكن فى وضع يسمح له بمساعدة هرمز إذ كان قد بدأ

(١) ويلسون: مصدر سبق ذكره ص٦٩.

(٢) Steven, John, Manual de Faria e Sousa, The Portuguese Asia Vol. II p 250 ff.

(٣) المصدر السابق، انظر أيضا ويلسون: مصدر سبق ذكره ص ص ٦٩ ـ ٧٠.



صراعه ضد السلطان سليم الأول سلطان الدولة العثمانية، وكانت استعداداته العسكرية ضد العثمانيين فى الشمال الغربى من بلاده تحول دون إرسال جزء من قواته إلى هرمز[١]. ومن ناحية أخرى فإن الشاه إسماعيل الصفوى لم يعر حملة البوكيرك اهتماما كبيرا إذ كان يعتقد أنها نوع من المناوشات التى تتلاشى بالسرعة التى بدأت بها، ولذلك لم يفعل أكثر من تهدئة رسول سيف الدين ملك هرمز مؤكدا له شدة اهتمامه بشئون إمبراطوريته وعدم سماحه لأى مغير بأن يعبث بوحدة الأراضى الفارسية!.

بدأت معركة هرمز بقصف البرتغاليين لجموع المقاتلين الذين احتشدوا على شواطئ الجزيرة، وأحدث قصف المدفعية البرتغالية خسائر مروعة نظرا لتكدس المقاتلين ووقوفهم فى مواجهة البرتغاليين فى منطقة لايزيد طولها عن ثلاثة أميال، وقد شعر المسلمون من أول وهلة أنه لاطاقة لهم بمنازلة البرتغاليين فى الوقت الذى حاول فيه البوكيرك أن يثنى ملك هرمز عن مواصلة القتال ويدخل فى طاعة ملك البرتغال، ولكن الشيخ عطاء رفض أى نوع من الاستسلام وكان من رأيه مراوغة البرتغاليين وتفويت الفرصة عليهم أملا فى أن تصل نجدات من المسلمين وشيوخ الخليج، ولما تكشفت لالبوكيرك مراوغة الشيخ عطاء أصدر أوامره باقتحام الميناء وتدمير وإحراق جميع السفن التى أبيدت عن آخرها[٢]. وأجريت المفاوضات المسلحة بين الطرفين حين كانت مدافع الأسطول البرتغالى موجهة إلى الميناء حيث أعلن ملك هرمز ولاءه للبرتغاليين. وتضمنت نصوص المعاهدة على أن يدفع ملك هرمز للبرتغاليين جزية سنوية قدرت بخمسة عشر ألف زرافين وعمد البرتغاليون إلى تأكيد سيادتهم على هرمز بطريقة تعسفية حيث أصدروا أوامرهم بمنع أية سفينة من ممارسة الملاحة فى الخليج قبل حصولها على تصريح من السلطات البرتغالية، وبذلك كتب البرتغاليون السطر الأول فى سيادتهم البحرية والتجارية على الخليج العربى. وعلى أثر استيلاء البوكيرك على قلعة المدينة بدأ يستعد فى بناء حصن كبير عرف فيما بعد بحصن النصر Visa Senhora Da Victoria وكان ذلك الحصن هو

---

(١) Kelly, J., op. cit., p. 6.

(٢) ارنولد ويلسون: مصدر سبق ذكره ص ص ٧٠ ـ ٧١.

الأول فى سلسلة كبيرة من القلاع والحصون العسكرية الشهيرة التى شيدها البرتغاليون على سواحل البلدان المطلة على الخليج العربى والمحيط الهندى[١]، ومن ذلك الحصن سوف ترتكز سيطرة البرتغاليين على الخليج العربى طيلة فترة استعمارهم التى استمرت مايقرب من قرنين من الزمان. وأصدر البوكيرك أوامره المشددة بأن يتم بيع السلع البرتغالية بأسعار رخيصة بهدف كسب الأسواق التجارية لصالح البرتغاليين. والجدير بالذكر أن قبول ملك هرمز دفع الجزية إلى البرتغاليين قد أحدث أزمة سياسية بين فارس والبرتغال، فعلى أثر مطالبة الشاه إسماعيل الصفوى لملك هرمز بدفع الجزية المفروضة عليه فى كل عام طلب الأخير من البوكيرك بأن يوضح له مايجب أن يفعله إزاء هذا الطلب، وكان رد البوكيرك هو أن مملكة هرمز قد أصبحت تابعة لملك البرتغال وأنه حصل عليها عن طريق الحرب وبالتالى فإن على ملك هرمز أن يعلم بأنه فى حالة دفع جزية لأى ملك آخر غير ملك البرتغال فإنه سوف يخلع من منصبه وتقلد السلطة لشخص آخر لايخاف الشاه!.. وأرسل البوكيرك إلى مبعوث الشاه إسماعيل الصفوى فى هرمز كمية من الذخائر والأسلحة باعتبارها هى الجزية التى يمكن لمملكة هرمز أن تدفعها إلى فارس، كما هدد البوكيرك مبعوث الشاه بأنه سوف يضع جميع المناطق الساحلية التابعة لفارس تحت سلطة البرتغاليين[٢].

على أنه مما تجدر الإشارة إليه أن البرتغاليين رغم انتصارهم فى هرمز إلا أنهم لم يلبثوا أن أوقفوا عملياتهم العسكرية فى الخليج العربى. وفى تقديرنا أن ذلك يرجع إلى أسباب كثيرة يبرز من بينها اتجاههم إلى مواجهة قوة المماليك التى كانت فى طريقها إلى المحيط الهندى، هذا بالإضافة إلى أن البوكيرك بدأ يواجه حركات عصيان من بحارته[٣]. وهذه الحركات كانت تعد ظاهرة تميزت بها البحرية البرتغالية، ويرجع سببها إلى أن كثيرا من البحارة البرتغاليين ومعظمهم من

---

(١) هولى (دونالد): مرجع سبق ذكره ص ٢٩، انظر أيضا صادق نشأت:تاريخ الخليج السياسى ص ص ٦١ - ٦٢.

(٢) ويلسون : مصدر سبق ذكره ص٧١.

(٣) Faria e Sousa, The Portuguese Asia, Vol. II. pp. 256- 258.

المغامرين كانوا قد قطعوا المسافات الطويلة لكى يحصلوا على الثروة من استغلال بلاد الهند الغنية ولذلك ساءهم أن يزج بهم فى مغامرات عسكرية على طول سواحل بلاد العرب المجدبة، ومع نجاح البوكيرك فى قمع حركات التمرد التى واجهها إلا أنه واصل سياسة الانسحاب من هرمز وكان ذلك بناء على تعليمات وصلت إليه من فرانسيسكو دى الميدا D'Almeida أول نائب للملك البرتغال فى الهند وكان يأمره فى تلك التعليمات بفك الحصار على الفور.

ومما تجدر الإشارة إليه بصدد ذلك أن دالميدا كان يختلف فى الرأى مع البوكيرك ولايشاركه فى نزعاته المتشددة إذ كان يعتقد أنه ليس للبرتغال إمكانات بشرية لإقامة مستعمرات بعيدة عن الهند ولذلك يجب الاقتصار على إنشاء وكالات لمزاولة الأعمال التجارية والاعتماد على السيطرة البحرية، وهذه السيطرة كفيلة بالقضاء على التجارة الإسلامية وفى تلك الحالة ستختفى هرمز من تلقاء نفسها دون حاجة إلى احتلال عسكرى فعلى. ولكن عام ١٥٠٩ لم يلبث أن شهد حدثين هامين كان لهما أثر كبير فى تاريخ الخليج العربى، ويرتبط الحدث الأول بهزيمة الأسطول المملوكى فى ديو وما ترتب على تلك الهزيمة البحرية من أحكام القبضة البرتغالية على بحار الشرق[١]. أما الحدث الثانى فقد ارتبط بعزل فرانسيسكودى الميدا وتولية البوكيرك فى منصب نائب الملك فى الهند خلفا له. وعلى الرغم من أن دالميدا قد حقق انتصارا بحريا كبيرا على القوى الإسلامية بزعامة المماليك فى ديو إلا أن قرار الملك البرتغالى فيكتور عمانويل كان صريحا فى عزله من منصبه، ولعل ذلك يرجع إلى مخاوف ملك البرتغال من أن انتصار ديو قد يؤدى إلى تثبيته فى مركزه وخاصة أن دالميدا كان قد قضى مايقرب من أربع سنوات فى ذلك المنصب ١٥٠٥ ـ ١٥٠٩، ومثل هذه الفترة كانت تعد فترة طويلة بالقياس إلى الأنظمة البرتغالية التى وضعوها لحكم إمبراطوريتهم، وكانت تقضى بالا يبقى نائب الملك فى الهند أو الموظفين العظام فى مراكزهم أكثر من ثلاث سنوات؛ حتى لايغريهم بعد المسافة بتحقيق مكاسب شخصية والاستفادة من صعوبة مراقبة حكومة لشبونة لهم.

(١) Dodwell, H.H. and Others, The Cambridge Shorter History of India, Delhi pp. 385-389.

وكان من أول أعمال البوكيـرك حين وصل إلى الهند أن نقل مقر منصبه من كوشـين إلى جوا الواقـعة على ساحل مـلبار والمطلة على بحـر العرب، ودل هذا الإجراء على اعتزام البوكيرك توجيه عـملياته العسكرية نحو البحر الأحمر والخليج العربى، كما أصـبحت جوا منذ عام ١٥١٠ المركز الرئيسى للممـتلكات البرتغالية فى آسيا.

وليس من شك فى أن طموحات البوكيـرك هى التى مهدت الطريق لإنشاء إمبـراطورية برتغالية فى الشـرق، وكانت اهتمـاماته تتجه إلى إقـامة التحـصينات والقلاع العـسكرية فى كل مكان يوجد للبرتغاليين فيه مركز تجارى، ولم يكن ذلك لغرض حماية التجارة البرتغالية فحسب وإنما كان الهدف هو أن يتمكن البرتغاليون من تدعيم نفوذهم فى تلك المناطق وإخضاع حكامـها وشعوبها لسيطرتهم[١]. ولما كانت هرمـز هى السوق الرئيسـية لمنطقـة الخليج فقد صـمم البوكيـرك على إعادة السيطرة عليها واعتقد أنه لونجح فى احتـلالها فإن ذلك سيخوله سلطة مطلقة على تجارة الخليج العربى[٢]. ولذلك بادر فى عام ١٥١٣ بإرسـال حملة بقيـادة القائد البرتغالى بيرو الذى شدد حصاره على الجزيرة[٣]، ولم يتردد أثناء عمليات الحصار وخلال المفاوضات فى طعن الشيخ عطاء مستشار أمير هرمز ولم يجد الأمير سيف الدين مفرا من الاستسلام حيث فرض عليه البرتغاليون شروطا قاسية كان من بينها قبول حماية البرتغاليين فى مقابل الإبقاء على الحكم الوطنى فى الجزيرة، بالإضافة إلى دفع غرامـة عسكرية وجزية سنـوية كبيرة لحكومة البرتغـال. إلى جانب منح البرتغاليين مزايا فى المعاملات التجارية كـان من أهمها إعفاء البضائع البرتغالية من الضرائـب، كما تعـهد الأمـير سيف الدين بتقـديم الخامـات والعمال الـلازمين لاستكمال بناء القلعة العـسكرية التى وضع البوكيرك أساسها خـلال حصاره لهرمز قبل ذلك بـعدة سنوات[٤]. وفى هرمز استـهدف البرتغاليون القضـاء على التجار

---

(١) ويلسون: مصدر سبق ذكره ص ص ٦٤ ـ ٦٥.

(٢) المصدر السابق ص٦٦.

(٣) محمد بن عبدالله السالمى وناجى عساف: عمان تاريخ يتكلم دمشق ص ص ١٧٩ ـ ١٨١.

(٤) ج.ج. لوريمر : دليل الخليج جـ١ ص٧.

المسلمين من عرب وفرس وغيرهم حيث كانوا يعتقلون البعض منهم بحجة خطرهم ومعاداتهم للنظام البرتغالى ويفتشون متاجر البعض الآخر وينهبونها ويستولون على مافيها من ذهب ومجوهرات وبضائع متذرعين فى ذلك بأوهى الأسباب. كما منع البرتغاليون الصلاة فى المسجد الجامع فى هرمز واعتبروا عدم التعاون مع البرتغاليين جرما يعاقب مرتكبه بالموت[1]. وعلى الرغم من أن الشاه إسماعيل الصفوى احتج على الاعتداء البرتغالى على هرمز إلا أنه لم يقم بدور إيجابى ضد البرتغاليين إذ كان منشغلا بصراعه ضد العثمانيين وكانت هزيمته فى جالديران ١٥١٤ سببا فى مهادنته للبرتغاليين وخاصة بعد التفوق الذى أحرزوه فى هرمز على أمل الاستعانة بهم ضد العثمانيين. واستغل البرتغاليون من ناحيتهم الصراع الصفوى العثمانى لكى ينفذوا إلى صداقة الصفويين، وبصدد ذلك أرسل البوكيرك مبعوثا من قبله يدعى روى جويز إلى الشاه إسماعيل ومعه رسالة من البوكيرك يبدى فيها تقديره للشاه بسبب احترامه للمسيحيين فى بلاده ويعرض عليه الأسطول والأسلحة والجند لاستخدامها ضد قلاع الترك فى الهند؛ وأنه إذا أراد الانقضاض على بلاد العرب أو مهاجمة مكة فسيجده بجانبه أمام جدة أو فى عدن أو البحرين أو القطيف أو البصرة أو على امتداد الساحل الفارسى وسينفذ له كل مايريده، كما أوصى البوكيرك مبعوثه بإبراز عظمة البرتغال وما حققته من انتصارات فى إفريقيا والهند، وأمره بالتعرف على أوضاع المسيحيين فى فارس وأن يعرض على الشاه مشروعا للتحالف العسكرى بينه وبين البرتغاليين تكون من ثمرته أن تأخذ فارس مصر وتأخذ البرتغال فلسطين. ولم يكن لذلك المشروع الخيالى أى أثر إيجابى بطبيعة الحال. غير أنه لما كان أهالى هرمز يتوقعون أن يضحى ببلادهم فى حالة نجاح مهمة المبعوث البرتغالى فقد دبروا حيلة لسمه والتخلص منه وانقطعت أخبار جويز منذ ذلك الوقت[2]. وفى عام ١٥١٤ لاحظ البوكيرك أن ملك هرمز أصبح صنيعة فى يد الشاه وإنه من المحتمل أن يطرد البرتغاليين من هرمز، ولذلك قام البوكيرك بزيارة عسكرية إلى هرمز وفى خلالها

(١) Travels of Teixeira, London 1902 pp. 265-266.

(٢) صلاح العقاد: التيارات السياسية فى الخليج العربى ص١٧.

تم التوصل إلى إتفاق بين الفرس والبرتغاليين سمح بموجبه لملك هرمز بالاستمرار فى ممارسة سلطاته باسم ملك البرتغال، وعين البوكيرك ابن أخيه بيرو قائدا على قلعة هرمز ورحل بعد ذلك إلى الهند على ظهر السفينة فلورا دى روزا، وكانت حالته الصحية متدهورة حتى أنه مات فى جوا فى فبراير ١٥١٥[١]، عقب وصوله إليها مباشرة. ومما تجدر الإشارة إليه أن نجاح البرتغاليين فى تثبيت نفوذهم فى هرمز أكد للصفويين أن البرتغاليين قد أصبحوا يشكلون قوة بحرية لاقبل لهم للتصدى لها وبدءوا يعملون منذ ذلك الوقت على كسب صداقتهم للانتقام من العثمانيين، ففى عام ١٥١٥ وصل مبعوث من الشاه إسماعيل الصفوى إلى قاعدة البرتغاليين فى هرمز وكان يحمل عدة مطالب من بينها أن تقدم البرتغال سفنها لفارس كى تمكنها من احتلال القطيف والبحرين، وأن يساعد البرتغاليون الشاه فى قمع ثورة قامت ضده فى مكران وأن تكون جوا ـ مركز البرتغاليين فى الهند ـ مفتوحة للتجارة الفارسية[٢]، ورحب البرتغاليون بطبيعة الحال بتلك الاتفاقية التى ضمنوا بها تقاعس فارس عن نشاطها العسكرى فى الخليج العربى.

وعلى أثر وفاة البوكيرك تم تعيين سواريز Soarez خلفا له فى منصب نائب الملك فى الهند، واتبع الحاكم الجديد سياسة كانت تختلف تماما عن سياسة سلفه، وكان لتلك السياسة أثر كبير فى تطور الأحداث السياسية والاقتصادية فى منطقة الخليج، ذلك أن سواريز كان يهدف إلى إنعاش التجارة البرتغالية سلميا دون اللجوء إلى التنكيل أو البطش، ومن ثم بادر إلى تعيين ضباط برتغاليين لتحصيل الضرائب من المراكز التى أقامها البرتغاليون فى هرمز وغيرها، وفى عهد سواريز تغيرت معالم السياسة البرتغالية فى الشرق إذ كان البرتغاليون قبل ذلك الوقت يعتمدون على قوتهم العسكرية وليس على ثروتهم، أما بعد ذلك فقد انغمسوا فى التجارة بل وتحول القادة العسكريون إلى تجار[٣]، إذ هدفت السياسة البرتغالية الجديدة إلى إطلاق المجال للنشاطات التجارية التقليدية فى الخليج ولكن بشرط أن

(١) ارنولد ويلسون: مصدر سبق ذكره ص٧٥، وكذلك ج.ج لوريمر دليل الخليج جـ١ ص٨.
(٢) صالح أوزبران: البرتغاليون والأتراك العثمانيون فى الخليج العربى البصرة، ص ص ١٩ ـ ٢٠.
(٣) ويلسون: مصدر سبق ذكره ص٧٨.

يتم ذلك تحت إشراف البرتغاليين وفائدتهم. وتمكن البرتغاليون بفضل ذلك التحول من تحقيق العديد من المكاسب والاستفادة من الأنماط التجارية التقليدية وبدأت بالفعل كميات كبيرة من البضائع تتدفق إلى الخليج العربى والبحر الأحمر، ولعل ذلك ينفى ماتردد ذكره بين كثير من الباحثين من أن وصول البرتغاليين إلى الهند بعد اكتشافهم لطريق رأس الرجاء الصالح قد قضى تماما على الطرق البحرية التقليدية التى كانت تمر بها تجارة الشرق فى طريقها إلى أوروبا. ومع ذلك فإن تلك السياسة المرنة التى اتبعها لوبو سواريز وأعاد بها النشاط التجارى إلى حد كبير لموانى الخليج لم تخفف من الأضرار التى كان يعانى منها التجار العرب والمسلمين. وكانت هذه الأضرار تتمثل فى عبء الضرائب التى كانت تفرض عليهم وبذلك لم ينظر عرب الخليج إلى السياسة الجديدة التى كانت تستهدف تخفيف السيطرة الاحتكارية وإنما نظروا إليها باعتبارها زيادة فى التحكم بسبب التعسف فى فرض الضرائب، بالإضافة إلى التسلط العسكرى البرتغالى الذى لم يقتصر على هرمز وإنما امتد إلى غيرها من موانى الخليج وخاصة حينما اتجه البرتغاليون بحكم حمايتهم لهرمز وتصرفهم فى شئونها إلى السيطرة من خلالها على البحرين والإحساء والقطيف وغيرها من المناطق التى كانت تابعة لمملكة هرمز، فباسم ملك هرمز خاض البرتغاليون صراعا ضد بنى جبر فى البحرين والإحساء والقطيف، وفيما يرجح أن ملوك هرمز اضطروا إلى هذا الصراع بعد أن ألزمهم البرتغاليون بدفع جزية سنوية كبيرة لم يكن فى طاقتهم دفعها إلا بالسيطرة على البحرين والمناطق الأخرى التى كانت تابعة لهم واستقل بها بنو جبر.

وتشير المصادر البرتغالية[1] لتلك الفترة التى نتحدث عنها إلى أن ملك هرمز طورانشاه الذى خلف سيف الدين أظهر للبرتغاليين عجزه الكامل عن دفع المبالغ التى ألزموه بها وعلل ذلك بأن حاكم البحرين مقرن بن زامل من بنى جبر لم يكن يدفع له بانتظام المبالغ المالية التى كانت مقررة عليه سنويا من موارد البحرين، وأكثر من ذلك أنه بدأ ينتهج سياسة هدف بها إلى الانفصال عن مملكة هرمز منتهزا فرصة خضوعها للسيطرة البرتغالية. ومن ثم توحدت مصالح البرتغاليين مع

(1) Steven, (John), Manual de Faria e Sousa, The Portuguese Asia vol. II pp. 256- 258.

مصلحة طورانشـاه فى قيام تحالف بينهما، وكـان ذلك التحالف يستهـدف استعادة ممتلكات هرمز. وتعرضت البـحرين بالفعل لهجوم برتغالى - هرمـزى مشترك فى عام ١٥٢٠ أثناء تغيب السلطان مقرن بن زامل حـيث كان قد سافر فى ذلك العام إلى مكة لتأدية فريضـة الحج، وتولى المقاومة الشيخ حميـد وهو قريب له كان قد أنابه عنه فى الحكم قبل سفره. وعندما عاد السـلطان مقرن قام بتجميع قواته وتعزيز استحكـاماته فى البـحـرين والقطيف فى الوقت الـذى عاود فـيـه البرتـغاليـون والهرمـزيون هجومهم فى يوليـه ١٥٢١. وكانت القوات التى أعـدها ملك هرمز تتكون من ثلاثة آلاف مـقاتل من المرتزقـة العرب والفـرس تحملهم مـائتى سفـينة ويقودهم وزير ملك هرمز الرئيس شرف الدين، أمـا القوة البرتغالية فكانت تتكون من أربعمائة مـقاتل تحملهم بضع سفن كبـيرة الحجم مزودة بالمدافع الكبيـرة بقيادة أنطونيو دى كوريا الذى يعـرف فى المصادر البرتغالية ببطل البـحرين. واستطاعت القوات الهرمـزية والبرتغالية المشتـركة دخول البحرين حـيث نزلوا على مقربة من المنامة فى الجزيرة الرئيسـية، ورغم البسالة التى قام بها السلطان مقـرن فى محاولته رد ذلك الهجوم الكاسح إلا أنه لم يلبث أن وقع أسيـرا فى أيدى البرتغاليين الذين بادروا بإعدامه، ولاشك أن ذلك أدى إلى انهيار مـعنويات قواته التى انسحبت إلى القطيف. وكان مقرن بن زامل أول حاكم فى شرق العالم الإسلامى يلقى حتفه فى معركة ضد المستعمرين البرتغاليين.

ومما تجـدر الإشارة إليـه أننا نجـد إشارات إلى تلك الأحـداث رواها المؤرخ المصرى ابن إياس، ولكن مما يسـترعى الانتباه أنه وصف السلطان مقـرن بالتخاذل وأنه بعد وقوعه فى أسر البرتغاليين أخذ يتوسل إليهم بالمال للإبقاء على حياته[١]. وعلى العكس من ذلك نجـد المصادر البرتغـالية تصف السلطان مـقرن بالشجـاعة والصمود بل إننا نجـد فى تلك المصادر ماينافض رواية ابن إياس حول مـصير ذلك السلطان فبينمـا يفهم من رواية ابن إياس أن السلطان مقرن قـد وقع حيا فى أيدى البرتغاليين أثناء حـروبه معهم، وأنه عرض عليهم أموالا كثيـرة ليطلقوا سراحه إلا

(١) عبداللطيف الحميدان: بحث سبق ذكره.
(٢) ابن إياس: بدائع الزهور فى وقائع الدهور جـ٥ ص٤٣١.

أنهم رفضوا ذلك وقتلوه، نجد المصادر البرتغالية، وكتابها كانوا قريبين من أرض المعركة، يؤكدون أن السلطان مقرن مات متأثرا بجراحه، وأن قائد قوات هرمز هو الذى أمر بعض ضباطه بانتزاع جثته حيث قاموا بقطع رأسه وحملوها إلى هرمز[١]. ومع ذلك فإذا صحت رواية ابن إياس فمن المحتمل أن تكون قد دارت مفاوضات بين السلطان مقرن والبرتغاليين قبل الهجوم أو فى خلاله أبدى فيها استعداده بأن يدفع لملك هرمز ما فى ذمته من ديون إلا أن اشتداد المعارك التى راح ضحيتها كانت تؤكد أن هذا العرض كان مصيره الفشل. وهكذا انتهى الأمر بنجاح البرتغاليين وملك هرمز فى انتزاع البحرين، وتم تعيين حاكم من هرمز على البحرين يستند على حامية برتغالية، وفضلا عن ذلك فقد بادر البرتغاليون ببناء قلعة ضخمة فى الجزيرة الكبرى لاتزال أطلالها قائمة حتى يومنا هذا[٢]. وعلى الرغم من النجاح الذى أحرزه البرتغاليون والهرمزيون فى السيطرة على البحرين إلا أنهم لم يتمكنوا من التقدم إلى القطيف بسبب عنف المقاومة العربية وخوفا من أن يزج بهم عرب القطيف إلى داخل الجزيرة العربية.

ولم يكن مصرع السلطان مقرن وخضوع البحرين حدثا عابرا وإنما أحدث صدى كبيرا ورنة حزن وأسى فى أنحاء الخليج العربى بل إن ابن إياس نفسه الذى اتهم السلطان مقرن بالتخاذل على نحو ما أشرنا إلى ذلك لم يتردد فى أن يعبر عن حزنه ويعلق على استشهاده بأنه كان من أشد الحوادث فى الإسلام وأعظمها. وقد يكون من المفيد بصدد ذلك أن ننقل جزءا من النص الذى أورده ابن إياس فى حوادث عام ٩٢٨هـ/ ١٥٢١م حيث جاء فيه «وأشيع قتل الأمير مقرن أمير عرب بنى جبر متملك جزيرة البحرين إلى بلاد هرمز الأعلى وكان أميرا جليل القدر معظما مبجلا فى سعة من المال مالكى المذهب سيد عربان المشرق على الإطلاق وكان قد أتى إلى مكة وحج فى العام الماضى وكان يجلب إلى مكة اللؤلؤ والمعادن الفاخرة من المسك والعنبر والعود القمارى والحرير الملون وغير ذلك من الأشياء

---

(١) Commentaries, op. cit., vol. IV pp. 165, 172-174.

(٢) لاتزال أطلال القلعة البرتغالية قائمة حتى اليوم على الساحل الشمالى للجزيرة الكبرى فى البحرين وتعرف حاليا باسم قلعة العجاج شاهدة على الاحتلال البرتغالى للبحرين. انظر ج.ج لوريمر جـ٣ ص١٢٦٧.

التحفة، قيل إنه لما دخل إلى مكة والمدينة تصدق على أهل مكة والمدينة بنحو خمسين ألف دينار فلما حج ورجع إلى بلاده لاقته الفرنج فى الطريق وتحاربت معه فانكسر الأمير مقرن وقبضوا عليه باليد وأسروه فسألهم بأن يشترى نفسه منهم بألف ألف دينار فأبوا الفرنج ذلك وقتلوه بين أيديهم ولم يغن عنه ماله شيئا وملكوا قلعتها التى هناك واستولوا على أموال الأمير مقرن وبلاده وكان ذلك من أشد الحوادث فى الإسلام وأعظمها وقد تزايد شر الفرنج على شواطئ البحر الأحمر وسواحل المحيط الهندى والأمر لله تعالى»[1].

ومما تجدر الإشارة إليه أنه على الرغم من التحالف الذى حدث بين البرتغاليين ومملكة هرمز إلا أنه لم ينقض وقت يذكر حتى تبين للملك طورانشاه سطوة البرتغاليين واستغلالهم لهرمز وأنهم لم يهدفوا من ذلك التحالف إلا التمهيد لسيطرتهم العسكرية والتجارية على المنطقة وتأكد له ذلك حينما بادر البرتغاليون بتعزيز استحكاماتهم العسكرية وطلبوا منه إطلاق يدهم فى التجارة والملاحة فى جميع المناطق الخاضعة لسيادته فى الخليج العربى، ومن ثم أخذ طورانشاه يترقب فرصة تسنح له ولعماله سواء من كان منهم فى عمان أو البحرين أو غيرها من مقاطعات الخليج الأخرى بهدف التحرر من السيطرة البرتغالية. وسرعان ماجاءته تلك الفرصة حين وصلته الأنباء بأن البرتغاليين يواجهون صعابا فى الهند وأصبحوا مضطرين إلى سحب جزء كبير من قواتهم فى الخليج لمواجهة مشاكلهم هناك، ولذلك بادر طورانشاه بإصدار أوامره السرية إلى كل الرؤساء التابعين له فى عمان والبحرين والقطيف لإعلان الثورة ضد البرتغاليين، وتمكن عرب الخليج من أن يقضوا على عدد كبير من البحارة والجنود البرتغاليين وخاصة فى البحرين حيث انتقم سكانها شر انتقام من البرتغاليين لمقتل أميرهم مقرن.

وقعت هذه الثورة فى ٣٠ نوفمبر ١٥٢١، ويرجع أرنولد ويلسن سببها إلى تعيين بعض المسئولين البرتغاليين كمشرفين على الجمارك فى هرمز وأنهم بسبب معاملتهم الصلفة تسببوا فى قيام تلك الثورة حين أخذ سكان الخليج يضيقون ذرعا

(١) ابن إياس: بدائع الزهور فى وقائع الدهور جـ٥ ص٤٣١.

بالحكم البرتغالى بما اتصف به من قسوة وتعسف فى جمع الأموال دون ضوابط[1]. هذا بالإضافة إلى ماسبق أن أشرنا إليه من أن ملوك هرمز لم يلبثوا أن تبينوا بأنفسهم مدى استبداد البرتغاليين وأن اتجاههم للتحالف معهم لم يكن إلا مجرد حجة تذرعوا بها لفرض سيطرتهم على شعوب الخليج باسمهم[2].

ومما هو جدير بالذكر أن كثيرا من المصادر الأجنبية قد تعرضت لتلك الثورة ولعل أبرز ما نعرفه عنها جاء فى دراسة ميلز Miles الذى ذكر أنه فى عام ١٥٢١ حدثت ثورة منظمة شملت الساحل العربى وجزيرة البحرين بسبب عدم رضاء ملك هرمز عن التدخل البرتغالى المباشر فى تنظيم دخل مملكته، ونتيجة لتدخل البرتغاليين المستمر فى أعمال الجمارك، وذكر أن ملك هرمز ووزراءه هم الذين خططوا لتلك الثورة حيث أرسلوا الكتب إلى عمالهم التابعين لهم على الساحل العربى للخليج لأحداث الثورة فى جميع هذه الأماكن فى وقت واحد[3]، ولذلك فإن من الأمور التى تبعث على الاهتمام أكثر مما تثير الدهشة أن يتوصل عرب الخليج فى ذلك الوقت المبكر إلى خطة محكمة لتوقيت الثورة ومهاجمة الحصون البرتغالية، بل كادت هذه الثورة تقضى على الوجود البرتغالى برمته وخاصة حين ثار سكان البحرين وقتلوا قائد الحامية البرتغالية وعددا كبيرا من جنودها. ومع ذلك فإنه على الرغم من التقدم السريع الذى أحرزه الثوار إلا أن هذه الثورة فشلت فى تحقيق هدفها وربما يعزى ذلك فى الدرجة الأولى إلى الخلافات التى كانت لاتزال قائمة بين شيوخ الجبور ومملكة هرمز، ومن ثم وجد البرتغاليون فى تلك الخلافات فرصة سانحة لاستغلالها، وخاصة حينما تعهد الشيخ حسين بن سعيد من شيوخ بنى جبر ـ وكان يسيطر على معظم المناطق العمانية ـ للقائد البرتغالى دون لويز Lopes بمهاجمة صحار التى كانت خاضعة فى ذلك الوقت لمملكة هرمز من البر فى الوقت الذى يقوم به البرتغاليون بمهاجمتها من البحر، ووعد

(١) ويلسون: مصدر سبق ذكره ص ص ٧٩ ـ ٨٠.

(٢) عباس إقبال: مطالعاتى درباب بحرين وسواحل وجزاير خليج فارس، القاهرة ١٩٥٦، ص ص ٦٣ ـ ٦٥.

(٣) Miles, Samuel, Countries and Tribes of the Persian Gulf vol. II. London 1919 150 ff.

البرتغاليون الشيخ حسين بأن يسندوا إليه الحكم في صحار بشرط اعترافه بالسيادة البرتغالية. ونتيجة للإمدادات التي وصلت للبرتغاليين من مسقط فقد طورانشاه الأمل في نجاح الثورة وبالتالي بدأ يتخذ إجراءات انتقامية ضد البرتغاليين في هرمز، كما أشعل النيران في المدينة حيث ظلت مشتعلة بها عدة أيام.

ومما تجدر الإشارة إليه بصدد ذلك أن كثيرا من الكتاب الإيرانيين يركزون على هذا الموقف المتخاذل الذي وقفه فرع الجبور في عمان واعتبروه بمثابة خيانة قام بها العرب،[1] وناقضوا أنفسهم في تغاضيهم عن تحالف الشاه إسماعيل الصفوي مع البرتغاليين، وفي موقف ملوك هرمز الذين أتاحوا الفرصة للبرتغاليين لتثبيت أقدامهم في الخليج على نحو ما أشرنا إليه. وفي اعتقادنا أن الأمر لم يكن خيانة قام بها بنو جبر في عمان، وهم الذين أبدوا صلابة وشجاعة منقطعة النظير في مقاومتهم للبرتغاليين عند بدء تسلطهم على المنطقة، وإنما كان سبب الموقف الذي اتخذه بنو جبر في عمان يرجع أساسا إلى أن طبيعتهم البدوية طغت على نفوسهم واستبدت بهم الرغبة للانتقام من ملك هرمز الذي سبق له أن تعاون مع البرتغاليين مما كان سببا في قتل زعيمهم الكبير مقرن بن زامل، ولعل مايؤكد ذلك تمكنهم من قتل الملك طورانشاه الذي كان قد التجأ إلى جزيرة قشم هربا من البرتغاليين بعد فشل ثورته حيث أرسل الشيخ حسين بن سعيد زعيم بني جبر في عمان بعض أتباعه ليثأروا منه وبذلك نجح بنو جبر - وإن كان ذلك على حساب القضية العامة - في تصفية حسابهم مع عدوهم اللدود طورانشاه الذي حل محله في مملكة هرمز الأمير محمد شاه ولم يكن قد تعدى الثالثة عشرة من عمره[2].

انهيار الحكم الوطني في هرمز:

كان من الطبيعي أن يؤدي فشل ثورة هرمز إلى وضع نهاية للحكم الوطني في هرمز إذ إنه في أعقاب فشل تلك الثورة أخذ البرتغاليون يحولون حمايتهم المقنعة إلى تسلط عسكري سافر، كما أخذوا يخضعون المملكة والمناطق التابعة لها

(١) عباس إقبال: مرجع سبق ذكره ص ص ٦٣ - ٦٥.
(٢) ويلسون: مصدر سبق ذكره ص ص ٧٩ - ٨٠.

إلى شتى أساليب الضغط والإرهاق حتى أن سكانها أخذوا يفرون بأنفسهم إلى جزر وموانى الخليج الأخرى. ومع ذلك فإن البرتغاليين لم يتمكنوا بأسلوبهم التعسفى أن يديروا الحركة التجارية فى الخليج، وبدأ الركود الاقتصادى يتضح فى مملكة هرمز؛ وانتهت البقية الباقية من عمرانها الحضارى وازدهارها الذى عاشته من قبل.

وقد اعتمد البرتغاليون فى سيطرتهم على هرمز التى استمرت حتى عام ١٦٢٢ على معاهدة ميناب ١٥٢٣، وهى المعاهدة التى عقدها دورات ميز Meize نائب الملك فى الهند مع أمير هرمز الجديد محمد شاه الذى خلف طورانشاه فى الحكم فى يوليه ١٥٢٣. واستندت تلك المعاهدة على المعاهدة السابقة التى عقدها البوكيرك مع سيف الدين؛ وبمقتضى معاهدة ميناب تعهد الأمير محمد شاه بتسليم هرمز للبرتغاليين متى طلب ذلك ملك البرتغال، وشددت بنود المعاهدة من قبضة البرتغاليين على هرمز. وإذا كان البرتغاليون قد اعترفوا لمحمد شاه بالحكم إلا أنه كان واضحا فقدانه لسلطاته تماما بخضوعه للإدارة البرتغالية مما كان يعنى فى حقيقة الأمر سقوط الحكم الوطنى فى هرمز، ويتضح لنا ذلك من شروط المعاهدة التى نصت على زيادة قيمة الجزية التى يدفعها ملوك هرمز سنويا إلى البرتغاليين حيث وصلت إلى ٦٠٠٠٠ زيرافين، كما أقرت معاهدة ميناب العديد من التنظيمات التى كان يهدف البرتغاليون من ورائها إلى تعزيز مكانتهم فى هرمز والسيطرة على الحركة التجارية فى الخليج وكان من أهمها تبعية تجار هرمز للإدارة البرتغالية فى مقابل أن يضمن البرتغاليون لهم حرية الملاحة والتجارة فى المحيط الهندى باستثناء القيود التى كان يفرضها البرتغاليون على تجارة البحر الأحمر وسواحل شرق إفريقيا، كما تضمنت المعاهدة إلى جانب ذلك بعض القواعد المنظمة لتجارة الأسلحة. ونتيجة للإجراءات القهرية التى فرضها البرتغاليون فيما يتعلق بالإشراف على الحركة التجارية وتحصيل الرسوم الجمركية أصبح البرتغاليون هم الملاك الفعليون ولم يعد لحكام هرمز أى أثر فى توجيه الأمور.

استمرار حركات المقاومة ضد البرتغاليين فى مسقط والبحرين:

وعلى الرغم من التعاظم الذى وصلت إليه السيطرة البرتغالية فى أعقاب معاهدة ميناب ١٥٢٣ إلا أن عرب الخليج لم يستسلموا تماما للبرتغاليين إذ تمدنا المصادر بمعلومات كثيرة عن حركات المقاومة التى قامت ضد البرتغاليين فى كل من مسقط والبحرين، ففى عام ١٥٢٦ أعلن سكان مسقط وقلهات عداءهم للبرتغاليين نتيجة كثرة عمليات الابتزاز فى تحصيل الضرائب التى كان يقوم بها قائد الحامية البرتغالية فى مسقط ديوجودى ميلو[١] Diagode Mello، وعلى أثر اتجاه البرتغاليين فى عام ١٥٢٩ إلى التخلص من الوزير شرف الدين الذى كان يسير أمور هرمز بأسلوب معاد للمصالح البرتغالية أعلن سكان البحرين احتجاجهم ضد البرتغاليين وامتنعوا عن دفع الجزية المقررة عليهم، وفشل قائد الحامية البرتغالية فى البحرين فى قمع تلك الحركة نتيجة انتشار الأمراض ونقص البارود مما أجبر البرتغاليين على سرعة الانسحاب إلى قاعدتهم الرئيسية فى هرمز[٢]، ولكن لم يلبث أن عاود البرتغاليون فرض سيطرتهم على البحرين بفضل الإمدادات التى جاءتهم من جوا، وبادر البرتغاليون نتيجة لتلك الحركة التى قام بها سكان البحرين إلى خلع حاكمها من أسرة الجبور وولوا بدلا منه حاكما فارسيا سنيا.

ولعل البرتغاليين قد اختاروا حاكم البحرين على هذا النحو لأنهم كانوا يهدفون بذلك أن يختلف فى جنسه عن سكان البحرين، ومعظمهم من العرب كما يختلف بحكم مذهبه مع عدد كبير من سكانها الشيعة، وبذلك يضمن البرتغاليون عدم انضمام حاكم البحرين إلى أية حركة تقوم ضدهم، فضلا عن ضمان عدم ولائه للأسرة الصفوية الحاكمة فى فارس بحكم كونها أسرة شيعية[٣]. ومع ذلك فمما يستلفت النظر أنه على الرغم من أن السيطرة البرتغالية استمرت قائمة على البحرين خلال الفترة من ١٥٢٩ حتى عام ١٦٠٢ إلا أن الحكم البرتغالى لم يكن مستقرا حيث توالت حركات المقاومة التى قام بها سكان البحرين ضد الوجود

---

(١) Whiteway, The Rise of the Portuguese in Indian Ocean, London 1967, pp. 222-223.

(٢) أوزبران: مرجع سبق ذكره ص ص ٢٥ ـ ٢٧.

(٣) أحمد محمود صبحى: البحرين ودعوى إيران ص ص ٦٦ ـ ٦٧.

البرتغالى وما اتسم به من تعسف فى فرض الضرائب حتى أن السنوات الفعلية التى مارس فيها البرتغاليون سيطرتهم على البحرين لم تتعد أكثر من أربعين عاما من تلك الفترة.

وتذكر بعض المصادر أن السبب المباشر فى طرد البرتغاليين من البحرين فى عام ١٦٠٢ هو مسلك حاكمها المعين من قبل البرتغاليين الذى قام بقتل أحد تجار اللؤلؤ الأثرياء فى البحرين طمعا فى ثروته ولكن تمكن شقيق القتيل من الانتقام لمقتل أخيه، ونجح فى الاستيلاء على قلعة البحرين وأعلن نفسه حاكما على الجزيرة باسم الأمير ركن الدين مسعود، ولما كان هذا التصرف قد أثار عليه حاكم هرمز الذى كان يطالب بالبحرين ويعتبرها تابعة له، فقد طلب الأمير ركن الدين المساعدة من حاكم شيراز الذى سارع بإرسال قوة عسكرية نجحت فى الاستيلاء على البحرين باسم الشاه عباس الكبير، وفشل كل من حاكم هرمز والبرتغاليين فى استعادة البحرين، فى الوقت الذى واصل فيه الشاه عباس مخططاته ضد البرتغاليين فنجح فى السيطرة على بوشهر وأقدم على حصار القاعدة البرتغالية فى هرمز بتعاونه مع الإنجليز فى عام ١٦٢٢. وبدأت سلطة البرتغاليين تتداعى حتى وصلت إلى الانهيار الفعلى خلال النصف الثانى من القرن السابع عشر. وعلى الرغم من أن الوجود البرتغالى ظل قائما حتى السنوات الأولى من القرن الثامن عشر إلا أنه خلال تلك السنوات ظل البرتغاليون معزولين عن الأهالى ولم يكن أمامهم سوى الاعتصام فى قلاعهم وحصونهم الضخمة موصدين على أنفسهم أبوابها(١).

نخلص من ذلك أنه على الرغم مما عرف عن البرتغاليين من تسلط عسكرى متفوق إلا أن ذلك لم يقف حائلا دون مواجهتهم بالكثير من حركات المقاومة التى تعرضوا لها من عرب الخليج، وربما نجد تعليلا فى تعدد تلك الحركات إلى الرغبة فى التخلص من نفوذهم وكسر احتكارهم التجارى تحقيقا للمصالح الاقتصادية للتجار العرب فى الخليج، كما لايمكننا فى نفس الوقت استبعاد الدافع الدينى الذى كان ظاهرا فى كثير من تلك الحركات وخاصة حينما بدأ الأتراك العثمانيون

(١) هولى (دونالد): عمان ونهضتها الحديثة، ص٢١.

يظهرون فى مياه الخليج باعتبارهم ذوى زعامة دينية إسلامية. ورغم أن التقدم العثمانى جاء متأخرا بعض الشىء، كما لم تكن لدى العثمانيين المقدرة البحرية للقضاء على البرتغاليين إلا أن أهمية التقدم العثمانى أنه أعطى لسكان الخليج دفعة قوية وحماسا دينيا للتحرر من السيطرة البرتغالية.

الصراع العثمانى البرتغالى:

كان متوقعا عقب الفتح العثمانى لمصر فى ١٥١٧، أن يبدأ العثمانيون صراعهم ضد البرتغاليين فى البحر الأحمر والمحيط الهندى وخاصة بعد أن أمر السلطان سليم الأول أثناء وجوده بمصر ببناء ترسانة بحرية كبيرة فى ميناء السويس، ولكن دلت الأحداث التى تعاقبت حتى وفاته فى عام ١٥٢٠ على أن هذا الصراع لم يدخل مرحلة التنفيذ الفورى إذ وجه السلطان سليم اهتمامه عقب عودته إلى الأستانة إلى تعزيز الأسطول العثمانى فى البحر الأبيض المتوسط، وسار على منواله السلطان سليمان القانونى الذى جعل الأولوية فى برنامجه العسكرى للجبهة الأوروبية، ولايمكن أن يكون ذلك استخفافا من جانب هذا السلطان بقوة البرتغاليين وإنما يرجع إلى تقديره للموقف العسكرى والسياسى العام فى دولته. على أن مركز البرتغاليين لم يلبث أن تعرض لهزة عنيفة منذ أن فتح العثمانيون العراق فى عام ١٥٣٤، وكان من أبرز نتائج ذلك الفتح أن امتد النفوذ العثمانى إلى سواحل الخليج فى المنطقة الشمالية حيث دخل أمراء البصرة والبحرين والقطيف فى طاعة العثمانيين، كما حاول السلطان سليمان أن يسيطر على المناطق الجنوبية من الخليج وأعد من أجل ذلك حملة بحرية للاستيلاء على جزيرة هرمز وإلحاق إدارتها بالبصرة[1].

وقبل أن نعرض للعمليات البحرية العثمانية ضد الوجود البرتغالى فى الخليج العربى قد يكون من المناسب أن نشير فى هذا المجال إلى مجموعة من العوامل كان لها أثر بعيد فى عدم تحقيق العثمانيين نتائج إيجابية فى صراعهم ضد البرتغاليين

(١) عبدالعزيز الشناوى: المراحل الأولى للوجود البرتغالى فى شرق الجزيرة العربية ـ من أعمال ندوة دراسات شرق الجزيرة العربية جـ٢ الدوحة ١٩٧٦، ص ص ٦٨٢ ـ ٦٨٧.

وترتبط هذه العوامل، فى تقديرنا، بفشل العثمانيين فى إيجاد جبهة إسلامية كبيرة بسبب الخلافات التى كانت قائمة بينهم وبين الدولة الصفوية فى فارس، ومن ناحية أخرى فشل العثمانيون بسبب بعض التصرفات الشاذة التى صدرت عن بعض قباطنتهم فى تجميع القوى الإسلامية المحلية المنتشرة على سواحل الخليج والجزيرة العربية وشرق إفريقيا، وبدلا من أن تتكتل تلك القوى تحت زعامة العثمانيين دب الشك وعدم الثقة بين الفريقين، وبالتالى لم يحدث تكتل بين العثمانيين والقوى المحلية رغم ارتباط مصالحهما واتساع ساحة المواجهة العثمانية البرتغالية التى شملت بالإضافة إلى الخليج والبحر الأحمر الجزء الغربى من المحيط الهندى.

ولعل مما يستلفت النظر أنه على الرغم من الضعف الواضح فى القوة البحرية العثمانية إذا ما قورنت بالقوة البحرية البرتغالية إلا أن المواجهة العثمانية للبرتغاليين استمرت أكثر من ثلاثين عاما، وعلى وجه التحديد بين عامى ١٥٥٠ و١٥٨٣ وإن كانت متقطعة بسبب افتقار العثمانيين إلى القواعد العسكرية البحرية التى تمكنهم من الاستمرار فى ذلك الصراع. وعلى أية حال فقد تميزت السنوات المشار إليها بمجموعة هامة من التطورات السياسية والعسكرية التى شهدتها منطقة الخليج وذلك منذ أن نزل العثمانيون إلى ساحة الصراع فى أعقاب الانتصارات التى أحرزوها ضد الدولة الصفوية ونجاح السلطان سليمان القانونى فى دخول بغداد ١٥٣٤، ومد نفوذه إلى البصرة فى عام ١٥٤٦ التى تحولت إلى قاعدة بحرية للعثمانيين للانطلاق منها صوب الأسطول البرتغالى الذى كان متمركزا فى كثير من القواعد البحرية فى الخليج العربى والمحيط الهندى[1]. وهناك دارت الكثير من المعارك البحرية بين الطرفين كانت أعنف من معارك خير الدين بربروسا الشهيرة فى الحوض الجنوبى من البحر الأبيض المتوسط. كما عمد البرتغاليون فى كثير من الأحيان إلى مهادنة العثمانيين لكى يتمكنوا من تركيز نفوذهم والتصدى لردود الفعل العربية التى لم يخمد أوارها بين سكان الخليج.

ويمكننا تأريخ العمليات البحرية العثمانية ضد البرتغاليين فى عام ١٥٥٠

(١) Haje Khalefah, The History of the Maritime Wars of The Turks London 1831, pp. 68- 72.

حين أرسل العثمانيون عمارة بحرية بقيادة سليمان باشا الخادم لمقاتلة البرتغاليين فى البحر الأحمر والخليج العربى والمحيط الهندى. وكان سليمان باشا رجلا خرفا طاعنا فى السن استطاع أن يثير المسلمين فى عدن حين تقدم إليها بحملته وبدلا من أن يكون عامل توحيد للقوى الإسلامية المحلية أصبح بسياسته الشاذة عاملا من عوامل الفرقة وخاصة بعد أن عمد إلى قتل أمير عدن من أسرة بنى طاهر حين دعاه بطريقة غادرة إلى وليمة على ظهر سفينته. وقد تركت هذه الفعلة الشنعاء تأثيرها على الأمراء المحليين الذين لم يرحبوا بتقدم العثمانيين إلى سواحلهم. وفى منطقة الخليج العربى استخدم العثمانيون قاعدة البصرة لتوجيه حملاتهم البحرية ضد البرتغاليين رغم أن البصرة كما هو معروف ميناء نهرى أكثر من كونها ميناء بحريا، ومع ذلك فقد استخدمها العثمانيون للخروج بأسطولهم إلى مياه الخليج. ووجد العثمانيون تجاوبا كبيرا من عرب الخليج للاحتماء بزعامتهم الإسلامية؛ حتى أن سكان القطيف والإحساء بادروا بإعلان أنفسهم رعايا عثمانيين وأكدوا رفض خضوعهم لمملكة هرمز التى كانت تعانى فى ذلك الوقت من وطأة الاحتلال البرتغالى. وكان قد سبق لسكان البحرين أن أعلنوا خضوعهم للعثمانيين على أثر فتحهم للعراق فى عام ١٥٣٤. وقد اعتبر العثمانيون المناطق التى أعلنت ولاءها لهم إيالة عثمانية أطلقوا عليها اسم إيالة الإحساء، وعينوا عليها بيلربى أو أميرا أول. وكان البيلربى يتشكل طبقا للتقسيمات الإدارية العثمانية من عدة سناجق حيث اعتبرت القطيف ضمن مجموعة سناجق إيالة الإحساء التى امتدت حدودها حتى وصلت جنوبا إلى شبه جزيرة قطر[١].

وليس من شك فى أن السيادة العثمانية التى أعلنت على الإحساء والقطيف قد أفزعت البرتغاليين وخاصة بعد أن وقع الحصن البرتغالى فى القطيف تحت السيطرة العثمانية فى عام ١٥٤٧. وكان البرتغاليون يعتمدون على ذلك الحصن فى السيطرة على المناطق الساحلية من شرق الجزيرة العربية، ولذلك وجه البرتغاليون حملة كبيرة لاستعادة القطيف أسندت قيادتها إلى أنطاودى نورونها De Nnoronha، وكانت هذه الحملة تتكون من ألف ومائتى مقاتل وسبع سفن كبيرة الحجم، هذا

(١) أوزبران: مرجع سبق ذكره ص ٣٢ ومابعدها.

بالإضافة إلى قوات من هرمز صاحبت تلك الحملة وقدر عددها بأكثر من ثلاثة آلاف مقاتل. وعلى الرغم من أن العثمانيين فى القطيف لم يتعد عددهم أكثر من أربعمائة مقاتل إلا أنهم دافعوا عن أنفسهم ببسالة منقطعة النظير وإن كانوا قد اضطروا فى نهاية الأمر إلى الاستسلام للبرتغاليين بعد أن عمد هؤلاء إلى فرض حصار على القلعة استمر ثمانية أيام. ولم يكتف دى نورونها بمحاصرة القطيف وإنما واصل الزحف بقواته إلى البصرة باعتبارها قاعدة العثمانيين البحرية فى الخليج، ولكنه لم يستطع أن ينفذ خطته فى السيطرة عليها وذلك بسبب وصول أنباء تلك الحملة إلى بيلربك البصرة الذى سارع بتنفيذ خطة ذكية لتفادى الهجوم المرتقب بحيث جعل القائد البرتغالى يعتقد بأن العثمانيين قد جمعوا حشودا كبيرة من القبائل العربية فى البصرة، ولما كان دى نورونها يخشى الاصطدام بتلك الحشود فقد عدل عن خطة الهجوم مفضلا التراجع إلى القطيف، وهناك علم بأنه قد خدع إذ لم يثبت وجود أية استعدادات بحرية فى البصرة لتلافى الهجوم البرتغالى[1]!

أكدت معركة القطيف أنه لاقبل للعثمانيين التصدى للبرتغاليين فى معارك بحرية نظامية، وأن التفوق البحرى البرتغالى لايمكن مواجهته إلا بعمليات بحرية غير نظامية وذلك بسبب عدم التكافؤ فى القوة البحرية بين الطرفين. وقد أنيط بهذه العمليات غير النظامية أو الفدائية إلى مجموعة بارزة من القباطنة العثمانيين الذين خلد الكثير منهم أسماءهم ليس فى الأعمال البحرية فحسب وإنما فى المجال العلمى، حيث اشتهر من بينهم من اهتموا بفنون البحر والملاحة من أمثال على بك جلبى، وبيرى بك، الذى كان جغرافيا مشهورا وفنانا فى رسم الخرائط. وقد تعددت ميادين العمليات العثمانية ضد البرتغاليين فى الخليج العربى والبحر الأحمر وكان واضحا من ضراوة تلك العمليات أن العثمانيين كانوا يعملون بحماس لانتزاع السيادة البحرية من البرتغاليين.[2] وكان من أبرز القباطنة العثمانيين الذين تصدوا للنفوذ البرتغالى فى الخليج بيرى بك رئيس Pirri Reis الذى أبحر من السويس،

(١) صالح أوزبران: مرجع سبق ذكره ص ص ٤١ ـ ٤٢.
(٢) Danvers, F. C., The Portuguese in India vol. I London 1894. p. 497.

التى أصبحت من أقوى القواعد العثمانية البحرية، وكانت تصحبه خمس وعشرون سفينة كبيرة الحجم، وقد نجح بيرى بك فى مهاجمة القلعة البرتغالية فى مسقط حيث أعلن قائدها جوا دى ليزبوا Jao de Lisboa استسلامه للعثمانيين بشرط أن يسمحوا له ولمن معه من أفراد الحامية البرتغالية بالانتقال إلى هرمز بسلام، ولكن بيرى بك بادر بعد سيطرته على قلعة مسقط بتجريد الحامية من سلاحها وعرض قائد الحامية وكبار ضباطها إلى معاملة سيئة. وفى أكتوبر ١٥٥٢ صدر أمر من الآستانة إلى بيلربى البصرة فيه توضيح للتعليمات التى تعطى إلى بيرى بك وفيها كان يتحتم عليه بعد حملته الناجحة على مسقط أن يتجه إلى البصرة للاستعانة ببعض قواتها لكى يقوم بالهجوم على هرمز والبحرين. غير أن بيرى بك وقد أغراه سهولة الانتصار فى مسقط توجه مباشرة إلى هرمز حيث أطلق المدافع على قلعة البرتغاليين وحاصرها ستة عشر يوما ولكن البرتغاليين تمكنوا من الدفاع عن أنفسهم واضطر بيرى بك إلى الانسحاب إلى جزيرة قشم ومنها أبحر إلى البصرة بعد أن استولى على غنائم كثيرة منها حيث كان الأثرياء من التجار يقطنون تلك الجزيرة، وفى البصرة لم يلبث أن دب الخلاف بينه وبين البيلربى ولذلك غادر المدينة حاملا معه جميع الغنائم التى حصل عليها بما فى ذلك الأسرى البرتغاليين. وقدرت بعض المصادر قيمة غنائمه بأكثر من مليون ريال من الذهب(١)، فى الوقت الذى أرسل فيه بيلربى البصرة تقريرا إلى السلطان العثمانى. وفيما يبدو أن هذا التقرير لم يكن فى صالح بيرى بك إذ إنه على أثر وصوله إلى السويس استدعى من قبل السلطان العثمانى للرد على التهم المتعلقة بقلة كفاءته وعدم نجاحه فى عملياته فى الخليج. وفى الآستانة صدر ضده حكم بالإعدام وقطعت رأسه بالفعل فى عام ١٥٥٣(٢).

والجدير بالذكر أن كثيرا من المصادر التى تناولناها لم تستطع أن تعلل السبب الحقيقى لإعدام بيرى بك فمنها من أشار إلى أن السبب الحقيقى لم يتضح تماما ومنها من أكد، كما فعل فاريا سوسا، أنه تجاوز التعليمات الصادرة إليه وهو الأمر الأكثر احتمالا إذ إن السلطان سليمان القانونى قد أمر بيرى بك فى أن لايجد فى

(١) ج. ج. لوريمر: دليل الخليج جـ١ ص ١١.
(٢) صالح أوزبران: مرجع سبق ذكره، انظر رسالة نورنها إلى نائب الملك فى جوا ٣٠ أكتوبر ١٥٥٢ ص ص ٧٦- ٨٠.

أخذ هرمز قبل أن يذهب أولا إلى البصرة لكى يأخذ جنودا آخرين غير أن بيرى بك نتيجة لما وجده من ضعف البرتغاليين فى مسقط اعتقد بأن الحالة فى هرمز، ستكون متشابهة وقدر أن بإمكانه بالأسلحة والذخائر التى استولى عليها من قلعة البرتغاليين فى مسقط أن يخضع البرتغاليين فى هرمز ولكنه فشل على نحو ما رأينا بسبب صمود القلعة البرتغالية الحصينة فى هرمز.

وخلف بيرى بك فى قيادة العمارة العثمانية فى الخليج العربى الرئيس مراد الذى قام بجهود يائسة لاستدراج الأسطول البرتغالى خارج القواعد والحصون البرتغالية فى الخليج، كما فشل فى إرجاع السفن العثمانية التى كانت راسية فى ميناء البصرة إلى السويس. وخلفه فى عام ١٥٥٤ سيدى على رئيس الجغرافى العثمانى المشهور الذى عهد إليه بمواصلة تلك المهمة فأبحر من البصرة فى يولية ١٥٥٤ بخمس عشرة سفينة وذلك بعد أن وصلته الأنباء بأن البرتغاليين متجهون لاستعادة مسقط بقيادة فيرناندودى نورنها Fernando de Noronha، وبالقرب من ميناء خورفكان تقابل الأسطول البرتغالى مع الأسطول العثمانى حيث دارت معركة حامية الوطيس يمكن اعتبارها من أهم المعارك العثمانية البرتغالية فى الخليج العربى. وقد وصف سيدى على فى كتابه مرآة الزمان هذه المعركة بأنها كانت من أعنف المعارك البحرية التى خاضها بل كانت أكبر من المعارك التى خاضها خير الدين بربروسا فى البحر الأبيض المتوسط، وكان سيدى على قد عمل معه فترة من الوقت. وعلى الرغم من أن سيدى على سجل فى هذه المعركة انتصاره على البرتغاليين إلا أن الأسطول البرتغالى بعد تراجعه لم يلبث أن أعيد إعداده وتجهيزه، وتمكن فيرناندو من دخول المعركة للمرة الثانية ضد العثمانيين وفى هذه الجولة تكبد الأسطول العثمانى خسائر فادحة[١]. وعلى أثر فشل على بك فى مهمته قام مصطفى باشا بيلربى الإحساء فى عام ١٥٥٩ بمحاصرة المنامة بعدد كبير من انكشارية بغداد، وحين وصلت أخبار هذا الحصار إلى هرمز بادر البرتغاليون بإرسال قطع من أسطولهم للتصدى للعثمانيين؛ وبسبب نقص مؤن العثمانيين وذخيرتهم قرروا إنهاء هذا الصراع وسلموا أسلحتهم للبرتغاليين، واكتفى السلطان

(١) Vambery, A., Travels of the Turkish Admiral Sidi Aly Reis in India, Afghanistan, Central Asia and Persia during the years 1553-1555 London 1899 pp. 9-12.

سليمان بإصدار فرمان بمنح حاكم البحرين الرئيس مراد لقب سنجق بك وذلك على الرغم من النفوذ البرتغالى الذى كان واضحا فى الجزيرة. ورغم توقف الحملات العثمانية على البحرين وإنحسار النفوذ العثمانى عنها إلا أنها ظلت مع ذلك تشكل منطقة عازلة بين الأتراك العثمانيين فى الإحساء والقطيف والبصرة، وبين البرتغاليين فى هرمز والمناطق التابعة لهم فى مسقط والساحل الجنوبى للخليج. وفيما يبدو أن البرتغاليين حاولوا مهادنة العثمانيين ريتضح لنا ذلك حين أوفد نائب الملك فى الهند رسولا إلى الآستانة فى عام ١٥٦٢ لعرض مشروع للسلام بين الفريقين. وهو مشروع لم يقدر له التنفيذ بسبب إصرار السلطان العثمانى على كسر نظام الاحتكار البرتغالى وتأمين الطرق البرية والبحرية وحمايتها لصالح الرعايا والتجار التابعين للإمبراطورية العثمانية.

وعلى الرغم من أن عمليات العثمانيين قد توقفت فى الخليج بسبب انغماسهم فى الصراع ضد الفرس وخاصة حين أقدم الشاه طهماسب ١٥٢٤/ ١٥٧٦ على التقدم إلى الأراضى العثمانية إلا أنه لم تكد تتوقف تلك العمليات فى عام ١٥٧٥ حتى جدد السلطان العثمانى أوامره بفتح البحرين وأصدر فرمانا إلى بيلربى بغداد باستطلاع الموقف بعد أن كتب بيلربى الإحساء إلى الدولة العثمانية بأن فتح البحرين يضمن لها ٤٠,٠٠٠ فلورى سنويا. ولكن لم يلبث هذا المشروع أن توقف بعد أن تبين للدولة العثمانية أن هذا الدخل ليس وشيك الظهور وأنه قد يقل عن النفقات والمصروفات المحلية[1]. ولم تحاول الدولة العثمانية تجديد نشاطها فى الخليج إلا فى عام ١٥٨١ حين قدرت أهمية الاستفادة من فرصة ضم البرتغال إلى التاج الاسبانى على عهد الملك فيليب الثانى فى عام ١٥٨٠ حيث عهدت إلى على بك الذى ظهر فى مياه الخليج للمرة الثانية بحصار قلعة البرتغاليين فى مسقط، وعلى الرغم من الانتصار الذى حققه فى بداية الأمر إلا أن وصول الإمدادات السريعة من هرمز أجبرت العثمانيين على الانسحاب[2]. ولم يكن لتلك المغامرة أية فائدة تذكر بالنسبة للعثمانيين بل على العكس من ذلك نبهت البرتغاليين إلى ضرورة تعزيز قواتهم فى مسقط إذ اعتبر البرتغاليون سيطرة العثمانيين على

(١) صالح أوزبران: مرجع سبق ذكره ص٨١ انظر فرمان صادر إلى بيلربى بغداد نقلا عن مهمة دفتر لى. M DXXVII.

(٢) Steven, John, Manual de Faria e Sousa, The Portuguse Asia vol. II part II pp. 370-372.

مسقط بمثابة عار لحق بسلاحهم البحرى، ولعل ذلك مما دعا الحكومة الأسبانية التي كانت تشرف على المستعمرات البرتغالية فى ذلك الحين إلى إصدار تعليماتها بزيادة التحصينات العسكرية وبناء قلعتين كبيرتين لاتزالان قائمتان حتى الآن تحيطان بخليج مسقط وتكسبانه جوا من الغموض والرهبة. وقد عرفت هاتان القلعتان باسم قلعة كابيتان وسان جوا ويعرفان فى الوقت الحاضر بقلعتى الميرانى والجلالى، وهما تسميتان فارسيتان أطلقهما نادر شاه بين عامى ١٧٣٨ و١٧٤١. ولم تكن التركة التى خلفها البرتغاليون فى مسقط مقتصرة على المبانى العسكرية وإنما جاء البرتغاليون بالروح المتحمسة المعروفة لدى مبشريهم ووضح ذلك فى بناء ثلاث كنائس فى مسقط، ولاتزال الكنيسة الصغرى أو المعبد الصغير الذى بناه البرتغاليون باقيا حتى الآن فى قلعة الميرانى من بين الكنيستين الأخرتين اللتين تهدمتا بفعل الزمان[١].

بقى أن نشير فى هذا المجال إلى أن جهود على بك لم تقتصر على مسقط وإنما تقدم منها إلى سواحل شرق إفريقيا حيث كان البرتغاليون منذ بدء زحفهم على بحار الشرق قد استولوا على معظم موانئها واتخذوا من القواعد التى أنشأوها هناك، والتى كان من أشهرها قلعة موزمبيق وقلعة المسيح فى ممبسة، محطات تمد سفنهم الذاهبة إلى الهند والآتية منها بالمؤن والعتاد. وقد حاول على بك فى عام ١٥٨٥ أن يعتمد على تأييد السكان المسلمين فى شرق إفريقيا وذلك بإثارتهم ضد البرتغاليين والعمل على ضمهم إلى الدولة العثمانية، وأخذ يطمئنهم بأن ثمة أسطولا عثمانيا كبيرا فى الطريق إليهم[٢]. ورغم نجاح على بك فى إعلان السيادة العثمانية على كثير من مقاطعات الشرق الأفريقى كممبسة ولامو ومقديشيو وبات إلا أن الأسطول العثمانى الكبير الذى وعد به على بك لم يصل وتقدم بدلا منه أسطول برتغالى بقيادة كوتنهو Cutinho تمكن من قمع الثورات الناشبة ونجح فى القبض على على بك وأسره ويقال إنه أرسله إلى لشبونة حيث أجبر على اعتناق المسيحية ومات هناك[٣].

---

(١) دونالد هولى: مرجع سبق ذكره ص ص ٣١ ـ ٣٢

(٢) Eliot, Charles, East Africa Protectorate London 1905 p. 16.

(٣) Vambery A., op. cit., p. 3.

ولم يفكر العثمانيون فى إعادة الكرة من جديد، وعلى العكس من ذلك سنلاحظ تبدل السياسة العثمانية إزاء البرتغاليين بعد أن استنجدت فارس بالإنجليز للإطاحة بالنفوذ البرتغالى من هرمز فى عام ١٦٢٢، ولذلك حين استولى الشاه عباس الكبير على بغداد فى عام ١٦٢٣ استعان حاكم البصرة العثمانى بالبرتغاليين خوفا من أن يصل الفرس إلى مقاطعته، وبالفعل ظهرت خمس سفن برتغالية فى شط العرب لكى تساهم فى الدفاع عن البصرة ضد الفرس!. وهكذا خرجت الدولة العثمانية عن سياستها التقليدية التى كانت تجعل منها حامية للعالم الإسلامى من الغزو الأيبيرى سواء فى المغرب أو المشرق. وبخروج العثمانيين من ساحة الصراع فى الخليج العربى انفسح المجال أمام قوة عربية إسلامية ناشئة هى قوة اليعاربة فى عمان لكى تنهض بالتعاون مع القبائل العربية فى الخليج لتحرير شواطئها من الاستعمار البرتغالى، وهو الدور الكبير الذى قدر لعرب الخليج أن يحرزوا قصب السبق فيه مستفيدين فى ذلك من الظروف الداخلية والخارجية التى كانت تمر بها الإمبراطورية البرتغالية مما جعلهم يقفون منها موقف التحدى ويشكلون عاملا كبيرا من عوامل انهيارها فى بحار الشرق. ومن ناحية أخرى فإن سقوط دولة النباهنة في عمان وقيام دولة اليعاربة كان يعنى الإطاحة بالأنظمة القديمة فى الخليج وقيام تنظيمات جديدة أخذت على عاتقها مقاومة البرتغاليين، وامتدت تلك التنظيمات فشملت سواحل الخليج العربى فى شكل تجمعات سياسية وأحلاف قبلية كانت تمثل القيادات الجديدة لحقبة مابعد الاستعمار البرتغالى.



الفصل الثانى

الأوضاع السياسية فى الخليج العربى فى أعقاب انهيار السيطرة البرتغالية

عوامل ضعف الإمبراطورية البرتغالية فى الشرق - التقارب الإنجليزى الفارسى على عهد الشاه عباس الكبير - اتفاقية ميناب - سقوط هرمز ١٦٢٢ - ظهور اليعاربة فى عمان وكفاحهم ضد البرتغاليين - سقوط القواعد البرتغالية فى مسقط ١٦٤٩ - امتداد العمليات العمانية ضد البرتغاليين فى سواحل الهند وشرق إفريقيا - بدء العلاقات الإنجليزية العمانية - المفاوضات الفارسية الفرنسية بشأن مسقط - التفوق البحرى الفارسى فى الخليج العربى على عهد نادر شاه.

* * *

على الرغم من أن الإمبراطورية البرتغالية فى الشرق كانت تشكل قوة بحرية عظمى بحكم الامتداد الكبير الذى كانت تمتد إليه من سواحل البرتغال إلى كاليكوت على سواحل الهند الغربية، إلا أنه كان واضحا أن عوامل الضعف والانهيار كانت تفعل فعلها فى جسم هذه الامبراطورية الساحلية الكبيرة وقدر لدولتين عربيتين هما دولة اليعاربة فى عمان ودولة الأشراف السعديين فى مراكش أن تسهم كل منهما فى إضعافها. ولعل المؤرخ البريطانى روبيرت لاندن «Landen» كان ثاقب النظر حين ربط بين انهيار النفوذ البرتغالى فى الخليج العربى وبين الضربة القاصمة التى لحقت بهم فى وادى المخازن فى أغسطس ١٥٧٨[١]. وقد ظهر الانهيار واضحا فى أعقاب ضم البرتغال إلى التاج الأسبانى (١٥٨٠ - ١٦٤٠)، ومع ذلك فقد كان وراء انهيار الإمبراطورية البرتغالية أسباب أخرى عديدة لعل أهمها العنف والخلق السيء الذى كان طابع معاملات البرتغاليين مع جيرانهم من أهالى الشرق[٢]. هذا إلى جانب مشاعر الحسد والشقاق التى كانت سائدة فيما بينهم، والأهم من ذلك أن البرتغاليين لم يؤسسوا شركات تجارية كما

(١) عبدالهادى التازى: الصلات التاريخية بين المغرب وعمان، من حصاد ندوة الدراسات العمانية جـ ٣ - مسقط نوفمبر ١٩٨٠، ص١٣١

(٢) زين الدين: تحفة المجاهدين فى بعض أحوال البرتغاليين، نشر دافيد لوبز لشبونة ١٨٩٨ ص٧٢ ومابعدها.

فعل منافسوهم الإنجليز والهولنديون وإنما كانت تجارتهم فى الشرق تعد احتكارا ملكيا اشتهر بسوء الإدارة والتنظيم، وأصبحت قواعدهم العسكرية التى كانوا يستندون عليها مهددة بسبب فقدان النظام ونقص الكفاءة، وكان صعود نجم الشركات الهولندية والإنجليزية فى بحار الشرق يمثل انتصارا لنظام فردى على نظام احتكارى تمارسه الدولة. وقد لاحظ الرحالة بيترو دى فالى فى عام ١٦٢٥ هبوط مستوى النظام فى السفن البرتغالية وكثرة حركات التمرد التى كان يقوم بها البحارة البرتغاليون ضد قادتهم الكبار الذين تناسوا كل شيء حتى بلادهم وشرفهم، وذكر أن البرتغاليين قد يمكنهم استعادة ما ضاع منهم إذا عرفوا كيف يحافظون على مكاسبهم، وهذا هو المهم فقد يكسبنا الحظ أشياء ولكن الفطنة والحصافة هى التى تجعلنا نحافظ على ماكسبناه. ولم يسع دى فالى - رغم ميوله الكاثوليكية الواضحة - إلا أن يقارن ما رآه من فساد على السفن البرتغالية بالأوضاع النظامية التى كانت تسود السفن الإنجليزية، كذلك انتقد فاريا سوسا Sousa البرتغاليين فى عبارات لاذعة[١].

وقد أدى إحكام البرتغاليين سيطرتهم على المنافذ العربية التى كانت تمر منها تجارة الشرق، والأساليب العنيفة التى طبقوها ضد القوى الإسلامية إلى حرمانها من ازدهارها الملاحى والتجارى السابق، ولذلك أخذت تلك القوى تتحين الفرصة للإيقاع بهم. وكما سبق أن أشرنا أن أكبر ضربة تعرضت لها الإمبراطورية البرتغالية هى خضوع البرتغال للتاج الإسبانى مايقرب من ستين عاما فى خلالها أصبحت إسبانيا هى الممثلة لمصالح البرتغال، وظهر أن الحكومة الإسبانية كانت حكومة مركزية غير رشيدة. ولما كانت إسبانيا منغمسة فى صراعات داخل القارة الأوروبية فقد سارعت الدول المعادية لإسبانيا بالانقضاض على الإمبراطورية البرتغالية باعتبارها قد أصبحت تشكل من الناحية القانونية جزءا من الممتلكات الإسبانية، ولما عادت البرتغال إلى إمبراطوريتها بعد انفصالها عن التاج الإسبانى لم تجد منها سوى أشلاء ممزقة. ومن ناحية أخرى فإن التنافس دفع بالدول الأوروبية

(١) ج.ج. لوريمر: دليل الخليج جـ١ ص ص ٦٢ - ٦٣.

إلى تأسيس شركـات تجارية خاصة بها، وأخـذ الإنجليز على عاتقهم زعـامة حرية البحار وإطلاق المجال للتـجارة الحرة للتخلص من السياسة الاحـتكارية البرتغالية. وظهر واضحا عدم مقدرة البرتغال ـ وهى دولة صغيرة محدودة المساحة والسكان ـ الاستـمرار فى حمـاية إمبـراطورية ساحلية ضـخمـة امتدت عـشرات الآلاف من الأميال، وخاصة بعد أن بدأت إنجلترا توجه ضرباتها المتوالية إليها منذ عام ١٥٨٨. ففى ذلك العـام نجحت إنجلترا فى تحـقيق أمنها الـقومى بانتصـارها الساحق على الأرمادا الإسبانية، وبموجب مرسوم ملكى أصدرته الملكة إليزابيث فى ديسمبر سنة ١٦٠٠ تأسست شركة الهند الشرقية الإنجليزية، أو شركة تجار لندن الذين يتجرون مع الهند الشـرقيـة كمـا كانت تعـرف فى ذلك الوقت. وقد ظهـرت آثار انهـيار الإمبـراطورية البرتغـالية على مـركز البـرتغاليين فى الخليج الذى بدأ يتـداعى منذ السنوات الأولى من القرن السابع عشر، ففى عام ١٦٠٢ نجحت قوات الشاه عباس الكبير فى طرد البرتغاليين من البحرين، كما سقطت جمبرون وتبعتها جلفار (رأس الخيمـة) فى عام ١٦١٥[1]. وأخذ مـركز البرتغاليـين الحصين فى هرمز يتـعرض لهجـمات فارسـية متكررة، وعلى الرغم مـن أن البرتغاليـين نجحوا فى التـصدى لبعض هذه الهجمات فأعادوا تعزيز قـوتهم فى بندر عباس ووجهوا هجوما ضاريا على صحار[2]، إلا أنه أصبح واضحا أن مركز البرتغاليين فى الخليج أخذ يتعرض إلى الإنهيار السريع، وخاصة حين تلاقت مصلحـة الشاه عباس مع مصالح التجار الإنجليز فى الإطاحة بالنفـوذ البرتغالى حيث اشتـركت بعض السفن الإنجليزية مع قوات الشـاه فى عملية هجوم ناجـحة على قاعدة البـرتغاليين الحصـينة فى هرمز وانتهى الأمر بسقوطها فى عام ١٦٢٢.

وقد يـكون من المفيـد قبل أن نعـرض لذلك الهجـوم الناجح أن نشيـر إلى التقـارب الذى حدث بين الإنجليز والشـاه عباس الكبـير والذى مهدت له بعـثات شركة الهند الشرقية الإنجليزية إلى البلاط الفارسى حيث أخذ ممثلو الشركة يعملون

(١) صالح محـمـد العابد : موقف بريـطانيا من النشاط الـفرنسى فى الخليج العـربى ١٧٩٨ ـ ١٨١٠ بغداد ص٢٣.

(٢) Boxer, C., New Lights on the Relationship of Oman and Portuguese 1613- 1633. من أعمال ندوة الدراسات العمانية نوفمبر ١٩٨٠.

على استحواذ اهتمام الشاه. ولاشك أن الهزيمة الشنيعة التى لحقت بالبرتغاليين على أيدى الأسطول الإنجليزى فى سورات عام ١٦١٥ كان لها أثر كبير فى تردى سمعتهم البحرية فى الخليج العربى. وفى العام التالى أصدر الشاه عباس مرسوما يتضمن تعليمات صريحة بحسن استقبال الإنجليز الذين يفدون إلى فارس، ووقع اختيار شركة الهند الشرقية الإنجليزية على ميناء جاسك الذى يبعد قرابة تسعين ميلا من هرمز ليكون مركزا لوكالتها فى الخليج، وكان هذا الميناء يقع فى مأمن طبيعى ولا خطر عليه من البرتغاليين. ومع ذلك فما كاد الإنجليز يستقرون فى ذلك الميناء حتى بدأ التراشق بينهم وبين البرتغاليين فى ديسمبر سنة ١٦٢٠ فيما عرف بمعركة الجاسك التى أحرز الإنجليز فيها نصرا كبيرا نجحوا به فى تأمين مركزهم فى ذلك الميناء(١).

ولم يلبث الشاه عباس بعد ذلك أن أخذ يتطلع إلى طرد البرتغاليين من قاعدتهم الحصينة فى هرمز، إذ كان وجودهم هناك من شأنه تهديد هيبة بلاده ورخائها. ولما كان يفتقر إلى القوة البحرية التى تعينه فى الصراع المرتقب بينه وبين البرتغاليين فقد وجه أنظاره إلى الوفود الإنجليزية التى كانت تفد إليه من بلاط جيمس الأول تعرض عليه الصداقة والمساعدة ضد العثمانيين. وفى عام ١٦٢١ وجد الظروف مواتية لاستعادة هرمز فأصدر أوامره إلى إمام قولى خان حاكم إقليم فارستان بأن يقود حملة لاسترداد الجزيرة من البرتغاليين، وتصادف فى ذلك الوقت وصول أسطول إنجليزى إلى ميناء جاسك قادما من سورات فبادر الحاكم الفارسى بطلب المساعدة العسكرية من قائد ذلك الأسطول، ولوح للإنجليز بإغراءات كثيرة وألح لهم فى الوقت نفسه إلى أنهم إذا رفضوا المساعدة فى ذلك الهجوم فإن الشاه عباس سوف يعمل على سحب الامتيازات الكثيرة الممنوحة لهم، كما ستصادر شحنات الحرير التى كان يتوقع وصولها من أصفهان لحسابهم. وهكذا وجد الإنجليز أنفسهم فى مأزق حرج، حقيقة أن مجلس إدارة الشركة كان لايمانع فى مهاجمة السفن البرتغالية والاستيلاء عليها بعد انتشار عمليات القرصنة من جانب

---

(١) Sykes, Sir Percy, A History of Persia London 1951 Vol. II p.190

البرتغاليين، ولكن فكرة تأييد الفرس المسلمين ضد البرتغاليين المسيحيين لم تكن تروق لبعض المسئولين الإنجليز فى الشركة[1]. ومن ناحية أخرى كانت الشركة تخشى معاقبة الملك جيمس الأول ملك إنجلترا إذا قامت بالحرب ضد إسبانيا باعتبارها المشرفة فى ذلك الوقت على ممتلكات البرتغاليين فى الشرق، وكانت العلاقات هادئة بين إنجلترا وإسبانيا فى ذلك الحين. يضاف إلى ذلك أن شركة الهند الشرقية كانت تعمل على تخفيض النفقات العسكرية إلى أقل حد ممكن، وكان الاعتقاد بأن هرمز محصنة تحصينا قويا وتحتاج إلى قوات ضخمة ونفقات عسكرية هائلة للتغلب عليها. ونظرا لعلاقة الحكومة الإنجليزية السلمية بأسبانيا فإن الشركة سوف تضطر إلى دفع رشوة كبيرة للمسئولين الإنجليز حينما يتعرض ذلك السلم للنقض من قبلها إذا ما قررت التعاون مع الفرس فى الاستيلاء على هرمز.

ويلاحظ هنا تأثير الثورة البروتستانتية التى كانت دافعة للإنجليز لمساعدة الفرس ضد دولة كاثوليكية مع عدم استبعادنا بطبيعة الحال أهمية الدوافع الاقتصادية المتمثلة فى حرص الشركة على مصالحها وامتيازاتها وعدم إعطاء الفرصة لتفوق البرتغاليين عليها، ولذلك انتهى الأمر بموافقة الشركة على مساعدة الحكومة الفارسية فى استرداد هرمز بشرط الامتثال إلى شروطها التى ضمنت فى اتفاقية وقعت بين حاكم إقليم فارستان وممثل شركة الهند الشرقية فى جاسك وعرفت هذه الاتفاقية باسم اتفاقية ميناب ـ يناير ١٦٢٢، وكانت الاتفاقية تشتمل على بنود عديدة كان من أبرزها أن يساهم الفرس على الأقل بنصف تكاليف العمليات العسكرية وأن تقتسم الغنائم بالتساوى بين الإنجليز والفرس، وأن يئول الحصن البرتغالى الموجود فى هرمز بكل مافيه إلى الإنجليز. كما نصت الاتفاقية على أن يقتسم الطرفان العوائد الجمركية فى هرمز بالتساوى فيما بينهما، وأن تعفى التجارة الإنجليزية من العوائد الجمركية فى هرمز وجمبرون والموانى الفارسية الأخرى فى الخليج. وأخيرا تضمنت الاتفاقية نصوصا خاصة بمعاملة الأسرى حيث نصت على أن يختص الإنجليز بالأسرى المسيحيين ويختص الفرس بالأسرى المسلمين إلى جانب نصوص أخرى تتعلق بمساعدة الإنجليز لفارس فى بناء أسطول بحرى لها فى الخليج.

(١) ارنولد ويلسون: الخليج العربى ص ص ١٠٨ ـ ١٠٩.

ولما عرضت هذه الاتفاقيـة على الشاه عباس للمصادقة عـليـها أدخل عليها بعض التعديلات التى كان من أهمها أن يحتل الفـرس والإنجليز قاعدة هرمز معا، وأن تعفى البضائع الفارسية من الجـمارك فى الموانى الإنجليزية شأنها فى ذلك شأن البضائع الإنجليزية فى الموانى الفارسية[١].

وبناء على اتفاقيـة ميناب قـدمت شركة الهند الشـرقية البريـطانية معاونتـها لفارس فـى السيطرة على هرمـز رغم الصعـوبات التى وجدها الإنجليـز فى إقناع بحارتهم بالمشـاركة فى هذه العملية حيـث اعترض الكثـيرون بأنهم ليسوا مـعينين للقيام بعـمليات عسكرية من ذلك النوع، ولم يتم التغـلب على هذه المعارضة إلا بوعود خـاصة بتقـديم مكافآت سخـية لهم. وبدأت القـوات الإنجليزية الفارسـية بالتعاون مع العرب النازلين فى إقليم لارستان بمهاجـمة حصن البرتغاليين فى قشم والذى كان مـقاما لتـأمين مـوارد المياه فى هرمز؛ وعلى أثـر سقوط قـشم لم تجد القوات المشتركة صعوبة فى الهجوم الذى شنته على هرمز إذ لم يمض وقت طويل على الحصار حتى قـام البرتغاليون بالاتصال بالإنجليز يطلبون تـسليم أنفـسهم إليهم لأنه ليس من اللائق أن يسلموا أنفـسهم للفرس أو المسلمين!. كـما طلبوا أن يتم نقلهم إلى مـسـقط. وفى ٢٣ أبريل سنة ١٦٢٢ سلم البرتغـاليون أنفسـهم للإنجليز وتم إنزال العلم البرتغالى من قلعة البوكيرك بعد أن ظل يرفرف عليها أكثر من مائة عام[٢]. ولكن الإنجليز رفضـوا العبور مع القوات الفارسيـة من هرمز إلى الشاطئ الغربى للخليج للاستيلاء على مـسقط وصحار وخـورفكان باعتبـار هذه الأماكن تابعة لهرمـز، واضطر الفرس أن يقوموا بمفردهم بذلك العمل، ولكن البـرتغاليين تمكنوا من طردهم من تلك الأماكن، ووضح أن البرتغاليين بعد سقوط معقلهم فى هرمز أخـذوا يركزون وجودهم على السـاحل الغـربى للخليج فى مـسقط وصـحار ورأس الخيمة، وخـاصة بعد أن تعاون الأسطولان الإنجليزى والهـولندى فى تدمير ماتبقى من القواعد البرتغالية على السـاحل الشرقى للخليج[٣].

(١) ج.ج لوريمر : دليل الخليج جـ١ ص٣٧.

(٢) Low, Charles, History of the Indian Navy 1613-1863 vol. I London 1877 pp. 38-45.

(٣) محمد عبدالله السالمى: مرجع سبق ذكره ص ص ١٨٧ - ١٩١.

ومما تجدر الإشـارة إليه أن الخلافات سـرعان ماظهرت بين الإنجليـز والفرس عقب سقوط هرمز، وكان السبب فى ذلك أن غنائم هرمز لم يتم تقـسيمها تقسيما متسـاويا كما كـانت تنص بذلك اتفاقية ميـناب، إذ رفض الفرس اقتسـام المعدات الحربية مع الإنجليز بحجة وجوب الاحتفـاظ بها فى القلعة، كما عارضوا إبقاء أى جندى إنجليزى فيـها، ورغم قلة الأسلاب التى حصل عليها الإنجلـيز إلا أن شركة الهند قد اضطرت مع ذلك إلى دفع هدية نقدية إرضاءً للملك جيمس الأول بلغت عشرة آلاف من الجنيـهات ومبلغ مماثل لدوق بكنجهام لكى يصـدر الملك عفوا عن جميع الذين اشتركوا فى تلك العملية.

والجدير بالذكر أن الإنجليز حاولوا أن يحلوا بدلا من البرتغاليين فى السيطرة على هرمز. وقد ذكر الرحالة الفرنسى البارون تافرنيه بصدد ذلك أن حب السيطرة أصبح يداعب خيال الإنجليز ويشغل تفكيرهم بعد مـساعدتهم البحرية للشاه عباس فى الاستيلاء على هرمز، ولذلك استقر رأيهم على إيفاد بعثة سياسية للشاه برئاسة السير أندركت ليقوم بدور السفارة بينهم وبين البلاط الصفوى وليتفاوض بشأن منح الإنجليز حق التـصرف فى جزيرة هرمز فإذا لـم يوفق فى مسعاه فعلـيه أن يحصل على مـوافقـة فارس بإعـفاء البـضائع الإنجـليزية من دفع الرسـوم الجمـركيـة فى موانيها[1]. وقـد أورد تافرنيـه فى كتـاب رحلاته قـصـة نشاط السـفيـر أندركت وخصوصياته فى أسلوب لايخلو من طرافة، ويمكن اعتبـار ماكتبه نموذجا يستحق الدراسـة للوضع فى البـلاط الصـفـوى وأسلوب الشـاه الدبلومـاسى تجـاه الدول الأجنبية. ورغم الجهود التى بذلها أندركت فى سفارته إلا أنه فشل فى إقناع الشاه عباس بتقـسيم الغنائم التى أخذت من البرتغاليـين أو إطلاق يد الإنجليز فى جزيرة هرمز، فعلى الرغم من الوعود الطيبة التى قدمـها الشاه واستقباله الطيب له إلا أن أندركت لم يحصل على شىء بسبب عداء الصدر الأعظم محمد بك على للفرنجة وعدم استـجابته لوفادته. وبعد أن أمضى أنـدركت بعض الوقت فى مدينة أشرف مرض ومات هناك بسبب قـسوة المناخ[2].

---

(1) Foster, W., England's Quest for Eastern Trade London 1933. P. 79. ff.

(2) صادق نشأت: مرجع سبق ذكره، ص٦٩.

ولعل مما يستلفت النظر أن الفرس لم يتحمسوا لكى يحلوا محل البرتغاليين في هرمز حيث أصدر الشاه عباس أوامره بتدمير المدينة عن آخرها، وبذلك يحدد عام ١٦٢٢ انتهاء دور هرمز في التاريخ وانتهاء مجدها التجارى الذى ظلت تتمتع به عدة قرون. وحتى في ظل السيطرة البرتغالية كانت هرمز تقوم بدور كبير في المجال التجارى إذ كانت تجارتها تساوى تجارة لندن وأمستردام مجتمعتين. كما حرص البرتغاليون بعد استقرارهم في هرمز أن يشيدوا بها المبانى العظيمة التى كانت كل أبوابها ونوافذها مطلية بالذهب، بل ولم يستبعد البعض أن يستغل البرتغاليون الذهب والفضة في إنشاء المبانى ونوافذها بدلا من الحديد والحجارة فيما لو أطالوا إقامتهم بتلك الجزيرة وذلك بسبب الأرباح الهائلة التى كانوا يحصلون عليها عن طريق التجارة من السواحل الفارسية والهند وأوروبا! . . وهكذا أصبحت هرمز بعد سقوطها مثلا حيا على الخراب بعد أن كانت مثلا أعلى على الازدهار بعد أن نفذ فيها حكم الشاه بأن لا يترك حجر فوق حجر حيث نقلت السفن أحجار ومنازل هرمز لتعمير جمبرون التى أطلق عليها منذ ذلك الوقت بندر عباس[١]، ولم يعد في هرمز سوى أطلال قلعتها البرتغالية القديمة.[٢] وقد ذكر السير توماس هربرت الذى زار هرمز في عام ١٦٢٧، وكان شاهد عيان على تدهورها أن المدينة جردت من كل جمالها وازدهارها بعد أن عمد الفرس إلى إقتلاع الأحجار ونقلها إلى جمبرون التى لاتبعد عنها بأكثر من ثلاثة فراسخ، وأصبحت هرمز مكانا متواضعا لا يستحق أن يمتلكه أحد بعد أن كانت الدولة الوحيدة المزدهرة في الشرق إن كان يتعين علينا أن نصدق ذلك! . .

وهكذا قدر لجمبرون (بندر عباس) أن تلعب دورا بارزا في تاريخ الخليج بعد أن خلفت عظمة هرمز، ولما كان الشاه عباس قد سمح لشركة الهند الشرقية الإنجليزية بتشييد مبنيين في المدينة الجديدة، فقد وجد الإنجليز في بندر عباس مايتيح لهم نقل تجارتهم إلى فارس بطريقة أسهل من جاسك ولذلك بادروا بنقل وكالتهم إليها، وظلت بندر عباس على امتداد قرن ونصف قرن مركز الثقل

(١) Wilosn, A., The Persian Gulf p. 124 see also Low, C. R., History of the Indian Navy London 1877 Vol. I p. 43.

(٢) Philips, Wendell, Oman in History London 1967 p. 91.

الرئيسى لشـركة الهند الشرقيـة الإنجليزية على سواحل الخليج ومنها أخـذ الإنجليز يسيطرون على تجارة الخليج، وامتد ذلك إلى مراقبتهم لأوضاعه السياسية مستفيدين من التقارب الذى حدث بينهم وبين الفرس[1].

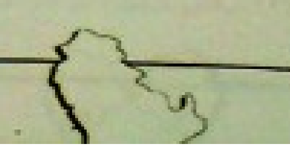
ومما تجدر الإشارة إليـه أنه على الرغم من أن كثيرا من المصادر تحـدد سقوط قلعـة البرتغـاليين فى هرمـز على أيدى الفرس والإنجليـز باعتـبارها نقطة النهـاية للسـيطرة البرتغـالية علـى الخليج العربى، إلا أن حـقيـقة الأمـر تبدو فى تحـول البرتغاليين بتحصيناتهم إلى السواحل الغربية للخليج، وأخذت القلاع البرتغالية فى مسقط تدعم تدعيما كـافيا باعتبارها القلاع الرئيسية التى أصبـحت للبرتغاليين بعد سقوط قاعدتهم الحصينة فى هرمز.

وقد يكون حـقيقـة أن الشاه عبـاس حاول تتبع البـرتغاليـين على السـواحل الغربيـة للخليج العربى فى مسـقط وصحار وخـورفكان، إلا أن الجهود الفارسـية باءت بالفشل بعد أن تمكن أندرادى قـائد القلاع البرتغالية فى مسـقط، وكان اسمه مرهوبا فى المنطقة، أن يعيد للبرتغاليين مافقدوه من قلاع فى تلك المناطق . وهكذا عوض البرتغاليون خسارتهم فى هرمـز حين اتخذوا من مسقط على الجانب الأخر من الخليج مسـرحا لعملياتهم حـيث شيدوا بهـا حاميات بالغـة المناعة، كى تكون مركـزا لنشاطهم فى الخليج سـواء من حيث التجـارة أو الدفاع. وبما أن حاميات مسقط لم تكن حاميات بحرية كهرمز فقد كانت معرضة للضرب من داخلية عمان

ولعل أبرز ما نلاحظه بصدد ذلك حين قام الإمام اليـعربى ناصر بن مرشد بعد أن بويع بالإمامة الإباضية فى عمان سنة ١٦٢٢ بجهود موفقة للقضاء على السيطرة البرتغالية، كما تمكن خلفاؤه من بعـده من القضاء على النفوذ البرتغالى فى الخليج العربى وشرق إفريقيا، وأن يظهروا إلى الوجود أكبر دولة بحرية شراعية ظهرت فى تاريخ العرب الحديث.

وهكذا تزامن سقوط هرمز مع قيام أسرة جديدة تولت أعباء الحكم فى عمان ونأت بنفسهـا عن أية تبعية فـارسية أو برتغاليـة وهى أسرة اليعاربة التى استمرت

(١) صادق نشأت: مرجع سبق ذكره، ص٧٤.



قائمة بالحكم منذ ذلك الوقت حتى سقوطها فى عام ١٧٤١ حيث خلفتها أسرة جديدة وهى أسرة البوسعيد التى لاتزال تحكم فى سلطنة عمان حتى وقتنا الحاضر[١].

وقدر للإمام ناصر بن مرشد مؤسس أسرة اليعاربة أن يخوض صراعا مريرا ضد الفرس والبرتغاليين. وقد بدأ صراعه ضد الفرس حين اغتنم فرصة سقوط حصن البرتغاليين فى هرمز فقام بالقضاء على ماكان لمملكة هرمز من سيادة على صحار، كما نجح فى تخليص جلفار (رأس الخيمة)[٢]، وكانت توجد بحصنها قوة فارسية نجح الإمام فى حصارها وإجبارها على التسليم ووقف موقفا منيعا أمام الفرس الذين حاولوا أن يرثوا البرتغاليين أو مملكة هرمز فى سيطرتهم على المواقع العمانية الأخرى[٣].

ولم يلبث الإمام ناصر بن مرشد بعد ذلك أن واصل كفاحه ضد البرتغاليين حتى أرغمهم على التخلى عن المواقع التى كانوا يسيطرون عليها فى الساحل العمانى بحيث لم يعد لدى البرتغاليين عند وفاته فى عام ١٦٤٩ غير التحصينات المشرفة على مدينتى مسقط ومطرح، وقد اصطبغ الصراع العمانى البرتغالى بالنزعة الدينية المتحمسة والجهاد الدينى من جانب العمانيين عبر عنها بعض الشعراء وأورد ابن قيصر مقتطفات من قصائدهم فى سيرته عن الإمام ناصر بن مرشد[٤].

---

(١) جمال زكريا قاسم: دولة بوسعيد فى عمان وشرق إفريقيا، انظر المقدمة القاهرة ١٩٦٧.

(٢) Badger, Percy, History of the Imams and Seyyids of Oman, Introduciton and Analysis London 1871. pp. XXIV.

(٣) عبدالله خلفان بن قيصر: سيرة الإمام ناصر بن مرشد ص٧، ١٧ نشر وزارة التراث القومى والثقافة - سلطنة عمان ١٩٧٧، ص٤١.

(٤) المصدر السابق ومن أمثلة ذلك ماجاء فى إحدى القصائد:

إمام الورى قم فى الطغاة مجاهدا ... فإنك منصور السرايا على العدى
فلا زلت للإسلام شمسا ... منيرة ولازلت للظلام حتفا مؤكدا

أو ماورد فى قصيدة أخرى:

لقد سار الامام على النصارى ... بعسكر فى جحافله نهارا
بجيش عم أقطار الفيافى ... به الأفاق قد كسيت غبارا
فهدم سورها ومحى بروجا ... مشيدة بها ومحى ديارا
وابقت النصارى مذ أتاها ... بطمس حيث لم يجدوا فرارا

ومما تجدر الإشارة إليه أن الصراع العمانى البرتغالى على عهد الإمام ناصر ابن مرشد بلغ أوجه فى عام ١٦٤٠ إذ بينما كان جنود الحامية البرتغالية يحتفلون باستقلال البرتغال عن إسبانيا حتى فاجأتهم قوة عمانية كبيرة، وعلى الرغم من أن قوات الإمام ردت على أعقابها متكبدة خسائر فادحة إلا أن ذلك الوضع كان فاتحة لسلسلة من الهجمات العمانية الخطيرة ضد المعاقل البرتغالية فى عمان، ففى عام ١٦٤٣ استولى الإمام ناصر على صحار التى كان قد سيطر عليها البرتغاليون فى أعقاب سقوط قلعتهم فى هرمز عام ١٦٢٢[١]، ووجد الإمام ألا يعاود الهجوم على مسقط إلا بعد أن يحقق السيطرة على المناطق الداخلية فى ضنك وعبرى والجوف، وفيما يبدو لنا أنه كان فى حاجة إلى تهدئة الموقف بينه وبين البرتغاليين حتى يتفرغ لاستكمال عملية التوحيد الداخلى، وعندما توفى فى عام ١٦٤٩ بويع بالإمامة من بعده ابن عمه سلطان بن سيف الذى استهل عهده بإرسال قوة عمانية ضخمة بقيادة سعيد بن خليفة لحصار مسقط واضطر البرتغاليون بسبب قسوة الحصار وانتشار الطاعون بين أفراد الحامية البرتغالية[٢]، إلى قبول الهدنة التى فرض فيها العمانيون شروطا قاسية، وكان أبرز ماجاء فيها أن يهدم البرتغاليون القلاع التى يملكونها فى كل من مطرح وقريات ودبا وصور وتسويتها بالأرض، وفى مقابل ذلك يهدم الإمام قلعة كان قد أمر ببنائها فى مدينة مطرح ومعنى ذلك أن تبقى مطرح ميناء حرا لايخضع لأى من الجانبين، كما تعهد العمانيون بتدمير كافة التحصينات التى أقاموها خلال فترة حصارهم للبرتغاليين، وألا يكون للبرتغاليين حق إقامة تحصينات أخرى على انقاض الحصون البرتغالية[٣]. على أن أهم ما يستلفت النظر مانصت عليه الهدنة من اعتراف البرتغاليين بحرية التجارة فى مسقط والمحيط الهندى وأن تمر السفن العمانية فى البحر دون تفتيش وإن كان يتعين عليها أن تتزود بقراطيس تعتبر بمثابة جوازات للمرور تسمح للعمانيين بالإبحار بحرية مع أى نوع

---

(١) Farroughy, Abbas, Bahrein Islands (950 -1951) A Contribution to the study of Power Politics in the Persian Gulf New York 1951, p.64.

(٢) Kelly, J., Britain and the Persian Gulf London 1968 p. 15 ff

(٣) The Imperial Gazetteer of India cf. The Indian Empire Oxford 1908 vol. II p. 455 ff.

من البضائع وإلى أى من الموانى، ولا تجبى ضرائب منهم، وأن تكون هناك صداقة بين ملك البرتغال وإمام عمان، أصدقاؤه أصدقاءه وأعداؤه أعداءه وألا يتعدى العمانيون على البرتغاليين ولا البرتغاليون على العمانيين وأن تكون التجارة حرة وبدون عوائق بين الطرفين(١).

وعلى أثر سقوط مسقط فى عام ١٦٤٩ استقر المقام بالبرتغاليين فى ميناء كنج الصغير الذى يقع على الساحل الشرقى فى الخليج إلى أن دمر العمانيون معقل البرتغاليين فيه خلال اشتداد صراعهم معهم فى نهاية القرن السابع عشر عام ١٦٩٥(٢). ومما لاشك فيه أن سقوط قلاع البرتغاليين الحصينة فى مسقط كانت بمثابة مذلة كبيرة لحقت بالبرتغاليين، ومن المعروف أن البرتغاليين كانوا يعتقدون بأن حصونهم لاتقهر كما كانوا يطلقون عليها، حتى أن ملك البرتغال اعتبر شروط الصلح التى وافق عليها قائد الحامية البرتغالية فى مسقط دى نورونها Dom Juliao de Noronha بمثابة إهانة شخصية له، ولذلك أمر بإلقاء القبض عليه واستدعائه إلى لشبونة وإجراء تحقيق شامل معه، ولكن قائد الحامية البرتغالية بادر بالفرار إلى كوشين. وبسقوط هرمز فى عام ١٦٢٢ ومسقط فى عام ١٦٤٩ ضاع من ألقاب ملك البرتغال لقبان هامان وهما «سيد الفتح والتجارة والملاحة فى الجزيرة العربية وفارس»، وذلك من بين الألقاب العديدة التى كان ملوك البرتغال قد أطلقوها على أنفسهم منذ حركة الكشوف البحرية البرتغالية الكبرى(٣).

وقد استمرت العمليات العمانية ضد البرتغاليين قائمة حتى السنوات الأولى من القرن الثامن عشر وشملت جميع المراكز البرتغالية المتبقية لهم فى الخليج، كما تعقب العمانيون البرتغاليين فى مراكزهم فى سواحل الهند، وفى خلال هذه الفترة أخذت إمامة عمان تتحول إلى أكبر قوة بحرية محلية فى بحار الشرق مما مكنها من

---

(١) Boxer, C., Some aspects of the struggle between the Omanis and the Portuguese 1650- 1730 p. 27.

من أعمال ندوة مراكز دراسات الخليج العربى أبو ظبى نوفمبر ١٩٧٩.

(٢) Miles, S., The Countries and Tribes of the Persian Gulf vol. II pp. 196-197.

(٣) Boxer, C.R., op. cit., p. 29.

طرد البرتغاليين من قواعدهم فى شرق إفريقيا حيث سقطت كل من كلوة وزنجبار وممبسة، وكادت تسقط موزمبيق ذاتها، وبدأ اليعاربة يرسون أساس حكم عمانى فى شرق إفريقيا، وهو الأساس الذى سيرتكز عليه فيما بعد السيد سعيد بن سلطان (١٨٠٦ ـ ١٨٥٦) لكى يبرز إلى الوجود أول دولة آسيوية إفريقية ظهرت تاريخنا العربى الحديث.

وقد حفظت لنا بعض المصادر التاريخية عدة رسائل تبودلت بين الإمام سيف ابن سلطان وبين البرتغاليين كانت تتضمن الكثير من التحدى السافر والتعصب الدينى البالغ، ورغم التهديدات العنيفة التى وجهها البرتغاليون إلى الإمام سيف إلا أنه كان على استعداد كبير للمواجهة معهم. وقد يكون من المفيد أن نشير فى هذا المجال إلى بعض المقتطفات التى نقلناها من تلك الرسائل التى يذكر البرتغاليون فى إحداها:

«إننا جنود الله مخلوقون من سخطه مسلطون على من يحل عليه غضبه قد نزع الله الرحمة من قلوبنا فالويل كل الويل لمن لايمتثل لأمرنا، قلوبنا كالجبال وعددنا كالرمال...».

وجاء فى رد الإمام سيف:

«ماجاء بكتابكم من أن الرحمة قد انتزعت من قلوبكم فهذا من أقبح عيوبكم وقولكم قلوبكم كالجبال وعددكم كالرمال فدعنى أقول لكم إن الجزار لايبالى بكثرة الغنم والماعز وإن الله مع الصابرين..».

ومما يذكر أن القبطان الفرنسى شارل جيان «Guillain» نقل هذه الرسائل وأوردها مترجمة إلى الفرنسية فى حين نجد أصولها العربية فى كتاب السالمى الذى يبدو أنه نقلها كما فعل جيان عن بعض المخطوطات العمانية القديمة[1].

---

(١) السالمى : تحفة الأعيان بسيرة آل عمان جـ٢ القاهرة ١٩٦١، ص ص ١٠٨ ـ ١٠٩ وكذلك:

Guillain, Charles, Expose critique des diverses notions acquises sur l' Afrique Orientale cf. Documents Sur L'Histoire, la Geographie et le Commerce de L'Afrique Orientale, Paris 1856 tome II p. 518 SQ.



وعلى الرغم من الدور الكبير الذى قام به اليعاربة للتخلص من السيطرة البرتغالية إلا أن نجاحهم كان يرتبط إلى حد كبير بتقديرهم أهمية الاستفادة من المنافسة الدولية فى بحار الشرق، ولعل ذلك كان دافعا لهم إلى إيجاد علاقات مع بعض القوى الأوروبية التى ظهرت فى الخليج العربى.

وطبقا لما تذكره بعض المصادر أن علاقة اليعاربة بالإنجليز بدأت منذ تأسيس دولتهم أى على عهد الإمام ناصر بن مرشد، وإن كانت تلك العلاقات لم تتصف بالاستمرارية على عهد أسرة اليعاربة على عكس ماحدث على عهد أسرة البوسعيد. وقد بدأت العلاقات بين اليعاربة والإنجليز فى عام ١٦٤٥ حين حاول الإمام ناصر بن مرشد أن يحكم الخناق على البرتغاليين اقتصاديا ولذلك طلب من شركة الهند الشرقية الإنجليزية من مركزها فى سورات إرسال مبعوث من قبلها للتفاوض من أجل إقامة علاقات تجارية،وعلى الفور وفد فيليب وايلد **Wylad** إلى صحار حيث نجح فى التوصل إلى اتفاقية كانت تنص على أن يتمتع الإنجليز بحرية التجارة فى مسقط وحرية حمل السلاح وممارسة شعائرهم الدينية، كما نصت الاتفاقية إلى جانب ذلك على تنظيم القواعد الخاصة فى حالة وقوع منازعات بين الرعايا الإنجليز وبين رعايا الإمام. وعلى الرغم من أن هذه الاتفاقية وقعت فى فبراير عام ١٦٤٦ إلا أن الإنجليز لم يجدوا أى حافز لوضعها موضع التنفيذ ولعل ذلك يرجع إلى الانكماش الواضح فى التجارة الإنجليزية فى منطقة الخليج العربى على أثر تصاعد المصالح الهولندية، ومع ذلك فإن أهمية هذه الاتفاقية ترجع إلى كونها الحلقة الأولى فى سلسلة معاهدات الصداقة والتجارة التى وقعت بين شركة الهند الشرقية الإنجليزية وعمان(١).

وقد ظهر التقارب الإنجليزى العمانى واضحا على عهد الإمام سلطان بن سيف (١٦٤٩ ـ ١٦٧٩) حين رست إحدى السفن التابعة لشركة الهند الشرقية الإنجليزية فى ميناء مسقط فى عام ١٦٥٨، وبادر الإمام إلى استضافة قائدها وكانت الدلائل تشير إلى إحتمال التوصل إلى اتفاقية أخرى بين شركة الهند

(١) Skeet, Ian, Muscat and Oman, The End of an Era London 1974 p. 65.

الشرقية الإنجليزية وإمام عمان لإقامة وكالة تجارية فى مسقط، ولما كان ممثلو الشركة فى سورات أكثر حماسا لإقامة هذه الوكالة فقد بادروا بإيفاد الكولونيل رينسفورد «Rainsford» فى عام ١٦٥٩ إلى مسقط للحصول على موافقة الإمام على إقامتها. وأثمرت المفاوضات عن توقيع اتفاقية بين الإمام وبين ممثل الشركة، كانت تنص على أن يمنح الإمام الإنجليز إحدى القلاع فى مسقط وأن يكون لهم حق إقامة حامية بها بشرط ألا يزيد عدد أفرادها عن مائة جندى، وأن يتقاسم الإنجليز مع الإمام الإيرادات الجمركية[١]. على أن هذه الاتفاقية لم توضع موضع التنفيذ ولعل ذلك كان بتحريض الهولنديين الذين أخذوا يبرزون كمنافسين أقوياء للإنجليز فى احتكار تجارة المنطقة، أو أن يكون الإمام قد تقاعس عن تنفيذها بسبب الاتجاه الدينى للإمامة وهو عدم السماح لأية قوة أجنبية بالاستقرار فى أراضيها وهو تقليد سيتبعه الأئمة المتعاقبون على عمان. على أن التحالف الإنجليزى الهولندى لم يلبث أن ترك أثرا واضحا فى عمان من حيث ترجيح كفة الإنجليز فى تعاملهم التجارى مع عمان، ولعل ما يؤكد لنا ذلك الزيارات المتكررة التى كانت تقوم بها سفن شركة الهند الشرقية الإنجليزية إلى الموانى العمانية حتى وصل الأمر إلى التفكير فى إعادة مشروع إنشاء الوكالة التجارية فى مسقط[٢].

وتكاد تجمع كثير من المصادر التى تناولناها على أنه فى ظل العلاقات الودية التى وجدت بين اليعاربة من ناحية، وبين الإنجليز والهولنديين من ناحية أخرى اشتد الصراع العمانى البرتغالى فى الخليج العربى، بل وانتقل مسرح الصراع إلى المحيط الهندى فى سواحل الهند وسواحل شرق إفريقيا، ففى عام ١٦٩٤ نشط الإمام سيف بن سلطان فى محاربة البرتغاليين فى الهند حيث هاجم قاعدتهم فى باسين، كما هاجمت مجموعات بحرية عمانية أخرى ساحل كجرات وميناء بومباى، وكانت أكبر العمليات العسكرية معركة جزيرة سالست حيث نزلت القوات العمانية واشتبكت فى صراع عنيف مع الحامية البرتغالية الموجودة بها[٣].

---

(١) Ibid., p. 38.

(٢) Skeet, I., op. cit., p. 38.

(٣) فالح حنظل : مرجع سبق ذكره جـ١ ص٩٨.

أما فى سواحل شرق إفريقيا فقد كان أكبر انتصار أحرزه العمانيون هو نجاحهم فى إسقاط قلعة المسيح فى ممبسة ١٦٩٨. وتبع ذلك سيطرتهم على بمبا وكلوة وزنجبار حتى تم لهم طرد البرتغاليين من جميع قواعدهم الواقعة شمالى موزمبيق، وأصبحت هذه المناطق من التوابع العمانية[١]. ولاشك أن هذا التقدم الكبير فى القوة العمانية دفع البرتغاليين إلى تعليل سبب نجاح اليعاربة فى صراعهم معهم إلى تلقيهم إمدادات وأسلحة من الإنجليز فى الهند، بل ومضى البرتغاليون إلى أبعد من ذلك فى ادعائهم أن السفن العمانية كانت ترفع العلم الإنجليزى ويقودها ضباط إنجليز.

ولعل السؤال الذى نطرحه فى هذا المقام هو هل شارك الإنجليز فعلا فى الصراع العمانى البرتغالى؟..

وعلى الرغم من أن بوكسر Boxer ـ وهو أحد الباحثين الثقاة فى الصراع البرتغالى العمانى فى المحيط الهندى ـ يجيب على هذا السؤال بتأكيده أنه كان هناك تعاطف إنجليزى مع العمانيين ضد البرتغاليين يرجع أسبابه إلى الصراعات المذهبية بين الإنجليز الإنجليكان وبين البرتغاليين الكاثوليك، بالإضافة إلى سياسة الاحتكار التى كان يفرضها البرتغاليون إلا أنه لايعتقد أن الإنجليز قدموا مساعدات كبيرة للعمانيين وإن كان يقرر فى نفس الوقت أن بعض البحارة الإنجليز عملوا فى الأسطول العمانى ولكنهم لم يكونوا بالكثرة التى تستلفت النظر، كما أنهم كانوا يقومون بهذه المهمة كأجراء لدى العمانيين وليسوا بصفة رسمية، بل نكاد نصل إلى عكس هذه الفكرة تماما حينما نعلم أن الإنجليز كانوا قلقين من تصاعد القوة العمانية، ويفهم ذلك من المعاهدة التى وقعت بين إنجلترا والبرتغال فى عام ١٦٦١، وهى المعاهدة التى توجت بزواج الملك شارل الثانى من كاترين أوف برجنزا حيث نصت إحدى موادها على أن يقدم الإنجليز مسقط إلى البرتغال إذا ما قدر لهم فى أى وقت من الأوقات السيطرة عليها[٢]. ويمكن أن نضيف إلى

(١) يذكر جيان أن العمانيين حاولوا إسقاط حصن موزمبيق بعد نجاحهم فى إسقاط حصن ممبسة ولكنهم سرعان ماتراجعوا عنه بعد أن عمد البرتغاليون إلى إرهابهم عن طريق تفجير لغم كبير وضعوه هناك انظر:
Guillain. op. cit., tome II p. 320 ff.

(٢) Boxer, C.R., op. cit., p. 29.

ماذكره بوكسر أن العلاقات أخذت تسوء بين اليعاربة والإنجليز إذ كان اليعاربة يهاجمون السفن الإنجليزية ويجبرون بحارتها على مشاركتهم فى بعض عملياتهم العسكرية ضد البرتغاليين، أى أنه لم يكن هناك تحالف بين الفريقين بل على العكس من ذلك نجد فى تقارير الوكالة التابعة لشركة الهند الشرقية الإنجليزية فى بندر عباس أن الأسطول العمانى كان يعوق تجارة الشركة فى الخليج، كما كتب حاكم مدراس إلى رئاسة الشركة أن العمانيين يعوقون التجارة فى ساحل كرومندل[1]. ولاشك أن التفوق البحرى العمانى قد أفزع الإنجليز، وقد عبر المستر برانجون Brangwin وكيل شركة الهند الشرقية الإنجليزية فى بندر عباس عن تلك المخاوف فى ديسمبر ١٦٩٤ بقوله: «إن العمانيين سيصبحون كارثة على الهند مثلما كان الجزائريون كارثة على أوروبا»[2]. وعلى الرغم من أن التفوق البحرى لليعاربة كان كافيا لكى يحرك الإنجليز للتصدى لذلك النفوذ الذى بلغته عمان إلا أن الإنجليز لم يقدموا على ذلك ولعل انشغال الإنجليز فى تثبيت نفوذهم فى الهند وتورطهم فى حرب الوراثة الإسبانية هو الذى منعهم من الإقدام على ذلك، كما أن القوة البحرية الكبيرة التى بلغتها عمان فى نهاية القرن السابع عشر جعلت مجرد تفكير الإنجليز فى التصدى لها بمثابة مجازفة لم تكن شركة الهند الشرقية الإنجليزية مستعدة لتحملها[3].

والأمر الذى لاشك فيه أن صراع اليعاربة ضد البرتغاليين مكنهم من الحصول على مكاسب هائلة، وتمكن أئمة اليعاربة من الحصول على ثروات ضخمة وكانوا يعدون أكبر ملاك السفن فى الجزء الغربى من المحيط الهندى. وقد تحدثت كثير من المصادر عن قوة الأسطول العمانى وسيطرته على تجارة المحيط الهندى وركزت بصفة خاصة على سفينة الإمام سيف بن سلطان المسماة بالفلك والتى كانت مسلحة بأكثر من ثمانين مدفعا[4].

---

(١) فالح حنظل : مرجع سبق ذكره، ص ١٠٣، ١١١

(٢) ج.ج. لوريمر: دليل الخليج جـ١ ص١٢٦

(٣) Lockhart, L., The Fall of Savafi Dynasty P. 68.

(٤) Coupland, R., East Africa and Its Invaders London 1939 p. 69

وفى تقديرنا أن الذى أعـان اليعـاربة على ذلك التفوق البـحرى أن سيـاسة الدول الأوروبية فى الفتـرة التى تلت انهيار السيطرة البرتغاليـة لم تكن قائمة على سياسة الاحتكار التجارى كما كانت عليـها سياسة البرتغاليين، وإنما انصرفت تلك الدول إلى تأسيس الشركات التجارية وإقامة المستعمرات واستغلال الأهالى وتكوين الإمبراطوريات، أمـا فى التجارة فقـد أفسحت المجال للعناصر المحلـية التى كانت تعمل فيها من قديم لتعمل فيها من جديد؛ إلى أن تنبهت تلك القوى إلى مايمكن لهذه العناصر المحلية أن تشكله من خطورة عليها فحرصت بعد ذلك على تصفيتها بهدف تأمـين مواصلاتهـا الاستعـمارية إلى الهند، وترتب على ذلك دخـولها فى علاقـات مع تلك القوى المحليـة ولم تكن هذه العـلاقات فى صالح تلـك القوى بطبيعة الحال[١].

وكـان مما مكن أئمة اليـعاربـة من تكوين أسطولهم أنهم اسـتطاعوا بفـضل صداقـتهم لبعض أمـراء الهند أن يضمنوا جلب الأخـشاب اللازمة لـبناء السفن. وهناك عدة اتفـاقيات عـقدها اليعـاربة مع حاكم مقـاطعة بجو فـى الهند منذ عام ١٧٠٧، ولعل ذلك مما سيدفع جون مالكولم Malcolm، فى أوائل القرن التاسع عشر إلى الاعتقاد بأن أحسن الوسائل للقـضاء على القوة البحرية العمانية هو قطع الصلة بين عمان وأمراء الهند[٢].

ويمكننا أن نتعرف على المدى الذى وصلت إليه القوة البـحرية العمانية على عهد اليعاربة من قراءتنـا لما كتبه هاميلتون Hamilton الذى تحدث عن قـوة عرب عـمان، وذكـر أن أسطولهم كـان يشتـمل على مئـات من السـفن الكبيـرة ذات الحمولات المختلفة من المدافع الثقيلة[٣]،وأكد الرحالة فريزر أن الاحتراز يتطلب عدم استفزازهم إذ إننـا لن نجنى من وراء ذلك سوى ضربات تكال علينا[٤]. كما كتب

(١) عبدالفتاح إبراهيم: على طريق الهند، بغداد ١٩٣٥، ص ص ٣٠ ـ ٣١.

(٢) Morrier, James, A Journey through Persia, Armenia London 1912 p. 375 see also Bombay Govt., Selections from the Records of Bombay Govt.vol. XXIV Bombay 1856. p. 169.

(٣) Guillain, op. cit., tome II p. 528.

(٤) Wilson, A., The Persian Gulf pp. 192-193.

الرحالة بروس Bruce فى عام ١٦٩٥ مؤكدا أن عرب عمان سوف يحرزون القيادة والنفوذ فى الخليج العربى، وكذلك تحدث كولومب Colomb عن التفوق الملاحى الذى بلغه اليعاربة فى عمان. على أن هناك مصادر كثيرة وصفت الحروب البحرية التى كان يقوم بها اليعاربة ضد البرتغاليين وغيرهم من القوى الأوروبية الأخرى التى حلت محلهم فى السيطرة والنفوذ فى بحار الشرق بأنها كانت نوعا من القرصنة، ولعل هذه المصادر قد تجاهلت ما ارتكبه البرتغاليون فى بحار الشرق من أعمال شاذة غير إنسانية. وربما يرجع تعليل ذلك الأمر إلى عدم اعتراف القوى الأوروبية بالتنظيمات السياسية العربية فى الخليج العربى ورفض إطلاق لفظ الدولة عليها، ومن ثم لم تفرق هذه المصادر بين العمليات البحرية التى كان يقوم بها اليعاربة تحقيقا لسيادتهم وبين ماكان يمارس من قرصنة فردية. ومع عدم التسليم بما جاء فى تلك المصادر فإنه مما يدعو للدهشة أن تكون القرصنة عملا قوميا إذا ما ارتبطت بالأوروبيين أما إذا ارتبطت بالعرب أو المسلمين فإنها تعد عملا من أعمال السلب والنهب!!.

ويكفى أن نشير بصدد ذلك إلى ما كانت تفعله إنجلترا حين عهدت إلى مغامرين بحريين من أمثال كافندش Cavendish، وفرنسيس دريك Drake، وغيرهما كثيرون لممارسة عمليات القرصنة ضد إسبانيا، وكان أولئك القراصنة يكرمون من قبل الملكة إليزابيث الأولى ويمنحون الألقاب التعظيمية باعتبارهم يقومون بأعمال قومية مجيدة. وكما حفلت مياه الأطلنطى بعمليات القرصنة شهدت بحار الهند الكثير من تلك العمليات أيضا. ولم تكن القرصنة الأوروبية هى التى تخشاها الدول الأوروبية وإنما كانت العمليات البحرية العمانية هى التى تخيفها فى حقيقة الأمر، ولعل ذلك،مما دفع الدول الأوروبية إلى التكتل رغم ما كان يقوم بينها من منافسات لإضعاف القوة البحرية العمانية، وبالفعل وقعت تلك الدول عدة إتفاقيات فيما بينها لعل أهمها إتفاقية ١٧٠٠ بين كل من إنجلترا وفرنسا وهولندا قسمت بموجبها المناطق البحرية التى ينبغى على كل منها أن تحافظ فيها على سلامة الملاحة فاختص الفرنسيون بالخليج بينما اختص الإنجليز ببحار الهند الجنوبية والهولنديون بسواحل البحر الأحمر الجنوبية، وكانت هذه

الاتفاقية قد وضعت أساسا لمقاومة القرصنة الأوروبية والعربية فى تلك المياه[1].

ولعل مما تجدر الإشارة إليه أن دولة اليعاربة فى عمان لم تكن الدولة الوحيدة التى استفادت من انهيار السيطرة البرتغالية لتحقق لنفسها التفوق البحرى فى الخليج العربى وإنما حاولت فارس أن تحقق لنفسها ذلك التفوق أيضا. ولم تبد سلطات شركة الهند الشرقية الإنجليزية فى سورات، والتى كانت مسئولة بحكم ارتباطها بتجارة الخليج عن السياسة البريطانية فى المنطقة منذ بداية القرن السابع عشر أية معارضة للتغلغل الفارسى فى الخليج العربى جنوبا وغربا مما مكن فارس من تأكيد سيطرتها على تلك السواحل خلفا للسيطرة البرتغالية. وكان مما ساعد فارس على ذلك أيضا عدة عوامل من بينها أنه لم تقم فى منطقة الخليج العربى خلال فترة السيطرة الاستعمارية البرتغالية أية تنظيمات عربية قوية، والأهم من ذلك أن السياسة الإنجليزية كانت تؤيد فارس فى تغلغلها فى الخليج لأن شركة الهند الشرقية الإنجليزية كانت تمارس نشاطا اقتصاديا وتجاريا فى فارس وخاصة فى مقاطعاتها الجنوبية، وبالتالى كان الإنجليز حريصين على تأكيد السيادة الفارسية على السواحل الشرقية للخليج لما سوف يترتب على ذلك من تحقيق مزيد من المكاسب الاقتصادية والامتيازات التجارية بالنسبة لهم، هذا بالإضافة إلى أن التقارب الانجليزى الفارسى على عهد الشاه عباس الكبير قد ساعد الإنجليز إلى حد كبير على منافسة الهولنديين الذين حاولوا أن يدلوا بدلوهم فى المنافسات التجارية والاستعمارية التى احتدمت فى منطقة الخليج العربى والتى ظهرت واضحة منذ بداية النصف الثانى من القرن السابع عشر[2]. على أنه مما يسترعى الانتباه أنه بينما كانت فارس تتطلع إلى وراثة النفوذ الاستعمارى البرتغالى فى الخليج إلا أنها وجدت نفسها فى وضع المواجهة مع دولة اليعاربة فى عمان، وعلى العكس من ذلك أخذ اليعاربة يغتنمون فرصة الاضطرابات الداخلية التى كانت تتعرض لها

---

(١) ج.ج. لوريمر: دليل الخليج جـ١ ص٨٦.

(٢) Foster, W., op. cit., p. 79 see also Saldanha, East India Companies Connexion with the Persian Gulf 1600-1800, Selections from Bomby State Papers, cf. Report on the Commerce of Arabia and Persia 1790.

فارس لكى يؤكدوا لأنفسهم السيطرة والتفوق على مياه الخليج[1]. ولذلك لم تسلم فارس من تعرض العمانيين لمصالحها. وبلغ مقدار الضرر الذى تعرضت له التجارة الفارسية بل والسيادة الفارسية على سواحلها المطلة على الخليج العربى خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر أن حاولت الاستعانة بإحدى القوى الأوروبية لتقضى على منافسة عمان لها. وفيما تقرره الكثير من المصادر أن الحكومة الفارسية تقدمت فى السنوات الأخيرة من القرن السابع عشر إلى شركة الهند الشرقية الإنجليزية لكى تعاونها فى الهجوم على مسقط فى مقابل منح الإنجليز فى مسقط نفس الامتيازات التى كانوا يتمتعون بها من قبل الفرس فى ميناء بندر عباس[2]. ولكن شركة الهند لم تتحمس فى ذلك الوقت للعروض الفارسية إذ لم يكن لديها الرغبة فى التدخل عسكريا فى شئون الخليج لما كان يستلزم منها الأمر مواصلة إرسال السفن والجنود التى كانت أحوج ماتكون إليهم فى تنظيم وتوطيد نفوذها فى ممتلكاتها فى شبه القارة الهندية، وإن كانت قد حرصت فى نفس الوقت على أن تقف حائلا دون استفادة الهولنديين من ذلك الموقف لما يؤدى إليه ذلك من تفوقهم على الإنجليز فى فارس والخليج العربى[3]. ومن ناحية أخرى فقد استلفتت تجارة مسقط فى المحيط الهندى وفى سواحل شرق إفريقيا اهتمام شركة الهند الشرقية البريطانية حتى أن ممثلى الشركة فى البصرة وبغداد كتبوا إلى رؤسائهم يؤكدون أن مسقط تعد من أبرز القوى المحلية فى الخليج وأن سفنها أصبحت تسيطر على تجارته. وحث كل من هارفورد جونز وصمويل مانيستى حكومة الشركة على أهمية تأسيس وكالة لها فى مسقط[4]. وإن كانت الشركة لم تقم بأى إجراء مكتفية حتى أوائل القرن التاسع عشر بمن كانت تعينهم من العناصر الوطنية لإدارة شئونها فى مسقط[5].

---

(١) Miles, Samuel, The Countries and Tribes of the Persian Gulf vol. II London 1919 p. 150.

(٢) Curzon, G., Persia and the Persian Question vol. II London 1902. P. 438.

(٣) Bombay Government, Selections from the Records, vol. XXIV p. 168.

(٤) I.O. P. & S 120/C. 227 Report of Commerce of Arabia and Persia by Samuel Manisty and Harford Jones 1790.

(٥) Landen, R., Oman Since 1856 p.145.



والجدير بالذكر أن فارس لم تدع سبيلا إلا وسلكته من أجل إضعاف القوة البحرية العمانية بل كانت رغبتها فى ذلك من أهم الأسباب التى دفعتها إلى احتلال بعض المقاطعات العمانية، وحدث ذلك على عهد نادر شاه كما سنشير إلى ذلك فيما بعد. وقد يكون من المفيد قبل أن نصل إلى ظروف هذا الاحتلال التى استطاعت به فارس أن تحرز على سيطرة مؤقتة على عمان أن نسجل استمرار المحاولات الفارسية للحصول على دعم أوروبى لها إذ إنه على أثر فشل فارس فى الحصول على مساعدات بحرية من شركة الهند الشرقية الإنجليزية قررت الالتجاء إلى فرنسا وكان ذلك على عهد لويس الرابع عشر حيث تم توقيع معاهدة بين فارس وفرنسا فى عام ١٧٠٨ كانت تحتوى على بعض النصوص السرية التى تقتضى بأن يقوم الفرنسيون بإرسال أسطول لمساعدة فارس فى احتلال مسقط[١]. وعلى الرغم من توقيع تلك المعاهدة إلا أن فرنسا ترددت كثيرا فى تقديم تلك المساعدة. وتركز الكثير من المصادر على الجهود الكبيرة التى بذلها الشاه لكى يحث فرنسا على تنفيذ المعاهدة من ذلك مايذكره ماسون Masson فى كتابه عن التجارة الفرنسية فى الليفانت أنه فى عام ١٧١٤ أرسل شاه الفرس مبعوثا إلى لويس الرابع عشر لكى يطلعه على الصعوبات التى تتعرض لها فارس، ولكى يعقد محالفة مع فرنسا بقصد القضاء على قوة عمان البحرية[٢]. ويضيف فلاسون Flasson بأن المفاوضات الفرنسية الفارسية انتهت بموافقة الحكومة الفارسية على تعهد فارس بأن تمنح مسقط بكافة تحصيناتها إلى الحكومة الفرنسية، كما التزمت فارس بأن تبذل أقصى مافى وسعها لطرد الدول الأخرى المنافسة لفرنسا فى سيطرتها على طريق الهند[٣]. وفى أغسطس ١٧١٥ تم التوصل إلى إتفاقية بين البلدين كانت أهم ماتنص عليه إعفاء الفرنسيين من دفع رسوم الاستيراد والتصدير وعدم تحديد حجم تجارتهم ومنحهم نفس الامتيازات التى تمنح حاليا أو مستقبلا للدول الأوروبية

---

(١) Farroughy, Abbas, op. cit., pp. 65-66.

(٢) Masson, Histoire de Commerce Francais dans le Levant Paris1911 p. 525.

(٣) Flasson, Histoire de la Diplomatique Francais, Livre II see also D' Avrile, le Golfe Persique, Route de L' Inde et de la Chine, Extrait de la Revue des Questions Diplomatiques et Coloniales Paris 1905.

الأخرى. بيد أن هذه الاتفاقية لم توضع موضع التنفيذ إذ رفضت حكومة الشاه المصادقة عليها بسبب عدم الإشارة إلى قيام تحالف بين فرنسا وفارس، وعلقت فارس المصادقة على تلك الاتفاقية إلى حين وصول السفن الفرنسية إلى الموانى الفارسية، وحينما وصلت بعض السفن الفرنسية إلى ميناء بندر عباس فى عام ١٧٢١ تم التصديق على المعاهدة التى طال انتظارها.بيد أن الانتصار الذى حققته الدبلوماسية الفرنسية كان انتصارا قصير الأجل إذ سرعان ماتطور الموقف بشكل حال دون تمكن فرنسا من انتزاع أية فائدة من تلك المعاهدة[١]. ولعل فرنسا اتجهت بعد ذلك اتجاها معاكسا حين عملت على تطوير علاقتها بمسقط وزيادة حجم تجارتها مع عمان عن طريق مستعمرتها فى جزيرة موريس، وكان السبب فى ذلك يرجع فى الدرجة الأولى إلى الفوضى التى اجتاحت فارس وأدت إلى غزو الأفغان لها فى عام ١٧٢٢[٢]، ولما كان الغزو الأفغانى لفارس، قد أسفر عن انهيار واضح لمركزها فى مياه الخليج فقد حاول نادر شاه بعد تحرير بلاده من الاحتلال الأفغانى وعقب وصوله إلى السلطة وإلغائه الأسرة الصفوية الحاكمة تقوية مركز فارس فى الخليج العربى، ومن ثم عمد إلى تأسيس أسطول فارسى لم يكن لفارس عهد به من قبل[٣].

وقد بدأ نادر شاه يوجه اهتمامه إلى انشاء ذلك الأسطول منذ عام ١٧٣٤ حين أرسل لطيف خان إلى ميناء بندر عباس وحمله بضعة رسائل إلى ممثلى شركتى الهند الشرقية الإنجليزية والهولندية يخبرهم فيها بأمر تعيينه للطيف خان قائدا للأسطول الفارسى، وطلب فى تلك الرسائل من ممثلى الشركتين مساعدته فى شراء بعض السفن، وفى نفس العام أصدر نادر شاه تعليماته إلى لطيف خان بتوسيع ميناء بوشهر بهدف استخدامه قاعدة للأسطول الفارسى المتوقع إنشاؤه[٤].

(١) Lockhart, L., op. cit., p. 472.

(٢) Masson, op. cit., p. 544.

(٣) Lockhart, L., The Navy of Nadir Shah cf. Proceedings of the Iranian Society vol. I. part I London 1936.

(٤) India Office, Factory Records, Persia and the Persian Gulf, Gombroon Diary Feb. 3, 1734- 5 July 1734.

والجدير بالذكر أن لطيف خان قد ألح على ممثلى الشركتين الإنجليزية والهولندية بأن استجابتهم لرغبة الشاه هى الضمان الوحيد للابقاء على امتيازاتهم مما اضطر الشركتان الإنجليزية والهولندية إلى تقديم بعض السفن اللازمة لتأسيس الأسطول الفارسى[1].

وقد حفلت الوثائق الهولندية بأنباء المساعدات التى قدمت لنادر شاه من قبل شركة الهند الشرقية الهولندية، وعن توقيع تعاقد بين تقى خان حاكم إقليم فارستان وممثل شركة الهند الشرقية الهولندية فى بندر عباس كان ينص على أن تضع الشركة أسطولها تحت تصرف فارس على أن تكون الحكومة الفارسية مسئولة عن أى دمار تتعرض له سفن الأسطول، وأن يعمل الأسطول الهولندى فى تعقب السفن العربية فى مقابل أن يجد الهولنديون تأييدا من قبل فارس فى العمليات العسكرية التى يقومون بها ضد القوى المناوئة لهم فى الخليج العربى[2].

وهكذا يرجع إلى الفترة التى حكم فيها نادر شاه نجاح فارس فى تكوين أسطول بحرى خاص بها، ومع فقد كان واضحا أن ذلك الأسطول مقضى عليه بالفشل إذ أثبت الفرس أنه لم يمكن لهم خبرات فى فنون الملاحة حتى أن نادر شاه اضطر إلى الاستعانة بالملاحين العرب لقيادة بعض قطع أسطوله. كما أدى تقاعس إنجلترا وهولندا عن استمرار تزويده بحاجته من السفن إلى محاولته تصنيع السفن فى ميناء بوشهر وذلك بنقل الأخشاب إلى ذلك الميناء من غابات مازندران، ولا يخفى ماتكبده فى سبيل ذلك من نفقات باهظة إضافة إلى الجهد البشرى حيث كانت تنقل قطع الأخشاب على ظهور الرجال، ومع ذلك فإن تلك الجهود كما لاحظ نيبور Neibuhr لم تؤد إلى نتيجة إيجابية من حيث استمرارية القوة البحرية الفارسية التى ارتبطت بحياة نادر شاه[3]. كما كان الانتعاش البحرى الفارسى مرتبطا أيضا بتردى أسرة اليعاربة فى مشكلاتها الداخلية وصراعاتها الأسرية مما أدى

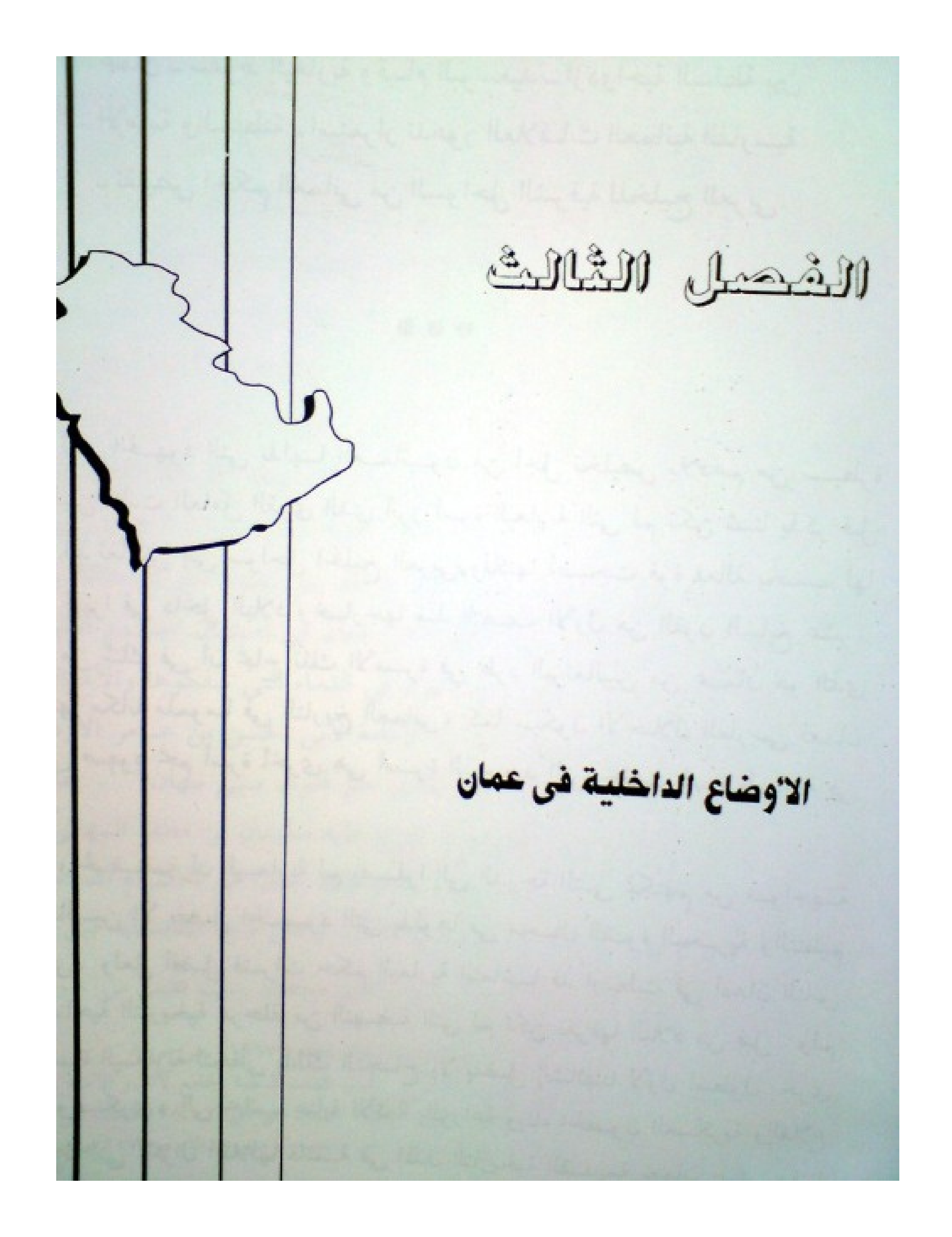
(١) I.O. Factory Records, Gombroon Diary November II, 1734 cf. Persia and the Persian Gulf- letters from Bussora, Gombroon etc., Gombroon Diary June 18, 1734.

(٢) Contract between Memet Tackie Chan and the Dutch Company 27. XI, 1740 VOC 2546 - Papers Received from the Colonies of Holland in Gombroon 1742, vol. 34.

(٣) Sykes. P., History of Persia London 1951 vol. II p. 366.

إلى انهيار تفـوقها البحـرى، وهو الأمر الذى سيدفع بنادر شـاه إلى إحتلال بعض مقاطعاتها.[1] وهذه المحاولة لها أهمـيتها الخاصة وذلك لأن عمـان كانت أهم قوة محلية فى الخليج العربى، ومن ثم كان القضاء على قوتها واحتلال مقاطعاتها يعد نجاحا كبيرا لنادر شاه إذ إن ذلك كان يخلصه من أكبر منافس له فى زعامة الخليج. بيـد أن ذلك الدور الذى قام به كـان مرتبطـا بحيـاته إذ انهارت القـوى البحـرية الفارسية فى أعقاب اغتياله فى عام ١٧٤٧، وعادت القوى العربية البحرية تستأنف نشاطها من جديد.

(١) Factory Records, Letters from Bussora, Gombroon etc., June 18,1735.



الفصل الثالث

الأوضاع الداخلية فى عمان

الصراعات الداخلية بين النباهنة والإباضيين وبنى جبر - ظهور أسرة اليعاربة ومحاولة بناء الجبهة الداخلية - التنافس حول الإمامة ونشأة الكتلتين الهناوية والغافرية - التدخل الفارسى فى عمان - سقوط اليعاربة وقيام البوسعيد - ازدواجية السلطة بين الإمامة والسلطنة - استمرار تدهور العلاقات العمانية الفارسية - تقليص الحكم العمانى من السواحل الشرقية للخليج العربى.

* * *

لعل الجهود التى بذلها العمانيون من أجل تخليص بلادهم من سيطرة البرتغاليين كانت العامل القوى الذى أبرز أسرة اليعاربة التى لم تكن شيئا يذكر قبل مجىء البرتغاليين إلى سواحل الخليج العربى، ولكنها أصبحت قوة فعالة يحسب لها حسابا كبيرا فى داخل البلاد وخارجها منذ النصف الأول من القرن السابع عشر. وليس من شك فى أن نجاح تلك الأسرة فى طرد البرتغاليين من عمان هو الذى جعل لها مكانا ملموسا فى التاريخ العمانى، كما سيكون الاحتلال الفارسى لعمان سببا فى صعود نجم أسرة أخرى هى أسرة البوسعيد التى خلفت أسرة اليعاربة فى الحكم.

والحقيقة أن اليعاربة لم يصلوا إلى الدرجة التى تمكنهم من مواجهة البرتغاليين إلا بفضل الجهود التى بذلوها فى مجال القوة البحرية والتنظيم الداخلى. ولعل أفضل فترات حكم اليعاربة انتعاشا قد ارتبطت فى أذهان الناس ومن الناحية التاريخية بمرحلة من النهضة التى لم تكن تعرفها البلاد من قبل. ولم تكن أسرة اليعاربة لتحظى بذلك النجاح إلا بفضل إنشائها لأول أسطول بحرى تجارى وعسكرى، إلى جانب عناية الأئمة بالزراعة وبناء الحصون العسكرية والقلاع الشهيرة التى لاتزال أطلالها قائمة فى المدن التاريخية القديمة بعمان حتى وقتنا

الحاضر، هذا فضلا عن نجاحهم فى توحيد البلاد وإشاعة الحكم المركزى القوى بعد أن عانت الأقاليم العمانية من الانقسامات العديدة فى ظل زعمائها القبليين[1].

والإمامة الإباضية التى قامت عليها أسرة اليعاربة نظام دينى يقوم على البيعة بالانتخاب وليس بالوراثة، وإن كان من الملاحظ أن الإمامة ظلت قائمة فى تلك الأسرة حتى سقوطها فى عام ١٧٤١. ويرجع المؤرخون نظام الإمامة الإباضية إلى عهد الدولة الأموية حين خرج عبدالله بن إباض على عبدالملك بن مروان، وعندما قمعت ثورته لجأ إلى عمان حيث أقام بها ذلك النظام الدينى واستمرت الإمامة قائمة فى عمان منذ النصف الأول من القرن الثانى الهجرى وإن كانت تتخللها فترات من الشغور أو الانقطاع كما حدث على عهد القرامطة أو حينما تولى ملوك بنو نبهان السلطة فى عمان فى السنوات الأولى من القرن الثانى عشر الميلادى أو على وجه التحديد فى عام ١١١٢[2]. وفى خلال عهد النباهنة الذى استمر مايقرب من خمسة قرون كانت الإمامة الإباضية تنبعث بين آونة وأخرى، وقد ذكرت المصادر العمانية المحلية بصدد ذلك «وكان بنو نبهان ملوكا عظاما بعمان ولكن حينما اشتد فسادهم وصار منهم أهل عمان فى امتهان اجتمع أكابر أهل عمان لإزالة الجور والطغيان ونظر المسلمون فى الدماء التى سفكوها والأموال التى أخذوها واغتصبوها بغير حق فعقدوا الإمامة لأبى الحسن بن عامر الأزدى ثم للإمام عمر بن خطاب الخروصى وهو الذى حاز أموال بنى نبهان»[3]. على أن الخروصى لم يستقر طويلا فى الإمامة إذ خرج عليه سليمان بن مظفر النبهانى وهو الذى قضى عليه محمد بن إسماعيل، وكان ذلك سببا فى احترام المسلمين له ومبايعته بالإمامة التى استمر بها ثلاثين عاما[4]، وعلى وجه التحديد بين عامى

---

(١) عبدالله خلفان بن قيصر: سيرة الإمام ناصر بن مرشد، تحقيق عبدالمجيد حسيب القيسى ص١٠ ومابعدها نشر وزارة التراث القومى والثقافة ـ سلطنة عمان ١٩٧٧.

(٢) جمال زكريا قاسم: دولة البوسعيد فى عمان وشرق إفريقيا، القاهرة ١٩٦٧، ص ص ٨ ـ ١٠.

(٣) سرحان بن سعيد الأزكوى: تاريخ عمان المقتبس من كتاب كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة ـ تحقيق عبدالمجيد القيسى ـ نشر وزارة الثقافة والتراث القومى، سلطنة عمان ص ص٧٥ ـ ٧٨ وكذلك ابن رزيق: الفتح المبين فى سيرة السادة البوسعيديين، تحقيق عبدالمنعم عامر ومحمد مرسى عبدالله ص ٢٥٧ ـ نشر وزارة التراث القومى بسلطنة عمان ١٩٧٧.

(٤) ابن رزيق: مصدر سبق ذكره، ص٢٥٨.

١٥٠٠ و ١٥٣٠ ويفهم من ذلك أنه كان معاصرا للغزو البرتغالى لعمان فى مراحلة الأولى. وعلى الرغم من أن العمانيين نصبوه إماما لما رأوا تشدده فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إلا أنهم تبرأوا منه لجبايته الزكاة بالجبر، كذلك تبرأ الإباضيون من ابنه بركات الذى بويع بالإمامة بعد وفاة أبيه. ورغم انبعاث الإمامة الإباضية فى عمان إلا أن الإباضيين لم يتمكنوا من التخلص من نفوذ النباهنة الذى استمر قويا فى موطنهم الأصلى فى إقليم الحجر. وإلى جانب النباهنة والإمامة الإباضية كانت هناك سلطة أخرى تمارس الحكم فى بعض المقاطعات العمانية وهى سلطة بنى جبر،أو بنى هلال كما كانوا يعرفون بذلك الاسم حيث يرجعون بنسبهم إلى هلال بن زامل الجبرى، وكانوا ينقسمون إلى كتلتين رئيسيتين الأولى مقرها الإحساء ويمتد نفوذها على عمان الشمالية فى منطقتى الظاهرة والظفرة، ثم كتلة عمان الداخلية التى كان يتزعمها محمد بن جفير الجبرى الذى تمكن من السيطرة على بهلى التى أصبحت المقر الرسمى للإمامة الإباضية عقب نجاح الإمام بركات ابن إسماعيل من انتزاعها من النباهنة واتخاذها عاصمة لحكمه.

ومما تجدر الإشارة إليه أن بنى هلال قد استغلوا الصراع الذى كان قائما بين الإباضيين والنبهانيين لكى يسيطروا على بعض المقاطعات العمانية وليكونوا عاملا هاما فى السياسة العمانية، بيد أن كثرة الصراعات بين بنى هلال والنباهنة من ناحية وبين الإباضيين والنباهنة من ناحية ثانية أفسح المجال لظهور زعامة جديدة فى عمان. والحقيقة أن الإمام بركات بن إسماعيل قد توفى والبلاد فى حالة من الفوضى إلى أن برز فى الرستاق ناصر بن مرشد من أسرة اليعاربة وبمبايعته بالإمامة فى عام ١٦٢٢ بدأ عهد اليعاربة فى عمان الذين اتخذوا من مدينة الرستاق قاعدة لهم، وواكب ظهورهم أو على الأحرى مهد لظهورهم ضعف سيطرة البرتغاليين فى الخليج العربى بعد أن تهاوت معاقلهم فى البحرين وهرمز أمام ضربات الصفويين والإنجليز[1].

(١) عبداللطيف الحميدان: نفوذ الجبور فى شرق الجزيرة العربية بعد زوال سلطتهم السياسية ١٥٢٥ ـ ١٧٨١ مجلة كلية الآداب جامعة البصرة العدد ١٧/ ١٩٨١.

والأمر الذى لاشك فيه أن انتخاب الإمام ناصر بن مرشد بن مالك أبى العرب لإمامة عمان فى عام ١٦٢٤ كان يعد بداية عهد جديد فى التاريخ العمانى، ولعل أبرز ما قام به من جهود هو عمله على توحيد البلاد ومنازلة البرتغاليين ووضع أسس دولة اليعاربة التى حكمت مايقرب من مائة وعشرين عاما، وتميز عهدها على العموم بأنه كان عهد أمن داخلى ورخاء ازدادت فيه الثروة وازدهر التعليم. كما تميز عهدها أيضا بازدياد هائل ومفاجئ فى القوة البحرية[1]، وإن كانت قد أصيبت فى أواخر عهدها بفترة من القلق والاضطراب أدت إلى إضعاف مركزها نتيجة التنافس حول الإمامة وظهور فرق متنازعة من الهناوية (عرب الجنوب)، والغافرية (عرب الشمال) الذين ظلوا فى نزاع مستمر لمدة طويلة وازدادت حدة الانفصال بين هاتين الكتلتين بظهور الوهابيين على مشارف عمان منذ نهاية القرن الثامن عشر الميلادى[2].

بدأت دولة اليعاربة بالإمام ناصر بن مرشد الذى كان يعيش فى مدينة الرستاق فى فترة من النزاع والشقاق أتعبت علماء البلاد فاجتمع سبعون منهم فى عام ١٦٢٤ وطلبوا منه بإلحاح أن يقبل تولى الإمامة وليكون القائد الأعلى للبلاد وقبل الإمام ناصر طلبهم هذا بعد تردد، ووجه همه عقب توليه السلطة إلى بناء الوحدة الداخلية والرد على العدوان الخارجى المتمثل فى وجود البرتغاليين. واستهل حكمه بقمع المعارضين له من جماعة الأمبوسعيديين، وهى الأسرة التى يحتمل كما يقول بادجر أن تكون هى التى عارضت سلطة اليعاربة فى بداية حكمهم ثم كانت هى نفسها التى خلفتهم فى السيادة على البلاد[3]. وإلى جانب تصدى الإمام ناصر للأمبوسعيديين كان عليه أن يواجه بنى الهلالى الذين نجحوا خلال فترة الاضطرابات التى مرت بها البلاد فى الاستيلاء على الظاهرة والبريمى. وتؤكد المصادر العمانية أنه بعد وصول الإمام ناصر إلى الحكم أخذت حصون بنى الهلالى أو الجبور فى مختلف المناطق العمانية تتهاوى الواحدة بعد الأخرى،

---

(١) ج. ج لوريمر: دليل الخليج جـ٢ ص٦٢٧.

(٢) محمود على الداود: محاضرات فى التطور السياسى لقضية عمان، معهد الدراسات العربية العالية ـ القاهرة ١٩٦٤ ص ص ١٨ ـ١٩.

(٣) Badger, Percy, History of the Imams and Seyyids Oman by Salil Bin Razik Introduction and Analysis London 1871 p. 54.

وكانت قوات الإمام ناصر هى المنتصرة دائما، ولكن التمحيص فى تلك النصوص يظهر لنا أن الحرب كانت سجالا وأن النصر كان يتأرجح بين الطرفين وربما يرجع ذلك إلى أن الجبور قاموا بمناصرة الهناوية وبدءوا يدخلون فى التركيبة الطائفية فى عمان. ولما كان الإمام ناصر قد نجح إلى حد كبير فى اخضاع كتلة الجبور فى عمان الداخلية فإن ذلك أغراه على إخضاع كتله الجبور فى الإحساء استمرارا لعملية التوحيد التى قام بها والتى تعدت فيما يبدو إقليم عمان، ومن الواضح بصدد ذلك أن الإمام ناصر كان يريد أن يعامل كتلة الجبور بفرعيها فى عمان والإحساء على أنها تابعة له، ولكن الصراع بين الإمام ناصر وبين جبور الإحساء تميز بالعنف والقسوة وخاصة أن كتلة الجبور فى الإحساء كان لها أنصار عديدون فى عمان الشمالية فى الظاهرة والظفرة، وكانت تساعدها قبائل كثيرة ومن بينها قبيلة بنى ياس. كما حاول البرتغاليون استغلال تفكك الأوضاع لصالحهم فاستمالوا شيخ الجبور فى عمان ضد ناصر بن مرشد[1]، غير أن الإمام ناصر تمكن من ضرب الجبور وحسر نشاطهم. وعلى أثر قتل شيخهم ناصر الجبرى ألقى ناصر بن مرشد بكل ثقله لمحاربة البرتغاليين فسيطر على صور وقريات، وطرد البرتغاليين من دبا ووقعت بينه وبينهم معارك شديدة فى صحار، وأوفد رسله إلى مسقط لمفاوضة البرتغاليين حينما طلبوا الصلح، وفى ذلك يقول سرحان بن سعيد إنه «حارب النصارى المستولين على مسقط ومطرح ونصر الله جيش الإمام فهدموا من مسقط بروجا باذخة ومبانى شامخة وقتلوا من المشركين خلقا كثيرا ثم أن النصارى طلبوا الصلح ومن الشروط أن يعطى أولئك النصارى الجزية للإمام كل سنة وألا يأذوا مسلما إذا وفد على مسقط فأذعنوا لذلك»[2]. وهكذا استطاع الإمام ناصر فى سنوات حكمه التى امتدت حتى عام ١٦٤٩ أن يحقق للبلاد تماسكها ويؤمنها إلى حد كبير من الأخطار الخارجية التى كانت تتعرض لها، وكانت الجهود التى بذلها باعثة على الأمل الكبير فى تحقيق الوحدة العمانية التى افتقرت إليها البلاد منذ أمد بعيد[3]. وبذلك يمكن اعتبار أسرة اليعاربة هى الأسرة التى خلقت النباهة

(١) عبداللطيف الحميدان: نفوذ الجبور فى شرق الجزيرة العربية العدد ١٧ من مجلة كلية الآداب جامعة البصرة ١٩٨١.
(٢) سرحان بن سعيد الأزكوى: مصدر سبق ذكره ص ص ١٠٤ / ١٠٦.
(٣) ج.ج لوريمر: دليل الخليج العربى جـ٢ ص٦٣٣.

فى الحكم بعد أن أصبح ناصر بن مرشد هو الحاكم الوحيد الذى يتمتع بثقة العمانيين ويحظى باحترامهم، وقد وصفه ابن رزيق بأنه كان رجلا نزيها مستقيما وكان مثلا للعدالة مجسدة فى إنسان[1]. بيد أن الوضع المفكك لم يلبث أن عاد إلى البلاد بعد وفاته فى عام ١٦٤٩ وكان ذلك نتيجة للتنازع الأسرى الذى سار مع ركب اليعاربة منذ وصولها إلى السلطة حتى أدى بها إلى الانهيار فى نهاية الأمر. ومما يستلفت النظر أنه على الرغم من أن أسرة اليعاربة قد استطاعت بنجاح كبير معالجة مشكلاتها الخارجية ضد الفرس والبرتغاليين إلا أنها وقفت عاجزة تماما أمام مشكلاتها الداخلية[2]. وسوف تتفاقم تلك المشكلات فى أواخر عهد اليعاربة حتى تجر على البلاد احتلال فارسى. ومع ذلك فقد استطاع سلطان بن سيف الذى بويع بالإمامة بعد وفاة ابن عمه ناصر بن مرشد أن يواصل جهوده من أجل توحيد البلاد غير أن أثره كان واضحا فى استئنافه الجهاد ضد البرتغاليين وإليه ينسب بناء القلعة المستديرة الكبيرة فى نزوى والتى استغرق بناؤها اثنى عشر عاما[3].

وقد لخص ابن رزيق الأوضاع فى عهده بقوله: «إن عمان اعتمرت فى أيام دولته وازدهرت واستراحت فى عصره رعيته، ورخصت الأسعار وصلحت الأسفار وكان متواضعا رءوفا بالرعية وكان يخرج إلى الطريق بغير عسكر». كما تحدث المؤرخ السالمى عن جهاده ضد البرتغاليين بقوله: «إنه قام ببناء مراكب عظيمة فى البحر وعظم جيشه وقوى سلطانه واستولى على الجزيرة الخضراء وكلوة وبات وغيرها من بلدان الشرق الأفريقى والهند كما غزا أرض فارس وأدب كل من تسول له نفسه بالعدوان». وإلى سلطان بن سيف ينسب نجاح العمانيين فى طرد البرتغاليين من مسقط حيث ذكر ابن رزيق بصدد ذلك بأنه «نصب الحرب لمن بقى من النصارى فى مسقط وسار إليهم بنفسه حتى نصره الله عليهم وكانت الحرب سجالا ليس فى قدرة البرتغاليين أن يخرجوا الإمام من مطرح ولا قدرة للإمام أن يدخل مسقط على النصارى حتى جرى من البرتغاليين والهنود من الشقاق فانحاز

---

(١) ابن رزيق: مصدر سبق ذكره ص ص ٢٩١ / ٦٣٣.

(٢) المصدر السابق ص ص ٢٨٤/٢٨٦.

(٣) نفسه ص ص ٢٨٤ ـ ٢٨٦.

الهنود إلى سلطان بن سيف وتم إخراجهم من مسقط[1]، وقد أضاف المؤرخ العماني سرحان بن سعيد أنه «لم يزل يجاهدهم فى بر وبحر حتى استفتح كثيرا من بلدانهم وضرب كثيرا من مراكبهم وغنم كثيرا من أموالهم ويقال إنه بنى القلعة التى بنزوى من غنيمة الديو»[2]. ومما يستلفت النظر أنه على الرغم من الإشارات الكثيرة التى وردت فى كتب المؤرخين العمانيين عن الصراع الذى كان قائما بين البرتغاليين واليعاربة إلا أنهم لم يتحدثوا بالتفصيل عن ذلك الصراع بالقدر الذى اعتادوا فيه أن يكتبوا عن معاركهم القبلية المحلية. غير أنه مما لاشك فيه إن إجلاء البرتغاليين عن السواحل العمانية على يد الإمام سلطان بن سيف كان يعد عملا رائعا ونقطة تحول فى تاريخ المنطقة.

وعند وفاة الإمام سلطان بن سيف فى عام ١٦٦٨ خلفه بلعرب الذى قام ببناء قلعة جبرين ثم نقل عاصمته إليها من نزوى وأنشأ فيها معهدا علميا خرج عددا كبيرا من علماء الشريعة إلا أن عهده لم يدم فى إشراقه وإنما تشوهت صورته بسبب الخلافات الخطيرة التى نشبت بينه وبين أخيه سيف بن سلطان وقد جلبت هذه الانقسامات ويلات كثيرة على البلاد حتى أطلق الناس على بلعرب بلاء العرب بدلا من أبى العرب وعلى أخيه سيف المصيبة[3]. غير أن سيفا لم يلبث أن تمكن من فرض سيطرته على القلاع الرئيسية مما أعطاه قوة كافية ضمنت له البيعة بالإمامة فى حياة أخيه بلعرب وانتهى الأمر بأن وجد بلعرب نفسه محاصرا فى قلعته بجبرين من قبل أخيه سيف، ولما وجد أن وضعه أصبح ميئوسا منه دعا الله أن يقبضه إليه، وتحكى الروايات أن الله سبحانه وتعالى استجاب لدعائه ودفن فى قلعته فى جبرين. وعلى الرغم من أن سيفا لم يكن محقا فى دوافعه أو فى الطرق التى استخدمها للوصول إلى الإمامة إلا أن أحدا لم يعترض على بيعته وخاصة بعد وفاة أخيه، وقد أثبت أنه حاكم شديد المراس أكد مركزه بكفاحه ضد البرتغاليين وعرف بقوته البحرية الضخمة واشتهرت من سفنه الفلك والملك

(١) سرحان بن سعيد: كشف الغمة ص ص ٦٩/ ٧٠.
(٢) ابن رزيق: مصدر سبق ذكره ص ٢٩٣.
(٣) سرحان بن سعيد: مصدر سبق ذكره ص ١١٣.

والرحمانى وكعبراس والناصرى[1]. وعندما توفى فى عـام ١٧١١ خلفه ابنه سلطان بن سيف الذى واصل الحرب ضد البرتغاليـين كما تابع محاربة الفرس وعمل على إخـراجهم من البـحـرين وقشم ولارك وتوفى فـى عام ١٧١٨ ودفن بمدينة حـزم وبوفاته انتـهت الوحدة التى عرفـتها عمـان،إذ أعقبت وفـاته سنوات من الحروب الأهلية استمرت أكثـر من ثمانية عشر عاما وقعت فى خلالها مجـموعة كبيرة من الاضطرابات والثورات وأدت إلى انـقسام العـمانيين وقـيام كتلتـين كبيـرتين هما الهناوية والغافرية. وقد فسر كثير من البـاحثين من أمثال ميلز ولوريمر قيام هاتين الكتلتين بأنهما كـانا صورة من صور التعصب التقليدى بين عـرب الشمال وعرب الجنوب، فالكتلة الهناويـة على حد قولهم هى كتلة القـبائل العدنانيـة بينما الكتلة الغافرية هى كـتلة القبائل اليمنيـة، ومن المعروف أن الصراع كان قـديما بين عرب الشمال والجنوب. وكان عرب الجنوب يرون أحقيتهم بالسلطة على اعتبار أنهم أول الوافدين إلى عمان[2]. وقد أضيف إلى هذا الصراع التقليدى طابع مذهبى إذ كان بنوغافر فى أغلبهم من الفئات السنية ولذا كانت تشايعهم معظم القبائل التى كانت تسكن منطقة الظاهرة، أمـا بنو هناة وأنصارهم فكان أغلبهم من أصـحاب المذهب الإباضى الذى عم الجزء الأكبر من أهل الباطنة فى عمان[3].

وقد تبدو هذه التفسيرات مقبولة إذا أخذنا بفكرة العصبيات المذهبية أو القبلية ولكنها لاتسـتقيم إذا أخذنا بتطور الوضع السـياسى فى عمان الذى لم يعـد مجرد تعصب تقليدى بين القبائل والطوائف وإنما تشابكت المصـالح السياسية والاقتصادية وكان لها أثر كبير فى تحطيم الكثيـر من النزعات القبلية والمذهبية. وقد أورد بعض الباحثين كـشفا بأسماء القبائل وأنسـابها والتى تنتمى إلى كل من التكتلين الهناوى والغافرى واتضح منه أن التكتل الغافرى كان يضم إليه قبائل يمنية تكاد تتساوى فى أعـدادها مع القـبائل العـدنانيـة وكـذلك ينطبق هذا الوضع على الـتكتل الهناوى الذى كان يضم قبائل عـدنانية تتساوى مع القبائل اليمـنية، ومن ثم فإن ولكنسون

(١) سرحان بن سعيد: مصدر سبق ذكره ص١١٣.

(٢) Thomas, Bertram, Alarms and Excursions in Oman London 1931 p. 155.

(٣) فالح حنظل : المفصل فى تاريخ الإمارات العربية جـ١ ص١٢٥ لجنة التراث والتاريخ، أبو ظبى ١٩٨٣.

Wilkinson لاحظ أن ظهور الكتلة الهناوية والكتلة الغافرية بالانتماءات القبلية المختلطة فيهما يعد تطورا ضخما فى الحياة السياسية العمانية إذ إن هذين التكتلين أعادا تشكيل تحالفات القبائل وولائها من العصبيات القبلية أو المذهبية إلى تحالف وولاء سياسى واقتصادى جديد، وركز بصدد ذلك على الأفلاج أو أساليب الرى المستخدمة فى عمان باعتبارها قد شكلت مصالح اقتصادية لمجموعة من القبائل التى تعتمد حياتها على الأفلاج، ومن ثم تشكلت وحدة سياسية إقليمية من مجموعة هذه القبائل وأسهم العامل الاقتصادى بدور كبير فى تشكيل اتجاهاتها من حيث ولائها لاحدى التكتلين الهناوى أو الغافرى بصرف النظر عن العصبية القبلية التقليدية(١). أما مايثار حول اقتران الحزب الهناوى باليمنية والحزب الغافرى بالعدنانية فإنما يرجع إلى مايمس الزعامة فيهما حيث أطلق الناس اسم الغافرية على أتباع الزعيم محمد بن ناصر نسبة إلى أصله العدنانى بينما أطلقوا على منافسيهم الهناوية نسبة إلى زعيم حركة المقاومة ضد محمد بن ناصر واسمه خلف بن مبارك الهناوى الذى ينتسب إلى القبائل اليمنية(٢). وقد ظهر الصراع السياسى والاقتصادى بين الهناوية والغافرية بصورته الجديدة خلال نشوب الحروب الأهلية التى بدأت فى عمان على أثر وفاة الإمام سلطان بن سيف، إذ إنه بعد أن تكرس الحكم الوراثى لأئمة اليعاربة طيلة هذه الفترة الطويلة من بداية حكمهم رأى عامة الناس أن يخلفه ابنه سيف الذى كان لايزال صبيا صغيرا لم يبلغ مبلغ الرجال، ولكن الخاصة من أهل الحل والعقد فى عمان لم يرحبوا بذلك وفيما يرجح أن ذلك كان معارضة منهم للحكم الوراثى الذى سار عليه أئمة اليعاربة وهذا الموقف الذى وقفه أولئك العلماء يعد من المواقف الهامة التى ينبغى تسجيلها إذ كانت دوافعهم الرئيسية هى رفض الاتجاه الوراثى لمخالفته نظام الإمامة وإن تذرعوا بحجة شرعية وهى رفض البيعة لسيف بسبب صغر سنه إذ كان لايتعدى الثامنة عشرة من

(١) Wilkinson, J.C., The Orgnization of the Falaj Irrigation in Oman, Oxford 1971.
وعن التحليل التفصيلى للهناوية والغافرية راجع محمد مرسى عبدالله: إمارات الساحل العمانى والدولة السعودية الأولى ١٧٩٣ - ١٨١٨ ص ص ٦٤ - ٦٧.
(٢) السالمى: تحفة الأعيان بسيرة آل عمان جـ٢ ص١١٧.

عمره. وإذا كان لايجوز له أن يؤم الناس فى الصلاة فكيف يمكنه أن يؤمهم فى شئون الحياة؟، ومن ثم كانوا أميل إلى مبايعة مهنا بن سلطان الذى وجدوا فيه شخصا حائزا على كل الشروط التى يجب توافرها فى الإمام على عكس سيف الذى لايجوز له أن يتصرف فى أملاكه الخاصة وبالتالى لاينبغى له أن يتولى الإشراف على ممتلكات الإمامة وعدوا مبايعته بالإمامة خروجا عن المألوف والشرع. وإن كان مما يستلفت الانتباه أن العلماء لم يخرجوا عن البيعة فى نطاق أسرة اليعاربة إذ كان مهنا بن سلطان ينتمى إلى تلك الأسرة.

ولما كان موقف العلماء يتعارض مع موقف العامة فإنهم لم يجرءوا على مبايعة مهنا علنا، وطبقا لما يذكره السالمى أنهم قاموا بخدعة كبيرة حين جاءوا بالصبى سيف وأوقفوه أمام جمهور المسلمين ونادوا أمامكم سيف، وهو إعلان يمكن تفسيره أمامكم أو إمامكم بالفتح أو الكسر وبهذه الطريقة أمكن تفادى موقف المعارضة من العامة حتى هدأت العاصفة وشعر العلماء أن لديهم القوة التى تمكنهم من إعلان موقفهم صراحة فعمدوا إلى إدخال مهنا قلعة الرستاق ونادوا به إماما واستلم زمام الأمور فى عام ١٧١٩. وعلى الرغم من أنه بذل جهودا صادقة لما فيه خير البلاد إلا أن ذلك لم يمنع من قيام المعارضة ضد حكمه. ومع ذلك فقد أثر عنه أنه كان إداريا من الطراز الأول بدأ بإصلاح ميناء مسقط وعمل على إنعاش الأوضاع الاقتصادية وكان سبيله إلى ذلك تخفيض الضرائب التى كانت تفرض على البضائع[١]. على أنه لم يكد يمضى عام واحد على توليه الحكم حتى تمكن أحد المناوئين له وهو يعرب بن بلعرب ـ بفضل تأييد العامة ـ فى اجباره على التنازل عن الإمامة وقتله فى عام ١٧٢٠. وعلى أثر ذلك انتقل يعرب إلى مدينة نزوى مستصحبا معه الإمام الصبى سيف بن سلطان وأصبح هو الشخصية المسيطرة على عمان مع ملاحظة أنه لم يطالب بالإمامة لنفسه لأنها كانت من حق سيف الذى أجمعت العامة على اختياره إماما وإنما اكتفى بالوصاية عليه بحضور مجمع من الرؤساء. على أنه كان من الطبيعى أن يعمل على الاستحواذ على السلطة

(١) Huart, Histoire des Arabes Paris 1913. Tome II p. 65.

لنفسه متجاهلا أمر الوصاية على الصبى مما كان دافعا لخلعه من قبل بلعرب بن ناصر الذى عقد الإمامة لسيف للمرة الثانية فى عام ١٧٢٣، وتولى أمر الوصاية عليه بنفسه. ولكن الوصى المخلوع يعرب بن بلعرب عقد اتفاقا مع محمد بن ناصر الغافرى الذى عاد إلى عمان بعد أن ترك ولاية البحرين، وكانت البحرين قد خضعت لليعاربة على عهد سلطان بن سيف حيث تولى زعامة الكتلة الغافرية فى عمان، وكان ذلك الاتفاق يهدف إلى التخلص من بلعرب بن ناصر. ويذكر السالمى أنه بعد عودة محمد بن ناصر الغافرى من البحرين وفد إلى الرستاق ليقدم تهانئه لبلعرب بن ناصر وسيف بن سلطان على أنه لم يجد الترحيب الكافى من الوصى مما دفعه إلى الاتفاق مع يعرب بن بلعرب[١]. ولكن السبب الحقيقى يرجع فى اعتقادنا إلى أن الشيخ الغافرى كان يرى أن بلعرب بن ناصر سيمارس السلطة الفعلية من وراء وصايته لسيف لصالح بنى هناة، ومما يؤكد ذلك أنه كتب ليعرب بن بلعرب يحثه على رفع راية المعارضة ووعده بتأييد قبائل بنى ياس وبنى قتب والنعيم التى تقطن واحة البوريمى[٢].

وعندما وصلت قواتهم اتجه محمد بن ناصر الغافرى إلى نزوى حيث قبض على زمام الأمور فى عمان، ولم تلبث الظروف أن ساعدته بموت حليفه يعرب بن بلعرب وبدأ يتصدى لتحالف الكتلة الهناوية التى كان يتزعمها الشيخ محمد بن خلف الهناوى الملقب بالقزم، واشتد القتال بين الغافرية والهناوية حتى عانت البلاد اضطرابا كبيرا فى أوضاعها الداخلية الأمر الذى دفع محمد بن ناصر الغافرى إلى جمع العلماء ورؤساء القبائل فى مدينة نزوى ليعلن لهم تنازله عن الحكم، ولكنهم ألحوا عليه أن يبقى قابضا على زمام الأمور خوفا من انتقام القبائل الهناوية وماقد يؤدى إليه ذلك من انهيار نفوذ الغافرية[٣]. ورغبة من الرؤساء فى تأكيد إخلاصهم وصدق نواياهم عقدوا البيعة له بالإمامة فى عام ١٧٢٤ حيث استمر قائما على شئونها حتى عام ١٧٢٧ حين حرص فى ذلك العام على إظهار حسن نواياه فأعلن

---

(١) السالمى: مصدر سبق ذكره جـ٢ ص ١١٧.

(٢) Kelly, J., Britain and the Persian Gulf 1795 - 1870 London 1968, p. 16

(٣) Badger, G., op. cit., p. XXXII.

تنازله للإمام سيف وذلك بعد أن بلغ السن التى توهله لتـولى شئون الإمامة وبهذه الطريقة نودى بسيف إماما للمرة الثالثة, وكانت بيعتـه فى ظل تأييد الغافريين له، واستمرت الحـروب الأهلية قائمة فى عمان حـتى راح ضحيتها الزعيـمان الغافرى والهناوى معـا وذلك خلال المعارك العنيـفة التى دارت فى صحـار فى عام ١٧٢٨ والتى لم يوقفها موت الزعيمين وإنما استمرت قائمة بين المعسكرين المتخاصمين[١].

على أنه عقب مقـتل زعيم الهناوية انفض الغافريون عن تأيـد الإمام سيف وأعلنوا بلعرب بن حمـير إماما على البلاد على حـين استمد الإمام سـيف التأييد لإمامـته من الكتلة الهناوية التى بايعـته بالإمامة.وهكذا أصبح الإمام سيف إمـاما للمرة الرابعة فى تاريخ اليعاربة فى الوقت الذى كان فيه أيضا إمامان يتنازعان حكم البلاد وهما الإمام بلعرب بن حمير الذى يستند على تأييد الكتلة الغافرية، ويجد نفوذه فى الظاهرة والشرقية ونزوى والمقـاطعات الوسطى من عمان؛ والإمام سيف الذى يستند على تـأييد الكتلة الهناوية ويجد نفـوذه فى المناطق التى يسيطر عليـها الهناويون فى الرستاق والبـاطنة وجبرين، ومع ذلك فإن التأييد الهنـاوى لم يستمر طويلا للإمام سـيف إذ سرعان مـافقد ذلك التـأييد بعد أن أثبت عـدم قدرته على الوقوف ضد الغافرية وعلى إدارة شئون الحكم، وفـضلا عن ذلك فقد عرض نفسه لعداء الفئات الإباضـية المحافظة وذلك بانغماسه فى الفسق والفـجور والتدخين مما أدى إلى خروج الكثـيرين عليـه بعد أن وجدوا فى إمـامته خـروجا صـريحا على التقاليد الإباضية الصحيحة[٢]، ولعل ذلك كان دافـعا له إلى تأييد مركـزه باللجوء إلى تكوين جـيش من العناصر المـرتزقة، ولعل اسـتعـانة الإمام سـيف بالطوائف المرتزقة وخاصة من البلوش[٣]، كانت هى المرة الأولى التى سجلها التاريخ العمانى لجلب تلك العناصر التى ظلت تشكل القـوة الرئيسية المقاتلة فى عمـان حتى عهد قريب. ويصدد ذلـك تذكر بعض المصادر أن الإمام سـيف قرر فى عام ١٧٣٥ أن يطلب العون من شيخ قبائل البلوش القاطنة فى منطقة مكران، ووافق شيخ البلوش

---

(١) Kelly, J., op. cit., p. 17.

(٢) السالمى: مصدر سبق ذكره جـ٢ ص١١٧ وبعدها.

(٣) دونالد هولى: عمان ونهضتها الحديثة ص ص٠٤/٤١.

وقاد بنفسه جيشا نزل به مسقط وتقدم بمعاونة قوات الإمام إلى توام فى البريمى فى الوقت الذى شن فيـه بلعرب هجوما مـضادا أدى إلى مقـتل شيخ البلوش وهلاك عدد كبير من أفراد قواته مما أرغم سيف على التراجع إلى مسقط .

وإزاء تلك الهزيمة قـرر سيف طلب النجدة من الفرس حـيث كتب إلى نادر شاه الافـشيارى (١٧٢٧ ـ ١٧٤٧) طالبا العـون منه . وكان نادر شاه قـد فرغ من إلحاق الهزيمة بالعثمانيين فى البصرة وقـام بالسيطرة على البحرين التى فتحت أمامه طموحا واسعا للسيطرة على الخليج[١]، ومن ثم أسرع بانتهاز تـلك الفرصة حيث وجد فى الدعوة الموجهة إليه من الإمام سيف ستارا يستطيع من ورائه السيطرة على مسقط ، بل والساحل العمانى بأسره[٢] .

وقد بادر نادر شاه بإرسال حـملة بحرية كبيرة إلى مـسقط بقيادة لطيف خان رافعـة العلم الفارسـى الأبيض ذو السيف الأحـمر وكان ذلـك فى مارس ١٧٣٧ وكانت تتألف مـن خمسة آلاف جندى ومايناهز الفـا وخمـسمـائة فارس . وبعد أن تمكنت من إخـضاع جلفـار (رأس الخيـمة) وخـور فكان[٣]، تقـدمت بعـد ذلك للسيطرة على عـمان مستغلة نكبـة اليعاربة وما أصابهم من تـفكك وحروب أهلية طاحنة[٤] . غير أنه ماكادت القوات الفارسـية بالتعاون مع قوات سيف تتخلص من مقـاومة بلعرب بن حـمير حتى أعلن القائد الفـارسى لطيف خان نفـسه حاكـما عسكريا مطلقـا فى عمان ولم يترك شـيئا من السلطة لسـيف بن سلطان الذى كان مشغولا بمقاتلة بقايا الجيوش الموالية لبلعرب بن حمير . وبعد أن وصلت الأمور إلى هذه الحال اجتمع حول بلعرب فى قاعدته بيهلى جمع كبير من العمانيين المعارضين للتدخل الفـارسى فى شئون عمـان، وكان من بينهم كثيـر من رجال الدين الذين كتـبوا إلى سيف بن سلـطان يندون باعتمـاده عى الفرس فى تثبـيت سلطانه[٥] .

---

(١) فالح حنظل: مرجع سبق ذكره. جـ١ ص ١٦٤ .

(٢) Lockhart, L., Nadir shah - A Critical Study based only upon Contemporary Sources p. 182 London 1938.

(٣) Factory Records, cf. Gombroon Diary July 21. 1737.

(٤) Badger, G., op. cit. p. 142.

(٥) فالح حنظل: مرجع سبق ذكره جـ١ ص١٦٨ .

وخشى سيف من هذه المعارضة فكتب إلى نادر شاه يطلب العون مجددا، وبادر نادر شاه بإرسال قوة أخرى بقيادة تقى خان الذى تمكن من دحر الإمام بلعرب بن حمير وتمكن من السيطرة على بهلى ونزوى. على أنه لم يلبث أن دب الخلاف بين الإمام سيف وتقى خان وأصبح واضحا أن السياسة التى اتبعها سيف لتوطيد مركزه الداخلى عن طريق المساعدات الأجنبية لم تكن سياسة ناجحة إذ أدى تصرفه على ذلك النحو إلى استياء العمانيين وأتى بعكس ما كان يأمله فى السيطرة على البلاد، وانعكس الخلاف بين الإمام سيف وتقى خان على سوء وضع الفرس، وظهر ذلك حين فشل تقى خان فى السيطرة على صحار وحلت كارثة بالحاميات الفارسية فى بهلى وأزكى حيث أبادها العمانيون عن آخرها فى الوقت الذى ثار فيه الملاحون العرب فى الأسطول الفارسى مما اضطر تقى خان إلى التراجع بمن معه إلى رأس الخيمة ومن هناك وصلته نجدات فارسية تمكن بواسطتها من احتلال الظاهرة. وفيما يبدو أن سيفا قد أصبح نادما على دعوة الفرس إذ أدرك مدى أطماعهم ولعل ذلك مما دفعه إلى الذهاب إلى وادى بنى غافر ليجتمع مع بلعرب بن حمير، وفى ذلك الاجتماع وافق الغافريون على أن يتنازل بلعرب عن الإمامة ويتحد العمانيون من هناويين وغافريين تحت زعامة سيف بن سلطان من أجل مواجهة الموقف مع الفرس الذى وصل إلى أقصى درجة من السوء[1].

وحاول سيف أن يقوم بدور بطولى فى محاولة التكفير عن الأخطاء التى ارتكبها، ويظهر بمظهر المحرر والمخلص لبلاده من احتلال أجنبى كان قد أوقعها فيه بسوء تصرفه حيث بادر بطرد القوات الفارسية وتتبعها فى مياه الخليج، بل أعلن عن عزمه على نقل المعركة إلى داخل الأراضى الفارسية ذاتها، وناشد جميع القبائل العربية فى الخليج تزويده بالمقاتلين، وتمكن بالفعل من الوصول إلى البحرين وبندر عباس[2]. ولعل هذا النجاح الذى أحرزه الإمام سيف كان يواكب تأزم الأمور فى فارس حين دبت الثورات فى مقاطعاتها مما دفع نادر شاه إلى سرعة سحب قواته من الخليج ليعالج مشاكله الداخلية[3]. وتبع انسحاب القوات الفارسية

---

(١) دونالد هولى: مرجع سبق ذكره ص٤٢.

(٢) محمود على الداود: مرجع سبق ذكره ص٢١.

(٣) Lockhart, op. cit., P. 184.

من عمان أن أصبح سيف هو سيد الموقف، ولكنه لم يلبث أن عاد إلى حياته الخاصة التى أغضبت الإباضيين فثاروا عليه وأعلنوا خلعه عاقدين البيعة لسلطان بن مرشد الذى قام بالسيطرة على مسقط ومهاجمة سيف فى قاعدته فى بركا مما اضطره للفرار إلى جلفار (رأس الخيمة) حيث نزل هناك فى معسكر الفرس. وفيما يبدو أن سيفا لم يستفد من الكوارث السابقة التى جرها على بلاده حيث عاود اتصاله بتقى خان، ومن داخل المعسكر الفارسى شكل سيف وفدا من مرافقيه حملهم رسالة إلى نادر شاه يطلب فيها العون مجددا لتثبيته فى الحكم واعدا إياه بأن يعترف بالسيادة الفارسية على جميع المقاطعات العمانية. وتمكن الوفد العمانى من مقابلة نادر شاه فى مدينة أصفهان وأصدر الشاه أوامره إلى تقى خان بإعداد حملة جديدة لغزو عمان وغادرت السفن الفارسية ميناء بوشهر لتصل إلى جلفار وكان ذلك فى عام ١٧٤٢[١]. وحين نجح الفرس فى فرض الحصار على صحار تقدم الإمام الجديد سلطان بن مرشد لمواجهة الحصار الفارسى الذى استمر قرابة سبعة أشهر كلف الفرس والعمانيين الكثير من الجهود والأرواح[٢]، وأدى طول الحصار إلى أن يستعين الإمام سلطان بن مرشد بوالى صحار أحمد بن سعيد لكى يستمر فى أعمال المقاومة التى أبدى فيها نجاحا كبيرا[٣].

وهكذا أعد المسرح فى عمان لظهور رجل قوى استطاع أن يلعب دورا كبيرا فى تخليص بلاده من الاحتلال الفارسى وهو الإمام أحمد بن سعيد البوسيعدى الأزدى الذى يعد المؤسس الأول لدولة البوسعيد، وقد تحقق ذلك حين أتيحت له الفرصة للسيطرة على الموقف حيث لقى تأيدا كبيرا من زعماء القبائل الشمالية، ولا شك أن ذلك التأيد الذى حازه والى صحار كان مدعاة لشكوك الامام سيف الذى ساورته الظنون فى أنه يدبر خطة لخلعه عن الإمامة ولذلك أصدر أوامره - وكان لا يزال مسيطرا على مسقط - بالقبض على أحمد بن سعيد بعد أن دعاه للمثول بين يديه ولكن الأخير أدرك ما يدبره له سيف فآثر التراجع وهو فى طريقه

(١) فالح حنظل : مرجع سبق ذكره جـ١ ١٧٦.
(٢) السالمى: مصدر سبق ذكره جـ٢ ص١٤٢.
(٣) يقع ميناء صحار على شاطىء الباطنة على مسافة مائة ميل إلى الشمال الغربى من مسقط.

إلى مسقط[١]. ولم يلبث سيف أن أفصح عن عداثه لأحمد بن سعيد فسير أسطوله إلى صحار وانتهت المناورة التى قام بها سيف على صحار بإعلان أحمد ابن سعيد ولاءه للإمام سيف ووافق على أن يبعث أحد أبنائه إلى مسقط ليكون رهينة لديه غير أن سيفا لم يلبث أن أعلن انسحابه من مسرح الأحداث بعد أن تنبه إلى ماجره على بلاده من ويلات. وتذكر الروايات العمانية أنه آثر التراجع عن تحالفه مع الفرس الذين لم يسلموا له قلاع مسقط ومطرح وانزوى فى الرستاق وظل بها حتى وافاه الأجل فى الوقت الذى استمر الفرس فى حصارهم لصحار. ويذكر السالمى أن الصراع العمانى ضد الفرس كان ميئوسا منه «وخاصة أن جيش العرب كان عند جيش العجم كالشعرة البيضاء فى الثور الأسود. وأصيب الإمام سلطان بن مرشد بجراحات كثيرة فلما أثخنته الجراح دخل الحص عند أحمد بن سعيد والى صحار ومات فيه»[٢].

وتهيأت الظروف لوالى صحار أحمد بن سعيد للوصول إلى الإمامة إذ إنه أصبح وهو لايزال واليا على صحار الشخصية المتنفذة على البلاد، ومع أنه قام بدور كبير فى عمليات المقاومة ضد الفرس إلا أن نفاد الذخيرة اضطرته إلى التسليم، ومع أن ذلك التسليم يبدو من الأمور المنطقية إلا أن السالمى يرى أن الفرس هم الذين طلبوا الصلح وتأمين رحيلهم من صحار بعد أن أعياهم واستحال عليهم احتلالها. وكان من شروط ذلك الصلح أن يرفع الفرس الحصار عن صحار على أن تبقى القوات الفارسية فى مسقط ويتعهد أحمد بن سعيد بدفع ضريبة سنوية لهم ويكون كل من ميناء صحار ومدينة بركا تحت سلطته.

ومما يستلفت النظر أن بعض المصادر الفارسية[٣]، تنفى حدوث ذلك الصلح أو تلك الهدنة وتؤكد أن أحمد بن سعيد أبدى تعاونا مع الفرس الأمر الذى أكسبه

---

(١) يحدثنا ابن رزيق بصدد ذلك أن مؤامرة سيف كادت أن تنجح لولا ما لقيه والى صحار من تحذيرات جده (جد المؤلف) وقد عمل أحمد بن سعيد بعد وصوله إلى الإمامة على رد ذلك الجميل إليه فعينه فى أحد المناصب الهامة وترك وصية لخلفائه من بعده يوصيه به وبأبنائه خيرا: انظر:
Badger, op. cit., P. XXXIII.

(٢) السالمى. مصدر سبق ذكره جـ٢ ص١٤٧

(٣) صادق نشأت تاريخ الخليج السياسى ص٢١١.

ثقة تقى خان فأبقاه حاكما على صحار فى حين انسحب بمعظم قواته فى عام ١٧٤٣ لكى يشعل ثورة فى إقليم فارستان ضد نادر شاه الذى كان متورطا فى ذلك الوقت فى صراع مع الدولةالعثمانية. وبرحيل تقى خان انحسر الوجود الفارسى فى مدينتى مسقط ومطرح حيث استقرت بعض الحاميات الفارسية فى الموقعين الدفاعيين الكبيرين وهما قلعتا الميرانى والجلالى، ولذلك ماكاد تقى خان يغادر البلاد حتى أخذ أحمد بن سعيد يعد خطته لإخراج من تبقى من القوات الفارسية. أما إذا صح ماجاء فى المصادر الفارسية من حدوث تعاون بين أحمد بن سعيد وتقى خان ففى اعتقادنا أن ذلك لم يكن إلا تظاهرا منه خاصة وأنه كان يتميز بقدر كبير من الحنكة والدهاء، ومن ناحية أخرى فإن مهادنة أحمد بن سعيد للفرس قد أتاحت له فسحة من الوقت للعمل على حل كثير من المشكلات الداخلية وتوطيد مركزه فى المقاطعات الداخلية وضمان تأيد العمانيين له، كما عمل على أن يعيد للبلاد وحدتها وتماسكها بما عرف عنه من مقدرة وكفاءة ترقى به إلى مصاف مؤسسى الدول. ولم يلبث بعد ذلك أن تعمد إهمال دفع المبالغ المالية السنوية المتفق عليها مع الفرس بحجة افتقاره إلى وسيلة لإرسالها ومن ثم بقى جنود الحامية الفارسية دون رواتب، وإمعانا فى إطباق الحصار على الحاميات الفارسية قرر إعفاء التجارة القادمة إلى بركا من الضرائب الجمركية مما أغرى السفن التجارية على التوقف فى ميناء بركا بدلا من مسقط مما زاد وضع الحامية الفارسية سوءا لنفاد ذخيرتها وانقطاع مؤنها ورواتبها. وتذكر بعض الروايات التاريخية أن قائد حامية مسقط قام بالاتصال بالشاه وأخبره بحرج الموقف فى عمان وأنه لا فائدة ترجى من وجود القوات الفارسية فيها، واستعان من أجل ذلك بأحد أقرباء سيف - حليف الفرس السابق - ويدعى ماجد بن سلطان وبعث به إلى تبريز حيث تقابل مع الشاه ليجدد عهد سيف بالولاء ووافق الشاه على أن يعهد له بالحكم تحت السيادة الفارسية[1]. وطبقا لما يذكره السالمى أن الظروف شاءت أن تقذف الرياح بالسفينة التى كان عليها ماجد بن سلطان وهو فى طريق عودته إلى صحار فأسرع أحمد بن سعيد بالقبض عليه وانتزع منه فرمان الشاه الذى كان يقضى بتسليمه

---

(١) فالح حنظل: مرجع سبق ذكره جـ١ ص ص ١٧٨ - ١٧٩.

معاقل مسقط ومطرح حيث أرسل أحمد بن سعيد أحد أعوانه إلى قائد الحامية الفارسية فى مسقط الذى سلم له حصونها على اعتبار أنه موفد من قبل ماجد بن سلطان. ويحدد السالمى تلك الخديعة التى استولى بها أحمد بن سعيد على حصون مسقط وقلاعها باعتبارها بداية لعهد البوسعيد ونهاية لحكم اليعاربة(١).

على أن أحمد بن سعيد لم يكتف بالإستيلاء على قلاع مسقط وإنما قرر أن يبيد الحامية الفارسية عن بكرة أبيها والتى كان عليها وهى فى طريق انسحابها أن تمر بميناء بركا لتركب البحر من هناك. وعند وصولها دعا ضباط الحامية إلى وليمة أقامها لهم وفى خلالها دقت الطبول فى القلعة ونادى المنادى من كانت له ظلامة عند الفرس فليقتص منهم الآن، وكان هذا النداء إيذانا بمجزرة جماعية لم ينج فيها سوى عدد قليل من أفراد الحامية الفارسية، واستطاع أحمد بن سعيد أن ينتقم بذلك لآلاف العمانيين الذين راحوا ضحية الاحتلال الفارسى لعمان(٢). وليس من شك فى أن الدور الكبير الذى قام به أحمد بن سعيد هو الذى مكنه من أخذ البيعة بالإمامة إذ يعتبر السالمى العام الهجرى الموافق لعام ١٧٤٥ هو العام الذى وصل فيه أحمد بن سعيد إلى الحكم فى عمان؛ على حين يعتبر ابن رزيق بداية صراعه مع الفرس فى عام ١٧٤١ هو العام وصل فيه إلى الإمامة وواضح هنا أنه لاخلاف جوهرى بين الروايتين إذ كان أحمد بن سعيد هو الشخصية المسيطرة على عمان منذ أن بدأ صراعه مع الفرس وهو مايتفق مع رواية ابن رزيق، وإن كان السالمى يحدد تخليص البلاد العمانية من الفرس ونجاح أحمد بن سعيد فى التخلص من بلعرب بن حمير الذى كان مؤازرا من قبل الغافرية فى عام ١٧٤٥ هو العام الذى بويع فيه الإمام أحمد بن سعيد(٣). والأمر الذى لاشك فيه أن نجاح أحمد بن سعيد فى القضاء على بلعرب بن حمير مكنه من السيطرة على الكتلة الغافرية وبسط نفوذه على مقاطعاتهم مما مكنه من أن يعيد لعمان وحدتها وتماسكها وهيأ لها

(١) السالمى مصدر سبق ذكره جـ٢ ص ص ١٤٨ ـ ١٥١ ويذكر لوكهارت أنه لم يعد للفرس بعد انسحابهم من مسقط سوى جلفار، انظر:

Lockhart, op. cit., P. 219.

(٢) دونالد هولى: مرجع سبق ذكره ص ص ٤٣/ ٤٤.

(٣) إلى جانب الخلاف حول بيعة الإمام أحمد بن سعيد فإن هناك خلافا آخر حول تاريخ وفاته فى عام ١٧٧٧ أو ١٧٨٣ وإن كنا نرجح العام الأخير استنادا إلى التاريخ الذى حققه Miles والمسجل على مقبرة الإمام أحمد بن سعيد بمدينة الرستاق.

لها المجال لكى تلعب دورا هاما فى تاريخ الخليج العربى خلال النصف الثانى من القرن الثامن عشر الميلادى[1].

وإذا كان الإمام أحمد بن سعيد قد برز فى تاريخ عمان الحديث كمؤسس لأسرة البوسعيد منذ صراعه مع الفرس إلا أن المعلومات الخاصة بحياته قبل سطوع نجمه معلومات قليلة فى جملتها، وإن كان من المعروف أنه لاينتمى إلى أسرة عريقة وإنما كان ينحدر من عامة الشعب ومن أسرة كان يشتغل معظم أفرادها بالتجارة التى اشتغل بها هو أيضا[2]، بيد أنه تميز بجرأة نادرة وشجاعة فائقة لفتت إليه الأنظار مما مكنه من الوصول إلى ولاية صحار كوال من قبل اليعاربة. وليس من شك فى أن الدور الذى قام به فى تثبيت دعائم الحكم لأسرته قد استغرق منه الكثير من الجهد وإن كان قد أعانه على ذلك طيلة فترة حكمه التى استمرت بين عامى ١٧٤١ و١٧٨٣. ولعل أبرز المشاكل التى واجهته فى مستهل عهده ثورات اليعاربة ضده بسبب فقدانهم الحكم، وقد ألمحنا بصدد ذلك إلى بلعرب بن حمير الذى التفت حوله قبائل النعيم وبنى قتب، كذلك واجه الإمام أحمد بن سعيد حركة معارضة ضخمة تزعمها الغافريون فى منطقة الظاهرة بقيادة ناصر بن محمد الغافرى، وقد نجح الإمام أحمد بن سعيد باستخدام أسلوب القوة حينا والخديعة واللين حينا آخر فى التخلص من هذه الحركات، كما عمد إلى أسلوب المصاهرة بهدف التقارب مع القبائل المناوئة له ومن ذلك زواجه من شقيقة ناصر بن محمد[3]، ومصاهرته لشيوخ بنى الهلالى الذى كان قد نجح فى توثيق علاقته بهم منذ أن كان واليا على صحار حتى أن ابن رزيق يذكر بصدد ذلك بأنه عندما بويع بالإمامة قصدته شيوخ الجبور فرفع منزلتهم وأحسن إليهم[4]. كما عنى إلى جانب ذلك بتوثيق علاقات الجوار بينه وبين القبائل العربية القاطنة فى جنوب فارس وامتد بعلاقاته إلى القبائل القاطنة فى عربستان فدخل فى حلف مع قبائل بنى كعب فى شط العرب ونهر القارون وفى حلف آخر مع قبائل بنى معن القاطنة بالقرب من

---

(١) محمود على الداود: مرجع سبق ذكره ص ص ٢١- ٢٢.

(٢) السالمى : مصدر سبق ذكره جـ٢ ص ١٦١.

(٣) ابن رزيق : الفتح المبين فى سيرة السادة البوسعيديين ص ٣٨٢.

(٤) المصدر السابق ص ٣٣.

بندر عباس مما أدى إلى فشل محاولات كريم خان الزندى فى السيطرة على تلك المناطق. كذلك قدم المساعدة لشاه علم إمبراطور المغول فى الهند حيث قام أسطوله بمساعدته ضد القراصنة الذين كانوا يعترضون تجارة الأرز بين مانجالور فى سواحل الهند الغربية ومسقط. وتوثقت الصلات حين أرسل حاكم المغول مبعوثا من قبله إلى مسقط فى عام ١٧٦٦ لعقد معاهدة مع الإمام أحمد بن سعيد كانت تنص على استمرار علاقات الصداقة بين الطرفين وإنشاء دار فى مسقط لمبعوث الحاكم المغولى أصبح يعرف ببيت نواب[١]. وفى تعامله مع القوى الأوروبية كان الإمام أحمد بن سعيد يتبادل الهدايا ويوقع الإتفاقيات مع شركة الهند الشرقية البريطانية كذلك احتفظ بعلاقات طيبة مع فرنسا حيث كانت المصالح التجارية تربطه بوكيل الشركة الفرنسية فى بغداد وحاكم جزيرة فرنسا، وتتفق الكثير من المصادر على وصف عهد الإمام أحمد بالازدهار التجارى رغم الاضطرابات والثورات التى واجهها حيث قدرت موارده من الرسوم الجمركية وحدها بما يزيد عن مليون روبية هندية[٢]. وعلى عهد الإمام أحمد بن سعيد كانت رحلة كارستن نيبور **Neibuhr** الذى زار مسقط فى عام ١٧٦٥ وأكد على حرية الأديان والتسامح الدينى وأن الأجانب يعيشون بحرية واطمئنان.

وعلى الرغم مما كان يتميز به الإمام أحمد بن سعيد من الشجاعة والصرامة إلا أنه ارتكب خطأ جسيما بسبب سياسة التجزئة واللامركزية التى اتبعها فى حكمه للبلاد؛ حيث كان يميل إلى تعيين أبنائه حكاما على المدن والمقاطعات الهامة مسبغا عليهم ألقاب السادة والأمراء. ولاشك أن هذا النظام اللامركزى كان عاملا كبيرا فى تجزئة البلاد وهو أسلوب فى الحكم توارثه عن أسرة اليعاربة[٣]. وقد شهد الإمام أحمد بنفسه فى أخريات حياته الآثار السيئة التى نجمت عن هذا الأسلوب حيث كان يضطر فى كثير من الأحيان للتدخل بهدف إحلال السلام بين أبنائه أحيانا، أو الدفاع عن نفسه ضد تكتل كانوا يقومون به ضده أحيانا أخرى، وخاصة

---

(١) دونالد هولى: مرجع سبق ذكره ص ٤٤.

(٢) محمود على الداود: مرجع سبق ذكره ص ص ٢٢/ ٢٣.

(٣) Kelly, J., Britain and the Persian Gulf pp. 19-20.

حين تحالف بعض أبنائه مع بنى جبر. وكان الأخيرون رغم مساعدتهم للإمام أحمد فى بداية تأسيس سلطته سببا فى الفوضى التى حدثت نتيجة الصراع بينه وبين أبنائه حيث كانوا يعتبرون أنفسهم أخوالا لهم بحكم مصاهرتهم لهم. وعندما قام الإمام أحمد بتشديد الحصار على المتمردين من أبنائه فى حصون مسقط استنجد جبر محمد الجبرى بصقر بن رحمة شيخ القواسم، وتمكن الشيخان من إعداد قوة زحفا بها على الرستاق فى عام ١٧٨١ مما اضطر الإمام أحمد أن يرفع الحصار عن حصون مسقط والتصالح مع أبنائه[١]. وفى عام ١٧٨٣ مات الإمام أحمد ودفن بعاصمته الرستاق، وانتقلت الإمامة من بعده إلى ابنه سعيد بدلا من هلال الذى كان مرشحا للإمامة باعتباره الإبن الأكبر إلا أنه كان يعانى مرضا فى عينيه دعاه إلى الذهاب إلى بومباى للعلاج حيث مات هناك.

ومما يستلفت النظر أنه على الرغم من أن النظام الإباضى ينص على البيعة بالإمامة إلا أن أسرة البوسعيد شأنها فى ذلك شأن أسرة اليعاربة توارثت الإمامة التى كانت تتم بالبيعة مراعاة للتقاليد الدينية. كما توارثت أسرة البوسعيد عن أسرة اليعاربة أيضا أسلوبها فى الحكم حيث كانت تعهد - حفاظا على وحدة العائلة - للكثير من أفرادها بالولاية على المقاطعات الخاضعة للدولة، ولاشك أن هذا الأسلوب من الحكم دفع بعض الباحثين إلى التأكيد بأن اختيار الإمام المنتخب من الأسرة كان يتوقف على نقاط ضعفه وليس على نقاط قوته حتى يتاح لأعضاء الأسرة نصيبا أوفر فى الحكم[٢] الذى أخذ يتطور إلى حدوث ثنائية فى السلطة، ونعنى بذلك ظهور حكم دينى فى الداخل وحكم زمنى فى الساحل، ووضح ذلك على عهد الإمام سعيد بن الإمام حين مهد اضطراب الأمور لابنه حمد بن سعيد إلى الاستحواذ على سلطة والده بيد أنه لم يفكر فى أخذ البيعة لنفسه بالإمامة إذ أنه لو فعل ذلك لتعين عليه أن يخلع والده، ومن ثم اكتفى بلقب السيد وهو لقب تعظيمى فيما يبدو بدأ استخدامه منذ تولى الإمام أحمد بن سعيد كأسلوب لتمييز

---

(١) عبداللطيف الحميدان: نفوذ الجبور فى شرق الجزيرة العربية العدد ١٧ من مجلة كلية الآداب، جامعة البصرة ١٩٨١.

(٢) دونالد هولى: مرجع سبق ذكره، ص ٣٠.

الأسرة الحاكمة عن رعاياها[1]. وهكذا يعد عهد السيد حمد بن سعيد بداية للانفصال بين السلطة الزمنية والروحية والذى تطور فيما بعد إلى حدوث الانفصال بين الإمامة والسلطنة، فعلى حين انعزل الإمام سعيد بن الإمام فى عاصمته الدينية فى الرستاق استقر إبنه حمد بن سعيد فى مسقط حيث بدأت القوى الأوربية تخطب وده وتتعامل معه كما لو كان هو صاحب السلطة الشرعية فى البلاد، وكانت القوى الأوربية يعنيها بطبيعة الحال التعامل مع حكام الساحل وليس مع الإمام الذى عاش فترة طويلة فى الداخل على هامش الحياة[2]

وعقب وفاة السيد حمد بن سعيد فى عام ١٧٩٣ آل الحكم فى مقاطعات الساحل إلى السيد سلطان بن أحمد ١٧٩٣ ـ ١٨٠٤. وتميز عهده بتدعيم الوضع السياسى فى مسقط ورغم ذلك فإن وفاته فى عام ١٨٠٤ عرضت مسقط لهزات داخلية حين برز التنافس بين بدر بن سيف الذى تولى الوصاية على سعيد بن سلطان الذى خلف والده فى الحكم وكان لا يزال حدثا صغيرا، وبين الشيخ محمد بن ناصر الجبرى الذى اعتبر نفسه نتيجة مصاهرة سلطان بن أحمد لبنى جبر الوصى الشرعى على أبنائه من بعده، وحين نجح السيد سعيد بن سلطان فى عام ١٨٠٦ فى الوصول إلى الحكم فى مسقط بدأ عهده بضرب المتنازعين على الوصاية عليه إذ إن اختيار سعيد بن سلطان لقلعة الشيخ الجبرى وقتله بدر بن سيف فيها ثم الصاق تهمة القتل لشيخها أتاحت له فرصة القائه فى السجن وانتزاع سمائل منه فى عام ١٨٠٧، ولا شك أن هذه الضربة التى وجهها السيد سعيد بن سلطان لبنى جبر فى بداية عهده بالسلطة جعلتهم يتحولون إلى طلب العون من السعوديين وإن كانوا قد عادوا إلى موالاة السيد سعيد على أثر تحطيم الدولة السعودية الأولى فى عام ١٨١٨، كما أن السيد سعيد من جانبه حاول الاستعانه بنفوذهم من أجل السيطرة على البحرين بحكم علاقة الجبور القديمة بها. وعلى الرغم من أن بنى جبر كان مقدرا لهم فى ظل روابطهم الوثيقة بالسيد سعيد أن يكتسبوا نفوذا كبيرا فى عمان إلا أنه حال دون ذلك اعتناقهم لدعوة السلفية (الوهابية) مما أدى إلى

(١) Kelly J., op.cit., P. 20.

(٢) دونالد هولى: مرجع سبق ذكره ص٤٧.

تقليل شعبيتهم بين إباضية عمان حتى أن السالمى يذكر أنه بعد أن ضعفت سلطة السيد سعيد بن سلطان «كان هنالك خوف شديد فى أن يتولى السلطة فى عمان الجائر الظالم محمد بن ناصر الجبرى فلا يؤمن منه إذا تمكن من عمان أن يدعو الناس إلى مذهب الجور والعدوان». والأمر الذى لا شك فيه أن انهيار شعبية الجبور فى عمان كانت هى السبب فى انهيار نفوذهم السياسى وأصبح شأنهم فى عمان شأن غيرهم من القبائل التى ليس لها تأثير فى الحياة السياسية العامة[1].

استمرار تدهور العلاقات العمانية الفارسية.

استطاعت عمان بعد تخلصها من الاحتلال الفارسى أن تصل إلى السيادة على كثير من السواحل والجزر والموانى الواقعة على الساحل الشرقى للخليج، ولعل النجاح الذى أحرزته عمان كما أحرزته كثير من القوى العربية المجاورة لها كان يرتبط بإغتيال نادر شاه فى عام ١٧٤٧، إذ استطاع الإمام أحمد بن سعيد بفضل توثيق صلاته مع كثير من القبائل العربية التى تسكن على الساحل الشرقى من الخليج وخاصة قبائل بنى كعب وبنى معن أن يحتفظ بالسيادة العربية على ذلك الساحل، وإضعاف محاولات كريم خان الزندى (١٧٥٦ ـ ١٧٧٩) فى استعادة السيادة الفارسية[2]. وكان ذلك مما جره إلى نزاع مباشر مع كريم خان الزندى بعد أن توطدت سلطته فى شيراز، وتمكن أن يعيد الاستقرار لفارس بعد فترة من الفوضى دامت ما يقرب من عشر سنوات بعد اغتيال نادر شاه. وظهر النزاع بين كريم خان وأحمد بن سعيد الذى تزعم تحالف القبائل العربية فى الخليج بسبب حوادث محلية ثم تطور الأمر إلى مطالبة كريم خان الزندى باستعادة السيادة الفارسية على عمان، استنادا إلى خضوعها لفارس على عهد نادر شاه خلال الفترة من ١٧٣٨ إلى ١٧٤٤، ولذلك طلب من الإمام أحمد بن سعيد دفع الضرائب السنوية المتأخرة على عمان وكان من الطبيعى أن يرفض الإمام أحمد دفع أية أموال لفارس وجاء فى الرد الذى بعث به إلى كريم خان فى عام ١٧٦٩ بأن الضريبة

---

(١) عبداللطيف الحميدان: مرجع سبق ذكره العدد ١٧، مجلة كلية الآداب جامعة البصرة ١٩٨١.

(٢) ج.ج. لوريمر: مصدر سبق ذكره جـ١ ص ص ١٧٨/١٧٩.

التى كانت تدفعها عمان إلى فارس على عـهد نادر شاه لم يكن الدافع إليها أحقية فارس لها بقـدر ما كانت سيـاسة انتهجهـا هو حينما كان واليا عـلى صحار لكى يتخلص مـن متاعب نادر شـاه، ولكن الأمر يخـتلف قدر الاختـلاف بين رجلين فالأول ـ ويعنى نادر شاه ـ كان فاتح فارس كلها أما الثانى ـ ويعنى كريم خان ـ لا يعدو أن يكون وكيلا على إقليمـين أو ثلاثة من أقاليمها[1]. وكان من الطبيعى أن يترتب على ذلك التحـدى أو تلك الإهانة التى وجهها أحمد بن سـعيد إلى كريم خان توتر العلاقات بينـهما، وظهر ذلك واضحا حين أراد كـريم خان أن يتعرض إلى عمان وأرسل قوات كبـيرة عبرت جزيرة لنجة؛ وعندما علم أحـمد بن سعيد بذلك بادر بحـصار الفـرس فى تلك الجـزيرة حتى طلبـوا الأمان وانسـحبـوا إلى ديارهم[2]، فى الوقت الذى قام فيـه الإمام أحمد بن سعيـد فى عام ١٧٧٠ بغارة على ميناء بوشهر مطالبا بترضية كافـيه تعويضا لاستيلاء الفرس على بعض السفن العمانية التى كـانت راسية فى بعض الموانى الفارسية. كمـا تزعم الإمام أحمد بن سعـيد حلفـا ضم إليه شـيخ القواسم وشـيخ هرمز وأصـاب جزءا من السـواحل الشرقية بـبعض الأضرار. ولم يلبث كريم خان وقد شغلتـه المنازعات الداخلية فى فارس أن فوض الشيخ نصر آل مذكور حاكم بوشـهر فى التعامل مع عمان إما فى عقد الصلح أو مواصلة الحرب.

بيد أن الصراع العـمانى الفارسى ظهر واضحا فى عـام ١٧٧٥، حين اتجه كريم خان إلى السيطرة على البصرة خلال صراعه مع الدولة العثمانية، وكان كريم خان قد مهد لحصار البصرة بضرب القوى العربية المتحالفة مع عمان وخاصة قبائل بنى كعب حـيث دمر مدينة الدورق عاصـمة الإقليم الذى تشغله تلك القـبائل فى منطقة شط العرب. وعلى أثر نجاح كريم خـان فى فرض الحصار على البصرة فى عام ١٧٧٦ استنجد سكانها بالإمام أحمد بـن سعيد الذى بادر بإرسال حملة بقيادة بعض من أبنائه، وحينمـا وصلت إلى هناك وجدت أن الفرس قـد صنعوا سلسلة

(1) Bombay Govrnment, Selections from the Records vol. XXIV see Historical Sketch of the Rise and Progress of the Govt. of Muscat. Bombay 1856. P. 170

(٢) سرحان بن سعيد الإزكوى: كشف الغمة ص١٥٨.

من الحديد لكى يقطعوا على العمانيين الدخول[١]. واستطاعت السفن العمانية التى بلغت اثنتى عشر سفينة بقواتها التى تزيد على عشرة آلاف مقاتل أن تطهر منطقة شط العرب من التغلغل الفارسى كما تمكنت السفينة رحمانى أن تحطم السلسلة الحديدية التى وضعها الفرس لعرقلة الملاحة وبذلك تمكن الأسطول العمانى من السيطرة على شط العرب وفتح الملاحة فيه فى عام ١٧٧٩ [٢]. وقد أشاد السلطان العثمانى مصطفى الثالث بتلك المساعدة التى قدمها العمانيون للدولة العثمانية حتى أنه أصدر فرمانا يقضى بدفع مساعدة مالية سنوية إلى إمام عمان، ومما يذكر أن هذه المساعدة استمرت نافذة حتى بداية عهد السيد سعيد بن سلطان[٣].

والجدير بالذكر أن كريم خان كان يتحين الظروف الملائمة للسيطرة على مسقط فعلى أثر حصاره للبصرة طلب إعداد خطة للزحف إلى مسقط، ولكن هذه الخطة لم تنفذ بسبب اضطراره لفك الحصار فى عام ١٧٧٩ بالإضافة إلى أن فارس نفسها أخذت تتراجع عن مكان الصدارة والقوة بين بلدان الخليج خاصة بعد إغتيال كريم خان الزندى فى نفس ذلك العام حتى أصبحت من أكثر البلدان ضعفا وأسوأها نظاما نتيجة الصراعات التى قامت بين ورثة كريم خان للوصول إلى السلطة فى فارس، ومما يؤكد ذلك أنه فى خلال ثمانية عشر عاما من وفاة كريم خان تولى الحكم سبعة من أفراد أسرته الزندية فقدوا نفوذهم الخارجى والداخلى حيث خرجت أقاليم كثيرة عن السلطة المركزية واستمر الوضع المفكك قائما حتى قيام أسرة قاجار بمسئوليات الحكم فى فارس فى عام ١٧٩٧[٤].

والأمر الذى لا شك فيه أن فترة التدهور والانحلال التى عاشتها فارس خلال الفترة من ١٧٧٩ إلى ١٧٩٧ أفسحت المجال لعمان لتأكيد نفوذها على

---

(١) المصدر السابق ص١٥٩.

(٢) مصطفى عبدالقادر النجار: التاريخ السياسى لمشكلة الحدود الشرقية للوطن العربى فى منطقة شط العرب دراسة وثائقية البصرة ١٩٧٤، ص ص ٥٧ ـ ٥٨.

(٣) Bombay Govt., op. cit., The Rise and Progress of the Govt. of Muscat. p. 172.

(٤) ج.ج: لوريمر: مصدر سبق ذكره جـ١ ص٢٢ ومابعدها.

السواحل الشرقية للخليج العربى بل وإلى قيام حكم عمانى على أجزاء كبيرة من هذا الساحل بما فى ذلك جزره وموانئه [١]. كما انفسح المجال للقوى العربية الأخرى بما فى ذلك القواسم وبنو كعب للبروز إلى القوة، إلى جانب أحد فروع العتوب وهم آل خليفة فى السيطرة على الزبارة والوثوب منها إلى حكم البحرين بعد تخليصها من السيادة الفارسية، حيث تم تأسيس حكم عربى مستقر منذ عام ١٧٨٣، وسوف نتعرض إلى ذلك فى حينه ولكننا نشير الآن إلى أن أبرز ما حققته عمان هو نجاحها فى السيطرة على ميناء عباس بملحقاته جوادور وشهبار، وكان ذلك على عهد السيد سلطان بن أحمد ١٧٩٣ - ١٨٠٤ التى كانت حروبه وفتوحاته فى السواحل الجنوبية الشرقية للخليج على عهد فتح على شاه من أهم الأعمال التى قام بها. فعلى أثر وصوله إلى الحكم فى عام ١٧٩٣ قام بإرسال حملة إلى سواحل مكران نجحت فى الاستيلاء على جوادور وعين فيها حاكما من قبله كما نجح فى السيطرة على شهبار، وفى العام التالى تمكن سلطان بن أحمد من السيطرة على قشم وهنجام وقاد بنفسه حملة على بنى معن، وهى قبائل عربية كانت تحكم هذه المناطق بفرمان من الشاه، وتمكن من الاستيلاء على هاتين الجزيرتين وسيطر بذلك على مدخل الخليج، وترتب على ذلك تحول الضرائب التى كانت تؤخذ إيجارا لميناء بندر عباس وما جاوره بما فى ذلك ميناء ميناب وجزر هرمز وقشم وهنجام من شيوخ بنى معن إلى حاكم مسقط. ولم يكن هذا الإيجار السنوى يزيد على ستة آلاف تومان فارسى قبلت حكومة مسقط دفعها إلى فارس بمثابة إيجار سنوى لهذه المناطق التى أصبحت تحت إدارتها. ولم يكن هذا الإيجار إلا بمثابة ترضية لفارس إذ كانت مسقط فى حقيقة الأمر تتصرف فى هذه المناطق تصرف صاحب الأمر [٢].

ويمكننا أن نؤكد ذلك استنادا إلى الاتفاقية التى وقعها سلطان بن أحمد مع شركة الهند الشرقية البريطانية فى عام ١٧٩٨ إذ نصت المادة السابعة من تلك الاتفاقية على أن يسمح سلطان مسقط للإنجليز بإنشاء قاعدة فى بندر عباس وإبقاء

---

(١) Curzon, G., Persia and the Persian Question London 1890 vol. II P. 423.

(٢) Sykes, History of Persia London 1951 vol. II. p. 456.

حامية عسكرية، بها ومن الثابت أن سلطان بن أحمد منح تلك الامتيازات دون أن يرجع فى ذلك إلى الحكومة الفارسية مما يؤكد أن مسقط كانت تتصرف فى هذه المناطق تصرف المالك المستقل.

على أنه ينبغى أن نلاحظ أن التفوق العمانى لم يلبث أن تعرض للضعف حين بدأ الإنجليز يحرصون أثناء تغلغلهم فى الخليج العربى منذ السنوات الأولى من القرن التاسع عشر على موازنة القوى العربية بالقوى الفارسية تحقيقا لمصالحهم الاستعمارية، وسوف يتضح لنا ذلك من موقف الإنجليز من الإدارة العمانية على السواحل الشرقية للخليج العربى فحينما حاولت فارس عقب إغتيال سلطان بن أحمد فى عام ١٨٠٤ تجريد سلطنة مسقط من توابعها فى السواحل الشرقية وذلك بتحريضها شيوخ بنى معن فى استعادة بندر عباس وميناب قام بدر بن سيف الذى كان وصيا على السيد سعيد بن سلطان بمواجهة الموقف ولكنه وجد عدم استجابة من الإنجليز على الرغم من أنه انتهز فرصة قيامهم بحملة ١٨٠٥ لضرب القواسم لكى يشترك فى هذه الحملة التى كان يقودها الكابتن Seton [١]، ونجح فى توجيهها بعد تحطيمها لرأس الخيمة إلى الساحل الشرقى للخليج فاستعاد بندر عباس من شيوخ بنى معن، ونجح فى تخليص ميناب من الحصار الذى كان قد فرضه الفرس على ذلك الميناء حتى أن الكابتن سيتون كتب تقريرا إلى حكومته يؤكد فيه أن السيد بدر بن سيف كان يرى استعادة توابع عمان فى الساحل الشرقى من الخليج عملا أكثر أهمية من مكافحة القرصنة ومقدما عليها وأنه إذا لم يكن هو نفسه موجودا لقام بدر بأعمال عدائية أكثر عنفا.

وعلى الرغم من أن السيد بدر بن سيف عرض على حكومة بومباى إنشاء قاعدة عسكرية لها فى بندر عباس إلا أن حكومة بومباى رأت عدم تنفيذ ذلك بالنظر إلى ضرورة الحصول على موافقة الحكومة الفارسية. ومن الواضح أن ذلك

(١) Bombay Govt., op. cit., vol. XXIV cf. Historical Sketch of the Joasmee Tribe of Arabs P. 299 See also Goldsmid, F., Telegraph and Travel, A Narrative of the formation and development of telegraphic communication between England and India under the orders of Her Majesty's Govt. with incidental notices of the Countries traversed by the Lines London 1874 pp. 235- 236

الموقف كان يتناقض تناقضا كبيرا مع موقفها حين ألحت على سلطان بن أحمد فى عام ١٧٩٨ عند توقيع الإتفاقية معه على أن يسمح لها بإنشاء تلك القاعدة. ولعل ذلك التحول كان يرتبط بزوال الخطر الفرنسى الذى كان يتهددها عند عقد الإتفاقية السابقة وذلك برحيل الفرنسيين من مصر فى عام ١٨٠١ واتجاهها إلى تحقيق التوازن بين القوى العربية والفارسية فى الخليج، وهى السياسة التى انتهجتها خلال القرن التاسع عشر. وتنفيذا لتلك السياسة أخذت تقف إلى جانب فارس خلال المنازعات التى قامت بينها وبين سلطنة مسقط بشأن حقوق السيادة على بندر عباس وتوابعه، وكانت فارس تتحين الظروف التى تسمح لها لكى تجرد سلطنة مسقط من سيطرتها على هذه المناطق.

وعلى الرغم من أن سلاطنة مسقط نجحوا فى الاحتفاظ بتبعية تلك المناطق لسيادتهم حتى النصف الثانى من القرن التاسع عشر إلا أنهم اضطروا فى كثير من الأوقات إلى رفع قيمة الإيجار السنوى الذى كان يدفع إلى الحكومة الفارسية. ولا شك أن موقف بريطانيا كان عاملا قويا فى تقليص الحكم العمانى من السواحل الشرقية للخليج، ويظهر ذلك حين اتجه السيد سعيد بن سلطان فى عام ١٨٢٦ للسيطرة على بوشهر وكاد ينجح فى حملته هذه لولا تدخل المقيم البريطانى فى الخليج الذى أقنعه بعدم تدمير الميناء مراعاة للصداقة القائمة بينه وبين الحكومة البريطانية بسبب وجود المقيمية البريطانية فى بوشهر.

ومما هو جدير بالذكر أن فارس انتهزت فرصة غياب السيد سعيد المستمر عن مسقط بعد نقله مقر الحكم إلى زنجبار فى عام ١٨٣٢ لكى تعيد سيطرتها على السواحل الشرقية للخليج، ولم تظهر بريطانيا تحمسا لمساعدة السيد سعيد فى الاحتفاظ بنفوذه فى تلك المناطق باستثناء مقاطعة جوادور التى أصرت بريطانيا على استبقاء تبعيتها لسلطنة مسقط وكان ذلك لمصلحتها فى مد الخطوط البرقية التى كانت تمر بها[١]. بقى أن نسجل إعجاب كثير من الرحالة الأوروبيين الذين زاروا الجزر والموانى الواقعة على السواحل الشرقية للخليج والتى كانت تخضع لإدارة

---

(١) Goldsmid, op. cit., PP. 236-278 See also Sykes, op. cit., vol. II. pp. 423- 425.

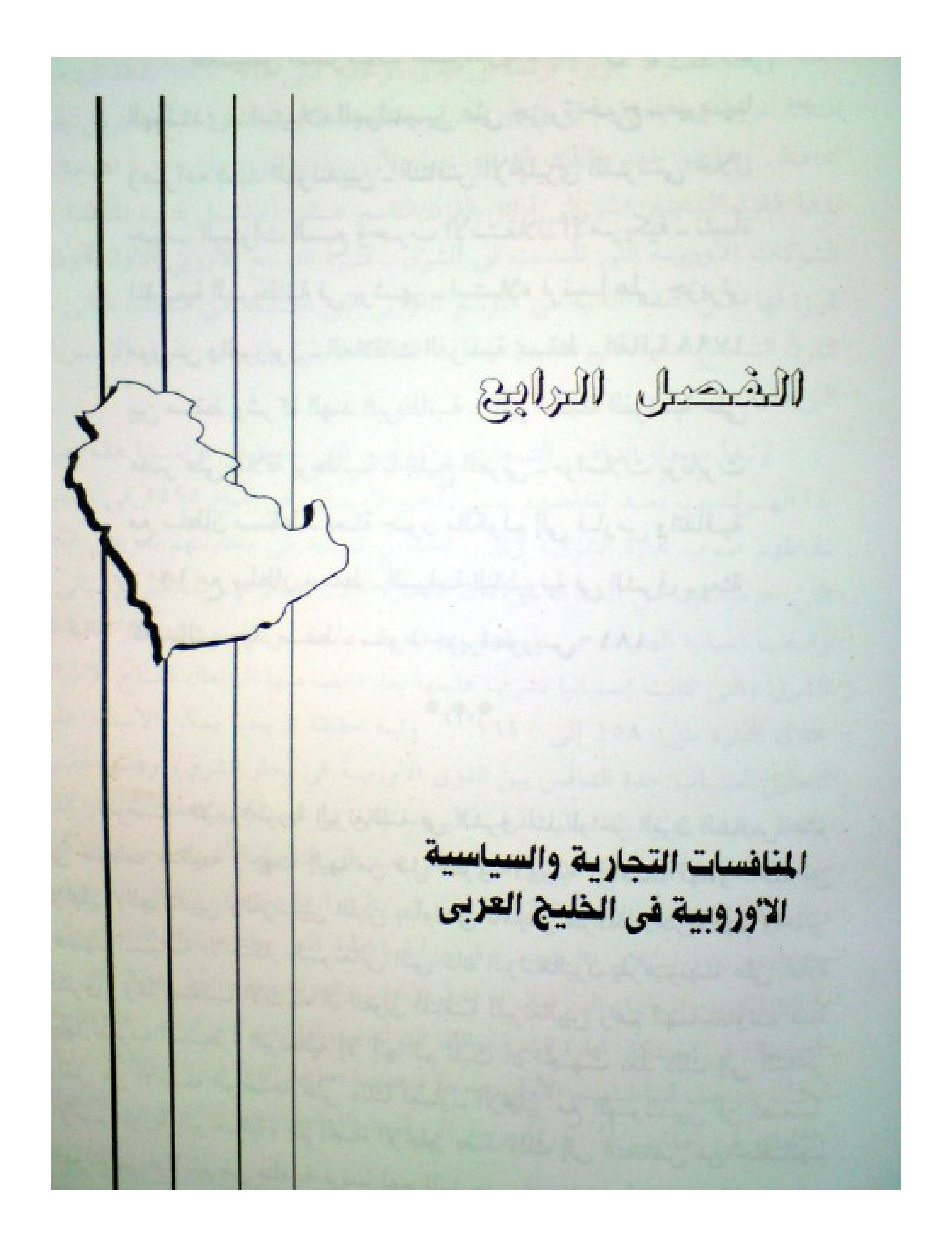
مسقط، ومن أبرز أولئك الرحالة وليام بالجراف Palgrave الذى وصف الإدارة العربية بأنها إدارة ناجحة وتفوق بدرجة كبيرة الإدارة الفارسية السيئة بما اتصفت به من مظالم وإجحاف. ومما تجدر الإشارة إليه أن بالجراف قام برحلاته بين عامى ١٨٦٢ و ١٨٦٣ أى عقب الفترة التى شهدت إنهيار سيادة مسقط على تلك الموانى ولذلك كانت المعلومات التى استقاها تشير إلى الانكماش الذى حدث فى تلك الموانى بالمقارنة إلى فترة الازدهار التى كانت عليها والتى بفضلها استطاعت أن تجتذب إليها كثير من التجار من مختلف العناصر وكان ذلك بفضل سياسة التسامح الدينى والحرية الاقتصادية التى اتبعها سلاطنة مسقط فى إدارتهم، وبفضل الحكام العرب الذين عينوا عليها من قبلهم مما أدى إلى انتعاش التجارة مع الهند حيث ألغيت الضرائب واعتبر كل من ميناء بندر عباس وميناء لنجة ميناء حرا وكان ذلك على عهد السيد سعيد بن سلطان(١).

وأخيرا، قد يكون من المفيد أن نشير إلى نجاح السيد سعيد فى السيطرة على إقليم ظفار فى عام ١٨٢٩، ورغم كون ظفار من الأقاليم العمانية إلا أن ذلك الإقليم كاد يكون منغلقا على نفسه بحيث أصبح تاريخه غير متماسك مع تاريخ السلطنة. حقيقة أن هذا الإقليم خضع للسيطرة البرتغالية مثل غيره من أقاليم عمان الأخرى ثم استولى عليه اليعاربة والبوسعيد إلا أن بعد الإقليم أتاح الفرصة لبعض الأسر أو المغامرين بالاستقلال به، ولعل إغتيال السيد محمد بن عقيل العجايبى الذى كان يحكم الإقليم ويتخذ من صلاله مركزا لحكمه فى عام ١٨٢٩ هو الذى شجع السيد سعيد على إرسال حملة نجحت فى ضمه إلى السلطنة، وعين السيد سعيد أحد إخوة القتيل واليا على ظفار. ولم تلبث القوات العمانية أن انسحبت للحاجة إليها فى شرق إفريقيا وأصبحت الشخصية المسيطرة هى شخصية عبد الله لورليد، وهو أمريكى الأصل كان محمد بن عقيل قد أسره من إحدى السفن الأمريكية واستطاع أن يصل إلى حكم ظفار فى عام ١٨٣٦، وخلفته طائفة أخرى من المغامرين، وأصبح الأقليم يعيش بعيدا عن السيطرة العمانية حتى نجح السيد تركى بن سعيد فى إعادة ضمه إلى السلطنة وكان ذلك فى عام ١٨٧٩(٢).

(١) Palgrave, W.G., Narrative of a year's Journey through Central and Eastren Arabia vol. II P. 288 SQ See also Personal Narrative London 1879 P. 392.

(٢) ج.ج. لوريمر: مصدر سبق ذكره جـ٢ ص ص ٨٩٧ - ٨٩٨.





الفصل الرابع

المنافسات التجارية والسياسية الأوروبية فى الخليج العربى

تأسيس الشركات التجارية ـ التنافس الإنجليزى الهولندى ـ استيلاء الهولنديين على جزيرة خرج ـ ميرمهنا وصراعه ضد الهولنديين ـ التنافس الإنجليزى الفرنسى خلال حرب السنوات السبع وحرب الاستقلال الأمريكية ـ نشأة المقيمية البريطانية فى بوشهر ـ استيلاء فرنسا على جزيرتى موريس والبوربون ـ العلاقات الفرنسية بمسقط ـ اتفاقية ١٧٩٨ بين مسقط وشركة الهند البريطانية ـ تأثير الحملة الفرنسية على مصر على علاقة بريطانية بالخليج العربى ـ مراسلات بونابرت مع سلطان مسقط ـ بعثة جون مالكولم إلى فارس واتفاقية ١٨٠٠ مع سلطان مسقط ـ السياسة النابليونية فى الشرق ـ بعثة كافينياك ـ حياد مسقط ـ سقوط جزيرة موريس ١٨١٠.

* * *

تعرضت الإمبراطورية البرتغالية فى الشرق منذ أواخر القرن السادس عشر إلى ضربات متتالية وجهت إليها من قبل القوى الأوربية المنافسة لها،وخاصة من الإنجليز والهولنديين والفرنسيين الذين بدأوا فى تأسيس شركات تجارية لهم وأعلنوا رفضهم لسياسة الاحتكار البرتغالى التى كان البرتغاليون يفرضونها على تجارة الشرق. ومما يستفلت الانتباه أن القوى المنافسة للبرتغاليين رغم أنها تعاونت فيما بينها لضرب السيطرة البرتغالية إلا أنها لم تلبث أن اتجهت بعد ذلك إلى التناحر ولعل من الأمثلة الواضحة على ذلك تعاون الإنجليز مع الهولنديين فى تصفية الإمبراطورية البرتغالية، ثم اتجاه الإنجليز بعد ذلك إلى التخلص من حلفائهم الهولنديين أولا ثم من منافسة فرنسا لهم ثانيا حتى نجحوا فى تحقيق سيطرتهم على الهند وعلى الجزء الغربى من المحيط الهندى.

ويعد سقـوط جزيرة فرنسا فى أيدى الإنجليز فـى عام ١٨١٠ نقطة البدء فى استئثار بريطانيـا بنفوذها فى بحار الشرق بصفة عامة ومنطقـة الخليج العربى بصفة خاصة. ومما هو جدير بالذكر أن المؤرخين الأوربيين يطلقون على الفترة الممتدة من بداية القرن السابـع عشر إلى أوائل القرن التاسع عـشر ـ وتشمل فتـرة المنافسة بين الشركات الأوربيـة التى تأسست فى الشرق ـ فتـرة التوسع الأوربى الأول، وذلك تمييزا لها عـن الفترة الثانية من التوسع الأوربى التى امـتدت من النصف الثانى من القرن التـاسع عشر حتى نشـوب الحرب العالمية الأولى وانتـهت بتفوق الإمبـريالية البريطانية.

وتبدأ مرحلة التنافس التـجارى والسياسى التى تعنينا فى دراسـتنا هذه حينما بدأ الهـولنديون بعـد تخلصهم مـن الحكم الإسبـانى فى عـام ١٥٩٥ فى توجيـه نشاطهم صوب تجارة الشرق، وتميزوا بحماس شـديد فى محاولتهم تعويض الفترة التى حرموا فيها من المشاركة فى تلك التجارة خلال خضوعهم للحكم الإسبانى إذ وضعت إسبانيا العقبات فى طريقهم بهدف حـرمانهم من المستعمرات البرتغالية فى الشرق والتى كانت إسـبانيا تشرف عليـها بعد اخضاعـها البرتغال للتـاج الإسبانى خلال الفترة من ١٥٨٠ إلى ١٦٤٠[١]. وثمة حقيقة تاريخية يمكن الاستناد عليها لتحليل أسـباب حدة التنافس بين القوى الأوربيـة فى بحار الشرق، وهذه الحقـيقة ترتبط ارتباطا كبيرا بانتشـار المذهب البروتستانتى فى أوربا إذ إن هذا الانتشار الذى صحب حركة الإصلاح الدينى كان له أثر بعيد فى التاريخ الآسيوى حيث أن أتباع المذهب الجديد من الإنجليز والهـولنديين لم يتقيدوا بما سبق أن سنة البـابا بمقتضى معـاهدة ترود يسيلاس الـشهيـرة فى يولية ١٤٩٤ التى حددت ممتلـكات الدولتين الكاثوليكيتين إسبانيا والبـرتغال إذ أخذ الإنجليز والهولنديون ينادون بإبطال كل حق للبرتغال فى احـتكار تجارة الشرق،وكان الهولنديون أول من تحـركوا فى هذا المجال حيث خرجت أساطيلهـم الأولى ميممة وجههـا صوب الهند فى عام ١٥٩٥ وسار الإنجليز فى أعقابهم[٢]. وربما يرجع إلى الرحـالة الهولندى جـان هوتن **Hotein**

(١) محـمود على الداود: تاريخ العلاقات الـهولندية فى الخليج العربى، مجلة كلية الآداب جامعـة بغداد ـ كانون الثانى ١٩٦٤، ص ص ٣ ـ ٥.

(٢) عبدالعزيز عبدالغنى: حكومة الهند البريطانية والإدارة فى الخليج العربى ـ دراسة وثائقية، الرياض ١٩٨٣ ص ١٣.

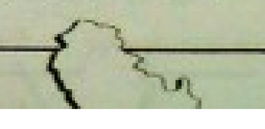
الفصل الأول فى جذب اهتمام الهولنديين إلى منطقة الخليج العربى، وكان ذلك حين قدم تقريرا عن رحلاته فى الشرق وفيه تحدث عن أهمية الخليج العربى فى تجارة الهند مما دفع هولندا إلى الحصول على مواقع لها فى بعض جزره وموانئه. كما شجعت الحكومة الهولندية بعض التجار الهولنديين على تأسيس شركة الهند الهولندية الشرقية التى اتخذت من باتافيا فى جزر الهند الشرقية مركزا لها، وكانت هى الشركة الأوربية الثانية التى ظهرت فى الشرق فى عام١٦٠٢ إذ سبقتها قبل فترة قليلة وعلى وجه التحديد قبل سنتين،شركة الهند الشرقية الإنجليزية التى أسسها جماعة من تجار لندن بمقتضى مرسوم ملكى حصلوا عليه من الملكة اليزابيث(١).

وعلى أثر تأسيس هاتين الشركتين أخذت المنافسات تحتدم بين البرتغاليين من ناحية وبين الهولنديين والإنجليز من ناحية أخرى. وهذه المنافسات بدأها الإنجليز ضد البرتغاليين مرتكزين فى ذلك على محالفتهم للهولنديين وصداقتهم للشاه عباس الكبير(١٥٨٧ ـ ١٦٢٩) حيث تمكنوا فى عام ١٦٢٢ من إسقاط حصن البرتغاليين الحصين فى جزيرة هرمز. على أنه ما كادت تترنح سيطرة البرتغاليين فى الخليج العربى حتى بدأ الحليفان ـ الإنجليز والهولنديون ـ يعملان على تصفية نفوذ كل منهما الآخر حتى تتاح الفرصة للجانب المنتصر الاستئثار بالتجارة فى فارس والخليج العربى. وقبل أن نعرض لهذه المرحلة تجدر الإشارة إلى أن تحالف الهولنديين مع الإنجليز قد أتاح لهم السيطرة على بعض المواقع فى الخليج العربى كان من أهمها جزيرة خرج التى تقع فى مواجهة ميناء بوشهر التى اتخذوا منها مقرا لحماية مصالحهم التجارية فى الخليج، وفى عام ١٦٢٣ قاموا بنقل وكالتهم التجارية التى كانت قائمة فى هرمز إلى ميناء بندر عباس وهو الميناء الجديد الذى أمر الشاه عباس ببنائه على أثر تدمير هرمز فى عام ١٦٢٢(٢). ولا شك أن كلا من القاعدة الهولندية فى خرج والوكالة التجارية التى تمكنوا من إنشائها فى بندر

---

(١) عن الجهود التى بذلها الإنجليز للوصول إلى أسواق الشرق وتأسيس شركة الهند الشرقية الإنجليزية راجع
Foster, W., England's Quest in Eastern Trade London 1933, P. 79 Sq

٢) صادق نشأت: تاريخ الخليج السياسى ص٦٩.



عباس قد ساعدتهم على تثبيت نفوذهم فى الخليج العربى خاصة بعد أن أخذ النفوذ البرتغالى ينحسر تدريجيا بعد الضربة التى تعرض لها البرتغاليون فى كل من هرمز ومسقط.

وقد عمل الهولنديون على إبراز وجودهم فى الخليج العربى والمحيط الهندى إذ أدركوا - وهم المتمرسون فى البحر والتجارة بسبب طبيعة بلادهم - الأهمية الحيوية لهاتين المنطقتين للتجارة العالمية، وأدى التفوق البحرى الهولندى إلى صراع بينهم وبين الإنجليز حلفائهم السابقين. وقد عنيت كثير من المصادر بتحليل أسباب التفوق البحرى الهولندى فى بحار الشرق، ولعل من أبرز الأسباب التى ذكرت بصدد ذلك أن الهولنديين كانوا يعتمدون على أسطول بحرى قوى، والأهم من ذلك تمكنوا من الحصول على اعتمادات مالية ضخمة من الحكومة الهولندية لصالح الشركة التجارية التى أنشأوها فى باتافيا حيث كان مؤسسو الشركة مرتبطين ارتباطا وثيقا بالحكومة الهولندية ويملكون التأثير عليها على عكس شركة الهند الشرقية الإنجليزية التى كان نشاطها مقصورا على مكاسبها التجارية فحسب.

وقد بدأ الصدام المباشر بين الإنجليز والهولنديين حينما رفض الهولنديون دفع الجمارك للإنجليز فى ميناء بندر عباس، وكان الإنجليز يستحوذون على نصف عوائد ذلك الميناء بمقتضى الامتياز الذى تحصلوا عليه من الشاه عباس الكبير نظير مساعدتهم له فى طرد البرتغاليين من هرمز، كما حاول الهولنديون التحالف مع البرتغاليين وكان ذلك عقب إعلان أوليفركروميل Cromwell الحرب على هولندا بسبب منافستها البحرية لإنجلترا، بيد أن التحالف الهولندى البرتغالى لم يقدر له الوصول إلى مرحلة التنفيذ[1]. وعلى أية حال فقد استطاع الهولنديون أن يزعزعوا النفوذ الإنجليزى فى فارس حين تمكنوا عقب وفاة الشاه عباس فى عام ١٦٢٩ من أن يحصلوا من خليفته الشاه صفى على امتيازات تجارية كانت تفوق بكثير الامتيازات التى سبق أن منحت للإنجليز، وكما يعلق أرنولد ويلسن Wilson أن فى بلاد مثل فارس تصبح جميع الاتفاقيات والمعاهدات والامتيازات التى يمنحها

(١) Wilson, A., The Persian Gulf p. 164 See also Bruce, John, Annals of the Honourable East India Company., vol. I London 1810 pp. 498- 499.

الحاكم ملغاة مالم يثبتها خلفه، وبما أن ذلك استغرق كثيرا من الوقت منذ وفاة الشاه عباس فقد عانت التجارة الإنجليزية من وضعها السئ؛ إذ انتهى الاحتكار الإنجليزى لتجارة الحرير وأخذ مركز الهولنديين يتفوق عليهم تفوقا ملحوظا وعانت التجارة الانجليزية من تعثر شديد فى فارس والخليج بسبب الامتيازات الواسعةالتى منحت للهولنديين. وأخذت الوكالة التجارية الهولندية تنشط نشاطا كبيرا فى بندر عباس حتى تمكن الهولنديون من الاستئثار بتجارة الخليج خلال الشطر الأعظم من القرن السابع عشر[1].

وعلى الرغم من كساد أعمال شركة الهند الشرقية الإنجليزية إلى درجة كانت تستدعى إغلاق الوكالات التجارية التابعة لها فى فارس إلا أن الإنجليز أبقوا على هذه الوكالات رغم إفلاسها خوفا من أن يقتلعهم الهولنديون نهائيا وخاصة أن الهولنديين بذلوا نشاطا كبيرا لتدعيم نفوذهم فى المقاطعات الفارسية بمختلف الوسائل بما فى ذلك أساليب الرشوة وبيع بضائعهم بأقل من تكلفتها الأساسية، كما دفعوا أثمانا مرتفعة لشراء الحرير الفارسى بأكثر مما كانت تطيقة قدرات الإنجليز. وأخذ الهولنديون بعد ذلك يمارسون ضغطا على الشاه لمنحهم مزيدا من الامتيازات التجارية، ولما فشلوا فى ضغوطهم الاقتصادية بدأوا يمارسون ضغوطا عسكرية فهاجموا جزيرة قشم مما اضطر الشاه إلى الإذعان لمطالبهم حيث تمكن الكوماندور بلوك الذى قاد أسطولا هولنديا كبيرا وصل به إلى بندر عباس فى ١٦٤٥ من أن يحصل من الشاه على امتياز يعطى الهولنديين حق احتكار تصدير الحرير من أى ميناء فارسى مع اعفائهم من العوائد الجمركية، وكان ذلك الامتياز بمثابة ضربة قاصمة وجهت للوكالات الإنجليزية فى فارس، وترك ذلك أثره على الخليج حيث اضطرت شركة الهند الشرقية الإنجليزية إلى نقل ممتلكاتها ووكالتها التجارية من بندر عباس إلى البصرة ضمانا لسلامتها من ناحية ولتعاظم النفوذ الهولندى من ناحية أخرى[2]. ولم يتوقف الهولنديون مع ذلك فى تتبع النفوذ الإنجليزى فى كل مكان ينتقلون إليه حتى أنهم أرسلوا أسطولا من ثمانى سفن كبيرة الحجم نجحوا بواسطته فى تحطيم الوكالة الإنجليزية التى كانت قد انتقلت إلى

(١) Bruce., J., op. cit., vol. Ipp. 498 - 500.

(٢) ج.ج لوريمر، مصدر سبق ذكره جـ١ ص٦٥.

البصرة، وبدا واضحا أنهم أصبحوا قادرين على انتزاع مزيد من الامتيازات من الحكومة الفارسية التى أصبحت تخشى من بأسهم. ولاشك أن طرد البرتغاليين من مسقط على أيدى اليعاربة فى عام ١٦٤٩ كان من أبرز العوامل التى زادت من ميل الكفة لصالح الهولنديين. ولعل تفوق النفوذ التجارى لهولندا كان مما دفع الإنجليز لإصدار قانون الملاحة والتجارة فى عام ١٦٥١، وكان هذا القانون يهدف أساسا إلى القضاء على تجارة هولندا البحرية، وفى العام التالى ١٦٥٢ أعلن كرومويل الحرب ضد هولندا. ومع ذلك فعلى الرغم من الإجراءات التى اتخذتها إنجلترا إلا أنها لم تؤد إلى إضعاف النفوذ الهولندى، ففى عام ١٦٥٤ نشبت معركة بين الأسطولين الهولندى والإنجليزى على مقربة من بندر عباس حيث نجح الهولنديون فى الاستيلاء على بعض السفن الإنجليزية وإغراق بعضها الآخر وأصبح الخليج فى يد الهولنديين بشكل مطلق إلى درجة توقف النشاط الإنجليزى توقفا تاما.

وهكذا أصبح الهولنديون متفوقين منذ النصف الثانى من القرن السابع عشر تفوقا تاما على المستوى العسكرى والتجارى، وبدأوا يعملون على تقوية نفوذهم فى الخليج، ففى عام ١٦٧٠ استأجرت شركة الهند الشرقية الهولندية إحدى الأبنية فى مسقط واتخذت منها مكتبا لتسهيل أمور البريد الخاص بها، وفى عام ١٦٧٢ نجح الهولنديون فى توطيد مركزهم فى كل من البصرة وبندر عباس[٢]، وفشل الإنجليز رغم محاولتهم التحالف مع اليعاربة فى عمان فى اقصاء الهولنديين عن تلك الأماكن التى أصبحت تحت نفوذهم[٣].

وأخذ النفوذ الهولندى يتجه إلى التصاعد فى عام ١٦٧٧ كما يفهم ذلك مما ذكره جون فرير Fryer عند زيارته للخليج فى ذلك العام[٤]. ولكن مما يسترعى الانتباه بعد ذلك التدهور المفاجئ الذى تعرض له النفوذ الهولندى فى الخليج

(١) ولسن: مصدر سبق ذكره ص ١٣٥.
(٢) دونالد هولى: مرجع سبق ذكره ص٣٣.
(٣) عبدالعزيز عبدالغنى: مرجع سبق ذكره ص٧٨.
(٤) Fryer, John, A New Account of East India and Persia being Nine Years Travels 1672 - 1681 London 1912 - vol. II pp. 163-164.

العربى والمحيط الهندى، ولعل أبرز عوامل ذلك التدهور ترجع فى أسبابها إلى الحروب المتتابعة التى خاضتها هولندا ضد انجلترا خلال الفترة بين عامى ١٦٥٢ و ١٦٧٤ ؛ إذ نتج عن تلك الحروب استنزاف شديد لقوة الهولنديين البحرية والعسكرية، وازداد الأمر سوءا بالصراع الذى نشب بين هولندا وفرنسا فى عام ١٦٧٤ على عهد لويس الرابع عشر ١٦٤٣ - ١٧١٥، وكان ذلك سببا دفع بالإنجليز والهولنديين إلى تسوية خلافاتهم السابقة وتوحيد جهودهم ضد العدو المشترك، ولكن الإنجليز تمكنوا فى ظل تحالفهم مع الهولنديين أن ينتزعوا منهم مراكزهم واحدا بعد آخر، وفوق ذلك أسفرت الثورة العظمى التى حدثت فى انجلترا فى عام ١٦٨٨ عن اقصاء جيمس الثانى عن العرش وارتقاء ابنته مارى وزوجها وليم أوف أورانج العرش كملكين مشتركين، وأصبحت المصالح الهولندية فى ظل ذلك الاتحاد تابعة للمصالح الانجليزية واستمر ذلك الوضع قائما حتى عام ١٦٩٧.

ومما يسترعى الانتباه أنه على الرغم من احتدام المنافسة بين القوى البحرية الثلاث انجلترا - هولندا - فرنسا خلال السنوات الأخيرة من القرن السابع عشر إلا أن ذلك التنافس لم يحل بينهم وبين توحيد مصالحهم والدفاع عنها ضد الأخطار التى كانت تهددها، ومن المناسب الإشارة بصدد ذلك إلى الكابتن كيلهام Cilham والكبتن كيد Ked، وهما نموذجان فريدان للمغامرين المشهورين فى تاريخ القرصنة البحرية فى بحار الشرق اللذان استطاعا أن يرأسا طائفة من القراصنة الأوربيين وأن يحيلا الجزء الغربى من المحيط الهندى وسواحل الخليج العربى والبحر الأحمر إلى ميادين صاخبة من السلب والنهب، وأن يسببا ازعاجا للدول البحرية. ولعل ظهور هذين المغامرين وأمثالهما دفع بإنجلترا وفرنسا وهولندا رغم المنافسات الشديدة التى كانت قائمة فيما بينها إلى عقد الاتفاقيات الخاصة بقمع القرصنة البحرية حماية لمصالحها التجارية، ولعل من أبرزها اتفاقية ١٧٠٠ التى تعهدت هولندا بموجبها بالمحافظة على سلامة الملاحة فى البحر الأحمر وميناء عدن، وتعهدت إنجلترا بالمحافظة على سلامة الملاحة فى المحيط الهندى، وفرنسا بتأمين مضيق هرمز باعتباره مدخلا جنوبيا للخليج العربى[1]. ويستلفت النظر فى هذه الاتفاقية تدهور

(1) Wilson, A., op. cit., p. 195.

النفوذ الهولندى فى الخليج العربى بحيث ترك لفرنسا وليس لهولندا مسئولية الملاحة فيه، كما يستلفت النظر أيضا أن تجارة الانجليز فى الخليج لم تبلغ الدرجة التى تجعلهم يتشبثون بحماية الملاحة فى مياهه.

والحقيقة أن القرن الثامن عشر شهد انهيارا فى النفوذ الهولندى فى الخليج العربى مقارنا بالنفوذين الفرنسى والانجليزى، ولعل ذلك كان يرتبط بالضعف العام الذى انتاب هولندا كدولة فى مستهل ذلك القرن. وأخذت التجارة الهولندية تتعرض لضربات شديدة فى فارس وخاصة بعد أن أظهر الشاه حسين ـ وهو آخر من احتفظ بهيبته من الأسرة الصفوية ـ ميلا واضحا للإنجليز فزار وكالتهم فى أصفهان فى عام ١٦٩٩ بينما رفض زيارة الوكالة الهولندية فى بندر عباس. كما أخذت علاقة فارس بالهولنديين تزداد سوءا بدليل إقدام الهولنديين فى عام ١٧٣٠ على إغلاق وكالتهم فى بندر عباس وفضلوا نقلها إلى البصرة وإن كانوا قد عادوا من جديد لمحاولة كسب نفوذ فى فارس عن طريق تقديم مساعدات بحرية لنادر شاه الافشارى الذى وصل إلى الحكم فى عام ١٧٢٨ حيث أمده الهولنديون بمساعدة بحرية فى الحملة التى قام بها إلى الساحل العمانى ومسقط فى عام ١٧٣٨، كما قدموا له مساعدتهم لقمع ثورة الملاحين العرب فى الأسطول الفارسى فى عام ١٧٤٠، وكان الملاحون العرب قد تمكنوا من السيطرة على معظم قطع الأسطول، كما وصلت سيطرتهم إلى مداخل ومخارج الخليج من مسقط حتى شط العرب(١)، ومن أجل ذلك تقدمت بعض السفن الهولندية ومن بينها السفينة ميدرنكMiddenrak بإحباط تلك الثورة والتصدى لبعض السفن العربية فى الخليج(٢). وتمكن الهولنديون بفضل المساعدات التى قدموها إلى نادر شاه من إنعاش تجارتهم حتى أنهم بادروا فى عام ١٧٤٧ إلى فتح وكالة تجارية فى بوشهر وكان ذلك بدعوة رسمية من حاكم الميناء، كما أعادوا فتح وكالتهم فى بندر عباس فى عام ١٧٥٢ وإن لم تستمر هاتان الوكالتان طويلا بسبب ما أقدم عليه الشيخ

---

(١) Letter from the Political Consul in Gombroon to Batavia cf. Report on an incident when the Persian fleet was thrown off anchor by a gale in front of Gombroon Voc 2546.

(٢) Encounter between some Arabs and the Middernak - voc. 2546 - Papers received from the Colonies in Holland in 1742 vol. 34.

نصر حاكم إقليم فارستان من مطالبة الهولنديين بضرائب باهظة هذا فضلا عن تعرض الهولنديين لمنافسات شديدة من قبل الوكالة الإنجليزية فى البصرة، وهكذا وجد الهولنديون أنفسهم محاطين بالأعداء من كل جانب سواء من قبل السلطات المحلية التى تقع وكالاتهم التجارية فى دائرة نفوذها أو من قبل الشركات الأوربية الأخرى، ولذلك قرروا إغلاق وكالاتهم سواء تلك الوكالات التى كانت قائمة فى الموانى الفارسية أو العثمانية وأخذوا يركزون جهودهم على إحدى الجزر المحصنة التى تقع فى مدخل الخليج العربى من ناحيته الشمالية وهى جزيرة خرج الذين نجحوا فى الاستيلاء عليها فى عام ١٧٥٣، ويرتبط ذلك النجاح بجهود البارون كنيبهاوزن الذى كان ممثلا لشركة الهند الشرقية الهولندية.

فعلى أثر طرده من البصره بأمر من السلطات العثمانية بسبب علاقاته السيئة بتجارها بدأ يعد نفسه للرحيل إلى باتافيا، حيث المقر الرئيسى لشركة الهند الشرقية الهولندية، وخلال مروره فى الخليج العربى جذبت جزيرة خرج انتباهه[١]. إذ إن موقع تلك الجزيرة الصغيرة عند مدخل الخليج وعلى مقربة من البصرة يمكن أن يتخذها الهولنديون مركزا للتحكم فى تجارة الخليج ونقطة وثوب على البحرين أو البصرة أو غيرها من المواقع الأخرى على الشاطئ الغربى للخليج[٢]. واستطاع كنيبهاوزن بعد إقناع المسئولين فى باتافيا أن يعد أسطولا كبيرا تمكن بواسطته من الاستيلاء على تلك الجزيرة فى عام ١٧٥٣، وكان واضحا أنه لا يهدف فقط إلى مجرد تأسيس مقر تجارى لشركته وإنما كان يهدف إلى إنشاء مستوطنة هولندية تجارية بها ولذلك عمل على إنشاء قلعة كبيرة لحمايتها وأحل بها حامية عسكرية من الزنوج للتغلب على طبيعتها الجرداء وقسوة مناخها، ولعل ذلك مما أثار قلق ممثلى شركة الهند الشرقية الإنجليزية فى البصرة فى أن تتعرض جزيرة البحرين أو غيرها من جزر الخليج الأخرى إلى نفس المصير الذى تعرضت له جزيرة خرج. وقد أوردت تقارير الوكالات الإنجليزية فى الخليج أن الهولنديين كانوا يعملون على

(1) I.O. Factory Records, Persian Gulf See. letters from Basra and Gombroon vol. 15, 1753.

(٢) ج . ج. لوريمر: دليل الخليج جـ ١ ص ص ٢٠٧.

طرد السكان العرب من الجـزيرة وإحلال من هم أكثر ولاء لهم ومن ذلك مـحاولة كنيبهـاوزن إغراء مسيحى البصـرة على الإقامة بها ووعده الفقـراء منهم بمساعدات مالية تمكنهم من الاستقرار، كما عمد إلى استجلاب بعض الأسر الهولندية بغرض تحويلها إلى مـستوطنة هولندية. وكان من الطبيعـى أن يناصب الإنجليز الهولنديين العداء إذ كان للوجـود الهولندى فى جزيرة خرج أضراره البـالغة على تجارتهم فى البصرة التى لا تبعد عنها أكثر من خمسـة عشر ميلا، وكانت الوكالة البريطانية قد انتقلت إلى البصرة فى عام ١٧٥٩ على أثر تدمير الوكالة البريطانية فى بندر عباس على أيدى الفرنسيين كما ستعرض لذلك بعد قليل.

ومع ذلك فإن الضربة القوية التى تلقاها الهولنديون فى جزيرة خرج لم تأت من قبل الـقوى الأوربية المنافسة لهم وإنما تلقـوا تلك الضربة من السـكان العرب الذين يقطنون تلك الجـزيرة والذين عرفوا بامـتلاكهم السـفن وتفوقهم فى شـئون الملاحة فى الخليج. حـقيقة أن الشيخ نصـر حاكم بوشهر كان قـد قبل التنازل عن جزيرة خرج التى تقع فى دائرة نفـوذه إلى الهولنديين مقابل جزية سنوية يدفـعونها له إلا أن الهـولنديين ما كـادوا يسيطرون عليـهـا حتى أهملوا دفع الجـزية السنوية وأخذوا بمن استـجلبوهم من عناصر سكانيـة يمارسون الغوص على اللـؤلؤ وغير ذلك من الأعمال التى قطعت علـى العرب موارد رزقهم، وكان ذلك دافعـا لقيام مقاومـة عربية ضد الوجود الهـولندى فى تلك الجزيرة[1]، تصدر لزعامتـها الشيخ مهنا بن نصـر أو كما اشـتهر بلقب مـير مهنا، وتميـز بضرباته الصارمـة التى أخذ يوجهها ضد الإنجليز فى بند ريق وضـد الهولنديين فى جزيرة خرج. ومما يذكر أن الإنجليز كانوا قد نجحوا فى تأسيس مـستعمرة لهم فى بندر ريق الواقعة على مقربة من جزيرة خرج فى عام ١٧٥٥ بهدف الحفـاظ على مصالحهم التجارية فى الخليج والوقوف ضد الهولنديين فى حالة قيـامهم بأى توسع آخر فى جزر وموانى الخليج الأخرى. ولا شك أن ازدياد العمليات التى كان يقوم بها مير مهنا أدت إلى خروج

---

(١) عبد الأمير محمـد أمين: مقاومة إمارات شرق الجزيرة العربية وقبائل الخليج العربى للتغلغل الاستعمارى الأوروبى ١٥٠٠ ـ ١٨٢٠ من أعمال الندوة الخاصة بالتجارب الوحدوية العربية المعاصرة ـ تجربة دولة الإمارات العربية المتحدة ـ مركز دراسات الوحدة العربية ـ بيروت مارس ١٩٨١.

الإنجليز من بندر ريق وإجلاء الهولنديين عن جزيرة خرج بعد ذلك بعدة سنوات وعلى وجه التحديد فى عام ١٧٦٥ حيث عاد إليها سكانها الأصليون، وأصبح مير مهنا بعد هذا الانتصار الكبير الذى أحرزه يسيطر على الملاحة فى الخليج بعد أن اتخذ من قلعة الهولنديين فى خرج مقرا لعملياته البحرية ضد الفرس والعثمانيين والإنجليز والهولنديين جميعا. ولعل مما تجدر الإشارة إليه أن كثيرا من المصادر تتخذ من سقوط قلعة الهولنديين فى جزيرة خرج على يد مير مهنا فى عام ١٧٦٥ نهاية للنفوذ الهولندى فى الخليج العربى.

ومما يستلفت النظر أن العمليات التى كان يقوم بها مير مهنا دفعت القوى المناهضة له إلى توحيد جهودها للتخلص من نشاطه وخاصة أنه أثار قلق العثمانيين والفرس بمطالبه على عربستان، كما أثار قلق الإنجليز فى سيطرته على الملاحة فى الخليج مما دفعهم إلى توقيع اتفاقية مع كريم خان الزندى فى عام ١٧٦٧ كانت تنص على مساعدة الإنجليز لفارس فى التخلص من نفوذه مقابل استيلاء الإنجليز على جزيرة خرج. ورغم التحالف الذى كان بين الإنجليز والفرس إلا أن مير مهنا تمكن من إفشال هجوم إنجليزى فارسى مشترك قاموا به ضده[١]. وإن كان سوء الحظ لم يلبث أن واكبه حينما دب الشقاق بينه وبين أفراد أسرته وقام أتباعه بالخروج عليه مما اضطره للفرار إلى البصرة فما كان من السلطات العثمانية هناك إلا أن قبضت عليه ودقت عنقه بأمر من باشا بغداد، كما بادرت فارس بالإستيلاء على جزيرة خرج. وهكذا انتهت حياة ذلك المغامر البحرى الذى روع الهولنديين وكان سببا فى زوال نفوذهم من منطقة الخليج العربى[٢]، ذلك أنه بعد إخراج الهولنديين من جزيرة خرج لم يعد لهم أى نفوذ سياسى أو تجارى أو عسكرى بعد أن أخلوا وكالاتهم التجارية فى البصرة وبندر عباس.

والأمر الذى لا شك فيه أن إنهيار النفوذ الهولندى فى الخليج فى عام ١٧٦٥ وانتهاء حرب السنوات السبع قبل ذلك بعامين وعلى وجه التحديد فى عام ١٧٦٣

(١) Factory Records, Letters from Bussora, Gombroon vol. 16, 30/11//1768.

(٢) Ibid., 4/2/1769.

مكن بريطانيا من معـاودة تثبيت نفوذها فى الخليج وسـاعدها على ذلك أن فارس أخذت تتخلص من الاضطرابـات والفوضى التى كانت تجتاحـها والتى كانت تؤثر على التجارة الإنجليزية، وذلك على أثر نجـاح كريم خان الزندى فى تدعيم سلطته مما أتاح للإنجليز فى عام ١٧٦٣ إقامـة مقيمية تابعة لهـم فى بوشهر، وبإنشاء تلك المقيـمية يمكن أن نصل إلى مـرحلة جديدة من مراحل تطور النفـوذ البريطانى فى الخليج والتى يمكن أن نطلق عليـها مـرحلة بوشهـر التى استمـرت قاعـدة للنفوذ البريطانى السـياسى فى الخليج العربى حتى نهـاية الحرب العالمية الثـانية، أو على وجه التـحديد حـتى عام ١٩٤٦ حيـن انتقلت منهـا إلى البحرين. ويرتـبط إنشاء المقيمية البريطانية فى بوشهر بالنشاط السياسى الذى قام به المستر اندرو برايس الذى أوفدته حكومة بومباى إلى بوشهر وتمكن بعد وصوله إلى هناك أن يعقد اتفاقية مع الشيخ سـعدون حاكم الميناء وافق الأخيـر بمقتضاها على منح الإنجليـز قطعة أرض لانشاء حـديقة ومقـبرة خـاصة بهم، وأذن للإنجليز باسـتخـدام أعلامهم الخـاصة وإعفائهم من الجمارك. على أن أهم ما نصت عليـه الاتفاقية ألا يكون لأية شركة أخرى الحق فى إنـشاء وكالة أو أى مـركز لهـا فى بوشهـر، كما نصـت الشروط المكملة لتلك الاتفاقيـة على حق الإنجليز فى الاحتفاظ بحاميـة عسكرية لحماية دار إقامتهم[1]. ومما يذكر أن كريم خان الزندى صادق علـى تلك الاتفاقية التى كانت نموذجا للتنازلات التى منحت للإنجليـز فى المقاطعات الفارسـية الأخرى، أو بمعنى آخر أصبحت إتفاقية برايس مع الشيخ سعدون أساسا لجميع المعاهدات والإمتيازات التى استحوذ عليها الإنجليز فى فارس والتى كانت تشبه من وجوه كثيرة الإمتيازات

التى كان يتمتع بها الأوربيون فى الولايات العثمانية وإن تميزت بمنحها المزيد من التسـهيلات التجارية للإنجليـز وتأكد ذلك بفرمان أصدره كـريم خان الزندى الذى نص على منح الإنجليـز الحق فى إقامـة مقيـمـيـات تابعة لهم فى جـميع الأراضى الفارسية انطلاقا من تقديره وصداقته للأمة الإنجليزية[2].

(١) ج.ج. لوريمر : دليل الخليج جـ٥ ص ص ٢٤٢٨ - ٢٤٣٠
(٢) ويلسن: مصدر سبق ذكره ص ص ١٤٩ - ١٥٠.



ومما تجدر الإشارة إليه أنه منذ عام ١٧٦٣ أصبح ميناء بوشهر المركز الرئيسى الأول للتمثيل الإنجليزى فى منطقة الخليج العربى، وكان هذا التمثيل يتخذ فى البداية طابعا تجاريا ثم تطور بعد ذلك لكى يتخذ طابعا سياسيا ثم أصبحت له إلى جانب ذلك سلطة عسكرية على إمارات الخليج العربى.

وكان تأسيس المقيمية البريطانية فى بوشهر يواكب من الناحية التاريخية نهاية حرب السنوات السبع فى عام ١٧٦٣، ومن المعروف أن هذه الحرب أنهت حقبة من التنافس الاستعمارى بين بريطانيا وفرنسا وكانت فرنسا، قد دخلت ميدان التوسع فى بحار الشرق منذ عام ١٦٦٤ حين أسست شركة الهند الشرقية الفرنسية[١] بمبادرة من وزير ماليتها كولبير Colbert [٢].

ولكن الشركة الفرنسية لم تحظ حتى نهاية القرن السابع عشر بأكثر من ممارسة تجارية بسيطة مع فارس، ولم يقدر للفرنسيين أن يلعبوا دورا بارزا فى أحداث الخليج العربى خلال تلك الفترة بسبب النشاط الإنجليزى والهولندى الذى كان متصاعدا فى ذلك الوقت، هذا بالإضافة إلى أن فرنسا قد انغمست فى مشكلات القارة الأوربية والحروب الكثيرة التى خاضتها على عهد لويس الرابع عشر مما ترك آثارا سيئة على تجارتها فى الشرق، وأصبحت المصالح التجارية الفرنسية فى فارس من الضآلة بحيث تركت فى أيدى البعثات التبشيرية من طوائف الجزويت والكابوشيين[٣]. ومع ذلك فرغم ضآلة الدور الفرنسى فى بحار الشرق بصفة عامة والخليج العربى بصفة خاصة إلا أننا نلاحظ عدة محاولات قام بها الفرنسيون فى أوائل القرن الثامن عشر لإنشاء قاعدة بحرية لهم فى ميناء مسقط، وظهرت تلك المحاولات خلال النشاط السياسى الذى كان يقوم به الممثلون الفرنسيون فى البلاط الفارسى، والذى كان يهدف إلى قيام تحالف فرنسى فارسى من أجل تمكين الفرنسيين من الاستيلاء على مسقط، وهو أمر كان يطمح إليه

(١) Compagnie des Indes Orientale

(٢) صالح العابد: موقف انجلترا من النشاط الفرنسى فى الخليج العربى ص٣٦.

(٣) Lockhart, L., The Fall of the Safavi Dynasty, P. 432.

الفرس قمعا للنشاط البحرى العماني وما كان يسببه من إرهاق لفارس[1]. وعلى الرغم من فشل مشروعات التحالف الفرنسى إلا أن فرنسا استطاعت أن تحقق لنفسها مكسبا استعماريا كبيرا وذلك باستيلائها على جزيرة صغيرة تقع فى الجزء الغربى من المحيط الهندى عرفت باسم جزيرة موريس أو جزيرة فرنسا Isle de France وكان ذلك فى يولية عام ١٧١٥[2]. وقامت شركة الهند الشرقية الفرنسية بإرسال وكلاء من قبلها للإقامة بها وأصبحت تلك الجزيرة قاعدة للنشاط الفرنسى فى الجزء الغربى من المحيط الهندى بما فى ذلك منطقة الخليج الغربى[3]. وبرز من حكامها الفرنسيين لا بوردنية La Bourdonnaise الذى نجح فى خلال حكمه لتلك الجزيرة أن يضم إليها إحدى الجزر المجاورة لها والتى أطلق عليها الفرنسيون اسم جزيرة بوربون Bourbon فى عام ١٧٣٥، كما نجح فى تشييد ميناء بورت لوى فى جزيرة فرنسا وجعل منه عاصمة لكل من جزيرتى البوربون وموريس. ويرجع إلى لابوردنيه الفضل فى تحصين جزيرة فرنسا وإدخال الزراعات بها وخاصة زراعة القطن وقصب السكر والنيلة. والأمر الذى لا شك فيه أن لا بوردنيه كان يعد أكفا حكام تلك الجزيرة إذ قام بالإضافة إلى ما أشرنا إليه من أعمال ببناء أسطول قوى قصد من ورائه التصدى للسيطرة البحرية البريطانية فى الجزء الغربى من المحيط الهندى. وعلى الرغم من أنه لم يقدر لبوردنيه النجاح رغم النفقات الكبيرة التى أرهق بها الحكومة الفرنسية، وهو ما أدى إلى القبض عليه وإجباره على قضاء بقية حياته فى الباستيل، إلا أنه يمكننا أن نقرر أنه فى أثناء الصراع الذى قام بين إنجلترا وفرنسا منذ النصف الثانى من القرن الثامن عشر والسنوات الأولى من القرن التاسع عشر كانت جزيرة فرنسا تشكل حجر عثرة بالنسبة للمصالح البريطانية فى الهند والخليج العربى، ولعل ذلك مما دفع بريطانيا

(١) صالح العابد: مرجع سبق ذكره ص٦٥.

(٢) Skeet, Ian, op. cit., pp. 40-41.

(٣) اكتشف البرتغاليون جزيرة فرنسا فى عام ١٥٠٥ ثم احتلها الهولنديون عام ١٥٩٨ واطلقوا عليها اسم جزيرة موريشيوش نسبة إلى أحد حكامهم ثم خلفهم الفرنسيون فى عام ١٧٣٥انظر Coupland, R., East Africa P. 37.

إلى احتلال تلك الجزيرة فى عام ١٨١٠، وكان ذلك الاحتلال بمثابة الضربة القاضية التى وجهتها بريطانيا للنشاط الفرنسى فى بحار الشرق، ويمكن أن تتضح لنا تلك الحقيقة حين نعلم أن فرنسا كانت تتخذ من جزيرة فرنسا قاعدة للاتصال بمن تستطيع أن تتصل به من الحكام الوطنيين فى بحار الشرق، وفضلا عن ذلك فقد أوجدت علاقات تجارية وثيقة بينها وبين مسقط عن طريق الحكام الفرنسيين لتلك الجزيرة[١]، وبسبب المصالح التجارية المشتركة ظلت العلاقات بين حكام مسقط وحكام جزيرة موريس يسودها الصداقة والود حيث كان الطرفان يتبادلان الهدايا بين الحين والآخر[٢]. كما كانت جزيرة فرنسا تصدر إلى مسقط ما تحتاجه من قصب السكر الذى اشتهرت الجزيرة بزراعته وتستورد بدلا منه الحبوب والتمور.

وعلى الرغم من العلاقات التجارية النشطة بين جزيرة فرنسا ومسقط إلا أن العلاقات السياسية مع مسقط كانت تسير على نطاق ضيق إذ لم تكن هناك وكالات فرنسية بسبب عدم مقدرة الفرنسيين على منافسة الوكالات التجارية البريطانية فى بندر عباس وبوشهر والبصرة[٣]. ولعل الإمام أحمد بن سعيد ١٧٤١ ـ ١٧٨٣ كان أول من أدرك أهمية الصداقة الفرنسية مع بلاده فدخل فى علاقات وثيقة مع مالارتيك حاكم جزيرة فرنسا وتبادل معه الكثير من الهدايا[٤]. ومع ذلك فقد حرص حكام مسقط على التزام موقف الحياد بالنسبة للتنافس الإنجليزى الفرنسى وإن كان من الصعب بطبيعة الحال الإبقاء على ذلك الموقف إذ إن الموقع الجغرافى والإستراتيجى لميناء مسقط كان يحتم أن يكون هدفا جيدا للتنافس الإنجليزى الفرنسى، وخاصة حينما اشتدت مراحل الصراع بين الإنجليز والفرنسين فى بحار الهند خلال حرب السنوات السبع وحرب الاستقلال الأمريكية ١٧٧٦ ـ ١٧٨٣،

---

(١) Gaffarel, Paul, les Colonies Francaise Paris 1888. P. 24 See also Coupland, R., East Africa and Its Invaders pp. 74-75.

(٢) Coupland, R., op. cit., P.93.

(٣) Ruete, R.S. Said Bin Sultan Ruler of Oman and East Africa 1791- 1856 London 1929. pp. 93-94.

(٤) Ibid., P. 93.

وحروب نابليون وسياسته فى الشرق بين عامى ١٧٩٩ و ١٨١٠، ويمكن أن نعرض لتلك المراحل على الوجه التالى:

أولا: التنافس الإنجليزى الفرنسى خلال حرب السنوات السبع وفى أعقابها

لعل ما يثير الانتباه أنه على الرغم من أن أمراء العرب فى سواحل الخليج العربى والجزيرة العربية كانوا على استعداد لصداقة فرنسا بسبب تطلع الإنجليز إلى بلادهم إلا أن السياسة الفرنسية لم تتخذ موقفا ايجابيا فى علاقاتها مع أولئك الأمراء؛ إذ كان طابع السياسة الفرنسية حتى منتصف القرن الثامن عشر يتسم بالتردد وعدم الثبات، على أنه لم يلبث بعد ذلك الوقت أن بدأ اتجاه فرنسا يتجه إلى توثيق علاقتها مع الأمراء العرب الذين يحتلون مراكز حساسة على الطرق البحرية الموصلة إلى الهند وخاصة بعد أن كثرت التقارير التى كان يبعث بها حكام جزيرة فرنسا إلى حكومتهم يوضحون فيها أهمية إقامة علاقات تجارية وسياسية مع بعض أولئك الأمراء، كما أقدم كثير من حكام جزيرتى فرنسا والبوربون على إيجاد علاقة مودة وصداقة معهم(١).

ولعل أول اتصال اتخذ صبغة سياسية بين فرنسا ومسقط حدث فى عام ١٧٥٩ على عهد الإمام أحمد بن سعيد حين هاجم الكونت داستان Comte D' Estaing بعض السفن الإنجليزية التى كانت راسية فى ميناء مسقط، وظهر واضحا أن الفرنسيين قد احرزوا انتصارا على الإنجليز وخاصة حين تابع داستان نشاطه ووصل بسفنه إلى ميناء بندر عباس حيث أطلق الفرنسيون مدافعهم على الوكالة البريطانية القائمة هناك، وتمكنوا من إصابة إحدى السفن الإنجليزية التى كانت فى طريقها إلى بومباى بأضرار كبيرة. ووضح أن الفرنسيين كانوا يهدفون بعملياتهم البحرية هذه استطلاع المؤسسات الإنجليزية فى الخليج العربى(٢). ولذلك حفلت

---

(١) Auzoux, A., France et Mascate aux XVIII et XIX siecles (Extrait de la Revue d'Etude Diplomatique) Paris 1910. P. 4.

(٢) Guillain, Ch., Documents sur l' Histoire, la Geographie et le Commerce de L'Afrique Orientale Paris 1856 tome I.p. 202



وثائق شركة الهند الشرقية البريطانية بتفصيلات كثيرة عن هذه الحوادث والتى يتضح منها استسلام الإنجليز للفرنسيين، كما تشير إلى ذلك الرسالة التى بعث بها الوكيل البريطانى فى بندر عباس فى أكتوبر ١٧٥٩ إلى حاكم بومباى يؤكد فيها إستيلاء الفرنسيين على وكالة الشركة وتخريبها وأنه اضطر إلى توقيع معاهدة استسلام مع الفرنسيين قبل فيها تسليم الوكالة بما فيها من بضائع وأموال إليهم مقابل أن يعامل الفرنسيون الإنجليز معاملة أسرى الحرب(١).

ويهمنا من الانتصار الذى حققه الفرنسيون على الإنجليز فى حادثة وكالة بندر عباس أن حاكم مسقط بادر إلى تأكيد صلاته بالفرنسيين احتماءا بهم من النفوذ الإنجليزى أو خوفا من نفوذهم الذى كان يتقدم بإطراد، ولذلك أرسل ابنه هلال إلى ميناء بندر عباس لمقابلة داستان حيث قدم له رسالة من أبيه أكد فيها صداقته للفرنسيين وأنه على استعداد أن يضع ميناء مسقط تحت تصرفهم(٢). ويبدو أن فرنسا استجابت لهذه الصداقة حيث أخذت السفن الفرنسية تكثر من ترددها على ميناء مسقط للتزود بما تحتاجه من معون(٣). وقد بقيت العلاقات قائمة بين مسقط والفرنسيين على الرغم من أن النتائج النهائية لحرب السنوات السبع لم تكن فى صالحهم إذ عادت بريطانيا إلى تأكيد مركزها المتفوق واضطرت فرنسا إلى أن تتنازل لها بمقتضى صلح باريس ١٧٦٣ عن جميع مراكزها فى شبة القارة الهندية باستثناء بوندشيرى، كما بادرت بريطانيا بفتح خط مواصلات عن طريق الخليج العربى لسرعة نقل الأنباء من الهند إلى إنجلترا، ورغم أن هذه النتائج لم تكن كما هو واضح فى صالح الفرنسيين إلا أنهم أخذوا يبذلون العديد من المحاولات للإبقاء على نفوذهم فى مسقط، ففى عام ١٧٦٨ اقترح كل من قنصل حلب بوردريه Perdriaux وغرفة التجارة بمرسيليا على الحكومة الفرنسية اتخاذ الإجراءات الكفيلة لإنعاش تجارة فرنسا مع الهند عن طريق حلب وبغداد والبصرة، وكان ذلك بطبيعة الحال يتطلب اهتمام الحكومة الفرنسية بمسقط التى تتحكم فى

(١) F.R. Gombroon Diaries 1753 -1773. G. 29.

(٢) Auzoux, op. cit., p. 67.

(٣) Guillain., op. cit., tome Ipp. 204-205.

طريق الهند. ولم يمض وقت طويل حتى أتيحت الفرصة لفرنسا لتقوية نفوذها خلال حرب الاستقلال الأمريكية[1].

ثانيا ـ التنافس الإنجليزى الفرنسى خلال حرب الاستقلال الإمريكية

حين اتخذت فرنسا موقفا رسميا إلى جانب الثوار الأمريكيين استتبع ذلك إعلانها الحرب على بريطانيا فى عام ١٧٨٧، واضطرت حكومة مسقط إلى أن تأخذ موقفا محايدا نظرا لارتباط مصالحها التجارية مع كل من القوتين المتصارعتين سواء فى الهند أو فى جزيرة فرنسا، إلا أن العلاقات بين فرنسا ومسقط لم تلبث أن تعرضت لبعض الأزمات وكان ذلك فى عام ١٧٨١ على أثر استيلاء إحدى السفن الفرنسية على سفينة الإمام أحمد بن سعيد «الصالح»، وكانت محملة بالبضائع التى جلبتها من الهند حيث نجح الفرنسيون فى اقتيادها من صحار إلى البصرة. وعلى الرغم من أن مسقط ردت على ذلك بمهاجمة بعض السفن الفرنسية إلا أنه لم تكن هناك رغبة من الإمام ولا من كبار التجار العمانيين الذين تربطهم مصالح تجارية مع جزيرة فرنسا بتصعيد ذلك النزاع، واكتفى الإمام أحمد بن سعيد بالاحتجاج لدى حاكم جزيرة فرنسا والقنصل الفرنسى فى بغداد، وطالب بتوقيع الجزاء الصارم على قائد السفينة الفرنسية التى قامت بالإعتداء على الصالح[2]. ويقرر جيان أن الحكومة الفرنسية بادرت بتقديم اعتذار إلى الإمام وقدمت له سفينة أخرى تعويضا عن سفينته، وعلى الرغم من أن الأمام لم يقدر له أن يتسلم تلك السفينة حيث استولى عليها الإنجليز قبل أن تصل إلى مسقط[3]، إلا أن العلاقات الحسنة لم تلبث أن عادت بين الطرفين حيث كتب الإمام إلى القنصل الفرنسى فى بغداد فى عام ١٧٨٢ يؤكد الصلات الوثيقة بين مسقط والفرنسيين وأن هذه الصلات أقوى من أية دولة أخرى[4]. وكما هو واضح لدينا أن مسقط لم تستطع

---

(١) Kajare (Firouz), Le Sultanate d' Oman et la Question de Mascate, Etudes D'Histoire Diplomatique et de Droit Internationale, Paris 1914, P. 47.

(٢) Guillain, C., Relation du Voyage D'Exploration à la Côte Orientale d' Afrique execute pendant les annees 1847/1848 tome I p. 206.

(٣) صالح محمد العابد : موقف بريطانيا من النشاط الفرنسى فى مسقط ص ٦٩.

(٤) Ruete, S.R.. Said Bin Sultan Ruler of Oman and East Africa P. 45.

أن تحافظ على حيادها فى الصراع الذى كان دائرا بين الإنجليز والفرنسيين خلال حرب الاستقلال الأمريكية؛ على أنه فى أعقاب تلك الحرب أخذت العلاقات بين فرنسا ومسقط تتوطد بشكل قوى وتأكدت تلك العلاقات خلال بعثة الكونت روزيلى إلى مسقط فى عام ١٧٨٥، وكان مكلفا من قبل حكومته للقيام بعملية مسح هيدروغرافى فى مناطق الخليج. وعند وصوله إلى مسقط أعرب له السيد حمد بن سعيد ١٧٨٣/١٧٩٣ حاكم مسقط عن استعداده لكى ينشئ الفرنسيون وكالة لهم فى ميناء مسقط بعد أن ازدادت الاتصالات التجارية بين مسقط وجزيرة فرنسا، وعرض أن يقدم مقرا لتلك الوكالة دون مقابل، وأكد لروزيللى «إن بلادى هى بلادكم وصداقتنا باقية كما كانت بل إنها أقوى مما كانت عليه فى أى وقت مضى». وعلى الرغم من أن الاتصالات التى أجريت مع روزيلى لم تسفر عن شئ إيجابى إلا أنه كان واضحا أن روزيلى لقى استقبالا حافلا فى مسقط حتى أنه كتب إلى حكومته يقول «إن أهالى مسقط فيما يظهر لى يحبون الفرنسيين ويكرهون الإنجليز بسبب تسلطهم وكبريائهم»[١]. كما أوصى روزيلى فى التقرير الذى قدمه إلى حكومته بضرورة دخول فرنسا فى علاقات أوثق مع سلطنة مسقط[٢]. ومما يسترعى الانتباه بصدد ذلك أنه رغم ترحيب حاكم مسقط بأن يقيم الفرنسيون مركزا تجاريا لهم فى بلاده، إلا أنه رفض فى نفس العام ١٧٨٥ عرضا آخر كان قد تقدم به الإنجليز لتأسيس وكالة لهم فى مسقط[٣]، ومن ثم ظلت المصالح البريطانية فى مسقط تدار حتى عام ١٧٩٨ بواسطة وكيل وطنى **Native Broker** ومع ذلك فلم تتح الظروف لفرنسا لكى تحرز تقدما فى علاقتها بمسقط[٤]، إذ إنه بينما كانت تتجه فى عام ١٧٨٨ إلى إنشاء قنصلية لها فى مسقط لم تلبث أن اشغلت عن ذلك بسبب تأزم أوضاعها الداخلية نتيجة نشوب الثورة الفرنسية ١٧٨٩، وبذلك أهملت فرنسا إنشاء وكالة أو قنصلية لها رغم العروض المتكررة التى قدمها السيد حمد بن

---

(١) وثائق الحكومة السعودية : التحكيم لتسوية النزاع الاقليمى بين مسقط وأبو ظبى وبين المملكة العربية السعودية القاهرة ١٩٥٥، جـ١ ص١٠٨.

(٢) Kajare, Firouz, op. cit., P. 75.

(٣) Wilson, Arnold, op. cit., p. 231

(٤) Kajare, Firouz, op. cit., PP. 75-76.

سعيد إلى القنصل الفرنسى فى بغداد لكى يبعث بمندوب من قبله يجيد التحدث باللغة العربية ليكون بمثابة وكيل تجارى بين البلدين. كما كتب إليه مرة أخرى يحثه على تعيين ذلك الوكيل مؤكدا له بأنه سيلقى فى مسقط كل رعاية وعناية. وفى عام ١٧٩٠ كتب السيد حمد بن سعيد إلى القنصل الفرنسى فى بغداد مؤكدا على المزايا التى سوف يقدمها للفرنسيين فى بلاده بقوله «لست تجهل الأوامر التى نصدرها إلى رعايانا بالطريقة التى يعاملون بها مواطنيكم الذين ينزلون فى بلادنا فميزناهم عن جميع الشعوب الأوروبية الأخرى»[١].

وما كادت فرنسا تفرغ من ثورتها وتعلن الجمهورية حتى بذلت محاولة أخرى فى عام ١٧٩٥ لإيجاد قنصلية لها فى مسقط، ففى مارس من ذلك العام أصدرت لجنة الأمن العام مرسوما يقضى بتأسيس قنصلية فرنسية فى مسقط وتم تعيين المسيو بوشامب Beauchamb ليكون أول قنصل فرنسى فى مسقط، وجاء فى التعليمات الخاصة بإنشاء تلك القنصلية «أنها أنشئت للتعرف على حركات الانجليز فى الهند ودراسة الأوضاع الداخلية فى بلاد العرب وفارس وكذلك دراسة الطريقة التى يمكن أن تؤدى إلى توسع فرنسى فى الشرق»[٢]. على أنه لم يقدر لبوشامب أن يتسلم منصبه ولعل ذلك يرجع إلى أن فرنسا كانت تعتقد خطأ بتبعية مسقط للدولة العثمانية ولذلك طلبت من بوشامب أن يذهب إلى الآستانة قبل ذهابه إلى مسقط ليستأذن الباب العالى فى فتح قنصلية لها هناك، وما كاد بوشامب يصل إلى الآستانة حتى كانت أنباء الحملة الفرنسية على مصر قد وصلت إلى العاصمة العثمانية فتم القبض عليه وألقى به فى السجن[٣].

ومما يسترعى الانتباه أن بعثة بوشامب كانت واحدة من تلك البعثات العديدة التى كانت تبعث بها فرنسا إلى بلدان الشرق، وكانت تهدف من ورائها الكشف عن أى مجال يمكن لها أن تنسج فيه خيوط العمل لمصالحها فى تلك البلدان بهدف

---

(١) Guillain, op. cit., tome I P. 207.
انظر أيضا وثائق الحكومة السعودية، مصدر سبق ذكره جـ١ ص١٠٩.
(٢) صلاح العقاد: الاستعمار فى الخليج الفارسى القاهرة ١٩٥٦، ص٢٣
(٣) صالح محمد العابد: مرجع سبق ذكره ص٧٢.

تضييق الخناق على الإنجليز فى مستعمرتهم الهندية الكبرى، ولعل من أبرز هذه البعثات بعثة أوليفيروبروجيير Oliviere et Brugiere التى بقيت قرابة خمس سنوات بين استانبول والقاهرة وطهران، وكان من أهم توصياتها الاحتلال الفرنسى لمصر(١).

وعلى الرغم من أن النجاح لم يحالف فرنسا فيما كانت تسعى إليه من محاولات لتوطيد نفوذها فى الشرق، إلا أنه كان واضحا أنها استطاعت المحافظة على وضعيتها الخاصة فى مسقط، وذلك حتى السنوات القليلة التى سبقت مجىء الحملة الفرنسية على مصر حتى أن السيد سلطان بن أحمد ١٧٩٣ ـ ١٨٠٤ كان يسترشد فى الشئون السياسية بمشورة طبيبه الفرنسى(٢). ولعل استخدام سلطان مسقط للفرنسيين فى خدمته كان مثار قلق جوناثان دنكان حاكم بومباى حتى أنه أوفد فى نهاية عام ١٧٩٦ أحد مبعوثيه إلى مسقط ليتأكد عما إذا كان هناك فرنسيون يعملون بالفعل فى خدمة السلطان، ولكى يطلب منه توضيح موقفه الذى أصبح مشكوكا فى حياده. وكان رد سلطان بن أحمد على جانب كبير من الأهمية كما كان مؤشرا لبدء علاقات من الصداقة مع الإنجليز إذ زود مبعوث حكومة بومباى برسالة إلى دنكان جاء فيها «إنه منذ الزمن القديم فإن أواصر الصداقة والمودة ظلت قائمة بين حكومتينا وإنه بعون الله مادام هناك نفس يتردد فإن جنة الحب والتفاهم سوف تبقى يانعة الثمار يرويها ماء المحبة والاخلاص ولهذه الأسباب فإن أصدقاء الشركة الموقرة هم أصدقائى وأعدائها أعدائى» ويذكر جون كلى ـ أحد الباحثين في تاريخ الخليج العربى ـ أن دنكان بهر بفصاحة خطاب السلطان ولذلك قرر ألا يثير موضوع علاقة سلطان مسقط بالفرنسيين مرة أخرى حتى وصل بونابرت إلى مصر فى عام ١٧٩٨(٣).

---

(١) وثائق الحكومة السعودية: مصدر سبق ذكره جـ١ ص ص ١٠٨ ـ ١٠٩ انظر أيضا ج.ج لوريمر دليل الخليج جـ١ ص٢٤١.

(٢) وثائق الحكومة السعودية: نفسه جـ١ ص١٠٨.

(٣) جون كلى: بريطانيا والخليج ١٧٩٥ ـ ١٨٧٠ ترجمة محمد أمين عبدالله جـ١، ص ص ١٠١/١٠٢ وزارة التراث القومى والثقافة بسلطنة عمان.

ثالثا ـ مقاومة بريطانيا للسياسة النابليونية فى الشرق:

حاول بونابرت عند وصوله إلى مصر فى عام ١٧٩٨ استمالة الأمراء العرب الذين يقطنون على سواحل الخليج والجزيرة العربية، على أنه مما هو جدير بالذكر أن هذه السياسة التى انتهجها بونابرت لم يكن هو السابق إليها وإنما كانت امتدادا للمحاولات التى قام بها كل من روسو وروزيلى وبوشامب وأوليفير، وهى محاولات كانت تهدف فى الدرجة الأولى إلى ضرب النفوذ البريطانى عن طريق صداقة فرنسا للأمراء العرب فى الخليج والجزيرة العربية، وقد تتعدى تلك الصداقة إلى حكام الدول المحيطة بتلك المناطق. وقد لفتت تلك المحاولات نظر بريطانيا التى تدين بالشىء الكثير إلى الجنرال ولسلى الذى اتخذ خطوات إيجابية لتأمين سيادة بريطانيا فى الهند والطرق الموصلة إليها وذلك منذ أن بدأ تسلمه لزمام الأمور كحاكم عام للهند فى ابريل ١٧٩٨. وكان النشاط الفرنسى فى مسقط من أهم الدوافع التى دفعته للعمل على عرقلة خطط بونابرت والتى كان يرمى من ورائها الوصول إلى الهند عن طريق مصادقته للأمراء العرب فى سواحل الخليج والجزيرة العربية وسواحل الهند، وقد حامت الشبهات ضد الفرنسيين حين قام حاكم جزيرة فرنسا بزيارة إلى مسقط فى ذلك العام[1]. وكان ذلك مما دفع ولسلى إلى إصدار تعليماته إلى ميرزا مهدى على خان ـ وهو موظف فارسى كان يعمل فى شركة الهند الشرقية البريطانية ـ لكى يعقد اتفاقية مع السيد سلطان بن أحمد سلطان مسقط، بعد أن أصدر مرسوما بتعيينه مقيما سياسيا فى بوشهر من قبل حكومة الهند[2]. وفى سبتمبر ١٧٩٨ أصدر ولسلى تعليماته إلى ميرزا مهدى لكى يتوجه إلى مسقط وهو فى طريقه لاستلام منصبه الجديد فى بوشهر، وكان من أهم التعليمات التى زوده بها أن يتأكد من السلطان شخصيا عما إذا كان على استعداد لابعاد الفرنسيين والهولنديين من بلاده وأن يستطلع رأيه فى إمكانية قيام شركة الهند الشرقية البريطانية بإنشاء وكالة لها فى مسقط، كما كلف أيضا بأن يضع

(١) Bombay Government, Selections from the Records vol. XXIV P. 23.

(٢) Wilson, Arnold, The Persian Gulf p, 232.

تقريرا مفصلا عن مقدار الثقة التى يمكن أن توليها حكومة الهند لوكيل الشركة الوطنى فى مسقط الذى لم يكن فوق مستوى الشبهات. على أن أهم ماكلف به ميرزا مهدى على خان هو أن يقدم وعدا للسلطان بأنه فيما لوتعهد لحكومة بومباى بطرد الفرنسيين من خدمته فسوف تبعث له حكومة بومباى بجراح يكون تحت تصرفه بدلا من جراحه الفرنسى[١]. وكانت هذه التعليمات هى الأساس التى بنى عليها ميرزا مهدى على خان الاتفاقية أو القولنامة التى عقدها مع سلطان بن أحمد والتى وقعت فى ١٢ أكتوبر ١٧٩٨، ويعتبر توقيع تلك الاتفاقية من قبل سلطان مسقط نجاحا كبيرا لمهمة ميرزا مهدى[٢]. ولاشك أن نجاح الأخير فى مهمته يرجع فى الدرجة الأولى إلى أن وصوله إلى مسقط تصادف مع الاحتلال الفرنسى لمصر، وكما هو معروف أن الحملة الفرنسية على مصر ولدت موجات عنيفة من الاستياء ضد الفرنسيين فى العالم الإسلامى، ولاشك أن الدعاية البريطانية ضد الحملة الفرنسية كانت مسئولة إلى حد كبير عن إثارة استياء المسلمين حين أدخلت فى روعهم أن فرنسا تعمل على إذلال المسلمين والسيطرة على بلادهم تحقيقا لمآربها.

وقد يكون من الأهمية أن نقف على أهم بنود اتفاقية ١٧٩٨ التى تتكون من سبعة مواد اختصت المادتان الأوليتان منها بالتأكيد على إرساء علاقات الود والصداقة بين شركة الهند الشرقية البريطانية وحكومة مسقط؛ فى حين اختصت المواد الأخرى بوضع قيود من شأنها عرقلة النفوذ الفرنسى فى مسقط، إذ تعهد السلطان بأن يطرد الفرنسيين والهولنديين من خدمته[٣]، ويمنع الفرنسيين من تأسيس أو إقامة أية مراكز لهم فى بلاده أو الممتلكات التابعة له، وكذلك يمنع السفن الفرنسية من دخول موانيه بينما يسمح بذلك للسفن الإنجليزية، كما تعهد

---

(١) Ruete, R. S., op. cit., P. 112.

(٢) بعد نجاح مهمة ميرزا مهدى على خان فى مسقط ذهب إلى فارس واستطاع أن يقنع الشاه بضرورة طرد الفرنسيين من بلاده بعد أن أكد له أنهم يعملون على قلب الحكومات والأديان ووعد الشاه أن يساعده الانجليز ضد الفرنسيين انظر:

Sykes, P., op. cit., P. 397 vol. II see also Adamiyat, F., Bahrein Islands New York 1955. P. 42.

(٣) من الملاحظ أن هولندا كانت تابعة لفرنسا فى ذلك الوقت.

بمقتضى المادة الخامسة من الاتفاقية بأن يقف إلى جانب السفن الإنجليزية إذا مانشب صراع بينها وبين السفن الفرنسية فى مياهه، أما فى خارج تلك المياه فليس هناك مايلزمه بالوقوف إلى جانب السفن الانجليزية. ولعل أهم مانصت عليه الاتفاقية هو إطلاقها المجال للإنجليز لإنشاء وكالة تجارية فى بندر عباس، وكان ذلك الميناء تابعا لسلطنة مسقط حيث أقرت لهم الاتفاقية أن يقوموا بإعداد الوكالة وتحصينها وابقاء حامية عسكرية بها تتألف من سبعمائة أو ثمانمائة جندى. ولعل مايستلفت النظر أن السلطان رفض رفضا قاطعا السماح بإقامة مركز بريطانى فى مسقط بحجة أن ذلك سوف يورطه فى حرب مع الفرنسيين والهولنديين، وعلى الرغم من أنه وافق فى البداية على تعيين معتمد سياسى بريطانى فى مسقط إلا أنه عاد فسحب تلك الموافقة[1]. كذلك تراجع السلطان عن تنفيذ النص الذى كان يقضى بتأسيس وكالة بريطانية للإنجليز فى بندر عباس رغم أنه كان يشكل بندا رئيسيا من بنود اتفاقية ١٧٩٨. ومع ذلك فإنه يتضح من نصوص هذه الاتفاقية أنها استهدفت مجموعة من الأهداف السياسية من بينها عرقلة النشاط الفرنسى ووضع أسس للمصالح البريطانية فى مسقط وتوثيق العلاقات الإنجليزية معها بسبب أهميتها للمواصلات البريطانية إلى الهند، كما كانت الاتفاقية فى نفس الوقت بمثابة رد فعل من جانب بريطانيا على النشاط الفرنسى المتزايد فى سلطنة مسقط. ولذلك فإنها أفسحت المجال أمام بريطانيا فى النواحى السياسية والتجارية والعسكرية ليس فى سلطنة مسقط فحسب وإنما فى منطقة الخليج العربى برمتها حيث إن الموقع الجغرافى لمسقط كان يسمح لبريطانيا بالارتكاز عليه لمواصلة نشاطها فى الخليج العربى[2].

على أنه مما يجدر الإشارة إليه أنه على الرغم من أن هذه الاتفاقية كانت تعد بمثابة ضربة صريحة وجهت للمصالح الفرنسية فى بحار الشرق إلا أنها لم تثن بونابرت عن تحقيق الأهداف التى كان يسعى إلى تحقيقها، وخاصة أن فكرة مهاجمة الهند كانت هى أساس حملته على مصر، ولذلك حاول أن يستميل إليه

---

(١) أرنولد ويلسون: مصدر سبق ذكره ص١٦٩.

(٢) Aitchison., C., A Collection of Treaties, Engagements and Sanads relating to India and Neighbouring Countries, Calcutta 1929 vol. XII pp. 207-208.

سلطان مسقط ويذكره بالصداقة الفرنسية التقليدية. ويستدل من مراسلات نابليون أنه كتب رسالة من القاهرة فى يناير ١٧٩٩ إلى سلطان مسقط جاء فيها « اكتب إليكم هذه الرسالة لأخبركم بالذى لا شك أنه قد نما إلى علمكم وهو وصول الجيش الفرنسى إلى مصر وبما أنكم كنتم صديقا مخلصا فى مختلف الظروف والأحوال فإننى أود أن تكونوا مقتنعين تماما بأننى أود توفير الحماية اللازمة لأغراض التجارة وأرجو منكم أن تنقلوا نص هذا الخطاب إلى تيبو صاحب فى أول فرصة يمكنكم أن تتصلوا به فى الهند». ويستدل من الفقرة الأخيرة من الرسالة أن بونابرت كان يحاول استغلال فرصة العلاقات التجارية بين مسقط وسلطنة ميسور؛ إذ كان عرب مسقط يقومون بالوساطة التجارية بين جزيرة فرنسا والهند، وكان تيبو صاحب سلطان ميسور يعد واحدا من أبرز الحكام المسلمين الذى كان يعتمد عليه الفرنسيون بهدف تحطيم السيطرة الإنجليزية فى الهند[١].

وقد بادر تيبو صاحب بإرسال مبعوث من قبله إلى بورت لوى عاصمة جزيرة فرنسا أثناء وجود بونابرت فى مصر بهدف عقد تحالف مع الفرنسين ضد الإنجليز[٢]، وكان بونابرت يأمل فى أن يتولى تجار مسقط تسليم رسالة موجهة منه إلى تيبو صاحب خلال عملياتهم التجارية مع سلطنة ميسور.

وقد جاء فى رسالة بونابرت إلى تيبو صاحب «الآن وقد بلغك نبأ وصولى إلى سواحل البحر الأحمر على رأس جيش جرار لا يغلب أريد به تخليصك من قبضة الإنجليز وأود أن أعرف الوضع الذى أنت عليه كما أرجو أن تبعث إلى السويس برجال ذوى اقتدار للمداولة معهم»[٣]، على أن وكلاء شركة الهند الشرقية البريطانية كانوا متنبهين إلى كل التحركات التى كان يقوم بها بونابرت فى

(١) Correspondences de Napoleon, tome III p. 361.
نقلا عن الوثائق السعودية جـ١ ص١١٢.

(٢) Dennis, Alfred, Eastern Problem at the close of 18th century, Cambridge 1901 p. 209.
See also Coupland, op. cit., p. 88.

(٣) Correspondences de Napoleon, tome III p. 361.
عن الوثائق السعودية جـ١ ص١١٢.

مصر ولذلك بادروا بمصادرة رسائل بونابرت فى ميناء مخا قبل وصولها إلى أصحابها، وأرسلت تلك الخطابات إلى بومباى مما جدد الشكوك حول انتهاك سلطنة مسقط للاتفاقية التى وقعتها مع الإنجليز خاصة وأن سلطان مسقط كان لا يزال يستخدم الفرنسيين فى بلاده. وبالإضافة إلى ذلك فقد ثبت لدى الإنجليز أن سلطان مسقط كان يتبادل الرسائل مع تيبو صاحب سلطان ميسور الذى كان قائما بالثورة ضد الإنجليز، كما كشف الإنجليز تحركا فرنسيا فى البنغال، وتأكد للإنجليز أن الفرنسيين كانوا يساندون حاكم أفغانستان مع عدد من الشخصيات الهامة فى مسقط من بينهم خلفان بن محمد والى مسقط، وكان الفرنسيون يستهدفون من وراء هذه التحركات الإطاحة بالحكم البريطانى فى الهند[1]. على أن تلك التحركات لم تحقق نجاحا يذكر ففى عام ١٧٩٩ تم إخضاع الإنجليز لسلطنة ميسور وتمكنوا من القبض على تيبو صاحب واعدامه، كما حطم الإنجليز الأسطول الفرنسى فى أبوقير وأصبحت الحملة الفرنسية حبيسة فى مصر ولم يكتف الإنجليز بذلك بل أخذ نفوذهم يمتد إلى سواحل عدن وجنوب الجزيرة العربية حيث وقعت بريطانيا فى عام ١٨٠٣ معاهدة مع سلطان لحج كانت تشكل الحلقة الأولى فى سلسلة المعاهدات التى عقدتها بريطانيا مع مشيخات الجنوب العربى[2]. كذلك اهتمت حكومة بومباى بإعطاء فاعلية أكثر لاتفاقية ١٧٩٨ التى سبق أن أبرمتها مع سلطنة مسقط وخاصة بعد أن اتضح لها أن الفرنسيين لم يأبهوا بها وحاولوا أن ينفذوا من خلال شروطها التى أصبحت غير سارية المفعول. ويتضح من سجلات حكومة بومباى لعام ١٧٩٩، ومن الرسائل المتبادلة بين دنكان وسلطان بن أحمد أن حكومة بومباى كانت توجه اللوم الشديد لسلطان مسقط وأن الأخير كان يدافع عن مسلكه غير الودى تجاه الإنجليز. ويفهم من هذه المراسلات أن سلطان مسقط كان على استعداد للإذعان للإنجليز وكان دنكان قد اتهم السلطان بعدم تسليمه أموال تيبو صاحب المودعة فى مسقط وتعمده تهريبها بالإضافة إلى سوء مسلكه تجاه الأدميرال بلانكت Blanket الذى مر على زنجبار فى طريقه إلى البحر الأحمر،

(١) The Imperial Gazetteer of India, The Indian Empire Oxford 1908. vol. Ip. 490.
(٢) Hoskins, British Routes to India London 1900 p. 65

وكانت زنجبار فى ذلك الوقت من ملحقات سلطنة مسقط، والأهم من ذلك استمراره فى علاقاته التجارية مع جزيرة موريس وشرائه السفن الإنجليزية التى كان قد استولى عليها الفرنسيون، وتغاضيه عن اتخاذ الفرنسيين ميناء مسقط قاعدة لعملياتهم البحرية ضد الإنجليز[1].

وعلى الرغم من أن سلطان بن أحمد حاول تسوية هذه المشكلات بينه وبين الإنجليز وذلك بخلعه حاكم زنجبار وإحلال آخر بدلا منه إلا أنه فى نفس الوقت أبدى ترددا فى قطع العلاقات التجارية بينه وبين جزيرة موريس، ورأى فى ذلك أمرا يصعب تنفيذه لأنه سيلحق الضرر بأتباعه، ولذلك وجدت حكومة بومباى أنه من الأنسب أن تلجا إلى الضغط السياسى على سلطان مسقط وذلك بتأكيد اتفاقية ١٧٩٨ بما فيها من شروط، وكان الدافع إلى ذلك ما ترامى إلى حكومة بومباى من إرسال بونابرت أحد أقاربه إلى جزيرة فرنسا فى عام ١٨٠٠ للتعرف على مدى صلة الإنجليز بالأمراء العرب والمسلمين. وقد وقع اختيار حكومة بومباى على جون مالكولم ليقوم بهذه المهمة وذلك ضمن مهمته الكبيرة التى قصد بها فارس فى الدرجة الأولى[2].

بعثه جون مالكولم

كان الهدف من هذه البعثة عقد معاهدة سياسية وتجارية مع فتح على خان شاه فارس؛ إذ ظل الحاكم العام فى الهند اللورد مورنجتون Mornigton يبدى شكوكه فى احتمال محاولة الفرنسيين غزو الهند عن طريق فارس، ولذلك عهد إلى جون مالكولم بمهمة عقد هذه المعاهدة. وكان جون مالكولم من الضباط البارزين فى حكومة بومباى وقدر له أن يلعب دورا كبيرا فى العلاقات الإنجليزية الفارسية فى السنوات الأولى من القرن التاسع عشر[3]، وعرف فيما بعد بالسير

---

(١) Auzoux, op. cit., p. 27.

(٢) عبدالفتاح إبراهيم: علي طريق الهند بغداد ١٩٣٥، ص٤٦.

(٣) ج.ج لوريمر: دليل الخليج جـ١ ص ٢٧٠.

جون مالكولم حين وصل إلى منصب حاكم بومباى. وفى طريقه إلى فارس عرج مالكولم على مسقط حيث التقى بسلطانها فى موقع بين جزيرة هنجام وقشم، وفى هذا اللقاء أوضح مالكولم لسلطان بن أحمد تطور الأحداث فى الهند وأن الإنجليز أصبحت لهم الكلمة العليا هناك خاصة بعد إخمادهم لثورة ميسور وقتلهم تيبو صاحب، كما أوضح جون مالكولم للسلطان خطورة تماديه فى علاقاته مع الفرنسيين فى الوقت الذى أصبح فيه الإنجليز سادة الموقف وأنهم يسيطرون على جميع الموانى التى تمر بها تجارة السلطنة، ولما كانت مسقط تعتمد اعتمادا كبيرا على التجارة الخارجية فماذا يفعل سلطان مسقط ـ على حد تساؤل مالكولم ـ إذا ما منعت بريطانيا سفن مسقط من الدخول إلى تلك الموانى أو ماذا يكون مصير تجارتها فى حالة إغلاق موانى الهند أمامها؟.

وأكد مالكولم للسلطان أنه لا يمكن الإجابة على كل هذه التساؤلات إلا بالاعتراف بالحقيقة الواقعة وهى أن رخاء مسقط يعتمد على رضاء الإنجليز وصداقتهم[(١)]. وبالإضافة إلى ذلك فإن جون مالكولم عمد إلى إثارة شكوك السلطان ضد الفرنسيين مستغلا العاطفة الدينية حيث ذكر له أن فرنسا أمة خارجة على القانون تحدت جميع المعاهدات واستولت على مصر وأخذت تفرض نفوذها على الطرق المؤدية إلى الحرمين الشريفين، ولولا أن الله قيض لبريطانيا النصر لاستولت فرنسا على المدن الإسلامية المقدسة وأزالت العقيدة الإسلامية من الوجود!. ولا شك أن الظروف قد ساعدت مالكولم إذ إن الحملة الفرنسية كانت تواجه مصيرها السئ فى مصر بعد أن دمر الأسطول الإنجليزى الأسطول الفرنسى فى أبو قير. أما عن هولندا فقد خرجت من ميدان الصراع واكتفت بتركيز نفوذها فى باتافيا فى جزر الهند الشرقية. وقد اقترح جون مالكولم على سلطان بن أحمد التوقيع على اتفاقية جديدة تنص على تأكيد البنود التى سبق أن نصت عليها اتفاقية ١٧٩٨[(٢)].

---

(١) Kaye, John, The life and Correspondence of Sir John Malcolm vol. I P. 103

(٢) Bombay Government, op. cit., cf. Historical Sketch of the Rise and Progress of The Govt. of Muscat 1693-1819.

وقد ذكر مالكولم فى رسالة بعث بها إلى مورنجتون أنه على الرغم من أنه لم تكن لديه تعليمات خاصة بعقد اتفاقية جديدة إلا أنه رأى أنه بهذا العمل يمكن أن يلتقى مع رغبات وأهداف حكومة بومباى، خاصة وأنه علم بأن سلطان مسقط كان لا يزال فى خدمته خمسة أو سته من الموظفين الفرنسيين وأنه سيصرفهم جميعا من خدمته حال عودته إلى مسقط وإن كان هذا الإجراء قد يوقعه فى ضيق شديد إذا لم تزوده حكومة بومباى بثمانية أو عشرة رجال من مدفعية بومباى.

على أن أهم نتيجة توصل إليها مالكولم هى أنه أخذ موافقه صريحة من السلطان على استقبال وكيل بريطانى فى مسقط تتم عن طريقه جميع الاتصالات بين مسقط وحكومة الهند. وهكذا حل وكيل من قبل حكومة بومباى محل وكيل الشركة الوطنى. وسارع مالكولم بتعيين أحد مرافقيه ليشغل هذا المنصب الجديد وهو الليفتنانت أرشيبالد بوجل Bogle، وكان من الجراحين العاملين فى حكومة بومباى، ومما يذكر أنه سبق لدنكان أن اقترح فى عام ١٧٩٨ على سلطان مسقط أن يطرد طبيبه الفرنسى على أن يزوده بطبيب إنجليزى ولكن السلطان اعتذر لدنكان عن عدم إمكانية تنفيذ اقتراحه فى ذلك الوقت، ويعلق جون كاى على اختيار طبيب للقيام بوكالة بريطانيا فى مسقط بقوله «إن هناك بابين جانبين فى الشرق يمكن أن تطرقهما الدبلوماسية الإنجليزية أولهما التجارة وثانيهما الطب، ونحن مدينين بإمبراطوريتنا الهندية لهما بالتأكيد»[1].

ومما يسترعى الانتباه فى هذه الاتفاقية أنها كانت أولى الاتفاقيات التى لم تحدد صراحه وقتا لانتهائها، وسوف تتبع بريطانيا فيما بعد هذا النمط من المعاهدات فى علاقتها بالإمارات العربية فى الخليج العربى، وهى المعاهدات التى يمكن أن تطلق عليها اسم المعاهدات الأبدية Eternity Treaties حيث ورد فى نص إتفاقية ١٨٠٠ أن تستمر علاقات الصداقة قائمة بين مسقط وبريطانيا إلى أن تتوقف دورة الشمس والقمر فى الفلك![2]، وعلى الرغم من الفترة القصيرة التى بقى فيها

(١) Kaye, John, op. cit., vol. I p. 106.
(٢) Curzon, G., Persia And the Persian Question London 1892 Vol. II. P. 436

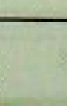
بوجل فى مسـقط، إذ إنه توفى فى أواخر عام ١٨٠٠ بسبب قسوة المناخ، إلا أنه خلال الأشهر القليلة التى قضاها استطاع أن يحدث تحولا كبيرا فى سياسة سلطان بن أحمد تجاه الفرنسيين، وقد ذكـر بوجل فى رسالة بعث بها إلى حكومة بومباى فى فـبراير ١٨٠٠ إنه فى خـلال تردده اليومى علـى السلطان سره أن يسـمع منه تكرار رضائه عن إقامة علاقات ودية مع الإنجليز، وأكد بوجل فى رسالته أن علاقة السلطان أصبـحت وثيقة بالإنجليـز، وازدادت كراهيتـه للفرنسيـين بنفس الدرجة، وذلك بسبب المعاملة السيئة التى كان يلقاها منهم فى استيلائهم على السفن التابعة له، بالإضـافة إلى الغطرسـة والكبرياء التى كـان يجدها فى بعض من كـانوا فى خدمته من الفرنسيين.

وفى الوقت الذى كان فيه بوجل فى مسقط كان جون مالكولم يبذل مساعيه لإيجاد روابط تجارية وسياسية فى فارس بهدف الوقوف بصلابة ضد خطط بونابرت فى الشرق؛ إذ كان من أبرز أهداف بعثـة مالكولم القضاء على أية خطط يمكن أن تتخذها فرنسا إزاء فارس، فضلا عن إتخاذ الخطوات الفعالة لإنقاذ الهند من الخطر الذى يمكن أن يتـهددها إذا تعـرضت لغزو أفـغانى من الشـمال، ومما هو جـدير بالذكـر أن حكومة الهند أنفـقت أموالا طائلة لإنجـاح تلك البـعثـة، وكما يـذكر واطسون Watson أن مالكولم قـدم هدايا كثيرة من الجـواهر واللآلئ إلى البلاط الفارسى[١]. كما يعـتبر كثير من البـاحثين أن هذه البعثة تعـد بداية لظهور المسألة الفارسية فى التاريخ الحديث[٢].

وصلت بعثة مالكولم إلى فـارس فى نوفمبر ١٨٠٠ بعد انتهاء مهـمتها فى مسـقط، وحاول مالكولـم أن يحصل من الشاه على مـركز فى السـاحل الشرقى للخليج ليكون بمثابة قاعـدة عسكرية لحماية المصالـح التجارية للإنجـليز. ومن المعروف أن مالكولم أثناء عـمله بحكومة بومباى كـان قد وضع تقريرا عن الخليج العربى فى عام ١٧٩٩ أبرز فيه أهميته التجارية والسياسية والاقتصادية.

(١) Watson, Robert, History of Persia from the begining of the 19th century to the year 1858 London 1866. P. 127

(٢) Dennis, op. cit., P. 212. See also Sykes, op. cit., p. 109



وعلى الرغم من أن مالكولم فشل فى الحصـول على فرمان من الشاه يسمح للإنجليـز بإقامـة هذه القاعـدة إلا أنه نجح فى توقيع إتفـاقيـتين إحـداهما تجـارية والأخرى سـياسـيـة، وقد نصت الاتفاقـية الأولى على منح الإنجليـز إمتيـاز إنشاء وكالات تجـارية فى المقاطعات الفـارسية فى حـين نصت الاتفاقيـة السياسـية التى وقعت فى يناير ١٨٠١ على قـيام تحالف فارسى بريطانى ضد أيـة قوة تهدد الهند وفضلا عن ذلك فـقد نجح مالكولم فى استـصدار فرمان من الشاه يأمـر فيه حكام المقاطعات والجزر والموانى الفارسية بطرد الفـرنسيين وعدم السماح لهم بالتوغل فى المناطق التابعة لفارس[١]. وعلى الرغم مما كان متوقعا أن يسود النفوذ الإنجليزى فى فارس والخليج العربى فى أعقاب بعثـة مالكولم إلا أنه مما يستلفت النظر أن العشر سنوات التالية لبـعثة مالكولم تميزت بإضطراب مـوقف الإنجليز. ولعل ذلك يرجع فى الدرجـة الأولى إلى محـاولة فـرنسا بـعث نشاطهـا فى الشـرق، وترتبط هذه السنوات العـشر بالجهـود التى قام بهـا نابليون بونابرت بعـد ظهوره على مـسرح السياسة الفرنسية، وكان على بريطانيا أن تواصل جهودها الديبلوماسية لكى تواجه هذا النشاط ومن ثم استمرت مسقط وفـارس رغم الجهود البريطانية السابق إشارتنا إليها، تشكلان البؤرتين الرئيسيتين للتنافس الإنجليزى الفرنسى خلال العشر سنوات الأولى من القرن التاسع عشر الميلادى[٢].

ومما يستلفت النظر أن سلطنة مسقط رغم ارتبـاطها باتفاقيتى ١٧٩٨و ١٨٠٠ مع بريطانيا إلا أنها ظلت قلقة فى علاقتها بكل من إنجلترا وفرنـسا، وكانت سياسة حكامها تتغير على حسب قوة إحدى الدولتين أو ضعفها، ومن ناحية أخرى كانت مسقط تتطلع فى ذلك الوقت إلى مساعدات خارجية كى تواجه المشكلات الداخلية التى كانت تواجهها وخاصة إبان الغزوات الوهابية التى كانت تتعرض لها. ولما كان الإنجليز حريصين فى ذلك الوقت على عـدم التدخل فى المشكلات الداخلية فضلا عن إحجامهم عن تقديم أية مـساعدة لسلطان مسقط فى محاولته السـيطرة على جزر البحرين؛ فقد كان هذا من شأنه أن يدفع بالسلـطان إلى استئناف علاقاته التقليدية

(١) Adamyiat, F., op. cit., P. 47.
(٢) Watson, R. G., op. cit., p. 127.

مع الفرنسيين الذين رحبوا بمساعدته وقدموا له العون فى هجوم قام به على جزر البحرين فى عام ١٨٠١[١]، كما استقبل سلطان بن أحمد فى أواخر عام ١٨٠١ أحد مبعوثى الحكومة الفرنسية - دى ساتوفيل - وأبقاه فى عاصمته قرابة خمسة عشر شهرا رغم القيود التى كانت تتضمنها إتفاقيتى ١٧٩٨و ١٨٠٠. وقد روى ساتوفيل بنفسه المعاملة الحسنة التى لقيها من السلطان بقوله «عوملت أثناء إقامتى بمسقط معاملة ممتازة ودفعت عنى جميع نفقاتى»[٢]. ولعل ذلك النشاط الذى قام به الفرنسيون فى مسقط كان دافعا لمهدى على خان المقيم البريطانى فى بوشهر لزيارة مسقط حيث أوضح للسلطان خطورة قيام علاقة بينه وبين الفرنسيين وأنه يجب أن ينظر إلى صداقة الإنجليز بإعتبارها الروح التى تتنفس بها مسقط وتعيش وأن يهرب من الصداقة الفرنسية كما يهرب من الوباء![٣]. وفيما يبدو أن مهدى على خان كان يائسا من تحول سلطان مسقط إلى الإنجليز الأمر الذى جعله يقترح على الحاكم البريطانى العام فى الهند بأن تقوم حكومة بومباى بمهاجمة مسقط وضمها إلى الممتلكات الفارسية، ويقوم الإنجليز بعد ذلك باستئجارها من الشاه. على أن ذلك الاقتراح لم يوضع موضع التنفيذ فى الوقت الذى لم يقدر فيه النجاح لحملة عسكرية قام بها ولسلى فى عام ١٨٠١ لانتزاع جزيرة فرنسا وضمها إلى الممتلكات البريطانية فى الهند[٤].

ولعل مما يسترعى الانتباه أن اخفاق بونابرت العسكرى فى مصر لم يثنه عن موالاة السعى لتحقيق أهدافه، وقد سبق الإشارة إلى أن فرنسا عملت على استرجاع صداقتها لمسقط إذ قدم ما جالون حاكم جزيرة فرنسا فى عام ١٨٠١ مساعدات عسكرية لسلطان بن أحمد لضم جزر البحرين إلى حكمه[٥]. وكتب سلطان بن أحمد إلى ماجالون يعرب عن اغتباطه بهذه المساعدات بقوله: «إنه من

(١) Coupland, R., op. cit., P. 102.
(٢) وثائق الحكومة السعودية - مصدر سبق ذكره جـ١ ص١١٥.
(٣) نفسه جـ١ ص ١١٦.
(٤) Coupland, op. cit., P. 99.
(٥) Ibid., p. 102.

المتعذر علينا أن نعرب لكم عن اغتباطنا بوصول القوات التى كان من فضلكم إرسالها إلينا وقد استقبلناها بذراعين مفتوحين وسنحرص دائما على أن نعتبرهم إخوة وأصدقاء لنا ونحن وخلفاؤنا مدينون لكم بها إلى أبعد حد مستطاع»[1]؛ ويتضح من هذه الرسالة أن سلطنة مسقط أخذت تسرف فى علاقاتها بالفرنسيين، ووصل الأمر إلى أن أرسل سلطان بن أحمد مبعوثا من قبله إلى جزيرة فرنسا فى عام ١٨٠٣ تقابل مع ماجالون وأعرب له عن استياء سلطان مسقط من الإنجليز وأنه يطالب بوضع مسقط تحت حماية الجمهورية الفرنسية، وحمّل سلطان بن أحمد مبعوثه بعض الهدايا ومنها مجموعة من الجياد العربية الأصيلة لكى يبعث بها ماجالون إلى بونابرت[2]؛ وقد بادر ماجالون على أثر تلك الزيارة بالكتابة إلى وزير الحربية الفرنسى يؤكد له أن حاكم مسقط يسعى إلى الظفر بصداقة الجمهورية وحمايتها وأن لديه أسبابا كثيرة للشكوى من مضايقات الإنجليز؛ وفى رسالة أخرى أكد ماجالون أن حاكم مسقط أعرب له عن استعداده لاستقبال وكيل من قبل الحكومة الفرنسية وأنه سيعتبر أعداء الجمهورية أعداء له[3]. ومما لا شك فيه أن فرنسا فى هذه الفترة كانت تركز على أهمية مسقط حتى أن تاليران وزير الخارجية الفرنسية أكد فى أحد تقاريره إلى بونابرت فى عام ١٨٠٣ على هذه الأهمية بقوله: إن الإمام الذى يحكمها يمتد سلطانه إلى بعض المناطق الواقعة على ساحل موزمبيق وإنه مستقل من جميع الوجوه.

ويمكن تعليل الاتصالات التى دارت بين مسقط وفرنسا بأنها كانت من نتائج النشاط المتزايد الذى كان يقوم به الفرنسيون لاستعادة مكانتهم فى الشرق، والذى ظهر فى إرسالهم البعثات المختلفة إلى مسقط مما ترك الفرصة أمام سلاطينها لاستئناف علاقتهم بالفرنسيين؛ وبذلك لم يعد لإتفاقيتى ١٧٩٨ و ١٨٠٠ أى أثر فى عزل مسقط عن فرنسا وإنما عادت علاقات الصداقة بينهما، ووصلت تلك العلاقات أوجها بين عامى ١٨٠١و١٨٠٣، وكان ذلك بفضل تاليران الذى أوفد

(١) وثائق الحكومة السعودية: مصدر سبق ذكره جـ١ ص١١٦.

(٢) Coupland, R., op. cit., P. 102.

(٣) Ibid., p. 103.

بعثة إلى مسقط برئاسة دى كافينياك. ومما هو جدير بالملاحظة أن إرسال تلك البعثة كان يرتبط بعقد صلح إميان Amiens بين إنجلترا وفرنسا فى عام ١٨٠٢؛ إذ إنه نتيجة لذلك الصلح خفت الرقابة البريطانية على موانى المحيط الهندى، ولذلك قررت فرنسا فى يونية ١٨٠٢ تعيين كافينياك ممثلا وقنصلا لها فى مسقط. وفى أكتوبر ١٨٠٣ وصل كافينياك من جزيرة موريس إلى مسقط وكان واضحا أنه يعتزم الإقامة الكاملة[١]. ولكنه ما كاد يصل إلى مقر عمله فى مسقط حتى اشتعلت الحرب من جديد بين إنجلترا وفرنسا، وحينما بلغ ذلك السلطان تراجع عن استقبال كافينياك، واتخذ السلطان هذا الموقف رغم تهديدات قائد السفينة اطلنطا التى حملت كافينياك من جزيرة موريس إلى مسقط، ولكن ديكان الحاكم العام لجزيرة موريس سرعان ما تراجع عن تصعيد هذه الأزمة مؤكدا أن ما تتحمله فرنسا من متاعب لحفظ احترام وهيبة ممثل لها فى مسقط لا يساوى تأسيس قنصلية لها هناك[٢]. وفيما يبدو أن كافينياك ـ حين عاد إلى جزيرة موريس ـ كان السبب فى وصول ديكان إلى هذا القرار حيث أكد له أن مسقط بلد فقير لا تشكل أية أهمية سياسية أو اقتصادية ولا فرق بين سلطانها وبين سائر شيوخ القبائل العربية؛ والفائدة الوحيدة التى يمكن أن تحصل عليها فرنسا من وراء إقامة تمثيل بها هى تسهيل خدمات البريد بين المحيط الهندى وأوربا، وحتى هذه الميزة لا فائدة منها طالما كان الإنجليز يضعون الملاحة فى الخليج تحت رقابتهم، ولذلك فإن كل ما تستحقه مسقط لا يتعدى تعيين وكيل تجارى بها من أقل الدرجات.

وليس من شك فى أن سلطان مسقط كان واقعيا فى رفضه استقبال كافينياك وذلك لتقديره قوة الإنجليز[٣]. وعلى الرغم من أن كافينياك لقى استقبالا حارا من تجار مسقط إلا أن محمد بن خلفان حاكم ميناء مسقط اعتذر لكافينياك بأنه لا يملك سلطة استقبال مفوض خارجى، وإن كان قد وعده بأن يخبر السلطان لدى عودته إلى مسقط حيث كان فى ذلك الوقت خارج مسقط بسبب غزو وهابى

(١) مولى : مرجع سبق ذكره ص ص ٤٦/٤٧.
(٢) صادق نشأت: مرجع سبق ذكره ص ص ١٠١/١٠٢.
(٣) Coupland, R., op. cit., P. 103.

تعرضت له أطراف بلاده. ولعل السلطان كان يرى أن مصلحته تحتم عليه الاعتماد على بريطانيا بسبب تأزم العلاقات بينه وبين الوهابيين وعتوب البحرين والقواسم وبالتالى لم يكن مستعدا للتضحية بالمساعدات البريطانية المتوقعة لقاء تودده للفرنسيين[١]. ولعل ذلك مما دفع حاكم ميناء مسقط أن يذكر لكافينياك صراحة بأنه كان يتمنى وصوله فى فترة سلام حتى يستقبله السلطان بارتياح وشوق «غير أن الإنجليز ولا شك سوف يغضبون على سيدى لو سمح لك أن تجيء بعد إعلان الحرب فإن لدينا عشرين سفينة كبيرة فى موانئهم فى البنغال وعلى ساحل ملبار وليس ثمة ريب فى أنه سيتم الاستيلاء عليها حالما يتلقون التعليمات». ويذكر ويلسن أن الانجليز هددوا السلطان بفرض حصار على موانئه[٢]. ورغم ذلك الحوار القاسى الذى دار بين الطرفين إلا أن محمد بن خلفان ألمح لكافينياك أنه على استعداد لكى يتباحث معه فى الشئون التجارية فقط لأن الاتفاقيات التى أبرمها السلطان مع بريطانيا تحتم عليه ألا يقبل تمثيلا فرنسيا فى بلاده. وهكذا كان مقررا لبعثة كافينياك ألا تجد لها نصيبا من النجاح وانسحبت البعثة على الفور بعد أن تحققت من الإتفاقيات التى عقدتها مسقط مع بريطانيا فى عامى ١٧٩٨و ١٨٠٠[٣].

وعلى الرغم من أن الظروف الخارجية التى أوضحناها كانت سببا فى فشل بعثة كافينياك إلا أن جيان يحمل الظروف الداخلية فى مسقط مسئولية ذلك الفشل ويذكر بصدد ذلك أن نجاح سلطان بن أحمد فى السيطرة على حكم الساحل وابعاده لخلفان بن محمد وتعيين ابنه محمد بن خلفان فى حكم ميناء مسقط كان هو المسئول عن تدهور علاقة مسقط بفرنسا إذ لم يكن لمحمد بن خلفان ما كان لأبيه من نشاط سياسى ومصالح تجارية مع فرنسا، والذى كان يرجع إليه الفضل أيضا فى إزدهار العلاقات التجارية بين مسقط وجزيرة موريس. وفى اعتقادنا أن الأمر لم يكن مجرد تعيين حاكم بدلا من حاكم آخر بقدر ما يرجع الأمر إلى تغير الظروف والأوضاع الخارجية، ولعل ما يؤكد لنا ذلك أن سلطان بن أحمد كان قد

---

(١) Guillain, op. cit., tome Ipp. 200-209.

(٢) Wilson, A., op. cit., pp. 232-233.

(٣) Guillain, op. cit., tome Ipp. 207- 209.

تمادى أكثر من غيره فى علاقته بالفرنسيين إذ إنه قبل منهم المساعدات العسكرية إبان تطلعه لضم جزر البحرين إلى حكمه، ولذلك فإن فشل بعثة كافينياك يرجع سببها إلى حرص سلاطنة مسقط الإبقاء على كيانهم وذلك بانضمامهم إلى الدولة الأقوى التى يخشون منها على نفوذهم؛ وكانت بريطانيا هى الدولة المتفوقة فى المحيط الهندى أثناء قدوم كافينياك إلى مسقط. وحين تغير وضع بريطانيا اضطر السيد سعيد بن سلطان الذى وصل إلى الحكم فى عام ١٨٠٦ أن يقف موقفا مترددا بين الإنجليز والفرنسيين حين بلغ النزاع بينهما أشده فى ذلك الوقت، ولما كان السيد سعيد فى حاجة إلى تأييد قوة أجنبية يستعين بها فى إقرار الأوضاع الداخلية فى بلاده وتأمينها من الغزوات التى كانت كثيرا ما تتعرض لها، فضلا عن محاولته تحقيق طموحه فى السيطرة على بعض مناطق الخليج العربى فقد أخذ يعمل فى الحصول على تأييد إحدى الدولتين المتصارعتين دون أن يثير عليه الدولة الأخرى، ولكن فرنسا لم تكن مطمئنة إلى السيد سعيد بعد أن توطدت العلاقات بينها وبين عمه بدر بن سيف الذى اغتاله فى عام ١٨٠٦، وتمكن أن يسيطر على الحكم. وكان بدر بن سيف قد أرسل إلى ديكان حاكم جزيرة فرنسا فى عام ١٨٠٥ يؤكد له إنه أكثر صداقة للفرنسيين وعبر عن ارتياحه لوصول السفن الفرنسية إلى موانى مسقط للتزود بالمياه والمؤن(١).

وقد أدت علاقة بدر الوثيقة بالفرنسيين إلى إثارة حكومة بومباى التى أسرعت بإيفاد الكابتن سيتون ليخلف بوجل كوكيل سياسى فى مسقط، وعلى الرغم من أن سيتون واجه صعوبات شديدة نتيجة علاقة بدر بن سيف الوثيقة بالفرنسيين إلا أنه استطاع أن يضع الحجر الأساسى للنفوذ البريطانى فى مسقط(٢)، ويعمل على تأكيد إتفاقيتى ١٧٩٨و ١٨٠٠ وإن كان لم يمنح سوى دارا صغيرة لسكناه لم يسمح له أن يرفع عليها علم بلاده(٣). وهكذا عندما وصل السيد سعيد

(١) Coupland, R., op. cit., P.110

(٢) Auzoux, A., op. cit., p. 45.

(٣) وثائق الحكومة السعودية: التحكيم لتسوية النزاع الإقليمى بين مسقط وأبو ظبى وبين المملكة العربية السعودية - عرض الحكومة السعودية جـ١ ص ١٢١.

إلى الحكم كانت العلاقات مزدهرة بين مسـقط وفرنسا، وبالتالى كان من المنتظر أن تبادر فرنسا بمواجهته بالعداء لقتله صديقها بدر بن سيف، ولكن سعيد بادر بالكتابة إلى ديكان حاكم جزيرة فرنسا ينبئه بوصوله إلى الحكم وعبر عن رغبته فى أن تظل علاقات الصداقة قائمة بينه وبين فرنسا[١]. وحين تأزم الموقف بين إنجلترا وفرنسا أعلن حيادة فى الصـراع القائم بين الـدولتين، ومع ذلك فـقد اضطر إلى إرغام إحدى السفن الفـرنسية على الخروج من موانى بلاده وهى السفـينة الحربية Vigi-lant وكان ذلك امـتثـالا لطلب قائد السـفينة الإنجليـزية التى حدثت بينهـا وبين السفينة الفرنسية بعض المناوشات[٢]. وأدى هذا الموقف إلى توتر العـلاقة بينه وبين الفرنسيين الأمر الذى دفع السيد سعيد إلى الكتابة إلى دنكان حاكم بومباى يعرض عليه تأكيد الصداقة بين مـسقط وبريطانيا، ولكن دنكان أهمل الرد عليه وربما كان ذلك بناء على تعليمات تلقاها من بارلو Barlaw حاكم عام الهند الذى أدرك أن السـيـد السعيد يهـدف إلى حماية بريطانيا له ومـساعدتها له ضـد الوهابيين، وهى أمور لم تكن حكومـة الهند تريد أن تقدم عليها لما يتـرتب عليها من إقحـامها فى منازعات داخلية مع أمـراء الجزيرة العربية، وبالإضافة إلى ذلك فـإن وضع مسقط تحت الحمـاية البريطانية سـيجعلها هدفـا لحملات فـرنسية مكثفـة، وكان من رأى حكومة الهند أن حياد مسقط يحميها من فرنسا؛ وما دامت إتفاقيتا ١٧٩٨ و ١٨٠٠ قائمـتين فإن ذلك سـيمنع فرنسـا من إقامة تمـثـيل سياسى فى مـسقط. ولعل هذا الموقف الذى وقفـته حكومة الهند جعل السـيـد سعيـد يعاود الاتصال بالفرنسـيين فكتب إلى ديكان حاكم جزيرة فـرنسا يذكره بالصداقة التقليدية بين فـرنسا ومسقط وقدم له اعـتذاره عن حـادث السفينة فـيجـيلانت وعزى ذلك إلى تحـكم الإنجليز وتسلطهم، وبادر بإرسال أحد أعوانه وهو ماجد بن خلفان إلى بورت لوى عاصمة جزيرة فـرنسا لكـى يتفاوض مع ديـكان فى إبرام معـاهدة صداقـة وسلام دائم لا ينقض بين مسقط والحكومة الفرنـسية[٣]. ولعل مما يثير الانتـباه أنه على الرغم من

(١) Auzoux, A., op. cit., P. 46.

(٢) Guillain, C., op. cit., tome I p. 211.

(٣) Guillain, Charles, op. cit., cf. Relation du Voyage d' Exploration à la Côte Orientale d' Afrique, tome I P. 211 SQ.

جراء هذه الاتصالات إلا أنها لم تحدث أثرا معاكسا لدى الإنجليز، ولعل ذلك يرجع إلى أن مجلس إدارة شركة الهند الشرقية البريطانية كان قد اتخذ قرارا فى عام ١٨٠٧ بضغط المصروفات العسكرية وعدم الاستحواذ على أراض جديدة وعدم التورط فى منازعات مع حكومات أخرى خارج نطاق الهند، ولذلك اقتصرت حكومة الهند حينما علمت بتحركات السيد سعيد مع الفرنسيين على إبلاغه بضرورة اتخاذه موقفا محايدا واحترام الإتفاقيات التى عقدتها السلطنة مع الحكومة البريطانية، ولكن ذلك لم يمنع السيد سعيد من أن يستقبل فى يونيه ١٨٠٧ وكيلا فرنسيا فى مسقط، بل تمادى أكثر من ذلك فى توقيع معاهدة بينه وبين فرنسا فى ١٥يونية ١٨٠٧ نصت على عودة علاقات الصداقة بين البلدين، وأن تنال كل من الدولتين إزاء الأخرى شروط ومعاملة الدولة الأكثر رعاية[1]. وقد أكد ديكان فى تقرير له إلى حكومة باريس أهمية عقد هذه المعاهدة وخاصة بعد أن دخلت الدانمرك الحرب مع الحلفاء وأصبحت كل الطرق البحرية التى تصل فرنسا بمستعمراتها فى الهند مغلقة، ولذلك فإنه يمكن الاستفادة من السفن المسقطية فى القيام بتلك الاتصالات، بيد أن الصعوبة التى اعترضت ديكان هى كيفية التصديق على هذه المعاهدة دون أن يكون فيها نص يقضى بحرمان السفن المسقطية من الاتصال بالموانى البريطانية فى الهند إذ إن القوانين الفرنسية الخاصة بالحصار القارى Blocus Continental. كانت تحرم على الدول المحايدة وعلى حلفاء فرنسا الإتجار مع العدو، بينما كانت المادة السادسة من معاهدة ١٨٠٧ بين فرنسا ومسقط تنص على أنه فى استطاعة السفن المسقطية أن تلقى مراسيها فى موانى الهند البريطانية بشرط أن تتوجه بعد خروجها من الميناء مباشرة إلى إحدى الموانى التابعة لمسقط وليس لها الحق فى الملاحة بين موانى العدو. وعلى الرغم من أن المادة الثالثة من معاهدة ١٨٠٧ كانت تحرم التجارة مع الإنجليز إلا أنها كانت تستثنى من ذلك تجارة التمور والخيول التى هى من أهم صادرات مسقط، كما كانت تعطى للسفن الفرنسية حق تفتيش السفن المسقطية ووسيلة التحقق من هويتها. وعلى

(1) Kajare. Firouz, le Sultanate d'Oman et la Question de Mascate P. 86.

الرغم من أن هذه المعاهدة كانت تعد نصرا كبيرا للسياسة الفرنسية إلا أنه لم يتم المصادقة عليها بسبب مخالفتها للتشريعات التى أصدرها نابليون بين عامى ١٨٠٦و ١٨٠٧ الخاصة بتطبيق الحصار الاقتصادى على بريطانيا، وعلى الرغم من الجهود الكبيرة التى بذلها ديكان لكى يقنع حكومته بأنه يجب عليها أن تستثنى بحار الشرق من تطبيق سياسة الحصار الاقتصادى حيث لا تتعادل قوى الدولتين المتصارعتين إلا أن الحكومة الفرنسية أصرت على إيقاف سريان تلك المعاهدة وبالتالى لم يتم المصادقة عليها[١].

والأمر الذى لا شك فيه أن السيد سعيد قد أيقن أنه أخطا فى اختيارفرنسا لتكون حليفة له، وخاصة بعد أن فرضت حكومة الهند حصارا بحريا حول جزيرتى موريس والبوربون فى عام ١٨٠٨، ولذلك عاود الكتابة إلى دنكان حاكم بومباى متخذا خطا بريطانيا واضحا إذ جاء فى الرسالة التى بعث بها إليه فى أغسطس ١٨٠٧ «إنه بعون الله تعالى سأظل طالما بقيت حيا ملتزما وأمينا للصداقة والارتباط الوثيق الذى يربط بيننا وثقتى بالله أن لا يحدث ما يعكر صفو هذه الصداقة.. إن ثرواتى وممتلكاتى اعتبرها ملكا لكم كما أن كل المناطق الواقعة تحت سلطتى اعتبرها خاصة بكم[٢]». وهكذا استطاع جون مالكولم أن يصل مع السيد سعيد إلى نتائج إيجابية أكثر فعالية وذلك حينما وصل إلى مسقط فى عام ١٨٠٨ لكى يتأكد من موقف السيد سعيد من قرار الحكومة الفارسية تسليم ميناء بندر عباس إلى الفرنسيين، وكان ذلك الميناء تحت إدارة حكومة مسقط ولا يمكن تنفيذ هذا القرار من الناحية العملية إلا بالتزام مسقط به حيث أكد السيد سعيد لجون مالكولم إن كلا من بندر عباس وهرمز تحت سيطرته وأنه لن يسمح لا للفرنسيين ولا للفرس باستخدامهما كقواعد عسكرية .

وقد أخذت العلاقات البريطانية المسقطية تتخذ صبغة جديدة بعد استلام

---

(١) Ruete, R.S., op. cit., P. 103.

(٢) صالح محمد العابد : مرجع سبق ذكره ص٢٤٦.

(٣) F.O. No. 67. The Persian Gulf London 1920 P. 41.

ديكان للإنجليز وسقوط جزيرة فرنسا فى عام ١٨١٠[٣]، حيث تميزت تلك العلاقات بتبعية مسقط للنفوذ البريطانى. حقيقة أن فرنسا حاولت بعد استعادتها جزيرة البوربون فى عام ١٨١٤ أن تستأنف علاقتها بمسقط حيث عقدت مع السلطنة معاهدة فى عام ١٨١٧ ومعاهدة أخرى فى عام ١٨٤٤، إلا أن هاتين المعاهدتين لم تتعديا كونهما معاهدات تجارية فى الدرجة الأولى، إذ إن مركز الثقل السياسى والعسكرى كان قد تحول إلى بريطانيا فى سلطنة مسقط وتوابعها فى شرق أفريقيا منذ السنوات الأولى من القرن التاسع عشر الميلادى[١].

---

(١) Kajare, Firouz, op. cit., P. 250.



الفصل الخامس

عمان وشرق إفريقيا (*)

(*) لمزيد من التفصيلات عن علاقة عمان بشرق إفريقيا يمكن الرجوع إلى كتابنا الأصول التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية وكذلك دولة بوسعيد فى عمان وشرق إفريقيا.

نجاح اليعاربة فى فرض السيادة العمانية على شرق إفريقيا ـ الحركات الانفصالية فى شرق إفريقيا عقب سقوط اليعاربة ـ إعادة السيادة العمانية على شرق إفريقيا على عهد البو سعيد ـ محمية أوين ـ سقوط أسرة المزروعى ـ تحويل مقر الحكم من مسقط إلى زنجبار ـ السياسة الداخلية ـ العلاقات الاقتصادية الخارجية ـ بريطانيا وتجارة الرقيق فى شرق إفريقيا ـ امتداد النفوذ العمانى إلى داخل القارة الإفريقية.

لم يكن لنشاط اليعاربة وجهودهم فى الصراع الذى قام بينهم وبين البرتغاليين أثر كبير فى تخليص مسقط من البرتغاليين فحسب وإنما فى إقصاء البرتغاليين عن جزء كبير من سواحل شرق إفريقيا حيث نجح اليعاربة فى تأسيس حكم عربى على تلك السواحل ثم امتد بعد ذلك إلى الداخل، على أنه مما تجدر الإشارة إليه أن سيطرة اليعاربة على سواحل شرق إفريقيا كانت سيطرة واهية. وفى تقديرنا أن ذلك يرجع إلى عوامل كثيرة من بينها أن اليعاربة استنفدوا معظم جهودهم فى صراعهم ضد البرتغاليين، وما كادوا يفرغون من هذا الصراع حتى وجدوا أنفسهم مواجهين بصراعات وحروب أهلية عنيفة مما لم يترك أمامهم فرصة توجيه اهتمامهم لما قاموا به من فتوح، ولذلك كان من الطبيعى أن ينتهز ولاة اليعاربة على مقاطعات الشرق الإفريقى تلك الحالة من الفوضى لتثبيت نفوذهم، ولم يلبثوا أن أعلنوا صراحة استقلالهم عن التبعية العمانية وذلك على أثر سقوط دولة اليعاربة[1]. وقدر لممبسة أن تتزعم الحركات الانفصالية التى قامت فى شرق إفريقيا وذلك عى أثر نجاح محمد بن عثمان المزروعى فى تأسيس الأسرة المزروعية فى عام ١٧٣٩ . وكان سقوط اليعاربة فرصة انتهزها المزروعى لكى يعلن استقلاله عن التبعية العمانية وظهر ذلك واضحا حين رفض الاعتراف بولائه للأسرة الجديدة

---

(١) Guillain, Expose Critique des diverses notions acquises sur l'Afrique Orientale, tome II pp. 542 - 543.

التى خلفتها وهى أسرة البو سعيد[1]. وكان منطقه فى ذلك أن ممبسة ظلت على ولائها لدولة اليعاربة حتى سقطت ولم تكن تبعيتها لعمان معناها أن تستمر على ولائها بعد سقوط أسرتها الحاكمة فضلا عن أن مؤسس الدولة الحاكمة الجديدة وهو أحمد بن سعيد لا ينتمى إلى أصل ملكى وإنما لا يعدو أن يكون رجلا من عامة الشعب توصل إلى الحكم بجهوده وطموحه الشخصى وبالتالى فليس هناك ما يدعو إلى الاعتراف به، وبمعنى آخر أنه إذا كان والى صحار قد استطاع أن يصل إلى زمام الحكم فى بلاده فماذا يمنع المزروعى وهو والى اليعاربة على ممبسة من الاقتداء بما فعله والى اليعاربة على صحار؟. وهكذا وجد الإمام أحمد بن سعيد نفسه بعد وصوله إلى الإمامه مهدداً بهذه الحركة الانفصالية التى قامت فى الشرق الإفريقى؛ ومع ذلك فلم تكن المشاكل التى واجهها سواء فى داخل بلاده أو فى الخليج العربى أو فى صراعه ضد الفرس أو فى جهوده لتوطيد دعائم حكمه لتشغله عن توطيد السيطرة العمانية على مقاطعات الشرق الإفريقى؛ وخاصة أنه أعقب قيام الحركة الانفصالية فى ممبسة حركات انفصالية أخرى تزعمها النبهانيون فى جزيرة بات وأصابت من النجاح ما أصابته ثورة ممبسة. وهكذا واجهت دولة بو سعيد فى مستهل عهدها بالحكم تلك الحركات الانفصالية التى ظهرت فى ممتلكاتها الإفريقية. وإذا كان الإمام أحمد بن سعيد لقى مقاومة شديدة فى كل من ممبسة وبات فإنه كان أكثر توفيقا ونجاحا فى الممتلكات الإفريقية الأخرى إذ لقى ولاءً فعليًا من بعضها أو خضوعا أسميا من بعضها الآخر؛ فزنجبار ظلت على ولائها لعمان كذلك فعلت مركه أما كلوة فقد أعلنت الولاء للدولة الجديدة وإن كان ذلك ولاءً اسميًا[2]. وعلى الرغم من الجهود التى بذلها الإمام أحمد بن سعيد لمواجهة التحالف الذى كونته ممبسة من المقاطعات الثائرة ضد عمان كمقديشيو وبراوة وبقية المدن التى تليها حتى كوافى إلا أنه لم يكن على استعداد لكى يتمادى فى بذل جهد أكثر من ذلك إذ لم يكن حكمه فى عمان قد توطد بعد ومن جهة أخرى فإن المشاكل الكثيرة التى كان عليه أن يواجهها لتوطيد حكمه من حيث القضاء على

---

(1) Lyne, R., Zanzibar in Contemporary Times p. 10.

(2) Pearce, Zanzibar, The Island Metropolis of Eastern Africa p. 109.

الحركات الانفصالية داخل عمان نفسها، فضلا عن العلاقات العدائية التى قامت بينه وبين كريم خان الزندى، وما أدت إليه من اللجوء إلى القوة العسكرية فى كثير من الأحيان هذا بالإضافة إلى وقوع بلاده فى حلبة الصراع الإنجليزى الفرنسى، كانت كلها أمور تستدعى تفرغه التام لمعالجة تلك المشكلات(١). ولذلك اضطر الإمام أحمد بن سعيد إلى الاكتفاء بهذه الجهود التى بذلها لتوطيد حكمه فى الشرق الإفريقى. ومهما تكن محصلة تلك الجهود إلا أنها كانت بمثابة الدعامة الأولى التى ارتكز عليها خلفاؤه من بعده حتى نجح سعيد بن سلطان فى تأسيس إمبراطورية عربية إفريقية كانت الأولى من نوعها فى التاريخ الحديث لآسيا وإفريقيا. على أن أكثر ما اهتم به الإمام أحمد بن سعيد كان يتركز فى النواحى التجارية. ويبدو أن انتماءه لأسرة من التجار واشتغاله بالتجارة كان لها أثر كبير فى اهتمامه بتلك النواحى، وقد فتحت مقاطعات شرق إفريقيا بمواردها الكثيرة أو بما تنتجه من غلات وما يكثر فيها من رقيق سبل التجارة على مصراعيها. ويذكر جيان بصدد ذلك أن الإمام أحمد بن سعيد عمل على تشجيع التجارة واستمرارها بين مسقط والممتلكات الإفريقية التى اعترفت بسيادته. وكان يرسل فى كل عام بعضا من سفنه لتأتى له بالذهب والعاج والرقيق وغير ذلك من موارد تلك الجهات، وحتى المقاطعات التى لم تعترف بسيادته كان حريصا على إقامة علاقات تجارية معها، ولذلك لم يلجأ إلى فرض سيطرته بالقوة العسكرية خوفًا من انقطاع الصلات التجارية بينها وبين عمان(٢).

وكان للصراع الأسرى الذى وقع فى عمان عقب وفاة الإمام أحمد بن سعيد فى عام ١٧٨٣ أثر كبير فى مقاطعات الشرق الإفريقى التى استخدمت مسرحا لهذا الصراع الذى قام بين الإمام سعيد ابن الإمام الذى خلف أباه فى الحكم وبين أخيه سيف الذى التجأ إلى الشرق الإفريقى. والثابت إن ما اتجه إليه الإمام سعيد من إرسال قواته إلى مقاطعات الشرق الإفريقى لم يكن رغبة منه فى القضاء على المحاولات التى كان يخشى وقوعها من أخيه فحسب وإنما كان يرمى من ورائها إلى أهداف أبعد من ذلك وهى تأكيد السيطرة العمانية على تلك المقاطعات. وإذا كان

(١) Guillain, op. cit., tome II pp. 543 - 544 see also Ruete, R., Said Bin Sultan pp. 47-48.

(٢) Pearce, op. cit., p. 117.

الإمام سعيد قد نجح فى رد الأقاليم المناوئة له إلى الطاعة إلا أنه لم يتمكن مع ذلك من تأكيد سيطرته الفعلية على تلك الأقاليم. وإذا عرفنا أن التوابع العمانية فى شرق إفريقيا كانت تفوق بخيراتها ومواردها إقليم عمان فإنه مما يستدعى الدهشة أن ينصرف حكام عمان عنها أو على الأخرى يقنعوا بظل باهت من السيطرة عليها. بيد أننا نستطيع أن نجد تفسيراً لذلك وهو حرص حكام البو سعيد الأول إلى توجيه اهتمامهم إلى قلب الإمامة فى عمان إذ تمسكوا بعاصمتهم الدينية فى الرستاق ولذلك فإنهم لم يتجهوا إلى الشرق الإفريقى إلا اتجاها محدودا كان ينحصر فى محاولتهم بسط السيادة العمانية واستدامة العلاقات التجارية معها.

وبديهى أن النفوذ العمانى نتيجة لتلك الاعتبارات التى أشرنا إليها لم يصل إلى درجة من القوة تجعله يصمد للاضطرابات التى كانت لا تكاد تنقطع فكان انفصال تلك المقاطعات واحدة تلو الأخرى على عهد الإمام أحمد بن سعيد ثم على عهد ابنه الإمام سعيد بن الإمام حتى إذا ما تولى سلطان بن أحمد الحكم وأظهر اهتمامه بالنواحى السياسية أكثر من النواحى الدينية فإنه كان من المنتظر نتيجة لذلك أن يتجه إلى ممارسة سيطرته الفعلية على الشرق الإفريقى. بيد أن المشكلات التى نتجت عن الطابع الجديد الذى تحولت إليه الدولة لم تتح له المجال للتفرغ للشرق الأفريقى وإنما كان انصرافه واضحا نحو العلاقات الخارجية والسياسية للدولة حتى إذا ما تولى السيد سعيد بن سلطان الحكم ١٨٠٦ - ١٨٥٦ واشتد فى عهده التحول من الناحية الدينية إلى الناحية السياسية أخذ الحاكم الجديد يخطط سياسة إفريقية واضحة المعالم[1]. وعلى الرغم مما ذهب إليه كثير من الباحثين فى أن اتجاه السيد سعيد إلى الشرق الإفريقى كان محاولة منه للهروب من المشكلات الكثيرة التى كانت تواجهه فى عمان إلا أننا لا نتفق مع هذا الرأى لأن اتخاذ السيد سعيد سياسة إفريقية لم تكن لتبعده عن المشاكل العمانية التى كان يفرغ لها جزءاً كبيرا من وقته وجهده، وإنما كان اتجاهه إلى الشرق الإفريقى يكمن فى حرصه على هذا الجزء الهام من دولته لكثرة موارده وزيادة فرص استغلاله فضلا عن أن الظروف الجديدة التى آلت إليها الدولة فى عهده لم تكن تضطره كما اضطرت أسلافه من أئمة الدولة إلى البقاء فى إقليم عمان ذى الطابع الدينى التقليدى، وظهر ذلك

(١) Pearce, op. cit., p. 117.

واضحًا حين أقدم السيد سعيد على نقل مقر حكمه من مسقط إلى زنجبار فى عام ١٨٣٢، وإقامته هناك وتفرغه لتكوين إمبراطورية عمانية فى شرق إفريقيا.

ولا شك فى أن الخطوة الكبيرة التى أقدم عليها السيد سعيد فى نقل مركز حكمه إلى زنجبار قد سبقتها بطبيعة الحال جهود كبيرة لتأكيد سيطرته على الشرق الإفريقى إذ إنه عند وصوله إلى الحكم فى مسقط عام ١٨٠٦ وجد أن السيادة العمانية على الشرق الإفريقى قد وصلت إلى أقصى درجة من الضعف، إذ لم يعد لعمان سوى سلطة واهية على بعض مقاطعات الشرق الإفريقى كبمبا وموفيا وكلوة[١]، أما بقية المدن والمقاطعات الإفريقية الأخرى فقد نزعت إلى الاستقلال عن التبعية العمانية[٢]، ولم يلبث أن واجه فى العام التالى من وصوله إلى الحكم حركة انفصالية تزعمها المزروعيون فى ممبسة واستهدفوا بها تخليص المقاطعات الإفريقية من السيطرة العمانية وضمها إلى حكمهم وما كادوا ينجحون فى السيطرة على بات وانتزاعها من أيدى النبهانيين حتى سارعت المقاطعات المناوئة لممبسة إلى طلب حماية السيد سعيد وبذلك سنحت له فرصة التدخل فى الشرق الإفريقى. ولم يكن صراعه الدائب ضد السعوديين أو القواسم ليحول بينه وبين سرعة الاستجابة لتقديم الحماية لمقاطعات الشرق الإفريقى المناوئة للمزروعيين فى ممبسة حيث أرسل بعض قطع من أسطوله لتحقيق تلك الغاية[٣]. ومع ذلك فإن السيد سعيد لم يلبث أن تحقق بنفسه أن نجاحه فى تأكيد السيطرة العمانية على شرق إفريقيا لن يتم إلا إذا تخلص أولا من الأسرة المزروعية فى ممبسة وخاصة عندما وصل إلى حكمها عبد الله بن أحمد المزروعى فى عام ١٨١٤ الذى واصل السياسة التى اتبعها أسلافه من حكام تلك الأسرة فى تخليص مقاطعات شرق إفريقيا من سيادة مسقط عليها. وتحكى إحدى الروايات أنه على أثر وصوله إلى حكم ممبسة أرسل إلى السيد سعيد بعض الطلقات النارية والبارود بدلا من الضريبة السنوية التى كانت مقررة على ممبسة وما يتبعها من مقاطعات شرق إفريقيا، كما حاول نيل تأييد

---

(١) Colomb, Slave Catching in the Indian Ocean p. 364.

(٢) Coupland, R., East Africa and Its Invaders p. 218.

(٣) Ibid., p. 219.

حكومة الهند له حتى لقد سافر إلى بومباى ليحصل على ذلك التأييد. وعندما توفى فى عام ١٨٢٠ بدأ السيد سعيد يعد خطة استهدف من ورائها القضاء على الأسرة المزروعية فى ممبسة، وقدر أهمية الحصار الاقتصادى لإخضاع تلك الولاية ولذلك أصدر قانونا حرم فيه على رعاياه تبادل التجارة مع البلدان التى تحاول الانفصال عن سيطرته، وتبع ذلك استخدام القوة لتخليص المقاطعات الإفريقية من سيطرة المزروعيين عليها؛ فنجح فى تخليص لامو وبراوه وبمبا، كما تمكن من السيطرة على جزيرة بات وأعاد الأسرة النبهانية إلى الحكم فيها. ومن المؤكد أنه كان يهدف بذلك إلى أن تستأنف تلك الأسرة صراعها التقليدى ضد المزروعيين مما يكون من نتيجته إضعاف كل من الأسرتين مما يمهد له سبيل السيطرة عليهما، ولذلك ما أن أحس آل المزروعى بالخطر العمانى يتهددهم حتى بادروا بطلب الحماية البريطانية، ففى عام ١٨٢٣ كتب الشيخ سالم المزروعى إلى حكومة الهند يؤكد أن الإمام سعيد بن سلطان يحاول الاستيلاء على بلاده، وأعرب عن استعداده لقبول الحماية البريطانية. وعلى الرغم من ذلك العرض الصريح الذى تقدم به حاكم ممبسة إلى حكومة الهند إلا أن بريطانيا لم تتخذ أية خطوة إيجابية بشأن ذلك. ويعزو كوبلاند Coupland ـ وهو أحد الباحثين الثقاة فى تاريخ شرق إفريقيا ـ السبب فى تراخى بريطانيا فى انتهاز هذه الفرصة بأنها لم تكن تقدر فى ذلك الوقت أهمية ممبسة ولم تكن تعرف شيئًا عن أهميتها الاقتصادية أو الاستراتيجية إذ كانت بريطانيا واضعة عينيها صوب منافذ البحر الأحمر والخليج العربى، وكان ذلك كل ما يجذب انتباهها فى ذلك الوقت(١). وفى اعتقادنا أن بريطانيا فى ذلك الحين لم تكن تريد أن تقف موقفا عدائيا من السيد سعيد خاصة فى الوقت الذى تأكدت فيه صلتها به بعد عقدها معه معاهدة ١٨٢٢، وهى معاهدة خاصة بتحديد تجارة الرقيق. ولذلك كان من الطبيعى أن تتخلى بريطانيا عن تقديم العون والمساعدة لآل المزروعى حرصا على علاقتها بالسيد سعيد، ومن ثم كان اتجاه المزروعيين إلى طلب الحماية البريطانية نقطة الخطأ فى سياستهم لأنهم التجأوا إلى الدولة التى كانت على علاقة طيبة بمسقط(٢). ومع ذلك فإن الفرصة

(١) Coupland, R., op. cit., p. 222.

(٢) Pankhurst, Ex Italian Somaliland p. 15.

لم تلبث أن سنحت للمزروعيين فى نيل الحماية البريطانية إذ صادف فى عام ١٨٢٤ مرور السفينة براكوتا بقيادة الكابتن فيدال، وهى إحدى سفن الأسطول الذى أوفدته بريطانيا بقيادة الكابتن أوين Owen لقمع تجارة الرقيق فى شرق إفريقيا[١]. وكان أوين يعتقد أن فصل مقاطعات الشرق الإفريقى عن التبعية العمانية قد يساعد مساعدة كبيرة فى قمع تجارة الرقيق فى شرق إفريقيا، ومن ثم كان يحبذ منح المزروعيين الحماية البريطانية، هذا فضلا عن أن فرض الحماية البريطانية على ممبسة قد يكون من شأنه الوقوف حائلا دون تطلع الفرنسيين إليها، ولذلك حين تلقى أوين تقريرا من الكابتن فيدال عن رغبة حاكم ممبسة رفع العلم البريطانى على قلعة المدينة كان من رأى أوين إجابته فوراً على طلبه[٢]، وبادر بالكتابة إلى حكومة الهند يخبرها بأنه سيقدم للمزروعيين الحماية اللازمة. وحتى قبل أن يتلقى أوين رداً من حكومته ذهب بنفسه إلى ممبسة حيث دارت بينه وبين الشيخ سالم المزروعى مفاوضات انتهت فى ٨ فبراير ١٨٢٤ بدعوة الكابتن أوين رؤساء وشيوخ جميع الموانى والمقاطعات والجزر الواقعة بين نهر البنجانى وماليندة إلى اجتماع على ظهر سفينته وأعلن فى هذا الاجتماع منح الحماية البريطانية لهم وتعهد أوين فى الاتفاقية التى وقعها مع حاكم ممبسة بأن تعمل حكومة الهند على أن تعيد للمزروعيين جميع المقاطعات التى استولى عليها السيد سعيد منهم، وأن تضمن توارث الحكم فى أسرتهم، وأن تعين بريطانيا مقيما سياسيا فى ممبسة، وأن يقتسم دخل الجمارك مناصفة بين الطرفين، ويسمح للرعايا البريطانيين بالتجارة فى داخل البلاد، وأن يوافق المزروعيون على منع تجارة الرقيق وأن يقدموا عونهم للحكومة البريطانية فى القضاء على هذه التجارة[٣].

وكان من الطبيعى أن يؤدى فرض الحماية البريطانية على ممبسة وعلى غيرها من مقاطعات شرق إفريقيا إلى استياء السيد سعيد الذى احتج لدى حكومة بومباى مؤكداً أن الكابتن أوينساير ثوار ممبسة فيما ذهبوا إليه ووقف بأسطوله حائلا دون

---

(١) Ibid., p. 219.

(٢) The Journal of Lieutenant Buttler of the Baracutta in Charles Eliot, East Africa Protectorate p. 317.

(٣) Krapff, Travels, Researches and Missionary labours in East Africa p. 530.

وصول القوات العمانية لقمع الحركات الانفصالية فى شرق إفريقيا وأنه رفع العلم البريطانى على دار إقامته فى زنجبار. وفى مقابلة السيد سعيد للمقيم البريطانى فى الخليج العربى فى ديسمبر ١٨٢٥ أخذ يشكو له تدخل أوين فى الشرق الإفريقى وأن ذلك التدخل يعد انتهاكًا للصداقة القائمة بينه وبين بريطانيا.

ومما تجدر الإشارة إليه أن محمية أوين ١٨٢٤ / ١٨٢٦ لم تكن هى أول تدخل من جانب بريطانيا فى شرق إفريقيا إذ كان لبريطانيا صلات بالشرق الإفريقى منذ نهاية القرن الثامن عشر حين كانت تعمل على وضع العراقيل ضد بونابرت إبان حملته على مصر فى عام ١٧٩٨، ففى ديسمبر من ذلك العام وصلت إحدى السفن البريطانية إلى زنجبار بقيادة الكابتن بلانكت وكما سبق أن ألمحنا فى الفصل السابق أن مصير تلك السفينة كان تعسًا إذ بادر أهالى زنجبار بالقبض على قائدها وبحارتها وأعملوا فيهم الذبح والتقتيل، وكانت هذه المعاملة سببًا فى احتجاج حكومة بومباى لدى السيد سلطان بن أحمد سلطان مسقط وخاصة أن تلك الحادثة وقعت مباشرة بعد توقيعه معاهدة ١٧٩٨. وقد بادر سلطان بن أحمد بخلع والى زنجبار وعين واليا آخر بدلا منه مرضاة لحكومة الهند. وفى عام ١٨١٢ حدث تدخل بريطانى آخر فى شرق إفريقيا حينما وصلت إحدى السفن البريطانية إلى كلوة وعقد قائدها اتفاقية مع رؤساء الجزيرة كانت تنص على أن تؤيد بريطانيا الحاكم الذى يختارونه بأنفسهم لأنهم كانوا يقاسون كثيرا من ظلم الحكام الذين كانوا يعينون من قبل سلطان مسقط. ولكن مهما يكن من أهمية تلك الاتصالات فإنها لم تصل إلى الدرجة التى وصلت إليها محمية أوين السابق إشارتنا إليها. وعلى الرغم من أن حكومة الهند بادرت بإلغاء الحماية فى عام ١٨٢٦ إلا أنها خشيت من أن يلجأ المزروعيون إلى طلب الحماية من فرنسا، ولذلك كان المقيم البريطانى فى الخليج العربى لا يكف عن تذكير السيد سعيد بألا يغالى فى إظهار عدائه للمزروعيين خوفًا من ارتمائهم فى أحضان الفرنسيين، هذا فى الوقت الذى لجأ فيه آل المزروعى إلى طلب الحماية البريطانية من لندن. وهناك رسالة بعث بها الشيخ سالم المزروعى إلى الملك جورج الرابع يطلب منه تأكيد الحماية البريطانية على بلاده، ولكنه أجيب بأن صاحب الجلالة

البريطانية لا يجد ثمة ما يدعوه إلى الاستجابة لطلبه هذا لما قد يؤدى إليه ذلك من حدوث عداء بينه وبين سلطان مسقط الذى جمعت بينهما أواصر المحبة والإخلاص[١].

وعلى أية حال فإنه ما كادت القوات البريطانية تنسحب من ممبسة فى عام ١٨٢٦ حتى استأنف السيد سعيد صراعه ضد المزروعيين وأرسل من أجل ذلك حملة بحرية إلى ممبسة بعد أن رفض المزروعيون الخضوع لسيادته، وفيما يبدو أن الحملة البحرية التى أرسلها السيد سعيد كانت أقوى مما قدره المزروعيون فلم يجدوا سبيلا سوى الإذعان والاعتراف بالسيادة العمانية عليهم وذلك بعد أن تمكن السيد سعيد من الاستيلاء على قلاع المدينة وحصونها، ووجه الدعوة إلى الشيخ سالم بأن يأتى للتفاوض معه على ظهر سفينته. وانتهت تلك المفاوضات باعتراف المزروعيين بالسيادة العمانية على المقاطعات الخاضعة لهم فى شرق إفريقيا وأن يتم اقتسام دخل هذه المقاطعات بالتساوى بين الطرفين، كما نصت الاتفاقية على خضوع قلعة ممبسة للسيد سعيد بشرط ألا يتجاوز ما يبقيه من حامية فيها عن خمسين جنديًا[٢]. وفيما يبدو أن السيد سعيد لم يكن ينوى احترام تلك الاتفاقية إذ أخذ يعمل على تقوية حصون ممبسة وقلاعها ويضع فيها من الحاميات والجنود أضعاف ما قررته الاتفاقية، كما استعان بحاكم جزيرة بمبا ناصر بن سليمان الموالى له والذى كان قد انتزع تلك الجزيرة من ممبسة فى عام ١٨٢٢ ليكون ممثلا له فى ممبسة ولكن المزروعيين بادروا بالقبض عليه وإعدامه[٣]، مما دفع السيد سعيد إلى القيام بحملة أخرى على ممبسة فى عام ١٨٢٩، ولكنه لم يصب قدراً من النجاح مما اضطره إلى التراجع إلى مسقط إذ لم يكن الوضع هناك هادئًا حيث كان السعوديون يوالون غزواتهم على المقاطعات العمانية. وليس من شك فى أن السيد سعيد كان يجتاز أعظم فترة حرجة فى حياته وحياة سلطنته، لقد كان سلطانا على إقليمين كبيرين ولكن لم تكن له سلطة فعلية على أحدهما أو كليهما، وعلى حد

---

(١) Coupland, R., East Africa and Its Invaders p. 272.

(٢) Krapff, op. cit., p. 534.

(٣) سعيد بن على المغيرى: جهينة الأخبار فى تاريخ زنجبار - نشر وزارة التراث القومى والثقافة، سلطنة عمان، ص ص ١٢١ - ١٢٤.

قول كـوبلاند كان حلمه فى تأسـيس دولة فى شرق إفريقـيا بينما ممبـسة فى أيدى المزروعيين يشبه تكوين دولة فى عمان بينما مسقط فى أيدى السعوديين[1]. والواقع أن السيد سعيد صعب عليه الاعتـماد على أصدقاء يستعين بهم فى القضاء على آل المزروعى، وأكثـر من ذلك كان مـرغمـا على تخفـيف عدائه معـهم إذ طلب منه الإنجليز أن يجيب المزروعيـين إلى بعض مطالبهم خوفا من أن يتجهـوا إلى محالفة الفرنسيين.

على أن السيد سعيد وإن كان قـد يئس من مساعدة الإنجليز له فقد بادر إلى عرض مشروع للتحالف بينه وبين ملكة مدغشقر بل ذهب إلى أبعد من ذلك حين عرض علـيها الزواج، وأرسل بالـفعل مبـعوثًا من قـبله يحمل إلى الملكـة رسالة رقيقـة!. بيد أن رغبتـه فى الزواج لم تتحقق إذ كـتب وزراء الملكة له يؤكدون بأن تقالـيد بلادهم لا تسمـح بزواج ملكتهم، ولكن هناك أمـيرة صـغيرة يسـتطيع أن يتزوجهـا إن أراد، ومن ناحية أخرى أعـربوا له عن استعدادهم لمسـاعدته فى قمع ثورة ممبسة وتوطيد حكمه فى شرق إفريقيا، وإن كان مما يستلفت النظر أن بريطانيا حالت بين السيد سـعيد وبين الحصول على قوة عسكرية من مدغـشقر التى كانت خـاضعـة فى ذلك الوقت للنفوذ الفـرنسى بل إن جـزيرة مدغـشقـر لم تلبث أن خضـعت بالفعل للحماية الـفرنسية فى عـام ١٨٣٢، وكان ذلك سببـا فى عرقلة المساعى التى كان يقوم بها. ولكن لم تلبث أن ظهرت فى الأفق بادرة جديدة تطلع إليهـا وهى الاسـتعانة بالولايات المتحدة الأمـريكية التى اتجـهت فى عام ١٨٣٣ للدخول فى علاقات اقتـصادية مع سلطنة مسقط وزنجبار حيث أبدى السـيد سعيد موافـقته على أن يمنح الأمـريكيين كل ما يـريدونه من امتيـازات وأن يسمح لهم بتأسيس المراكز التجارية فى زنجبار وفى غيرها من موانى شرق إفريقيا فى مقابل أن تمده الولايات المتحدة الأمريكية بقوات للسيطرة على موزمبيق واستعادة نفوذه على ممبسة، ولكـن الحكومة الأمريكية لم تر من مـصلحتها التورط فى تـلك المغامرات وطلبت أن تقتصر علاقتها مع الـسلطنة على الشئون الاقتصادية فحسب[2].

ولم تلبث الأحداث أن توالت بعد ذلك بسرعة حين تعرضت أسرة المزروعى بعد وفـاة حاكـمها الشـيخ سالم فى عـام ١٨٣٥ لعدة منازعات داخـلية من أجل

---

(1) Coupland, R., East Africa and Its Invaders p. 279.

(٢) جمال زكريا قاسم: دولة بو سعيد فى عمان وشرق إفريقيا، القاهرة ١٩٦٧ ص ٢٢٧.
See also Coupland, R., East Africa and Its Invaders p. 281.



الوصول إلى الحكم بين الشيوخ المتنازعين مما أوقع جميع مقاطعات الساحل فى اضطراب كبير وفوضى شاملة[1]، قام على أثرها حاكم مقاطعة كلنديني بالثورة على آل المزروعى وطلب من السيد سعيد أن يساعده فى التخلص من حكمهم. وبفضل المساعدات التى قدمت للسيد سعيد من زعماء الساحل تمكن فى عام ١٨٣٧ من الاستيلاء على حصون ممبسة وقلاعها وجعل من نفسه السيد الذى لا منازع له على طول الساحل الشرقى لإفريقيا من رأس جردفون شمالا إلى خليج دلجادو جنوبا. وحرص السيد سعيد وهو فى أوج انتصاره على التخلص نهائيا من آل المزروعى، ولذلك فقد كلف ابنه الأمير خالد الذى كان قائما بالحكم فى زنجبار نيابة عنه لكى يقوم بحركة استهدف بها القبض على جميع أعضاء أسرة المزروعى، وتم لخالد القبض على خمسة وعشرين شيخا، أما الآخرون فقد فروا وتشتتوا فى داخلية البلاد[2].

كان إخضاع السيد سعيد لممبسة فاتحة المجال لتدعيم نفوذ سلطنة مسقط فى شرق إفريقيا وفيما يبدو أن ضمان تلك السيطرة على المقاطعات الإفريقية هو الذى دفعه للإقامة بزنجبار التى كان قد نقل إليها حكمه فى خلال سنوات قليلة سابقة على تلك الأحداث، إذ أنه فى عام ١٨٣٢ كان قد حول عاصمة حكمه من مسقط إلى زنجبار. وهناك العديد من الدوافع التى كانت من وراء ذلك منها جاذبية زنجبار الطبيعية وأهمية موقعها الجغرافى وما تتميز به من موانى صالحة للتجارة وعمليات التبادل التجارى؛ هذا إلى جانب الدوافع السياسية التى كان من أهمها تفضيله الإقامة فى تلك الجزيرة بعد أن عانى الكثير من المتاعب الداخلية فى مسقط من جانب المنافسين له فى الحكم من أعمامه أو أبناء عمومته، أضف إلى ذلك أن السعوديين والقواسم كانوا كثيرا ما ينتقدون عهودهم معه ويستأنفون الهجوم على المقاطعات التابعة له فى الخليج العربى. وليس من شك فى أن نقل العاصمة إلى زنجبار كان له أثر كبير فى وضع الأسس السياسية والاقتصادية للسلطنة العربية فى شرق إفريقيا.

ويمكننا أن نلحظ بوضوح الأهداف الاقتصادية التى كان يتجه إليها السيد سعيد إذ حرص عند انتقاله إلى زنجبار أن يأخذ معه التجار العرب والهنود من

---

(١) Le Roy, D' Aden à Zanzibar p. 264.

(٢) Pankhurst, op. cit., p. 16.

طائفة البانيان الذين كانوا يسهمون بنشاط وافر فى عمليات التجارة فى مسقط. وشجع الهنود على الهجرة إلى زنجبار ما كانوا يعهدونه فى السيد سعيد من تسامح كبير ومعاملة طيبة كانا يتضحان فى تركه الحرية الدينية ومنحهم كل ما كانوا يتوقون إليه من مكانة فى المجال الاقتصادى[١]. كما استعان بالإكفاء منهم فى أعمال الإدارة والاقتصاد. وعلى الرغم من أن الهنود كانت لهم علاقات قديمة بشرق إفريقيا إلا أن عددهم تزايد فى عهد السيد سعيد حتى بلغ أربعة آلاف نسمة وذلك طبقا لما قدره بيرتون Burton الذى أكد أيضا أن أربعة أخماس التجارة الخارجية كانت فى أيديهم[٢]. كما أنهم امتدوا بمراكزهم التجارية حتى مدغشقر وموزمبيق وجزر القمر، وبمضى الزمن كثر عددهم وأخذوا يستولون على الممتلكات والأراضى من العرب عن طريق الرهن والشراء[٣].

وبالإضافة إلى نشاط الهنود التجارى وفد مع السيد سعيد مئات من عرب عمان فازدهرت التجارة وانتعشت بمقدمهم إلى درجة لم تكن معهودة من قبل[٤]، وبينما كان نشاط الهنود يقتصر على الساحل استطاع التجار العرب التوغل فى المناطق الداخلية التى لم يكن قد ارتادها أحد من قبل واستقر كثيرون منهم فى الداخل وأسسوا المراكز التجارية التى جهدوا فى تقويتها ومن ثم أصبحت تلك المحطات أو المراكز التجارية تشع بعضا من السيطرة والنفوذ للسلطنة العربية الإفريقية فى الداخل حتى لقد اشتهر المثل السواحيلى القائل: «إذا دقت الطبول فى زنجبار رقص الناس طربًا فى البحيرات». وليس من شك فى أن تلك السيطرة الداخلية كانت ترتبط بقوافل التجارة التى أصبحت تصل إلى البحيرات الاستوائية وأعالى الكنغو.

وعلى هذا النهج قامت عدة مستوطنات عربية على خطوط القوافل التجارية. ومما هو جدير بالذكر صعوبة تحديد ممتلكات السلطنة العربية فى شرق

---

(١) Mona McMillan, Introducing East Africa London 1965. p. 175.

(٢) Burton, R., Zanzibar, City, Island and Coast vol. I. pp. 315 - 317.

(٣) Chappuis, Visite à L'Imam de Mascate au Zanguhar p. 350. See also Coupland, East Africa and It s Invaders pp. 302 - 303.

(٤) عن القبائل العربية التى وفدت مع السيد سعيد للإقامة معه فى زنجبار انظر المغيرى: مرجع سبق ذكره ص ١٩.

إفريقيا لأن النشاط التجارى الذى طبع هذه السلطنة هو الذى حال دون قيام فواصل تحدد مدى اتساع الدولة، كما أنه لم يكن يحمى سلطة الدولة إلا المصالح الاقتصادية التى كانت تربط بين الساحل والداخل وقياسا على ذلك كانت الأنظمة الاقتصادية التى وضعتها السلطنة العربية فى شرق إفريقيا تتميز بالمرونة من حيث تبسيط أنظمة الضرائب وتخفيفها بحيث كانت لا تزيد عن ٥٪ على الواردات التى تأتى إلى الموانى الإفريقية وإعفاء الصادرات من الضرائب، كذلك تميز عهد السلطنة العربية فى زنجبار بوضع نظام بسيط للنقد يحل بدلا من العملات المتعددة التى كانت مستخدمة فى زنجبار كالريال النمساوى والأسبانى، ولم يكد ينتهى عهد السيد سعيد حتى اختفت العملات الأجنبية تقريبا وحل محلها النظام الجديد الذى استحدثه والذى كان يعتمد على الروبية الهندية. كما يرجع للسلطنة العربية فى زنجبار وإلى السيد سعيد نفسه تشجيعه لزراعة قصب السكر والقرنفل وذلك باستغلاله خصوبة بعض المقاطعات الإفريقية وعلى الأخص جزيرتى بمبا وزنجبار حتى أصبحت هاتان الجزيرتان تمدان العالم بالقسط الأعظم من استهلاكه من القرنفل حيث يبلغ إنتاجهما أكثر من $\frac{٧}{٨}$ الإنتاج العالمى(١).

وقد أدرك السيد سعيد أنه لضمان ازدهار النواحى الاقتصادية فإنه ينبغى عليه أن يعمل على حماية التجارة من المنافسات التى كانت تتعرض لها، حقيقة أنه كان يؤمن بالحرية الاقتصادية إلا أنه وجد نفسه مضطرا إلى تطبيق سياسة احتكارية لضمان مركزه الاقتصادى؛ ولذلك حرّم على طول السواحل الممتدة من مصب نهر البنجانى إلى كلوة تصدير المطاط والعاج تحت أى علم خلاف علم السلطنة وإن كنا لا نجد احتكارات باستثناء ذلك. كما عرف عن السيد سعيد شغفه الكبير بالتجاره وحبه لممارستها ومن ذلك أنه كان يقوم بالاشتغال بها لحسابه الخاص، وكان يستخدم أسطوله فى نقل البضائع وبين آونة وأخرى كانت الموانى البريطانية والفرنسية تستقبل حمولات من البضائع الإفريقية حملتها إليها سفن السلطنة العربية. ولعل شهرة السيد سعيد فى العالم الخارجى كانت ترجع إلى فتح بلاده

---

(١) نقل العرب زراعة القرنفل من جزيرة موريس وكان الفرنسيون أول من أدخلوها فى هذه الجزيرة فى عام ١٧٧٠.

Ruete, op. cit., pp. 73 - 74. See also Coupland, Exploitation of East Africa p. 4.

للدول الأجنبية حتى تحولت زنجبار إلى أعظم ميناء فى الأطراف الجنوبية الغربية للمحيط الهندى، كما أصبحت المستودع الرئيسى للتجارة الإفريقية الأسيوية، وكما يؤكد كوبلاند أنه فى خلال عشرين عاما من نقل السيد سعيد عاصمة بلاده من مسقط إلى زنجبار أصبحت زنجبار واحدة من ثلاث أو أربع مراكز رئيسية للتجارة فى المياه الغربية للمحيط الهندى[1]. وكان حرص السلطنة العربية فى زنجبار على الاتصال الخارجى بالدول الأجنبية سببا فى عقدها الكثير من الاتفاقيات والمعاهدات التجارية مع الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وفرنسا وغيرها، حيث وجدت قنصليات أجنبية فى زنجبار كما سمح أيضا لبعض الولايات الألمانية المشتركة فى اتحاد الهانسا بالاشتغال بالتجارة[2].

ومما هو جدير بالذكر أن نظام الحكم الذى كان متبعا فى زنجبار كان لا يختلف كثيرا عن أنظمة الحكم التى كانت متبعة فى مسقط من حيث بساطة الأنظمة الإدارية. أما عن القضاء فقد كان على درجة كبيرة من البساطة، وظل القرآن الكريم هو أصل التشريعات ومصدر الأحكام. وكان السيد سعيد يحكم فى القضايا الكبيرة بنفسه، أما القضايا الأقل أهمية فكان يتركها لابنه الكبير خالد أو لحاكم مدينة زنجبار؛ فى حين تركت القضايا العادية للقضاة الذين كانوا يعينهم للحكم فيما كان يحدث من منازعات تجارية أو غيرها بين رعاياه. ومن حيث إدارة السيد السعيد لممتلكاته الشاسعة في شرق إفريقيا كان حريصا على أن يعين فى كل مقاطعة حاكما محليا من أهل البلاد يدين له بالتبعية والولاء وإن كنا نراه فى أحيان كثيرة يفقد ثقته بالحكام المحليين ويستعيض عنهم بأعوان له من مسقط وكان يمدهم بحاميات من الجند تكون بمثابة نواة يحرص الحاكم المعين على تنمية قوتها بنفسه بشكل يحفظ للحاكم هيبته وللسلطان نفوذه. وقد حاول السيد سعيد الاتساع بممتلكاته فى شرق إفريقيا شمالا وجنوبا فمن ناحية الجنوب حاول ربط مدغشقر بزنجبار ولما لم يتحقق له هذا الهدف عمل على إخضاع جزيرة نوسيبى لنظامه الاقتصادى ونجح فى ربطها بمعاهدة تجارية وافق حاكم الجزيرة بمقتضاها على دفع جمارك على الواردات التى تصل إليها من سلطنة زنجبار فى نظير الحصول على

---

(١) Chappuis, op. cit., p. 357. See also Lyne, Zanzibar p.4.

(٢) Coupland, R., East Africa and Its Invaders p. 320.

حماية زنجبار لها، ولكن السيد سعيد لم يقدم لتلك الجزيرة ما كانت تحتاجه من حماية وكل ما فعله هو رفع العلم العمانى الأحمر على قلعتها؛ ولعل ذلك الإهمال هو الذى أعطى الفرصة للفرنسيين لكى يبسطوا نفوذهم الفعلى على تلك الجزيرة. على أن السيد سعيد وإن كان قد أخفق فى مد سيطرته نحو الجنوب فلا شك أنه كان أكثر توفيقا ونجاحا فى مد سيطرته نحو الشمال، ففى عام ١٨٤٠ بادر بإرسال بعثة إلى موانى الصومال نجحت فى إخضاع تلك الموانى لنظامه الاقتصاى، كما نجح فى فرض سيادته على مقديشيو وامتد بسيطرته الاقتصادية إلى براوة وإن كان قد فشل فى الاحتفاظ بها كثيرا(١). وليس من شك فى أن السلام والأمن الذى تمتعت به مقاطعات شرق إفريقيا كان يرجع فى الدرجة الأولى إلى النشاط الاقتصادى الذى تميزت به سلطنة زنجبار. ومن الواضح أن السيد سعيد لم يكن يهدف من ممتلكاته فى شرق إفريقيا إلا تحقيق أهدافه الاقتصادية دون النظر فى أن تكون له سيطرة فعلية وليس أدل على ذلك من أنه لم يلجأ إلى قمع الثورات التى كانت تقوم فى المقاطعات الخاضعة له بالقوة العسكرية خوفا مما يترتب على ذلك من اضطراب فى الأمن قد يعوق التجارة التى كان يحرص عليها غاية الحرص، ولذلك كان يعمل على معالجة مشكلاته الإفريقية بالطرق السلمية، وهذه كانت سياسته سواء مع رؤساء المقاطعات الساحلية أو حكام المقاطعات الداخلية، وهى سياسة استهدف من ورائها ضمان استقرار الحياة الاقتصادية وازدهارها، مما يجعلنا نذهب فى القول بأن السيد سعيد نجح فى سيطرته الاقتصادية ولكنه فشل فى بسط سيطرته السياسية أو العسكرية(٢).

ومما تجدر الإشارة إليه أنه قد عاصر حكم السيد سعيد فى شرق إفريقيا الحركة التى تزعمتها بريطانيا لقمع تجارة الرقيق فى النصف الأول من القرن التاسع عشر. ولا يعنينا هنا أن نبحث عن الدوافع الأساسية التى دفعت بريطانيا لإلغاء تلك التجارة هل هى دوافع إنسانية بحتة كما كانت تدعى ذلك أم أن المصالح البريطانية كانت تقف من ورائها؟ ذلك لأننا نجد فى أحوال كثيرة أن الجهود التى قامت بها بريطانيا لقمع تجارة الرقيق سببت لها الكثير من السيطرة والنفوذ فى

---

(١) Ibid., pp. 333 - 336.

(٢) Guillain, op. cit., tome I p. 238. See also Burton, op. cit., vol. I p. 295.

المناطق التى كانت تعمل بها، ولكن الأمر الذى يعنينا هنا أن المصادر الرئيسية لتجارة الرقيق فى شرق إفريقيا كانت تقع ضمن ممتلكات السلطنة العربية فى زنجبار[١]، ومن ثم أدركت بريطانيا أنه ينبغى عليها إذا أرادت القضاء على هذه التجارة أن تحصل على تأييد من حاكم السلطنة. والجدير بالذكر أنه على الرغم مما كان يحصل عليه السيد سعيد من المزايا والأرباح العديدة من جراء مرور تلك التجارة فى بلاده إلا أنه أذعن لبريطانيا حرصا منه على ضمان مركزه فى ممتلكاته، وإن كان بعض الباحثين يؤكد أن ارتباط السيد سعيد مع بريطانيا فى معاهدات خاصة بتحديد تجارة الرقيق قد عرض مركزه للخطورة بين رعاياه الذين كانوا يشتغلون بتلك التجارة، ولكن السيد سعيد كان يأمل من جراء ارتباطه مع بريطانيا أن ينال تأييدها[٢]. ونستطيع أن نقدر مدى التضحيات المادية التى تكبدها السيد سعيد نتيجة لاشتراكه مع بريطانيا فى قمع تجارة الرقيق إذا عرفنا أنه كان يتحصل على ما يقرب من ١٠٠,٠٠٠ ريال سنويا من تلك التجارة[٣]. ومن المعروف أن بريطانيا بدأت فى اتخاذ أولى خطواتها الفعالة لقمع تجارة الرقيق فى شرق إفريقيا حينما عقدت معاهدة ١٨٢٠ مع مشيخات الساحل العمانى حيث نصت المادة التاسعة من المعاهدة المذكورة على أن نقل الرقيق رجالا أو نساء أو أطفالا من سواحل شرق إفريقيا أو من أى مكان آخر يعد قرصنة وسلبا، ولما كانت سلطنة مسقط وزنجبار لم تشترك مع شيوخ الساحل العمانى فى التوقيع على تلك المعاهدة فقد أدركت بريطانيا أن الجهود التى بذلتها لقمع تلك التجارة ستكون عديمة الجدوى[٤]. ولعل ذلك هو الذى دفعها إلى عقد معاهدة ١٨٢٢ مع السيد سعيد، وقد نصت تلك المعاهدة على تعهد السيد سعيد بالعمل على إيقاف تلك التجارة وأن يسمح لضباط البحرية البريطانية بتفتيش السفن العمانية، كما وافق على تحريم بيع الرقيق للدول المسيحية ومصادرة السفن التى تشتغل بتلك التجارة من شرق خط يبدأ من الساحل الشرقى لإفريقيا إلى شرق جزيرة سقطرة وينتهى عند سواحل

---

(١) Ruete, Emily, Memoire d'une Princesse Arabe Chapitre 20. See also Pearce, op. cit., p. 190.

(٢) Thomas, Berthram, Arab rule under the al Bu Said Dynasty p. 18.

(٣) Lyne, op. cit., p. 39.

(٤) Heude, A Voyage up the Persian Gulf, London., 1819. p. 24.

بلوخستان، ومما تجدر الإشارة إليه أن معاهدة ١٨٢٢ لم تكن تهدف إلى إلغاء تجارة الرقيق إلغاء تاما إذ أدركت بريطانيا أنه من الصعوبة إلغاء تلك التجارة وذلك لأن معظم موارد السلطان وموارد رعاياه تأتى من هذه التجارة ولذلك نجد أنه فى حين حرمت المعاهدة بيع الرقيق لرعايا الدول المسيحية بقى للسلطان حق الاشتغال بتلك التجارة فى الممتلكات التابعة له طالما لم تتعد الحدود التى رسمتها المعاهدة ولكن لم يلبث أن تدرج الوضع بمقتضى معاهدة ١٨٣٩، وهى المعاهدة التجارية التى عقدها السيد سعيد مع بريطانيا إذ ألحقت بها بعض المواد التى تختص بقمع تجارة الرقيق حيث نصت على توسيع حدود المنطقة التى يسمح فيها للسفن البريطانية بتفتيش أو مصادرة السفن العمانية التى تشتغل بتجارة الرقيق(١). ومما يسترعى الانتباه أن السيد سعيد رفض أن يأخذ من الحكومة البريطانية أية تعويضات مادية عما سببته معاهدات إلغاء تجارة الرقيق من خسائر فادحة وكان ذلك تأكيدا لدوافعه الإنسانية، ومن ناحية أخرى دفعته صداقته للإنجليز، تلك الصداقة التى دامت نصف قرن، إلى تقديم الكثير من الهدايا لبريطانيا تأكيدا وتوثيقا لروابط الصداقة التى ربطت بينه وبينها، وتعزى الهدايا المفرطة التى كان يقدمها السيد سعيد عن طيب خاطر إلى نوع من الكرم العربى أو رغبة منه فى الظهور فى المجال الخارجى فقد رشحته الحكومة البريطانية ليكون عضو شرف فى الجمعية الأسيوية الملكية فى عام ١٨٣٥ اعترافا منها فى وقوفه معها فى الحركة المناهضة للرق، وتقديرا للجهود التى يبذلها لإدخال الحضارة وتقدم العلوم فى بلاده. وليس من شك فى أن اشتراك السيد سعيد مع بريطانيا فى قمع تجارة الرقيق فى شرق إفريقيا أظهر اسمه فى المجتمع الدولى وإن كان ذلك كلفه الكثير من الهدايا السخية التى قدمها لحكومة الهند أو للملكة فكتوريا التى عاصرت النصف الثانى من حكمه، وكان أبرز ما قدمه لحكومة الهند كبرى سفن أسطوله وتنازله للملكة فكتوريا عن جزر كوريا موريا(٢).

على أن السيد سعيد لم يقصر علاقته ببريطانيا وإنما أدى توسيع دائرة عملياته الاقتصادية إلى دخوله فى علاقات مع الدول الاخرى، كما شجع الأجانب

---

(١) Colomb, Slave Catching in the Indian Ocean pp. 373 - 374. See also Bombay Govt., Selections from the Records - Salve Trade vol. XXXIV pp. 636 - 637.

(٢) Pearce, op. cit., p. 133. See also Ruete, R., Said Bin Sultan p. 139.

على الإقامة فى بلاده ومنحهم الكثير من التسهيلات التجارية، وتأسست الكثير من القنصليات الأجنبية فى زنجبار. غير أننا لا نتفق مع ما ذكرته بعض المصادر من أن النشاط الاقتصادى لم يكن ضارا إذ أفادت منه السلطنة فائدة كبيرة ولكن فى تقديرنا أن التدخل الأوربى الاقتصادى كان تمهيدا للتدخل السياسى والعسكرى السافر[١]، وليس أدل على ذلك من أن الدول الأوروبية التى مارست فى شرق إفريقيا نشاطا اقتصاديا قد مهدت لنفسها السبيل لاستعمار الشرق الإفريقى واقتسام ممتلكات السلطنة العربية فيما بينها؛ ففى حركة تقسيم إفريقيا نجد أن الدول التى قامت بالشئون التجارية أو التبشيرية فى بداية الأمر هى نفسها التى اقتسمت مناطق النفوذ فيما بينها.

ولعل مما يستلفت النظر أن الولايات المتحدة الأمريكية استطاعت بفضل علاقتها الودية بالسيد سعيد أن تنافس غيرها من الدول الأجنبية فى المجال التجارى. وتذكر إحدى المصادر فى صدد العلاقات بين الولايات المتحدة الأمريكية وسلطنة زنجبار أن أحد الأمريكين ويدعى إدموند روبرتس Roberts كان يلاقى الكثير من المتاعب فى زنجبار نظرا للإجراءات المعقدة وتأخر المعاملات وما اعتبره قيودا تبعث على السخط بالإضافة إلى المعاملة المجحفة التى يتعرض لها التجار الأمريكيين إذا ما قورنت بالتجار الإنجليز الذين لم يكونوا ليرغمون على بيع بضائعهم لوكلاء السلطان أو دفع عمولة باهظة أو رسوم ميناء؛ ونظرا لهذا كله حنق ذلك التاجر لدرجة أنه كتب احتجاجا مؤلفا من عدة صفحات وجهه إلى السيد سعيد الذى أجابه بأنه من الممكن التغلب على تلك الصعوبات بعقد معاهدة مع الولايات المتحدة الأمريكية؛ وفى عام ١٨٣٣ تلقى روبرتس تفويضا من الرئيس الأمريكى أندرو جاكسون لكى يعقد تلك المعاهدة. ويذكر جيان أن عقد هذه المعاهدة لقى هوى فى نفس السيد سعيد لتعامله مع دولة كبيرة، وفى عام ١٨٣٥ قامت الولايات المتحدة الأمريكية بفتح قنصلية لها فى زنجبار وعينت عليها أحد التجار الأمريكيين ويدعى ريتشارد واترز[٢].

وتعتبر معاهدة ١٨٣٣ من معاهدات الود والصداقة والتجارة وكانت تنص على إبقاء العلاقات الودية بين البلدين والتأكيد على حرية التجارة بالنسبة لرعايا

---

(١) Coupland, Exploitation of East Africa p. 9.

(٢) Lyne, op. cit., p. 33.

الطرفين وتمتع التجار الأمريكيين بكافة المزايا التجارية الممنوحة للدولة الأكثر رعاية، كما نصت المعاهدة أيضا على تعيين قناصل يستقرون فى موانى السلطنة ويقومون بالحكم فيما ينشب بين الرعايا الأمريكيين من خلافات، كما يقومون بتصفية ممتلكات الأمريكيين الذين يموتون فى ممتلكات السلطان، ولكى يقوم القناصل الأمريكيون بتلك الأعباء كفلت لهم المعاهدة بعض الحماية التي تمكنهم من القيام بها، كما نصت المعاهدة بأنه إذا حدثت مخالفات من أحد أولئك القناصل لقوانين البلاد فيمكن مخاطبة رئيس الولايات المتحدة الأمريكية الذى يبادر بسحب القنصل وتعيين آخر بدلا منه[1].

والواقع أن عقد هذه المعاهدة أفسح المجال للولايات المتحدة الأمريكية لكى تقوم بنشاط تجارى واسع فى زنجبار، ومن المؤكد أن السيد سعيد استفاد فائدة كبيرة من النشاط التجارى الذى كان يقوم به الأمريكيون حتى أن معظم الدخل الذى كان يتحصل عليه السيد سعيد كان من عائد التجارة الأمريكية، وفيما يبدو أن السيد سعيد كان مرتاحا للأمريكيين، وكان يتوق إلى تشجيع نشاطهم الذى كان مجردا فى ذلك الوقت من الأطماع السياسيّة ففى عام ١٨٣٣ كان يرغب فى نشر إعلان فى الولايات المتحدة الأمريكية يغدق فيه الكثير من الامتيازات للتجار الأمريكيين لكى يشجعهم على التوافد إلى بلاده بيد أن الأمريكيين المشتغلين أصلا بالتجارة فى زنجبار عارضوا ذلك على اعتبار أن نشر تلك الدعوة سيجعل الكثير من التجار يفدون إلى زنجبار مما يعرضهم لفقد الكثير من ثرواتهم[2]. وعلى الرغم من أن العلاقات بين السيد سعيد والولايات المتحدة الأمريكية ركزت على المعاملات التجارية إلا أن هناك من يرى أن السيد سعيد كان يتوق إلى مساعدة الولايات المتحدة الأمريكية العسكرية للتوسع فى موزمبيق أو فى تثبيت سلطته فى ممتلكاته بشرق إفريقيا، ومما يؤكد ذلك أن بريطانيا اعتراها الكثير من الشك حول مسلك السيد سعيد مع الولايات المتحدة الأمريكية وخاصة أن المعاهدة الأمريكية فتحت الباب أمام صداقة سياسية جديدة قد تكون على الرغم من ثقته الكبرى بأصدقائه الإنجليز ذات منفعة فى يوم ما ولربما لعبت دورا ضدهم، ومن ثم بادرت الحكومة البريطانية بإرسال إحدى سفنها الحربية تحت قيادة الكابتن هارت إلى زنجبار لكى

(١) Burton, R., op. cit., vol. I p. 395.

(٢) Guillian, op. cit., tome I pp. 198 - 199.

يستوضح حقيقة الموقف، ولكن السيد سعيد لم يلبث أن أظهر لهارت صدق نواياه واستعداده التـام لأن يعقد معاهدة مع بريطانيا تماثل تلك المعـاهدة التى عقدها مع الولايات المتحدة الأمريكية. وتقرير الكابتن هارت عن رحلته هذه إلى زنجبار والتى قام بها فى عـام ١٨٣٤ مسجل فى الوثائق المنشورة لحكومة بومـباى، وقد حرص هارت أن يسجل فى تقريره قوة السيد سعيـد البحرية التى قدرها بسبع سفن حربية تتراوح حمولتها بين عشرة وأربعة وسبعين مدفعًا ولكنه ذكر افتقار السيد سعيد إلى ضباط أكفاء لقيادة تلك السفن[١]. ومن المؤكد أن هارت قد حـرص طوال إقامته فى زنجبار على أن يبدى إعجابه بسفينة السيـد سعيد ليفربول التى كانت تعد أقوى قطع الأسطول العمانى حـتى أن السيد سعيد اضطر إلى أن يقدمـها هدية للإنجليز وطلب من هارت أن ينوب عنه فى تقـديمها إلى جلالة ملـك بريطانيا وليم الرابع كعربون لإخلاصـه وصداقته الوطيدة، وقد ألحـقت تلك السفينة بالأسطول الملكى البريطانى ومجاملة للسيد سعيد غير اسمها إلى الإمام[٢].

والواقع أن هارت لقى معاملة طيبة من السيد السعيد وتحقق بنفسه من صدق إخلاصه للإنجليز فقد ذكر فى تقريره أنه يـميل كثيرا إلى كل ما هو إنجليزى، وكان يفخر بقـوله أن جميع ما عنده من سروج هى من صنع بريطانيـا، ويظهر أنه كان يود أن يعتبر نفـسه إنجليزيا فى كل شىء وكان كثيرا مـا يقول أنه ينظر إلى الإنجليز على أنهم أخـوة له وأنه على استـعداد لأن يعطيـهم مكانا فى بلاده[٣]. كما أكد لهارت حرصه على تشجيع التجارة الإنجليـزية على الرغم من الحقيقة الواقعة وهى أن الغالبية العظمى من السفن التجارية فى زنجبار كانت سفنًا أمريكية. وفضلا عن القلق الذى ساور الحكومة البـريطانية من نشاط الأمريكيين فقـد كانت تشك أيضا فى حقيقة التـجارة الأمريكية فى الشرق الأفريقى فقد جـاء فى تقرير أحد الضباط الإنجليز أنه يتـهم الأمريكيين بالذهاب إلى الشـرق الإفريقى حيث يقومـون بحمل الرقيق إلى البرازيل وأمريكا اللاتينية[٤]. ومن المؤكد أن تأثير بريطانيـا على السيد

---

(١) Bombay Govt., op. cit., Captain Hart's Visit to Zanzibar vol. XXIV p. 277.
(٢) Lyne, op. cit., P. 18. See also Whigham, Persia and the Persian Problem p. 15.
(٣) Bombay Govt., op. cit., vol. XXIV p. 277.
(٤) Coupland, R., East Africa & Its Invaders p. 364.

سعيد كان سببا في اضمحلال التجارة الأمريكية في الشرق الإفريقي حتى جاء الوقت الذي بدأ يعامل فيه القنصل الأمريكي معاملة غير طيبة، وهكذا رأت بريطانيا أن تعيد صلاتها بالسيد سعيد خوفًا من انصرافه إلى غيرها من الدول ولعل ذلك ما دفعها إلى عقد معاهدة ١٨٣٩ التي كانت شبيهة إلى حد كبير بالمعاهدة الأمريكية لعام ١٨٣٣ إذ نصت على حرية التجارة وألا يفرض من المكوس الجمركية أكثر من ٥٪، وأن يتمتع رعايا كل من الدولتين إزاء الدولة الأخرى بمعاملة الدولة الأكثر رعاية، كما نصت المعاهدة أيضا أنه في حالة قيام حرب ضد بريطانيا أو السلطنة فيجب أن يمتنع رعايا كل من الدولتين عن حمل معدات الحرب والقتال إلى الدولة المعادية[١]. وبالإضافة إلى ذلك أعطت المعاهدة امتيازات أكثر للقناصل الإنجليز فيما يتعلق بالسلطة القضائية، فبينما كانت المعاهدة الأمريكية تنص على أن سلطات القنصل القضائية لا تتعدى الرعايا الأمريكيين كانت المعاهدة البريطانية تمنح القنصل البريطاني سلطة الفصل بين الرعايا البريطانيين وغيرهم.

ومما يسترعي الانتباه أن بريطانيا أخذت تشترك بنشاط موفور في تجارة شرق إفريقيا حيث بادرت بتأسيس قنصلية لها في زنجبار عقب التوقيع على المعاهدة وعينت الكابتن أتكنز همرتون Hamerton ليكون وكيلا سياسيا وقنصلا لها في زنجبار بمعنى أنه كان قنصلا من قبل حكومة الملكة فيكتوريا ووكيلا سياسيا من قبل حكومة بومباي[٢]. وليس من شك أن النفوذ البريطاني في شرق إفريقيا أخذ يتزايد تزايداً ملحوظا عقب تأسيس القنصلية البريطانية في زنجبار، وقد علق روبرت لين بصدد ذلك بقوله أن وجود قنصل بريطاني في زنجبار شجع عدداً كبيراً من الهنود على التوافد إلى شرق إفريقيا، كما بلغت العلاقات بين السيد سعيد والكابتن همرتون أقصى ازدهارها حتى أن السيد سعيد كان يعتبره ناصحه الأمين!. وكثيرا ما كان يعهد إليه بالإشراف على الحكم في الشرق الإفريقي مع ابنه خالد لدى قيامه بتفقد شؤون ممتلكاته في عمان[٣]. كما كانت تتم عن طريق همرتون جميع المراسلات بين الحكومة البريطانية والسلطان،وكان على القنصل البريطاني القيام

(١) Younghusband, Glimpses of East Africa p. 238. See also Coupland, op. cit., p. 378.

(٢) Burton, op. cit., vol. I p. 315.

(٣) Colomb, op. cit., pp. 282 - 284.
See also Lyne, op. cit., p. 34.

بكثير من الأعباء التى كان من أهمها تفقد الرعايا البريطانيين من الهنود المقيمين فى الشرق الإفريقى والذين تزايدت أعدادهم حتى بلغت عدة آلاف، كما كان عليه تمثيل الحكومة البريطانية فيما يتعلق بقمع تجارة الرقيق ومحاكمة السفن التى تشتغل بتلك التجارة. ومما تجدر الإشارة إليه أن القنصل البريطانى فى زنجبار كان يقوم بوظيفة مزدوجة من حيث تمثيله لحكومتى الهند ولندن مما كان يضفى على مركزه أهمية خاصة ولكن مهامه لم تكن سهلة بطبيعة الحال إذ لم يكن يحدث دائما أن تتفق السياسة التى تنتهجها حكومة الهند مع التعليمات التى كانت تصدرها حكومة لندن.

وعلى الرغم من أن تعامل السيد سعيد مع دولتين كبيرتين - بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية - قد قوى مركزه فى مجال العلاقات الخارجية الدولية وأشبع غروره إلى درجة لم يعد ينظر فيها إلى فرنسا كدولة يعتمد عليها أو يرجو من ورائها نفعا إلا أننا يجب أن نلاحظ أن عقد المعاهدة الأمريكية فى عام ١٨٣٣ والمعاهدة البريطانية فى عام ١٨٣٩ كان لابد أن يعطى لفرنسا الفرصة لكى تطالب بقدر من الامتيازات على غرار غيرها من الدول الأخرى، وخاصة أن مركزها كان يبدو أكثر تفوقا فى شرق إفريقيا بعد أن أعلن الفرنسيون فرض الحماية على مدغشقر وامتد نفوذهم إلى جزيرة نوسيبى[١]. ولا شك أن هذه الأمور أثارت السيد سعيد وتخوفه لما قد ينتج عن ذلك من تهديد الفرنسيين لممتلكاته فى شرق إفريقيا، وبدا ذلك واضحا فى عام ١٨٤٠ حينما قدمت بعض قطع الأسطول الفرنسى إلى زنجبار، وكان السيد سعيد فى مسقط فى ذلك الوقت واستقبل ابنه خالد السفن الفرنسية وقدم الفرنسيون مطالبهم بتأسيس قلعة وبناء قنصلية فى زنجبار وإبقاء قواعد عسكرية فى براوة ومقديشيو، ولكن خالد قدم اعتذاره بأنه ليست لديه السلطة لكى يتفاوض معهم فى أمور خطيرة فى غياب والده[٢].

والملاحظ أن السيد سعيد كان حريصا على استخدام صداقته للإنجليز لدفع الأطماع الفرنسية عن ممتلكاته فى شرق إفريقيا، ولكننا نلاحظ مع ذلك أنه على الرغم من كتابته إلى بالمرستون وزير الخارجية البريطانية يوضح له النفوذ الفرنسى الذى أصبح يهدد ممتلكاته، إلا أنه من ناحية أخرى أخذ يعمل على كسب صداقة

---

(١) تقع هذه الجزيرة على مسافة ميل إلى الشمال الغربى من مدغشقر.

(٢) Coupland, op. cit., p. 422.



الفرنسيين. وأكبر الظن أن السيد سعيد وقد عركته التجارب حاول استخدام الضغوط الفرنسية لمساومة الإنجليز من ذلك ما ذكره لهمرتون ـ القنصل البريطاني في زنجبار ـ أن الفرنسيين يلحون في الحصول على معاهدة تجارية بيد أنه يخشى أن لا يقنع الفرنسيون بنفس الشروط التي تضمنتها معاهدة ١٨٣٩ بينه وبين بريطانيا، وتساءل عن موقف بريطانيا فيما لو منح الفرنسيين امتيازات أكثر من تلك التي منحها للإنجليز؟. وحينما كتب همرتون إلى اللورد أبردين وزير الخارجية البريطانية يطلعه على ذلك الأمر أعرب اللورد أبردين عن عدم رغبة الحكومة البريطانية في التدخل في شئون المعاهدات التي يزمع السلطان إبرامها مع الفرنسيين أو غيرهم ولكن بشرط أن يطبق على بريطانيا نفس الامتيازات التي تمنح وذلك استنادا على نص معاهدة ١٨٣٩. ومما هو جدير بالذكر أن المعاهدة الفرنسية مع السلطنة أبرمت في عام ١٨٤٤؛ وقد وصف أحد الباحثين في القانون الدولي[١] تلك المعاهدة بأنها كانت نصرا كبيرا للسياسة الفرنسية، وكانت تعني عودة ازدهار العلاقات بين فرنسا وسلطنة مسقط وزنجبار بعد انكماش تلك العلاقات منذ ١٨١٠ على أثر سقوط جزيرة موريس في أيدي الإنجليز. ومما يذكر أيضا أن فرنسا بادرت بتأسيس قنصلية لها في زنجبار على أثر إبرام تلك المعاهدة، وأخذت سفن السلطنة العربية تصل في رحلاتها التجارية إلى الموانئ الفرنسية، كما نتج عن تلك المعاهدة تأسيس الكثير من البيوتات التجارية الفرنسية التي أصبح لها نشاطا ملحوظا في تجارة الشرق الإفريقي، ومن أبرزها بيت رابو **Raboud** وفيدال **Vidal** وغيرهما[٢].

ولم تقتصر علاقة الدول الأجنبية بالشرق الإفريقي على التجارة وحدها بل كان هناك مجال آخر فيما يتعلق بالحركات الاستكشافية والتبشيرية. وكثير من المستكشفين والمبشرين أشادوا برعاية السيد سعيد لهم، واعتمدوا على نفوذ السلطنة العربية في التوغل داخل الأقاليم الإفريقية. وقد تحدث كرابف **Krapff** في الكتاب الذي وضعه عن الأعمال التبشيرية في شرق إفريقيا عن التسهيلات الكثيرة التي منحها السيد سعيد له وأنه كان يزوده بحاميات للحراسة وبرسائل للرؤساء التابعين له في الداخل. والجدير بالذكر أن كثيرا من المؤسسات التبشيرية الإنجليزية

---

(١) Kajare, Firouz, op. cit., p. 98.

(٢) Coupland, R., op. cit., p. 425.

والفرنسية قد اضطلعت بشئون التبشير فى شرق إفريقيا، وتأسست الكثير من المدارس والمراكز التبشيرية فى الساحل والداخل[1]. وكما لقى المبشرون عناية السيد سعيد ورعايته فقد وجدها أيضا المستكشفون الأوربيون الذين قاموا بكشوفهم الجغرافية مسترشدين بما أوجده التجار العرب من المراكز التجارية فى دواخل شرق إفريقيا، وقد نوه المستكشف البريطانى ريتشارد بيرتون Burton عن أهم هذه المراكز الحضرية ودور السلطنة العربية فى تقدم حركة الكشوف الجغرافية فى شرق إفريقيا[2].

ونحن إذا ما عرضنا لتلك البعثات الأوربية التى اتخذت شكل غزو تبشيرى واستكشافى وما كان قد سبق ذلك من نشاطات اقتصادية للدول الأجنبية استطعنا أن ندرك جيدا مقدار الخطر الذى كان يتربص بممتلكات السلطنة العربية فى إفريقيا. وليس من شك أيضا فى آمال السيد سعيد فى تكوين إمبراطورية عربية إفريقية لم تلاق النجاح الذى كان يريده لها بل إن آماله فى تأسيس تلك الإمبراطورية كانت مسئولة عن إهماله إلى حد كبير لممتلكاته فى الخليج والجزيرة العربية وكانت المحصلة النهائية تفكك ممتلكاته فى كل من عمان وشرق إفريقيا إذ انفصل إقليم صحار فى عام ١٨٣٩، كما كثرت الثورات الأباضية وتعددت الغزوات السعودية. ويمكن التعرف على مبلغ ما وصلت إليه منزلة السيد سعيد من تردى بقراءتنا لأحد التقارير التى بعث بها همرتون إلى حكومة الهند فى عام ١٨٤١ حيث ذكر «أن الإمام سعيد لا يظهر إلا قليلا من العناية بممتلكاته فى جزيرة العرب وأن نفوذه فى عمان الداخلية قد ولى دون رجعة بسبب الطابع الواهن لحكومته وهو ما يعرفه ويشعر به». ومن الطبيعى أنه كان من الصعب على السيد سعيد الاحتفاظ بدولة بشقيها الإفريقى والآسيوى فى غمار القرن التاسع عشر؛ ذلك القرن الذى شهد تفوق قوة أوربا العسكرية والصناعية وشهد هذا الرتل الطويل من المستكشفين والرواد والمبشرين والتجار الأوربيين الذين انتهوا إلى تلك الحقيقة وهى أن هناك أمكنة فى إفريقيا صالحة للاستغلال وأنها قارة

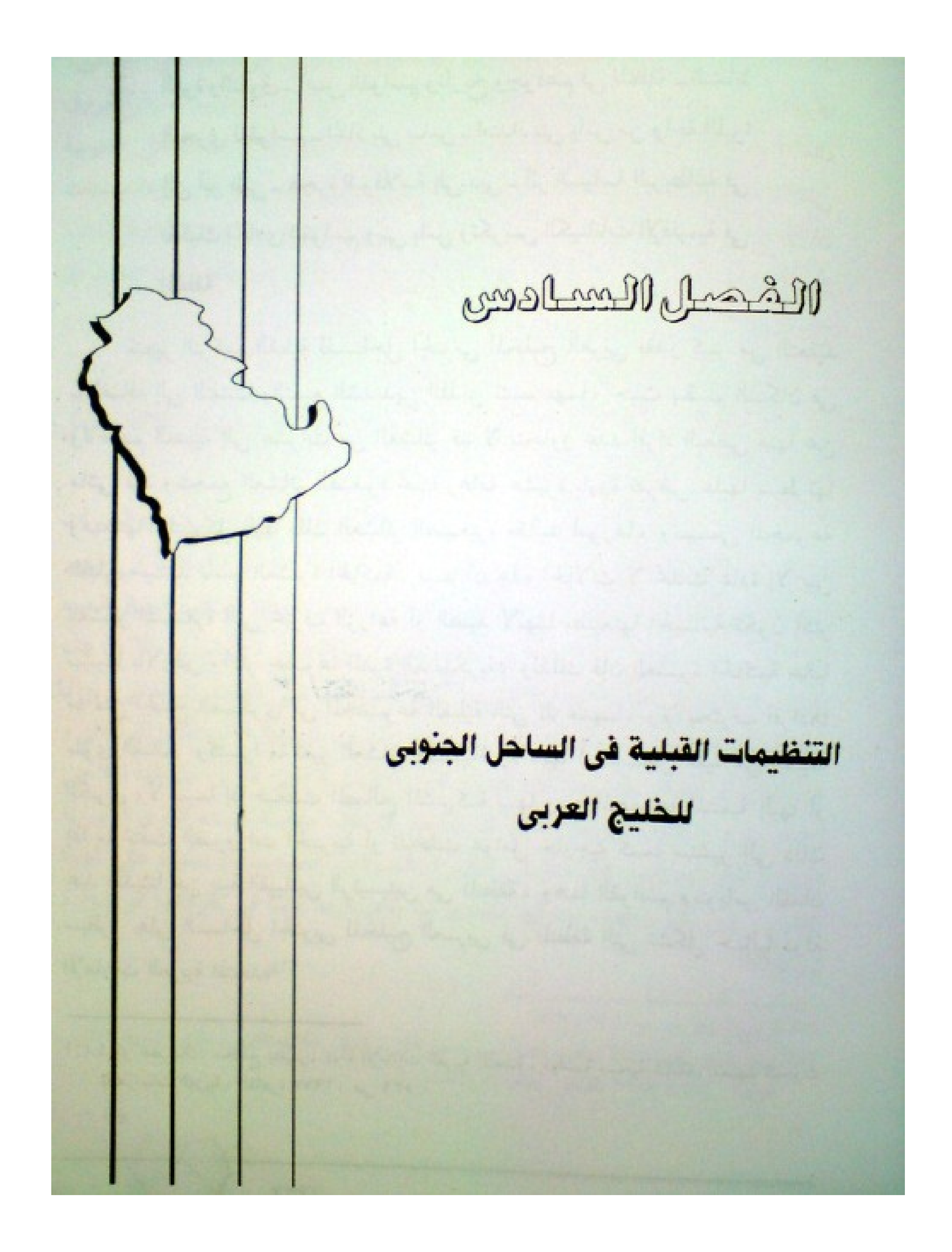
---

(1) McMillan, Mona, op. cit., p. 167.

(2) Burton, R., op. cit., vol. I p. 34.

جديرة بالامتلاك والسيطرة؛ وهكذا شاءت الظروف أن تصطدم رغبة السيد سعيد فى تأسيس إمبراطورية عربية فى شرق إفريقيا مع رغبة الدول الأوربية فى السيطرة على تلك القارة واستعمارها واقتسامها فيما بينها، ويمكننا فى هذا المجال أن نستعير ما ذكره بيرس Pearce فى تعليقه على إمبراطورية السيد سعيد فى شرق إفريقيا فى أنه ولد متأخرا خمسمائة عام! وفى وقت غير ملائم لتحقيق تلك الآمال التى كان يحرص عليها[1]. ومهما قيل عن فشل السيد سعيد فى المحافظة على ممتلكاته فى عمان أو فشله فى الإبقاء على إمبراطوريته فى شرق إفريقيا إلا أن الأمر الذى لا شك فيه أنه فى خلال السنوات التى قضاها فى شرق إفريقيا ترك تأثيره الملحوظ فى تلك البلاد حتى أصبحت شهرة السيد سعيد فى العالم الخارجى ترجع إلى حكمه فى زنجبار أكثر مما ترجع إلى حكمه فى عمان.

(١) Pearce, op. cit., p. 120.



الفصل السادس

التنظيمات القبلية فى الساحل الجنوبى للخليج العربى

التركيبة القبلية فى الساحل الجنوبى للخليج العربى ـ اتحاد القواسم ـ المجموعات القبلية المنتمية إلى القواسم ـ عوامل ظهورهم إلى القوة والتفوق ـ أصل القواسم وتاريخ وجودهم فى المنطقة ـ النشاط البحرى للقواسم ـ اتحاد بنى ياس ـ امتداد بنى ياس من واحة الليوا إلى أبو ظبى ـ هجرة البوفلاسة إلى دبى ـ أثر السياسة البريطانية فى تفكيك اتحادى القواسم وبنى ياس وتكريس الكيانات الإقليمية فى المنطقة.

تتميز التركيبة القبلية للساحل الجنوبى للخليج العربى بقدر كبير من التعقيد بالإضافة إلى التفتت والتميع الشديدين اللذين تتسم بهما، حيث ينقسم السكان فى ولاءاتهم النسبية إلى عشرات من العشائر قد لا يتجاوز عدد أفراد البعض منها عن مائتى فرد وتتجمع العشائر الصغيرة تحت زعامة عشيرة بارزة تفرض عليها سيطرتها وهيمنتها، فتوكل إليها تلك العشائر الصغيرة مقاليد أمورها، وتسمى المجموعة القبلية حينئذ باسم العشيرة الحاكمة. بيد أن هذه الحالات لا تحدث عادة إلا بين العشائر المستقرة التى تحترف الزراعة أو الصيد لأنها بطبيعتها الحياتية تكون أكثر تشبثا بالأرض وأكثر خضوعاً للقوة العسكرية، ولذلك فإن العشيرة الحاكمة غالبا ما تمثل الجناح العسكرى فى المجموعة القبلية التى تتزعمها، ولا يحترف أفرادها سوى القتال. وكثيرا ما تغير العشائر الصغيرة ولاءاتها أو تستقل كليا عن القبيلة الكبرى ولا سيما إذا ضعفت المصالح المشتركة بينها وبين المجموعة المنتمية إليها أو إذا ما انتفت الضرورات الحربية أو تدخلت عوامل خارجية كما سنشير إلى ذلك عند حديثنا عن بنية القبيلتين الرئيسيتين فى المنطقة، وهما القواسم وبنوياس اللذان سيطرا على الساحل الجنوبى للخليج العربى فى المنطقة التى تشكل حاليا دولة الإمارات العربية المتحدة[1].

---

(١) شاكر خصباك: مجتمع يتغير، دولة الإمارات العربية المتحدة ـ دراسة مسحية شاملة، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة ١٩٧٧، ص ٥٣٩.

ومن المفيد أن نشير إلى أن الاتحادين الكبيرين - القواسم وبنو ياس - برزا إلى القوة حول منتصف القرن الثامن عشر، وتقاسما السلطة السياسية فيما بينهما، القواسم فى القسم الشمالى، وبنو ياس فى القسم الجنوبى من الساحل العمانى. ولا يعنى هذا الانقسام أن هناك خلافا بين القبائل الشمالية والجنوبية إذ إن الفروق العنصرية والسلالية تكاد تكون منعدمة فيما بينهم، وحتى إذا كانت القبائل الجنوبية - كما يرى بعض الباحثين - تنتمى إلى العناصر الحامية فإن ذلك لا يميزها بسمات إثنولوجية خاصة، والمفروض أن تكون الفروق بين المجموعتين فروقا ثقافية أساسا بحكم طبيعة الحياة التى يحياها كل من الفريقين[١]. ولذا قد يكون من المفيد أن نعرض لهذين الاتحادين على النحو التالى:

أولا: اتحاد القواسم

شجع على قيام هذا الاتحاد حول منتصف القرن الثامن عشر ثلاثة عوامل يمكن أن نبرزها فيما يلى:

العامل الأول: يرتبط بفقدان القوة البحرية المتفوقة للبرتغاليين منذ السنوات الأولى من القرن الثامن عشر، وهذا العامل فيما نعتقد كان سببا أساسيا فى ظهور ونمو القوى العربية البحرية فى الخليج العربى، حقيقة أنه قد أعقب انهيار النفوذ البرتغالى ظهور قوى أوربية جديدة كالهولنديين والإنجليز والفرنسيين إلا أن هذه القوى الأجنبية لم يكن هدفها تأسيس إمبراطوريات على الطراز البرتغالى، وإنما وجهت نشاطها بشكل متزايد للتجارة وأعلنت كسر سياسة الاحتكار البرتغالى، وبذلك ترك المجال مفتوحا أمام القوى العربية النامية لكى تمارس نشاطها الملاحى والتجارى، ولكنها بطبيعة الحال لم تستطع أن تقف منافسة لهذه القوى الأوربية الجديدة التى أصبحت تملك السفن الكبيرة والشركات الضخمة وتستحوذ على تجارة الشرق، ومن ثم وجهت نشاطها المعادى لها باعتبارها سببا فى حرمانها من موارد ثروتها[٢].

---

(١) المرجع السابق ص ص ٥٣٨ - ٥٣٩.

(٢) راجع بصدد ذلك مقدمة الدكتور أحمد عزت عبد الكريم لكتاب الخليج العربى، دراسة لتاريخ الإمارات العربية ١٨٤٠ - ١٩١٤ للدكتور جمال زكريا قاسم.

أما العامل الثانى: فيرتبط بانهيار دولة اليعاربة فى عمان، حقيقة أن دولة اليعاربة استطاعت منذ قيامها أن تعمل على تجميع القبائل العربية للقضاء على التفوق البرتغالى ولكى تعيد إلى عمان تماسكها ووحدتها، إلا أنها لم تلبث أن تعرضت لتمزق داخلى بين قبائلها الهناوية والغافرية، وحينما قامت دولة آل أبى سعيد بانتصار الاتحاد الهناوى على الاتحاد الغافرى أخذت المعارضة ضد الحكم الجديد تتجمع فى المناطق الشمالية ذات الأصول العدنانية مما كان سببا فى نشأة الاتحاد القاسمى[١]. والعامل الثالث الذى أفسح المجال لنشاط ذلك الاتحاد يرتبط بحالة الاضطربات والفوضى التى تعرضت لها فارس على أثر اغتيال نادر شاه فى عام ١٧٤٧[٢]، وفى خضم هذه الفوضى وقع الأسطول الفارسى فى أيدى القواسم، حيث كان عدد كبير من بحارتهم يتولون قيادة هذا الأسطول منذ تأسيسه على عهد نادر شاه[٣].

ومما ينبغى الإشارة إليه أن اتحاد القواسم كان يشمل عدداً كبيراً من القبائل التى كانت تنضوى تحت لواء القواسم، ومن بين هذه القبائل آل على ويقيمون بصفة رئيسية فى مدينتى رأس الخيمة والشارقة، كما يقيم عدد منهم فى أم القوين حيث تنتمى إليهم الأسرة الحاكمة فى تلك الإمارة. كذلك ضم الاتحاد القاسمى قبيلة المهرة التى تقيم فى رأس الخيمة وعشائر البومهير الذين يقيمون فى معظم المدن الساحلية التى تتبع الاتحاد القاسمى، وهناك أيضا آل زعاب الذين يقيمون فى رأس الخيمة وجزيرة الحمراء فى مدينة كلبا، وهم من العشائر المستقرة التى يشتغل معظم أفرادها بالزراعة ولا سيما زراعة النخيل. ومن القبائل المنتمية للاتحاد القاسمى قبيلة الحبوس التى يقيم أفرادها فى المناطق الجبلية الشمالية من إمارة رأس الخيمة وخاصة فى ميناء رمس الذى يقع شمال رأس الخيمة فيما وراء مرتفعاتها، وكذلك قبائل الشحوح الذين يتوزعون فى المناطق الجبلية من رأس الخيمة،

---

(١) Bombay Govt., Selections from the Records vol. XXIV See Warden, Frances, Historical Sketch of the Joasmee Tribe of Arabs 1747 - 1818 Bombay 1856. p. 300 ff

(٢) صالح العابد: دور القواسم فى الخليج العربى ١٧٤٧/ ١٨٢٠ بغداد ١٩٧٦ ص ص ٣٦ / ٣٧.

(٣) Factory Records, Persia and the Persian Gulf, See Gombroon Diary Feb. 1734 - July 1734.

والمطاريش الذين يقيمون فى سهل الباطنة فى مدينة الشارقة ويحترفون الزراعة والصيد. وإلى جانب تلك القبائل المنتمية للقواسم يمكن الإشارة أيضا إلى الخواطر الذين يقطنون رأس الخيمة كما يشكلون فرعى القسم الجنوبى من قبيلة النعيم التى يقيم معظم أفرادها فى منطقة الظاهرة. كذلك يضم اتحاد القواسم بنى قتب وهم عشائر بدوية فى المقام الأول يتركز أفرادها فى إمارة الشارقة، وآل بوخريبان وهم فرع آخر من قبيلة النعيم يتركز أفرادها فى إمارة عجمان[1].

ويتضح لنا من هذا التنوع الهائل فى المجموعات القبيلة المنتمية للقواسم أنهم لم يكونوا قوة بحرية فحسب وإنما كانوا يتمتعون بالإضافة إلى ذلك بالقوة البرية التى كانت القبائل البدوية تشكل عمادها، ومن أبرزها قبيلة بنى قتب السابق إشارتنا إليها وقبائل الغفلة. وإن كانت الصفة البحرية قد غلبت على اتحاد القواسم؛ نظرا لتوجه معظم القبائل المنتمية إليه إلى البحر فضلا عن الزعامة القاسمية ذاتها حتى أصبح الاتحاد القاسمى يشكل قوة بحرية متفوقة خلال النصف الثانى من القرن الثامن عشر[2].

وينتمى القواسم إلى المذهب السنى، ومن الناحية الطائفية إلى عرب الشمال أو إلى التكتل الغافرى. بيد أن هناك العديد من الآراء التى ذكرت عن أصل القواسم ومن أين جاءوا إلى المنطقة.

فهناك من المصادر من ترجعهم بأصولهم إلى قبائل نجد، وهناك مصادر أخرى ترجعهم إلى قبائل آل ظفير وذلك فيما يبدو استنادًا خاطئا إلى ما أشار إليه الشيخ حسين بن غنام مؤرخ غزوات الشيخ محمد بن عبد الوهاب وكذلك عثمان بن بشر[3]، حين تحدثا عن غزوة قام بها الشيخ فى أرض الحجرة عام ١٢٠٩ هـ

---

(١) من المفيد الرجوع فى التشكيلات القبلية على الساحل الجنوبى للخليج العربى إلى الدراسة التى وضعتها شعبة البحث بشركة الزيت العربية الأمريكية بعنوان عمان والساحل الجنوبى للخليج «الفارسى» - القاهرة ١٩٥٥.

(٢) جون كلى: بريطانيا والخليج جـ ١ ص ٣٤ وكذلك
Bombay Govt., op. cit., Warden, F., Historical Sketch of the Joasmee Tribe of Arabs vol. XXIV Bombay 1856.

(٣) الشيخ حسين بن غنام: تاريخ نجد المعروف بروضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الإمام وتعداد غزوات ذوى الإسلام تحقيق ناصر الدين الأسد ص ص ١٨٨ - ١٨٩ وكذلك عثمان بن بشر: عنوان المجد فى تاريخ نجد ص ص ١٠٢ - ١٠٣، انظر أيضا عبد القوى فهمى: القواسم ونشاطهم البحرى فى الخليج العربى ص ص ٣٧ - ٣٨.

(١٨٠٥) على القواسم من آل ظفير الذى كان يتزعمهم ابن عفصيان، ومن المؤكد أن ابن غنام وابن بشر كانا يشيران إلى قبائل أخرى من القواسم تقع بين نجد والعراق وليست قواسم الساحل العمانى إذ إن زعيم قواسم الساحل العمانى فى ذلك الوقت كان الشيخ صقر بن راشد وليس ابن عفصيان، والأهم من ذلك أن قواسم آل ظفير كانوا معادين للحركة الوهابية على عكس قواسم الساحل العمانى الذين أيدوا الوهابيين حينما وصلوا إلى سواحلهم. وهناك من الباحثين من يرجع القواسم إلى منطقة الصير بعمان وإذا تحقق هذا الرأى فإن هذا يعنى أن استقرار القواسم فى عمان لم يكن استقرارا حديثا وإنما كان ذلك فى فترة بعيدة فى التاريخ وأن امتدادهم إلى الساحل الجنوبى للخليج حدث فى فترات تاريخية تالية[١]، خاصة وأن هناك مصادر كثيرة ترجع قدوم القواسم إلى الساحل الجنوبى للخليج فى أوائل القرن الثامن عشر وأن انتشارهم امتد من موساندوم إلى الديرة من أعمال دبى[٢]. وهناك من المصادر من تعتبر القواسم فرعا من عرب الهولة - وهى قبائل تقطن الساحل الشرقى من الخليج العربى بين بوشهر وبندر عباس بالإضافة إلى جزر البحرين التى تعد المعقل الرئيسى لعرب الهولة - ولعل ما ذكره صمويل ميلز Miles من انتماء القواسم إلى عرب الهولة على نحو ما ذكره ابن رزيق دفعت به خطأ إلى أن يقرر أنهم وفدوا من فارس وأقاموا فى الساحل الشرقى للخليج ثم انتقلوا بعد ذلك إلى الساحل العربى المقابل[٣]، واستند فى ذلك على ما ذكره الشيخ منصور - وهو طبيب إيطالى دخل فى خدمة السيد سعيد بن سلطان وتسمى بذلك الاسم العربى - فى أنهم وصلوا إلى الساحل الجنوبى للخليج من مراكزهم الرئيسية فى خرج ولفت[٤]. أما الرحالة كارستن نيبور فقد أشار إلى انتماء بعض القبائل الساكنة فى الساحل الجنوبى من الخليج العربى إلى عرب الهولة ولعله كان

---

(١) Bombay Govt., op. cit., Historical Sketch of the Joasmee Tribe of Arabs vol. XXIV By Francis Warden Bombay 1856. p. 300 ff

(٢) السالمى وناجى عساف: عمان تاريخ يتكلم ص ١٩٩.

(٣) صالح العابد: مرجع سبق ذكره ص ٦٥.

(٤) Shaikh Mansour, History of Seyyid Said pp. 31 - 32. See also Miles, Countries and Tribes of the Persian Gulf pp. 267 - 269.

يقصد بذلك القواسم حيث ذكر أن شيوخ الصير بعمان ينتمون إلى تلك القبائل(١). وهناك مصادر أخرى ترجع القواسم إلى الميناء التجارى القديم سيراف ومنه انتقلوا إلى مسقط بعد الانهيار الذى تعرض له ذلك الميناء ولذلك عرفوا فى مسقط باسم بنى السيرافى واستقر بعضهم فى ميناء صور بينما توجه قسم آخر إلى رأس الخيمة، وتشير مصادر أخرى إلى نسبتهم لقبيلة نزار، وهى فصيلة من بنى غافر كانت قد هاجرت من أواسط الجزيرة العربية وأقامت فى عمان منذ القرن السابع عشر الميلادى. وهناك فريق من القواسم يؤكدون على أنهم شرفاء ينحدرون من قريش ومن السلالة النبوية الشريفة(٢). ولعل ذلك ما يؤيد الرأى القائل أنهم يرجعون إلى قبيلة بنى ناصر(٣)، وهى قبيلة عربية تقطن على يسار الكعبة المشرفة. والقواسم باتفاق النسابين عرب عدنانيون ذكرت بعض المصادر المحلية نسبتهم إلى القاسم بن شعوة المزنى وهو الذى أخرجه الحجاج بن يوسف الثقفى إلى عمان يقود جيشا لحرب سليمان بن عباد الجلندى فى القرن الأول الهجرى، وهذا يعنى أن القواسم قدماء بأرض عمان ومنها انتشروا فى القبائل العربية واختلطوا بها فى أماكن عديدة فى صور والساحل الشرقى للخليج بالإضافة إلى الساحل العربى(٤)، حيث ظهرت زعامتهم على عهد زعيمهم كايد بن عدوان فى أوائل القرن السابع عشر الميلادى، وكان ذلك حين أراد الشاه عباس الكبير مقاتلة البرتغاليين فى هرمز فاستعان بالعناصر العربية على الساحل الفارسى، ووجد مساعدة من الشيخ كايد الذى انتقل منذ ذلك الوقت إلى جلفار (رأس الخيمة) وهى التى عرفها الملاحون العرب باسم رأس الخيمة.

يتضح لنا مما سبق اختلاف آراء المصادر فى أصل القواسم مع ملاحظة أن الكتاب الفرس يركزون على انتماء القواسم إلى الساحل الشرقى للخليج فى محاولة منهم لوضع أسس للادعاءات الفارسية على الساحل العمانى، ولكن القواسم باتفاق معظم المصادر عرب اقحاح ينتمون إلى القبائل النجدية وإلى

(١) Niebuhr, C., Travels in Arabia vol. II pp. 143 - 144.

(٢) صالح العابد: مرجع سبق ذكره ص ٦٥.

(٣) جمال زكريا قاسم: الادعاءات الإيرانية فى الخليج العربى، من أعمال المؤتمر الدولى للتاريخ بغداد ١٩٧٣.

(٤) سالم بن حمود السيابى: إيضاح المعالم فى تاريخ القواسم دمشق ١٩٧٦، ص ٣٧ انظر أيضا ابن رزيق الفتح المبين ص ٢١٤.

الغافرية بصفة خاصة. ويؤكد ذلك ما قرره الكابتن سيتون Seton وكيل شركة الهند الشرقية البريطانية فى مسقط وكان ذلك فى بداية اهتمام الشركة بالقواسم ورغبتها فى تحرى وجمع المعلومات عنهم، كما يؤيد ذلك القول أيضا انضمام القواسم إلى القبائل الغافرية فى صراعها ضد القبائل الهناوية وسرعة اعتناق القواسم للدعوة الوهابية مما يؤكد أصولهم النجدية(١)، وحتى إذا اعتمدنا على ما ذكرته بعض المصادر من انتماء القواسم إلى الساحل الشرقى للخليج فإن ذلك الساحل كان مركز تجمع القبائل العربية وذلك قبل أن تعمل إيران بعد نمو الحركة القومية بها فى أعقاب الحرب العالمية الأولى على تفريس العناصر العربية التى تقطن على سواحلها منذ عهد رضا شاه بهلوى.

وإذا كان هناك خلاف حول أصل القواسم فإن الغموض يكتنف أيضا بداية ظهورهم، وثمة فرق بين ما نعنيه بالقواسم فى حد ذاتهم وبين اتحاد القواسم الذى كان يشتمل على قبائل أخرى غير القواسم، وإذا أخذنا بالمفهوم الثانى فإن الاتحاد القاسمى لم يظهر إلى القوة إلا فى القرن الثامن عشر الميلادى وكان يعد من أكبر التجمعات القبلية التى شهدتها منطقة الخليج العربى بل إن وثائق حكومة بومباى تؤكد أن معظم القبائل القاطنة فى الساحل الجنوبى من الخليج قد نسبت إلى القواسم مما يدل على اتساع نفوذ ذلك الاتحاد وهيمنته على المنطقة وعلى أجزاء لا يستهان بها من الساحل الشرقي المقابل. أما عن القبيلة الرئيسية وهى القواسم فإن انتمائها إلى المنطقة يعود إلى فترة بعيدة فى التاريخ، وبصدد ذلك تذكر وثائق حكومة بومباى أن القبائل العربية ساندت مالك بن فهم عند وصوله إقليم عمان وكان ذلك عقب انهيار سد مأرب فى اليمن(٢) وهناك رواية أخرى تؤكد وصول القواسم إلى الساحل الجنوبى للخليج حول القرن السابع الميلادى، أما القواسم أنفسهم فأنهم يروّن أن أسلافهم وصلوا المنطقة واستقروا بها منذ فترات بعيدة فى التاريخ(٣). وأصدق الروايات ترجيحا أنهم وجدوا فى المنطقة منذ عهد عبد الملك بن مروان والحجاج بن يوسف الثقفى وكان يطلق عليهم عرب نزار(٤).

---

(١) عبد القوى فهمى: القواسم ونشاطهم البحرى ١٧٤٧ ـ ١٨٥٣ ص ص ٣٩ ـ ٤٠.

(٢) Bombay Government, S.R.B.G. vol. XXIV p. 4.

(٣) عبد القوى فهمى: مرجع سبق ذكره ص ٤١.

(٤) المفصل فى تاريخ الإمارات العربية جـ ١ ص ٦٢ راجع أيضا ابن رزيق: الفتح المبين ص ٢١٤.

وتختلف الروايات التاريخية عن المعقل الرئيسى للقواسم وزعمائهم الأول فإحدى هذه الروايات تنسب إلى زعيم القواسم الأول الشيخ قاسم بنائه لمدينة رأس الخيمة حيث تذكر أنه نصب خيمته فى نقطة تقع على الساحل العربى مقابل مدينة جلفار بحيث كانت تراها جميع السفن المارة فى الخليج؛ ومن ثم أطلق البحارة على ذلك المكان اسم رأس الخيمة، فى حين تؤكد رواية أخرى أن القواسم ينتسبون إلى الشيخ رحمة الذى لقب بكايد بن عدوان لسطوته وجبروته. وتؤكد وثائق بومباى على أن الشيخ كايد وليس الشيخ قاسم هو الذى بدأ بالاستقرار فى ذلك المكان الذى تطور إلى مدينة تحمل اسم رأس الخيمة. وعلى الرغم من أن هذه الروايات ترجع إل القرن السابع عشر الميلادى إلا أنه من المؤكد أن مدينة رأس الخيمة كانت أسبق فى الظهور من هذا التاريخ ومما يؤكد لنا ذلك أن الملاح العربى شهاب الدين أحمد بن ماجد قد ذكرها باسم جلفار فى بعض مؤلفاته الملاحية فى القرن الخامس عشر الميلادى حيث أورد اسمها صراحة كواحدة من الموانى العربية فى أرجوزته الشهيرة عن بنادر بر العرب فى خليج فارس[1]. ومهما يكن من أمر فإن تركيز المصادر على القواسم يرجع إلى القرن الثامن عشر الميلادى حين بدأ دورهم البحرى يظهر بوضوح وخاصة حين انتهزوا فرصة الغزو الأفغانى لفارس ١٧٢٢ فسيطروا على جزيرة قشم كما برزوا إلى مجال القوة فى الفترة التى أعقبت اغتيال نادر شاه، وقبل ذلك فى خلال الصراع بين الكتلتين الهناوية والغافرية فى عمان حيث وقف زعيم القواسم الشيخ رحمة بن مطر إلى جانب الزعيم محمد بن ناصر الغافرى ضد خلف بن مبارك الهناوى فى الصراع العنيف الذى دار بينهما. ويؤكد ابن رزيق[2] أن الزعيم محمد بن ناصر الغافرى استقدم فى عام ١٧٢٣ بدوا من الشمال، كما جاءت إمدادات من جلفار وأميرها يومئذ هو الشيخ رحمة بن مطر حيث أوكل إليه قيادة إحدى فرقه، ولكن على أثر مقتل الزعيم محمد بن ناصر انكمش القواسم فى منطقة الصير حتى قدمت حملة فارسية على عمان فى عام ١٧٣٧ فاستسلموا لها فى بداية الأمر، ولكنهم لم يلبثوا أن هاجموها مع

---

(١) أوردابن ماجد ثغور جلفار وسيراف وهرمز من سواحل الخليج العربى، انظر أنور عبد العليم: ابن ماجد الملاح ص ١٦٤.

(٢) ابن رزيق: الفتح المبين ص ٣٦٨ ويطلق ابن رزيق على القواسم أهل الصير.

غيرهم من القبائل، ووجـد أحمد بن سعيد والى اليعاربة على صحـار تعاونًا كبيرًا منهم حيث استعـان بهم فى مهاجمة ميناء بندر عبـاس. ولكن لم يلبث أحمد بن سعيد بعد أن عقدت الإمامه له وأتم تخليص المقاطعات العمانية من الفرس أن أخذ اعتمـاده يتزايد على الكتلة الهناوية؛ ومن ثم وقف الغافـريون ومن بينهم القواسم موقف المـعارضة من حكـمه مما أثار نزاعا كـبيـرا بينه وبين القواسـم؛ وإن كانت المصالح المشتركة حتمت فى كثير من الأحيان اتفاقه وتعاونه معهم، ولكن ذلك لم يمنع زعيم القواسم رحمة بن مطر من إعلان استقلاله بحكم المناطق التى آلت إليه فى السـاحل العـمانى، وبذلك يعاصـر الاتحاد القاسـمى نشأة دولة آل أبى سعـيد وسقـوط دولة اليعاربة فى عمـان. واضطر الإمام أحمـد بن سعيد إلى الاعـتـراف للقـواسم بسيـادتهم الفـعليـة وذلك بعد سلـسلة من المعارك العـنيفـة التى دارت بينهما[1].

استطاع القواسم منذ منتصف القرن الثامن عشر أن يمتدوا بنفوذهم من رأس موساندوم حتـى دبى كما امتدت سيطرتهم على بعض الموانى والجـزر الواقعة على الساحل الشـرقى للخليج وخاصـة جزيرة قشـم وكنج ولنجة[2]. كمـا تمكنوا من تجميع أسطول كبيـر حيث سقطت كثير من السفن الفارسـية تحت أيديهم بالإضافة إلى ما كانوا يستـولون عليه من السفن الأوربية بسبب عملياتهم البـحرية المتنامية. وبوفاة الشـيخ رحمة بن مطر فى عام ١٧٥٨ تولى زعـامة الاتحاد القاسـمى الشيخ راشد بن مطر حتى عام ١٧٧٧، وفى عهده زادت قوة القواسم البحرية وتمكنوا من السيطرة على كثير من الموانى والجزر الواقعة على السـاحل الشرقى للخليج مستغلين فى ذلك حالة الضعف التى كانت تعانيها فارس؛ فتمكنوا من السيطرة على جزيرة قـشم ولفت ولنجة فى عـام ١٧٦٥، كـما سـيطروا على شـيناص التى تقع على ساحل الباطنة، وفى عام ١٧٧٢ تحالف الشـيخ راشد بن مطر مع الإمام أحمد بن سعيد ضد الفرس ثم عاد وتنازع معه فى عام ١٧٧٥، وبعد ثلاثين عاما من الحكم تنازل الشيخ راشـد عن مشيخـة القواسم لابنه صقر بن راشـد الذى استمر قـائما بالحكم فـيما بين عـامى ١٧٧٧ و ١٨٠٣، وفى عهـده تم التحالف بيـن القواسم

---

(١) عبد الرحيم عبد الرحمن: الدولة السعودية الأولى، معهد الدراسات العربية ـ القاهرة ١٩٦٩ ص ٢٥٧.
(٢) المفصل فى تاريخ الإمارات جـ١ ص ٢١٤.

وبنى معين وهم قبيلة عربية كانت تحكم فى قشم وهرمز، حيث تزوج الشيخ صقر من ابنة الشيخ عبد الله بن معن مما أعطى القواسم قوة بحرية ضخمة تمكنوا بها من السيطرة على الشئون التجارية والعسكرية فى الخليج، وتأكدت لهم تلك السيطرة على أثر اغتيال كريم خان الزندى ١٧٧٩، وما ترتب على ذلك من تردى فارس فى مشاكلها الداخلية. وحينما اعتزل الشيخ صقر مشيخة القواسم فى عام ١٨٠٣ وصل إلى الزعامة الشيخ سلطان بن صقر وقدر له أن يتمتع بحكم طويل استمر أكثر من نصف قرن حيث توفى فى عام ١٨٦٦، وشهد حكمه أحداثا خطيرة فى تاريخ المنطقة ولم يكن عهده مستمرا إذ أنه عزل بضع سنوات من قبل السعوديين حينما اتجه إلى التحالف مع السيد سعيد سلطان مسقط. وكان مما ساعد السعوديين على عزله عدم قبول القواسم لهذا التحالف، ولكن الشيخ سلطان تمكن من أن يسترد حكمه بعد أن فر من سجنه بالدرعية ووصل إلى مسقط عن طريق اليمن[1]، حيث وجد أطرافا عديدة كانت على استعداد لتقديم العون له وعلى الأخص السيد سعيد والإنجليز ومحمد على حين بدأ ت قواته تطرق شبه الجزيرة العربية وتتجه للوصول إلى سواحلها. وعلى الرغم من عودته إلى الحكم إلا أنه لم يستطع أن يعيد الاتحاد القاسمى إلى سابق وحدته حيث ظهرت زعامتان للقواسم إحداهما فى رأس الخيمة وعلى رأسها الشيخ حسن بن رحمة والأخرى فى الشارقة التى استقر بها الشيخ سلطان بن صقر منذ عام ١٨١٦. واستمر ذلك الوضع قائما حتى قام الإنجليز بحملتهم العسكرية على رأس الخيمة فى عام ١٨١٩ حيث نجح الشيخ سلطان بن صقر فى الانتقال إلى رأس الخيمة بعد أن أمده الإنجليز بأموال لإعادة بنائها بشرط أن يمتنع عن مهاجمة السفن الإنجليزية طبقًا لشروط معاهدة السلام العامة التى وقعت مع شيوخ الساحل العمانى فى عام ١٨٢٠[2].

والفترة التى برز فيها القواسم كقوة بحرية ضاربة يمكن تحديدها بين عامى ١٧٤٧ و ١٨١٩. وفى خلال هذه الفترة أقلق القواسم بريطانيا ولم يتوانوا عن مهاجمة أية سفينة تحمل العلم البريطانى سواء كانت تابعة للإنجليز أو لرعاياهم كما أخذ القواسم على عواتقهم تحدى النفوذ البريطانى الذى بدأ يتسرب إلى المنطقة

(١) Bombay Government, S.R.B.G. vol XXIV p. 305 SQ.

(٢) عبد القوى فهمى: مرجع سبق ذكره ص ٤٧.

حيث امتاز القواسم بالصلابة والشجاعة وحب المغامرة حتى اضطر الإنجليز فى بداية الأمر إلى دفع ترضيات لهم مقابل المرور فى مياههم، ولكن عندما شعر الإنجليز أن فى مقدورهم مهاجمة القواسم بعد تصفية صراعاتهم مع الدول الأجنبية، وبعد تثبيت نفوذهم فى الهند رفضوا دفع الأموال واعتبروا دفاع القواسم عن سواحلهم ومياههم عملا من أعمال القرصنة واتهموا القواسم بأنهم قراصنة حقيقيون همهم سلب السفن التجارية وقطع العلاقات بين الشرق والغرب[1].

وعلى نحو ما أشرنا نجح القواسم فى تأكيد سيادتهم على المنطقة الساحلية الممتدة من موساندوم إلى ديرة دبى، وظهرت وانتعشت فى منطقة نفوذهم هذه الكثير من الموانى التى كان من أبرزها بطبيعة الحال معقلهم الرئيسى فى رأس الخيمة؛ والشارقة التى كانت تعتبر القاعدة الثانية للقواسم؛ وجزيرة الحمراء وأم القوين والحميرية وعجمان، كما امتدت سيطرة القواسم أيضا على الساحل الفارسى حيث ضموا إليهم ميناء لنجة وما حوله من جزر، وازدادت قوة القواسم بانضمام آل على وهم المعلا حكام إمارتى أم القوين والفجيرة اللذين كانا من توابع القواسم. كما انضم إلى الاتحاد القاسمى قبيلة آل نعيم بفخوذها الأربعة آل بوخريبان الذين أصبحوا الفخذ الحاكم فى إمارة عجمان، والفخذ الثانى وهم آل بوشامس زعماء النعيم؛ والفخذ الثالث وهم الخواطر فى رأس الخيمة، والرابع بنو معين فى جزيرة قشم[2]. والجدير بالذكر أن السلطة التى كان يمارسها زعماء القواسم على مناطق نفوذهم وعلى القبائل القاطنة فيها لم تكن سلطة استبدادية أو مطلقة فعلى الرغم من أن الشيخ الأعلى للقواسم كانت له السلطة العليا على القبائل الداخلة فى اتحاد القواسم إلا أنه كان لكل ميناء من تلك الموانى التى سبق أن أشرنا إليها شيخه الذى يمارس الحكم فيه وفقا للأسلوب القبلى وإن كان يدين بالولاء للشيخ الأعلى، كما كانت تتم مناقشة القضايا العامة بانعقاد مجلس كبير يرأسه الشيخ الأعلى ويضم الشيوخ التابعين وكبار رجال القبائل، وفى ذلك المجلس كانت تقرر الحلول للقضايا موضوع البحث[3]. كما أن هناك قيداآخر كان

(١) السالمى وناجى عساف: عمان تاريخ يتكلم ص ص ٢٠٠ / ٢٠١.
(٢) فالح حنظل،مرجع سبق ذكره جـ ١ ص ٦٤.
(٣) جمال زكريا قاسم: الأسس التاريخية لوحدة الإمارات العربية، من أعمال ندوة تجربة دولة الإمارات العربية المتحدة ـ مركز دراسات الوحدة العربية ـ بيروت مارس ١٩٨١.

يحول دون استبدادية الشيخ وهذا القيد يتمثل فى العادات والأعراف القبلية المتعارف عليها والتى كان يتحتم على الشيخ مراعاتها لإبقاء ولاء القبائل التابعة له. كما كان الشيخ الأعلى مضطرا إلى أن يسلك سياسة مرنة تجاه القبائل البدوية الموالية له خشية من تغيير ولائها. كما كانت تكمن قوة الشيخ القاسمى فى سيطرته على النواحى الاقتصادية والعسكرية فهو المهيمن على المراكز التجارية الهامة فى المنطقة ناهيك عن امتلاكه لقوة ضاربة فى البر والبحر تمكنه من السيطرة على المناطق الخاضعة له(١).

وكان القواسم بسبب ظروف بيئتهم القاسية يعتمدون على البحر فى كسب معيشتهم، وفى البحر أيضا كانوا يمارسون معظم نشاطهم السياسى والاقتصادى حيث ساعدتهم طبيعة الساحل المعروفة بكثرة تعاريجها وخلجانها وأخوارها وألسنتها الرملية وجزرها المغمورة على إيجاد موانى طبيعية مارسوا فيها نشاطهم البحرى والعسكرى. ومع ذلك تجدر الإشارة إلى أن الطابع العسكرى لم يكن هو الطابع المميز للقواسم وخاصة فى الفترة التى سبقت اصطدامهم بالقوى الأجنبية منذ نهاية القرن الثامن عشر والسنوات الأولى من القرن التاسع عشر، فمن المعروف أن القواسم كانوا يمارسون أنشطة سلمية عديدة خاصة صيد اللؤلؤ والتجارة والأسفار البعيدة التى كانوا يقومون بها إلى سواحل الهند وشرق إفريقيا(٢). وقد استلفت نشاط القواسم السلمى والحربى نظر العديد من الرحالة الأوروبيين الذين زاروا المنطقة خلال تصاعد قوتهم البحرية ولعل من أهم أولئك الرحالة الأوربيين كارستن نيبور الذى زار المنطقة فى عام ١٧٦٥، وقدم لنا صورة حية عن نشاط القواسم البحرى، كما أكد بكنجهام الذى زار المنطقة فى أوائل القرن التاسع عشر على صفة المهارة والمثابرة والإخلاص فى عهودهم وسجل ذلك فى الجزء الثانى من كتابه المعروف رحلات فى أشوريا وميديا وفارس(٣). وتعتبر كتابات بكنجهام من أهم الكتابات التى تحدثت عن القواسم فى القرن التاسع عشر خاصة وأنه كان شاهد عيان لبعض الأحداث والوقائع التى كتب عنها إذ أنه زار

---

(١) صالح محمد العابد: مرجع سبق ذكره ص ٧٣.

(٢) Buckingham, Travels in Assyria, Media and Persia London 1830 vol II pp. 210 - 211. See also Miles, op. cit., vol. II p. 442.

(٣) Buckingham, op. cit., pp. 210 - 211.

ويؤكد لو Low فى كتابه أن القواسم امتدوا بعملياتهم البحرية حتى سواحل الهند انظر.
Low, Charles, History of the Indian Navy vol. I p. 352 ff.

رأس الخيمة فى عام ١٨١٦ والتقى بزعيم القواسم حسن بن رحمة وذلك بعد الإطاحة بالشيخ سلطان بن صقر من قبل السعوديين. كذلك تناول الأدميرال لو Low فى كتابه عن تاريخ البحرية الهندية نشاط القواسم والمتاعب التى كان يتعرض لها الأسطول الإنجليزى فى الهند نتيجة اعتداءاتهم، وهناك من الرحالة الذين تحاملوا على القواسم فى الوقت الذى نجد فيه رحالة آخرين أبدوا أعجابهم بما كانوا يتمتعون به من قوة بحرية. ولعل الرحالة ولستد Wellested قد اتصف بالموضوعية عند حديثه عن القواسم على عكس الرحالة هود Heude التى تتسم كتاباته عن القواسم بالكراهية الشديدة والتحامل العنيف عليهم، أما كتابات الشيخ منصور Vincenzo فتتصف بقدر كبير من الموضوعية رغم أنه كان يعمل فى خدمة السيد سعيد أعدى أعداء القواسم. ويشابه الشيخ منصور فى كتاباته الموضوعية كل من أيتشيسون وفريزر حيث أكد الأول على ممارسة القواسم لتجارة بحرية نشيطة ومربحة حتى اصطدموا ببريطانيا منذ أوائل القرن التاسع عشر(١). أما فريزر فقد أكد على صفة الشجاعة والنخوة والحمية التى تميز بها القواسم وإن وصف عملياتهم بالسلب والقرصنة.

ولعل ما يسترعى انتباهنا النشاط السلمى الذى كان يتميز به القواسم قبل اتجاههم إلى الناحية العسكرية، ولكن هذا النشاط أخذ يضعف نتيجة تأسيس الشركات التجارية الكبرى التى ظهرت فى بداية عصر التوسع الاستعمارى فى بحار الشرق وامتدت تلك الشركات بفروعها ووكالاتها التجارية ونشاطاتها الاقتصادية والسياسية إلى منطقة الخليج العربى، ولما كانت البيئة قاحلة والمنافسة التجارية غير متساوية فقد بدأت المنطقة التى يسيطر عليها القواسم تعانى أنماطا من الفاقة مما جعل القواسم يتصدون للسفن التجارية المحملة بالثروات التجارية والتى كانوا لا يستطيعون منافستها بطبيعة الحال. وعلى الرغم من أن القواسم كانوا يجنون أموالا طائلة من نشاطاتهم البحرية هذه التى أطلقت عليها كثير من المصادر الأجنبية تعبير السلب أو القرصنة(٢)، إلا أن هدفهم الرئيسى كان مركزا حول

---

(١) Aitchison, A Collection of Treaties, Engagements and Sanads relating to India and Neighbouring Countries, Calcutta 1909 vol. XII p. 352.

(٢) Kemball, A., Observation on the past policy towards the Arab Tribes of the Persian Gulf, S.R.B.G. vol. XXIV. p. 61 ff.

الانتقام من القوى الأجنبية التى عاث ممثلوها البرتغاليون فسادا لسنوات عديدة فى سواحلهم[1]. ومن ناحية أخرى فإن طبيعة القواسم البحرية كانت نتيجة طبيعية لنمط حياتهم وحرفهم الرئيسية فهم يقومون بصيد الأسماك واستخراج اللؤلؤ فى أوقات السلم غير أن هذه الأعمال تقتصر على أشهر معدودة فى السنة أما فى خلال فصل الشتاء فإن قسوة البحر على الشواطئ المفتوحة كانت تحول بينهم وبين مزاولة مهنهم بنجاح بينما تقل الزراعة فيعانون من جراء ذلك ببطالة شاملة. ونتيجة لتلك الظروف البيئية أخذ القواسم يسيطرون على النشاط البحرى فى المنطقة وبرزت سيطرتهم الواضحة خلال القرن الثامن عشر ومكنهم من ذلك انحسار الموجة البرتغالية الاحتكارية وعدم وجود قوى بحرية مجاورة، فاليعاربة انهارت قوتهم البحرية نتيجة صراعاتهم الداخلية، وفقدت فارس نفوذها البحرى بعد اغتيال نادر شاه ومن ثم انفسح المجال أمام القواسم لكى يديروا الحركة الملاحية بين موانى الخليج من ناحية وبين تلك الموانى وموانى الهند والشرق الإفريقى من ناحية أخرى.

وحينما أخذت القوى الأجنبية بما فيها بريطانيا تتجه إلى السيطرة على تجارة الشرق كان من الطبيعى أن يعجز أسطول القواسم عن منافسة الشركات البريطانية وغيرها ومن ثم تحول نشاط القواسم منذ منتصف القرن الثامن عشر إلى الناحية العسكرية فقاموا بمغامرات بحرية بهدف الاستيلاء على السفن التجارية التابعة لشركة الهند الشرقية البريطانية التى كانت تمر بسواحلهم مما جعل المصادر الأجنبية تطلق على هذه العمليات التعبير الذى استخدم فى ذلك الوقت وهو القرصنة، وكما سبق أن أشرنا أن الأوربيين على اختلاف جنسياتهم مارسوا القرصنة فى المحيط الهندى منذ ظهور البرتغاليين فى القرن السادس عشر واستمر أسلوب القرصنة شائعا حتى أوائل القرن التاسع عشر الميلادى حتى أن فرنسا كانت على سبيل المثال ترخص لبعض بحارتها المشهورين بالجرأة والمغامرة بمهاجمة سفن الأعداء والحصول على الغنائم التى تنتج عن ذلك لحسابهم الخاص، ولعل ذلك هو

---

(١) شاكر خصباك: بحث سبق ذكره ص ٥٤٢.

أهم فرق بين القرصنة والحروب الرسمية، أى أنه إذا تم الاستيلاء على السفن لحساب الدولة فإن ذلك يكون من أمور الحرب المتعارف عليها، أما إذا استولى أفراد لحسابهم الخاص على الغنائم فإنها تصبح بذلك قرصنة، وإذا طبقنا هذا المفهوم فى القانون الدولى على منطقة الخليج العربى فى تلك الفترة فإن العمليات العسكرية التى كان يقوم بها القواسم كانت تعتبر من الحروب الرسمية. ذلك لأن القواسم وصلوا إلى درجة لا بأس بها فى التنظيم السياسى، ومن ناحية أخرى فإن القبيلة فى المفهوم الاجتماعى السائد كانت تشكل وحدة سياسية رسمية. وعلى الرغم من أن بريطانيا لم تعترف بذلك، حتى تتيح لنفسها القضاء على ما وصل إليه القواسم من قوة عسكرية وبحرية إلا أنها عادت واعترفت بالقبيلة كتنظيم سياسى؛ يدل على ذلك أنها عقدت معها المعاهدات والاتفاقيات. والخلاصة أن النشاط البحرى للقوى العربية فى الخليج وخاصة تلك الأنشطة التى كان يقوم بها القواسم فى البحر كانت صورة لما يقع من علاقات بين القبائل فى البر وإذن فإن تلك الأنشطة كانت تتم لحساب القبيلة وبذلك لا يمكن اعتبارها قرصنة إذا أخذنا مفهوم القبيلة على أنها صورة للدولة فى مجتمعات الخليج والجزيرة العربية[1].

وقد استطاع القواسم أن يحرزوا شهرة بحرية لا تضارع وساعدهم على ذلك الموقع الجغرافى فالساحل الذى يسيطرون عليه كثير التعاريج ومن ثم كان يسهل على القوارب الصغيرة التابعة للقواسم أن تتخذ منها ملاجئ طبيعية لها، ومما تجدر الإشارة إليه أنه بسبب مزاولة القواسم للأعمال البحرية المعادية للسفن الأجنبية فقد أطلق الأوربيون على الساحل الممتد من رمس جنوبا إلى دبى شمالا اسم ساحل القرصان Pirate Coast وعل الرغم من أن منطقة نفوذ القواسم لم تتعد ميناء دبى إلا أن هذا الاسم قد استخدم بمدلول أوسع ليشمل الساحل الممتد من رمس إلى أبو ظبى بل تعدى ذلك إلى شبه جزيرة قطر.

---

(١) لعل من أهم المؤلفات العربية التى ناقشت هذه الفكرة: التيارات السياسية فى الخليج العربى للدكتور صلاح العقاد ص ص ٩٠/٩٢ وعبد العزيز عبد الغنى بريطانيا وإمارات الساحل العمانى ص ١٣٨ وما بعدها (ط) البصرة. وعبد الأمير محمد أمين وصالح العابد ومصطفى النجار وجمال زكريا قاسم فى مؤلفاتهم المتعددة عن الخليج. راجع قائمة المصادر.

ثانيا: اتحاد بنى ياس

شكل هذا الاتحاد التحالف القبلى الثانى فى الساحل الجنوبى للخليج العربى، إذ امتدت سيطرة قبائل ذلك الاتحاد من جنوب قطر على طول الساحل إلى دبى. ولم يقتصر الأمر على الساحل فحسب بل امتد نفوذ بنى ياس إلى منطقتى الظاهرة والبريمى. وقد تزعمت عشيرة بنى ياس ذلك الاتحاد، وهى عشيرة برزت إلى مجال الزعامة منذ أوائل القرن السابع عشر الميلادى[1]؛ وامتلكت قبيلة آل بوفلاح السلطة السياسية والعسكرية فى ذلك الاتحاد وعلى الرغم من أن مصدر قوة بنى ياس هى القوة البرية وليست البحرية كما هو الحال بالنسبة لاتحاد القواسم، ومع ذلك فقد استطاع بنو ياس أن يكونوا لإنفسهم قوة بحرية لا يستهان بها بالإضافة إلى قوتهم البرية، وحدث ذلك حينما تحولوا إلى الساحل واتخذوا من جزيرة أبو ظبى مركزا لهم. ومما تجدر الإشارة إليه أن اتحاد بنى ياس، مثله فى ذلك مثل اتحاد القواسم، ليس قبيلة واحدة وإنما كان يتألف من عشرين قبيلة تتراوح بين القبيلة الصغيرة والكبيرة مع التسليم بأن قبيلة بنى ياس كانت أضخم قبائل ذلك التنظيم[2]، بل كانت من أكبر القبائل التى ظهرت فى منطقة الساحل الجنوبى للخليج العربى.

ويعتقد كثير من الباحثين أن قبيلة بنى ياس قبيلة حديثة التواجد نسبيا فى أرض الظفرة ولاسيما فى منطقة الليوا إذ تذكر إحدى المصادر أن قبيلة بنى ياس لا يتعدى وجودها فى المنطقة أكثر من ثلاثة قرون حيث تقاسمت هى وقبيلة المناصير العيش فى واحة الليوا التى تتكون من حوالى خمسين قرية سكنتها القبيلتان اللتان تحالفتا فيما بينهما وتزعم هذا التحالف عشيرة آل بوفلاح التى كانت تمثل القلب البدوى المحارب فى هذا التحالف القبلى، وينتسب آل بوفلاح إلى بنى ياس[3]. ولعل أول إشارة ذكرت عن بنى ياس فى واحة الليوا تمتد إلى عهد اليعاربة فى السنوات الأولى من القرن السابع عشر وذلك فى مخطوطة عمانية قديمة نشرها روس تسمى كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة للمؤرخ سعيد بن سرحان الأزكوى[4]. وعلى الرغم من أن المنطقة الأساسية التى استقر فيها بنو ياس

---

(١) راجع بصدد ذلك S.R.B.G. vol. XXIV Benyias Tribe p. 461 ff

(٢) Miles, S., Countries and Tribes of the Persian Gulf vol. II p. 438.

(٣) محمد مرسى عبد الله: إمارات الساحل وعمان والدولة السعودية الأولى ص ٩٨.

(٤) Ross, Annals of Oman by Said bin Sirhan 1874.

انظر أيضا مخطوطة المعولى: قصص واخبار جرت فى عمان ورقة ٦٤ حيث جاء ذكر بنى ياس وبدو الظفرة فى عام ٤٣ - ١هـ خلال الصراع العمانى ضد البرتغاليين.

قبل أن تنضم إليهم العشائر الأخرى هى منطقة الظفرة إلا أن سهولة تحرك القبيلة على رقعة واسعة من الأراضى بسبب طبيعتها البدوية المتنقلة قد مكنت زعيمها نهيان من مد نفوذه إلى جهات واسعة فى الداخل. ومن المعروف أنه حكم خلال النصف الثانى من القرن الثامن عشر، ويعد الحاكم الثالث من تلك العشيرة إذ سبقه المؤسس الأول وهو الشيخ ياس التى أخذت القبيلة اسمها منه ثم الشيخ فلاح الذى ينتسب إلى آل نهيان[1]. على أنه مما يستلفت النظر عدم ارتباط اتحاد القواسم وبنى ياس فيما بينهما على الرغم من الظروف الخارجية التى كانت تهدد المنطقة خلال النصف الثانى من القرن الثامن عشر والسنوات الأولى من القرن التاسع عشر، ولعل تفسير ذلك يرجع إلى انتماء بنى ياس إلى الكتلة الهناوية وانتماء القواسم إلى الكتلة الغافرية مما أدى إلى قيام صراعات فيما بينهم، وإن كانت المصالح المشتركة حتمت فى كثير من الأحيان قيام علاقات حسن الجوار بين الاتحادين[2].

وقد يكون من المفيد أن نعرض فيما يلى إلى القبائل والفصائل التى يتشكل منها اتحاد بنى ياس وهى على الوجه التالى:

- البوفلاح، وهى عشيرة - كما سبق أن أشرنا - تمثل القلب البدوى المحارب لعشائر بنى ياس وهى تتألف من بطون عديدة لعل أبرزها آل نهيان فى أبو ظبى وآل محمد فى واحة ليوا ويطلق عل البوفلاح لقب الشيوخ وهم فى العادة يمتلكون البساتين وقوارب الصيد وتجارة اللؤلؤ، كما كانوا يمتلكون القطعان الكبيرة. ويختلف النسابة فى أصل آل نهيان فهناك من يقول أنهم من الدواسر وهى منطقة تقع غربى نجد ثم انتقلوا إلى الظفرة وأقاموا بين قبائل بنى ياس إلى أن أتيح لهم تكوين إمارتهم والتصدى لزعامة بنى ياس.

- الرواشد، وهم من أكبر أقسام قبيلة بنى ياس، ويمثلون عنصرا أساسيا من عناصر السكان بها. ويعتبر فرع البوفلاسة الذى ينتمى إليه آل مكتوم حكام دبى أهم فروع الرواشد[3]. والجدير بالذكر أن آل مكتوم انتقلوا إلى دبى منذ

---

(١) انظر شجرة أنساب بنى ياس فى المجلد الثانى من كتاب دولة الإمارات العربية المتحدة وجيرانها للدكتور محمد مرسى عبد الله - الكويت ١٩٨١.

(٢) شاكر خصباك: بحث سبق ذكره

(٣) السيابى: إيضاح المعالم فى تاريخ القواسم ص ١٩٦.

عام ١٨٣٣، ويرى بعض الباحثين المحليين أن دبى كانت تابعة للقواسم قبل انتقال آل مكتوم إليها إلى أن اعترفت لهم بريطانيا بإمارة دبى[1]. وإن كنا نعتقد أن دبى كانت تابعة لأبوظبى حيث شارك حاكمها من آل نهيان فى التوقيع على معاهدة الصلح العامة فى عام ١٨٢٠[2].

وإلى جانب هذين القسمين الكبيرين اللذين كانا يتشكل منهما اتحاد بنى ياس، ونعنى البوفلاح والرواشد، كان هذا الاتحاد يشتمل على مجموعات قبلية عديدة كالهوامل والمناصير والمحاربة والقبيسات والرميثات والمزاريع وغيرها[3]، وعلى الرغم من تعدد فصائل القبائل التى ينتمى إليها اتحاد بنى ياس إلا أن ذلك الاتحاد نجح فى أن يكون من أقوى التنظيمات القبلية من حيث التماسك إلى درجة جعلت البعض يعتقد أنهم عشائر لقبيلة واحدة وليست قبائل متحالفة أى أنها تعود إلى أصل واحد، وبطبيعة الحال ليس من المتوقع أن ترتبط القبائل المنضمة إلى ذلك الاتحاد بروابط القرابة، ولكنها ترتبط بوجودها ضمن منطقة معينة بتضامنها وخضوعها لزعامة قبلية موحدة.

ومما تجدر الإشارة إليه أن هناك اختلافا بين اتحاد القواسم واتحاد بنى ياس، وذلك من حيث طبيعة الحياة التى يعيشها أفراد كل من الاتحادين، فبينما كان يعتمد القواسم فى المقام الأول على النشاط البحرى والملاحى فإن مصدر سلطة الحكم لبنى ياس ومصالحهم قامت فى الدرجة الدرجة الأولى على أسس إقليمية أو جغرافية، وكما سبقت الإشارة إلى أن قبيلة بنى ياس استقرت فى بداية الأمر فى واحة ليوا التى تقع فى أعماق الظفرة، وخلال الصيف كان ينتقل معظم أفراد القبيلة وعلى الأخص فصائل الرميثات والقبيسات إلى الجزء الشمالى من الساحل بحثا عن الأسماك واللؤلؤ، ولا تعود تلك الفصائل إلى موطنها الأصلى إلا بعد انتهاء فترة القيظ أو الحصاد. وتؤكد بعض المصادر التاريخية[4] مساهمة بنى ياس فى التصدى للسيطرة البرتغالية؛ إذ حينما أعلن الإمام ناصر بن مرشد إمام عمان

---

(١) المرجع السابق ص ١٩٦.

(٢) راجع المعاهدة العامة فى ملاحق الكتاب.

(٣) من القبائل المنتمية إلى اتحاد بنى ياس آل بومهير وآل بوحمير والمرر والسودان والسبايس والقمزان... إلخ.

(٤) Miles, S., The Countries and Tribes of the Persian Gulf vol. II p. 203. SQ.

من أسرة اليعاربة الجهاد الدينى لتخليص بلاده من البرتغاليين فى عام ١٦٢٤ وجد تجاوبا كبيرا من القبائل العربية حيث نجحت مجموعات من قبائل بنى ياس فى طرد البرتغاليين من القلعة التى أقاموها فى جلفار فى مواجهة رأس الخيمة، كما شارك بنو ياس فى حركة الجهاد التى قادها سيف بن سلطان اليعربى وتعقب فيها البرتغاليين بعد طردهم من مسقط فى عام ١٦٤٩ إلى معاقلهم فى الهند وسواحل شرق إفريقيا. ولعل أسرة المزروعى وهى أحدى فروع بنى ياس قد انتقل قسم منها منذ ذلك الوقت إلى ممبسة فى شرق إفريقيا حيث أوجدت لنفسها تطلعات جديدة هناك، وذلك حين عهد إليها اليعاربة حكم بعض مقاطعات الشرق الإفريقى واستمرت تمارس الحكم فى ممبسة حتى أطاح بها السيد سعيد بن سلطان فى عام ١٨٢٩ [١].

ومما يسترعى الانتباه أن انهيار النفوذ البرتغالى فى منطقة الخليج العربى أفسح المجال لبنى ياس كما أفسح المجال لغيرهم من القبائل فى إقامة تنظيمات سياسية مستقرة، ويؤكد ذلك ما أشارت إليه وثائق حكومة بومباى إلى أنه فى عام ١٧٦١ سكنت مجموعات من بنى ياس جزيرة صغيرة عرفت باسم أبو ظبى وذلك على أثر اكتشاف مياه الشرب بها مما أفسح المجال لظهور تنظيم قبلى فى السواحل المجاورة لها أما قبل ذلك الوقت فلم تحاول تلك القبائل الاستقرار بسبب طبيعتها البدوية من ناحية ولعدم التعرف على موارد المياه الصالحة للشرب من ناحية أخرى، وأعقب عملية الاستقرار فى أبو ظبى هجرة مجموعات أخرى من قبائل بنى ياس من واحة ليوا فى الداخل إلى الساحل ولعل ذلك مما مكن لاتحاد بنى ياس أن يأخذ لنفسه الصفتين البرية والبحرية معا، ومن الطبيعى بعد زيادة عدد السكان أن يفكر حكام بنى ياس فى رعاية شئون أتباعهم على الساحل. ولعل الشيخ عيسى بن نهيان كان أول من تنبه إلى أهمية استقرار أتباعه على الساحل. وعلى الرغم من أن ابنه دياب استمر يمارس حكمه من واحة ليوا فى الداخل إلا أن التحول الجديد كان يضطره إلى زيارة رعاياه على الساحل من وقت إلى آخر. ولعل أهم خطر تعرض له بنو ياس حدث على عهد الشيخ دياب التى شهدت سنوات حكمه

---

(١) جمال زكريا قاسم: دولة بو سعيد فى عمان وشرق إفريقيا ص ص ١٩٤ ـ ١٩٥ انظر أيضا:
Coupland, R., East Africa & Its Invaders p. 219.

اضطرابات أسرية عنيفة حين تمكن ابن أخيه الشيخ هزاع بن زايد من إثارة بعض القبائل ضد عمه دياب وتطور الأمر إلى إقدامه على اغتيال عمه فى عام ١٧٩٣؛ ونتج عن ذلك الحادث انقسام تحالف بنى ياس إلى فريقين: فريق كان يؤيد هزاع والفريق الآخر كان يؤيد شخبوط بن دياب، وقد نجح أتباع شخبوط فى إعادة التماسك لبنى ياس حين تولى زعامة الاتحاد الشيخ شخبوط بن دياب فى عام ١٧٩٥[١].

وكان أهم عمل قام به الشيخ شخبوط بن دياب الذى حكم خلال الفترة ١٧٩٥ إلى ١٨١٦ هو الانتقال إلى جزيرة أبو ظبى وذلك حين أقدم على نقل مركز حكمه من جزيرة ليوا إليها، وكان لتلك الخطوة أثر كبير فى تطور المنطقة الساحلية حيث أعطى أتباعه منفذا على البحر أدى إلى إنعاش حياتهم الاقتصادية نتيجة اشتغالهم بالتجارة والصيد واستخراج اللؤلؤ، كما كان عاملا هاما فى تكوين حلف من القبائل الرئيسية فى المنطقة وخاصة بين بنى ياس والظواهر والعوامر والمناصير مما أضفى أهمية كبرى على عهده لأن ذلك التحالف القبلى أدى إلى توسيع رقعة حدود إمارة أبو ظبى شرقًا حيث بدأت جماعات من القبائل المنتمية لبنى ياس تقيم مع حلفائها الظواهر فى منطقة العين وما جاورها. وفى عام ١٨١٦ تنازل الشيخ شخبوط عن الحكم لابنه محمد الذى حكم إمارة أبو ظبى لمدة عامين ١٨١٦ - ١٨١٨ ثم خلفه أخوه طحنون بن شخبوط الذى حكم خلال الفترة من ١٨١٨ - ١٨٣٣ ثم خليفة بن شخبوط الذى حكم خلال الفترة من ١٨٣٣ - ١٨٤٥، وسجلت السنوات الأولى من حكمه هجرة أعداد كبيرة من آل بوفلاسة من أبو ظبى إلى دبى خلال موسم الغوص فى عام ١٨٣٣[٢]. وكان يقود المهاجرين من آل بوفلاسة الشيخ عبيد بن سعيد ومكتوم بن بطى، وفى دبى اشتركا معا فى الحكم حتى مات عبيد فى عام ١٨٣٦ وأصبحت السلطة المطلقة فى يد مكتوم بن بطى الذى تنسب إليه الأسرة الحاكمة فى دبى حتى وقتنا الحاضر[٣].

---

(١) محمد مرسى عبد الله: مرجع سبق ذكره ص ١٠١.

(٢) Bombay Govt., op. cit., vol. XXIV. See Hennell, The Beniyas Tribes of Arab p. 463. ff

(٣) جمال زكريا قاسم: إمارات قديمة ودولة حديثة - دولة الإمارات العربية المتحدة، معهد البحوث والدراسات العربية القاهرة ١٩٧٧. وعن هجرة البوفلاسة إلى دبى انظر:
S.R.B.G., vol . XXIV, Boofelassa Tribe, Debaye, pp. 497 - 503.

ومما هو جدير بالذكر أن انشقاق البوفلاسة لم يكن هو الانشقاق الوحيد الذى تعرض له تحالف بنى ياس، إذ لم يكد يمضى عامان على هجرة البوفلاسة حتى أخذ اتحاد بنى ياس يتعرض مرة أخرى للتصدع بسبب هجرة القبيسات إلى خور العديد إلى الجنوب الشرقى من شبه جزيرة قطر. على أنه مما يثير الانتباه أنه بينما تمكن البوفلاسة من تكوين إمارة خاصة بهم فى دبى فإن القبيسات لم يتمكنوا من أن يحققوا لأنفسهم مثلما حققه البو فلاسة ولعل ذلك يرجع إلى خوف بريطانيا من أن تستغل الدولة العثمانية الوضع لصالحها فتسيطر عى خور العديد، ولذلك بينما اعترفت بريطانيا باستقلال البوفلاسة فى دبى إلا أنها لم تعترف باستقلال القبيسات، وكانت عاملا هاما فى تحريض شيوخ أبو ظبى على استرجاع نفوذهم على أتباعهم المنشقين من القبيسات[1].

ومما تجدر الإشارة إليه فى هذا المجال أن الاتحادين الكبيرين اللذان قاما فى الساحل الجنوبى للخليج، وهما تحالف القواسم وتحالف بنى ياس ظهر تفككهما مع بداية الزحف البريطانى إلى المنطقة؛ حيث بدأت فى الظهور تجمعات قبلية تستند إلى أسس إقليمية أو جغرافية ولا تنتمى إلى زعامة عشائرية قوية، فالاتحاد القاسمى لم يلبث أن تفكك وظهرت على أنقاضه مجموعة من المشيخات وخاصة بعد عام ١٨٢٠، إذ إنه على أثر انهيار معقل القواسم فى رأس الخيمة فى أعقاب الحملة العسكرية البريطانية فى عام ١٨١٩ ظهرت إمارة الشارقة التى ضمت إليها لفترة من الزمن إمارة رأس الخيمة، وفى نفس العام ظهرت مشيخة أم القوين التى تولى زعامتها آل على كذلك ظهرت إمارة عجمان التى تولى عليها الشيخ راشد بن حميد من آل النعيم، بالإضافة إلى آل نهيان فى أبو ظبى، والبوفلاسة فى دبى كما تميزت الفترة التى أعقبت التدخل البريطانى فى المنطقة بالصراع الذى نشب بين القواسم وبنى ياس؛ إذ انحاز بنو ياس إلى سلطنة مسقط ضد القواسم الذين كانوا على عداء مع سلاطينها، وبدأت منطقة الساحل تشهد العديد من الخلافات الطائفية بين الكتلتين الهناوية والغافرية حيث كان القواسم - على نحو ما أشرنا - أعضاء فى التكتل الغافرى على عكس بنى ياس الذين ينتمون إلى التكتل الهناوى،

---

(1) Turkish Jurisdiction in the Lands and Waters of Persian Gulf I.O. Political and Secret Department B 126.

وقد ظهرت الخلافات بين الفريقين في واحة البريمي وفي منطقة الديرة بدبي في عام ١٨٢٤، ولما كان آل النعيم سكان البريمي على صلة قرابة بنعيم عجمان فقد تدخلت إمارة الشارقة إلى جانب النعيم ضد بني ياس وسلطان مسقط الذي كانت له حامية في البريمي، كما قام شيخ أبو ظبي بتشجيع جماعة من قبيلة السودان على بناء قلعة لهم بين دبي والشارقة مما أدى إلى زيادة في توتر الموقف[1].

وبالإضافة إلى ذلك شهد عام ١٨٢٩ حروبا عنيفة دارت بين القواسم وبني ياس بسبب تحريض السيد سعيد سلطان مسقط لبني ياس ضد القواسم. وقد تجدد ذلك الصراع في عام ١٨٣٣ على أثر هجرة البوفلاسة إلى دبي إذ اعتمد البوفلاسة على تأييد الشيخ سلطان بن صقر حاكم الشارقة الذي رحب بهذه الفرصة لكي يخضع البوفلاسة إلى حمايته وقام على رأس قوة كبيرة من القواسم والبوفلاسة لمواجهة بني ياس الذين تصدوا لهذه القوة، ولما كان بنو ياس قد فقدوا تأييد سلطان مسقط بسبب رحيله عن زنجبار فقد انتهى النزاع بتوقيع صلح بين الطرفين وافق بمقتضاه الشيخ خليفة بن شخبوط حاكم أبو ظبي على التخلي عن كل إدعاءاته تجاه البوفلاسة وتعهد شيخ أبو ظبي بأن يعيد السفن التي استولى عليها منذ بدء النزاع، وأن يرفع حصاره عن دبي، وفيما يتعلق ببني ياس المقيمين في دبي فقد تم اعتبارهم رعايا تابعين للبوفلاسة، وكانت هذه الحروب العنيفة المجهدة أعنف الحروب الأهلية التي دارت في المنطقة وكان من نتيجتها عقد الهدنة البحرية الأولى في عام ١٨٣٥[2]. ومما تجدر الإشارة إليه أن بريطانيا كانت محورا في هذه الصراعات، وقد يرى البعض أنه لاينبغي أن نحمل السياسة البريطانية أكثر مما تحتمل أو نلقي بمشكلات المنطقة على كاهلها لأن التمزق والانقسام من الطبيعة القبلية المعروفة بكثرة تقلباتها ونزاعاتها، وعل الرغم مما قد يكون لهذا الرأي من وجاهة إلا أن استقرائنا للأحداث التاريخية يؤكد ما سبق أن ألمحنا إليه، وهو أنه من الملاحظ حتى بداية الزحف البريطاني على المنطقة في السنوات الأولى من القرن التاسع عشر لم يكن هناك سوى تجمعين قبلين كبيرين، ثم بدأ هذان

(١) السيابي: إيضاح المعالم في تاريخ القواسم، ص ٢٢١.
(٢) نفسه ص ٢٢٣.

التجمعان - القواسم وبنو ياس - يصابان بالتصدع والانهيار، ونشبت الخلافات والمنازعات فيما بينهما. ولعل من أبرز نتائج انهيار هذين الاتحادين ظهور الكيانات الصغيرة التى أشرنا إليها على الساحل، ورحبت السياسة البريطانية بظهورها ومنحتها حمايتها، واعترفت بها مشيخات (مستقلة) إذ كانت تجد فى هذا التفكك ما يتلاءم مع مصالحها الاستعمارية دون أى اعتبار يذكر لمقدرات المنطقة ومقوماتها الذاتية[1].

(١) جمال زكريا قاسم: الأسس التاريخية لوحدات الإمارات العربية ودور الاستعمار فى تجزئتها، من أعمال ندوة التجارب الوحدوية المعاصرة. انظر:
تجربة دولة الإمارات العربية المتحدة - بيروت - مركز دراسات الوحدة العربية مارس ١٩٨١.



الفصل السابع

القواسم وعلاقتهم بالقوى المجاورة

انفصال القواسم عن عمان - القواسم والبوسعيد - العلاقات بين القواسم وفارس على عهدى نادر شاه وكريم خان - العلاقات بين القواسم والقوى العربية على الساحل الشرقى للخليج - اعتناق القواسم للدعوة السلفية - العلاقات بين السعوديين والقواسم - عزل السعوديين للشيخ سلطان بن صقر - استعادة الشيخ سلطان سلطانه فى الشارقة وبداية التفكك فى الساحل العمانى.

رغم اندماج القواسم فى الوحدة العمانية التى نجح الإمام ناصر بن مرشد مؤسس أسرة اليعاربة فى تكوينها من أجل الصراع ضد البرتغاليين، إلا أنهم ظلوا متمتعين باستقلالهم، ولا ينفى ذلك أنهم كانوا يشكلون عنصرا أساسيا من عناصر الوحدة العمانية حتى السنوات الأخيرة من حكم اليعاربة، ومما يؤكد ذلك مساهمة القواسم فى السيطرة على جزر البحرين وقشم ولارك فى عام ١٧١٦ على عهد الإمام سلطان بن سيف. وحين نشبت الحروب الأهلية فى عمان بسبب النزاع على منصب الإمامة كان القواسم من أهم القوى التى شكلت الاتحاد الغافرى، وحدث ذلك حين لجأ الشيخ محمد بن ناصر الغافرى إلى الشيخ رحمة بن مطر شيخ رأس الخيمة طالبا مساعدته فى الصراع ضد القوى الهناوية المعارضة، وقد وضع الشيخ رحمة قواته وسفنه إلى جانب الزعيم الغافرى مما كان له أثر كبير فى ترجيح كفة الغافريين بل وفى نجاح محمد بن ناصر فى الوصول إلى الإمامة لفترة من الوقت. ولكن الأوضاع لم تلبث أن تطورت فى عمان حين تمكن الهناويون من السيطرة على الموقف، وكان نجاح الكتلة الهناوية سببا فى استنجاد الإمام سيف بفارس مما أدى إلى خضوع كثير من المقاطعات العمانية للاحتلال الفارسى منذ عام ١٧٣٨، وأدى هذا الوضع المتدهور الذى تعرضت له عمان إلى إعلان القواسم انفصالهم عن دولة اليعاربة، وتأكد هذا الانفصال على أثر سقوط دولة اليعاربة وقيام دولة البوسعيد. ولاشك أن انهيار القوى البحرية الفارسية فى الخليج العربى عقب اغتيال نادر شاه فى عام ١٧٤٧ ساعد القواسم على تأكيد استقلالهم وذلك بعد

نجاحهم فى السيطرة البحرية على الساحل العمانى والساحل الفارسى المقابل له[1]. ومن ثم أرجعت كثير من المصادر تاريخ انفصال رأس الخيمة عن عمان وظهورها كعاصمة لجميع مقاطعات الساحل العمانى إلى منتصف القرن الثامن عشر وذلك حين أعلن الشيخ رحمة بن مطر تكوين الاتحاد القاسمى الذى كان يجمع القبائل التى انضمت تحت لواء زعامته[2]. ولكن هذا الاستقلال الذى أحرزه القواسم لم يلبث أن قادهم إلى منازعات طويلة المدى مع أسرة البوسعيد، وهى الأسرة التى خلفت اليعاربة فى عمان فى عام ١٧٤٤، ولعل هذه المنازعات ترجع فى أسبابها إلى نواح طائفية حيث ينتمى القواسم - كما سبق أن أشرنا - إلى الكتلة الغافرية على عكس البوسعيد الذين ينتمون إلى الكتلة الهناوية، كما ترجع أسباب المنازعات إلى التنافس التجارى حيث عمل القواسم بعد نجاحهم فى تأكيد تفوقهم البحرى على الاستئثار بتجارة الخليج والهند وشرق إفريقيا التى كان يسيطر عليها العمانيون.

والأمر الذى لا شك فيه أن انفصال القواسم بقسم من الساحل العمانى كان من أهم المشكلات التى واجهت الإمام أحمد بن سعيد حين وصل إلى السلطة فى عمان باعتباره مؤسسا لأسرة البوسعيد، وعلى حين أيدت القبائل الهناوية الإمام أحمد بن سعيد، أيدت القبائل الغافرية ومن بينها القواسم بلعرب بن حمير الذى كان ينافسه على منصب الإمامة[3]، إذ كانت الكتلة الغافرية ترى إبقاء الإمامة فى أسرة اليعاربة، ولذلك طلب الشيخ محمد بن ناصر الغافرى من الشيخ رحمة بن مطر زعيم القواسم معاونته فى الإطاحة بحكم الإمام أحمد بن سعيد، وكما تذكر بعض المصادر أن الشيخ رحمة اعتذر بسبب كبر سنه ولكنه أشار بأن يقوم ابنه راشد بهذه المهمة حيث تنازل له عن مشيخة القواسم فى عام ١٧٥٠، وهكذا شارك القواسم فى المعارك العنيفة التى دارت بين الإمام أحمد بن سعيد والكتلة

---

(١) صالح محمد العابد: دور القواسم فى الخليج العربى ص ٨٧.
(٢) سالم بن حمود السيابى: إيضاح المعالم فى تاريخ القواسم - دمشق ١٩٧٦، ص ١٩.
(٣) ابن رزيق: الفتح المبين فى سيرة السادة البوسعيديين ص ص ٣٦٧ - ٣٦٩.

الغافرية. وفيما يبدو أن الشيخ راشد كان يهدف إلى تأكيد نفوذه على ساحل الشميلية وخورفكان وما يجاورهما على الساحل المطل على خليج عمان[1]، ولكن هذه المعارك لم تكن فى صالح الكتلة الغافرية إذ نجح الإمام أحمد بن سعيد فى التخلص من منافسه بلعرب بن حمير وشدد من قبضته على المقاطعات العمانية بل أنه اتجه فى عام ١٧٥٩ إلى إخضاع القواسم فى معقلهم برأس الخيمة، ودارت معركة عنيفة بين القواسم والإمام أحمد بن سعيد فى سهل الباطنة بالقرب من وادى حام،وعلى الرغم من أن الإمام أحمد بن سعيد نجح فى الحصول على اعتراف بسلطته من عدد كبير من القبائل إلا أنه لم يتمكن من هزيمة القواسم أو إخضاعهم[2]. ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى تخلى حلفائه عنه وكان ذلك مما دفع القواسم فى عام ١٧٦٣ إلى إرسال حملة انتقامية وصلت إلى مدينة الرستاق عاصمة الإمام أحمد بن سعيد. ولا شك أن القواسم قد استغلوا الظروف الداخلية فى عمان وقيام النزاع بين الإمام وأبنائه حيث نجح الشيخ صقر بن رحمة بمعونة الزعيم الغافرى محمد بن ناصر فى محاصرة الرستاق[3]، وأصبح الموقف حرجًا فى عمان إلى الدرجة التى تبين فيها لأبناء الإمام أحمد بن سعيد ما يمكن أن يؤدى نزاعهم مع أبيهم إلى القضاء على حكم أسرتهم ولذلك آثروا فض الخلاف مع أبيهم وسلموا له الحصن الغربى فى مسقط بينما احتفظوا بالحصن الشرقى[4].
وما أن ذاع خبر الصلح بين الإمام وأبنائه حتى بادر الشيخ صقر وحليفه ناصر بفك حصار الرستاق وتم الصلح بين القواسم والإمام أحمد بن سعيد، ووافق الإمام أحمد بن سعيد على استقلال القواسم بمقاطعتهم، ومنذ ذلك الوقت لم يخضع القواسم لحكم البوسعيد. ويمكن تحديد عام ١٧٦٥ باعتباره العام الذى أعلن فيه القواسم استقلالهم عن عمان وأصبحت رأس الخيمة مركزا مستقلا للقواسم، ولكن ذلك لا يعنى أن القواسم كانوا حتى عام ١٧٦٥ تحت التبعية العمانية إذ أنهم

---

(١) المفصل فى تاريخ الإمارات العربية جـ١ ص ١٩٢.
(٢) ابن رزيق: مصدر سبق ذكره ص ٣٦٧ وما بعدها.
(٣) محمد مرسى عبد الله: إمارات الساحل وعمان والدولة السعودية الأولى ص ص ٧٢ ـ ٧٤.
(٤) ابن رزيق: الفتح المبين فى سيرة السادة البوسعيديين ص ٣٧٧.

أحرزوا شخصيتهم المستقلة منذ عام ١٧٤٧ على نحو ما أشرنا إليه[١]. ويؤكد ذلك الرحالة كارستن نيبور الذى زار منطقة الخليج ومر بمدينة رأس الخيمة فى عام ١٧٦٣، حيث قرر أن كثيرا من قبائل الصير كانت تعترف بتبعية الإمام أحمد بن سعيد ولكنها كانت فى الواقع قبائل مستقلة، وكثيرا ما كانت تنشب الحروب بين القواسم وأئمة عمان[٢].

ومما تجدر الإشارة إليه أنه على الرغم من أن العلاقة بين القواسم والبوسعيد على عهد الإمام أحمد بن سعيد كانت تتميز بالصراع إلا أن الظروف السياسية المضطربة فى عمان كانت تؤدى فى كثير من الأحيان إلى إيجاد تحالف بين الفريقين، وفيما يبدو أن الإمام أحمد بن سعيد، وخاصة فى خلال صراعه مع الفرس على عهد كريم خان الزندى ١٧٥٦ ـ ١٧٧٩ حاول استغلال تفوق القواسم فى المجال البحرى لإضعاف شوكة فارس، ولذلك يسجل عام ١٧٧٢ عقد محالفة بين الإمام أحمد بن سعيد وشيخ القواسم كان الغرض منها مواجهة الخطر الفارسى الذى كان يتمثل فى تهديدات كريم خان الزندى للساحل الغربى من الخليج، ونجح القواسم بفضل تحالفهم مع الإمام أحمد بن سعيد فى مهاجمة بندر عباس، وكان ذلك فى عام ١٧٧٣ حين تعاون القواسم مع خلفان بن محمد حاكم ميناء مسقط وتمكنوا من تحطيم عدة سفن فارسية ومستودع عسكرى كان قد شيده الفرس فى ميناء لنجة[٣].

وعى الرغم من أن الإمام أحمد بن سعيد كان يبدى رغبته فى إنهاء الصراع بينه وبين فارس إلا أن كريم خان الزندى فوض الشيخ ناصر حاكم بوشهر فى متابعة الحرب مع الإمام أو عقد الصلح معه، ورفض الإمام أحمد بن سعيد أن يخضع لشروط الصلح التى اقترحها الشيخ ناصر باسم كريم خان واعتبرها شروطا مهينة، وكان ذلك مما دفعه إلى تقوية تحالفه مع زعيم القواسم الذى كانت

(١) Bombay Govt., Selections from the Records of Bombay Govt. Historical sketch of Joasmee Tribes of Oman 1747 - 1853, vol. XXIV Bombay 1856.

(٢) Neibuhr, Carsten, Travels in Arabia vol. II pp. 123 SQ.

(٣) Bombay Govt., op. cit., Historical Sketch of Joasmee Tribes of Oman, vol. XXIV Bombay p. 301 ff.

العلاقات متدهورة بينه وبين فارس أيضا. وعلى الرغم من أن تحالف الإمام أحمد بن سعيد مع القواسم كان يهدف إلى تحقيق مصالح مشتركة للطرفين إلا أنه لم تلبث أن انفصمت عرى ذلك التحالف فى عام ١٧٧٥؛ حين تجدد الصراع بين الإمام أحمد بن سعيد والقواسم، حيث نجح شيخ رأس الخيمة فى تجميع قوة بحرية كبيرة اتجه بها إلى فرض سيطرته على الساحل العمانى، وبذلك أصبحت قوة القواسم تهدد القوة العمانية وخاصة حين امتلك القواسم قوة بحرية ضخمة عقب اغتيال كريم خان الزندى فى عام ١٧٧٩. وظهر الصراع على أشده على عهد السيد سلطان بن أحمد الذى زج بنفسه فى منازعات خطيرة مع القواسم. وقد شهدت الفترة من ١٧٩٨ إلى ١٨٠٥ اضطرابات بحرية فى الخليج، وأثرت هذه الاضطرابات على تجارة البصرة مما أدى إلى فقر سكانها وتفاقم مشكلات حكامها، ولعل ذلك كان دافعا لسلطان بن أحمد إلى إرسال حملة إلى البصرة مطالبا ببعض الحقوق العمانية القديمة على ولاتها وحاول أن يستعين بقوة القواسم البحرية من أجل نجاح حملته ما اضطر باشا بغداد إلى تسوية خلافاته مع مسقط تجنبا لمثل ذلك الهجوم الذى لم يكن فى وسعه مواجهته[1]. كذلك حاول سلطان بن أحمد الاستعانة بالقواسم فى هجوم قام به على الزبارة فى عام ١٨٠٢، كما استعان بنفوذ القواسم فى هجماته المتتالية ضد شهبار ومكران وقشم وهرمز والبحرين[2]. ولكن السياسة التى اتبعها سلطان بن أحمد أدت إلى تفوق نفوذ القواسم البحرى إلى درجة أصبحوا يهددون بقوتهم مسقط ذاتها. وتذكر وثائق بومباى بصدد ذلك أن طموحات سلطان بن أحمد قادته إلى منازعات خطيرة مع عرب الخليج مما أثر على حركة الملاحة فى الخليج، وزادت حوادث البحر سواء كانت تلك الحوادث موجهة ضد فارس أو عمان أو ضد الأساطيل الأجنبية فى الخليج، واستمر ذلك الوضع قائما حتى عام ١٨٠٩، حين التقت وجهتى نظر كل من الإنجليز وسلطان ومسقط للعمل على سحق النشاط البحرى للقواسم، وقامت من أجل ذلك عدة حملات تأديبية اشتركت فيها مسقط بنصيب وافر

(١) عبد الأمير محمد أمين: القوى البحرية فى الخليج العربى فى القرن الثامن عشر ص ٧٨.
(٢) ابن رزيق: مصدر سبق ذكره ص ٤٢٩ انظر أيضا.
Miles, S., The Countries and Tribes of the Persian Gulf, vol. II pp. 289 - 297.

وانتهت تلك الحملات بنجاح الإنجليز فى القضاء على تفوق القواسم البحرى وأحكام سيطرتهم على الخليج[1]. والأمر الذى لا شك فيه أن تدهور العلاقات بين عمان والقواسم هى التى ساعدت الإنجليز على التدخل العسكرى فى الساحل الجنوبى للخليج العربى منذ بداية القرن التاسع عشر فعلى الرغم من تعاون القواسم مع السيد بدر بن سيف الذى كان يقوم بالوصاية على السيد سعيد عقب اغتيال أبيه سلطان بن أحمد فى عام ١٨٠٤، إلا أن الخلاف لم يلبث أن دب بين الفريقين بسبب قيام بدر بن سيف بإرسال حملة إلى جزيرة قشم فاجأ بها الملا حسين وأخذه رهينة إلى مسقط فى الوقت الذى بادر فيه القواسم بالاستيلاء على الجزيرة، ولكن حين تقلد السيد سعيد السلطة فى مسقط بادر بالإفراج عن الملا حسين وأمده بقوة من مسقط لاستعادة قشم وهرمز إلا أن قوة تابعة للقواسم رفضت أن تستقبل الملا حسين أو أن تعيد الجزيرة إليه؛ واستغل القواسم وجود الأسطول العمانى فى قشم وهاجموا ميناء صور ولكنهم ووجهوا هناك بمقاومة عنيفة أجبرتهم على الانسحاب فى الوقت الذى اتفق فيه السيد سعيد مع عمه قيس بن أحمد حاكم صحار على مهاجمة خورفكان حيث قرر الاثنان الزحف على القواسم، فكانت الحملة التى قادها قيس من جهة البر والحملة التى قادها السيد سعيد من جهة البحر، وكان خليج خورفكان هو المسرح الذى دارت فيه المعارك بين مسقط والقواسم حتى تحول إلى بركة من الدماء[2]. وفى هذه المعارك انتصر القواسم وقتل قيس بن أحمد وانسحب السيد سعيد إلى مسقط، ولعل تلك الهزيمة التى ابتلى بها السيد سعيد هى التى دفعته إلى توثيق علاقاته مع الإنجليز ومساهمته الفعالة فى الحملة الإنجليزية التى قاموا بها ضد القواسم فى عام ١٨٠٩ إذ قدر أن اشتراكه فى تلك الحملة سيتيح له استعادة ما كان يطالب به من موانى وجزر على الساحل الفارسى استولى عليها القواسم خلال صراعهم مع مسقط[3].

---

(١) يرجع المؤرخ نور الدين السالمى استعانة سلطان مسقط بالنصارى على حرب أهل الشارقة من أرض الشمال من أول سبب تدخلت به النصارى فى ممالك المسلمين من أهل عمان فبقوا أفة فى ذرارية يظهرون الصداقة ويضمرون العداوة، انظر تحفة الأعيان بسيرة آل عمان جـ٢ ص ١٨٩

(٢) السيابى: إيضاح المعالم ص ٤٨

(٣) Bombay Govt., op. cit., Historical Sketch of Joasmee Tribes of Oman by Francis Warden and Others 1747 - 1853 vol. XXIV p. 303 ff.

العلاقات بين القواسم وفارس:

أدى اضطراب الأوضاع السياسية فى بلاد فارس عقب اغتيال نادر شاه فى عام ١٧٤٧ إلى استعانة بعض القادة الفرس الطامعين فى الحكم بالقبائل العربية فى الخليج وذلك لمقاومة الحكام المتعاقبين بسرعة على عرش فارس[١]. ولعل ذلك أدى إلى تصاعد نفوذ القواسم فى الساحل الشرقى للخليج[٢]. ويمكننا تحديد عدة قبائل عربية سيطرت على الخريطة السياسية للسواحل الفارسية المطلة على الخليج العربى فى أواخر القرن الثامن عشر وهؤلاء هم عرب بوشهر وحاكمهم آنذاك الشيخ ناصر آل مدكور، وهم ينتمون إلى عرب المطاريش فى عمان. وعلى الرغم من أنهم كانوا ينتمون إلى المذهب السنى إلا أنه فى خلال عهد نادر شاه بادر زعيم هذه القبائل بالتحول إلى المذهب الشيعى على أمل أن يعينه نادر شاه قائدا على الأسطول الذى أعده وجعل من بوشهر قاعدة له. ثم هناك أيضا عرب زعاب من الساحل العمانى وكانوا يحكمون جزيرة خرج بالإضافة إلى بندر ريق؛ ثم فرع القواسم فى لنجة وجزيرة صيرى القريبة منها، وعرب بنى كعب فى مركزهم بمدينة الدورق إلى جانب عرب الهولة النازلين فى الساحل الشرقى من الخليج ومراكز انتشارهم فى جزر قشم وقيس وهرمز وغيرها من الجزر المجاورة لها.

وقد برز من بين هذه القوى جميعها القواسم فى أواخر القرن الثامن عشر الميلادى، وإلى جانبهم برزت سلطة ملا على شاه حاكم بندر عباس. وفى عام ١٧٥١ تصاهر ملا على شاه، الذى كان يسيطر على معظم الأسطول الفارسى عقب اغتيال نادر شاه مع شيخ القواسم، وكان لهذه المصاهرة أهمية خاصة إذ إنها كانت بداية لتحالف بين قائد الأسطول الفارسى وزعيم القواسم حيث أصبح القواسم بفضل هذا التحالف قادرين على الاستفادة من الأسطول الفارسى بل واستخدامه ضد خصومهم ومنافسيهم[٣]. وقد نجح القواسم فى الاستيلاء على

---

(١) Idem.

(٢) F.O 371 / 13010 Status of the Islands of Tamb, Bu Musa and Sirri.

(٣) عبد الأمير محمد أمين: القوى البحرية فى الخليج العربى فى القرن الثامن عشر بغداد ١٩٦٦. ص ص ٢٣ ـ ٢٤.

باسيدور فى جزيرة قشم كما اشتركوا مع حليفهم ملا على شاه فى عام ١٧٥٥ فى الهجوم على شيخ بنى معين ومحاصرته فى ميناء لفت. وأصبح القواسم يسيطرون على جزر وموانى هامة تضم بندر عباس وهرمز وقشم. وفى عام ١٧٥٩ اشترك القواسم فى الحروب التى كان يخوضها مير مهنا شيخ بندر ريق ضد الهولنديين، كما أيد القواسم حليفهم ملا على شاه ضد تمرد أتباعه الذين نجحوا فى نفيه إلى هرمز فى عام ١٧٦٠ وسلموا قلعة بندر عباس إلى شقيقه جعفر خان، وحين حاول بنو معين انتهاز هذه الفرصة لاسترداد جزيرة قشم أسرع القواسم لتخليص حليفهم ملا على شاه وهاجموا من أجل ذلك بندر عباس وإن كانوا قد فشلوا فى الاستيلاء على قلعتها فى الوقت الذى قام فيه ناصر خان حاكم بوشهر بالرد على ذلك الهجوم بإرسال حملتين انتقاميتين ضد لنجة ورأس الخيمة، وعندما فشلت الحملتان فى تحقيق أهدافهما قام ناصر خان بتخريب جزيرة قشم، واستفاد القواسم من تلك الاشتباكات البحرية فى احتلال أماكن متعددة على الساحل الفارسى فى الخليج. وفى عام ١٧٦٣ تم الاتفاق بين القواسم وملا على شاه وبنو معين، على أن يحتفظ بنو معين بجزيرة هرموز وأن يقيموا قلعة فى لفت على أن تقتسم عوائد الميناء بالتساوى بين الأطراف الثلاثة[1]. ولكن لم يمض وقت طويل على هذا الاتفاق حتى تجددت الصراعات بين القواسم وشيوخ بنى معين، فى خلالها تمكن بنو معين فى عام ١٧٦٥ من استعادة قشم ولفت من القواسم، كما تمكنوا من استعادة هرمز وبندر عباس من الملا حسين، وظلت تلك الأماكن فى أيديهم حتى وفاة شيخهم عبد الله حيث بدأ القواسم فى استرجاعها واحدة بعد أخرى.

العلاقات بين القواسم والسعوديين:

كان وصول الدعوة الوهابية إلى سواحل الخليج العربى فى نهاية القرن الثامن عشر من أهم العوامل التى أوجدت للسعوديين مجالا للدخول فى علاقات وثيقة بينهم وبين القواسم. ومما تجدر الإشارة إليه أن القواسم استمروا لفترة طويلة لا يعترفون بسلطة السعوديين، ولكن لم تلبث أن خضعت رأس الخيمة للنفوذ الدينى

(١) ج. ج. لوريمر: دليل الخليج جـ١ ص ٢١٦ انظر أيضا عبد القوى فهمى: القواسم ونشاطهم البحرى ص ٨٧.

الوهابى وتحول القواسم إلى الدعوة الوهابية[1]. وعلى ذلك يمكننا أن نؤكد أن العلاقات بين القواسم والسعوديين مرت بمرحلتين هامتين:

المرحلة الأولى: وتتميز بمقاومة القواسم لمحاولات السعوديين إخضاعهم سياسيا، والمرحلة الثانية تتميز بتغلغل الدعوة الوهابية حتى أصبح القواسم حلفاء أقوياء للسعوديين وإن كان قد تخلل هذه المرحلة توتر العلاقات بينهم ليس على المستوى الدينى وإنما على المستوى السياسى إلى الحد الذى بادر فيه السعوديون إلى خلع زعيم القواسم فى عام ١٨٠٩ كما سنشير إلى ذلك بعد قليل.

ويمكننا أن نلحظ فى المرحلة الأولى اتجاه السعوديين للسيطرة على القواسم بهدف الاستعانة بقوتهم البحرية لضرب سلطنة مسقط؛ إذ أنه على أثر خضوع البريمى للسلطة السعودية حاول عبد العزيز بن سعود إقناع الشيخ صقر بن راشد بالدخول فى الوهابية، ولكن الشيخ صقر رفض فى بداية الأمر ويبدو أن ذلك الاتصال قد تم عن طريق قبائل النعيم فى البريمى، وتتفق المصادر التاريخية على أن الشيخ صقر بن راشد حارب آل نعيم الذين استنجدوا بعبد العزيز بن سعود فبادر بإرسال حملة ضد القواسم شارك فيها آل نعيم، بيد أن الشيخ صقر تمكن من إلحاق الهزيمة بهم؛ ولكن لم تمض فترة طويلة حتى توجهت حملة وهابية أخرى بلغ تعدادها أكثر من أربعة آلاف مقاتل بقيادة مطلق المطيرى حيث نجحت فى محاصرة رأس الخيمة وشددت الحصار على المدينة سبعة عشر يوما إلى أن تم الصلح وعاهد الشيخ صقر مطلق المطيرى فى عام ١٧٩٩ على الدخول فى الدعوة الجديدة، وحول ذلك يذكر صاحب مخطوطة لمع الشهاب فى سيرة الشيخ محمد بن عبد الوهاب أن مطلق المطيرى لما اجتمع بالشيخ صقر أكرمه وعاهده على هذا الدين. وقد حللت كثير من المصادر الأسباب التى دفعت القواسم إلى اعتناق الدعوة الوهابية، ومن هذه المصادر من تغلّب الناحية الدينية أى أن القواسم دخلوا الوهابية عن اقتناع بينما نجد مصادر أخرى تغلّب الناحية المصلحية ومن ذلك أن شيخ القواسم رغب فى محالفة الوهابيين ضد سلطنة عمان لكى يرأب الصدع

(1) Bomby Govt., Historical Sketch of the Wahabee Tribes of Arab from the year 1795 - 1818 by Francis Warden vol XXIV Bombay 1856. pp. 461 ff.

الوهابى وتحول القواسم إلى الدعوة الوهابية[1]. وعلى ذلك يمكننا أن نؤكد أن العلاقات بين القواسم والسعوديين مرت بمرحلتين هامتين:

المرحلة الأولى: وتتميز بمقاومة القواسم لمحاولات السعوديين إخضاعهم سياسيا، والمرحلة الثانية تتميز بتغلغل الدعوة الوهابية حتى أصبح القواسم حلفاء أقوياء للسعوديين وإن كان قد تخلل هذه المرحلة توتر العلاقات بينهم ليس على المستوى الدينى وإنما على المستوى السياسى إلى الحد الذى بادر فيه السعوديون إلى خلع زعيم القواسم فى عام ١٨٠٩ كما سنشير إلى ذلك بعد قليل.

ويمكننا أن نلحظ فى المرحلة الأولى اتجاه السعوديين للسيطرة على القواسم بهدف الاستعانة بقوتهم البحرية لضرب سلطنة مسقط؛ إذ أنه على أثر خضوع البريمى للسلطة السعودية حاول عبد العزيز بن سعود إقناع الشيخ صقر بن راشد بالدخول فى الوهابية، ولكن الشيخ صقر رفض فى بداية الأمر ويبدو أن ذلك الاتصال قد تم عن طريق قبائل النعيم فى البريمى، وتتفق المصادر التاريخية على أن الشيخ صقر بن راشد حارب آل نعيم الذين استنجدوا بعبد العزيز بن سعود فبادر بإرسال حملة ضد القواسم شارك فيها آل نعيم، بيد أن الشيخ صقر تمكن من إلحاق الهزيمة بهم؛ ولكن لم تمض فترة طويلة حتى توجهت حملة وهابية أخرى بلغ تعدادها أكثر من أربعة آلاف مقاتل بقيادة مطلق المطيرى حيث نجحت فى محاصرة رأس الخيمة وشددت الحصار على المدينة سبعة عشر يوما إلى أن تم الصلح وعاهد الشيخ صقر مطلق المطيرى فى عام ١٧٩٩ على الدخول فى الدعوة الجديدة، وحول ذلك يذكر صاحب مخطوطة لمع الشهاب فى سيرة الشيخ محمد بن عبد الوهاب أن مطلق المطيرى لما اجتمع بالشيخ صقر أكرمه وعاهده على هذا الدين. وقد حللت كثير من المصادر الأسباب التى دفعت القواسم إلى اعتناق الدعوة الوهابية، ومن هذه المصادر من تغلّب الناحية الدينية أى أن القواسم دخلوا الوهابية عن اقتناع بينما نجد مصادر أخرى تغلّب الناحية المصلحية ومن ذلك أن شيخ القواسم رغب فى محالفة الوهابيين ضد سلطنة عمان لكى يرأب الصدع

---

(1) Bomby Govt., Historical Sketch of the Wahabee Tribes of Arab from the year 1795 - 1818 by Francis Warden vol XXIV Bombay 1856. pp. 461 ff.

الذى حدث فى الجبهة الغافرية بسبب خلاف القواسم مع آل نعيم، وفيما يبدو أن مطلق المطيرى كان متشددا مع القواسم حيث اشترط على الشيخ صقر أن يقوم بهدم قبة السيد حسن، وهو مقام معروف فى رأس الخيمة كان يعظمه القواسم وقد أدى تهديم القبر إلى استياء القواسم، ولكن الوهابيين تمكنوا من السيطرة على الموقف حيث بادروا بنفى الشيخ راشد والد الشيخ صقر إلى لنجة[1].

أما المرحلة الثانية من علاقة القواسم بالسعوديين فتتميز بالتحالف الذى قام بين الفريقين، وكما يذكر مؤلف لمع الشهاب أن القواسم من أهل رأس الخيمة كانوا إذا وفدوا على سعود فإنهم لم يأكلوا إلا عنده وهو يرضى بهم ويكرمهم؛ كما أفتى الشيخ على بن محمد بن عبد الوهاب الرئيس الدينى للوهابيين بأن كل ما غنمه أهل رأس الخيمة أحل من حليب الوالدة[2]. ولا شك أن تحالف القواسم مع الوهابيين أدى إلى تزايد نشاط القواسم البحرى وأصبح ذلك النشاط أمرا لازما للجهاد ضد سفن الكفار وضد منكرى التعاليم السلفية[3]. وبالتالى فإن الأسلاب التى كان يستولى عليها القواسم كانت تعد غنائم حرب يتعين تأدية خمسها إلى الدولة الإسلامية طبقًا لما تقضى به الشريعة الإسلامية فى أحوال الجهاد، ولكن ليس من الثابت لدينا أن القواسم التزموا بذلك الأمر.

العلاقات بين القواسم وسلطنة مسقط:

على أثر محالفة القواسم للوهابيين تضاعفت عملياتهم البحرية ضد سلطنة مسقط، وإذا أضفنا إلى ذلك احتلال السعوديين للبريمى وضغطهم على كثير من قبائل الظاهرة تبين لنا مدى الخطر الذى أخذت تتعرض له سلطنة مسقط وبوجه خاص خلال السنوات الأخيرة من عهد سلطان بن أحمد الذى عاصر سيطرة السعوديين على واحات البريمى؛ ففى عام ١٨٠٠ تحركت قوة وهابية إلى الظفرة بقيادة سالم الحارق الذى كان يعد من أبرز القادة السعوديين،وعند وصول الحارق إلى البريمى وجه رسالة إلى السلطان بن أحمد يدعوه فيها إلى اعتناق الوهابية ونبذ

---

(١) لمع الشهاب فى سيرة محمد بن عبد الوهاب ص ص ٨٠ ـ ٨١.
(٢) نفسه ص ١٧٧.
(٣) جمال زكريا قاسم: دولة بوسعيد فى عمان وشرق إفريقيا ص ٨٠.

الأباضيـة والاعتراف بالسلطة الزمنيـة والدينية للإمام عـبد العزيز بن سـعود؛ ورد سلطان بن أحمد على هذه الدعـوة بتوجيه حملة عسكرية ضد السـعوديين مماجعل الحارق يستعين بالقواسم وعلى الرغم من أن القواسم كانوا مستعدين لشن الهجوم على مـسـقط إلا أن الحارق آثر التـراجع بينما عـقد القـواسم هدنة مع سلطان بن أحمد؛ ولما كان سلطان بن أحمد مصممـا على طرد الوهابيين فقد قرر ملاحقتهم عند انسحـابهم من البريمى؛ غـير أنه أصيب بنكسـة على يد الخيالـة الوهابيين مما أجبـره إلى توقيع اتفاق مـع القائد السعـودى يقضى بتنازله عن واحـات البريمى؛ ويذكـر المؤرخ البريطانى جـون كلى Kelly أن هذا الاتفـاق كان يـعد أفـدح خطأ ارتكبه السيـد سلطان بن أحمد[١]، ذلك أنه قـد ترتب على احتـلال السعـوديين للبريمى ضـغطهم على كثير من قـبائل الظاهرة القاطنة هناك، وبدأ السـيد سلطان يعانى من ذلك الضغط فى أواخر عهده حتى أنه ذهب لكى يبحث عن حلفاء لكى يستـعين بهم ضـد السعوديين، ولعل ذلك يفـسر رحيلـه إلى مكة فى عام ١٨٠٣ لكى يستعين بشريفها[٢]. ولكنه حين وصل إلى هـناك كان الوهابيون فى سـبيلهم للاستيـلاء على الحجاز؛ وفى الوقت نفسه أثـارت المساعدات الضئيلة التى قـدمها السيد سلطان بن أحـمد للشريف غالب بن مـساعد غضب الإمام عـبد العزيز بن سعود فأعلن الحـرب على مسقط وأصدر أوامره إلى القبائل الـتابعة له فى البريمى وإلى القواسم والعـتوب بترك مـوسم الغوص وشن الحـرب البرية والبحـرية ضد سلطنة مسقط[٣]. وصادف فى ذلك الوقـت تولى الشيخ سلطان بن صـقر الحكم خلفا لأبيه صقـر بن راشد الذى بدأ عهده بإعلان تبعيـته للدولة السعودية طالما أن هذه التبعـية لا تغير من وضـعه كزعيم للاتحاد القـاسمى، وعلى العكس من ذلك أصبح اتحـاد القواسم يسـتند إلى مؤازرة دولة إسـلامية قـوية حيث أخـذ القواسم يمارسون نشاطهم البحـرى على نطاق واسع ضد سلطنة مـسقط[٤]؛ وازداد الصراع بين القواسم وسلطنة مسقط على عهـد سلطان بن أحمد؛ وأخذت الدعوة الوهابية

---

(١) جون كلى: بريطانيا والخليج جـ١ ص ص ١٦١ ـ ١٦٢.

(٢) وثائق الحكومة السعودية: انظر العرض التاريخى لمشكلة البريمى بين مسقط وأبو ظبى والمملكة السعودية جـ١ ص ١٧٧.

(٣) محمد مرسى عبد الله: مرجع سبق ذكره ص ص ١٩١ ـ ١٩٢.

(٤) صلاح العقاد: التيارات السياسية فى الخليج العربى ص ٩٩.

تنتشر انتشارا كبيرا بين قبائل الساحل العمانى فى الوقت الذى أعد فيه الأمير عبد العزيز بن سعود العدة لمهاجمة المقاطعات الداخلية لسلطنة مسقط ووصلت القوات السعودية إلى مشارف بركا - المقر الصيفى لسلطان مسقط - وأرسل الإمام عبد العزيز إلى سلطان بن أحمد رسالة يدعوه فيها إلى طاعته وبرفقتهما كتاب كشف الشبهات للشيخ محمد بن عبد الوهاب، كما أرسل نفس هذه الرسالة إلى شيوخ الساحل من بنى ياس والنعيم والقتب والظواهر والشوامس وغيرهم[١]، وبهذه المناسبة كتب الوكيل البريطانى فى مسقط يقول إنه إذا استولى الوهابيون على سلطنة مسقط فإن جميع مقاطعات الجزيرة العربية ستصبح تحت سيطرتهم وسوف يغدو الساحل العمانى كله وكرا للقراصنة اللذين سيجدّون فى أعمال السلب والنهب حتى يصلوا بها إلى سواحل الهند[٢]. ولكن هذه المخاوف التى عبر عنها الوكيل البريطانى فى مسقط لم تلبث أن انقشعت بعض الشىء بسبب اغتيال الأمير عبد العزيز بن سعود فى أوائل نوفمبر من عام ١٨٠٣، ولا شك أن اغتيال الأمير عبد العزيز أتاح لسلطان بن أحمد الفرصة لكى يتخلص من الضغط السعودى على مقاطعاته حيث توجه إلى بغداد ليستعين بواليها على باشا للقضاء على السعوديين، وربما تم فى بغداد رسم خطة لمواجهة قوة السعوديين الصاعدة وكذلك قوة حلفائهم القواسم ولكن الظروف لم تتح تنفيذ شىء منها إذ تربص القواسم مع العتوب بسلطان بن أحمد وتمكنوا من اغتياله وهو فى طريق عودته إلى بلاده فى نوفمبر من عام ١٨٠٤[٣]. وعلى أثر ذلك اضطربت الأوضاع فى سلطنة مسقط حتى أوشكت السلطنة برمتها أن تقع فى أيدى السعوديين، وخاصة عندما انتقل زمام الحكم فى مسقط إلى بدر بن سيف ١٨٠٤ / ١٨٠٦ الذى لم يجد بداً من محالفة السعوديين، ولكن على أثر وصول السيد سعيد إلى حكم سلطنة مسقط فى عام ١٨٠٦ بدأ يضع مخططا لتخليص مسقط من القواسم والسعوديين معًا، ووجد أن ذلك لن يتم إلا بتحالفه مع بريطانيا، ومن ناحية أخرى كانت الأوضاع القلقة بين السعوديين والقواسم تساعد على إحداث ثغرة فى العلاقات بينهما فعلى

---

(١) ابن رزيق: مصدر سبق ذكره ص ص ٤٣١ - ٤٣٢. ويذكر ابن رزيق «وفي هذا الكتاب كلام ملفق غير مطابق للحق فلم يعبأ أحد به». وواضح أنه يتطلق هنا من اتجاهاته الإباضية.

(٢) Bombay Govt., op. cit., See: The Rise and Progress of the Govt. of Muscat by F. Warden 1695 - 1819. p. 167 SQ.

(٣) يذكر ابن بشر أن القواسم لم تكن لهم نية مبيتة لقتله، انظر عنوان المجد فى تاريخ نجد جـ ١ ص ١٣١.

الرغم من أن زعيم القواسم سلطان بن صقر اعتنق الدعوة الوهابية ونشط فى الدعوة إلى المبادئ السلفية إلا أنه ظل على إخلاصه للوهابيين طالما كان القواسم يتمتعون باستقلالهم فى تصريف شؤنهم. وقد حافظ السعوديون من جانبهم على الوضع الاستقلالى للقواسم، وخاصة أن الدولة السعودية الأولى لم تكن تهتم بتدعيم سيطرتها على الأطراف مكتفية بإعلان التبعية لها من قبل الحكام المحليين أو زعماء القبائل. وكان مظهر تلك التبعية هو تقديم الزكاة أو نسبة من غنائم الحرب، ولكن باحتلال السعوديين لواحات البريمى بدأ الشيخ سلطان بن صقر يستشعر الضغط الذى أخذ يتعرض له من قبل السعوديين، وسرعان ما تأكد له ذلك حين وجد قسما من رعيته يخرجون عن طاعته ويخضعون للقائد السعودى مطلق المطيرى الذى كان معسكرا فى البريمى وأكثر من ذلك حرض السعوديون بعض زعماء الساحل العمانى للسيطرة على بعض مشيخات الساحل الأقل قوة ولعل من أبرز الأشخاص التى أيدها السعوديون محمد بن أحمد الطنيجى الذى أصبح حاكما على شيناص، وكذلك أيد السعوديون شخصيات من آل النعيم والرواشد[1]. وهكذا أخذت تظهر مشيخات جديدة على الساحل تحمل أسماء جغرافية بعد أن كانت التنظيمات تنتمى إلى زعامات قبلية، وسوف تعمل بريطانيا من جانبها على تكريس تلك التجزئة وخاصة فى أعقاب حملة ١٨١٩ كما سنشير إلى ذلك فيما بعد.

على أن أهم خطوة اتخذها السعوديون حدثت فى عام ١٨٠٩ حين بادروا بعزل الشيخ سلطان بن صقر وتعيين الشيخ حسين بن على بدلا منه مقابل اعتراف الأخير بسيادة السعوديين عليه وقبوله زيادة مقدار الزكاة التى كان يدفعها القواسم للدرعية؛ عاصمة الدولة السعودية الأولى، من أربعة آلاف إلى اثنى عشر ألف ريال ماريا تريزا وأن يوجه كل سفنه لمهاجمة المخالفين للدعوة الوهابية، وأن يحول إلى الدرعية خمس الغنائم التى يحصل عليها[2]. ويسود الغموض ظروف الإطاحة بالشيخ سلطان بن صقر، وترى بعض المصادر أن العناصر القيادية من القواسم من قبائل زعاب وطنيج هى التى حرضت السعوديين على خلعه، وبصدد ذلك يذكر المطوع فى كتاب الجواهر واللآلئ «حكم الشيخ سلطان بن صقر وتم له الأمر وكان

---

(١) ابن رزيق: الفتح المبين فى سيرة البوسعيدين ص ٤٩٧ و ٥١٥.

(٢) Kelly, John, Britain and the Persian Gulf p. 110 ff.

متصفًا بالشجاعة والإقدام ولكنه أصبح لا يرى لأحد فضلا عليه ليشاوره أو يناظره فأعرض عن الصفح واستبد برأيه وكان هذا خطأ، إذ لم تمض مدة حتى سئمت الجماعة منه وانفضت عليه فقد استاء الناس من الشيخ سلطان لأنه قتل عمه كما استاءوا من الاستبداد بالأمر وكان أشد الناس استياءاً وخروجا عليه قبيلة زعاب سكان جزيرة الحمراء التابعة لرأس الخيمة وقبيلة الطنيج سكان بلدة رامس التابعة لرأس الخيمة أيضا وفى عام ١٢٢٤ هـ وصل أمير الجيوش السعودية إلى قرية الزيد وهناك باشر السماع إلى شكاوى زعاب وطنيج ثم اختلى بالشيخ سلطان وأبلغه أن الإمام يريده أن يتوجه إلى نجد فلم ير بدا من الموافقة على الأمر الصادر ولما وصل سلطان إلى الدرعية احتجزه الأمير سعود هناك[١]». وتختلف الآراء فى مصير الشيخ سلطان فمن قائل أن الأمير السعودى أمر باعتقاله وزج به فى السجن ومن يقول أنه أطلقه وجعله مساعدا لمن يعينهم على غزوات الشام والعراق ومن يقول أنه طلب الصفح من سعود فأنزله الإمام السعودى منزلة كريمة.

وهناك من المصادر من ترجع السبب فى عزل السعوديين للشيخ سلطان أنهم وجدوا فى الشيخ حسين بن على شيخ رمس الشخصية التى يمكن أن يعتمدوا عليها حيث كان أطوع لقيادتهم بعكس الشيخ سلطان الذى كان يعمل على أن يكون زعيما اسما وفعلا ولا يريد من السعوديين سوى تعزيز مركزه فقط، ولا شك أن السعوديين قدروا أن فى وسعهم عزل سلطان بن صقر وخاصة أن بريطانيا لن تتدخل فى أمر عزله إذ كان يهمها التخلص من زعامته على القواسم[٢]. وقد نجح السعوديون فى تعيين حسين بن على حاكما وجابيا للزكاة باسمهم فى جميع الساحل العمانى. وعينوا بعض الشخصيات الأخرى على مقاطعات الساحل، كما استولوا على حصون الفجيرة والباطنة وخورفكان فى ساحل الشميلية وكانت تلك الإجراءات التى اتخذها السعوديون لها أثر كبير فى التأثير على القواسم والفت فى عضدهم[٣]. ويفهم مما أوردته وثائق بومباى بصدد ذلك أن السعوديين استمالوا الشيخ حسين بن على الذى عينه الأمير السعودى نائبا عنه فى منطقة الصير. ولا

---

(١) المطوع: الجواهر واللآلئ نقلا عن المفصل فى تاريخ الإمارات جـ ١ ص ص ٣١٠ - ٣١١.
(٢) السيابى: مرجع سبق ذكره ص ٧٨.
(٣) نفسه ص ص ١٩٠ / ١٩١.

شك أن هذه الخطة المنظمة من جانب السعوديين جعلت جميع القبائل تخشى بأسهم خشية شديدة إذ مهما تكن ميول تلك القبائل فإنها كانت مضطرة إلى الانضمام إلى الشيخ حسين بن على أو تعرض نفسها لقسوة الأمير السعودى وانتقامه[1]. وإذا كان هذا التنظيم سببا منطقيا لعزل السعوديين للشيخ سلطان بن صقر وتولية حسين بن على فإن هناك إلى جانب ذلك أسبابا أخرى لعل من أبرزها العرض الذى تلقاه الشيخ سلطان من السيد سعيد سلطان مسقط بعقد سلام مع الإنجليز، وتوحيد قواته مع مسقط لمواجهة القوة المتزايدة للسعوديين. وتذكر بعض المصادر أن الشيخ سلطان وافق على هذا العرض بينما رفضه أتباعه وكان ذلك مما سهل على السعوديين مهمة خلعه دون أن يواجهوا بمعارضة من القواسم. وهناك من يعزو إلى الشيخ سلطان أنه هو الذى طلب من السيد سعيد إقامة تحالف سرى ضد السعوديين، وعندما علم حسن بن رحمة وهو أحد أقرباء الشيخ سلطان بذلك أخبر الإمام سعود الذى بادر بخلعه. ويذكر أن ابن رزيق بصدد ذلك (ثم إن سلطان بن صقر القاسمى الهولى جعل يكاتب السيد سعيد بالصلح بينه وبينه سرا فأجابه السيد إلى ذلك فلما علم بذلك عمه حسن بن رحمة كتب إلى سعود بن عبد العزيز عن صلح سلطان لسعيد بن سلطان فكتب سعود إلى سلطان بن صقر بالوصول إليه»[2]. وهناك رواية أخرى قيلت فى تعليل سبب خلع السعوديين للشيخ سلطان بن صقر وهى أن ازدياد النفوذ السعودى فى الساحل العمانى أثار سخط القواسم مما أغضب السعوديين على الشيخ سلطان وتأكد لديهم أن سلطان لم يظهر الإخلاص للدعوة الوهابية وأنه أبدى استقلالا أكثر وولاء أقل، وأصبح بالتالى موضع عدم الرضا من قبل السعوديين. على أن أوثق الروايات هى تلك التى ذكرها صمويل ميلز Miles المقيم السياسى فى الخليج العربى وفحواها أن السعوديين هم الذين رغبوا فى مهادنة الإنجليز ومن ثم كان خلعهم للزعيم القاسمى[3]. ويستند ميلز على أن الانشقاق القاسمى السعودى هو الذى أتاح الفرصة لبريطانيا للتخلص من نشاط القواسم دون أن يؤدى ذلك إلى صراعها مع

(1) Bombay Govt., op. cit., See: Historical sketch of Wahabee Tribes of Arab. p. 430 SQ. See also Joasmee Tribes of Arab p. 304 ff.

(2) ابن رزيق: الفتح المبين ص ص ٥١٧ ـ ٥١٨.

(3) Miles, S., Countries and Tribes of the Persian Gulf, London 1919 vol. II p. 314 ff.

الدولة السعودية نفسها، ومن ثم كانت حملة ١٨٠٩ التى حطمت فيها بريطانيا مركز القواسم فى رأس الخيمة، وأنه على أثر هذه الحملة اتخذ الإمام سعود قرارا بمهادنة الإنجليز. وفيما يبدو أن القرار كان استجابة لعروض حكومة الهند فى أن يمنع أتباعه من ارتكاب عمليات قرصنة ضد السفن العابرة فى الخليج[١]. غير أن استجابة السعوديين لهذه المهادنة من الأمور التى تثير الدهشة والاهتمام ولا ندرى هل ترجع تلك الاستجابة إلى إدراك السعوديين لقوة الإنجليز؟ أو عدم إدراكهم لهويتهم الدينية!؟، ويذكر أحد الباحثين أن علماء الدرعية عقدوا اجتماعا قرروا فيه أن الإنجليز على دين النصارى وهم أهل كتاب وبالتالى فإن جهادهم غير واجب على المسلمين[٢]. ولدينا بصدد ذلك رسالة أرسلها الإمام سعود إلى هنكس سميث المقيم البريطانى فى الخليج، وتتفق هذه الرسالة مع بنود الاتفاق الذى أبرم بين القائد السعودى مطلق المطيرى والقائد الإنجليزى ليونيل سميث بعد معركة شناص التى حدثت فى أعقاب الحملة البريطانية على القواسم مباشرة فى عام ١٨٠٩. وكان هذا الاتفاق ينص على عدم تعرض السعوديين واتباعهم لسفن الإنجليز أو الرعايا التابعين لهم وعدم تقديم أية مساعدات لسلطان مسقط فى حربه ضد كل من ثار ضده ورفض دفع الزكاة المفروضة عليه[٣]. وقد نصت الرسالة على اعتراض الإمام سعود وانتقاداته اللاذعة للحملة التى قام بها الإنجليز عام ١٨٠٩ ضد القواسم بمشاركة السيد سعيد، وأوضح الإمام السعودى أسباب الخلافات القائمة بينه وبين مسقط بأسلوب وقور ولكنه ساخر فى نفس الوقت إذ جاء فى نص هذه الرسالة «إن سبب الخصومات الدائمة بينى وبين من يسمون أنفسهم مسلمين إعراضهم عن كتاب الخالق ورفضهم الامتثال لنبيهم محمد». ويتضح من هذه العبارة الخلافات الطائفية والمذهبية بين الإباضية التى يعتنقها العمانيون وبين السلفية التى تقوم عليها الدعوة الوهابية وتضيف الرسالة «وبما أنكم جنحتم إلى السلم[٤] فإننى أستنتج من ذلك أنكم أصبحتم تدركون سوء العمل الذى تقومون به[٥] وأصبحتم أضحوكة بين الناس بسبب تحريض رجل لا يملك أية

---

(١) ج. ج لوريمر: مصدر سبق ذكره جـ ٢ ص ٩٩٤.

(٢) عبد العزيز عبد الغنى: علاقة ساحل عمان ببريطانيا البصرة ١٩٧٨. ص ١٦٨

(٣) Shaikh Mansour, History of Seyyid Said p. 67.

(٤) يعنى هنا الإنجليز.

(٥) المقصود بذلك حملة ١٨٠٩.

قوة ذاتية[1]، كما أنكم لم تفكروا فى نتائج عملكم». وجاء فى الرسالة أيضا ما يمكن أن نعتبره تعهدا من قبل السعوديين بعدم شن حرب على من ينتمون إلى فرقة أخرى وعدم التدخل فى عملياتهم المعادية وعدم مساعدتهم ضد أعدائهم، وعدم الاعتداء على سفن الإنجليز، كما يفهم ذلك من النص التالى «فما دمت تحت سلطة العلى القدير فقد سموت على جميع أعدائى وفى هذه الظروف رأيت من الضرورى أن أبلغكم أننى لن أدنو من شواطئكم وأننى منعت أتباع عقيدة محمد وسفنهم من أن يقوموا بأى تنكيل بسفنكم فإذا ما ظهر أحد من تجاركم فى موانئى أو رغب فى المجىء إليها سيكون آمنا». وتنتهى الرسالة بتوجيه اللوم إلى الإنجليز حيث ورد بها «فلا يزد هيكم إذن احتراق عدد من السفن لأن ليس لها قيمة فى رأيى ولا فى رأى أصحابها وأهل بلادها»[2].

وقد أعرب حاكم بومباى عن ارتياحه لتلك الرسالة واعتبرها خطوة مشجعة لبدء علاقة طيبة مع السعوديين، ورحب بصفة خاصة بقرار الأمير السعودى بمنع أتباعه من التعرض للملاحة البريطانية، وفى رده على الرسالة أكد بأن حكومة الهند لا يهمها خلاف الأمير مع غيره من المسلمين وإنما يهمها تأمين الملاحة فى الخليج. وظهر أثر العلاقات الإنجليزية السعودية حين رفض حاكم الهند تقديم العون لسلطان مسقط حين طلب منه مساعدته فى صد هجوم تعرضت له بعض المناطق العمانية من قبل مطلق المطيرى، وكان ذلك مبعث استياء سلطان مسقط الذى كتب إلى حكومة الهند يؤكد أن تعاونه مع الحملة البريطانية ضد القواسم قد ورطه فى حروب مستمرة مع حلفائهم السعوديين الذين كانت علاقته معهم من قبل علاقة ود وسلام، ولولا صداقته للإنجليز لكان قد وافق على العروض السلمية التى قدمها السعوديون إليه، ولكن حاكم الهند أبلغ السيد سعيد سلطان مسقط فى عام ١٨١٠ بأن حكومة الهند البريطانية لم يعد لها مصلحة فى الصراع الدائر بينه

---

(١) تعنى الرسالة السيد سعيد بن سلطان.

(٢) للرجوع إلى النص المفصل لهذه الرسالة انظر التحكيم لتسوية النزاع الإقليمى بين مسقط وأبو ظبى وبين المملكة العربية السعودية ـ عرض الحكومة السعودية جـ ١ القاهرة ١٩٥٥ ص ١٢٩ وما بعدها وقد أورد هذه الرسالة الرحالة جيمس موريير، انظر:

Morier, J. A., Journey Through Persia., Armenia and Asia Minor to Constantinpole 1809, London 1919 pp. 374 - 379.

وبين السعـوديين وأن كل ما يهمـها مصلحتـه ورفاهية سلطنتـه، وانطلاقا من هذا الاعتبار وما قـد تسفر عنه ظـروف السلم بينه وبين السعـوديين من استقـرار فإن حكومة الهند تقترح عليه قبول عروض السلام التى تقدم بها السعوديون إن لم يكن فيها مسـاس بكرامة السلطنة واستقلالها. ولعل التزام حكومـة الهند البريطانية بهذا الموقف السلبى هو الذى دفع السـيد سـعيد فى عـام ١٨١١ أن يلتجـأ إلى فارس ملتمسا العون ضد السعوديين، ومع ذلك فإن الظروف لم تلبث أن ساعدت السيد سعيـد ليفض خلافاته معـهم حين وصل إلى مسقط فى نفس ذلك العام مـبعوث خاص من الدرعية يطلب التفاهم مع السيد سعيد لأن الأمير السعودى لم يعد لديه الوقت للتفرغ لشئون عمان بعد أن عبأ جـميع قواته لمواجهة التقدم المصرى التركى فى الجزيرة العربية[١]. كما توصل السعوديون فى عام ١٨١٤ إلى اتفاق بينهم وبين الإنجليز تعـهدوا فيه بعـدم مهاجـمة السفن البريـطانية وصدرت الأوامر السـعودية لزعماء القواسم بهذا المعنى من قبل الأمير السعودى.[٢]

نخلص مما سـبق أن تعرضنا إلـيه أن الإنجليـز استطاعـوا إحداث شـرخ فى العلاقـات القائمـة بين السعوديـيـن والقواسم؛ وأدى ذلك إلى تحيـيد السـعوديين وضرب القـواسم من قبـل الإنجليز كـما سيـتضح ذلك فى الحـملات العـسكرية البريطانية التى وجـهتها بريطانيا ضـد القواسم منذ عام ١٨٠٩ وما بعدها. وفـيما يبدو أن حسين بن على نائب السعوديين فى السـاحل العمانى لم يستمر طويلا فى زعامتـه للقواسم إذ يفهم مما ذكرته بـعض المصادر أن الشيخ حسن بن رحـمة كان مسيطرا على رأس الخيمة فى عام ١٨١٤.

ومما يستلفت الانتـباه أن المؤرخ النجدى عثـمان بن بشر لا يشير فـى كتاباته عند ذكره لزعماء الساحل العمانى إلى الشيخ حسين بن على[٣]، بل يذكر أنه كان على زعامة القواسم سلطان بن صقر بن راشـد ثم عزله السعوديون وجعلوا مكانه ابن أخيه حسن بن رحمة، ولا شك إن إقـرار السعوديين بذلك يعنى عدم تجاهلهم للزعامـة القاسمية سـواء بتعيينهم لحسن بن رحمة أو حسـين بن على الذى كان

---

(١) جون كلى: مرجع سبق ذكره ص ص ٢١٠ / ٢١١.
(٢) عبد العزيز عبد الغنى: مرجع سبق ذكره ص ١٦٩.
(٣) ابن بشر: عنوان المجد فى تاريخ نجد جـ ١ ص ١٧٥.

ينتمي بدوره إلى القواسم. ولعل مما تجدر الإشارة إليه أنه رغم تعاظم النفوذ السعودي إلا أن علاقات القواسم بالسعوديين كانت تغلب عليها العلاقات المعنوية أكثر من التبعية السياسية، ومما يؤكد ذلك أن القواسم كانوا يتخذون مواقف هامة دون الرجوع إلى الأمير السعودي[١]. ففي المفاوضات التي جرت بين ممثلي القواسم والمقيم البريطاني سيتون Seton عقب حملة ١٨٠٥، التي أسفرت عن عقد أولى المعاهدات البريطانية مع القواسم في عام ١٨٠٦لم يرجع القواسم إلى الدولة السعودية، وصادقت حكومة الهند البريطانية على تلك المعاهدة في فبراير عام ١٨٠٦[٢]. ولذلك فإنه في تقديرنا أن تفاقم المشكلات بين القواسم والسعوديين ترجع في الدرجة الأولى إلى تعاظم منطقة النفوذ السعودي في الساحل العماني مما أدى إلى سخط القواسم الذين بدأوا يتبرمون بالزعامات القاسمية الموالية للسعوديين، ولعل هذه الظروف هي التي مكنت سلطان بن صقر من استرداد سلطته، حيث تمكن في عام ١٨١٣ من الفرار من الدرعية[٣]. ويبدو أنه خطط لذلك في موسم الحج حيث سمح له الأمير السعودي بالذهاب إلى مكة لتأدية فريضة الحج، وهناك التقى بجماعة من قبيلة الجنبة بعمان وهم معادون للقواسم ولكنه أجرى مصالحة معهم فوافقوا على أن يركب معهم البحر، ومما تجدر الإشارة إليه أنه في أثناء وجوده في الحجاز اتصل بطوسون باشا ابن محمد على الذي زوده برسائل من قبل محمد على إلى السيد سعيد سلطان مسقط، وحين وصل إلى مسقط اتصل بالإنجليز حيث تعهد لهم باحترام اتفاقية ١٨٠٦. وفيما يبدو أنه قد تلاقت رغبات كل من السيد سعيد ومحمد على والإنجليز على إعادة سلطان بن صقر على مشيخة القواسم[٤]. ومن المعروف أن سياسة محمد على كانت تعتمد على إيجاد شيوخ موالين له في سواحل الخليج تحقيقا لما كان يهدف إليه من السيطرة على تلك السواحل،وقد ذكرت بعض المصادر أنه على رغم من

---

(١) صالح محمد العابد: مرجع سبق ذكره ص ص ١٤٥ ـ ١٤٦.

(٢) نفسه ص ١٤٦.

(٣) جون كلي: مرجع سبق ذكره جـ ١ ص ٢١٤ وكذلك:

Bombay Govt., Historical Sketch of Joasmee Tribes of Oman , S.R.B.G. vol. XXIV Bombay 1856. p. 307 ff.

(٤) Shaikh Mansour, History of Seyyid Said p. 54.

مهادنة سلطان بن صقر للإنجليز إلا أنه لم يهادن سلطان مسقط إزاء عقيدته الدينية حيث أكد للسيد سعيد «أن ما جرى بينه وبين آل سعود هو نوع مما يجرى بين الوالد وأولاده والأخ وأخيه وأما العقيدة السلفية فهى العقيدة الحق التى لا نبغى بها بديلا»(١). وعلى الرغم من ذلك فإن السيد سعيد كان يرى فى وصول سلطان بن صقر إلى الحكم ضمانا لاتقاء خطر القواسم إذ كان سلطان بن صقر يمثل الجانب الأكثر هدوئا والأقل تطرفا فى علاقته بكل من مسقط والإنجليز. وقد تمكن السيد سعيد من الاستعانة ببنى ياس حيث عقد اجتماعا مع الشيخ شخبوط فى عام ١٨١٣ وافق فيه زعيم بنى ياس على الهجوم على رأس الخيمة بألفين من رجاله، وفى المقابل أبدى شيوخ القبائل العربية على الساحل الشرقى للخليج استعداداً لمعاونه سلطان بن صقر، كذلك وعده شيخ البحرين بالمشاركة بألفى رجل وخمسة عشر سفينة وتم الهجوم على رأس الخيمة فى عام ١٨١٣ بموافقة بريطانيا، ورغم فشل هذه الحملة إلا أن السيد سعيد جدد الحرب فى العام التالى، وتمكن سلطان بن صقر من الاستيلاء على الشارقة بمعاونة من حلفائه فى الوقت الذى تمكن فيه السيد سعيد من أن يعقد اتفاقا مع الشيخ حسن بن رحمة جاء فيه أن تنفصل إمارة الشارقة عن رأس الخيمة وأن يكون الشيخ سلطان حاكما عليها والشيخ حسن بن رحمة حاكما على رأس الخيمة، وهكذا شهد عام ١٨١٤ انقسام الزعامة القاسمية إلى قسمين أحدهما فى الشارقة والآخر فى رأس الخيمة. ولا شك أن هذا الانقسام فى الزعامة أدى إلى تشجيع بقية القواسم الذين كانوا يؤلفون عناصر الاتحاد القاسمى إلى الاستقلال بالمناطق التى كانوا يحكمونها حكما محليا(٢). وقد استمرت الزعامة القاسمية مفككة على كل من الشارقة ورأس الخيمة حتى وصول القوات المصرية التركية إلى نجد وتحطيم الدرعية فى عام ١٨١٨، إذ أنه بسقوط الدولة السعودية الأولى فقد الشيخ حسن بن رحمة تأييد السعوديين له. ومما يذكر بهذه المناسبه أنه أرسل سبعة عشرة سفينة محملة بخمسة آلاف مقاتل إلى ميناء القطيف للمشاركة فى الدفاع عن الدرعية، ولكن النجدة وصلت متأخرة، كما

---

(١) المفصل فى تاريخ الإمارات جـ ١ ص ٣٣٢.

(٢) Bombay Govt., op. cit., Historical Sketch of Joasmee Tribes - See also the Rise and Progress of the Government of Muscat vol. XXIV Bombay 1856. p. 184 ff.

قاتل الشيخ حسن بن رحمة ببسالة للدفاع عن رأس الخيمة فى عام ١٨١٩ ضد الإنجليز وسلطان مسقط، وكان من نتيجة هذه الحملة تحطيم رأس الخيمة وخلع الشيخ حسن بن رحمة وإعادة رأس الخيمة إلى سلطان بن صقر، وتم ذلك على حساب تفكيك الساحل العمانى إلى عدة مشيخات أصبح لها كيانها الإقليمى نتيجة تكريس بريطانيا لذلك الوضع، كما سنعرض لذلك فى الفصل التالى.



الفصل الثامن

توغل النفوذ البريطانى فى الساحل الجنوبى للخليج العربى

النشاط البحرى للقواسم - حملة ١٨٠٥ ضد القواسم - اتفاقية ١٨٠٦ - تجدد العمليات البحرية وحملة ١٨٠٩ - تدمير رأس الخيمة - فشل المفاوضات بين بريطانيا والقواسم ١٨١٤ - بعثة سادلر - حملة ١٨١٩ - معاهدة السلام العامة ١٨٢٠ - إجراءات كير السياسية وأثرها فى تثبيت النفوذ البريطانى - ثورة البوعلى ١٨٢٠ - قمع الثورة وتدعيم الهيمنة البريطانية.

ارتبط النفوذ البريطانى فى الساحل الجنوبى للخليج العربى بصراع بريطانيا مع القواسم الذين وصلوا إلى قمة تفوقهم البحرى فى السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر. وقد ساعد القواسم على تحقيق ذلك التفوق أمران هامان أولهما اضطراب الأوضاع السياسية فى المملكة الفارسية على أثر اغتيال كريم خان الزندى فى عام ١٧٧٩. وثانيهما أن شركة الهند الشرقية البريطانية كانت لا تزال منشغلة حتى ذلك الوقت فى تدعيم نفوذها فى شبه القارة الهندية وبالتالى لم تكن تريد أن تبدد قواها فى قمع النشاط البحرى للقوى العربية فى الخليج. على أنه منذ نهاية القرن الثامن عشر بدأت بواعث القلق تثار لدى حكومة بومباى - وهى الحكومة المختصة بشئون الخليج العربى من بين مجموعة الحكومات التى انقسمت إليها شركة الهند الشرقية البريطانية - وذلك حين بدأ القواسم يعترضون السفن البريطانية العابرة فى مياه الخليج منذ عام ١٧٧٨، وإن كانت أخطر عمليات القواسم البحرية قد حدثت على وجه التحديد فى عام ١٧٩٨ حين تعرضت السفينة الحربية الفيبر Viper لأعمال هجومية من قبل القواسم عندما كانت راسية بالقرب من ميناء بوشهر، وذلك خلال منازعات القواسم مع السيد سلطان بن أحمد سلطان مسقط حيث كان القواسم يعاضدون شقيقه الذى عزله عن الحكم، وهذا يعنى أن القواسم قد تورطوا بالفعل فى المنازعات الأسرية فى سلطنة مسقط. غير أن هذا الحادث لم يؤد إلى اشتباك بين الإنجليز والقواسم وإنما اكتفى ممثل شركة الهند الشرقية البريطانية فى البصرة بالاحتجاج لدى شيخ القواسم على هذا العمل الذى عده

عملا عدوانيا باعتبار الفيبر تابعة لبحرية بومباى، وأجاب الشيخ صقر على ذلك الاحتجاج بأن الهجوم لم يقع إلا بعد أن أطلقت الفيبر - وكانت مزودة بأربعة عشر مدفعًا - النيران على القوارب التابعة للقواسم، وقرر أن ابن أخيه الشيخ صالح هو الذى قاد هذا الهجوم وأنه غادر رأس الخيمة وتوجه نحو الساحل الفارسى وانفصل عن التحالف القاسمى، وأكد أنه ليس بين القواسم والإنجليز أية خلافات وأن القواسم ليس لهم سوى عدو واحد وهو سلطان مسقط[1]. ودلّل شيخ القواسم على صدق نواياه بزيارته لممثل شركة الهند الشرقية البريطانية مستر مانيستى Manisty فى البصرة مؤكدا صداقة القواسم للإنجليز وطالب بألا يوفر الإنجليز الحماية للسفن المسقطية وألا يرسلوا أية بضائع عليها مؤكدا عدم مسئولية القواسم عن أية خسائر تتعرض لها البضائع الإنجليزية[2]. ولكن القواسم أخذوا يشددون هجماتهم ضد السفن البريطانية، وقد يكون ذلك لاقتناعهم بالمساعدات التى كانت تقدمها تلك السفن لسلطنة مسقط أو أن تلك الهجمات التى كانت تحدث وقت احتدام النزاع بين القواسم وخصومهم لم يكن القواسم يفرقون فيها بين السفن الإنجليزية وسفن أعدائهم. وعلى الرغم من تعدد حوادث القواسم البحرية فقد استمرت حكومة بومباى تنظر إلى تلك الحوادث بأنها ليست بالأمر الخطير الذى يستوجب تدخلها أو اتخاذ قرار لتأديب القواسم، وعلى العكس من ذلك كانت حكومة بومباى تصدر تعليماتها للبحارة التابعين لها بعدم البدء فى إطلاق النيران، وقد ترتب على ذلك وقوع كثير من السفن الإنجليزية بخدع بسيطة فى أيدى القواسم[3]. ومما تجدر الإشارة إليه أن حكومة الهند ظلت متمسكة بتلك السياسة المسالمة إزاء عرب الخليج حتى السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر حتى أنها كانت توجه اللوم إلى قواد السفن الذين لا يلتزمون بتعليماتها؛ بيد أنها لم تلبث أن أدركت خطأ إبقائها على تلك السياسة المسالمة التى تكلفها الكثير من الخسائر ومن ثم بدأت فى اتخاذ سياسة جديدة فى علاقتها بالقوى العربية على الساحل

---

(١) Bombay Government, Selections from the Records of Bombay Govt., Historical Sketch of Joasmee Tribe of Arabs 1747 - 1853 vol. XXIV Bombay 1856, p. 302 ff.

(٢) دونالد هولى: عمان ونهضتها الحديثة ص ٤٦.

(٣) Buckingham, Travels in Assyria, Media and Persia p. 226 ff.

الجنوبى للخليج العربى. على أن مـا تجدر الإشارة إليه أن حكومة الـهند لم تتخذ تلك السياسة العـدائية التى سوف نعرض لها إلا بعد أن أصبح مؤكـدا لديها أهمية تلك المنطقـة بالنسبة لمـواصلاتها الإمـبراطورية إلى الهند، ولعل ذلك كـان يرتبط بوصول الحملـة الفرنسية إلى مصـر فى عام ١٧٩٨ واتجاه حكومة الهـند إلى عقد معاهدة مع سلطان مسقط وخاصة أن حكومة الهند كانت تدرك بأن سلطنة مسقط، هى التنظيم السياسى الأكثر ثباتا فـى المنطقة، ومن ثم وجدت فى تحالفها مع تلك السلطنة عـاملا هامـا يساعـدها على الحـد من القوة المتـزايدة التى أخذ القـواسم يكتسبونها وما ترتب عليها من اضطرابات شديدة بدأت تواجهها الملاحة فى الخليج العربى، ويمكننا أن نضيف إلى ذلك ازدياد قـوة الوهابيين فى نجد وظهورهم على سواحل الخليج خاصـة بعد احتلال السعوديين للقطيف وسـيطرتهم على الاحساء وامتداد سيطرتهم إلى البريمى، ومن هناك بدأوا يوجهـون هجماتهم المتلاحقة ضد سلطنة مسـقط والنفاذ منهـا إلى الساحل الجنوبى للخليج الـعربى، وخاصـة حين توثقت علاقات الصداقة والتحالف بينهم وبين القواسم(١).

وعلى الرغم من أن القواسم أعلنوا تبـعيتهم للـدولة الإسلامية التى أقـامها السعوديون فى نجد حتى أنهم كانوا يدفعون إليها الحصة الشرعية للزكاة من الغنائم التى كانوا يستولون عليها إلا أن الخطة البريطانية اتجهت فى عملياتها العسكرية ضد القواسم إلى عـدم الاعتراف بسيطرة الـسعوديين عليهم، ومـعنى ذلك أن حكومة الهند كانت تتجه إلى ضـرب القواسم دون الاصطدام بالدولة السعودية فى الوقت الذى كان فيه القواسم قد اكتسبوا تأييد الدولة السعودية، وضمنوا حمايتها وبالتالى فقد أخذت هجماتهم تتزايد ضد أية سفينة تحمل العلم البريطانى حيث قويت فكرة الجهاد التى ألهبها الوهابيون فى نفوس القواسم(٢). ومن ناحية أخرى كان الصراع الذى حدث بين السعوديين وسلطنة مسقط له أثره فى جر القواسم إلى دائرته حين انحازوا للسعوديين ضد سلطنة مسقط، وخشـيت حكومة بومباى أن تتحول مسقط

---

(١) ج. ج لوريمر: دليل الخليج جـ ١ ص ص ٢٧٧ / ٢٧٨.

(٢) صادق نشأت: تاريخ الخليج السياسى ص ص ١٣٠ / ١٣١.

إلى ممارسة القرصنة بضغط القواسم والسعوديين عليها، وتأكدت تلك المخاوف حين أرسل سلطان بن أحمد وكلاءه إلى الدرعية عاصمة الدولة السعودية الأولى يطالبون بإعادة شيناص وغيرها من القلاع التى استولى عليها السعوديون من والى صحار وهناك عاملهم الأمير السعودى معاملة سيئة واحتجزهم فى عاصمته، وكان يهدف بذلك إلى الضغط على سلطان مسقط ليأمر سفنه بمعاونة السعوديين فى الهجوم على البصرة أو يبرهن على حبه لقضية المسلمين بإرسال حملة للاستيلاء على المستودعات البريطانية فى سواحل الهند. وهدد الأمير السعودى بأنه سيهاجم مسقط بنفسه حين يعود من حجه إلى مكة فى الخريف القادم (١٨٠٣)[١]. وعندما حاول سلطان بن أحمد تدبير خطة للقضاء على الوهابيين وحلفائهم القواسم بالاتفاق مع السلطات العثمانية فى العراق دفع حياته ثمنا لذلك حين تربص به القواسم وقتلوه أثناء عودته من البصرة وأثناء مروره بسواحلهم، وحدث ذلك فى ميناء لنجة (١٨٠٤)[٢]. وحين حاول العمانيون الانتقام لمقتل سلطانهم اشتبكوا مع القواسم فى خورفكان وتحول الميناء إلى بحيرة من الدماء ولكنهم لم يفوزا بطائل بل أنهم سرعان ما تعرضوا لخلافات أسرية حادة انتهت بوصول بدر بن سيف إلى حكم السلطنة بالوصاية ١٨٠٤/١٨٠٦. ومما يستلفت الانتباه أن اغتيال سلطان بن أحمد قضى على نفوذ مسقط فى الساحل الشرقى من الخليج، وورث القواسم نفوذ مسقط فى تلك المناطق[٣]. وحاولت بريطانيا أن تستغل الأوضاع المحلية للقضاء على شوكة القواسم حيث وجدت فى بدر بن سيف أداة طيعة لها للقضاء عليهم، وعلى الرغم من أن القواسم قد اتحدوا مع العتوب للإطاحة بسلطان بن أحمد إلا أن السياسة القبلية تتميز دائما بالتقلب حيث عاد العتوب لمحالفة بدر بن سيف ضد القواسم، وبارك الوكيل البريطانى فى مسقط الكابتن سيتون هذا التحالف تمشيا مع الخطة البريطانية الخاصة بتشجيع التحالفات القبلية وإذكاء

---

(١) الوثائق السعودية: التحكيم لتسوية النزاع الإقليمى بين مسقط وأبو ظبى وبين المملكة العربية السعودية جـ ١ ص ١١٧ وما بعدها.
(٢) السالمى وناجى عساف: عمان تاريخ يتكلم ص ٢٠٢.
(٣) ج. ج لوريمر: دليل الخليج جـ ٢ ص ٦٧٥.

التنافس فيما بينها حتى تصفى بعضها البعض الآخر، وكان ذلك قبل أن تبدأ بريطانيا مرحلة التغلغل العسكرى المباشر فى المنطقة(١).

ومما تجدر الإشارة إليه أن بريطانيا استفادت من الخلافات القائمة بين مسقط والقواسم لكى ترسل حملتها العسكرية الأولى إلى الساحل العمانى فى عام ١٨٠٥، وكان ذلك بسبب ازدياد عمليات القواسم ضد السفن البريطانية، ففى أواخر عام ١٨٠٤ استولى القواسم على سفينتين تابعتين للمستر صوميل مانيستى ممثل شركة الهند الشرقية البريطانية فى البصرة، وفى العام التالى ١٨٠٥ هاجم القواسم بأسطول يتكون من ٤٠ سفينة شراعية سفينة حربية تابعة لشركة الهند الشرقية البريطانية، والجدير بالذكر أن حوادث القواسم اختلفت فى تلك الفترة التى نحن بصددها عن الحوادث السابقة عليها إذ إن الحوادث الأخيرة اصطبغت بالصبغة الدينية(٢)، ورغم أن الدلائل التاريخية تؤكد الأثر الوهابى على تلك الحوادث إلا أن حكومة بومباى حاولت بقدر الأمكان أن تغض الطرف عن أن يكون أمراء نجد هم المحرضون عليها حتى لا يوقعها ذلك فى نزاع مباشر ضد السعوديين(٣). ولكن ازداد الأمر خطورة بالنسبة لحكومة بومباى حينما أعلن بدر بن سيف سلطان مسقط بالوصاية تضامنه مع القواسم والسعوديين تجنبا للضغط الشديد الذى بدأت تتعرض له سلطنة مسقط من جانبهم، ولعل ذلك هو الذى نبه حكومة بومباى إلى ضرورة التدخل المباشر، ولكنها عمدت إلى خطة ذكية تقوم على الاشتباك ضد القواسم وليس ضد السعوديين، وكانت تهدف بذلك قصر الصراع فى الساحل دون الداخل.

ويعود إلى المستر صمويل مانستى الأثر الكبير فى تنبيه حكومة بومباى إلى ضرورة هذا التدخل حيث كتب إلى حكومته فى عام ١٨٠٥ يؤكد أن خطر (القراصنة العرب) أصبح يفوق خطر أعدائنا القوميين،وكان يقصد بذلك

---

(١) Bombay Govt., op. cit., Historical Sketch of Uttoobee Tribe of Arabs 1716 - 1852 p. 361.

(٢) عن اعتناق القواسم للدعوة الوهابية، انظر الوثائق السعودية،العرض التاريخى لمشكلة البريمى جـ ١ ص ١١٢.

(٣) جون كلى: مرجع سبق ذكره جـ ١ ص ص ١٦٨ / ١٧٠.

الفرنسيين، كما أن حوادث (القرصنة) أصبحت تسبب لحكومة الهند متاعب أكبر بكثير من المتاعب التى تتعرض لها نتيجة المنازعات الدولية فى بحار الشرق[١]. وبادرت بومباى بأن عهدت إلى الكابتن دافيد سيتون Seton مهمة تنظيم تلك الحملة. وكان الكابتن سيتون قد عهد إليه من قبل وعلى وجه التحديد فى عام ١٨٠٣ مهمة إعادة افتتاح الوكالة البريطانية فى مسقط والتى كانت قد توقفت لفترة من الوقت بسبب عدم اهتمام حكومة الهند بسلطنة مسقط. وجاء فى التعليمات التى زود بها الكابتن سيتون باعتباره قائدا للحملة العسكرية أن يبحث وسائل التعاون مع سلطان مسقط آخذاً فى الاعتبار ما كان يتعرض له السلطان من صراع وخلاف مع القواسم[٢]. ولعل السبب فى اختيار الكابتن سيتون قائدا للحملة البريطانية أنه كان خلال قيامه بالوكالة البريطانية فى مسقط لا يكف عن الطلب من حكومة بومباى أن تساند سلطنة مسقط فى القضاء على القواسم انتقاما لمقتل سلطانها[٣]. ولكن حكومة بومباى ترددت فى اتخاذ هذا القرار الذى أحاطته بالكثير من الإرجاء والتحفظ حتى استقر رأيها أن تعهد إليه بتنفيذ تلك المهمة وذلك فى حالة اقتناعه التام بأن السعوديين لن يتدخلوا لمناصرة القواسم، كما كان عليه أن يتفادى إثارة أية مواقف من شأنها أن تؤدى إلى تعقيدات مع الدولة العثمانية أو فارس وأن يقوم بعملياته العسكرية بالتنسيق مع المستر مانستى ممثل شركة الهند الشرقية البريطانية فى البصرة والملازم بروس المقيم البريطانى فى بوشهر[٤].

ومن ناحية أخرى فقد تمكن الكابتن سيتون من إقناع حكومة بومباى بأن تزود بدر بن سيف بثلاث سفن كبيرة وخمسة وعشرين مدفعاً لكى يشترك معه فى هذه الحملة، وفى ٢٨ مايو ١٨٠٥ غادر سيتون مسقط على ظهر السفينة مورنجتون متجهاً إلى الساحل الشرقى للخليج، وربما يرجع السبب فى نقل العمليات العسكرية إلى هذا الساحل الرغبة فى تحاشى الاصطدام بالسعوديين أو قد يكون ذلك بناء على طلب بدر بن سيف فى الهجوم ضد القواسم وحلفائهم فى بندر

---

(١) Ireland, Philip, Iraq London 1954 p. 52.

(٢) ج. ج لوريمر: مرجع سبق ذكره جـ ١ ص ص ٢٨٠ ـ ٢٨١.

(٣) Moyse, B., The Pirates of Trucial Oman pp. 30 - 34.

(٤) ج. ج لوريمر: دليل الخليج، القسم التاريخى جـ ٢ ص ص ٩٧٦ ـ ٩٧٧.

عباس حيث نجح بدر بن سيف فى استرداد كل من بندر عباس وهرمز، ولاشك أن الاستيلاء على هذين الموقعين أحدث ضرراً كبيراً بالقواسم لأن جميع الموانى التابعة لهم كانت تستخدم هذين الميناءين لتزويدهم بمؤنهم المعيشية وخاصة من القمح والتمور. غير أن توجيه الحملة البريطانية إلى الساحل الشرقى للخليج أثار احتجاج السلطات الفارسية واعتبرتها عملا عدائيا موجها ضد فارس التى كانت تدعى سيادتها على القبائل العربية القاطنة على ذلك الساحل، ولكن قبل أن يتأزم الموقف بين فارس وبريطانيا أسرع الكابتن سيتون إلى تصفية حسابه مع القواسم حيث توجه بمعاونة السفن المسقطية إلى جزيرة قشم بعد أن وصلت إليه أخبار تجمع أسطول القواسم فى تلك الجزيرة[1]. ولما كان سيتون قد كلف بإرسال تقرير عن الموقف فقد أوصى بأن تتحاشى حكومة بومباى التدخل العسكرى المباشر وأن تبادر بإرسال عدة سفن لمساعدة بدر بن سيف ضد القواسم، ووافق مجلس حكومة بومباى على تنفيذ ذلك الطلب بعد تردد وخوف كبيرين لأن ذلك كان يعنى التخلى عن السياسة التقليدية التى استنتها حكومة الهند والخاصة بالابتعاد عن التدخل فى المنازعات القبلية فى الخليج، ولذلك فقد أرسلت مع النجدة البريطانية تعليمات جديدة إلى الكابتن سيتون تطلب منه أن يتصرف بأكبر قدر ممكن من الحكمة والاعتدال وأن يسعى إلى تهدئة الموقف ما أمكن بواسطة المفاوضات[2]. وفى خلال ذلك الوقت استطاع بدر بن سيف مستعينا بالنجدة البريطانية محاصرة أسطول القواسم فى ميناء قشم.

وعلى الرغم من أن القواسم قد وقعوا فى محنة بالفعل إلا أن سيتون بناء على تعليمات حكومته التى أشرنا إليها وافق على أن يمنحهم هدنة لمدة ستين يوما، ومن ناحية أخرى كان سيتون يقدر أنه لن يستطيع ضرب القواسم والتخلص من نفوذهم دون الإساءة إلى فارس والسعوديين، ولاشك أن هذه الهدنة هى التى أدت إلى أولى المعاهدات التى أبرمها القواسم مع بريطانيا فى عام ١٨٠٦، وكان ذلك على أثر المفاوضات بين الكابتن سيتون والقواسم. وقد طلب سيتون فى هذه المفاوضات أن يدفع القواسم تعويضات عن سائر الأضرار التى أصابت السفن

(١) Moyse, B., op. cit., p. 33 ff

(٢) دونالد هولى: مرجع سبق ذكره ص ٤٦.

البريطانية، ولكن حين أكد له القواسم أنهم لن يستطيعوا دفع أكثر من عشرة آلاف روبية وعلى أقساط سنوية فقد أهمل سيتون هذا الأمر، حيث تم الاتفاق على أنه فى حالة إعادة القواسم للكابتن سيتون السفينتين تريمر Trimmer وشانون Chanon وهما سفينتان كانتا تتبعان الوكالة البريطانية فى البصرة خلال خمسة وعشرين يوما ومعها كتاب من شيخ القواسم يعتذر فيه عن مسلك رعاياه ويعلن عجزه عن دفع التعويضات ويتعهد بالكف عن هذا المسلك فى المستقبل[1]، فمن الممكن أن يكون هذا أساسا لمعاهدة توقع بين الطرفين. وفيما يبدو أن القواسم حاولوا أن يخففوا من الضغوط البريطانية مبررين عملياتهم البحرية بأنها كانت بأمر من السعوديين[2]، وفى مطلع ١٨٠٦ تم عقد أول معاهدة بين بريطانيا والقواسم فى ميناء بندر عباس ووقعت هذه المعاهدة بين الكابتن سيتون وبين ممثل الشيخ سلطان بن صقر شيخ مشايخ القواسم. وبمقتضى تلك المعاهدة التى جاءت فى شكل (قولنامة) تم تهدئة الموقف نسبيا بين بريطانيا والقواسم، وقد احتوت المعاهدة على ستة بنود عالجت استتباب السلام فى الخليج وتعهد القواسم بحماية السفن والممتلكات البريطانية التى تصل إلى موانئهم حيث نصت على ما يأتى:

- تعهد القواسم باحترام ممتلكات شركة الهند الشرقية البريطانية ورعاياها ووافق الإنجليز من جانبهم أن يحترم كل من الطرفين علم وممتلكات الطرف الآخر أينما وكيف يكونون.

- فى حالة عدم امتثال القواسم لشروط تلك الاتفاقية تفرض عليهم غرامة مقدارها ثلاثون ألف ريال تساوى (ماريا تريزا) أما إذا أرغموا على نقض تلك المعاهدة بإيعاز من الوهابيين فيتعين عليهم إخطار شركة الهند الشرقية البريطانية قبل ثلاثة أشهر من نقض المعاهدة.

وفى مقابل عقد القواسم تلك المعاهدة أعلن سيتون تنازل حكومة بومباى عن حمولة السلع التى كانت على السفينة تريمر، كما سمح للقواسم بالمتاجرة مع

---

(١) السيابى: إيضاح المعالم فى تاريخ القواسم ص ص ٧٤ / ٧٥.
(٢) ج. ج لوريمر: مصدر سبق ذكره جـ ١ ص ص ٢٨٠ / ٢٨٢.

موانى الهند من سوارت إلى البنغال، وكانت هذه الموانى محظورة على القواسم منذ هجومهم على السفينتين تريمر وشانون فى أواخر عام ١٨٠٤[١].

ولعل مما يسترعى الانتباه عند دراستنا لشروط اتفاقية ١٨٠٦ القوة الكبيرة التى بلغها القواسم إلى درجة يمكن أن نعتبر بها اتفاقية ١٨٠٦ من المعاهدات المتكافئة أى أنها لم تكن على غرار المعاهدات التالية التى ستعقدها حكومة الهند البريطانية مع القواسم والتى سوف يتضح لنا فيها عدم التكافؤ. ولتوضيح ذلك ينبغى أن نلاحظ أن اتفاقية ١٨٠٦ احتوت على بنود ملزمة للطرفين، ولعل أكثر ما يسترعى الانتباه أنها عقدت بين الكابتن سيتون ممثلا عن حكومة الهند وشيخ مشايخ القواسم، أى أن حكومة الهند لم تتعامل مع القوى القبلية بصورة انفرادية كما سيحدث ذلك فى المعاهدات والاتفاقيات التالية،وإنما أقرت حكومة الهند فى هذه المعاهدة بالزعامة القاسمية الموحدة[٢]. ويعتبر توقيع هذه المعاهدة نهاية للمرحلة الأولى من مراحل صراع بريطانيا مع القواسم، وعلى الرغم مما ترتب على سيطرة الإنجليز فى تلك المرحلة على جزيرة قشم وهرمز وقيس وبندر عباس وتسليم الكابتن سيتون تلك الجزر والموانى لبدر بن سيف بهدف تحاشى اصطدام بريطانيا مع فارس، وحتى تستطيع حكومة الهند إعادة السيطرة عليها مستقبلا إلا أن بدر بن سيف أسرع بالانسحاب من تلك المناطق، وكان ذلك حين رفض الكابتن سيتون العرض المقدم إليه بأن تقيم حكومة الهند وكالة لها فى بندر عباس، ولا شك أن بدر بن سيف كان يهدف بذلك إلى تثبيت نفوذه بدعم من حكومة الهند فى تلك المناطق،غير أن فقدان بدر بن سيف لتلك المساندة هو الذى اضطره للانسحاب منها على الفور تحاشيا للمصاعب التى كان من المحتم أن يواجهها من قبل القواسم أو السلطات الفارسية على الساحل الشرقى للخليج[٣]. ومن ناحية أخرى فإن القواسم لم يلتزموا بنصوص معاهدة ١٨٠٦ لأكثر من عامين حيث

---

(١) راجع النص الكامل للاتفاقية فى ملاحق الكتاب وقد وقعها الكابتن سيتون مع عبد الله بن كروش ممثل الشيخ سلطان بن صقر وصدق عليها حاكم عام الهند، ومما تجدر الإشارة إليه أن الكابتن سيتون كان حريصا على عدم إشراك السعوديين فى تلك الاتفاقية.

(٢) جمال زكريا قاسم: الأسس التاريخية لوحدة الإمارات العربية ـ من أعمال ندوة تجربة دولة الإمارات العربية المتحدة ـ بيروت ـ مارس ١٩٨١.

(٣) ج. ج لوريمر: مصدر سبق ذكره جـ ٢ ص ص ٦٨٣ ـ ٦٨٤.

عادوا إلى تكرار نشاطهم البحرى ضد السفن البريطانية إلى درجة أزعجت حكومة الهند إزعاجا شديدا وخاصة حين استولى القواسم على السفينة البريطانية سيلف Sylph وركزوا هجماتهم البحرية على سواحل الهند.

ولعل من أهم العوامل التى ساعدت القواسم على مواصلة عملياتهم البحرية السياسة الحذرة التى انتهجتها حكومة بومباى منذ حملة ١٨٠٥ وذلك حين أصدر مجلس إدارتها تعليمات مشددة إلى جميع قادة البحرية البريطانية بعدم التعرض للسفن العربية(١). ويرجع سبب صدور تلك التعليمات أن حكومة بومباى لم تكن تريد أن تتأزم العلاقات بينها وبين السعوديين فى الوقت الذى بدأ فيه نابليون بونابرت يستأنف نشاطه فى الشرق عقب وصوله إلى عرش الإمبراطورية الفرنسية، ومن ناحية أخرى فإن حكومة الهند لم يكن فى مقدورها فى ذلك الوقت توفير القوات اللازمة لمواجهة تحديات القواسم لأنها كانت مجهدة تماما فى حروبها داخل القارة الهندية فضلا عن مواجهة التنافس الفرنسى لها فى بحار الشرق(٢). وطبا لتقدير الرحالة البريطانى جيمس موريير Morrier(٣). بلغ أسطول القواسم فى عام ١٨٠٩ ثلاثة وستين سفينة كبيرة وثمانمائة وعشر سفينة صغيرة، وعلى هذه السفن تسعة عشر ألف مقاتل.ولعل هذا التعاظم فى قوة القواسم البحرية جعل بعض الباحثين ينفون عن القواسم أعمال القرصنة إذ إن قوة كبيرة مثل تلك القوة التى تحدثنا عنها تمثل قوة دولة بالمفهوم السائد فى مجتمعات شبه الجزيرة العربية؛ وليست قوة خاصة بأفراد يشتغلون بالقرصنة لحسابهم. ولعل هذا التعاظم فى قوة القواسم هو الذى شجع سلطان بن صقر بأن يطالب حكومة بومباى بدفع مبالغ مالية سنوية له مقابل تعهده بضمان سلامة تجارتها فى الخليج(٤)، وكذلك فى مقابل أجور الخدمات والتسهيلات التى يقدمها للسفن التابعة لها خلال مرورها بسواحله(٥). وعلى الرغم من أن هذه المطالب تعد مطالب مشروعة وفقا للمفهوم العصرى الحديث إلا أن بريطانيا اعتبرت تلك

---

(1) Low, Charles., History of the Indian Navy vol. 1 p. 317 SQ.

(٢) صالح العابد: دور القواسم فى الخليج العربى ص ٢١٩.

(٣) Morrier, James, A Journey Through Persia, Armenia and Asia Minor to Constantinople 1809, London 1812 p. 373 ff.

(٤) ج. ج لوريمر: دليل الخليج جـ ١ ص ص ٢٨٣ / ٢٨٤.

(٥) السيابى: مرجع سبق ذكره ص ٩٠.

Heude, A Voyage up the Persian Gulf p. 37, See also Buckingham, op. cit., p. 228.

المطالب بمثابة خدش للكرامة البريطانية، ورد القواسم على ذلك بشن هجومهم على السفينة مينرفا Minerva فى إبريل ١٨٠٨، وهى إحدى السفن التابعة للوكالة البريطانية فى البصرة وحدث ذلك الهجوم على مقربة من رأس موساندم حيث أعمل القواسم الذبح والتقتيل فى بحارتها بينما أبقوا على المسز تايلر Tyler زوجة الليفتنانت روبرت تايلر مساعد المقيم البريطانى فى بوشهر وابنها الطفل حيث لم يكن من عادة القواسم الاعتداء على النساء والأطفال، وتم بعد ذلك إطلاق سراح الأسرى ومن بينهم تلك السيدة وطفلها بعد دفع دية بلغت فى ذلك الحين ستمائة وسبعين ريالا[١]. وقد وصف أحد ضباط الأسطول البحرى التابع لحكومة بومباى أسلوب القواسم فى التخلص من ضحاياهم بقوله «إننى لا أستطيع أن أتصور كيف أن هؤلاء الناس الذين ليست القسوة من طبيعتهم أن يتخذوا الوحشية والعنف سبيلا للتخلص من أسراهم فهم يقترفون تلك الأعمال ببرود رهيب مما يضفى على العملية لونا رهيبا يتخذ أسوأ أنواع القسوة هذا على الرغم من أن عقيدتهم الدينية لا تبيح لهم تلك الأساليب العنيفة. ومن عادة هؤلاء بعد أن يستولوا على إحدى السفن أن يقوموا بغسلها بالماء ورشها بماء العطور ثم يقودون بحارتها واحدا تلو الآخر ويعلقون رأسه على فوهة المدفع ثم يبترونها وهم يكبرون باسم الله»[٢].

وكانت أخر ضحايا القواسم فى عام ١٨٠٨ السفينة داريا دولت التى كان يقودها الكابتن فلمنج Fleming، وباستيلاء القواسم على تلك السفينة اتجهت نية حكومة الهند للقضاء على القواسم قضاءاً مبرماً[٣]، وخاصة حين وصلت إلى حكومة الهند أنباء اعتداء القواسم على أحد المتطوعين لحراسة السير جون مالكولم الذى كان متوجها فى سفارة إلى البلاط الفارسى. ومما تجدر الإشارة إليه أن الكابتن سيتون الوكيل البريطانى فى مسقط قد استند على هذا الحادث لحث حكومة الهند على ضرورة اتخاذ قرار عاجل بوجوب تدخل قواتها العسكرية فى الموانى التابعة لقواسم، وكان يخشى إذا استمرت الأوضاع على ما هى عليه أن تسقط

(١) صالح العبد: مرجع سبق ذكره ص ٢١٩.
(٢) كلى: مرجع سبق ذكره جـ ١ ص ١٧٩.
(٣) السيابى: إيضاح المعالم فى تاريخ القواسم ص ٩٦.

مسقط فى أيدى القواسم. وقد عبر عن ذلك فى رسالة له إلى حكومة بومباى قال فيهـا «إنه لا يمكن لشىء سوى سرعة التـدخل أن يحول دون تدمير مـيناء مسقط تدميرا تاما ودون وقوع سكانه ومـلاحيه فى أيدى القراصنة»(١). ومما تجدر الإشارة إليه أن الأمور فى سلطنة مـسقط قد تحولت لمصلحة بريطانيا حـين قفز إلى الحكم السيد سعيد بن سلطان ١٨٠٦/١٨٥٦ على أثر اغتياله لبدر بن سيف وظهور اتجاه مـعاد للقـواسم والسعـوديين من قـبل السلطان الجـديد الذى توافقت أهدافـه مع الأهداف البريطانية، ومن ثم تمهد الطريق لتعاون وثيق بين مسقط والإنجليز، حيث أدرك سلطان مسقط أن اشتـراكه مع بريطانيا فى حملاتها المتكررة لقمع مـا اسمته بالقرصنة يمكن أن يجنى من ورائه عـدة فوائد من بينها استعادة مـا أخذه القواسم من موانى وجـزر كان يعتقـد أنها تابعة لسلطنتـه، هذا فضلا عن أن اشتـراكه مع بريطانيـا يمكّنه من اكتـساب صداقـتهـا وبالتالى يسـتطيع أن يجنى من وراء ذلك السيطرة على بعض مـقاطعات الخليج ولا سيـما جزر البحـرين التى كانت مطمع أنظاره، كما يستفيد من التأييد البريطانى ضـد مناوئيه ومقاومة الحركات الانفصالية التى كانت تهدد وحدة ممتلكاته بين الحين والآخـر. ومن ناحية أخرى فإن بريطانيا ركزت على تصويب ضربتـها ضد القواسم حماية لسلطنة مسـقط وحتى لا يتحول الحليف الذى تطمـئن إليه وهو سلطان مسـقط إلى عدو يهـدد مصالحـها فى تلك المنطقة الحيوية بالنسبة لمواصلاتها الإمبراطورية(٢).

وتـتـضح لدينا أهداف حمـلة ١٨٠٩ من التعليـمـات التى صدرت لقـائدها وينرايت Wain Wright ومسـاعـدة السياسى الكابتن دافيد سـيتون، وتتلخص تلك التعليمات فى تدمير قواعد القواسم ومنحـها للسيد سعيد سلطان مسقط، وأن تتم العمليات العسكرية دون أى احتكاك بالسعوديين(٣). كما كانت أهداف الحملة تتجه إلى فرض معاهدة استسلامية على القواسم بعد عزلهم عن السعوديين. ولذلك فإن حكومة بومباى ما فتئت تردد بأن هذه الحملة ليست موجهة ضد السعوديين ولكنها موجهـة ضد العناصر التى تهدد أمن الملاحة فى الخليج والهند وتحـترف القرصنة.

(١) كلى: مرجع سبق ذكره جـ ١ ص ١٧٤.
(٢) Bombay Govt., Selections from the Records vol. XXIV p. 180 ff.
(٣) صادق نشأت: مرجع سبق ذكره ص ١٣٣.

ولعل من أبرز أهداف الحملة أيضا تحقيق التعاون بين حكومة الهند والسلطات الفارسية، وذلك بأن يراعى الإنجليز السيادة الفارسية على السواحل الشرقية من الخليج وخاصة أن القواسم كانوا يسيطرون على بعض موانى تلك السواحل ومن بينها ميناء لنجة،أما الهدف الأخير من أهداف حملة ١٨٠٩ فكان تعرف البحرية البريطانية على أنسب جزيرة تقع فى مدخل الخليج تصلح لتأسيس قاعدة بحرية بريطانية لمراقبة الملاحة والسفن العابرة فى مياهه(١).

ومما هو جدير بالذكر أن الأوضاع المحلية فى الخليج كانت لصالح الحملة البريطانية إذ كان سلطان مسقط يعد حملة واسعة النطاق كان يهدف بها إلى التصدى للسعوديين، كما تمكن من جمع قوة كبيرة من القواسم المستائين من الشيخ حسين بن على الذى عينه السعوديون نائبا لهم على القواسم بعد خلعهم لزعيمهم الأعلى الشيخ سلطان بن صقر، وكان هؤلاء المستاءون قد دعوا سلطان مسقط للقيام بهذه الحملة وتعهدوا بمساعدته. ولا شك أن حكومة الهند وجدت فى هذه الأوضاع عاملا مساعدا لها بمعنى أنها أصبحت فى وضع يمكنها من استغلال الصراعات الداخلية بين القواسم والسعوديين وسلطنة مسقط،وذلك بإحداث ثغرة تستفيد من ورائها فى ضرب القواسم وذلك بمحالفتها لسلطنة مسقط وعزلها القواسم عن السعوديين(٢).

وطبقًا لهذه الخطة وتحقيقا لأهداف الحملة عهدت حكومة بومباى إلى الكابتن وينرايت والكولونيل سميث من ضباط البحرية البريطانية فى الهند بقيادة هذه الحملة التى خرجت من ميناء بومباى فى ١٤ سبتمبر ١٨٠٩. ويفهم من القوة الضخمة التى كانت تتشكل بها تلك الحملة مدى القوة البحرية التى كان عليها القواسم إذ كانت الحملة البريطانية تتألف من البارجة لاشيفون ذات الستة وثلاثين مدفعًا والمورنجتون ذات الثمانية والعشرين مدفعًا ومن عدة سفن عسكرية أخرى، هذا بالإضافة إلى سفينة للقذائف، كما اشترك فى هذه الحملة فرق من مدفعية

(١) صالح العابد: مرجع سبق ذكره ص ٢٣٤.

(٢) S.R.B.G. Historical Sketch of Wahabee Tribe of Arabs vol. XXIV 1795 - 1853 p. 427. SQ.

بومباى وفرق من المشاة بالإضافة إلى أربعة وخمسين ضابطا وبضع مئات من الجنود. ويذكر لوريمر أن الحملة لازمها سوء الطالع من يوم إبحارها إذ أنه قبل أن تنقضى أربع وعشرون ساعة على خروجها من بومباى سقط قاع قذيفة القنابل سترمبولى وغرقت السفينة وغرق معها ضابط من ضباط المدفعية ومعظم بحارتها بالإضافة إلى قدر كبير من الذخيرة التى كانت معدة لاستخدام الحملة[1]. وحين وصلت إلى مسقط كان السيد سعيد فى حالة ساخطة ويائسة إذ كان يرى أن الحملة أصغر من أن تقوم بالمهمة الموكلة إليها، وفى هذه المرحلة لم يعرض السيد سعيد تعاونه مع الحملة التى أرسلتها حكومة بومباى بناء على إشارته واعتماداً على مساندته[2]. ولذلك خرجت الحملة من ميناء مسقط فى نوفمبر ١٨٠٩، وبدأت تتعاون مع بعض العناصر المحلية بالإضافة إلى مجموعة من القواسم المنشقين عن السعوديين. ومما تجدر الإشارة إليه أن شيخ الكويت أبدى رغبته فى مشاركة السفن البريطانية فى هجومها على رأس الخيمة وكان يهدف بهذه المشاركة ألا تقف الكويت معزولة عن الأحداث،كما كان يرغب فى الوقت نفسه الاقتصاص من القواسم لكثرة اعتداءاتهم على سفنه وسفن رعاياه، ولكن الكابتن وينرايت رفض تلك المساعدة إذ إن الوهابيين سبق لهم أن قاموا فى عام ١٨٠٨ بهجوم فاشل على الكويت وعقب ذلك أخذوا فى تحريض القواسم ضد الكويت، ومن ثم قدر وينرايت أن اشترك الكويت فى هذه الحملة سيجر الإنجليز إلى التورط فى العلاقات الداخلية هذا فضلا عن أن تعليمات حكومة الهند كانت تنص صراحة على أن يتجنب قادة الحملة الاشتراك فى أية صراعات ينجم عنها الصدام مع السعوديين.

والأهم من ذلك أن حكومة الهند كانت تحرص على التعامل مع القواسم كقوى مستقلة عن أية تبعية. ولنفس السبب لم تقم حملة ١٨٠٩ بأى هجوم على رحمة بن جابر المنشق عن تحالف العتوب باعتباره حليفًا للسعوديين فى ذلك الوقت، فضلا عن أنه لم يهاجم أية سفنية ترفع العلم البريطانى، وحتى حين عرض شيخ الكويت على وينرايت أن يزوده بمرشدين يعرفون مداخل موانى

(١) ج. ج لوريمر: دليل الخليج جـ ٢ ص ٩٨٨.
(٢) وثائق الحكومة السعودية: انظر العرض التاريخى لمشكلة البريمى جـ ١ ص ١٢٦.

القواسم رفض قائد الحملة البريطانية ذلك العرض(١)، على أن واينرايت ندم على ذلك فيما بعد، وخاصة حين تبين له أن المرشدين الذين جاء بهم من مسقط كان لا فائدة ترجى منهم. وقد وجهت حملة ١٨٠٩ أولى هجماتها على عاصمة القواسم رأس الخيمة، وكان الشيخ حسين بن على الذى عينه الإمام السعودى نائبًا عنه فى الحكم غائبا فى موسم الحج لذلك العام. وبدأ وينرايت هجومه فى ١٢ نوفمبر ١٨٠٩ حيث دارت معركة عنيفة بين الطرفين(٢)، ودافع القواسم عن عاصمتهم دفاعًا مستميتا ولم ينسحبوا من مراكزدهم إلا بعد أن أضرم الإنجليز النيران وخلت رأس الخيمة من سكانها الذين انسحبوا إلى الداخل كما أحرق الإنجليز كل السفن التى وجدوها فى الميناء وكان يبلغ عددها أكثر من خمسين سفينة من بينها السفينة الإنجليزية مينرفا.

وتؤكد لنا الروايات المتعلقة بأنباء تلك الحملة أن الإنجليز نهبو المدينة وألحقوا كل أنواع الأذى بسكانها وأبنيتها وقامت عملية سلب كبيرة إذ دخل الجنود الإنجليز القلعة ونهبوها واستباحوها لأنفسهم(٣)، وذكرت إحدى المصادر أن كل واحد من الجنود الإنجليز زادت ثروته فى ذلك اليوم بما لا يقل عن ثلاثمائة جنيه(٤). وعلى الرغم مما حققته الحملة من انتصارات إلا أنه لم يلبث بعد ذلك أن ساد الخوف فى نفوس الإنجليز نتيجة تقدم القوات السعودية ولذلك أسرعوا إلى ظهور سفنهم واتجهت الحملة إلى الشمال قاصدة ميناء لنجة ولافت فى جزيرة قشم حيث تم لها الاستيلاء على هذين الموقعين اللذين يتبعان القواسم(٥). ومما يستلفت الانتباه أن السيد سعيد قبل الاشتراك مع الإنجليز فى تلك الحملة حيث سلم له قائد الحملة لافت ليجعلها تحت حكمه، واقترح السيد سعيد على وينرايت أن

---

(١) احمد مصفى ابو حاكمة: تاريخ الكويت جـ ١ القسم الأول ص ص ٣٢٣ / ٣٢٤.

(٢) Warden, F.,S.R.B.G. vol. XXIV p. 305 SQ. See also Low, C., History of the Indian Navy vol. I pp. 325 - 329

ومما يذكر بصدد ذلك أن حملة ١٨٠٩ قامت فى وقت لم تكن قد بدأت فيه بعد عمليات المسح البحرى للساحل العمانى.

(٣) العابد: مرجع سبق ذكره ص ص ٢٤٤ ـ ٢٤٥.

(٤) السيابى: مرجع سبق ذكره ص ١٤١.

(٥) العابد: مرجع سبق ذكره ص ص ٢٤٤ ـ ٢٤٥.

تقدم الحملة لمهاجمة كل من شيناص وخورفكان[1]. وأصبح واضحا أن السيد سعيد كان يريد استغلال الحملة الإنجليزية لتحقيق طموحه فى الخليج العربى وذلك بالتخلص من القوى المحلية المنافسة له. ولذلك طلب من وينرايت التوجه إلى خورفكان للتخلص من نفوذ الجلاهمة كذلك طلب منه القضاء على العامل الوهابى حسين بن على فى رأس الخيمة[2]، وهو من الولاة الذين عينهم الإمام السعودى فى إدارة الموانى التابعة للقواسم. ولكن وينرايت وجد أن إلحاح السيد سعيد قد يورطه فى مشكلات لا حصر لها وخاصة أن هجومه على شيناص قد ورطه بالفعل فى بعض هذه المشكلات إذ إن ذلك الميناء الذى يقع على ساحل كرمان كان قد استولى عليه السعوديون، كما كانت فارس تدعى سيادتها عليه.

ولعل مما يستلفت الانتباه أن السلطات الفارسية لم تحتج كعادتها حين وصلت الحملة البريطانية إلى شيناص إذ وجدت فيها عاملا فى القضاء على النفوذ السعودى فى ذلك الميناء[3]، بيد أن المشكلة التى واجهها وينرايت أن قلعة شيناص كانت مشيدة فى الداخل مما اضطره إلى النزول إلى البر بمعنى أن العمليات العسكرية قد انتقلت من الساحل إلى الداخل، وعى الرغم من أن القوات السعودية دافعت عن القلعة دفاعا باسلا إلا أن القائد السعودى اضطر إلى تسليم القلعة للإنجليز الذين سلموها بدورهم إلى الفرق التابعة لسلطان مسقط، ولكن يبدو أن ميناء شيناص قد دمر تماما إلى درجة أن السيد سعيد وجد من الحكمة ألا يبقى سيطرته عليه[4]. وتقرر وثائق حكومة بومباى أن عمليات التخريب فى شيناص وصلت إلى ذروتها وكان ذلك مما أدى إلى تقاعس قائد الحملة البريطانية عن مواصلة عملياته العسكرية فى خورفكان التى بقيت وغيرها من الموانى بأيدى القواسم[5]. هذا بالإضافة إلى ما أبداه السيد سعيد من تردد تجاه الهجوم على تلك

(١) Bombay Govt., op. cit., Historical Sketch of the Rise and Progress of the Govt. of Muscat vol.XXIV. p. 180SQ.

(٢) Ibid.

(٣) Brydges, Sir Harford Jones, An Account of the Transaction of a Mission to the Court of Persia to which is appended a brief History of the Wahauby p. 40.

(٤) يذكر الطبيب الإيطالى Vincenzo Maurizi أنه قاد هذه الحملة بتكليف من سلطان مسقط وعاد بها منصورا مما جعله يسمى نفسه بالشيخ منصور أو أن يكون ذلك ترجمة لاسمه الإيطالى Vincenzo انظر: Shaikh Mansour. History of Seyyed Said, p. 56.

(٥) Bombay Govt., op. cit., pp. 305 - 306.

الموانى خشيـة أن يواجه بمقاومة عنيدة من قـبل القواسم، وبانتهاء عـملية شيناص عادت الحملة البريطانية إلى بومباى[1].

وكان من أهم النتائج التى تمخضت عن حملة ١٨٠٩ تورط السيد سعيد فى صراع ضد السعوديين، وهو صراع لم ينقذه منه سوى تقدم القوات المصرية التركية إلى نجد بعـد ذلك بعامين. فـفى إبريل ١٨١٠ وصلت أنباء إلى حكومة بومـباى مفـادها أن قوات السعـوديين أصبحت قـريبة من مسـقط واستنجد السـيد سعـيد بأصدقائه الإنجليز مؤكدا لهم أن تعـاونه معهم فى حملة ١٨٠٩ قد ورطه فى نزاع مع السعوديين، ولما كانت حـكومة بومباى حذرة إزاء تعاملها مع السـعوديين فقد نصحتـه بإنهاء النزاع بينه وبينهم لأنها تعتبـر نفسها فى حالة سـلام مع السعوديين وطلبت منه أن يقبل شروطهم إن كان فى تلك الشروط مـا يتفق مع كرامة سلطته واستقلالها[2]. وهكذا أدت حملة ١٨٠٩ إلى جفوة مؤقتة فى العلاقات بين السيد سعيـد والإنجليز، تلك العلاقـات التى وصلت إلى ذروتها فى اشتراكـه فى الحملة البريطانية. وطـبقا لما ذكرته الوثائق السعـودية أن هذه الحملة كانت نتيـجة تحريض السيد سـعيد وإلحاحـه فى التخلص من القواسم وحلفائهم السـعوديين[3]. ورغم الانتصارات العسكرية التى حققتها حملة ١٨٠٩ وما ترتب عليها من تخريب معقل القواسم برأس الخيمة إلا أنها مع ذلك لم تحقق أهدافها العسكرية من حيث القضاء على القواسم قضاءاً مبرما إذ إن معظم الأسطول القـاسمى نجا من عمليات التدمير حين اختفت معظم سـفن القواسم قبل مجىء الحملة فى الخلجان الضيقـة العميقة فى الجانب الغربى من شـبه جزيرة موسانـدم، وكانت تلك الخلجان غير مـعروفة لدى الإنجليز فى ذلك الوقت. كمـا أن كثيرا من سفن القـواسم كانت فى رحلات وأسفار تجارية بـعيدة فى البحر الأحمـر وسواحل شرق إفريقيا. ورغم مـا أوقعته الحملة بالقواسم والسعوديين من أشد أنواع الهزيمة والخسائر[4]، إلا أنها مع ذلك

(١) S.R.B.G., Historical Sketch of the Arab Tribes of Wahabees. See also the Rise and Progress of the Govt. of Muscat vol. XXIV. p. 180 ff.

(٢) Bombay Govt., op. cit., The Rise and Progress of the Govt. of Muscat p. 182 SQ.

(٣) وثائق سعودية: التحكيم لتسوية النزاع الإقليمى بين مسقط وأبو ظبى وبين المملكة العربية السعودية جـ ١ ص ١٢٦.

(٤) Burchardt, Lewis, Notes on the Bedouins and Wahabys p. 206 ff.

لم تستطع الحصول عى اعتراف بالهزيمة أو على الأقل على وعد من القواسم بالكف عن عملياتهم البحرية ضد الإنجليز، وإن كانت الحملة نجحت نجاحًا كبيرًا فى توجيه ضربة للسعوديين فى شيناص وتحييدهم فى النزاع بين بريطانيا والقواسم. ولعل ذلك يتضح فى الكتاب الذى أرسله الإمام السعودى إلى المقيم البريطانى فى الخليج والذى أكد فيه أنه منع أتباعه من مهاجمة السفن البريطانية.

ولعل مما يستلفت الانتباه أنه على الرغم من أنه كان يتعين على وينرايت بعد الانتهاء من عملياته العسكرية بأن يجبر القواسم على إبرام معاهدة سلام يتعهدون فيها بالامتناع عن القيام بعمليات بحرية ضد السفن البريطانية إلا أن تلك المعاهدة لم تعقد على الإطلاق. وفى تقديرنا أن القادة الإنجليز لم يتمكنوا من عقد هذه المعاهدة مع القواسم فى أعقاب حملة ١٨٠٩ كما حدث فى أعقاب حملة ١٨٠٥ التى انتهت بعقد معاهدة ١٨٠٦، أو كما حدث فى أعقاب حملة ١٨١٩ التى انتهت بتوقيع معاهدة السلام العامة فى ١٨٢٠ لأن زعيم القواسم الشيخ سلطان بن صقر لم يكن عند قيام حملة ١٨٠٩ قائما بالسلطة وبالتالى فقد كان من العسير عقد معاهدة ملزمة للقواسم دون أن يشترك فيها الإمام السعودى اشتراكًا مباشرًا لأن السعوديين، كما سبق أن أوضحنا، استطاعوا أن يسيطروا على جميع مقاطعات القواسم بعد عزل شيخهم سلطان بن صقر[١]. ومن ناحية أخرى فقد تعذر توقيع تلك المعاهدة دون مزيد من العمليات العسكرية خاصة بعد انسحاب القواسم إلى الداخل، وكان لابد من أن تتوغل القوات البريطانية فى الداخل إلى حيث انسحبوا. وفيما يبدو أن الإنجليز اعتقدوا خطأ بعد التدمير الذى ألحقوه برأس الخيمة بأن (خطر) القواسم قد انتهى وأن ما يتعين عليهم هو اتخاذ الإجراءات الكفيلة بعدم تكرار ذلك (الخطر) فى المستقبل، وبصدد ذلك نصح المستر مانسيتى المقيم البريطانى فى البصرة حكومة الهند بأن تفرض حظرًا على تصدير الأخشاب إلى مسقط وغيرها من موانى الخليج كى تتمكن من ضرب القوى العربية البحرية[٢].

---

(١) Bombay Govt., op. cit., Historical Sketch of Arab Tribes of the Joasmee vol. XXIV. p. 304 ff.

(٢) ج. ج لوريمر: دليل الخليج جـ ٢ ص ٩٩٤.

ويؤكد بعض الباحثين بأن حملة ١٨٠٩ كانت عديمة الأثر إذ إن القواسم ظلوا محتفظين بقوتهم وكيانهم وخاصة أنهم تعقبوا قوات الحملة البريطانية وهى تسرع بالانسحاب حال وصول أخبار تقدم السعوديين بقيادة مطلق المطيرى من الداخل، كما ظلت جماعات من القواسم تتجمع طول النهار على الشاطئ تلوح بسلاحها وأعلامها وتهتف بنداءاتها[١]. ومع ذلك فقد أدى الفشل الذى تعرض له السعوديون على أيدى القوات المصرية التركية فى عام ١٨١١ إلى أن يبدى الإمام السعودى رغبته فى مسالمة مختلف القوى فى الخليج. وتذكر بعض المصادر بصدد ذلك أنه أرسل مبعوثا من قبله إلى حاكم ولاية فارستان يعرض عليه الصلح، ولما انتهى من مهمته عرج على المستر بروس الوكيل البريطانى فى مسقط حيث أبلغه رغبة الإمام السعودى فى عقد معاهده ود وصداقة بين الدولتين وأن تصبح موانى كل دولة مفتوحة للأخرى وتجرى فيما بينهما تجارة حرة، ولكن بروس رد المبعوث السعودى دون أن يعد بتوقيع تلك المعاهدة، وكان ذلك بناء عى تعليمات من حكومته، وإن كان قد حرص فى نفس الوقت أن يؤكد له مدى حرص الحكومة البريطانية على استمرار العلاقات الودية بالإمام السعودى.

وتسجل لنا الأعوام من ١٨١١ إلى ١٨١٣ تجدد نشاط القواسم البحرى حيث نجحوا فى تحطيم عدد كبير من السفن الإنجليزية والفارسية فى مينائى بندر عباس والبصرة[٢]، وبلغ من خطورة عمليات القواسم البحرية أن فكرت حكومة بومباى تفكيرا جديا فى ضرورة التفاوض معهم بيد أن هذه المحاولة لم تنجح إذ رفض القواسم أن يردوا الأسلاب التى كانوا قد استولوا عليها. وفيما يبدو أن المفاوضات بين بريطانيا والقواسم فى عام ١٨١٣ قطعت شوطا كبيرا إلى درجة وضع مشروع قول نامة أو اتفاقية بين حكومة الهند البريطانية والقواسم فى عام ١٨١٤. ويتضح من هذا المشروع أنه أعاد تأكيد معاهدة ١٨٠٦. وإن كان المشروع الجديد تميز بأنه أكثر تشددا. وربما يتضح لنا ذلك من ديباجة مشروع المعاهدة التى كانت تنص على رغبة الطرفين فى استمرار علاقات الصداقة واعتبار ما حدث فى الماضى فى طى النسيان، إلا أن بنود الاتفاقية قد ألزمت القواسم باحترام العلم

---

(١) محمد مرسى عبد الله: إمارات الساحل العمانى والدولة السعودية الأولى، ص ١٨٤.

(٢) عن تجدد نشاط القواسم وموقف البحرية الهندية راجع:

Low, History of the Indian Navy vol. I p. 337 ff.

البريطانى وعدم التصدى لأية سفينة تحمل ذلك العلم، كما يتعهد القواسم بإبقاء الموانى التابعة لهم مفتوحة للرعايا الإنجليز الذين يسمح لهم بزيارتها وممارسة حرية التجارة فيها كما يلتزم القواسم - منعًا من حدوث عدم تمييز بين سفنهم وغيرها من السفن الأخرى - برفع علم أحمر مكتوب عليه فى الوسط عبارة «لا إله إلا الله محمد رسول الله» كرمز لجنسية السفن وعنوان لتنظيم القواسم، كما يتعهد القواسم بإعادة الممتلكات البريطانية الموجودة فى رأس الخيمة وقت التوقيع على الاتفاقية. ونصت الاتفاقية المقترحة أيضا على أنه لا يجوز إلغاؤها من قبل أى من الطرفين إلا بعد إشعار الطرف الآخر بوقت كاف؛ كما نص المشروع على أن يتعهد القواسم بإنقاذ ومساعدة السفن البريطانية التى تتحطم بالقرب من موانئهم وأن يقوم القواسم بإرسال مبعوث من قبلهم إلى حكومة بومباى من أجل التوصل إلى صيغة لاتفاق أكثر شمولا بينهم وبين الحكومة البريطانية[1]. غير أنه لم يقدر لتلك الاتفاقية التنفيذ فى الوقت الذى تمادى فيه القواسم فى عملياتهم البحرية.

ويسجل تاريخ البحرية البريطانية فى الهند فى عام ١٨١٨ أضخم هجوم قام به القواسم على السفن البريطانية التى اعترضوها على مسافة ستين ميلا من بومباى؛ وكان هذا الهجوم العنيف هو الذى نبه السلطات البريطانية فى الهند إلى ضرورة وضع حد للقوة البحرية للقواسم، ونادى بعض المسئولين فى حكومة الهند بضرورة اللجوء إلى القوة العسكرية ورفض أسلوب التفاوض إذ إن ذلك الأسلوب الذى لجأت إليه حكومة بومباى يعد إضعافا لسلطة الإنجليز وخدشا للكرامة البريطانية! . ومما يستلفت الانتباه أن النشاط المتزايد للقواسم فى عام ١٨١٨ كان مرتبطا بتحطيم الدرعية على أيدى محمد على وما تبع ذلك من اندفاع السعوديين إلى سواحل الخليج حيث قام القواسم ببناء معاقل قوية على الساحل خوفا من امتداد القوات المصرية التركية إليهم[2]. ومن ناحية أخرى أتاح التقدم المصرى فى أواسط الجزيرة العربية الفرصة لبريطانيا لكى تضرب ضربتها ضد القواسم؛ وخاصة أن عملياتهم لم تعد تحت تأثير السعوديين كما كان زعماء القواسم يبررون عملياتهم البحرية فى الماضى، ولذلك رأت حكومة الهند أن الفرصة متاحة لتنسيق

---

(١) المادة الثامنة.

(٢) من أهم هذه القلاع قلعة كبيرة أقامها القواسم فى باسى دور جنوب غرب جزيرة قشم.

خططها مع سلطان مسقط ومحمد علـى للقضاء عليهم. ومما تجدر الإشارة إليه أن السيد سعيد سلطان مسقط أفاد من التقدم المصرى فى طرد السعوديين من البريمى، كما ظل فى مراسلات دائمة مع محـمد على بشأن الإجراءات المشتركة التى يمكن اتخاذها ضد الوهابيين والقواسم، وكانت الأخبار التى ترد إلى حكومة الهند تشير إلى أن إبراهيم باشا سيتمكن فى نهاية عـام ١٨١٨ من احتلال نجد والإحساء وهذا معناه حرمـان القواسم من المساعدات التى كـانوا يتحصلون عليهـا من الوهابيين، ومن ثم كـانت حكومة الهند ترى دعـوة إبراهيم باشا للاشـتراك مع بريطانـيا فى عمليات مـشتركة ضد القـواسم بأن يهاجم البريطانيون القـواسم من البحر ويغطى إبراهيم باشا الهجوم من البر. وفى ٢ يناير ١٨١٩ كتب هستنجز Hastings حاكم الهند العام إلى إبراهيم باشـا يهنئه على انتصاره فى الـدرعيه ويدعوه للقيـام بعمل مشترك ضد القواسم بمساعدة السيد سعيد سلطان مسقط، وأوفد هـستنجر من أجل ذلك الكابتن فورستر سادلر Sadlier من الفرقة السابعـة والاربعين من قوات المشاة الهندية لمقابلة إبراهيم باشا. وتحددت مهـمة سادلر فى التعرف على موقف إبراهيم باشا بالنسبة لتوسعاته على السـواحل العربية من الخليج؛ والعمل على عقد محالفة بينه وبين بريطانـيا بهدف القضاء علـى القواسم، وأن يستشف نـوايا السـيد سعيد سلطان مسقط فى مدى استـعداده للتعاون مع إبراهيم باشا من أجل ذلك[1]. وعند مقابلة سادلر للسيد سعيد فى مسـقط تبين له أن السلطان غير محبذ لفكرة التعاون مع إبراهيم باشا إذ ألمح السيد سعيد للكابتن سادلر أن حكمه قد يتعرض للخطر إذا قبل التعاون مع المصريين. ومما يسترعى الانتـباه أن السيد سعيد على الرغم من أنه هنأ إبراهيم باشا على فـتوحاته فى نجد إلا أنه سرعـان ما غير موقـفه إذ إن ظهور قائد مصرى طموح على مسرح الخليج لم يكن من الأمور التى يقبلها السيد سعيد وخاصة أنه أعقب سقوط الدرعية لجوء عدد كبير من السعوديين إلى البريمى وكانوا يرددون الروايات المفجعة عن نظام إبراهيم باشا وما أحدثه من تخريب فى عاصمة السعوديين. ومن ناحية أخرى كان السيد سعيد لا يحبذ ظهور منافس لتطلعاته فى

---

(١) جمال زكريا قاسم: الدوافع السياسية لرحلات الأوربيين إلى نجد والحجاز، من أعمال ندوة مصادر تاريخ الجزيرة العربية ـ الرياض ١٩٧٧. انظر أيضـا جاكلين بيرين: اكتشاف جزيرة العرب (مترجم) ـ بيروت ١٩٦٢، ص ص ٢٤٣ ـ ٢٤٦.

منطقة الخليج العربى وخاصة بالنسبة لجزر البحرين التى كان يطمح فى السيطرة عليها[1]. وعلى أثر ذلك ترك سادلر مسقط لاستئناف مهمته الرئيسية لمقابلة إبراهيم باشا فى الإحساء وكان مجهزا بعرض شفوى وليس كتابيا من حكومة الهند بأن تحتل القوات المصرية رأس الخيمة بعد سقوطها.[2] ولكن ما كاد سادلر يصل إلى الإحساء حتى تبين له أن إبراهيم باشا قد انسحب منها ومع ذلك فقد صمم على مقابلته حتى التقى به فى جدة، وسجل بذلك لنفسه سبقا تاريخيا باعتباره أحد الرواد الذين قطعوا الجزيرة العربية من الشرق إلى الغرب. وعلى الرغم من الصعاب والمشاكل العنيفة التى تعرض لها فى رحلته إلا أن إبراهيم باشا لم يوافق على المقترحات التى حملها حيث كانت السياسة المصرية قد اتجهت بالفعل إلى الانسحاب من الجزيرة العربية وكان محمد على حريصا على عدم الاتصال بالإنجليز فى هذه المرحلة[3].

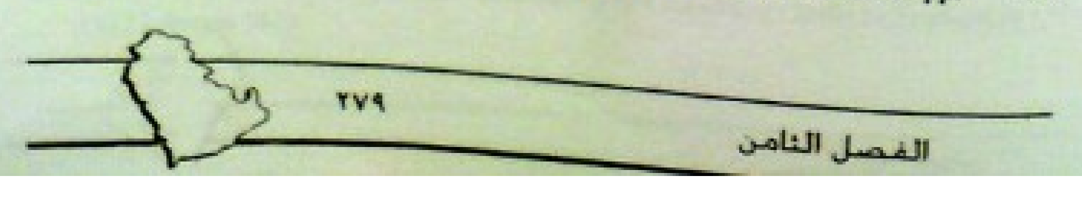
وعلى أثر فشل بعثة سادلر أخذت حكومة الهند تضع مخططا آخر كان يقوم على أن تنفرد بضرب القواسم وتدمير قوتهم، وبصدد ذلك طُرحت أمام نيفان نيبيان حاكم بومباى عدة مشروعات لاختيار واحدا منها. وكان المشروع الأول يرى الاكتفاء بتدمير قوة القواسم دون أن يعقب ذلك تدخل من قبل حكومة بومباى فى الشئون السياسية للمنطقة. أما المشروع الثانى فكان يستهدف رسم خارطة سياسية للخليج تتفق مع المصالح البريطانية. وحين عُرض هذان المشروعان على نيبيان كان أميل إلى حل وسط وهو أن يتم تدخل بريطانيا فى الشئون السياسية بطريق غير مباشر، وقصد بذلك أن تعتمد حكومة الهند على حلفاء لها لتحقيق ذلك كأن تساعد بريطانيا فارس لكى توطد سلطتها على السواحل الشرقية للخليج وتشجع السيد سعيد سلطان مسقط لكى يبسط سيطرته على السواحل العربية وكذلك مساعدته فى السيطرة على جزر البحرين من أجل دعم موارده المالية ولكى يسهم فى إنشاء قاعدة بريطانية كان قد اقترح إقامتها فى رأس الخيمة. كذلك كان مشروع

---

(١) كلى: بريطانيا والخليج جـ ١ ص ص ٢٣٩ - ٢٤٠.

(٢) صالح العابد: مرجع سبق ذكره ص ٢٩٠.

(٣) Perrin, N., Relation de la Campagne d' Ibrahim Pacha Contre les Wahabites pp. 4 - 6.



نيبيان يهدف إلى أن يعهد بحماية الساحل العربى من رأس الخيمة إلى شط العرب إلى محمد على، وعندما أرسل نيبيان مشروعه هذا إلى الحكومة العامة فى كلكتا رأت أنه أوسع مدى مما يجب ووجهت إلى هذا المشروع كثيرا من الانتقادات التى كان من أبرزها أنه يثير مشاكل سياسية معقدة مع كل من فارس والدولة العثمانية. كما أنه سيؤدى على المستوى المحلى إلى تحالف القواسم وآل خليفة لرفض سيطرة مسقط عليهم، ولذلك استقر رأى حكومة الهند على قصر تدخلها على الناحية العسكرية، وأكدت على ضرورة احترام الأوضاع السياسية السائدة فى الخليج بمعنى ألا تتدخل لصالح أحد الرؤساء إلا إذا طلب منها ذلك صراحة وحينئذ تؤيد صاحب الحق المشروع. وعلى أساس هذا المبدأ استبعد الرأى القائل بتسليم جزر البحرين إلى السيد سعيد، كما تركزت أهداف حكومة الهند على أهمية وضع أسس لحرية الملاحة فى الخليج وحق بريطانيا فى التفتيش البحرى وذلك بالاتفاق مع القبائل التى تعترف باستقلالها بشرط أن تتعهد صراحة بالكف عن أى نشاط بحرى عدائى، كما رأت حكومة الهند أفضلية جزيرة قشم عن رأس الخيمة لتكون قاعدة بريطانية[1].

ولعل من المفيد أن نشير فى هذا المقام قبل أن نعرض لحملة ١٨١٩ إلى أن التفكير فى إعداد تلك الحملة بدأ فى وقت سابق لقيامها، ويمكننا إبراز النقاط التالية باعتبارها من أهم العوامل التى ساهمت فى إخراج هذه الحملة إلى حيز الوجود وهى:

أولا: التقارير الواردة إلى حكومة الهند ومن أهمها مذكرة المستر بروس المقيم البريطانى فى الخليج وفيها يبدى قلقه الزائد من القوة البحرية والتفوق الكبير الذى بلغه القواسم، وكذلك مذكرة ويلوك Willock القائم بأعمال السفارة البريطانية فى فارس وفيها يبدى قلقه من تزايد النفوذ الروسى فى شمال فارس خاصة بعد توقيع اتفاقية جلستان ١٨١٣ التى أدت إلى انتزاع أقاليم جديدة من شمال فارس لصالح روسيا، وكان من رأيه أنه لابد من حفظ التوازن بين انجلترا وروسيا بمعنى أنه يتحتم مواجهة النفوذ الروسى فى شمال فارس بنفوذ بريطانى فى منطقة الخليج العربى وجنوب فارس. كذلك نشر وليام هود Heude أحد ضباط

(١) صلاح العقاد: التيارات السياسية فى الخليج العربى ص ص ١٠٢ ـ ١٠٣.

البحرية البريطانية فى عام ١٨١٩ انطباعاته عن رحلة قام بها إلى الخليج العربى فى عام ١٨١٧، وكان مما جاء فى كتابه «إنه لمما يخدش الكرامة الوطنية التفاوض مع مثل هؤلاء (القراصنة) الذين لا يعرفون القوانين والذين أصبحوا يشكلون خطراً على الملاحة البريطانية أكثر مما يفعله عدو الوطن الأساسى»(١).

ثانيا: انتهاء الحرب العامة فى أوربا فى عام ١٨١٥ حيث خرجت بريطانيا من الحروب النابليونية بممتلكات أكثر اتساعا وبالتالى أصبحت أكثر اهتماما بتأكيد سيطرتها على الطرق البحرية المؤدية إلى المحيط الهندى ومستعمراتها فى الشرق بما فيها الهند، المستعمرة البريطانية الكبرى.

ثالثًا: تغلب حكومة بومباى على ثورة المهراتا فى الهند. وفى تقديرنا أن نشوب هذه الثورة هى التى أدت إلى تأخير تنفيذ الحملة لأن الحرب استمرت فى ولايتى بندارى ومهراتا حتى عام ١٨١٨.

رابعًا: تحطيم الدرعية فى عام ١٨١٨ على يد إبراهيم باشا كان من أهم الأسباب التى أدت إلى تنفيذ الحملة العسكرية خاصة أن انهيار الوهابيين فى أواسط الجزيرة العربية لم يخفف من العمليات البحرية على سواحل الخليج بل إنها تصاعدت عما كانت عيه من قبل إذ كان القواسم لا يزالون فى قمة تفوقهم حتى أنهم لم يكترثوا بانهيار الدولة السعودية الأولى. وقد يكون حقيقة أن الشيخ حسن بن رحمة شيخ القواسم قد حاول فى أعقاب سقوط الدرعية تصفية المشاكل القائمة بين القواسم والإنجليز استنادا إلى المفاوضات التى سبق أن أشرنا إليها إلا أن تلك المحاولات لم تصل إلى نتائج ملموسة لأن حكومة الهند كانت فى ذلك الوقت مصممة على التخلص من القواسم.

ومما تجدر الإشارة إليه أن حكومة الهند اتجهت إلى إعداد حملة عسكرية كبيرة آخذة فى اعتبارها أن أية محاولة عسكرية لا تصل إلى ضرب القواسم فى الصميم ستكون عديمة الجدوى، ومن ثم بدأت حكومة بومباى باعتبارها الحكومة المختصة بشئون الخليج العربى، استعداداتها العسكرية منذ صيف عام ١٨١٨

(١) Heude, Avoyage up the Persian Gulf and Journey overland from India to England in 1817 London 1819.

معتمدة على تقرير استخباري وضعه الكابتن روبرت تيلر Tyler[1] عن مواقع وموارد الموانى الرئيسية للقواسم وعن حجم قوتهم القتالية وخلافاتهم السياسية وطبقا لما جاء فى تقرير تيلر أن الموانى الرئيسية الواقعة على ساحل الخليج التى تنطلق منها أعمال (القرصنة) هى رأس الخيمة والجزيرة الحمراء وأم القوين وعجمان والشارقة ودبى، وإلى الشمال ميناء الزبارة والقطيف والعقير، كما أن أبو ظبى وهى الميناء الرئيسى لبنى ياس، وموانى لنجة وخرج على الجانب الشرقى من الخليج التابعة للقواسم كانت تعتبر أيضا من الموانى التى تدخل ضمن نطاق تلك العمليات. وفى ٢٧ أكتوبر ١٨١٩ صدرت تعليمات حكومة بومباى إلى جرانت كير Keir الذى اختير لقيادة الحملة بالإقلاع إلى رأس الخيمة لتدمير أسطول القواسم وأن عليه أن يتوجه بعد ذلك إلى الشارقة فالجزيرة الحمراء وعجمان وغيرها من موانى المنطقة. وفى ١٤ سبتمبر ١٨١٩ خرجت الحملة سراً من بومباى خشية أن يصل خبر تحركها إلى القواسم. وكانت الحملة البريطانية تتكون من ثلاث سفن كبيرة الحجم من سفن البحرية البريطانية وست سفن من بحرية شركة الهند وقوة برية قوامها ثلاثة آلاف مقاتل، كما كانت تضم بعض رجال المدفعية. ومما يسترعى الانتباه مغالاة حكومة بومباى فى تشكيل قوة برية من الإنجليز والهنود وغيرهم ممن كانت تستخدمهم من العناصر الأخرى. وإلى جانب القوة البحرية والبرية للحملة اعتمدت على دعم السيد سعيد العسكرى لها حيث تشير وثائق حكومة بومباى أن السيد سعيد اشترك فى هذه الحملة بأربعة آلاف مقاتل بالإضافة إلى ثلاثة سفن حربية كبيرة الحجم[2]. وكان يهدف بذلك أن تساعده بريطانيا على تحقيق طموحه فى الخليج. وما أن وصلت الحملة إلى مسقط حتى انضم إليها بروس المقيم البريطانى فى الخليج كمستشار سياسى لقائدها جرانت كير. وفى ٣ ديسمبر هبط جنود الحملة على رأس الخيمة، وبادر القواسم من جانبهم بتعزيز وسائل دفاعهم حيث أقاموا سوراً حول مدينتهم وأخذوا يصدون الهجوم بمدافعهم

---

(١) للرجوع إلى نص التقرير راجع مختارات وثائق بومباى عدد ٢٤ التى تبدأ بهذا التقرير، انظر:
Tyler, R., Historical and Other Information Connected with Muscat and adjoining Countries S.R.B.G. pp. I-40.
ومما يذكر أن هذا التقرير كان هو الأساس الذى اعتمد عليه جرانت كير فى حملة ١٨١٩.

(٢) Bombay Govt., op. cit., vol XXIV p. 314.

ولكنهم خسروا فى هذه المعركة ما يقـرب من ألف مقاتل وجريح وكان ذلك خلال القتـال الذى استمـر ستة أيام فيـما بين ٣ و ٩ ديسمـبر ١٨١٩[١]. وقـد أورد لنا المؤرخ النجدى عثمان بن بشر وصفًا لذلك الهجوم بقوله «وفى أوائل عام ١٢٣٥هـ سار النصـارى على أهل رأس الخيمـة المعروفة فى عـمان حيث أقـبلوا فى مراكب عظيمة ومدافع هائلة وعساكر لا تحصى فبندروا فى البلد وخربوها براً وبحرا فهرب منها أهلهـا وتركوها لهم»[٢]. غيـر أن كثـيرا مـن المصادر التى تناولناها تؤكـد أن القواسم استمـاتوا فى الدفاع عن مدينتهم وتصدى للقيادة الشـيخ حسن بن رحمة وأخوه إبراهيم، وأرسل القواسم نسائهم وأطفـالهم إلى مزارع النخيل، ولكن على أثر انتـصار الحـملة البريطانيـة تقـدمت القوات المرافـقة لهـا حيث دمـرت المدينة وتحصيناتهـا وتم إنزال العلم القاسمى الأحمر ورفع مـحله العلم البريطانى واضطر شيخ القـواسم أن يعلن فى اليوم التالى رغـبته فى التـسليم بشرط ضمان سـلامة أتباعه[٣]، كما تبع ذلك استسلام الكثير من شـيوخ القبائل العربية وكان ذلك على أثر تجول الحـملة العسكرية فى موانى بلادهم. وعـلى الرغم من أن الإنجليز بادروا بتشييد قاعدة بحرية لهم فى رأس الخيمة إلا أن هذه القاعدة لم تستمر لفترة طويلة حيث ظهرت عـدة مشكلات تتعلق بإمدادات المياه وبالأمـراض المستوطنة مما اضطر الإنجليز إلى الجلاء عنها فى ٢٨ مايو ١٨٢٠ حيث سلموها للشيخ سلطان بن صقر شيخ الشارقة بعد أن تردد كير فى تسليمها إليه فى بداية الأمر.

ومما تجدر الإشارة إليه أن السيد سعيد سلطان مسقط حاول استغلال الانتصار الذى حققته الحملة البريطانية ومسـاعدته لها لكى تواصل الحملة زحفها على جزر البحرين بهدف تسليمها إليه، ولكن كير رفض تقديم تلك المساعدة لسلطان مسقط بناء على تعليمات حكومته. وكان على كير بعد هزيمته العسكرية للقواسم أن يجد نوعًا من التـسوية السيـاسية تكفل عـدم تمكن القواسم مسـتقبـلا من تهديد الأمن البحـرى فى الخليج هذا بالإضـافة إلى تقرير مـصيـر الزعمـاء والأسرى الذين تم

---

(١) للتفاصيل الخاصة بالحملة انظر:

Low, Charles, History of the Indian Navy vol. I p. 351 ff.

(٢) عثمان بن بشر: عنوان المجد فى تاريخ نجد، جـ١ ص ٢٢٣.

(٣) العابد: مرجع سبق ذكره ص ٣٢٣.

أسرهم علـى ظهر سفـينته ومن بينهم الشـيخ حسن بن رحـمة وحسـين بن على وخاصـة أن كير اكتـشف بعد بضعة أيام من اعـتقالهم انـتشار حالة الاستـياء بين القبـائل العربية التى ينتـمون إليها مما أكـد لديه أن بقاء هؤلاء الزعمـاء فى الأسر سيتحول إلى عائق سياسى أمـام تكوين علاقات بين بريطانيا وأولئك الزعماء تقوم على الثقة والتفاهم[1]. ولذلك بدأ كيـر سياسة تلطيـفية إزاء القواسم فـاستدعى الشيخ حسن بن رحمة فى يناير ١٨٢٠ وأبلغه أن سبب أسره يقوم على أساس أنه الشيخ المسئول فى رأس الخـيمة، ثم قدم له مسودة معاهدة للسـلام كان قد أعدها مع بعض معاونيـه وسوف نشير إلى هذه المعاهدة بعـد قليل. واضطر الشيخ حسن بن رحمة أن يوقع على هذه المعاهدة وفـى ذلك الوقت وصل الشيوخ البارزون إلى معـسكر كيـر بدعوة منه حيـث عرضوا عليـه استسـلامهم وصـداقتهم لـلحكومة البريطانـية، وكان من بين أولئك الرؤسـاء الشيخ سلطان بن صـقر شيخ الشـارقة والشيخ شخـبوط بن دياب والد طحنون بن شخبوط شـيخ البوفلاح فى أبو ظبى، وشيخ دبى القـاصر محـمد بن هزاع يرافـقه عمـه الأكبر؛ وكـان الهدف من هذه الدعوة التوقـيع على اتفاقيات يسلمون بموجبـها جميع السـفن التابعـة لهم باستثناء سفن الصيد، وكذلك تسليم ما قدْ يكون لديهم من أسرى. وهكذا استطاع كير أن يخطو خطوة أولى نحو عقـد تسوية عامة حيث طلب إلى كل شـيخ التوقيع على اتفاقـية منفردة كـان يهدف من ورائها أن يفـرق القبائل عن تكـتلها، وتكون هذه الاتفاقية المنفردة شرطا مسبقا لكى يتولى الشيخ مسئولياته.

وكانت هذه الاتفـاقيات تنص على تسليم المدافـع والحصون والسفن. كـما يلاحظ أن الاتفاقية التى وقعها الشيخ سلطان بن صقر لم تعترف به إلا شيخا على الشارقـة وعجـمان وأم القـوين. ووقعت هذه الاتفـاقيات بـتاريخ ٦ يناير ١٨٢٠ بالنسبة لشيخ الشارقة، وفى ٨ يناير ١٨٢٠ مع شيخ خط وفلاحية، وشيخ دبى فى ٩ يناير ١٨٢٠، وشـيخ أبـو ظبى فى ١١ يناير ١٨٢٠، وشـيـخ رمـس فى ١٨ يـنايـر ١٨٢٠، ثم أدمجـت هـذه الاتفـاقـيـات جمـيعـهـا فى معـاهـدة عـامـة وقـعـهـا الشيـوخ فى ٢١ يـنـايـر ١٨٢٠ وتـرك فيها البـاب مفتوحا لبقية الشيوخ

---

(١) حول النتائج السياسية لحملة ١٨١٩ راجع تقرير كمبال:

Observation on the Past Policy of the British Govt. Towards Arab Tribes, S.R.B.G. vol. XXIV p. 61 ff.

والرؤساء للدخول فيها. ونصت ديباجة المعاهدة طبقا للترجمة العربية على النحو التالى[1]:

«الحمد لله الذى جعل الصلح خيرا للأنام. وبعد فقد صار الصلح الدائم بين دولة سركار الانكريز وبين طوائف العربية المشروطين على هذه الشروط». وقد نصت المعاهدة على ما يأتى:

أولا: أن تكف جميع الأطراف المتعاقدة عن مزاولة النهب والغارات فى البر والبحر بصفة دائمة.

ثانيا: كل عمل من أعمال السلب أو القرصنة الذى يرتكب بصفة فردية يعتبر ضارا بالإنسانية مادامت لا توجد أية حروب معلنة بين الدول.

ثالثا: تلتزم السفن التابعة للعرب الأصدقاء برفع علم أحمر يكون رمزا على جنسيتها، ولا يجوز استعمال شعار آخر غيره.

رابعا: ألا تحارب القبائل العربية بعضها بعضا.

خامسا: يجب على السفن العربية أن تكون مزودة بورقة موقعة من رئيس المنطقة التابعة لها يسجل فيها اسم المالك وحجم السفينة وأسماء بحارتها ويعين فيها ميناء الخروج وميناء الوصول.

سادسا: إذا رغب الرؤساء العرب فى إرسال ممثلين عنهم بهذه الورقة إلى المقيم العام فى الخليج لتوقيعها جاز لهم ذلك تسهيلا لدخولهم الموانى ولعمليات التفتيش على أنه يشترط عرض هذه الأوراق على المقيم البريطانى سنويًا.

سابعا: إذا لم تكف قبيلة من القبائل عن القرصنة وجب على القبائل الأخرى أن تجتمع للتباحث فى عمل مشترك ضدها ويمكن إشراك الحكومة البريطانية وقت وقوع الحرب وفى توقيع العقوبة على القبيلة المذنبة.

---

(1) Treaties & Undertakings between the British Government and the Trucial Chiefs. Government of India (Dept. of State) Calcutta 1906.



ثامنا: إن قتل الأسرى - بعد تسليم اسلحتهم - يعد عملا من اعمال السلب كما يعتبر خرقا لمعاهدة الصلح.

تاسعا: إن نهب الرقيق من الساحل الشرقى لإفريقيا يعتبر عملا من أعمال القرصنة ويجب على العرب الكف عن ذلك(١).

عاشرا: تستطيع السفن العربية التى تحمل العلم الخاص بها الدخول فى الموانى التابعة لبريطانيا وكذلك موانى حلفائها والتجارة فيها بكل حرية وأمان وإذا هوجمت إحدى تلك السفن فإن الحكومة البريطانية تأخذ ذلك بعين الاعتبار.

حادى عشر: تعتبر جميع الشروط المذكورة سابقا شروطا عامة ويجوز لمن شاء من الرؤساء الآخرين الذين لم يوقعوا عليها الدخول فيها بنفس الطريق التى انضم بها الرؤساء العرب الموقعين عليها.

ومما تجدر الإشارة إليه أن شيخى البحرين انضما إلى تلك المعاهدة حيث أرسلا مبعوثا من قبلهما وهو السيد عبد الجليل إلى الشارقة فى ٥ فبراير ١٨٢٠ ثم وقع بعد ذلك شيخا البحرين سلمان وعبد الله بن أحمد على المعاهدة فى البحرين فى ٢٣ فبراير ١٨٢٠.

والمهم أنه على أثر توقيع الشيخ حسن بن رحمة على معاهدة السلام العامة بادر كير بعزله من مشيخة القواسم وأسند الزعامة إلى الشيخ سلطان بن صقر(٢). على أنه اتجه إلى تقليل سلطته حيث منح كلا من شيخ عجمان وشيخ أم القوين اللذين استقبلهما على ظهر سفينته الحربية ليفربول فى ٢٣ فبراير ١٨٢٠ حق الدخول فى هذه المعاهدة، ولذلك مغزى هام لأنه حينما سمح لسلطان بن صقر بالتوقيع على المعاهدة المذكورة أصر طبقا لما كان قد اتفق عليه ضمنا فى الاتفاقية التمهيدية على أن الشيخ راشد بن حمد شيخ عجمان وعبد الله بن راشد شيخ أم

---

(١) أدخلت هذه المادة على معاهدة ١٨٢٠ بطلب من الكابتن طمبسون Thompson الذى أصبح فيما بعد داعية من دعاة منع الرق وكانت هذه المادة نصراً سياسياً لبريطانيا لأن الرقيق هم الذين كانوا يقاومون النفوذ البريطانى. وقد ذكر أحد الباحثين المحليين أن عبيد القواسم كانوا يقاومون بريطانيا أكثر من غيرهم انظر السيابى: مرجع سبق ذكره ص ص ١٦٠/١٦١.

(٢) كان الشيخ سلطان بن صقر فى ذلك الوقت حاكما على الشارقة وضم له كير رأس الخيمة فى عام ١٨٢٠ ولسنا نعرف عما إذا كان قد أقام فى رأس الخيمة أو ظل مقيما فى الشارقة فحتى وفاته فى عام ١٨٦٦ كان يطلق عليه شيخ الشارقة وأحيانا شيخ رأس الخيمة دون تمييز بين المدينتين وإن كان من الواضح أنه اضطر نظرا لأعمال التخريب التى تعرضت لها رأس الخيمة من جراء الحملات العسكرية عليها إلى جعل مركز حكمه فى الشارقة.

القوين هما من رعاياه وبأنه يوقع معاهدة السلام نيابة عنهما، ولكن كير بعد أن أمعن التفكير قرر أنه من الأصوب وضع حدود لمطالب الزعيم القاسمى فى المنطقة وذلك بالاعتراف بالشيخين الآخرين كحكام مستقلين. ولا شك أن ذلك التفكير كان بعيد النظر لأنه يضمن الحيلولة دون انبعاث جديد للاتحاد القاسمى وذلك بتحطيم سلطة الزعيم الأعلى السياسية على بقية الشيوخ والاعتراف بهم كقوى مستقلة وبذلك لا يواجه الإنجليز أخطارا من جراء وجود قوة متحدة تستطيع فى وقت ما أن تنفض عنها آثار الهزيمة العسكرية والسياسية. وعلى الرغم من أن الشيخ سلطان ظل يعتبر عجمان وأم القوين تابعتين له إلا أنه لم يلبث أن أعلن تنازله عن السيادة عن هاتين المشيختين فى عام ١٨٣٢. وهكذا ترتب على انهيار الاتحاد القاسمى ظهور مشيخات صغيرة مستقلة وكل شيخ أصبح ينظر إلى بريطانيا على أنها دعامة حكمه وبذلك نجحت سياسة كير فى تحقيق وضمان الهيبة البريطانية بإيجاد أنصار لصالحها دون أن يكلفها ذلك جهودا أو نفقات مالية[1].

يتضح مما سبق أن معاهدة السلام العامة فرضت من جانب واحد وهو الجانب المنتصر فى الحرب ولم يكن الطرف الآخر التى تحطمت قوته بتدمير ومصادرة سفنه وفقدان حلفائه السعوديين سوى الإذعان[2]. ومن ناحية أخرى قام جرانت كير بعزل الشيخ حسن بن رحمة شيخ القواسم على أثر توقيعه المعاهدة إذ إن عزله دون التوقيع عليها قد يضعف من تأثير تلك المعاهدة على القواسم، والأخطر من ذلك معاملة كير للشيوخ كقوى مستقلة بصرف النظر عن تبعيتهم للشيخ الأعلى للقواسم، وكان لذلك أثره الواضح فى تحطيم الزعامة القاسمية حتى أن ديباجة المعاهدة قد ركزت على هذه النقطة بالذات إذ أنها لم تشر إلى كون المعاهدة بين الإنجليز والقواسم كما كان الأمر كذلك فى معاهدة ١٨٠٦ وإنما نصت على كونها معاهدة بين الإنجليز وبين الأقوام العربية الذين هم أطراف فى هذه المعاهدة.

---

(١) جمال زكريا قاسم: الأسس التاريخية لوحدة الإمارات العربية ودور الاستعمار فى تجزئتها - بيروت، مارس ١٩٨١.

(٢) يرجع سانجر نجاح كير فى إبرام تلك المعاهدة إلى فقدان القواسم تأييد السعوديين لهم بعد سقوط عاصمتهم الدرعية على يد إبراهيم باشا فى عام ١٨١٨.

Sanger, R., The Arabian Peninsula, New York 1954 p. 172.

وثمة ما يسترعى الانتباه أن حكومة الهند لم تكن تنوى أصلا بإيفادها لحملة ١٨١٩ الدخول فى اتفاقيات أو معاهدات مع الرؤساء البحريين فى الساحل العمانى وإنما كانت تهدف إلى القبض عليهم وإزالتهم من المناطق التى يحكمونها. ولكن كير أثناء قيامه بالحملة تعذر عليه عمليا تنفيذ تعليمات حكومته إذ فر أولئك الرؤساء إلى الداخل، ولما كانت التعليمات المعطاة له تشترط قصر الحملة على المناطق الساحلية وجد كير أنه من المستحسن إزاء ذلك أن يصدر عفوا عن الرؤساء وتشجيعهم على العودة إلى بلادهم على أساس التحالف مع الحكومة البريطانية ومصادقتها، وقد أثبتت هذه السياسة نجاحا كبيرا وليس أدل على ذلك من أن معاهدة ١٨٢٠ التى استهدفت القضاء على القرصنة فى المجال الأول أصبحت هى الدعامة القوية للنفوذ البريطانى فى الساحل الجنوبى للخليج العربى وجعلت من أعداء بريطانيا السابقين أطوع حلفائها، كما ساعدت فى الوقت نفسه على تأمين الملاحة والتجارة للسفن البريطانية، ومن ثم اعتبرت هذه المعاهدة بداية للسيطرة البريطانية النافذة على عرب الخليج[1]. ومع ذلك فإن حكومة بومباى لم تتقبل إجراءات كير الدبلوماسية تقبلا حسنا كما لم تنظر إلى جهوده بعين الاعتبار حتى أنه وجد صعوبة كبيرة فى الحصول على تصديق من حكومته على تلك المعاهدة حيث أبدت حكومة بومباى الاعتراضات على إجراءاته السياسية التى وجدت أنها مخالفة لتعليماتها والتى يمكن أن نوضحها فيما يلى:

أولا: اتهمت حكومة بومباى كير بتقديم تنازلات كثيرة للرؤساء ومن ذلك أن المعاهدة لم تنص على تحديد عقوبات على الذين يبحرون بدون تصاريح أو المشتغلين بالقرصنة وتجارة الرقيق أو الذين يقومون بقتل الأسرى؛ كما أبدت شكوكها فى مدى فاعلية التنظيمات البحرية التى وضعها كير وخاصة أنه لم يكن فى المعاهدة نص يلزم المتعاقدين بهدم القلاع وعدم بناء الجديد منها، كما ليس فيها ما يحدد عدد السفن التى يجوز للرؤساء امتلاكها وليس فيها أيضا ما يمنعهم من استيراد الأخشاب اللازمة لبناء سفن جديدة.

---

(1) Ireland, Philip, op. cit., p. 33.
See also Whigham, The Persian Problem p. 82.

ثانيا: وجهت حكومة بومباى اللوم إلى كير لأنه أفرج عن الزعماء الذين وقعوا فى الأسر وأبقى بعضهم على الرئاسة وإن كان الفينستون حاكم بومباى قدر الاعتبارات الإنسانية التى دفعت كير لهذا التصرف.

ومما تجدر الإشارة إليه أن كير بذل جهودا كبيرة لإقناع حكومته بضرورة التصديق على تلك المعاهدة حتى لا يظهر أمام الرؤساء العرب بعدم احترامه لتعهداته معهم. ومما يذكر أيضا أن هذه المعاهدة أثارت انتقادات السيد سعيد سلطان مسقط الذى غضب من استدعاء كير للرؤساء وتوقيع المعاهدة معهم، وغادر معسكر كير قبل التوقيع النهائى على المعاهدة العامة لما اعتبره تساهلا من كير تجاه القواسم. وكان ما يعنى كير بطبيعة الحال أن يدافع عن معاهدته أمام حكومته، وسجل فى ذلك براعة فائقة إذ استطاع بعد وصوله إلى بومباى إقناع حكومته بالتصديق عليها وذلك بعد أن استخدم مجموعة من الحجج المنطقية لتفنيد اعتراضات حكومة بومباى والتى يمكن أن نتخير منها النقاط التالية:

أولا: أكد كير للمسئولين فى حكومة بومباى أن جميع الزعماء فيما عدا حسين بن على قد حضروا إليه برغبتهم وأعلنوا ولاءهم لبريطانيا غير أنهم لم يكونوا ليفعلوا ذلك إذا علموا مسبقا بالقيود البحرية التى تحاول حكومة الهند فرضها فيما يتعلق بتحديد عدد السفن وأحجامها أو حق السفن البريطانية فى مصادرتها.

ثانيا: أنه وجد من الحكمة إطلاق سراح الشيوخ لأنه كان يخشى - وكثيرون منهم يعانون من المرض والجراح - موتهم وهم فى قبضة القوات البريطانية إذ إن ذلك كان سيترك انطباعا سيئا لدى سكان المنطقة.

ثالثا: إن سياسته المعتدلة فى معاملة الأسرى أدت إلى استسلام الرؤساء طواعية له ولو طبق إجراءات عنيفة فإنهم كانوا سيرفضون التسليم بطبيعة الحال وهذا من شأنه أن تتحرك القوات البريطانية إلى الداخل حيث فر كثير من الزعماء، ولما كان القبض عليهم يتطلب تتبعهم فى المناطق التى فروا إليها فإن ذلك يعد مخالفا للتعليمات الخاصة بالحملة والتى كانت تنص صراحة على تجنب الابتعاد عن المنطقة الساحلية بينما كان عفوه عن الرؤساء حافزا لهم على العودة إلى بلادهم من تلقاء أنفسهم ومساعدا على خلق جو من الثقة والتفاهم بينه وبينهم.

رابعا: أنه حتى ولو حاول استبدال بعض أولئك الشيوخ بغيرهم فإن ذلك سوف يلزم بريطانيا بحمايتهم وبالتالى إلى مزيد من التدخل فى المنطقة، وذكر أنه لم يستثن من ذلك سوى خلعه للشيخ حسن بن رحمة وتسليمه زعامة القواسم بعد تقليص نفوذهم إلى سلطان بن صقر، وكانت حجته فى ذلك أن سلطان بن صقر سوف يظل مدينا لبريطانيا باسترداد مكانته.

خامسا: إن بقاء وحدات بحرية بريطانية بصفة دائمة فى الخليج هو الضمان الأمثل لتنفيذ شروط المعاهدة وأشد أثرا من النصوص التى تكتب على ورق لتحديد العقوبات القانونية، فضلا عن أن المقصود بالشروط الإنسانية فى المعاهدة هو مساعدة سكان المنطقة على فهم المبادئ العامة لقوانين الملاحة الدولية، ولا ينبغى أن تنتظر منهم تغيير عادتهم أو سلوكهم دفعة واحدة وإنما يمكن أن يحدث التحسن تدريجيا.

سادسا: إن النص على تحديد عدد السفن التى يجوز للرؤساء امتلاكها وكذلك تحديد حجمها أمر لا يفيد بشىء لأنه من الأفضل ترك المقدار اللازم من السفن التى تحمى به كل قبيلة نفسها، وليست أكبر السفن هى أصلحها للقرصنة! وطلب كير تزكية معاهدته لدى الحاكم العام وأنه فى وسع حكومة بومباى أن تفرض ما تشاء من إجراءات بحرية فى أى وقت آخر[1].

سابعا: من الأقرب إلى المنطق أن تقوم حكومة بومباى بمنع تصدير الأخشاب لعرب المنطقة لا أن تنص المعاهدة على أن يلتزم العرب أنفسهم بالامتناع عن استيرادها.

وقد ثبت فيما بعد أن آراء كير كانت أدعى إلى نجاح السياسة البريطانية وأصبحت هذه المعاهدة التى وضعت أساسا لمنع القرصنة دعامة للنفوذ البريطانى فى منطقة الخليج العربى[2].

---

(١) صلاح العقاد: التيارات السياسية فى الخليج العربى ص ص ١٠٧/١٠٨. وكذلك ج. كلى: بريطانيا والخليج جـ ١ ص ص ٢٦١ ـ ٢٦٣.

(٢) Barlett, Moyse, The Pirates of Trucial Oman p. 110 SQ.

وقبل أن نصل إلى ختام هذا الفصل ينبغى أن نشير إلى أنه كان من أبرز الأحداث المصاحبة لحملة ١٨١٩ نشوب حرب فى السواحل الجنوبية لمنطقة العمليات العسكرية قام بها أفراد من قبيلة آل بوعلى، وهى إحدى القبائل التى تقطن منطقة جعلان وتعتنق المبادئ الوهابية. وقد بدأت الاشتباكات بين القوات البريطانية وقبيلة البوعلى على أثر قتل البوعلى مبعوثا أرسله الكابتن طومبسن القائد العسكرى فى جزيرة قشم حين ذهب للتفاوض معهم بسبب حادثة من حوادث التعدى على إحدى السفن. وسرعان ما تحالف السيد سعيد مع الإنجليز حيث قام الفريقان بهجوم مشترك على عاصمة البوعلى فيما وراء ميناء صور إذ رسمت الخطة العسكرية على أساس تحرك قوات السيد سعيد برا إلى جعلان فى الوقت الذى تتحرك فيه القوات البحرية التابعة لطومبسن من البحر ويلتقى الفريقان فى ميناء صور. ولكن كانت النتيجة كارثة رهيبة أبيدت فيها إحدى الفرق التابعة للإنجليز ووقع جنود السيد سعيد بين قتيل وجريح وأسير. وقد احتوت رسائل طومبسن الخاصة على وصف دقيق ومثير لأحوال الفريقين إبان المعارك الناشبة[1]. وقد بادرت حكومة الهند بعزل طومبسن وأرسلت حملة إلى صور يقودها الكابتن سميث الذى كانت له خبرة سابقة فى قتال رأس الخيمة فى حملة ١٨٠٩، ورغم خسائر الإنجليز إلا أن قبيلة البوعلى لم تلبث أن استسلمت وبادر الإنجليز بنفى عدد كبير من زعمائها إلى الهند. وهكذا استطاعت بريطانيا أن تسترد هيبتها التى اكتسبتها فى حملة ١٨١٩ على القواسم، ومن ثم كانت حريصة على ألا تعرض تلك الهيبة للضعف حتى ولو كان ذلك على حساب البوعلى الذين دافعوا عن أراضيهم دفاعا مستميتا.

(١) سجلت الوثائق المصرية هذه الحملة إذ أصبح اهتمام محمد على واضحا بما يحدث فى سواحل الخليج منذ عام ١٨٢٠، انظر مكاتبة صادرة من محمد على إلى الصدر الأعظم حول التحركات الإنجليزية فى سواحل الخليج والجزيرة العربية ١٥ يونية ١٨٢١ ـ ملف الحجاز ١٢٣٦ هـ.



اتفاقيات الهدنة البحرية
وتدعيم النفوذ البريطانى فى
الساحل الجنوبى للخليج العربى

الإجراءات البحرية البريطانية فى أعقاب معاهدة ١٨٢٠ - عمليات المسح البحرى - القاعدة البحرية في باسى دور - القوة البحرية المتجولة - الوكالة السياسية فى الخليج - انفصال البوفلاسة عن بنى ياس - فشل محاولات القبيسات فى الانفصال - اشتباكات الغوص وتوقيع الهدنة البحرية الأولى ١٨٣٥ - استمرار نظام الهدنة البحرية ١٨٤٣ - الهدنة البحرية الدائمة ١٨٥٣:

أطلقت بريطانيا على الرؤساء الذين اشتركوا فى توقيع معاهدة ١٨٢٠ اسم الرؤساء البحريين وهى تسمية تمسكت بها بريطانيا فى معظم سنوات سيطرتها على المنطقة وكانت تهدف من ورائها إلى عزل الساحل عن الداخل فى الوقت الذى كانت تعنى فيه بتدعيم سيطرتها البحرية، وإن كان من الطبيعى أن تتجه إلى التخلى عن هذه السياسة على أثر اكتشاف موارد النفط فى الداخل وقدرتها على السيطرة الداخلية بفضل تقدم سلاح الطيران الجوى وقد استخدم ذلك السلاح بالفعل منذ الثلاثينيات من هذا القرن. وعلى أية حال فقد عرف الساحل الجنوبى للخليج العربى باسم ساحل الصلح البحرى ثم أطلق عليه بعد ذلك اسم الساحل المهادن أو المتهادن أو ساحل الهدنة البحرية Trucial Coast[(١)]. بينما كان يعرف قبل ذلك فى الخرائط الجغرافية الأوربية التى صدرت فى القرن الثامن عشر بساحل القرصان Pirate Coast أو ساحل عمان وكانت تمتد حدود هذا الساحل من رأس موساندم جنوبا إلى شبه جزيرة قطر شمالا[(٢)].

وعلى الرغم مما حققته معاهدة ١٨٢٠ من نجاح للسياسة البريطانية إلا أن تلك المعاهدة لم تستطع أن توقف تماما النشاط البحرى لـلقبائل العربية دفعة واحدة

---

(١) استخدم هذا اللفظ لأول مرة فى التقرير السنوى للمقيم البريطانى فى الخليج العربى الكولونيل روس Ross فى عام ١٨٧٥ وظلت هذه التسمية قائمة حتى انتهاء الوجود العسكرى البريطانى وقيام دولة الإمارات العربية المتحدة فى عام ١٩٧١.

(٢) F.O. Persian Gulf No. 67 London 1920, p. 44.

وإنما استمرت العمليات البحرية قائمة بصورة أو بأخرى وإن كانت عموما على نطاق أضيق عما كانت عليه من قبل. ولكن المهم أن الحكومة البريطانية اعتمدت على معاهدة ١٨٢٠ فى تثبيت نفوذها هذا بالإضافة إلى نجاحها فى عقد سلسلة من المهادنات البحرية بين شيوخ الساحل. وقد يكون من المفيد قبل أن نعرض لتلك المهادنات أن نشير إلى العديد من الإجراءات البحرية التى اتخذتها حكومة الهند البريطانية لفرض ما اسمته بالسلام البريطانى Pax Britannica، ويمكن إبراز تلك الإجراءات على النحو التالى:

أولا: عمليات المسح البحرى:

على الرغم من أن عمليات المسح البحرى بدأت منذ عام ١٨١١ إلا أنها اطردت بعد حملة ١٨١٩ وأسهم فيها كثير من ضباط البحرية الهندية من أمثال مونهان وجينى وبروكس وهينز، وكانت عمليات المسح هذه صعبة وشاقة حتى أن عدداً كبيراً من البريطانيين الذين اشتركوا فيها ماتوا أو انهارت صحتهم بسبب الإرهاق وقسوة المناخ[١]. وقد استهدفت عمليات المسح البحرى الساحل البحرى من رأس موساندم إلى شبه جزيرة قطر بالإضافة إلى خليج عمان وساحل مكران. وبتقدم عمليات المسح اتضح وجود مئات من الخلجان الصغيرة التى تضمها المنطقة الواقعة بين رأس موساندم ورأس الخيمة وفى هذه الخلجان أو الصخور الضيقة والتى كانت مجهولة لدى الإنجليز كانت سفن القواسم تكمن فى انتظار ضحاياها من السفن التجارية التى تعبر مضيق هرمز. ومن أهم تلك الخلجان خور الشعم الذى سمى بخليج الفنستون Elphinston نسبة إلى حاكم بومباى، وقد استمرت عمليات المسح البحرى حتى آخر شبه جزيرة قطر، ولقى رجال المسح مساعدات من بعض الشيوخ وخاصة من الشيخ طحنون بن شخبوط شيخ أبو ظبى، وعلى الرغم من بعض الأخطاء أو السقطات بسبب عدم توافر المعدات والأجهزة العلمية

---

(١) سجل الكابتن بروكس وصفا تفصيليا لعمليات المسح البحرى وقد احتلت دراسته أكثر من مائة صفحة فى وثائق حكومة بومباى انظر:
Navigation of memoir descriptive of navigation of the Gulf of Persia pp. 531 - 634.
راجع أيضا ويلسن (ارنولد): تاريخ الخليج ص ١٩٠ وما بعدها.

وما وقع من أخطاء فى حساب دائرة خط الطول لبوشهر التى اعتمدت عليها أرقام خطوط الطول فى المنطقة فإن عملية المسح كما يقول المؤرخ البريطانى جون كلى كانت تعد إنجازا عظيما ومفخرة لمهارة وصبر رجال وضباط البحرية البريطانية[1]. وإن كنا نعتقد أنها كانت من أهم الأسباب التى أدت إلى القضاء على القوة البحرية للقواسم بعد أن تعرفت عمليات المسح على طبيعة الساحل الطبوغرافية والمواقع الدفاعية والهجومية التى كانت تتحصن بها السفن العربية.

ثانيا: بناء قاعدة بحرية بريطانية فى باسى دور:

كان من بين أهداف حملة ١٨١٩ إنشاء قاعدة بريطانية فى الخليج، وكان الاتجاه إلى إنشاء تلك القاعدة فى موقع يشرف على خليج هرمز حتى تتمكن من مراقبة السفن القادمة أو المغادرة. وكانت هناك جزيرتان صغيرتان يمكن اتخاذ إحداهما مقراً لتلك القاعدة وهما جزيرة هنجام وجزيرة قشم، ومما يذكر أن السيد سعيد سلطان مسقط كان يسيطر على الجزيرة الأخيرة حيث كان يعين الولاة عليها باعتبارها تابعة لبندر عباس، وكان لمسقط حق إدارة ذلك الميناء منذ أيام سلطان بن أحمد[2]. ولذلك لم تجد حكومة الهند البريطانية صعوبة كبيرة فى إنشاء تلك القاعدة بحكم صداقتها لسلطان مسقط وخاصة بعد أن ثبت عدم ملاءمة رأس الخيمة من الناحية المناخية، وبسبب عمليات التدمير التى لحقتها لإقامة قاعدة عسكرية بحرية. وعلى الرغم من أن حكومة الهند استفادت بالفعل من سيطرة السيد سعيد على تلك الجزيرة وحصلت منه على إذن كتابى بإنشاء تلك القاعدة إلا أن معارضة الحكومة الفارسية أجبرت بريطانيا على إخلائها[3]. إذ لم تشأ الحكومة البريطانية فى هذه الحقبة معارضة الحكومة الفارسية ولذلك قررت الانسحاب منها فى عام ١٨٢٢، وبررت حكومة بومباى انسحابها أمام الحاكم العام للهند بقولها

---

(١) كلى: بريطانيا والخليج جـ ١ ص ٣٢٣.

(٢) للتعرف على السيادة العمانية على بندر عباس وتوابعها انظر:

Curzon, G.N., Persia and the Persian Question vol. II London 1892. p. 423. See also Sykes, op. cit., vol. II p. 456.

(٣) Adamyiat, F., Bahrein Islands p. 40.

«إن الانسحاب من جزيرة قشم وإن كان سيسبب ضرراً محدداً وهو تخفيف الإشراف على الملاحة فى الخليج فإنه سيجنبنا ضرراً أشد وهو الوقوع فى نزاع مسلح مع فارس»[1].

ثالثا: القوة البحرية المتجولة:

لجأت بريطانيا بعد انسحابها من جزيرة قشم إلى الاستعاضة عن القاعدة البحرية بأسلوب آخر لمراقبة الملاحة فى الخليج وهو مشروع تقدم به ماريتون مساعد قائد البحرية البريطانية، ويقضى هذا المشروع الذى وافقت عليه حكومة بومباى بتخصيص ست سفن حربية للقيام بدوريات مستمرة فى مياه الخليج، وعرف هذا النظام باسم نظام القوة البحرية المتجولة. ولا شك أن حكومة بومباى قد وجدت أنه لتحقيق الاستقرار والأمن البحرى فى الساحل الجنوبى للخليج العربى ينبغى الاعتماد على دوريات منتظمة تقوم بها قطع من أسطول البحرية البريطانية حتى يمكنها الاحتفاظ بالمكاسب التى حققتها والتى كلفتها الكثير من الأرواح والأموال. ومن أجل ذلك خصصت البحرية الهندية ستة طرادات لعمليات المراقبة، اتخذت ثلاثة طرادات منها جزيرة قيس قاعدة لها ورابطت بصفة مستمرة فيها، أما الطرادات الثلاثة المتبقية فقد كان عليها أن تتعقب كلها أو بعضها مسار السفن العابرة من مسقط إلى البصرة وبالعكس بهدف حمايتها، وكذلك حماية البريد والبعثات البريطانية التى كانت تتجه إلى البلاط الفارسى، كما كان عليها أيضا مراقبة خطوط المواصلات البحرية المتجهة إلى بومباى.

وأمام الغموض الذى كان يكتنف تطبيق مواد معاهدة ١٨٢٠ ومن بينها هل يجوز للسلطات البريطانية التفتيش على السفن التى ماتزال فى مرحلة التصميم ومصادرتها أو تدميرها إذا لم تكن طبقا للمواصفات المطلوبة، وهل من حقها احتجاز أية سفينة مادامت لا تحمل الأوراق الخاصة بها أو لا ترفع العلم الذى اتفق عليه؟[2]، صدرت التعليمات لضباط القوة البحرية المتجولة بعدم إيقاف أية سفينة مالم يشتبهوا فى هويتها أما إذا امتنعت سفينة من السفن عن إبراز هويتها فيمكنهم

---

(١) صلاح العقاد: مرجع سبق ذكره ص ١٠٨.

(٢) ج. ج لوريمر: دليل الخليج جـ ٢ ص ص ١٠٣٢ ـ ١٠٣٤.

فى هذه الحالة إطلاق رصاصة تحذير، وهكذا أجازت بريطانيا لنفسها استنادا على المعاهدة العامة الحق فى التفتيش البحرى وهو أجراء توسعت فيه بريطانيا وأدى بدوره إلى القضاء على النشاط البحرى للقوى العربية، إذ كان السهل على سفن الأسطول البريطانى أن تستوقف أية سفينة بحجة الاشتباه فى حمولتها، ومن ثم فقد اتخذت بريطانيا من أسلوب التفتيش وسيلة لفرض سيطرتها. وكان من بين التعليمات التى أصدرتها حكومة بومباى ألا يسمح لأية سفينة تشترك المشيخة التابعة لها فى معاهدة الصلح العامة ولا ترفع الأعلام المميزة المتفق عليها أن تزور موانى الهند البريطانية. إذ إن المادة العاشرة من معاهدة الصلح لا توفر الحماية البريطانية للسفن العربية ضد أى اعتداء يقع عليها من قبيلة غير موقعة على الاتفاقية إلا فى موانى الهند البريطانية دون سواها[1].

ومما تجدر الإشارة إليه أن كثيرا من شيوخ الساحل قد طلبوا من الحكومة البريطانية أن تضع لهم تفسيرا لمواد المعاهدة العمومية التى كانت غير مفهومة لهم، ولعل ذلك ما دفع بريطانيا إلى إيفاد الكابتن ما كلويد لزيارة الشيوخ وشرح المعاهدة لهم كما سنشير إلى ذلك بعد قليل.

الوكالة السياسية فى الخليج

اتجهت حكومة بومباى فى أعقاب توقيع معاهدة السلام العامة فى عام ١٨٢٠ إلى إنشاء وكالة سياسية فى الخليج العربى وقامت بتعيين الكابتن طومبسون Thompson وكيلا سياسيا. وكانت هذه هى المرة الأولى التى ظهرت فيها صفة سياسية توصيفا لوكالة إنجليزية فى الخليج. وتحددت مهمة الوكيل السياسى فى الإشراف على علاقات الشيوخ المتصالحين بحكومة بومباى وتنظيم تلك العلاقات وكذلك إبداء الرأى فى الشئون المتعلقة بتفسير نصوص معاهدة السلام العامة. ومما يسترعى الانتباه أن هذا المنصب لم يستمر فترة طويلة إذ خشيت حكومة بومباى من أن يتجاوز الضباط المفوضون بشئون سياسية صلاحياتهم، ولعل مشكلة الكابتن بروس Bruce فى توقيع اتفاقية شيراز دون الرجوع إلى حكومة بومباى كانت

---

(١) راجع المادة العاشرة من المعاهدة العمومية فى ملاحق الكتاب.

العامل الهام الذى نبه حكومة بومباى إلى ذلك[1]، ومن ثم بادرت فى عام ١٨٢٣ إلى إلغاء الوكالة السياسية فى الخليج وألحقت مهمتها بالمقيمية البريطانية فى بوشهر، ولذلك يشهد ذلك العام تطور اختصاصات المقيمية البريطانية التى كانت تجارية بريدية استخبارية فأصبحت إلى جانب ذلك لها اختصاصاتها السياسية، حيث وقع على المقيم البريطانى السياسى فى بوشهر مهمة مراقبة وتنفيذ تعهدات الشيوخ، والإشراف على شئون الخليج العسكرية والسياسية[2]، ومن المفيد أن نشير بصدد ذلك إلى حرص حكومة الهند على تدعيم السلطة السياسية والعسكرية لمقيمها حيث جعلت له الكلمة العليا، وكان ذلك نتيجة التنازع فى الاختصاصات بين المقيم السياسى وقائد أسطول البحرية الهندية. وقد حسمت حكومة الهند هذا الخلاف وذلك بمقتضى الإعلان الذى صدر عن الحاكم العام للهند عام ١٨٤١ وكان مما ورد به أن سلطة المقيم هى السلطة الأولى فى منطقة الخليج ويتعين على قائد أسطول البحرية الهندية الذى يكون فى أى وقت من الأوقات فى الخليج أن يعمل تحت أمره، ولا يملك سؤال المقيم السياسى عن عمله سوى سلطة واحدة هى حكومة الهند، وأضاف الإعلان بأنه ليس فى هذه التعليمات ما يحط بقدر البحرية الهندية أو استقلالها لأن المقيم السياسى ليس فى نهاية الأمر سوى ممثل للحكومة ومن الضرورى للمصلحة العامة أن يقوم تفاهم تام وتعاون بين الطرفين[3].

ويرتبط تدعيم النفوذ البريطانى فى الساحل الجنوبى للخليج بالدور الذى قام به ما كلويد Mcleod الذى عهد إليه بالمقيمة البريطانية فى الخليج خلفا لبروس فى عام ١٨٢٣. وقد بدأ مكلويد مهام منصبه بجولة بحرية قام بها فى الساحل الجنوبى للخليج حيث تقابل مع الشيوخ وشرح لهم الهدف من معاهدة ١٨٢٠ التى لم تكن نصوصها واضحة بالنسبة للكثيرين منهم. كما كان عليه أن يؤكد لهم أن انسحاب الحامية البريطانية من جزيرة قشم لا يعنى فقدان الحكومة البريطانية

---

(١) راجع الفصل الثالث عشر فيما يتعلق باتفاقية شيراز انظر أيضا:
Adamyiat, F., Bahrein Islands pp. 107 - 108.

(٢) عبد العزيز عبد الغنى: حكومة الهند والإدارة البريطانية فى الخليج العربى، الرياض ١٩٨١، ص ص ١١٩ ـ ١٢٠.

(٣) ج. ج لوريمر: مصدر سبق ذكره جـ ١ ص ص ٣٥٥ / ٣٥٦.

لمصالحها أو اهتماماتها بالمنطقة وإنما جاء ذلك الانسحاب نتيجة اطمئنان حكومة الهند البريطانية إلى صدق التعاون معهم واحترامهم لشروط المعاهدة. كما كان على ماكلويد أن يقوم بدراسة مستفيضة للوضع السياسى للشيوخ وعما إذا كان أحدا منهم خاضعا لنفوذ إحدى الدول المجاورة كفارس أو مسقط أو السعوديين، كما كان عليه أن يتحقق من مصادر الثروة وأنواع السفن وإمكانية إنشاء تمثيل دائم فى منطقة الإمارات. وقد أقيم هذا التمثيل بالفعل حين عهدت حكومة بومباى إلى وكيل وطنى بهذه المهمة منذ عام ١٨٢٨، واختيرت إمارة الشارقة لتكون مقراً لذلك التمثيل[١]. وكانت مهمة الوكيل الوطنى تتلخص فى جمع المعلومات التى يستطيع الحصول عليها وإرسالها إلى المقيم البريطانى الذى كان غالبًا ما يفد إلى المنطقة زائرا أو مجاملا أو معاقبا.

وقد يكون من المفيد أن إلى نشير أنه عند زيارة ماكلويد لإمارة الشارقة أبدى مزيجا من الإعجاب والكراهية بشخصية الشيخ سلطان بن صقر الذى وصفه بكونه أقوى شيوخ المنطقة، وذكر أن حكمه لم يقتصر على الشارقة ورأس الخيمة فحسب وإنما كان يتجاوز ذلك إلى الجزيرة الحمراء وأم القوين. ومما يذكر أن الشيخ راشد بن حميد شيخ عجمان قد انتهز فرصة زيارة ماكلويد حيث طلب الحماية منه من سلطان بن صقر إذ لم يكن يعترف بسلطته على عجمان. ويبدو أن الانطباع الذى خرج به ماكلويد على أثر اجتماعه بالشيخ راشد النعيمى هو أنه يرغب فى التخلص من تبعيته للشيخ القاسمى وأنه فى سبيله لبناء إمارة مستقلة عن النفوذ القاسمى. ومن ناحية أخرى أثار الشيخ سلطان بن صقر لدى اجتماعه بماكلويد موضوع سيادته على عجمان وطلب منه الكتابة لحكومة الهند بشأن اعترافها بسلطته على جميع مشيخات الساحل العمانى.

ولعل ما أزعج ماكلويد الحجم المتزايد لأسطول القواسم فقد شهد بنفسه أكثر من ثلاثين سفينة شراعية راسية فى ميناء الشارقة، كما كان العمل يجرى فى بناء بعض السفن الكبيرة، ولم يكن من المعقول أن يكون القواسم قد تمكنوا من بناء ذلك الإسطول الضخم خلال فترة الثلاثة أعوام التى انقضت على الحملة البريطانية فى عام ١٨١٩/ ١٨٢٠، وكان التفسير الوحيد الذى توصل إليه ماكلويد هو أن

(١) Mann, Clarence, Abu Dhabi,Birth of an Oil Sheikhdom. p. 24.

أغلب سفن القواسم كانت مختبئة فى الخلجان أو فى المناطق الضحلة قبل وصول حملة جرانت كير. وفى إمارة الشارقة حضر للقاء ماكلويد زعيما بنى ياس فى أبو ظبى ودبى وهما الشيخ طحنون بن شخبوط والشيخ زايد بن سيف حيث أكدا له صداقتهما ورغبتهما فى الالتزام بشروط معاهدة السلام العامة، وفى المقابل أكد لهما ماكلويد مشاعر الود والصداقة من جانب حكومة الهند. ومن إمارة الشارقة أبحر ماكلويد إلى مدينة البدع (الدوحة) على الساحل الشرقى لشبه جزيرة قطر، وكانت خاضعة فى ذلك الوقت لشيوخ آل خليفة حكام البحرين، وقد أعرب شيوخ قطر عن رغبتهم فى الانضمام إلى معاهدة السلام العامة، كذلك أبدى شيخ البحرين ارتياحه لقبول حكومة الهند اشتراكه فى هذه المعاهدة التى وجد فيها تعبيرا لصداقته الوثيقة لها وسندا له ضد خصومه وخاصة السيد سعيد سلطان مسقط ورحمة بن جابر شيخ الجلاهمة وعلى ميرزا أمير فارستان.[١]

وعندما عاد ما كلويد إلى مقر عمله فى بوشهر أعد تقريرا مفصلا اعتمدت عليه حكومة الهند فى سياستها فى منطقة الخليج العربى، وقد تضمن تقرير ماكلويد دراسة الإمكانات البحرية للقبائل العربية وعلاقة بعضها بالبعض الآخر، وتمخضت نتائج ذلك التقرير عن إعداد نظام فعال لتزويد سفن القبائل بالأعلام والوثائق التى نصت عليها معاهدة ١٨٢٠ واختيار أحد الوكلاء الوطنين ليتولى منصب الوكيل فى الشارقة[٢]. والجدير بالذكر أن الشارقة قد اختيرت دون غيرها لتكون مقرا لهذه الوكالة نظرا لارتباط حاكمها الشيخ سلطان بن صقر أكثر من غيره بروابط وثيقة مع الإنجليز هذا فضلا عن أن الشارقة كانت فى ذلك الوقت أكبر المشيخات التى تخلفت عن دولة القواسم، كما أن صداقة حكومة الهند البريطانية مع أبو ظبى لم تكن قد اتضحت بعد[٣]. ومما تجدر الإشارة إليه أن تقرير ماكلويد تعرض بشكل مفصل للموارد الاقتصادية لإمارات الساحل، وأكد التقرير أنه ليس لهذه المشيخات إنتاج يذكر كما أنها لا تصدر شيئا خارج بلادها، ومن ثم

---

(١) جون كلى: بريطانيا والخليج جـ ١ ص ٣٣٤.

(٢) Hawley, Donald, The Trucial States p. 132 ff. See also Mann, Clarence, Abu Dhabi, Birth of an Oil Sheikhdom Beirut 1969. p. 24.

(٣) صلاح العقاد: التيارات السياسية فى الخليج العربى ص ١١٠.

وجدت بريطانيا تبريرا لسياستها فى أنها كانت تستهدف أن تجنب القوى العربية الخسائر الفادحة التى كانت تتعرض لها نتيجة منازعاتها البحرية[1]. وقد يكون من المفيد أن نشير إلى أن حكومة الهند البريطانية اعتماداً على تقرير ماكلويد افتتحت فى عام ١٨٢٨ أول وكالة للمقيمية البريطانية فى الشارقة وتم تعيين وكيل أو مسئول عن إدارتها وهو ملا حسين وتحددت مسئولياته بالعمل على رعاية المصالح البريطانية فى مشيخات الساحل العمانى فى بوشهر. وقد استمرت بريطانيا فى استخدام الوكلاء الوطنيين حتى استعاضت عنهم بوكلاء بريطانيين فى دبى فى الفترة ما بين الحربيين العالميتين وكان ذلك على أثر إقامة القواعد الجوية فى منطقة الساحل العمانى[2].

ولعل مما يسترعى الانتباه أن حكومة الهند البريطانية لم تستطع أن تحقق السلام البحرى فى الخليج اعتمادا على معاهدة ١٨٢٠ إذ إن معظم نصوص هذه المعاهدة أصبحت غير سارية المفعول بل غير ضرورية، وعلى الرغم من أن بعض شيوخ الساحل كانوا يرفعون الأعلام المتفق عليها على سفنهم إلا أن أكثرية الشيوخ لم يكترثوا بذلك، وكانوا يفضلون رفع أعلامهم التقليدية الحمراء، كما أخذ القواسم يجددون عملياتهم البحرية، ولذلك بادرت حكومة بومباى فى أبريل ١٨٢٤ بإصدار مجموعة من التعليمات لضباطها البحريين كانت تنص على ما يأتى:

أولا: فى حالة هجوم أحدى السفن على سفينة بريطانية يجب توقيفها على الفور.

ثانيا: يجب اعتقال الجناة وحجزهم.

ثالثا: بالنسبة للسفن التى يشتبه فى ممارستها لعمل من أعمال القرصنة تحتجز وتسلم للمقيم البريطانى مع كافة الأدلة التى تدينها بذلك.

ومنذ عام ١٨٢٨ تغير مفهوم استخدام القوة البحرية المرابطة فى الخليج لقمع القرصنة من دور الهجوم إلى الزيارات الدورية لموانى المنطقة وإلزام الشيوخ

---

(1) Bombay Govt., op. cit., vol XXIV. See Report on British Policy by Kemball, pp. 71 - 74.

(٢) جمال زكريا قاسم: الخليج العربى ١٩١٤ ـ ١٩٤٥ ص ٤٢.

بالتعويضات عن الاعتداءات التى يقترفها رعاياهم فى البحر. ولعل تجدد حوادث النشاط البحرى كان يرجع إلى عدم وجود دولة أو بلد واحد على الأقل لم يكن متورطا فى صراعات أو منازعات مع جيرانه ابتداء من الكويت فى الشمال حتى مسقط فى الجنوب، فكان رحمة بن جابر زعيم فرع قبيلة الجلاهمة من العتوب فى قتال مستمر ضد آل خليفة حكام البحرين، وسكان البحرين ضد أهالى الوكرة والدوحة وضد محاولات حاكم إقليم فارستان انتزاع البحرين منهم، كما أن سكان أبو ظبى ودبى كانوا فى صراع ضد القواسم سكان الشارقة ورأس الخيمة، كما كان القواسم فى صراع ضد سلطنة مسقط. وكانت هذه الصراعات تؤدى بطبيعة الحال إلى اشتباكات بحرية كان غالبا ما ينجم عنها اعتداءات على السفن العابرة فى الخليج دون تفريق بينها. وكانت هذه الاشتباكات توصف بالقرصنة إذ لم يكن بمقدور بريطانيا أو الدول الأجنبية بصفة عامة أن تميز بين القرصنة والخلافات السياسية بين القبائل.

ومما يذكر أن التجمع السنوى لسفن صيد اللؤلؤ فى صيف كل عام كان يشكل مرتعا خصبا للاضطرابات بين القبائل، كما أن الصراع على التفوق بين هذه القوى كان السمة البارزة التى طبعت تاريخ الساحل العمانى حتى توقيع الهدنة البحرية فى عام ١٨٣٥، وهذا الصراع كان من أبرز نتائجه استنزاف قوى جميع الأطراف المشتركة فيه ونضوب مواردها وإمكانياتها الاقتصادية والبشرية فضلا عن تعريض أمن المنطقة للتهديد والخطر. ومن ثم كان الأمر يستلزم وضع نظام للهدنة البحرية. ولعل الخلافات بين أبو ظبى والشارقة فى عام ١٨٣٣ هى التى دفعت إلى التفكير فى تنفيذ ذلك النظام[1]. وترجع أسباب الخلافات بين أبو ظبى والشارقة إلى أن إمارة الشارقة التى ورثت دولة القواسم كانت تتطلع إلى إعادة بعث الاتحاد القاسمى، كما يرجع النزاع أيضا إلى الخلافات التقليدية بين الهناوية والغافرية. وقد يكون من المناسب أن نشير إلى أن أصول النزاع بين القواسم وبنى ياس يرجع إلى الوقت الذى استطاع فيه الشيخ سلطان بن صقر استرداد سلطته

---

(١) للتفاصيل المتعلقة بالصراع بين الشارقة وأبو ظبى راجع:

Bombay Govt., op. cit., Historical Sketch of the Beniyas Tribe of Arabs by Kemball vol. XXIV Bombay, 1956 pp. 461 - 473.

Mann, Clarence, op. cit. pp. 31 - 35.

كذلك راجع:

للتعرف على الاضطرابات البحرية فى الساحل بعد معاهدة ١٨٢٠.

الرئاسية على القواسم فى أعقاب حملة ١٨١٩، وأصبح الشيخ حسن بن رحمة الذى عزله الإنجليز فيما بعد تابعا للشيخ سلطان بن صقر. وهكذا استطاع الشيخ سلطان أن يسيطر على كل من إمارتى رأس الخيمة والشارقة. وعقب وفاة الشيخ قضيب بن أحمد شيخ جزيرة الحمراء عزل الشيخ سلطان خليفته الشرعى فى عام ١٨٢٤ لكى ينصب بدلا منه شيخا آخر أكثر ولاءًا وطاعة له وهو الشيخ أحمد بن عبد الله، وفى نفس الوقت خضع شيخ عجمان من آل نعيم لما لابد منه وأعلن ولاءه لشيخ الشارقة. وفى العام التالى ١٨٢٥ حقق الشيخ سلطان بن صقر بعض النفوذ فى دبى بمصاهرته لحاكمها.

وقد بدأت الصراعات بين الشارقه وأبو ظبى منذ عام ١٨٢٣ حين استولى الشيخ سلطان على أبراج البريمى وأخذ شيخ أبو ظبى من ناحيته يشجع قبيلة السودان اللاجئة من الشارقة على بناء قلاع لهم فى الديرة الواقعة بين دبى والشارقة مما أدى إلى استمرار الاشتباكات التى بلغت ذروتها فى عام ١٨٣٣ بسبب الاضطرابات التى تعرضت لها أبو ظبى عقب اغتيال الشيخ طحنون وتنازع أخويه خليفة وسلطان على السلطة. وحاول حاكم لنجة الذى كان يتمتع بهيبة بين الرؤساء التوسط من أجل إعادة السلام، وقرر فرض غرامة على مشيخة أبو ظبى ولكن أسرة البوفلاسة وهى إحدى الأسر المكونة لاتحاد بنى ياس رفضت دفع نصيبها من الغرامة وفضلت الانسحاب إلى دبى ودخل البوفلاسة فى حلف مع القواسم[1]، حيث اتفقوا فيما بينهم على شن حرب بحرية ضد أبو ظبى. والأمر الذى لاشك فيه أن الشيخ سلطان بن صقر شيخ الشارقة قد تشجع بالانقسام الذى حدث فى صفوف بنى ياس بهجرة البوفلاسة لكى يحاول الإطاحة ببنى ياس ولكن أخبار تلك المحاولة لم تلبث أن وصلت إلى زعماء بنى ياس الذين بادروا بحشد مجموعة كبيرة من بدو المناصير واستطاعت هذه المجموعة أن تتصدى للقواسم وأفشلت محاولتهم[2]. وفى عام ١٨٣٤ عقدت هدنة بين أبو ظبى والشارقة تعهد

(١) عن انفصال البوفلاسة انظر:

Kemball & Disbrowe, H.F., Histroical Sketch of Debaye, S.R.B.G vol. XXIV p. 497 ff.

(٢) ج. ج لوريمر: دليل الخليج جـ ٢ ص ١٠٥٥.

فيها زعيم بنى ياس بالاعتراف بسلطة البوفلاسة على دبى على أساس الأمر الواقع وأصبح البوفلاسة يحكمون فى دبى(١).

ومنذ نهاية ذلك العام أخـذ التوتر يسود الأوساط القبـلية على طول الساحل الجنوبى للخليج العربى على أثر انخفاض المعيشة بين السكان حتى وصل إلى حد الكفاف، وأصبح الأهالى على شفا الإفـلاس نتيجة الاضطرابات التى كانت تدور بين زعماء القواسم وبنى ياس، كمـا أتلفت المزروعات والمحاصيل وتحطمت المبانى بسبب الغـارات المسلحة وتأثرت الزراعة وحرفـة الرعى من جراء الحروب المتـتابعة التى فرضت على الأهالى الذين لم يتمكنوا نتـيجة لتلك الظروف من الخروج إلى صيـد اللؤلؤ مما حرمهم من مـواردهم الرئيسيـة، إذ كما هو مـعروف أن اقتـصاد القبائل كان يعتمد فى الدرجة الأولى على مواسم الغوص والرحلات التجارية التى كان يقوم بها سكان السـاحل إلى البصرة وبومباى وزنجبار وموانى الـبحر الأحمر. ومن الطبيعى إذا توقـفت هذه الأنشطة نتيجة مـا يحدث من اشتباكـات بحرية فإن الأضرار تكون قاسية عل سكان السـاحل(٢).

وحـدث فى منتـصف عام ١٨٣٥ أن اتجه الشـيخ شخـبـوط بن دياب إلى باسيدور لدفع التعويـضات المستحقة على بنى ياس نتيجة تسـببهم فى تهديد الأمن البحـرى وصادف وصوله إلى هناك مـجىء الشيخ سلطان بن صقـر وبذلك وجد الكولونيل هنيل المقيم البـريطانى فى الخليج الفرصة لتسوية الخـلافات بين القواسم وبنى ياس. وكان هنيل يعتقد أن الصـراع على مناطق الغوص هو من أهم أسباب الحروب بين المشيخات ومن ثم فإنه كـان يعتقد بأنه من واجب حكومة الهند فرض حمايتها على شيوخ المنطقة وإجبارهم على التوقيع على معاهدة تتضمن عدم القتال فى البحر. كما كان هنيل يرى أنه فى الإمكان إقناع شيوخ السـاحل بإجراء تسـويات سلمية فـيما بينهم يتعـهدون فيهـا بالكف عن الاشتباكات البـحرية، ولذلك بعث بسفينتـه الحربية إل كل من دبى وعجمان لإحـضار الشيخ عبد بن سعـيد والشيخ

---

(١) Bombay Govt., op. cit., Chronological Table of Events vol. XXIV, Debaye by Kemball. p. 121 ff.

(٢) Bombay Govt., op. cit., Historical Sketch of Arab Tribes of Beniyas by Hennel, p. 473 ff.

راشد بن حميد للتباحث فى أمر تلك التسويات وإن كان قد أدرك فى نفس الوقت صعوبة التوفيق بين جميع الأطراف. ولذلك اقترح هنيل فى بداية الأمر عقد هدنة بحرية بين الرؤساء تمتد طوال موسم الغوص لعام ١٨٣٥، ولما كان هذا الاقتراح لا يلزم الشيوخ بالتخلى أو التنازل عن مطالبهم إزاء بعضهم البعض الآخر ويضمن لهم فى نفس الوقت الاستفادة من موسم الغوص فقد وافقوا عى ذلك الاقتراح. وفى ٢١ مايو ١٨٣٥، وقع شيوخ المنطقة أول اتفاقية للهدنة البحرية نصت على أن يمتنع الشيوخ عن اللجوء إلى الحرب والجدال اعتبارا من ٢١ مايو ١٨٣٥ إلى ٢١ نوفمبر ١٨٣٥. والتزم الشيوخ بدفع قيمة التعويضات عن أية انتهاكات لتلك الاتفاقية يقوم بها رعاياهم أثناء الفترة التى تكون فيها الاتفاقية سارية المفعول، كذلك تعهدوا بالإبلاغ عن أية انتهاكات تحدث إلى المقيم البريطانى أو قائد بحرية باسيدور ولا يقومون بالانتقام من بعضهم البعض الآخر[١].

وهكذا أدت الحروب التى دارت بين الشارقة وأبو ظبى والتى كانت من أعنف الحروب التى دارت بين شيوخ الساحل إلى عقد المهادنة البحرية الأولى وذلك بعد أن أصبح واضحا أن معاهدة السلام العامة ١٨٢٠ أخذت تفقد فاعليتها إذ لم يكن هناك فى المعاهدة المشار إليها أى نص يلزم بتحريم الحروب البحرية، فعلى الرغم من أن معاهدة ١٨٢٠ كانت تمنع السلب والقرصنة إلا أنها فى نفس الوقت لم تكن تشكل قيدا يحد من الاشتباكات البحرية المشروعة، ونعنى بذلك إذا ظهرت فى شكل صراع بين القوى العربية طالما كانت يتم الإعلان الرسمى لذلك الصراع وفقا لنصوص المعاهدة التى لم تضع قيدا على الحروب البحرية المعلنة. وبالإضافة إلى ذلك فإن ما نصت عليه المعاهدة من ضرورة إصدار وثائق خاصة للسفن وتسجيلها قد ثبت أنه إجراء غير عملى تماما ولم يعد أحد يطبقه فى الوقت الذى أخذت فيه تنحسر موارد الدخل فى صيد اللؤلؤ حيث أصبح الغوص هو المصدر الوحيد للدخل إلى درجة أن بعض التجار فى الشارقة عرضوا على الحكومة البريطانية دفع ما يساوى تسعة وعشرين جنيها عن كل قارب للغوص تضمن الحكومة البريطانية سلامته[٢].

---

(١) راجع ملحق تقرير كامبل فى وثائق حكومة بومباى عدد ٢٤.

Copies of Treaties and Agreements entered into by the Hon'ble East India Company with the Arab Tribes p. 86 ff.

(٢) ج. ج لوريمر: مصدر سبق ذكره جـ ٢ ص ١٠٦٠.

وعلى الرغم من أن الشيوخ التزموا بشروط الهدنة البحرية الأولى فى عام ١٨٣٥ حيث لم تحدث انتهاكات لهـا حتى انتهت فى نوفمبر ١٨٣٥ إلا أنهم لم يظهروا أية بادرة لتقدير مزاياها أو الرغبة فى تحويلها إلى نظام دائم، وبذلك كان هناك احتمال فى أن يستأنف الشيوخ منازعاتهم البحرية بعد انتهاء أجلها، ومن ثم كان الإجراء الذى نجح فيه هنيل هو إقناع الشيوخ الموقعين على الاتفاقية بالاعتراف بالخطوط الملاحية الرئيسية الواقعة على امتداد الساحل الفارسى كمياه محايدة لا يحق لأى من سفن الشيوخ التوافد إليها. وبهذه الطريقة استطاع هنيل أن يحصر الحرب البحرية بين الشيوخ عن طريق رسم خط وهمى يقسم مياه الخليج إلى قسمين وعرف هذا الخط بالخط الفاصل أو المانع، ويبدأ من جزيرة بوموسى إلى جزيرة صيرى ثم يمتد إلى الشمال الشرقى على طول الخليج بحيث يقسم مياهه إلى قسمين متساويين[1].

وفى أبريل ١٨٣٦ بذل الماجور موريسون الذى خلف هنيل لدى قيامه بإجازته جهدا كبيرا فى إقناع الشيوخ بتجديد الهدنة التى انتهى أجلها فى نوفمبر ١٨٣٥ أما بالنسبة للخط المانع فقد قام موريسون بإعادة رسم ذلك الخط مراعيا أن يكون بعيدا عن الساحل الفارسى وأصبح الخط الجديد يمتد على الجانب الغربى من شبه جزيرة موساندم إلى نقطة تبعد مسافة لا تتجاوز عشرة أميال جنوب جزيرة بوموسى، والأمر الذى لا شك فيه أن تعديل هذا الخط هو الذى سيساعد فارس على ضم جزيرة بوموسى وصيرى إلى سيطرتها إذ انه أدى إلى خنق الملاحة العربية من مدخل الخليج وحصرها فى مسافة أميال قليلة فى عرض البحر. ومما يذكر أن شيوخ الساحل قد أبدوا معارضة شديدة لتثبيت ذلك الخط وكان من أشد المعارضين الشيخ سلطان بن صقر الذى أكد بأن موانى خورفكان ودبا الواقعة على بحر عمان من توابعه وأن منع سفنه من الدوران حول رأس موساندم سيحول بينها وبين الوصول إلى تلك المناطق. وقد رفض موريسون احتجاج الشيخ سلطان وذكره بأن استيلائه على خورفكان قد حدث نتيجة الاضطرابات التى وقعت فى سلطنة مسقط فى أواخر عام ١٨٣٤؛ وعلى أية حال فقد تجمد موضوع الخط المانع وذلك بعد أن وافق الشيوخ على عقد اتفاقية جديدة للهدنة البحرية

(١) عبد العزيز عبد الغنى: بريطانيا وإمارات الساحل، دراسة فى العلاقات التعاهدية، البصرة ١٩٧٨، ص ص ٢٦٨ - ٢٧٠.

وقعت فى ١٣ أبريل ١٨٣٦ . ولا تختلف هذه الاتفاقية عن الاتفاقية السابقة فى كثير من بنودها وإن كان قد اشترك فى توقيعها بالإضافة إلى الزعماء الموقعين على الاتفاقية السابقة شيخ أم القوين؛ الذى كان قد تعذر اشتراكه فى التوقيع على الاتفاقية الأولى بسبب اعتراض شيخ رأس الخيمة الذى أصر على أن أم القوين تابعة له وأنه يوقع على الاتفاقية نيابة عنه. كذلك امتدت فترة الهدنة من ستة أشهر إلى ثمانية أشهر[١]. وعند عودة هنيل إلى الساحل العمانى فى أبريل ١٨٣٨ للعمل على تجديد الاتفاقية لثمانية أشهر أخرى وجد الشيوخ متلهفين إلى ذلك بعد أن تحسنت أوضاعهم الاقتصادية بسبب ذلك النظام وما ترتب عليه من من إقرار الهدوء والنظام خاصة فى مواسم الغوص. ولعل الشيخ سلطان بن صقر كان من أبرز المتحمسين لتجديد الاتفاقية حتى أنه أوفد مبعوثا إلى الكولونيل هنيل يقترح عليه أن يقوم هو وزملاؤه الشيوخ بعقد اتفاقية فيما بينهم لإنهاء الصراعات البحرية بصفة دائمة، وكان غرضه من ذلك ضمان سلامة السفن التابعة له والتى كانت تبحر إلى الهند خلال موسم الرياح الموسمية ولا تتمكن من العودة قبل انتهاء صلاحية الاتفاقية. ولكن هنيل أشار على الشيخ سلطان بأنه إذا كان حريصا على سفن القواسم وضمان عودتها من الهند كل عام فيمكن تبديد تلك المخاوف بتجديد صلاحية الاتفاقية من ثمانية أشهر إلى عام كامل، ووافق الشيخ سلطان على هذا الاقتراح على الفور وتم الحصول على موافقة بقية الشيوخ ووقعت اتفاقية الهدنة لمدة سنة كاملة فى أبريل ١٨٣٨[٢]. ومنذ ذلك الوقت كان يتم تجديدها فى كل عام حتى عام ١٨٤٣ حين استبدلت بعشر سنوات انتهت فى عام ١٨٥٣ بتوقيع اتفاقية الهدنة الدائمة Perpetual Truce وهى الاتفاقية التى أعطت التسمية الجديدة لذلك الساحل الذى عرف بالساحل المتصالح أو ساحل الصلح البحرى[٣].

والأمر الذى لاشك فيه أن نظام الهدنة البحرية أثبت نجاحه فى إشاعة الأمن فى مياه الخليج، كما أنه أدى إلى إتاحة الفرصة للسيطرة البريطانية بحكم ما أتاحه لها ذلك النظام من التحقيق فى الحوادث المخالفة وفرض ما تراه من عقوبات.

---

(١) جون كلى: بريطانيا والخليج جـ ١ ص ص ٦٢٧ ـ ٦٢٨.

(٢) نفسه جـ ١ ص ص ٦٣٤ ـ ٦٣٥.

(٣) Bombay Govt., op. cit., vol. XXIV p. 86 ff. See also Aitchison, op. cit., vol. X. Calcutta 1892. pp. 133 - 134.

ولعل تطبيق نظام الهدنة البحرية هو الذى حال دون انفصال القبيسات عن أبو ظبى ففى عام ١٨٣٥ اتجه القبيسات إلى العديد فى الوقت الذى عارضت فيه بريطانيا أن يتم انفصال القبيسات عن بنى ياس إذ إن التكوين القبلى الصغير للقبيسات لا يمكنهم من تكوين إمارة مستقلة تستطيع الحفاظ على كيانها، كما أن عدم تدخل بريطانيا للمحافظة على تكامل إمارة أبو ظبى سيفقد ثقة بقية المشيخات بها علاوة على تشجيع القبائل الأخرى على الاستقلال فى إمارات صغيرة مبعثرة قد تشكل عبئا على بريطانيا كما يصعب مراقبتها. ومن ثم استطاعت قوات أبو ظبى من بنى ياس والمناصير محاصرة خور العديد، حيث قام الشيخ خليفة بن شخبوط بهجوم كبير دمر به المستوطنة التى أوجدها القبيسات واستسلم الشيخ خادم ابن نهيمان زعيم القبيسات، وتمت مصالحة بين الطرفين تعهد فيها القبيسات بعدم الانشقاق ثانية عن أبو ظبى، وهو تعهد لم يلتزموا به إذ سيحدث الانشقاق مرة أخرى على أثر تقدم العثمانيين إلى الإحساء وقطر مما أغرى القبيسات على الاحتماء بهم[1].

ومع ذلك فقد كانت أكثر الحوادث شيوعا عندما كان يحاول بعض العاملين فى الغوص الهرب من المشيخة التى يعملون فيها إلى مشيخة أخرى من غير رد السلف أو التسقام الذين كانوا يتحصلون عليه فى بداية موسم الغوص، كما كانت الحوادث تقع أيضا عندما ينتهز أحد شيوخ الساحل فرصة خلو إحدى المشيخات من سكانها خلال موسم الغوص فيشن هجوما على تلك المشيخة، وتلافيا لتلك الأحداث التى لم تكن فى صالح التجارة والأمن البحرى كان الاتجاه إلى وضع اتفاقية جديدة لمدة أطول على أساس النجاح الذى حققته اتفاقيات الهدنة السابقة[2]. غير أن هناك من يعتقد أن اتفاقية طويلة المدى قد تشكل عبئا على القواسم الذين تعتمد قوتهم العسكرية على إمكانياتهم البحرية على عكس بنى ياس الذين تعتمد قوتهم العسكرية على إمكاناتهم البرية؛ فبمقتضى اتفاقيات الهدنة البحرية كان يحق لحاكم أبو ظبى إعلان الحرب على القواسم الذين يشكلون قوة

(١) انظر مشكلة القبيسات فى: جمال زكريا قاسم: الخليج العربى دراسة لتاريخ الإمارات العربية ١٨٤٠ - ١٩١٤ - جامعة عين شمس ١٩٦٦ ص ص ٢١١ - ٢١٨.

(٢) Bombay Govt., op. cit., vol. XXIV p. 71 ff.

برية عسكرية أضعف من قوته بينما لا يحق للقواسم الذين يتفوقون عليه فى القوة العسكرية البحرية أن يشنوا هجوما بحريا ضد بنى ياس، ولذلك أوفد الكولونيل هنيل فى مارس ١٨٤٢ مساعده العسكرى كمبال Kemball إلى شيوخ الساحل للتأكد عما إذا كانوا يرغبون فى عقد مهادنة لمدة أطول، وقد أبدى جميع الشيوخ رغبتهم فى مد الهدنة لمدة عشر سنوات. ووقعت الهدنة الجديدة فى يونية ١٨٤٣ بحضور الكولونيل هنيل وبموجب نصوصها تعهد شيوخ المنطقة بمراعاة شروط الهدنة فى الخليج لمدة عشر سنوات من تاريخ توقيعها، كما تعهدوا بالنظر فى توقيع اتفاقية دائمة بعد انتهاء صلاحية تلك الاتفاقية فى عام ١٨٥٣، وتعهد الشيوخ بدفع تعويضات عن أية أضرار تنجم عن أعمال يرتكبها رعاياهم فى البحر ضد أى طرف آخر يكون مشتركا فى توقيع تلك الاتفاقية، وكذلك الامتناع عن القيام بأية أعمال انتقامية ضد بعضهم البعض وبإحالة أية مخالفة أو اعتداء إلى الحكومة البريطانية لكى تتولى الفصل فيها باعتبارها الطرف الضامن للاتفاقية.

والجدير بالذكر أن الحكومة البريطانية كانت حريصة على أن يظهر نظام الهدنة كما لو كان برغبة الشيوخ أنفسهم وليس مفروضا عليهم بفعل الضغط البريطانى إذ إن ديباجة الاتفاقية الجديدة كانت تنص على أن الشيوخ قد أقروا هذا النظام بعد أن تيقنوا من فائدته الجلية وخاصة بالنسبة لمواسم الغوص التى أصبحت هى العماد الوحيد لثروة المشيخات بعد أن فقدت قوتها البحرية على أثر تفوق النفوذ البريطانى وخاصة بعد استخدام البخار فى الملاحة مما كان له أثره فى تدهور اقتصادها وصارت بحاجة ماسة إلى المساعدات البريطانية، وهو الأمر الذى استغلته بريطانيا لكى تزيد من نفوذها فى المنطقة[١]. ولعل مما يسترعى الانتباه أن نظام الهدنة البحرية قد أثبت مقدرته على تثبيت النفوذ البريطانى أكثر مما حققته معاهدة ١٨٢٠ إذ إن اتفاقيات الهدنة كانت تهدف أساسا إلى قمع النشاط البحرى بالقضاء على أسباب ذلك النشاط بتحريم الحروب البحرية[٢]، بينما كانت معاهدة ١٨٢٠

---

(١) جمال زكريا قاسم: الأسس التاريخية لوحدة الإمارات ودور الاستعمار فى تجزئتها - ندوة تجربة دولة الإمارات العربية المتحدة - بيروت مارس ١٩٨١.

(٢)
Aitchison, C. U.,
A Collection of Treaties, Engagements and Sanads relating to India and Neighbouring Countries vol. X p. 132 ff.

تهدف إلى القضاء على النشاط البحرى عن طريق فرض العقوبات على ممارسة هذا النشاط. والأمر الذى لا شك فيه أن نجاح نظام الهدنة البحرية كان يرتبط إلى حد كبير بفاعلية الرقابة البحرية فعلى حين كان الأمر قبل توقيع اتفاقية الهدنة فى عام ١٨٣٥ يقضى بإرغام الشيوخ على دفع تعويضات عن الاعتداءات التى يقترفها رعاياهم فى البحر فإنه بعد توقيع اتفاقيات الهدنة البحرية كان الشيوخ أنفسهم طبقا لنصوص تلك الاتفاقيات هم الذين يفرضون العقوبات على مرتكبى تلك الاعتداءات من رعاياهم حتى قبل أن يعلم بها المقيم البريطانى. حقيقة أنه جرت العادة قبل توقيع اتفاقيات الهدنة وفى ظل المعاهدة العامة فى عام ١٨٢٠ أن يقوم المقيم البريطانى بجولة على السواحل الغربية للخليج فى فصل الربيع من كل عام إلا أنه اعتبارا من عام ١٨٣٦ أى بعد توقيع أولى الفاقيات الهدنة فى عام ١٨٣٥ أصبح الغرض من جولة المقيم فى المنطقة هو العمل على تجديد اتفاقية الهدنة، وفى الحالات التى كان يحتمل أن يدب فيها الصراع أو الخلاف بين المشتركين فى توقيع الاتفاقية فإن المقيم البريطانى كان يصطحب فى جولته بعض قطع من الأسطول البريطانى لحل الخلافات بين الشيوخ وأحيانا كان المقيم البريطانى يقوم بالتدخل بين الشيوخ وإن كان هذا التدخل لا يتعدى مجال الوساطة لأن حكومة الهند كانت تحرص على عدم توريط نفسها ولو من الناحية النظرية على الأقل فى الخلافات الداخلية للشيوخ.

وكان المقيم البريطانى يستقبل ضيوفه من شيوخ الساحل على ظهر الطراد الخاص به حتى لا يثير حرجا فيما لو زار أحد الشيوخ ولم يقم بزيارة شيخ آخر. وفى كل الجولات كان المقيم حسب التقاليد السائدة يأخذ معه بعض الهدايا فى الوقت الذى كانت فيه الخزانة البريطانية فى بوشهر تمتلئ بآلاف الريالات التى حصلت عليها من الشيوخ - كما يذكر تقرير بادجر - بمثابة غرامات لأتفه الأسباب[1].

ومما تجدر الإشارة إليه أن استتباب الأمن فى الخليج نتيجة فرض نظام الهدنة أدى إلى تقدم عمليات المسح البحرى حيث قام فريق من ضباط بحرية بومباى

(١) من جورج بادجر إلى حكومة بومباى، انظر الوثائق السعودية الخاصة بمشكلة البريمى المجلد الثانى - الوثائق ص ص ٢١١ - ٢١٤. نقلا عن أوراق بادجر.

بعمل دؤوب استمر ثلاث سنوات بين عامى ١٨٣٥ و ١٨٣٨ ، من أجل إعداد الخرائط من النوع الذى يرشد السفن. كما ظلت حكومة الهند تكثف مراقبتها البحرية لضمان نجاح نظام الهدنة وذلك بالإكثار من الدوريات البحرية، يضاف إلى ذلك استخدام الملاحة البخارية فى منطقة الخليج حيث عبرت أول سفينة من ذلك النوع مياه الخليج فى عام ١٨٣٨ ، وهى السفينة هج لندسى وقد مرت هذه السفينة بالساحل العمانى حيث أحدثت أثرا مذهلا بين أهالى المنطقة بسبب منظرها غير المألوف وحمولتها الضخمة ومدافعها الثقيلة. ولعل ذلك كان مؤشرا لتفوق النفوذ البريطانى وعاملا ممهدا لعقد اتفاقية العشر سنوات التى وقعت بين الشيوخ فى عام ١٨٤٣ ، وكان الدافع إليها محو الأثر الذى نتج عن ظهور القوات المصرية وما حدث من علاقات بين القادة المصريين وبعض أمراء الساحل، كما كان الغرض من هذه الاتفاقية أيضا تعويض الانسحاب البريطانى من جزيرة خرج فى عام ١٨٤٢ ، وإن كانت المصادر البريطانية أرجعتها إلى منع القرصنة(١). وعلى الرغم من توقيع هذه الاتفاقية، ثم اتفاقية الهدنة الدائمة فى عام ١٨٥٣ فإن ذلك لم يمنع من قيام بعض الحوادث التى كانت تؤثر على أمن الخليج، والتى كانت تتلخص فى هروب بعض الغواصين أو سواهم من العاملين فى صيد اللؤلؤ ممن كانوا مدينين لشيخ من الشيوخ فارين من مشيخته إلى مشيخة أخرى. وكانت هذه الحوادث تأخذ شكل محاولة القبض على الفارين، ومن ثم بذلت الحكومة البريطانية جهودا كبيرة لإقناع الشيوخ بالاتفاق حول هذا الموضوع ولكنهم فشلوا بسبب التقاليد العربية التى تمنع تسليم من يلجأ إلى الشيخ أو يحتمى به من تسليمه مهما كانت الأسباب، ولم تحل هذه المشكلة إلا فى عام ١٨٧٩ حين وقع الشيوخ اتفاقية فيما بينهم لتسليم الفارين، وتعتبر هذه الاتفاقية أول بداية لعمل موحد بين المشيخات العربية(٢).

---

(١) ج. ج لوريمر: دليل الخليج جـ ٢ ص ١٠٦٢ .

انظر أيضا: Curzon, G. N., Persia & The Persian Question Vol. II p. 449.

(٢) Zahlan, Rose Marie, Unity and British Rule, A Case of United Arab Emirates.

بحث منشور فى أعمال ندوة تجربة دولة الإمارات العربية المتحدة، مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت مارس ١٩٨١ .



الفصل العاشر

التنظيمات السياسية والقبلية في الساحل الشمالي من الخليج العربي

بنو خالد فى الاحساء ـ الصراع بين بنى خالد والسعوديين ـ انهيار نفوذ بنى خالد ـ هجرة العتوب من أواسط الجزيرة العربية إلى سواحل الخليج ـ الأسرات المكونة لاتحاد العتوب، آل صباح ، آل خليفة ، الجلاهمة ـ هجرة آل خليفة إلى الزبارة وسيطرتهم على البحرين ١٧٨٣ ـ رحمة بن جابر الجلاهمة ـ تأسيس بنو كعب لإمارة المحمرة وأثرهم فى العلاقات بين فارس والدولة العثمانية ـ التنظيمات العربية وأثرها فى تأكيد الشخصية العربية للخليج .

شملت التنظيمات السياسية والقبلية فى الساحل الشمالى من الخليج العربى المناطق الواقعة بين شط العرب شمالاً وشبه جزيرة قطر جنوبًا . وفى هذه المناطق استقرت بعض الأسرات الحاكمة التى انقضى حكمها أو لا يزال بعضها قائمًا بالحكم حتى وقتنا الحاضر .

ولعل أول استقرار سياسى منظم يمكن إرجاعه إلى بنى جبر فى منطقة الإحساء والمناطق المجاورة لها، وذلك بعد نجاحهم فى تحقيق استقلالهم عن مملكة هرمز منذ أوائل القرن الخامس عشر الميلادى . وعلى الرغم من التفوق والسطوة التى أحرزها بنو جبر حتى وصل نفوذهم إلى عمان والبحرين إلاّ أن التنافس الداخلى بين زعامات تلك الأسرة وخاصة بعد مقتل أبرز زعمائها مقرن بن زامل على أيدى البرتغاليين فى عام ١٥٢١ كان عاملاً مؤثرًا فى تفكك زعامتهم وانهيار حكمهم، وحدث ذلك فى عام ١٥٢٥ حين تمكن راشد بن مغامس زعيم المنتفق من آل فضل من السيطرة على الإحساء والقطيف . واستمر آل فضل يحكمون تلك المناطق قرابة خمسة وعشرين عامًا ١٥٢٥ ـ ١٥٥١[١]، حتى نجح العثمانيون فى انتزاع الإحساء منهم بعد سيطرتهم على البصرة[٢] . وخلف العثمانيون فى

(١) عبد اللطيف الحميدان : نفوذ الجبور فى شرق الجزيرة العربية بعد زوال سلطتهم السياسية ١٥٢١/ ١٨٧١ العدد ١٧) مجلة كلية الآداب جامعة البصرة .

(٢) مصطفى عبد القادر النجار : التاريخ السياسى لمشكلة الحدود الشرقية للوطن العربى فى شط العرب ص ص٤٨ ـ ٤٩ .

حكم الإحساء أسرة بنى خالد التى وصلت إلى الزعامة الفعلية على المنطقة منذ بداية النصف الثانى من القرن السابع عشر، وبلغت ذروة نفوذها فى النصف الأول من القرن الثامن عشر حتى بداية اصطدامها بالسعوديين منذ النصف الثانى من ذلك القرن[١].

وتشكل الإحساء واحة كبيرة تمتد بضعة أميال إلى الداخل، وتشمل واحة القطيف وكذلك مدينة الهفوف التى تعد المدينة الرئيسية التى تقع فى قلب هذه الواحة[٢]. وسكان الإحساء القدامى خليط من قبائل عربية متعددة يرجع معظمها إلى بنى عبد القيس وبكر بن وائل وتميم، ثم وفدت عليها قبائل أخرى كان أبرزها العجمان وآل مرة والعوازم والرواشد وبنو هاجر وبنو خالد[٣]. وتعتبر قبيلة بنى خالد من القبائل القديمة فى منطقة الخليج، وكانت تتكون من مجموعة من الأفخاذ والعشائر التى تضرب فى المناطق الواقعة بين الكويت شمالاً إلى عمان جنوبًا ويبرز من تلك الأفخاذ والعشائر العماير والصبيح وبنو فهد والمقدام والمحاشر والجبور وآل حميد ومنهم آل عريعر[٤]، الذين سيطروا على زعامة بنى خالد ووصلوا إلى السلطة السياسية حين استقر تنظيم بنى خالد فى الإحساء. ولم تكن الإحساء هى الرقعة الوحيدة التى سيطر عليها بنو خالد بل وصلت سيطرتهم إلى القطيف والعقير، ومن هذين الميناءين كانت تأتى القوافل إلى نجد حاملة معها تجارة الهند[٥].

وقد تتابع على حكم الإحساء كل من العيونيين والجبور وآل مغامس، ثم جاء البرتغاليون وظلوا يحتلونها حتى تمكن الأتراك العثمانيون من طردهم منها فى عام ١٥٥١. ولكن فترة حكم العثمانيين للاحساء لم تستمر طويلاً إذ ثارت عليهم قبيلة بنى خالد بقيادة زعيمها براك بن غرير وأعلن نفسه حاكمًا على الإحساء والقطيف فى عام ١٦٧٠، واستطاع إخوته وأبناؤه من بعده أن يدعموا هذا التنظيم

---

(١) الحميدان : دراسة سبق ذكرها .

(٢) ياقوت الحموى : معجم البلدان راجع المدن والواحات المذكورة .

(٣) مصطفى مراد الدباغ : الجزيرة العربية موطن العرب ومهد الإسلام جـ١ بيروت ٦٣ .

(٤) فؤاد حمزة : قلب جزيرة العرب ص١٥٤ وكذلك لمع الشهاب ص ص١٥٧ - ١٥٨ .

(٥) أحمد مصطفى أبو حاكمة : تاريخ الكويت جـ١ القسم الأول ص ص٧٦ - ٧٧ . انظر أيضًا لمع الشهاب ص ص١٥٣ - ١٥٦ للتعرف على المناطق الساحلية التى كان يسكنها بنو خالد بعشائرهم .

السياسى الذى أسسه براك فى تلك البقاع[١]. وكان مما ساعد براك بن غرير فى الاستيلاء على الإحساء أن حكم العثمانيين كان واهيًا إذ لم تكن الدولة العثمانية تهتم بسنجق الإحساء لقلة الدخل المتحصل منه وتمرد القبائل العربية ضد العثمانيين[٢]، وبالإضافة إلى ذلك فقد ساعد براك على الاستقلال أوضاع الدولة العثمانية المتأزمة إذ كان نفوذها قد انحسر من اليمن وظهرت العديد من المشكلات بين والى البصرة وباشا بغداد وامتدت تلك المشكلات إلى الإحساء، واستغل براك الموقف لصالحه وأجبر الحامية العثمانية على مغادرة البلاد. وقد وجد براك مساعدة من قبائل العتوب فى السيطرة على القطيف، كما تذكر بعض المصادر أن جبور الإحساء والقطيف هم الذين ساعدوا براك بن غرير فى انتزاع الاحساء والقطيف من الحكام العثمانيين فى البصرة[٣].

وعلى الرغم من أن قبيلة بنى خالد لم تصل إلى الحكم إلا فى أعقاب التخلص من السيطرة العثمانية على الإحساء فى أواخر القرن السابع عشر إلا أن ذلك لايعنى أن قبيلة بنى خالد لم يكن لها نفوذ فى الإحساء قبل هذه الفترة المشار إليها؛ إذ تجمع كثير من المصادر التى أمكن الرجوع إليها على أن هذه القبيلة ظهرت إلى مجال التفوق منذ أوائل القرن السادس عشر الميلادى ثم نمت فى شبه تنظيم سياسى خلال سنوات القرن السابع عشر، وأخذت تتمتع بدرجة كبيرة من القوة والنفوذ وخاصة أن انتشارها فى مقاطعات الإحساء والقطيف مكّن لها قدراً كبيراً من الثروة نتيجة لما تشتهر به الإحساء من واحات خصيبة، وكان مما يضيف إلى رخائها الزراعى انتعاشها التجارى إذ إن موانى الإحساء كانت تعد بدايات صالحة لانطلاق القوافل التجارية إلى نجد وأواسط الجزيرة العربية[٤]. ولا شك أن هذا الرخاء الاقتصادى هو الذى مكن بنو خالد من السيطرة السياسية.

---

(١) أحمد مصطفى أبو حاكمة: تاريخ الكويت جـ١ ص ٧٥.

(٢) على عبد الرحمن أبا حسين: تاريخ البحرين من خلال المخطوطات والوثائق ص ص٢٥٩ - ٢٦٠ من أعمال الحلقة الرابعة لمراكز دراسات الخليج والجزيرة العربية - أبو ظبى - نوفمبر ١٩٧٩.

(٣) عبد اللطيف الحميدان: بحث سبق ذكره، مجلة كلية الآداب - جامعة البصرة العدد ١٧/ ١٩٨١.

(٤) جاكلين بيرين: اكتشاف جزيرة العرب ص١٦٥.

انظر أيضاً جمال زكريا قاسم: موقف الكويت من التوسع السعودى فى نجد وسواحل الإحساء ص٩٣ - مجلة الجمعية المصرية التاريخية العدد ١٧/ ١٩٧١.

ويشكل بنو خالد أحد أربع قبائل رئيسية فى المنطقة أما الباقون فهم بنو هاجر والعجمان وآل مرة وجميعها قبائل بدوية . ومن حيث التكوين القبلى لبنى خالد فهم ينقسمون إلى شطرين، قسم استقر فى المدن والقرى وقسم آخر فضل حياة البادية[1] . وعلى أثر طرد العثمانيين من الإحساء أصبحت قبيلة بنى خالد هى القبيلة المتنفذة ولم يعد للوجود العثمانى فى الإحساء بعد وصول بنى خالد إلى الحكم أية آثار واضحة ولم يزد الأمر عن بعض عائلات من أصل تركى تم انقراضها خلال سنوات القرن الثامن عشر . وتمتعت قبيلة بنى خالد بتفوقها خلال العقود الخمسة الأولى من القرن الثامن عشر حتى أن سلطانها كان يمتد من قطر جنوبًا حتى الكويت شمالاً أى أن جميع سواحل الخليج من قطر إلى البصرة كانت تقع ضمن نفوذ شيوخ بنى خالد،كما كانت هناك بعض القبائل التابعة لبنى خالد تنزل فى منطقة الساحل العمانى[2] . وعلى الرغم من ذلك فإن معلوماتنا عن بنى خالد لا تزال معلومات قليلة فى جملتها .

ومما تجدر الإشارة إليه أن الرحالة كارستن نيبور - وهو من طليعة الرواد الاوربيين الذى فتح الجزيرة العربية للأرتياد الأوربى فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر - قد زار الهفوف قاعدة الإحساء ووصفها بأنها مدينة كبيرة مزدهرة، كما ذكر عن بنى خالد بأنهم أقوى القبائل العربية التى تقطن الساحل الشمالى من الخليج، وكان سلطانهم يمتد إلى أواسط الجزيرة العربية[3] . ولما كانت هذه القبيلة تنتشر انتشارا كبيراً فى الصحراء فقد أتاح لها ذلك فرصة السيطرة على طرق القوافل التى كانت تمتد بين نجد والعراق[4] . وقد ورد ذكر قبيلة بنى خالد فى العديد من رسائل وتقارير ممثلى شركة الهند الشرقية البريطانية فى الخليج خلال القرن الثامن عشر غير أننا مع ذلك لا نجد تفصيلات كثيرة عن حكمها للاحساء، أما المؤرخان الوهابيان حسين بن غنام وعثمان بن بشر فقد أفاضا بالحديث عن بنى

---

(١) أبو حاكمة : تاريخ الكويت جـ ١ ص ٧٧ .

(٢) السالمى : تحفة الأعيان بسيرة آل عمان جـ١ ص ص ١١ - ١٢ وكذلك لمع الشهاب ص ص ١٥٧ - ١٥٨ .

(٣) Neibuhr, Carsten, Travels Through Arabia and Other Countries in The East, Translated by Robert Herene Vol. II Edinburgh 1792, P. 126 .

(٤) جاكلين بيرين : مرجع سبق ذكره ص ١٦٥ .

خالد وخاصة فيما يتعلق بالصراع الذى قام بينهم وبين السعوديين، وبطبيعة الحال كانت نظرة هذين المؤرخين الوهابيين لبنى خالد باعتبار كونهم من المشركين الذين يجب اخضاعهم لدعوة التوحيد[1].

وقبل أن نعرض لمراحل العلاقات بين بنى خالد والوهابيين والتى انتهت بزوال حكمهم من الاحساء مع نهاية القرن الثامن عشر ينبغى الإشارة إلى أن العلاقات بين بنى خالد والقوى المجاورة لهم لم تقتصر على العلاقات التى قامت بينهم وبين السعوديين،وإنما كانت لهم علاقات مع العتوب فى قطر والكويت والبحرين وذلك منذ بداية استقرار العتوب فى الكويت فى أوائل القرن الثامن عشر. بل ويعزى إلى بنى خالد بناء الحصن أو الكوت الذى أخذت الكويت اسمها منه. وفى شبه جزيرة قطر حيث يختلط التركيب القبلى بين النعيم والمعاودة والبوعينين والسودان والدواسر والهويلة وآل مسلم استطاع بنو خالد أن يصلوا إلى السيطرة على بعض هذه القبائل وخاصة قبيلة آل مسلم كما كان بنو خالد هم الذين يقدمون حمايتهم لفرعى العتوب-آل صباح وآل خليفة-حينما أسس الأخيرون مدينة الزبارة فى شبه جزيرة قطر فى عام ١٧٦٦ التى اتخذوها مقراً لحكمهم قبل أن يصلوا إلى الاستيلاء على البحرين فى عام ١٧٨٣ . ولا شك أن حكم بنى خالد بما تميز به من بسط الأمن أعطى للإمارات التى نشأت بجوارهم فرصة كبيرة للنمو والازدهار. ولعل مما يسترعى الانتباه أن نفوذ بنى خالد امتد إلى بعض مناطق نجد؛ إذ تؤكد كثير من المصادر أن سكان نجد قبل قيام الدولة السعودية كانوا يعترفون بأن شيخ بنى خالد هو أقوى جيرانهم، وكانوا يسعون إلى إرضائه بالهدايا وإذا امتنع بعض زعماء القبائل النجدية عن تقديم ولائهم لشيخ بنى خالد كان يقوم بغزو مقاطعاتهم ويعود محملاً بالغنائم. وعند بدء قيام الدعوة الوهابية طلب بعض زعماء نجد من شيخ بنى خالد أن يأمر أمير العيينة بإيقاف نشاط الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وقد نجح سليمان بن محمد بن براك فى تهديد الشيخ ابن معمر أمير العيينة بأنه سيمنع عنه ريع نخيله فى الاحساء إذا استمر الشيخ محمد بن عبد الوهاب فى بلاده، ولعل ذلك يفسر لنا السبب فى مغادرة الشيخ العيينة إلى

---

(١) ابو حاكمة : مرجع سبق ذكره جـ١ ص ص ٢١١ - ٢١٢ .

الدرعية وهناك آزره أميرها محمد بن سعود فى عام ١٧٤٥ . وفيما يبدو أن هذه الحادثة كانت سبباً لمناصبة الشيخ محمد بن عبد الوهاب والأمير محمد بن سعود وأبنائه من بعده العداء لشيوخ بنى خالد، وهو العداء الذى أدى فى النهاية إلى سقوط حكمهم فى الاحساء . ويفهم من ذلك أن النشاط الدينى المعارض لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب فى نجد لم ينجح فى إيقاف تلك الدعوة ولذلك اتجه المعارضون إلى استخدام سلاح السياسة، وكان أنسب زعيم يمكن أن يستفيدوا منه آنذاك هو حاكم الإحساء لما بينه وبين زعماء العيينة من صلات ولما له من مكانة لدى أميرها، ويظهر أن المعارضين قد أوضحوا لسليمان بن محمد حاكم الإحساء أن من واجبه أن يتدخل للقضاء على حركة الشيخ قبل أن يستفحل أمرها وأن ما ينادى به الشيخ يعنى ثورة العامة على حكامهم[1]. وقد وقع الصدام الأول بين الوهابيين وبنى خالد خلال حكم الشيخ سليمان بن محمد. ومما تجدر الإشارة إليه أنه خلال الفترة من ١٧٤٥ ـ ١٧٨٥ اتخذ الوهابيون من شيوخ بنى خالد موقف الدفاع ثم تحولوا بعد ذلك إلى موقف الهجوم حين بدأت غزواتهم تتوالى على أرض الإحساء ،واشتدت هجماتهم فى عام ١٧٩٣ ولم يمض أكثر من عامين حتى تم للوهابيين القضاء على نفوذهم[2].

يفهم من ذلك أن الصراع بين الوهابيين وبنى خالد على الرغم من أنه بدأ منذ منتصف القرن الثامن عشر إلا أنه لم يتضح إلا فى السنوات الأخيرة من ذلك القرن، وعلى أية حال فيمكننا أن نميز بين مراحل ثلاث تحدد سمة العلاقات بين الوهابيين وبنى خالد ، فالمرحلة الأولى كان يقوم فيها الوهابيون بالمناوشات بهدف إرهاب بنى خالد والقبائل الموالية لهم، والمرحلة الثانية وفيها حاول الوهابيون رمى زعماء بنى خالد بعضهم بالبعض الآخر والتدخل فى شئونهم الداخلية ، أما

---

(١) عبد الله الصالح العثيمين : العلاقة بين حكام الإحساء وحركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، من أعمال ندوة تاريخ شرق الجزيرة العربية الدوحة ١٩٧٦ جـ٢ ص ص ٧٤٠ ـ ٧٤١ .
انظر بصدد ذلك أيضاً عثمان بن بشر : عنوان المجد فى تاريخ نجد جـ١ ص١٠ حيث يورد ما أقدم عليه شيوخ بنى خالد من قطع خراج الإحساء عن نجد .

(٢) عثمان بن بشر : عنوان المجد فى تاريخ نجد جـ١ ص ص ١٠٠ ـ ١٠٢ الذى حدد عام ١٢٠٨هـ الذى تولى فيه براك بن عبد المحسن نائباً للسعوديين نهاية لزوال ولاية آل حميد ، وكذلك لمع الشهاب ص٦٧ وما بعدها . حيث أورد المؤلف فصلاً فى ذكر تسخير آل سعود ملك بنى خالد .

المرحلة الأخيرة فتتميز بغزو الوهابيين للاحساء فى عام ١٧٩٥ . وعلى أثر خضوع الإحساء للسعوديين تمكن عبد العزيز بن سعود أن يعين حاكمًا على الإحساء لا ينتمى إلى أسرة بنى خالد وترك معه جماعة من العلماء للوعظ والإرشاد . كما أمر بتدمير ما وجده فى الإحساء من أضرحة وقبور[١]. ولا شك أن فتح السعوديين للاحساء أفادهم فائدة كبيرة من حيث توسعهم في نشر الدعوة الوهابية رغم الصعوبات العديدة التى واجهوها فى الاحساء بسبب أن معظم سكان مدنها لا سيما القطيف كانوا من الشيعة ، كذلك حقق السعوديون الكثير من المغانم الاقتصادية بسبب ما تشتهر به الاحساء من نشاطات تجارية وزراعية، كما اتخذ السعوديون من الإحساء قاعدة مكنتهم من التوسع فى إمارات الخليج المجاورة لها[٢].

ولعل ما يسترعى الانتباه أنه على الرغم من أن حكم بنى خالد قد انتهى بسيطرة السعوديين على الإحساء إلا أن بنى خالد نجحوا فى استعادة سلطتهم من جديد وذلك حين تقدمت القوات المصرية التركية إلى سواحل الإحساء بعد قضائها على الدولة السعودية الأولى فى عام ١٨١٨ ، وحاول محمد على أن يعيد حكم الإحساء إلى شيوخ بنى خالد، ومن المعروف أن سياسة محمد على كانت تتجه إلى إعادة المناطق التى استولى عليها إلى حكامها المحليين . وقبل انسحاب إبراهيم باشا من الإحساء فى عام ١٨١٩ كان قد أعاد الحكم إلى شيوخ بنى خالد، ومنح رحمة بن جابر الجلاهمة مقرًا فى الدمام، وساعد سلطان بن صقر على استرداد حكمه فى الشارقة . وتمكن بنو خالد نتيجة تلك الترتيبات التى وضعها إبراهيم باشا أن يحتفظوا بسلطتهم السياسية فى الإحساء لبضع سنوات غير أن الأمير خالد ابن سعود بعد أن اعترف بولائه لمحمد على وقبل دفع الخراج إلى القاهرة لم يلبث أن اشتبك فى صراع عنيف ضد بنى خالد وتمكن فى عام ١٨٣٠ أن يوقع الهزيمة بهم ويضم الإحساء إلى حكمه فى عام ١٨٣٤ . وحين عادت القوات المصرية التركية لاحتلال نجد والإحساء للمرة الثانية ١٨٣٨/ ١٨٤٠ بعد نفى الأمير فيصل ابن تركى إلى القاهرة أتيحت الفرصة لعودة بنى خالد إلى حكم الإحساء وإن كان ذلك لم يستمر لفترة طويلة إذ انسحبت القوات المصرية من الإحساء ونجد فى عام

---

(١) محمد مرسى عبد الله : إمارات الساحل وعمان والدولة السعودية ص ص ١٢٩ ـ ١٣٠ .

(٢) أبو حاكمة : تاريخ الكويت جـ١ القسم الأول ص ص٢٣٤ ـ ٢٣٥ .

١٨٤٠ وقفز إلى الحكم عبد الله بن ثنيان ١٨٤٠ ـ ١٨٤٢ الذى استرد الإحساء وعمل على التخلص من نفوذ بنى خالد هناك . وقد يكون حقيقة أن الدولة العثمانية قد حاولت بعد سيطرتها على الإحساء فى عام ١٨٧١ أن تعيد الحكم إلى أسرة بنى خالد إلا أن نفوذ هذه الأسرة زال نهائيًا بنجاح عبد العزيز بن سعود فى استرداد الإحساء فى عام ١٩١٣[١].

تنظيمات العتوب :

وفى شمال الإحساء يسترعى انتباهنا التشكيلات السياسية التى أقامها العتوب فى كل من الكويت وقطر والبحرين . والعتوب كانوا يشكلون حلفًا كبيراً يضم إليه أفخاذًا كثيرة تنتمى لعدة قبائل هاجرت من مواطنها الأولى فى نجد واستقرت على شواطئ الخليج وقد تحالفت هذه القبائل بعضها مع البعض الآخر وتصاهرت فيما بينها، وهذه الظاهرة تعد من الظواهر المألوفة فى مجتمعات شبه الجزيرة العربية ويذكر عثمان بن سند البصرى بصدد ذلك «والذى يظهر أن بنى عتبة متباينو النسب ولكنهم تقاربوا فنسب بعضهم لبعض»[٢].

وتكاد تتفق كثير من المصادر التى رجعنا إليها على أن العتوب هاجروا من أواسط الجزيرة العربية إلى سواحل الخليج حول مستهل القرن الثامن عشر، وعلى الرغم من أن العتوب متباينو النسب إلا أنهم يرجعون بأصولهم الأولى إلى قبيلة عنزة المعروفة فى أواسط نجد . وإن كان السويدى يرجعهم إلى قبيلة بنى رياح . وقد اشتهر من فروع العتوب أسرات ثلاث هى آل خليفة وآل صباح والجلاهمة، وإذا كانت الأسرتان الأوليتان لا تزالان تحكمان فى البحرين والكويت حتى وقتنا الحاضر فإن الفرع الثالث للعتوب وهم الجلاهمة لم يتمكنوا من الوصول إلى شىء من السلطة أو النفوذ .

وتختلف المصادر فيما بينها حول تسميتهم بالعتوب فعلى حين ترى بعض المصادر أن العتوب أخذوا ذلك الاسم من إحدى القبائل الكبيرة التى انضمت إليهم

---

(١) مجلة لغة العرب : نظرة فى الإحساء ص ص٣٦/ ٤٠ تموز ١٩١٣ .

(٢) على أبا حسين : من تاريخ العتوب خلال المخطوطات والوثائق، من أعمال الحلقة الدراسية لمراكز دراسات الخليج العربى - أبو ظبى - نوفمبر ١٩٧٩ ص٢٤٧ انظر أيضاً :
عثمان بن سند البصرى : سبائك العسجد فى أخبار أحمد نجل رزق الأسعد، بومباى ١٣١٥هـ ص١٨ .

ترى مصادر أخرى أنهم عرفو بالعتوب بعد ارتحالهم من مواطن إقامتهم فى نجد وعتبهم نحو الشمال . وإذا صح ذلك فإن التسمية هنا تكون مشتقة من الفعل عتب بمعنى انتقل أو ارتحل . ولا يقتصر تكوين العتوب على الأسر الثلاث التى أشرنا إليها وإنما ضم العتوب إليهم آل فاضل وبنى وائل وتميم وقبيلة سليم التى يتفرع عنها آل بنى على ببطونهم وأفخاذهم. وطبقًا لما يذكره النبهانى[1] أن آل خليفة هم الذين تزعموا هجرة العتوب من نجد، ولكننا نرجح زعامة آل صباح خاصة إذا ما تأكد لدينا أن زعماء العتوب الأوائل اتفقوا لدى استقرارهم فى الكويت على أن يتولى آل صباح شئون الحكم .

ولا يكاد يعرف على وجه الدقة الأسباب التى أدت إلى نزوح العتوب من نجد إلى سواحل الخليج كما لا يزال هناك خلاف بين المصادر فى تحديد الموطن الأصلى للعتوب، فعلى الرغم من أن معظم المصادر تتفق على نسبتهم إلى إقليم الهدار من مقاطعة الأفلاج فى نجد ، فإن بعض المصادر الأخرى تنسبهم إلى نجران أو حمير، كما لا يزال هناك خلاف على أسباب هجرتهم من بين المتتبعين لهجرات القبائل فى شبه الجزيرة العربية وإن كانت كثير من الروايات تتفق على أن سبب هجرتهم يعود إلى تلك الخصومات والمنازعات التى أخذوا يتعرضون لها فى داخلية نجد بينهم وبين غيرهم من البطون. وطبقًا لما يذكره المؤرخ الكويتى عبد العزيز الرشيد إن هناك إهانات لحقت بهم فى نجد ولذلك ارتحلوا من بلادهم سعيًا وراء الاستقرار والاستقلال، وكان ذلك على أثر حدوث نزاع بينهم وبين أبناء عمومتهم من بطن جميلة من عنزة، وعلى الرغم من أن العتوب نجحوا فى التغلب على خصومهم وأخرجوهم من بلادهم إلا أن أولئك الخصوم لجأوا إلى قبيلة الدواسر حيث تم لهم التغلب على العتوب ونجحوا فى إخراجهم من نجد[2]. ولا يوجد لدينا تاريخ محدد لوصول العتوب إلى سواحل الخليج إلا أن بعض الباحثين استطاع أن يستدل من إحدى الوثائق التركية بأن العتوب كان لهم دور مع سكان البحرين وقطر قبيل مستهل القرن الثامن عشر[3] ، وهذا يعنى أن استقرار العتوب

---

(١) النبهانى : التحفة النبهانية فى تاريخ الجزيرة العربية - البحرين ص ١٩ .

(٢) عبد العزيز الرشيد : تاريخ الكويت ص ص٣١ - ٣٢ .

(٣) على أبا حسين : مرجع سبق ذكره،انظر نص وثيقة من والى البصرة إلى الصدر الأعظم مؤرخة فى ٢١ =

تم فى بعض مناطق الخليج قبل بداية ظهور التشكيلات السياسية التى أقاموها منذ النصف الأول من القرن الثامن عشر . وعلى الرغم من الغموض الذى يكتنف تاريخ العتوب حول بدء هجرتهم إلا أن بعض المصادر تؤكد أن العتوب استقروا فى بداية الأمر فى المناطق المجاورة للبحرين إلي أن بدأ الوالى الفارسى على البحرين مهدى قلى خان يخشى من قوتهم المتزايدة ومن ثم أغرى عرب الهولة الذين يسكنون الساحل الشرقى للخليج بالتعرض لهم، ولذلك قرر العتوب مهاجمة البحرين واستطاعوا السيطرة عليها ، ولجأ مهدى خان إلى القلاع يتحصن بها، ولكن عرب الهولة استطاعوا السيطرة على الموقف مما أجبر العتوب على مغادرة البحرين بعد أن فشلوا فى انتزاعها من أيدى الفرس . ومن البحرين اتجه العتوب إلى قطر واستقروا بها عدة سنوات تحت كنف حكامها من آل مسلم ولكن لم يلبث أن حل عليهم غضب حكامها الذين أوجسوا خيفة من أمرهم وخشوا استفحال شأنهم فأمروهم بمغادرة البلاد ولبى العتوب الطلب حيث أودعوا أموالهم والعزيز لديهم فى سفن شراعية وساروا بها ضاربين عرض البحر[1]. أما عن آل مسلم فقد تحالفوا مع عرب الهولة وساروا خلف العتوب حيث أدركوهم فى رأس التنورة ، وفى ذلك المكان جرى قتال بين الفريقين كان النصر فيه للعتوب بيد أن هذا النصر لم يؤد إلى عودتهم إلى قطر أو البحرين وإنما سار العتوب إلى قيس ثم إلى المخراق ثم يمموا وجوههم صوب البصرة فى مائة وخمسين سفينة شراعية وهناك طلبوا من واليها مساعدتهم ضد الفرس والسماح لهم بسكنى أية منطقة تخضع لسلطة الدولة العثمانية. وفيما يبدو أن والى البصرة قد اطمأن إليهم حتى أنه كتب إلى السلطان العثمانى رسالة يشرح فيها حالة العتوب ولعل موافقة السلطان العثمانى هى التى أقرتهم فى الكويت، وكان ذلك فى السنوات الأولى من القرن الثامن عشر[2]، وذلك طبقًا لما تؤكده الكثير من المصادر التى تحدد عام ١٧١٦ باعتباره أقرب التواريخ لتحديد نزول جماعات العتوب إلى الكويت ، كما أن ذلك

= رجب ١١١٣هـ - ٢٣ ديسمبر ١٧٠١ ص ص٢٥٩ - ٢٦٠ من أرشيف رئاسة الوزراء العثماني - دفاتر المهمة رقم ١١١ ص٧١٣ ترجمة خليل ساحلي وأحمد إغراقجة .

(١) عبد العزيز الرشيد : مرجع سبق ذكره ص ٣٣ .

(٢) عن الروايات المحلية المتعلقة باستقرار العتوب فى الكويت انظر :
Dickson, H.R., Kuwait and Her Neighbours London 1956 pp. 26 - 28 .

العام يحدد أيضًا بداية التنظيم الذى وضعه العتوب وذلك بعد تحالف الشيخ سلمان بن أحمد عن بنى الصباح والشيخ جابر بن عتبة عن الجلاهمة والشيخ خليفة بن محمد عن آل خليفة(١). وكانت العوامل التى مكنت العتوب من الاستقرار فى الكويت ترتبط إلى حد كبير بالضعف الذى تعرض له بنو خالد التى كانت تمتد سيطرتهم إلى الكويت وذلك حين دب الشقاق والنزاع بين زعماء بنى خالد إبان تلك الفترة التى نتحدث عنها.

وما كاد العتوب يستقرون بالكويت حتى اتجهوا إلى تأمين مركزهم من قبل السلطات العثمانية فى بغداد،وتذكر بعض المصادر بصدد ذلك أنهم أوفدوا الشيخ صباح إلى الباشا العثمانى فى بغداد فى عام ١٧١٧ لكى يوضح له أنهم فقراء نزحوا فى طلب العيش ولا يبغون ضرراً بأحد فنجح فى وفادته ومنحه باشا بغداد لقب قائمقام فى عام ١٧١٨(٢). وهكذا برزت أسرة آل صباح من بين تحالف العتوب باعتبارها الأسرة الحاكمة. وبصدد ذلك تجمع الكثير من المصادر على أنه حدث اتفاق بين الزعامات المكونة لتحالف العتوب على أن يتولى آل صباح الحكم وآل خليفة التجارة والجلاهمة العمل فى البحر . ومع ذلك فإن اتحاد العتوب لم يكن مقدراً له الظهور إلا بعد أن تصاهر العتوب إلى عشائر أخرى وكانوا يهدفون بذلك إلى تنمية قوتهم وصد الهجمات القبلية التى كانوا كثيراً ما يتعرضون لها ، وعلى الرغم من أن قبيلة بنى خالد كانت من أهم القبائل المتاخمة لنفوذ العتوب جنوبًا إلا أنه من المؤكد أن هناك قبائل أخرى ناصبت العتوب العداء غير قبيلة بنى خالد التى عاش العتوب فى كنفها وفى وفاق معها(٣).

على أنه لم يكد يمضى أكثر من خمسين عامًا على قيام حلف العتوب حتى حدث أول انشقاق فيه وذلك بانفصال آل خليفة والتجائهم إلى الزبارة،وهى ميناء يقع على ساحل قطر فى مواجهة الجزيرة الكبرى من جزر البحرين . ثم اتجه آل خليفة بعد ذلك إلى الاستيلاء على البحرين فى عام ١٧٨٣ حيث نجحوا فى

---

(١) Bombay Govt., op. cit., Historical Sketch the Uttoobee Tribe Of Arabs Vol. XXIV Bombay 1856 p. 362 SQ .

(٢) عثمان بن سند البصرى : مصدر سبق ذكره ص ١٨.

(٣) لعل من أهم الدراسات التى وضعت عن تنظيم العتوب هى تلك الدراسة التى وضعها المستر فرانسيس واردن ونشرت فى مختارات حكومة بومباى :

Bombay Govt., S.R.B.G., The Uttoobee Tribe Of Arabs PP. 361 - 425 .

تأسيس أسرتهم الحاكمة هناك . وعلى الرغم من أن انفصال آل خليفة عن آل صباح كان نتيجة لنزاع قام بينهم إلا أن عثمان بن سند البصرى يؤكد مع ذلك اشتراك عبد الله بن صباح مع خليفة بن محمد فى تعمير الزبارة وتسميتها بذلك الاسم(١) .

ولعل أصح الأقوال فى سبب انفصال آل خليفة عن آل صباح والجلاهمة هو ما كانت تتعرض له الكويت من غارات قبائل بنى كعب ، وهى قبائل عربية تقطن منطقة عربستان منذ السنوات الأولى من القرن السابع عشر ، وعاشت هناك مستقلة عن كل من فارس والدولة العثمانية ومارست نشاطها البحرى ضد السفن التجارية العابرة فى الخليج،كما مارست نشاطًا عدائيًا ضد الكويت التى كانت مطمعًا لشيوخ تلك القبيلة(٢) . وتعلل الكثير من المصادر أسباب انفصال آل خليفة عن آل صباح بأن تراكم الثروة فى الكويت جعل الفرع التجارى من اتحاد العتوب وهم آل خليفة يرغبون فى التحلل من تحالفهم القديم لكى ينفردوا بالغنى وتحصيل الثروة . واستطاع خليفة بن محمد بما جبل عليه من ذكاء أن يصور للفرعين الآخرين ـ آل صباح والجلاهمة ـ مخايل الثراء الذى سيحدث إذا تم الانتقال إلى السواحل المجاورة للبحرين حيث يكثر اللؤلو، ولعل الفوائد المرتقبة دعتهم إلى أن يأذنوا لشيخ بنى خليفة بمغادرة الكويت مع قسم كبير من قبيلته حيث اتجهوا إلى الزبارة وتمكنوا من الاستقلال بها فى عام ١٧٦٧ ، وذلك بعد نجاحهم فى صد الهجمات التى تعرضوا لها من قبل آل مسلم(٣) . وفى الزبارة استطاع الشيخ محمد بن خليفة أن ينمى ثروته عن طريق إقراض الصيادين والغواصين فى بداية موسم الغوص، وكان يتحتم عليهم حسب التقاليد السائدة ألا يبيعوا انتاجهم لغيره، وهكذا أتاح له التوسع فى اقراض هؤلاء مصدراً كبيراً لتنمية ثروته عن طريق احتكار انتاجهم من اللؤلو والتحكم فى بيعه، وأخيراً تآلف محمد بن خليفة مع أهالى الزبارة فأمروه عليهم .

والأمر الذى لا شك فيه أن استقرار آل خليفة فى الزبارة واستقلالهم بها كان له أثر كبير على العلاقات التى قامت بينهم وبين آل صباح والجلاهمة إذ قدر آل

---

(١) عثمان بن سند : مصدر سبق ذكره ص ١٩ .

(٢) نفسه ص ص ١٨ ـ ١٩ .

(٣) خليفة النبهانى : التحفة النبهانية فى تاريخ الجزيرة العربية ـ البحرين ص ١٢١ .

صباح المزايا العديدة التى حصل عليها آل خليفة فرغبوا فى الاقتداء بهم وذلك بالتخلص من قيود الحلف مع الجلاهمة فامتنعوا عن مقاسمتهم الوارد ،وفى النهاية قاموا بطردهم من الكويت، وطلب الجلاهمة اللجوء إلى آل خليفة فى الزبارة فرحبوا بهم وعينوا لكل شيخ من شيوخهم حسب منزلته دخلاً يكفيه . ولا شك أن ترحيب آل خليفة بالجلاهمة كان خطة ذكية من قبل الشيخ محمد بن خليفة لأنه استعان بقوتهم البحرية فى تحقيق الأغراض التوسعية التى كان ينشدها بضم جزائر البحرين إلى مركز حكمه فى الزبارة ومن ثم رأى أن يستعين بالجلاهمة فى تحقيق تلك الغاية، والأمر الذى لا شك فيه أن الجلاهمة قدموا مساعدات فعالة لآل خليفة فى السيطرة على البحرين[١] .

وقد يكون من المناسب أن نشير فى هذا المقام إلى أن السبب الرئيسى فى نجاح آل خليفة والجلاهمة فى الاستيلاء على البحرين يرجع إلى احتلال الفرس للبصرة فى عام ١٧٧٦ ، وكان ذلك على عهد كريم خان الزندى . وقد أدى ذلك الاحتلال إلى هجرة تجار البصرة الأثرياء إلى الزبارة مما كان سبباً فى انتعاش آل خليفة اقتصادياً ثم أعقب ذلك مقتل كريم خان الزندى فى عام ١٧٧٩ ووقعت الاضطرابات الداخلية فى المقاطعات الفارسية[٢]، وعانت جزر البحرين من آثار تلك الاضطرابات التى ظهرت فيها مصطبغة بالناحية المذهبية؛ ونعنى بذلك بين مذهب السنة ومذهب الشيعة إذ كان يتزعم السنة الشيخ أحمد بن ماجد زعيم قرية البلاد القديم ويتزعم الشيعة الحاج مدن الحفصى، وكانت السلطة معقودة له آنذاك الأمر الذى أثار عليه زعماء السنة فقرروا التخلص من سيطرة الشيعة التى كان زعماؤها يتجهون إلى نيل التأييد من فارس، ولذلك ما كادت فارس تتردى فى تلك الاضطرابات الداخلية حتى تشجع زعماء السنة وقرروا التخلص من سيطرة الشيعة ولتحقيق غايتهم أرسلوا وفداً إلى الزبارة للاستعانة بآل خليفة ، وقدم هؤلاء يؤازرهم الجلاهمة بزعامة جابر بن عتبة وأبناؤه الأربعة ومن بينهم رحمة بن جابر

---

(١) عن هجرة الجلاهمة إلى الزبارة انظر :

Bombay Gov., op. cit., Historicai Sketch of The Uttoobee Tribe Of Arabs (Bahrein) by Francis Warden p. 363 .

(٢) Farroughy, Abbas, Bahrein Islands pp. 67 - 69 .

ونجحوا فى بسط الأمن والسيطرة على البحرين، وعاقت فارس مشكلاتها الداخلية عن التدخل فى أمور البحرين[1]. وهكذا يتميز عام ١٧٨٣ بوصول محمد بن خليفة إلى البحرين وضمها إلى قاعدة حكمه فى الزبارة. غير أنه لم يلبث بعد ذلك بعدة سنوات أن نقل عاصمة حكمه من الزبارة إلى البحرين وكان ذلك فى أوائل القرن التاسع عشر حين تغلبت القوات السعودية على الزبارة ، ومن ثم آثر آل خليفة نقل عاصمتهم إلى جزيرة منفصلة عن البر حماية لها من الغزوات السعودية، ومع ذلك فقد ظل آل خليفة يعتبرون الزبارة وغيرها من المناطق المطلة على سواحل قطر من توابع البحرين[2].

وإذا كان آل خليفة قد استطاعوا أن ينالوا الكسب السياسى والعسكرى بمعاونة الجلاهمة لهم إلا أنهم ما لبثوا أن تنكروا لهم وفيما يبدو أن رحمة بن جابر الذى انتقلت إليه زعامة الجلاهمة فى ذلك الوقت لم يقنع بالمكافآت التى قدمها آل خليفة له ولا تباعه ولذلك غادر الزبارة متجهًا إلى الرويس، وهى بقعة قاحلة على مسافة قصيرة إلى الشرق من الزبارة، كما أقام رحمة بن جابر معقلاً آخر فى دوحة حسن حيث لا يزال يوجد بها بقايا لحصن صغير يسمى بوكر الثعلب، وهو اللقب الذى اشتهر به رحمة بن جابر وهو فى أوج نفوذه . وقد وجه الجلاهمة همهم إلى تقوية أسطولهم البحرى، وبعدائهم لآل خليفة غرسوا فى نفوسهم الخوف وأورثوهم ظمأ متعطشًا للقضاء على الجلاهمة حتى أن آل خليفة أضافوا إلى قوتهم كل ما كانت تستطيع أرصدتهم استئجاره من المرتزقة وذلك لمواجهة الجهود التى بذلها رحمة بن جابر الذى قام بسلسلة من الاعتداءات البحرية العنيفة ضد آل خليفة[3]. والجدير بالذكر أن رحمة بن جابر بعد أن أخذ يفقد أتباعه شيئًا فشيئًا بدأ يستعين بالرقيق الأفريقى ويجعل منهم القوة الرئيسية له . وقد يكون من المفيد أن نشير هنا إلى أن رحمة بن جابر كان يعد نموذجًا فريدًا للبحارة العرب فى الخليج

---

(١) يوسف الفلكى : قضية البحرين بين الماضى والحاضر القاهرة ١٩٥٣ ص ص ١٥ - ١٦ .

(٢) لا تزال مشكلة الزبارة بين قطر والبحرين قائمة حتى وقتنا الحاضر ولمزيد من التفصيل يمكن الرجوع إلى:
El Bahrna, Hussain, The Legal Status Of The Arabian Gulf States p. 249 ff.

(٣) للتعرف على العمليات البحرية التى كان يقوم بها الجلاهمة ضد آل خليفة انظر :
Sketch of The Proceeding of Rahma Bin Jabir Chief of Khor Hasan 1826
See also Brief Sketch of The Proceeding down the year 1831 cf. Busheer Bin Rahma, S.R.B.G. pp. 521 - 529 .

قضى حياته مستخدما وسائل البطش ضد سفن أعدائه حتى اشتهر بتلك المذابح الدموية العنيفة التى دارت فى مياه الخليج، وليس معنى هذا أن رحمة بن جابر كان يبغى من تلك الحوادث السلب والنهب وإنما كان يبغى من ورائها تنمية قوته البحرية والاستحواذ على نصيب من السلطة له ولأسرته. وقد وصفه الرحالة الإنجليزى بكنجهام Buckingham بأنه كان بسيطًا فى ملبسه لا يرتدى إلا سترة ممزقة وقد ملأت طعنات الخناجر والسيوف أجزاء كثيرة من جسده، وكان ذا وجه قمئ زاد من فظاظته فقده لإحدى عينيه، وقد حاول عندما استقر فى الدمام فى أواخر أيامه أن يضفى على مركزه من الهيبة باعتباره حاكمًا ولكن سرعان ما استهوته أعمال البحر فعاد إليها[1].

كان الجلاهمة يطالبون بحقوقهم أو على الأقل ثمن مساعدتهم لآل خليفة فى السيطرة على البحرين، ولكن عندما ظهر من آل خليفة التنكر للجلاهمة أخذ هؤلاء يواجهونهم بالعداء ولم يترددوا فى أن يضعوا أنفسهم فى خدمة أعدائهم ففى عام ١٨٠٠ تحالف الجلاهمة مع سلطان بن أحمد سلطان مسقط ١٧٩٣ - ١٨٠٤ حينما حاول ضم البحرين وتمكن بفضل المعونة التى تلقاها من الجلاهمة من أسر عدد كبير من زعماء آل خليفة أخذهم أسرى إلى مسقط. ولكن لم يلبث أن استنجد آل خليفة بالسعوديين وتمكنوا فى العام التالى من استعادة البحرين[2]، وإن كانت نتيجة ذلك خضوعهم للنفوذ السعودى خاصة بعد أن عين السعوديون عبد الله بن عفيصان وكيلاً لهم فى البحرين فانفرد بحكم الجزيرة ولم يترك لآل خليفة إلا شيئًا بسيطًا من النفوذ، كما اتصفت ولايته بالشدة فى معاملة الأهالى وإرغامهم على اعتناق المبادئ الوهابية الأمر الذى دفع آل خليفة إلى مغادرة البحرين والالتجاء إلى موطنهم القديم فى الزبارة ومنها أخذوا يوالون اتصالاتهم بسلطان مسقط والإنجليز، ولما كانت سياسة الإنجليز لم تتضح بعد فى البحرين إذ كان أهم ما يعنون به فى تلك الفترة (١٨٠٩) القضاء على القواسم فى الساحل الجنوبى للخليج فقد رفض الإنجليز تقديم المساعدة لآل خليفة لما قد يجره عليهم

---

(١) راجع دراستنا عن رحمة بن جابر الجلاهمة فى حوليات كلية الآداب جامعة عين شمس العدد التاسع ص١٨٥ ، ١٩٦٤ .

(٢)عباس إقبال : مطالعاتى در باب بحرين وسواحل وجزائر خليج فارس ص ص١٢١ - ١٢٢ ، انظر أيضاً:
Bombay Govt., op. cit., kemball, A.B., Chronlogical Table Of Events Connected With the Government of Muscat, Uttoobee and Wahabees p. 141 SQ . .

ذلك من عداء مباشر مع السعوديين وهو الأمر الذى كانوا يتجنبونه بقدر الإمكان. وكان رفض الإنجليز التدخل فرصة استغلها السعوديون فى تدعيم سيطرتهم، ولذلك عمل آل خليفة على الاستنجاد بالفرس (١٨١١) وإن كان التقدم الذى أحرزته القوات المصرية فى شبه الجزيرة العربية فى ذلك العام هو السبب الرئيسى الذى أرغم السعوديين على سحب قواتهم من البحرين لكى يواجهوا القوات الزاحفة فى نجد، بل طلب السعوديون مهادنة آل خليفة، وتأكيداً على حسن نواياهم بادروا بإطلاق جميع من كان معتقلاً لديهم من زعمائهم وسمحوا لهم بالعودة إلى البحرين[١].

ومما تجدر الإشارة إليه أن الجلاهمة وجدوا فى سيطرة السعوديين على البحرين عاملاً مساعداً لهم فى تحقيق آمالهم، ولذلك تحالفوا معهم وأقرهم السعوديون على ساحل القطيف وإن كان ذلك التحالف لم يلبث أن انفصمت عروته حينما هادن السعوديون آل خليفة، ولذلك أسرع الجلاهمة بالانفصال عن تحالفهم مع السعوديين واتجهوا إلى مسقط يستنصرون حاكمها السيد سعيد بن سلطان ١٨٠٦ ـ ١٨٥٦ الذى كان يختط سياسة يستهدف بها تدعيم مركزه فى الخليج، ومن ثم كان يرى أهمية سيطرته على البحرين سيما وأنه كان يسيطر على عدة مواقع هامة على الساحل الشرقى للخليج كبندر عباس وشهبار، وإذا أضفنا إلى ذلك الأهمية الاقتصادية للبحرين لأدركنا الجهود الكبيرة التى بذلها السيد سعيد للسيطرة عليها لما قد تغله من موارد للسلطنة نظراً لما تشتهر به من مصائد اللؤلؤ، وقد دعم السيد سعيد حملته على البحرين فى عام ١٨١٥/١٨١٦ والتى تمت بالتعاون مع الجلاهمة بعدة مطالب وادعاءات قديمة على أساس خضوعها لعمان فى الماضى[٢]. ونجحت قوات السيد سعيد والجلاهمة فى السيطرة على قلعة عراد ولكن لم يلبث آل خليفة أن تمكنوا من رد ذلك الهجوم وظهرت الخسارة واضحة فى قوات السيد سعيد. ويؤكد أيتشيسون Aitchison أن تعاون الجلاهمة مع سلطان مسقط كان على أساس إقامة رحمة حاكماً على البحرين تحت حماية السيد سعيد[٣]. ولذلك اتجهٔ الجلاهمة بعد الهزيمة التى واجهها سلطان مسقط من قبل آل

---

(١) أمين الريحانى : ملوك العرب أو رحلة فى البلاد العربية جـ٢ ص ص٢٢٣ ـ ٢٢٤ .

(٢) Wilson, A., The Persian Gulf P. 210.

(٣) Aitchison, A Collection Of Treaties etc., vol. x Calcutta 1892 pp. 116 - 117 .

خليفة إلى التعاون مع القوات المصرية حين وصلت إلى الإحساء فى عام ١٨١٨. ففى ذلك العام لحق رحمة بن جابر زعيم الجلاهمة من معقله بقطر بإبراهيم باشا وعاونه فى الاستيلاء على الإحساء والقطيف(١). ولذلك كافأه القائد المصرى على ذلك بإقراره على الدمام حيث شيد لنفسه قلعة بها اتخذها مركزاً لحكمه ولإدارة عملياته البحرية فى الخليج(٢).

على أن انسحاب القوات المصرية من الإحساء فى عام ١٨١٩ كان من العوامل الرئيسية التى أضعفت الجلاهمة، وظهر ذلك واضحاً حين استعاد تركى بن عبد الله الرياض واسترد الإحساء وفقد رحمة بن جابر معقله بالدمام بعد أن أحرقه السعوديون، فالتجأ بأعوانه وممتلكاته واستقر فى بوشهر على الساحل الشرقى للخليج(٣). وقد وجد رحمة عوناً من السلطات الفارسية، ومن المحتمل أن يكون الإنجليز قد أمدوه أيضاً بمساعدات ليواصل بها صراعه ضد السعوديين والعمل على استرداد معقله بالدمام ، على أن الإنجليز قد أكدوا حرصهم على ضمان الأمن والهدوء فى الخليج ومعنى ذلك أن يقتصر حكم الجلاهمة على الإحساء دون أن يطالبوا بالبحرين، إذ كانت بريطانيا وخاصة عقب حملة ١٨١٩ حريصة على تأكيد انجازات تلك الحملة . ومما تجدر الإشارة إليه أن الجلاهمة رفضوا أن يكونوا عضواً فى المعاهدة العامة التى عقدتها بريطانيا مع شيوخ الخليج فى عام ١٨٢٠، ولعل ذلك يرجع إلى دخول آل خليفة فى تلك المعاهدة(٤). وفى الوقت الذى فقد فيه الجلاهمة الأمل فى مساعدة الإنجليز لهم على استرداد البحرين وجدوا فى انضمامهم لأمير شيراز فى الحملة التى كان يقوم بها لاسترداد البحرين من آل خليفة فرصة سانحة للانتقام من خصومهم ، ذلك أن حاكم مقاطعة فارستان التى كان يحكمها أمير شيراز والذى كانت تدخل فى حوزته معظم جزر وموانى الخليج لم يسلم باستيلاء آل خليفة على البحرين وقاد حملة عسكرية

(١) عبد الحمية البطريق : ذكرى البطل الفاتح إبراهيم باشا، ، إبراهيم باشا فى بلاد العرب ص٢٧ نشر الجمعية الملكية المصرية للدراسات التاريخية القاهرة ١٩٤٨ .

(٢) ج - ج لوريمر : مرجع سبق ذكره جـ٣ ص١٦٢٧ .

(٣) Wilson, A., The Persian Gulf P. 211.

(٤) Bombay Govt., op. cit.. Chronological Table by A.B. Kemball vol. XXIV Bombay 1856 P. 142 .

ضد آل خليفة بمعاونة الجلاهمة فى عام ١٨٢٠ ، على أن تلك الحملة ما كادت تقترب من البحرين حتى أسرعت السلطات البريطانية فى الخليج بإيقافها وتم ذلك بعد اتفاق كل من الكولونيل بروس Bruce ممثل شركة الهند الشرقية البريطانية فى بوشهر وأمير شيراز على عقدة معاهدة ١٨٢٢ ، وفى هذه المعاهدة اعترف بروس بتبعية البحرين لفارس ونتج عن ذلك الاعتراف اعتراض السلطات الفارسية على حليفها رحمة بن جابر الجلاهمة وابعاده عن البحرين، وهكذا يضطر الجلاهمة إلى الانفصال عن تحالفهم مع فارس ويلتجئوا للمرة الثانية إلى سلطان مسقط واضعين أنفسهم تحت حمايته[١]. وفى مسقط أخذ رحمة بن جابر الجلاهمة يرغب السيد سعيد فى معاودة الاستيلاء على البحرين،ولم يلبث أن تأجج الصراع بين آل خليفة وسلطان مسقط وكان ذلك على أثر احتجاز السيد سعيد جماعة من تجار البحرين كانوا فى طريقهم إلى الهند وكتب إلى آل خليفة يطلب منهم الدخول فى طاعته، فاستعد آل خليفة للحرب حين قدمت سفن مسقط يرافقها الجلاهمة ونزلت فى موضع على ساحل جزيرة سترا - إحدى جزر البحرين - وكان الشيخ سلمان بن خليفة قد خرج بقواته بصحبة أخيه الشيخ عبد الله ودارت معركة عنيفة أسفرت عن اندحار قوات مسقط والجلاهمة وتعرف هذه المعركة فى تاريخ البحرين باسم واقعة المقطع أو دولة الامام فى سترا[٢]. وانتهى الأمر بأن عقد السيد سعيد معاهدة مع الشيخ سلمان بن خليفة نصت على أن تدفع البحرين لمسقط مبلغًا من المال سنويًا نظير أن يمتنع السيد سعيد عن مهاجمة البحرين ويقوم فى نفس الوقت باطلاق سراح المحتجزين لديه من البحرين[٣]. وقد استمر آل خليفة يدفعون الخراج إلى سلطنة مسقط لعدة سنوات إلى أن توقفوا عن ذلك حين انتقل السيد سعيد للإقامة فى زنجبار .

وعلى الرغم من المقاومة الصلبة التى تزعمها آل خليفة ضد سلطنة مسقط والجلاهمة إلا أن الأمر الذى لا شك فيه أن الإنجليز هم الذين حموا آل خليفة وذلك لإدراكهم - رغم صداقتهم لسلطان مسقط - ما قد يترتب على عدم استقرار

(١) عباس إقبال : مرجع سبق ذكره ص ١٣٠ .
(٢) النبهانى : التحفة النبهانية ص ١٤٣ .
(٣) الريحانى : مصدر سبق ذكره جـ ٢ ص ٢٢٥ .

الوضع فى منطقة الخليج العربى من إضرار بمصالحهم فيما لو قدر لسلطان مسقط السيطرة على البحرين وتأسيس قوة بحرية كبيرة فى الخليج، وهو الأمر الذى كانت حكومة الهند البريطانية تعمل على الحيلولة دون حدوثه .

لم يجد الجلاهمة بعد ذلك حلفاء يستعينون بهم للقضاء على خصومهم، ولعل ذلك مما جعل رحمة بن جابر يخوض معركته الأخيرة معتمداً على ما تبقى لديه من قوة وما ظل فى حوزته من أتباع. وفى عام ١٨٢٨ حدثت المعركة الفاصلة بين الجلاهمة وآل خليفة، وكان رحمة بن جابر لا يزال حتى ذلك الوقت خصماً عنيداً لهم وإن كانت السنوات الماضية قد أوهنت منه العظم وذهبت ببصره، وقد تمكن من دخول القطيف بسفينته المشهورة « غطروشة ». وفى ساحل القطيف جرد عليه الشيخ عبد الله بن خليفة السفن المزودة بالرجال والسلاح وخرج يقودها بنفسه،واستطاع آل خليفة أن يحيطوا برحمة بن جابر فى ميناء القطيف فأمر بنشر الشراع وطلب ميداناً متسعاً للقتال فأجيب إلى طلبه ثم انقض عليه آل خليفة من كل جانب، وكان رحمة بن جابر يقود المعركة وهو جالس عند خزانة سفينته يسأل عن السفن المهاجمة وعن أسماء قوادها ويصدر أوامره للبحارة بينما رجاله يتبادلون الرصاص مع آل خليفة. وأخيراً عندما شعر بقوة الحصار البحرى عمد إلى إشعال النيران فى مخزن البارود فى سفينته فانفجرت السفينة وغرق هو ومن معه وتسمى هذه الحادثة فى تاريخ البحرين باسم ذبحة رحمة الجلاهمة[١] .

وبانتهاء نفوذ الجلاهمة وضح الاستقرار السياسى فى السواحل الشمالية للخليج العربى بعد أن استقر آل صباح فى الكويت وآل خليفة فى البحرين ولم يعد للجلاهمة من أثر إلا ما أعقب ذلك من محاولات غير ناجحة حاول بها بعض من بقى منهم استعادة نفوذهم ، ولكن الضعف كان قد عصف بهم من كل جانب وخاصة بعد فقد زعيمهم،ولذلك فشلت بعض المحاولات التى تزعمها أحد أبنائه ويدعى بشر بالتعاون مع سلطان مسقط الذى اتجه إلى استئناف نزاعه مع آل خليفة منتهزا فرصة امتناع الشيخ عبد الله عن دفع الأموال السنوية المتفق عليها

(١) النبهانى : التحفة النبهانية البحرين ص ١٥٠ ، وكذلك امين الريحانى ، مصدر سبق ذكره جـ ٢ ص ص ٢٢٦/٢٢٧ .

ولكن انتهى الأمـر بانتصار كبيـر أحرزه آل خليفة على قـوات مسقط وفقـد السيد سعيد ثلاثة آلاف من رجاله[١].

ومما يستـرعى الانتباه أن الحـوادث البحرية التى كـان يقوم بها الجـلاهمة لم تستـرع نظر السلطان البريطانية فى الخليج بنفـس الدرجة التى كانت تستـرعى بها عمليات القواسم فى الساحل الجنوبى للخليج[٢]. ولعلنا نذهب فى تعليل ذلك بأن نشاط الجلاهمة البحرى كـان مقتصراً على معاداة السفن العربية التـابعة لخصومهم كما كان مسرح عملياتهم المناطق الشمالية من الخليج وهى المناطق التى لم تكن قد امتدت إليـها السيطرة البريطانـية بعد، ولكن ما كادت بـريطانيا تنتهى من قمـعها للنشاط البحرى للقواسم حتى استغلت ما كان يقوم به الجلاهمة من اضطرابات فى البحرين والقطيف والإحساء لكى تعمل على السيطرة على تلك المناطق وخاصة أن آل خليفة رحـبوا بالصداقة البـريطانية إبان تلك الفترة كى يوطدوا دعـامة حكمهم ضد فارس والسـعوديين وسلطنة مسقط والجـلاهمة . وكما سبق أن أشرنا أسرع شيوخ البحرين فى الانضمام إلى معاهدة الصلح العامة فى عام ١٨٢٠ وكانت هذه المعاهدة تشكل بداية لسلسلة من المعاهدات التى عقدها الإنجليز مع آل خليفة والتى انتـهت بوضعـهم تحت الحـماية البـريطانيـة فى النصف الثـانى من القرن التـاسع عشر[٣].

بالإضافـة إلى ما عرضنا إليـه من تنظيمات العـتوب فى الساحل الشـمالى الغربى من الخليج قد يكون من المفيد أن نشير أيضاً إلى تنظيم سياسى قبلى نما فى أقصى الشمال من السـواحل الشرقية للخليج حيث كانت قـبائل بنى كعب تسيطر على معظم المناطق الممـتدة من شط العرب إلى منطقة الأحواز الواقـعة عند مصب

---

(١) أمين الريحانى : مصدر سبق ذكره جـ ٢ ص٢٢٧ .

(٢) لمزيد من التفاصيل عن رحـمة بن جابر الجلاهمة راجع دراستنا عنه فى مجلة كليـة الآداب ـ جامعة عين شمس ـ العدد التاسع ١٩٦٤ .
كذلك يمكن الرجـوع إلى وثائق بومباى ص ص ٥٢١ ـ ٥٢٩ عـدد ٢٤ ، وتعتبـر كتابات بكنجـهام من أهم المصادر التى كتبت عنه خاصة وأن رحلته إلى الخليج كانت معاصرة لنهايته .
Buckingham, Travels in Assyria Media and Persia vol. II p. 356 SQ.

(٣) Aitchison, A Collection of Treaties, Engagements and Sanads Relating to India and Neighbouring Countries vol.X Calcutta 1892. pp. 116 - 117.

نهر القارون، وقد عد أسطولهم واحـدا من أهم الأساطيل البحرية التى ظهرت فى القرن الثامن عشر، وقد هاجرت تلك القبائل إلى المنطقة خلال القرن السابع عشر وإن كان لا يعرف على وجه الدقة المكان الذى جاءوا منه أو سبب هجرتهم. وعلى الرغم من أنهم كانوا يعتبرون أنفسهم من رعايا الدولة العثمانية إلا أن وضعهم كان شائكًا بين فارس من ناحية والدولة العثمانية من ناحية أخرى[1].

والجدير بالذكر أن الأوضاع المضطربة التى مرت بها المملكة الفارسية وخاصة عقب اغتيـال نادرشاه قد أتاحت لبنى كعب الفرصة لـضم أراض واسعة من فارس وبذلك أصبحوا تحت التبعية الفارسيـة والعثمانية إذ إن منطقة قعبان تقع فى أراضى الدولة العثمانية ومدينة الدورق تقع فى الجانب الفارسى. وقد أثار نشاط بنو كعب كريم خـان الزندى الذى وجه حـملتين ضدهم فـى عام ١٧٥٦ و ١٧٦٥، وفيـها خاض بنـو كعب صراعًـا مريرًا ضـد الفرس حيـث سقط فى الحـملة الثانـية أهم مركزين من مـراكز تجمعهم وهما مـدينتا قعبان والدورق مما أرغم الشـيخ سليمان زعيم بنى كـعب إلى نقل عاصمتـه إلى الفلاحية الواقـعة إلى الشمال من قـعبان، واضطرت الدولة العثـمانية إلى الاستعـانة بالإنجليز للتخلص من النشـاط البحرى الذى كانوا يقومون به ضد السفـن العثمانية والإنجليزية[2]. وأدى صراع بنى كعب ضد العثمانيين إلى حدوث وفـاق بينهم وبين الفرس وتمكنوا من استعادة مراكزهم التى كانوا قد فقدوها، وظل بنو كعب مسيطرين على المناطق الفاصلة بين الدولتين الفارسـية والعثـمانيـة حتى جاء الوقت الذى أخـذت فيه الدولتـان تعتـمدان على نفوذهم ضد العشائر المناوئة لهما، على أن بنى كـعب قد أثاروا خلافًا إقليميًا حادًا بين الدولة العثمانيـة والفارسية وارتبط ذلك الخلاف بانشاء مـدينة المحمرة فى عام ١٨١٢ فى شـمال شط العـرب. ويعـزى إنشاء تـلك المدينة إلى شيـخ من قبـيلة بوكاسب، وهى من القـبائل التابعـة لبنى كعب وبإنشاء تلك المدينة ظهـرت إمارة

---

(١) مصطفى عبد القادر النجار : التاريخ السـياسى لمشكلة الحدود الشرقية للوطن العربى فى شط العرب ص ٥٢ وما بعدها .

(٢) عبد الأمير محمد أمين : المصالح البريطانية فى الخليج العربى ١٧٤٧ ـ ١٧٧٨ . من منشـورات مركز دراسات الخليج العربى (مترجم)، بغداد ١٩٧٧ ص ١٢٢ و ١٢٨ .

مستقلة عن الدولتين. وقدر لزعيم المحيسن من قبيلة بوكاسب أن يخلف شيخ بنى كعب كقوة سياسية رئيسية فى جنوب عربستان. وقد أدى نمو المحمرة ومنافستها لميناء البصرة أن يقوم والى بغداد بحملة ضدها فى عام ١٨٣٧ ولكن هذه الحملة واجهت فشلاً ذريعًا فاضطرت إلى الإنسحاب وتبع ذلك أفول السيادة العثمانية مما أغرى فارس على استغلال هذه الفرصة وذلك بضم المحمرة إلى مناطق سيادتها فى عام ١٨٣٩، وأصبح الموقف منذ ذلك الوقت فى شد وجذب بين الدولتين المتجاورتين، كما أدى إلى سلسلة من الاتفاقيات لتخطيط الحدود فيما بينهما والتى كان من أبرزها اتفاقية أرضروم الثانية فى عام ١٨٤٧[١].

يتبين لنا مما سبق أن منطقة الخليج العربى رغم تقارب جزرها ومراكز تجارتها وموانيها كانت خلوا من سلطة بحرية قوية تستطيع أن تهيمن عليها الأمر الذى أتاح ظهور العديد من القوى المحلية التى حاولت أن تحقق لنفسها قدراً من السيطرة والنفوذ، وساعد على ظهور تلك التنظيمات عدم وجود أسطول قوى لأى من الدولتين الكبيرتين المجاورتين للخليج وهما فارس والدولة العثمانية، كما انشغلت البحرية البريطانية فى تدعيم سيطرتها على الساحل الجنوبى من الخليج، وهكذا تمهدت الظروف أمام موجات الهجرة التى تحركت من داخل الجزيرة العربية إلى سواحل الخليج لكى تأخذ اتجاهًا جديداً ونعنى بذلك تكوين تنظيمات سياسية مستقرة، كما وضح ذلك فى تجمعات العتوب فى الكويت والبحرين وقطر. ولم تقتصر تلك التنظيمات على السواحل الغربية للخليج بل امتدت إلى السواحل الشرقية أيضًا مما حدا بفارس تحت حكم الصفويين إلى أن تطلق على السواحل الشمالية الشرقية من الخليج اسم عربستان ومعناها بلاد العرب. ولعل ذلك كان اعترافا ضمنيًا من فارس أو من اللغة الفارسية على الأقل بعروبة هذه المنطقة التى أطلق عليها العرب اسم الأحواز بمعنى السيادة أو التملك[٢]. وقد تمكن بنو كعب وجيرانهم العتوب أن يكونوا سادة على السواحل الشمالية من الخليج، كما كان

---

(١) مصطفى النجار: المرجع السابق ص ٧٤ وما بعدها: انظر أيضاً ج. ج لوريمر: دليل الخليج القسم التاريخى جـ ٤ ص ص ٢٠٤٠ ـ ٢٠٤٣.

(٢) على نعمة الحلو: الأحواز، إمارة كعب العربية بغداد ١٩٦٩.

القواسم وبنو ياس واليعاربة والبوسعيديون سادة على القسم الجنوبى من الخليج ويعنى ذلك أن الخليج كان بسواحله الشرقية والغربية منطقة نفوذ عربية؛ إذ إن القواسم لم يقتصروا على الاستقرار على الساحل الجنوبى الغربى من الخليج وإنما اندفعوا فى فترات متفرقة منذ القرن الثامن عشر إلى السواحل الشرقية، كما حكم البوسعيديون فى مسقط الكثير من جزر وموانى ومقاطعات السواحل الشرقية للخليج. وقد شهد كارستن نيبور[١] ـ وهو من طليعة الرواد الأوربيين الذين توغلوا فى الجزيرة العربية ووصلوا إلى سواحلها الشرقية فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ـ التجمعات القبلية التى استقرت على سواحل الخليج مما دفع به إلى التأكيد بأن العرب هم الذين يمتلكون جميع سواحله، وأن ملوك فارس لم يتمكنوا من منازعة العرب سيادتهم وأنهم متحملون على مضض بقاء السواحل الشرقية فى حوزة القبائل العربية. والأمر الذى لا شك فيه أن القوة البحرية التى تمتعت بها القبائل العربية قد وقفت حائلاً دون حدوث تعديات فارسية ناجحة على المنطقة على الأقل منذ النصف الثانى من القرن الثامن عشر، وعلى العكس من ذلك استطاعت القبائل العربية القاطنة على السواحل الغربية للخليج أن تمتد بسيطرتها على كثير من الجزر والموانى الواقعة على السواحل الشرقية المقابلة لها[٢].

---

(١) كارستن نيبور رحالة دانيماركى كان عضواً فى بعثة ملك الدانيمارك التى وجهها للكشوف الجغرافية وكانت له رحلات فى الجزيرة العربية ١٧٦٣/١٧٦٥، ويعد أول من فتح الجزيرةالعربية للارتياد الأوربى وقد ترك لنا مؤلفين هامين هماوصف بلاد العرب صدر فى كوبنهاجن فى عام ١٧٧٤ ورحلات فى بلاد العرب وطبع فى إدنبره عام ١٧٩٢ بعد ترجمته إلى اللغة الإنجليزية، ومما يذكر أن مؤلفات نيبور ترجمت إلى كثير من اللغات الأوربية كما ترجم بعضها إلى اللغة العربية أخيرا.

(٢) جمال زكريا قاسم: الإدعاءات الإيرانية فى الخليج العربى، أصول المشكلة وتطورها التاريخى، من أعمال المؤتمر الدولى للتاريخ ببغداد ١٩٧٣.



الفصل الحادى عشر

استقرار آل صباح فى حكم الكويت

أصل تسمية الكويت وتاريخ تأسيسها ـ الشيخ صباح أول حكام الكويت ـ بناء أول سور للكويت ـ انشقاق آل خليفة والجلاهمة ـ موقعة الرقة بين آل صباح وبنى كعب ـ احتلال الفرس للبصرة وأثره فى انتعاش الكويت ـ انتقال الوكالة البريطانية إلى الكويت وبدء العلاقات الكويتية البريطانية ـ سقوط أسرة بنى خالد وأثره على العلاقات الكويتية السعودية ـ دور الوكالة البريطانية فى رد الهجوم السعودى على الكويت ١٧٩٣ ـ رحلة رينو إلى الدرعية ـ علاقة الكويت بالدولة العثمانية .

اتخذ العتوب من الكويت بعد هجرتهم إليها من أفلاج نجد فى السنوات الأولى من القرن الثامن عشر نقطة انطلاق لتأسيس إمارات أخرى مجاورة وقد حدث ذلك فى خلال نصف قرن من بداية استقرارهم فى الكويت .

والأمر الذى لا شك فيه أن نشاط العتوب ، الذين كانوا يشكلون اتحاداً قبليًا، ومصاهرتهم للقبائل الأخرى أدى إلى زيادة عددهم وتعاظم ثروتهم، ومن ثم كان تطلعهم إلى التوسع فى مناطق جديدة . ولعل مما ساعد على ازدهار العتوب استقرارهم فى منطقة كانت تخضع لحكم بنى خالد ، وقد عرف هؤلاء بسماحة حكمهم الأمر الذى كان مشجعًا على انتعاش التجارة واستتباب الأمن والنظام ، كما ساعدت العوامل الجغرافية على ازدهار ميناء الكويت الذى يقع فى جوف خليج عميق يصلح لرسو السفن الكبيرة حتى أن الرحالة الدانيماركى كارستن نيبور الذى زار الكويت فى عام ١٧٦٥ ذكر بأن العتوب يمتلكون أكثر من ثمانمائة سفينة وأنهم كانوا يستوردون الأخشاب لبنائها من الهند وذكر أن العتوب، وهم أساسًا من البدو، أخذوا يتطورون إلى مجتمع حضرى يشتغل بالتجارة والغوص على اللؤلؤ وبناء السفن(١) . ومما يستلفت النظر أن التجارة قد انتعشت

(١) Neibuhr, C., Travels in Arabia and Countries in the East vol. II Edinburgh 1792 p.103 .

فى الكويت فى الوقت الذى كانت فيـه القوى الكبرى المجاورة تعـانى الكثير من الفوضى والاضطراب ، إذ كانت الحـروب قائمة بين فارس والدولة العثمـانية كما كانت نجـد ـ قبل ظهـور الدعوة الوهابيـة ـ منقسـمة على نفـسها إلى الـعديد من المشيـخات الصغـيرة المتنافرة ، ولا شك أن هذه الأوضـاع قد أفادت العـتوب فى الوصول إلى مـجال متفـوق فى الناحية الاقتـصادية إذ كان من الطبيـعى أن تلجأ الشركات الأوربيـة التجارية إلى ميناء الكويت للاسـتفادة من وضعه المسـتقر ومن موقعـه الجغرافى الهام على طرف الخليج الشـمالى الغربى فضلاً عن مـوقعه على الطريق التـجارى الصـحراوى الذى يصل شـمـالى شبـه الجزيرة العـربية بالعـالم الخارجى[١] . وكانت نزعة الـعتوب إلى الاستقـلال وضعف السلطة العثمـانية فى جنوب العراق مما يغرى الوكالات التجارية الأوربية على التـعامل مباشرة مع شيوخ العتوب .

وعلى الرغم من أن تأسيس الكويت ليس حـدثًا مـوغلاً فى القـدم إلا أن المؤرخين يختلفـون فيما بينهم فى تسـمية الكويت وتاريخ تأسيـسها، وترى بعض المصادر أن الكويت مشتقة من الكوت ، والكوت فى لغة جنوب العراق وما جاوره من البلدان فى الجزيرة العربية وفارس هو البيت الذى يبنى على شاكلة القلعة حتى يسهل الدفاع عنه ، وهو بيت تحـيط به عادة بيوت أخرى[٢]؛ ويطلق اسم الكويت على ذلك البيت شريطـة أن يقع بقرب الماء سواء أكان ذلك ماء البـحر أو النهر أو البحيرة أو ماء مستنقع ثم أصبح ذلك الاسم يطلق على القرية بكاملها إن بنيت فى مثل ذلك الموقع . وفى ذلـك الصدد يقول الشـيخ يوسف القناعى إن الكويت هو البيت الذى يبنى على شاكلة القلعة تحيط به دور الفـلاحين وقد يحيط بالقرية سور أو لا يحاط بـها[٣] . ويشيـر المؤرخ الكويتى عبد العـزيز الرشيد إلى مـعنى كلمة الكويت فيذكر أنها تصغير للكوت ، ومن المعروف أن سكان شرقى الجزيرة العربية يميلون عادة إلى تصغـير الأسماء حتى وإن كانت أسمـاء حكامهم. وقبل تأسيس الكويت كان الموقع يعرف بالقرين ، وهو تصغير لكلمة قرن حيث أن ميناء الكويت أو على الأحرى خليج الكويت ينحنى فى اتجاه دائرى مكونًا مـا يشبـه القرن[٤] .

---

(١) أحمد مصطفى أبو حاكمة : تاريخ الكويت جـ١ القسم الأول ص ص ٩٥ ـ ٩٦ .

(٢) راجع دراسة الأب أنستاس الكرملى عن الكويت مجلة المشرق ع ١١ السنة الثانية .

(٣) يوسف القناعى : صفحات من تاريخ الكويت ص٥ الطبعة الرابعة،مطبعة حكومة الكويت .

(٤) ورد اسم القرين فى سجلات حكومة بومباى وهذا يعنى أن ذلك الاسم ظل مستخدمًا حتى منتصف القرن التاسع عشر كما يتضح ذلك من تقرير فيلكس جونز Felix Jones انظر :

وكما سبق أن أشرنا أن الكويت كلمة مشهورة متعارف عليها فى العراق ونجد وما جاورهما من البلدان العربية أو الفارسية وهى تطلق عندهم على البيت المربع المبنى كالحصن أو القلعة وتبنى حوله بيوت صغيرة ويكون هذا البيت أو الحصن فرضة للسفن ترسو عنده لتتزود منه بما ينقصها من الزاد والماء. وقد سميت الكويت بهذا الاسم نسبة إلى حصن صغير كان موجوداً فى أرضها ذكرت بعض الروايات المحلية أن أحد حكام بنى خالد وهو محمد بن عريعر قد أمر ببنائه وأقام فيه أحد عماله واتخذه مستودعًا للزاد والذخيرة وما يحتاج إليه، وكان إذا ما أراد الغزو شمالاً أو الصيد قريبًا من ذلك الحصن تزود منه بما يريد ، وعندما نزل آل صباح ومن معهم بأرض الكويت وهبه لهم أو يكونوا قد استولوا عليه عنوة، بينما ذكرت روايات أخرى أن آل صباح هم الذين أسسوا ذلك الكوت على الأرض التى منحت لهم من قبل بنى خالد. ويؤكد عبد العزيز الرشيد هذه الرواية على اعتبار أن الكويت كانت قبل نزول آل صباح فيها أرضًا فقيرة لا يسكنها إلا لفيف من البدو التابعين لآل عريعر وأن أول من شاد بها البيوت الحجرية هم آل صباح الذين اتخذوها لهم مقرًا وسكنًا[1]. ويذكر لوريمر حسب رواية نقلها من بعض شيوخ آل صباح أن أجدادهم جاءوا إلى الكويت بعد أن طردهم الأتراك من أم قصر على خور الزبير. وهو مكان قديم كانوا يتخذونه لقطع الطريق على القوافل المتجهة إلى البصرة أو القادمة منها وكذلك لممارسة نشاطهم البحرى ضد السفن العابرة فى شط العرب[2]. وأنهم بعد أن استقروا فى الكويت وتزايد عددهم بدأت تظهر مستوطنة عربية فى تلك المنطقة التى لم تكن مأهولة إلا من جماعات قليلة من البدو وصائدى الأسماك.

وعلى الرغم من أنه قد يكون من العسير تحديد تاريخ ثابت لتأسيس الكويت إلا أن الروايات المحلية الكويتية تتفق فيما بينها على أن الكويت خرجت إلى الوجود فى أواخر القرن السابع عشر أو بداية القرن الثامن عشر[3]، واعتمادًا على بعض تلك الروايات فإن الشيخ يوسف القناعى يرجح أن الكويت بنيت فى عام

S.R.B.G. vol. XXIV , Harbour of Grane (Extract from a Report by Felix Jones. Indian = Navy pp. 51 - 54).

(١) عبد العزيز الرشيد : تاريخ الكويت ص ص ٣٠ ـ ٣١ .

(٢) ج . ج لوريمر : دليل الخليج جـ ٣ ص ١٥٠٣ .

(٣) Dickson, H., Kuwait and Her Neighbours London 1956. pp. 26 - 27.

١٦٨٨ (١١٠٠هـ) وأن الذى وضع أساسها هو الشيخ براك أحد شيوخ بنى خالد، وقد أورد بصدد ذلك « وتاريخ بناء هذا الكويت لا نعلمه بوجه الحقيقة والأحرى أنه بنى فى أواخر القرن الحادى عشر من الهجرة أما البانى فهو أمير بنى خالد باتفاق الرواة والظاهر أن البانى لهذا الكويت هو براك أمير بنى خالد وقد يكون البناء فى أواخر عام ١١٠٠هـ »[١]. ويرى الأستاذ أبو حاكمة أنه إذ قبلنا هذه الرواية فإنه ينبغى تقديم تاريخ بناء الكويت وذلك اعتماداً على ما ذكره ابن بشر بأن براك أمير بنى خالد امتد حكمه من ١٦٦٩ حتى وفاته فى عام ١٦٨٢. أما عن المؤرخ الكويتى عبد العزيز الرشيد فإنه لم يجزم بتاريخ معين لبناء الكويت وإنما اكتفى بالقول أنها أسست فى أواخر القرن السابع عشر الميلادى وأن جميع الأقوال التى ذكرت حول تأسيسها لا تعدو أن تكون حدساً وتخميناً ، وأن الذى يصح الجزم به أنها كانت موجودة قبل عام ١١٣٥هـ (١٧٢٢م) وذلك اعتماداً على ما ذكره الشيخ إبراهيم بن عيسى النجدى فى سلسلة مشايخه من أن الشيخ محمد بن فيروز جد ابن فيروز قاضى الكويت المشهور توفى فى الكويت عام ١١٣٥هـ[٢]. أما الشيخ محمد بن خليفة النبهانى الذى اعتمد بدوره على الرواية المحلية فقد ذكر أنها تأسست فى عام ١٠١٩هـ (١٦١١م). أما الشيخ عثمان بن سند البصرى صاحب كتاب سبائك العسجد فإنه لم يزد عن كونه قد أورد إشارة يستفاد منها أن الكويت بدأت تكتسب شيئاً من الأهمية منذ مطلع القرن الثامن عشر الميلادى[٣].

ومهما يكن من أمر فإن الكويت على أغلب الظن كانت قرية صغيرة يسكنها بعض الصيادين من البدو وذلك قبل وفود العتوب إليها، وكما يذكر الشيخ القناعى أن أول من سكن الكويت قبل آل صباح لفيف من البدو وصيادى السمك ثم آل صباح وآل خليفة وآل زايد والجلاهمة والمعاودة حيث نزل هؤلاء الكويت بعد إذن من أمير بنى خالد، وكانت هجرتهم إلى الكويت على موجات متفرقة لأنهم حين تركوا قطر تفرقوا فى البلاد فمنهم من سكن مناطق فى فارس ومنهم من سكن

---

(١) يوسف القناعى : مصدر سبق ذكره ص ٥ .

(٢) عبد العزيز الرشيد: مصدر سبق ذكره جـ ١ ص ص ٢٩ - ٣٠ .

(٣) احمد مصطفى أبو حاكمة : تاريخ الكويت جـ ١ القسم الأول ص ١٠٠ . راجع سبائك العسجد فى اخبار احمد نجل رزق الأسعد لعثمان بن سند البصرى بومباى ١٣١٥هـ ، ص ١٨ .

ميناء قيس ومنهم من سكن الصبيّة ومنهم من سكن عبادان والمخراق ، ثم أخذوا يتوافدون على الكويت وتبعهم خلق كثير من عرب وعجم[1]. ومما تجدر الإشارة إليه أنه قد عاصر نمو الكويت تكوين الهولنديين لمستعمرتهم في جزيرة خرج ، وتذكر بعض المصادر بصدد ذلك أن شيخ الكويت احتفظ بعلاقات ودية مع البارون كنبهاوزن المسئول عن تلك المستعمرة بينما ذكرت مصادر أخرى أنه كان واقعًا تحت نفوذه[2]، ولا نستطيع أن نجزم بذلك لأنه من المعروف لدينا أن العتوب عاشوا فترة طويلة من الوقت تحت حماية بنو خالد في الإحساء بل أن الكويت استمرت حتى العقد الخامس من القرن الثامن عشر تخضع لحكم أمراء بني خالد المباشر بيد أن الصراع بين شيوخ بني خالد على تولي الحكم فت في عضدهم وخفف من شدة قبضتهم على القبائل التي كانت تخضع لهم وتؤدي لهم الاتاوات ، ومن ثم بدأت هذه القبائل والجماعات المنتمية إلى زعامة بني خالد تمارس نوعًا من الاستقلال الذاتي وأخذت تنفصل تدريجيا عن تبعيتها لهم وإن كانت قد حافظت في الوقت نفسه على ولائها المعنوي لهم. على أن آل صباح في الكويت لم يتمكنوا من إحراز مثل ذلك الاستقلال إلا في العقد السادس من القرن الثامن عشر إذ كانوا حريصين على إعلان تبعيتهم للقوى الكبيرة المجاورة لهم. ومع ذلك فإن الغموض لا يزال يحيط علاقة الكويت بالدولة العثمانية لأنه عندما كان الحكم العثماني يمتد إلى الإحساء لم تكن الكويت قد تأسست بعد إذ إنها لم تنشأ إلا بعد أن زالت السيطرة العثمانية الفعلية من المنطقة على يد زعماء بني خالد في عام ١٦٧١. غير أن ولاة بغداد العثمانيين كانوا يصرون على اعتبار الكويت منطقة تابعة لهم ، ولذلك كان موقف آل صباح من العثمانيين كموقف آل خليفة من الفرس أي تجاهل مطالب العثمانيين تارة ورفضها تارة أخرى أو السكوت عليها إذا تربص بهم خطر من جهة ثالثة[3].

---

(١) يوسف القناعي : مصدر سبق ذكره ص ٩ .
(٢) ج . ج لوريمر : مصدر سبق ذكره جـ ٣ ص ١٥٠٣ . ولمزيد من التفصيل عن المستعمرة الهولندية راجع بحث الدكتور عبد الأمير محمد أمين بعنوان مقاومة إمارات شرق الجزيرة للتغلغل الاستعماري الأوربي - التجارب الوحدوية العربية المعاصرة - تجربة دولة الإمارات العربية المتحدة مركز دراسات الوحدة العربية بيروت ١٩٨١ ص ٦٠ وما بعدها .
(٣) جون كلي : بريطانيا والخليج جـ ١ ص ٥٨ .

ولا يعـرف على وجه اليـقين أول مـن حكم الكويت من آل صبـاح إلا أن سجـلات حكومة بومبـاى تذكر أن أول رئيس لآل صبـاح هو الشيخ سليـمان بن أحـمد الذى تولى الحكم فى عـام ١٧١٦[١]، ولكن من المعـروف أن هذا الشـيخ ينتمى إلى شيوخ بنى خالد ولا ينتمى إلى آل الصباح ، وكان حكم بنو خالد يمتد إلى الكويت، ومن المؤكـد أنه بعد وفاتـه استطاع آل صبـاح أن يبرزوا إلى مـجال الزعـامة وحـدث ذلك فى عـام ١٧٥٢ حين وصل الشـيخ صـباح بن جـابر إلى الحكم، وفيما يبـدو أنه لم يكن لديه شهرة كبيرة إذ إن اسـمه لم يرد فى سجلات الرحالة الأوربيين الـذين مروا بالمنطقة خلال فتـرة حكمه وذلك على الرغم من أنه قد أشـير فى تلك السجـلات إلى أن الكويت تخضع لحكم شـيخ عربى[٢]. ومن المؤكد أيضـًا أن الشيخ صباح لم يتـول الحكم فى أول تأسيس الكويت، وفى ذلك الصدد يذكر عبـد العزيز الرشيد أن العتوب مـضت لهم بعد نزول الكويت مدة لا رئيس لهم ولكن حين أخذ المجـتمع يتعقد ويمتد رأوا من الحـكمة أن يختاروا من بينهم رجلاً يحكمـهم ويصرف شئـونهم فوقع اختـيارهم على الشيخ صـباح[٣]، ولكنه لم يقبل ولاية الحكم إلا بعد أن أخذ عليهم عهدا بنفاذ حكمه على الشريف والوضيع[٤]. كمـا أورد عثـمان بن سند البـصرى فى كتـابه سبـائك العسـجد أن العتوب كانـوا قبل وصول الشيخ صباح إلى الحكم «شـر ذمة قليلة ذو مسكنة وذلة وحين جعلوه لآرائهم قبلة وفوض خواصهم الأمر إليه كله شد أزرهم وسد ثغرهم ورأب صدعهم ونصب جمعهم فـسما فرع الثروة فى تلك البلاد[٥]». وحول ذلك أيضًا يذكـر الشيخ القناعى أنـه لما كثر السـاكنون فى الكويت وخالطهـم جمع من المهاجـرين إليها رأوا من الضـرورى أن يؤمر عليهم أمـير منهم يكون مرجـعًا لحل المشكلات والاختلافات فوقع اختيارهم على صباح لهذا الأمر فوافقهم بعد أن أخذ العهد منهم على السـمع والطاعة فى الحق ، وأن الجماعـة اختارته وقدمته لأنه كان أعقلهم وأحسـنهم سيرة وأقـربهم لاتباع الحق وقد أصابوا المرمى فى ذلك[٦]. وفى

---

(١) Bombay Govt., Historical Sketch of Utoobee Tribe of Arabs 1761 - I853. p. 362.

(٢) أبو حاكمة : مرجع سبق ذكره ص ص ١٠٨ - ١٠٩ .

(٣) يعقوب الرشيد : الكويت فى ميزان الحقيقة والتاريخ ص ١٩ .

(٤) عبد العزيز الرشيد : مصدر سبق ذكره ص ٧٤ انظر أيضًا ص ٨٧ .

(٥) عثمان بن سند البصرى : سبائك العسجد فى اخبار احمد نجل رزق الأسعد ص ١٨ .

(٦) يوسف القناعى : مصدر سبق ذكره ص ص ٩ - ١٠ .

عهده تم بناء أول سور للكويت وكان ذلك في عام ١٧٦٠، وكان سبب بناء ذلك السور أن نفوذ بني خالد أخذ في الضعف وأصبحوا عاجزين عن حماية الكويت وخاصة أن الكويت أصبحت في عهده مهددة من جهة الجنوب بالنفوذ المتزايد للسعوديين على عهد سعود بن عبد العزيز ومن جهة الشمال بشيوخ المنتفق، فاضطر الكويتيون لحماية أنفسهم وأموالهم إلى بناء هذا السور الذي تم تشييده في فترة وجيزة من الطين، وكان كافيًا في ذلك الوقت لحماية الكويت من الهجمات التي كانت تتعرض لها، وكان له ستة دروازات أو بوابات . وتختلف الروايات على سنة وفاة الشيخ صباح فعلى حين ذكر عبد العزيز الرشيد أنه توفي في عام ١٧٧٦[١] ، فإن هناك الكثير من الروايات التي تتعارض مع ما ذكره الرشيد ومنها ما أوردها الشيخ عثمان بن سند البصري من أن الشيخ عبد الله بن صباح كان يتولى حكم الكويت قبل عام ١٧٧٤ ببضع سنوات، وتذكر بعض المصادر أن الشيخ عبد الله وصل إلى الحكم في عام ١٧٦٢ وأنه استمر قائمًا بالحكم حتى عام ١٨١٥[٢].

وعلى الرغم من أن كارستن نيبور كتب عن الكويت في عام ١٧٦٥ إلا أنه لم يذكر اسم شيخها وإنما اقتصر على أنه أورد أن الكويت يحكمها شيخ من قبيلة أوثيمة ـ وصحتها عتبية ـ وأنها مدينة تجارية عامرة[٣]. وإذا أخذنا بما جاء في تلك المصادر فإن عهد الشيخ عبد الله يكون قد امتد إلى ما يقرب من نصف قرن في خلاله وقعت عدة أحداث هامة في الكويت ، ولعل أبرز تلك الأحداث وقعت في عام ١٧٦٦ حين انشق قسم من آل خليفة عن تحالف العتوب وانتقلوا إلى الزبارة على ساحل قطر في مواجهة جزر البحرين حيث أسسوا إمارة خاصة بهم[٤]، وتبعهم الجلاهمة بعد فترة قصيرة ، وظل آل صباح وحدهم يسيطرون على الكويت . وعلى الرغم من ذلك التصدع الذي تعرض له تحالف العتوب إلا أن العلاقات الودية ظلت قائمة بين آل صباح في الكويت وآل خليفة في الزبارة وإذا

---

(١) عبد العزيز الرشيد : تاريخ الكويت ص ٨٧ .

(٢) راجع بصدد ذلك ملحق رقم (١) من القسم الأول من تاريخ الكويت ص ٣٤١ والخاص بحكام الكويت في القرن الثامن عشر ومطلع القرن ١٩ .

(٣) Neibuhr, Carsten, Travels in Arabia vol. II p. 103 .

(٤) يذكر عثمان بن سند البصري في كتابه سبائك العسجد أن الشيخ عبد الله اشترك مع الشيخ خليفة بن محمد في تعمير الزبارة وتسميتها بذلك الاسم : سبائك العسجد ص ١٩ .

حدث وانقطعت فإنها كانت تعـود إلى ما كانت عليه سريعًا[١]، ففى عام ١٧٧٦ لجأ عدد من تجـار الكويت إلى الزبارة بعد استيلاء الفرس على الـبصرة، وإن كان الضرر لم يقع على الكويت كمـا كان متوقعًا نتيجـة ذلك الاحتلال ، إذ إن جزءًا كبيـرًا من تجارة البصرة قد تحـول إلى الكويت عقب الاحتلال الفارسى كـما ظهر تعاون آل صـباح مع آل خليفـة فى طرد الفرس من البـحرين وفى إعادة البـحرين إمارة عـربية يحكمها آل خليـفة من الزبارة ، كمـا شارك آل خليفة آل صـباح فى الحروب التى قاموا بها ضد قبـيلة بنى كعب فى عربستان ، وأخذت الكويت تأخذ نصيبها من الرخاء التجارى الذى جلبـه فتح البحرين فى عام ١٧٨٣ بسبب اشتغال آل صـبـاح فى تجارة الـنقل واستـيـراد البـضـائع من مـسقـط والزبارة والقطيف والبحرين[٢]. كذلك وقف آل صبـاح إلى جانب البحرين حين قـام سلطان مسقط بالإغارة علـيها فى عـام ١٨٠١ وسمح الشـيخ عبـد الله بن صباح بلـجوء بعض رؤساء آل خليفة إلى الكويت الذين طردهم سلطان بن أحمد من البحرين[٣].

وعلى الرغم من أن انشقاق آل خليفة عن آل صبـاح يعتبر من الأمورالمنطقية بالنسبة للـمفاهيم القبلية المرتبطة بمـصالح القبيلة حيث تطلع آل خـليفة إلى مكان يمارسون فيه حكمهم المستـقل بعد أن خضعت الكويت لسيطرة آل صباح، إلا أن بعض المصادر أرجعت أسباب انفصال آل خليفة عن آل صباح إلى ما كانت تتعرض له الكويت من غارات بنى كـعب إذ إن ازدهار الكويت جعلها محل رغبـة شيوخ بنى كعب فى الـسيطرة عليها ومن ثم أخـذت العلاقات تتوتر بين شـيوخ الكويت وشيوخ بنى كعب وحلفائهم من عرب بندر ريـق وبوشهر بسبب المنافـسة على نقل التجـارة أو بسبب الخـلاف المذهبى بين الشيـعة والسنة[٤]. وقد أورد عبـد العزيز الرشيـد أسبابًا مباشـرة للصدام الذى وقع بين الكويت وبنى كعب ، وذكـر بصدد ذلك أن بنى كعب طمعـوا فى امتلاك الكويت بعد أن نشطت تجارتهـا ورغبوا فى السيطرة عليها قبل أن تبلغ أشدها غيـر أنهم تظاهروا بغير ما أرادوا فطلبوا مصاهرة

---

(١) ج . ج لوريمر : دليل الخليج جـ ٣ ص ١٥٠٤ .
(٢) المصدر السابق جـ ٣ ص ١٥٠٧ .
(٣) عن محاولات سلطان بن أحمد ضم البحرين راجع كتابنا دولة البوسعيد فى عمان وشرق إفريقيا ص ٧٦ وما بعدها .
(٤) أحمد مصطفى أبو حاكمة : تاريخ الكويت جـ ١ القسم الأول ص ١٨٨ .

الشيخ عبد الله بتزويج ابنته مريم لأحد أبنائهم. وحين استشار الشيخ عبد الله زعماء قومه فى أمر تلك المصاهرة أظهروا أشد الإباء والامتناع وأخذوا للحرب أهبتها ، وجهزوا سفنهم لمحاربة بنى كعب وكان النصر حليفهم على قلة عددهم ، ولعل ذلك يرجع إلى أن العتوب هاجموا سفن الزعماء أولاً أو لأن الماء قد انحسر عن سفن بنى كعب فلم تقدر على الحركة لضخامتها على عكس سفن العتوب الصغيرة التى أحاطت بسفن بنى كعب من كل جانب . وقد عرفت هذه المعركة فى تاريخ الكويت باسم موقعة الرقة وهى مكان يقع بالقرب من جزيرة فيلكا، إحدى الجزر المعروفة فى الكويت[1]. وفيما يبدو أن الصلح الذى وقعه الشيخ عبد الله بن صباح رغم هذا الانتصار لم يكن فى صالح العتوب مما برر به آل خليفة انشقاقهم عن حلف العتوب وهجرتهم إلى الزبارة وكان ذلك فى عام ١٧٦٦ .

ومن الأحداث الهامة التى وقعت أيضًا على عهد الشيخ عبد الله والتى كان لها أثر كبير فى إزدهار الكويت احتلال الفرس لمدينة البصرة على عهد كريم خان الزندى ونجاحهم فى الاستيلاء عليها فى عام ١٧٧٦ إذ ترتب على ذلك الاحتلال الذى استمر ثلاث سنوات انتعاش واضح فى تجارة الكويت، ولا شك أن الكويت قد أفادت فائدة كبيرة من ذلك الاحتلال لأن تجارة الهند التى كانت تتخذ طريقها عبر بغداد وحلب ثم الآستانة أخذت تتحول إلى طريق الكويت[2]. كما امتدت تجارة الكويت إلى الهند ومليبار واليمن والعراق[3].

وقد أدى ذلك إلى زيادة ثروتها وساعد على تلك الزيادة قلة الرسوم الجمركية التى كانت تفرض على التجارة فيها بالإضافة إلى نشاط تجارها وسماحة معاملاتهم. وقد يكون من المفيد أن نشير إلى أن من أهم أسباب الحصار الفارسى للبصرة ذلك النجاح التجارى الكبير الذى أحرزته البصرة بعد انتقال نشاط شركة الهند الشرقية البريطانية إليها ، وأثر إزدهار البصره على انهيار تجارة بوشهر مما أدى إلى توتر فى العلاقات بين الوالى العثمانى فى بغداد وحاكم إقليم فارستان، ووجد

---

(١) عبد العزيز الرشيد - مصدر سبق ذكره ص ص ٨٨ - ٨٩ . ومما يذكر أن ديكسون المعتمد البريطانى فى الكويت قد سجل الرواية المحلية المتعلقة بعلاقة الكويت ببنى كعب نقلاً عن أحد شيوخ الكويت :
Dickson, Kuwait and Her Neighbours, London 1956. pp. 27 - 28 .

(٢) ج . ج لوريمر : دليل الخليج جـ ٣ ص ١٥٠٧ .

(٣) يوسف القناعى : صفحات من تاريخ الكويت ص ١٠ .

كريم خان فرصته فى الهجوم على البصرة محتجًا بأن والى بغداد قد فرض بعض الضرائب على الفرس الذين كانوا يفدون إلى المزارات الشيعية المقدسة فى العراق فى النجف وكربلاء[1]. وفى خلال الصراع الفارسى العثمانى تطلع الطرفان إلى حلفاء لهما فى منطقة الخليج فإلى جانب الفرس انحاز العرب النازلون فى السواحل الشرقية من الخليج وهم عرب بوشهر بزعامة شيخهم نصر آل مذكور الذى ينتمى إلى قبائل المطاريش، وهى قبائل وفدت أساسًا من عمان كما انحاز إلى الفرس أيضًا عرب بندر ريق وعرب بنى كعب الذين ارتبطوا باتفاقية تحالف مع كريم خان الزندى. أما إلى جانب العثمانيين فقد وقف عرب المنتفق[2]، كذلك ساعد إمام عمان فى ذلك الوقت أحمد بن سعيد متسلم البصرة العثمانى فى رد الهجوم الفارسى وكان ذلك رغبة من إمام عمان فى الانتقام من الفرس، أو قد يكون نتيجة لطلب العثمانيين المساعدة؛ وتؤكد وثائق بومباى أن الأسطول العمانى كان عونًا كبيرًا لمدينة البصرة المحاصرة من قبل الفرس[3].

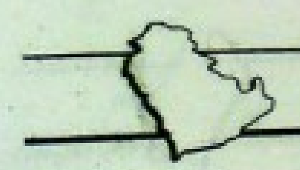
ولعل مما تجدر الإشارة إليه أن القواسم وهم القوة البحرية المتنامية فى الخليج فى ذلك الوقت لم يسهموا فى القتال إلى جانب العثمانيين إذ أنهم كانوا مشغولين فى تأكيد نفوذهم البحرى على حساب القوى المجاورة لهم. أما موقف الكويت فعلى الرغم من أنه لا يزال غامضًا من حصار الفرس للبصرة إلا أنه من المعروف أن الشيخ عبد الله حاكم الكويت اتخذ فى بداية الأمر موقفًا محايدًا إزاء الطرفين المتصارعين ولكنه كان أميل إلى اتخاذ موقف ضد الفرس بسبب العداء التقليدى بين الكويت وشيوخ بنى كعب وغيرهم من شيوخ القبائل العربية الأخرى فى الساحل الشرقى للخليج التى قدمت مساعداتها لهم.

---

(١) عبد الأمير محمد أمين: القوى البحرية فى الخليج العربى فى القرن الثامن عشر ص ص ٦٢ - ٦٣.
وكذلك أبو حاكمة: مرجع سبق ذكره جـ ١ ص ٦٥.

(٢) يؤكد إبراهام بارسونز فى رحلته أن الشيخ عبد الله حاكم الكويت كان معاديًا للحصار الفارسى للبصرة ولذلك كان يخشى أن تتعرض إمارته لخطر الفرس انظر:
Parsons, Travels in Asia and Africa pp. 176 - 177.

(٣) Bombay Govt., op. cit., vol. XXIV. Rise and Progress of the Government of Muscat 1694 - 1844 P. 172 SQ.



ومما يسترعى الانتباه أنه على الرغم من أن الكويت وقـفـت موقفًا عدائيًا ضد الفرس خلال حصارهم للبصرة[١]، إلا أنها أفادت فائدة اقتصـادية كبيرة من جراء الاحتلال الفارسى للبـصرة إذ ترتب على ذلك الاحتلال قيام علاقـات مباشرة بين الكويت ووكالة شركـة الهند الشرقية البريطانية التى بدأت تـتخذ من ميناء الكويت مستودعًـا لتفريغ بضائعها ، ومن الكويت كانت تنقل البـضائع على ظهور القوافل إلى بلاد الشام متـجنبة طريق البصرة ، ولذلك فـإن استيلاء الفـرس على البصرة يمكن أن يعد بداية للعلاقات البريطانيـة الكويتية ، ومما يؤكد ذلك أن شركة الهند الشرقـية البريطانـية بدأت تعمل على إنشـاء وكالة تجارية فى الـكويت التى ذكرت تقارير ممثليهـا بأنها تتمتع بميناء جـيد يصلح لرسو السفن ، وأن القـوافل التجارية التى تخرج من ذلك الميناء تتمـتع بأمن كبير ، وفضلاً عن ذلك فـإنها لم تتعرض لهجوم فارسى[٢] . وقـد ترتب على ذلك قـيام عـلاقات ودية بـين شركـة الهند البريطانيـة والشيخ عبـد الله حاكم الكويت وإن كانت هذه العـلاقات لم تلبث أن تعرضت لخـطر التصدع حـين قام رجـال الوكالة البـريطانية فى البـصرة ١٧٧٨ - ١٧٧٩ بالقبض على أحد الـضباط الفرنسـيين وهو المسيوبورج Borel de Bourg الذى فر إلى الكويت وطلب اللجـوء إلى شيخها ، وكـان بورج يحمل رسائل من فرنسـا إلى السلطات الفرنسية فى بوند شيرى وجزيرة موريس . وقد عارض الشيخ عبد الله تسليم الضابط الفرنسى ، مراعاة للتـقاليد العربية ، رغم نواياه الطيبة تجاه الحكومة البريطانية . ومن ناحـية أخرى أخذت العلاقات البريطانية الكويـتية تتخذ طابعًا وديًا حين بادر المستر مانيستى ممثل الوكالة البريطانية فى البصرة بتحذير شيخ الكويت من الاستعـدادات العـسكرية التى كان يقوم بها الوالى العثـمانى فى بغداد سليمان باشا ضد الكويت[٣]، بسبب رفض الشيخ عبد الله بن صباح تسليم الشيخ

---

(١) عن حصار الفرس للبصرة راجع إبراهام بارسونز الذى كان شاهد عيان لذلك الحصار :

Parsons, A., Travels in Asia and Africa, See Mediated Siege of Bussorah pp. 167 - 172 .

(٢) أحمد مصطفى أبو حاكمة : مرجع سبق ذكره جـ ١ القسم الأول ص ١٧٦ .

(٣) يرجع إلى السير هارفورد جونز الفضل فى إمدادنا بتفاصيل كثيرة عن علاقة الكويت بالدولة العثمانية فى أواخر القرن الثامن عشر :

Brydges, Harford Jones, An Account of the transaction of His Majesty's Mission to the Court of Persia 1810 - 1811 London 1834 .

ثوينى شيخ المنتفق ومصطفى أغا متسلم البصرة اللذان التجئا إلى الكويت فراراً من السلطات العثمانية . فقد حدث أن أسندت متسلمية البصرة إلى السيد مصطفى أغا الذى عزم على التمرد ضد السلطات العثمانية وإعلان استقلال البصرة فكان أن غضب سليمان باشا والى بغداد وجهز قوة كبيرة سيرها إلى البصرة للقضاء على ثورة مصطفى أغا، وفى الطريق من بغداد إلى البصرة اشتبك جيش والى بغداد بقبائل المنتفق التى كان يقودها الشيخ ثوينى فهزمها ، وحينئذ أيقن مصطفى أغا أنه لا قدرة له على مواجهة القوة العثمانية فترك البصرة هاربًا إلى الكويت مع الشيخ ثوينى واستنجد الاثنان بحاكمها ، ورفض الشيخ عبد الله تسليمهما إلى والى بغداد، وأوعز إلى مصطفى أغا بالرحيل إلى نجد بالأموال التى نقلها من البصرة برفقه قافلة كانت متأهبة للسفر تفاديًا من تسليمه للسلطات العثمانية[1]. ولا شك أن موقف شيخ الكويت من رفضه تسليم المتمردين إلى باشا بغداد كان موقفًا غير ودى ويظهر ذلك من رسالة بعث بها مانيستى إلى الشيخ عبد الله جاء فيها : «قمت بزيارة الباشا فى معسكره الذى عبر عن دهشته وغضبه تجاه سلوككم فى منح الحماية لأناس كانوا ثائرين عليه وقال ما لم تسلموهم إليه أو تأمروهم بمغادرة الكويت فإنه سيعتبركم عدواً له وقال إنه سيكتب إلى حاكم بومباى راجيًا أن يمده بعون بحرى سريع ، وهكذا فإن الصداقة هى التى حثتنى على الكتابة إليكم لأعرفكم بمشاعر باشا بغداد». وقد أجاب الشيخ عبد الله على الرسالة السابقة بأنه يدين للمستر مانيستى بهذه المعلومات بخصوص نوايا سليمان باشا وأن الموقف يتلخص فى أنه لا يستفيد أية فائدة من مقام مصطفى أغا متسلم البصرة فى بلاده ولكن إخراجه من الكويت وتسليمه إلى السلطات العثمانية لا يتمشى مع التقاليد العربية[2].

ومما تجدر الإشارة إليه أنه فى الوقت الذى كانت فيه العلاقات بين الكويت وبريطانيا تسير سيراً وديًا كانت الخلافات تتزايد بين الوكالة البريطانية فى البصرة

(1) Brydges. Harford Jones. A Brief History of the Wahauby P. 176 .
وكذلك يعقوب الرشيد: الكويت فى ميزان الحقيقة والتاريخ ص ٣٥ .

(٢) انظر الرسائل المتبادلة بين حاكم الكويت والمستر مانيستى فى القسم الثانى من تاريخ الكويت للدكتور أبو حاكمة ص ١٩ وما بعدها .

ووالى بغداد[1]. ولذلك كان يرد اسم الكويت أو القرين على لسان رجال الوكالة البريطانية كبديل للبصرة ومستقراً للوكالة البريطانية فيها. وقد اتخذت خطوة هامة فى عام ١٧٩٢ من قبل المستر مانيستى وهارفوردجونز لنقل الوكالة من البصرة إلى الكويت وتم نقل الوكالة بالفعل فى ذلك العام إلى الكويت حيث بقيت هناك ما يقرب من ثلاث سنوات. وعلى حين ذكر لوريمر أن الوكالة البريطانية فى البصرة قررت الانسحاب إلى الكويت نتيجة الصعوبات والعقبات التى وضعتها السلطات العثمانية فى وجهها فإن هارفورد جونز يذكر أن انتقال الوكالة البريطانية إلى الكويت كان نتيجة خلافات بين الباشا العثمانى والوكالة البريطانية[2]. ويعنى ذلك أن انتقال الوكالة إلى الكويت كان إجراء تأديبياً على أمل أن تكون النتائج التى تصيب البصرة اقتصاديا بسبب هذا الإجراء قادرة على تسوية تلك الخلافات التى كانت تعود أساساً إلى مؤامرات من قبل التجار اليهود المقيمين فى البصرة. ومع افتراضنا صحة هذه المبررات إلا أننا نضيف سبباً آخر وهو أن نقل الوكالة البريطانية من البصرة إلى الكويت كان يرتبط ارتباطاً كبيراً بالأحداث التى وقعت فى تلك الفترة، ونعنى بذلك النشاط السعودى فى الإحساء الذى أدى إلى الاطاحة بنفوذ بنى خالد وخوف السلطات البريطانية فى الخليج من أن يتحول النشاط السعودى إلى الكويت وما قد يؤدى إليه ذلك من تعريض التجارة البريطانية فى الخليج إلى خطر محقق[3].

ومما تجدر الإشارة إليه أن بنى خالد فى الإحساء كانوا الحاجز الكبير الذى حفظ الكويت من الهجمات الوهابية حتى نهاية القرن الثامن عشر غير أنه بسقوط بنى خالد صار اخضاع السعوديين للكويت بعد عام ١٧٩٣ أمراً كبير الاحتمال

---

(١) يفهم مما أورده ابراهام بارسونز أن أصول ذلك الخلاف يرجع إلى أيام رحلته ١٧٧٠ بسبب استثار الانجليز بالضرائب الجمركية التى كانت تقدر بـ ٦٪، انظر :

Parsons, A., op. cit., p. 157 .

(٢) عن التفصيلات المتعلقة بانتقال الوكالة البريطانية من البصرة إلى الكويت وموقفها من الغزوات الوهابية للكويت انظر :

Brydges, An Account of transaction of His Majesty's Mission to the Court of Persia to which is appended a brief History of Wahabees pp. 12 - 16 .

(٣) جمال زكريا قاسم : موقف الكويت من التوسع السعودى فى نجد وسواحل الإحساء العدد ١٧ من مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ص ص ٩٤ ـ ٩٥ .

وبالفعل شهدت السنوات القليلة التالية لسقوط بنى خالد هجمات سعودية متكررة على الكويت اشتدت وطأتها طوال فترة إقامة الوكالة البريطانية التابعة لشركة الهند الشرقية فى الكويت عقب انتقالها من البصرة، إذ كان من الطبيعى بعد إسقاط السعوديين لحكم بنى خالد فى الإحساء أن يعملوا على السيطرة على الممتلكات التابعة لهم ويعنى ذلك أن تصبح الكويت منطقة من مناطق النفوذ السعودى . ولكن الأمر الذى يبعث على الدهشة أن الكويت استمرت محتفظة بوضعها المستقل فى وقت كانت فيه القوة السعودية هى القوة المتسلطة ، بل وأكثر من ذلك يمكننا أن نذهب فى القول إلى أن سقوط حكم بنى خالد كان عاملاً هامًا من العوامل التى أدت إلى انطلاق الكويت نحو مرحلة هامة من مراحل استقلالها، ولتعليل ذلك يمكننا أن نركز على ناحيتين هامتين ، أولاهما علاقة الكويت بأسرة بنى خالد ، وثانيتهما العوامل التى أدت إلى احتفاظ الكويت باستقلالها عن السعوديين رغم تداعى نفوذ بنى خالد .

وفى تقديرنا أن سقوط أسرة بنى خالد على أيدى السعوديين فى عام ١٧٩٣ يعد بدءًا للعلاقات الكويتية السعودية وليس بداية لخضوع إمارة الكويت للنفوذ السعودى، فمن الأمور التى تسترعى الانتباه أنه على الرغم من تقديم شيوخ الكويت ولاءهم لشيوخ بنى خالد منذ أن تأسست إمارة الكويت فى النصف الأول من القرن الثامن عشر إلا أن ذلك الولاء لم يكن إلا من الناحية الشكلية البحتة . وقد ذكر نيبور بصدد ذلك أن النزاع كان يدور دائمًا بين سكان القرين المتمسكين باستقلالهم وبين شيوخ الإحساء الطامعين فى احتلال الكويت، وكان إذا ما وجه شيخ الإحساء قواته إلى الكويت لاخضاعها غادرها أهلها إلى جزيرة فيلكا ، كما أكد نيبور أنه على الرغم من أن شيوخ القرين كانوا يتبعون شيوخ بنى خالد فى الإحساء إلا أنهم كانوا يمارسون استقلالهم فى أحيان كثيرة[1] . ويفهم من ذلك أنه على الرغم من أن آل صباح تمكنوا من ممارسة نفوذهم المستقل فى الكويت إلا أنهم كانوا فى المراحل الأولى من استقرارهم فى الكويت يرتبطون بشكل أو بآخر بنوع من التبعية لشيوخ بنى خالد ، ولذلك كان من المتوقع حين داهمت بنى خالد الغزوات السعودية المتكررة خلال الفترة من ١٧٨٥ إلى ١٧٩٣ أن يبادر آل صباح

---

(١) جاكلين بيرين : اكتشاف جزيرة العرب ص ١٦٤ حيث أوردت المؤلفة وصفًا تفصيليًا لرحلات كارستن نيبور فى شبه الجزيرة العربية .

إلى نجدتهم طبقًا لما يقضى به العرف فى أن يقوم التابع بنجدة متبوعه، ولكن يلاحظ أن الشيخ عبد الله بن صباح حاكم الكويت كان متردداً بين أمرين أولهما : تقديم العون لبنى خالد ومعنى ذلك أن يستمر محتفظًا بولائه لهم . وثانيهما : مساعدة السعوديين فى إسقاط أسرة بنى خالد لما سيترتب على ذلك من تخلص الكويت من تبعيتها لهم[1]. وفيما يبدو أن الشيخ عبد الله قد التزم بموقف الحياد إزاء الصراع الذى كان قائمًا بين السعوديين وبنى خالد غير أنه لم يلبث أن أدرك قوة الضغط السعودى وخاصة فى هذه المرحلة التى اندفع فيها السعوديون بشكل حماسى بالغ لنشر الدعوة الوهابية على سواحل الخليج، وما قد يترتب على ذلك بالضرورة من تعرض إمارته لخطر مجاورتها لنفوذ السعوديين بعد سيطرتهم على الإحساء .

وقد حدث ذلك بالفعل حين بدأت الكويت تتعرض منذ عام ١٧٩٣ لمناوشات سعودية خاطفة وذلك حين قدم القائد السعودى إبراهيم بن عفيصان إلى أطراف الكويت بجماعة من قبائل الخرج والعارض وسدير واستحوذ على قدر كبير من الأسلاب ، ولذلك حرص الشيخ عبد الله بن صباح أن يؤيد القوتين المناهضتين للسعوديين وهما العثمانيون وبنو خالد فى الوقت الذى لم يعلن فيه صراحة عداءه للسعوديين، وكان تقدير شيخ الكويت أن إمارته تتمتع باستقلالها الذاتى فى ظل تبعيتها للعثمانيين أو بنى خالد ولكنه لن يضمن أن تستمر مشيخته محتفظة باستقلالها فى ظل السيطرة السعودية على أنه من ناحية أخرى كان حريصاً على أن لا يظهر من تقديم الكويت مساعدتها للعثمانيين أو بنى خالد تأكيداً لتبعيتها لإحدى هاتين القوتين ولذلك اكتفى بتقديم المساعدات لشيخ المنتفق الذى كلف من قبل والى بغداد بإعداد قوات كبيرة لمقاتلة السعوديين بالتحالف مع شيوخ بنى خالد وأسرع الشيخ عبد الله بوضع إمكانيات الكويت البحرية فى خدمة العمليات العسكرية ، حيث استخدمت السفن الكويتية فى نقل قسم كبير من قوات الشيخ ثوينى حاكم المنتفق لمقاتلة السعوديين فى الإحساء[2]. ومع ذلك فلم

(١) عثمان بن بشر : عنوان المجد فى تاريخ نجد جـ ١ ص ١٠٨ وكذلك القناعى : مرجع سبق ذكره ص ١٢ ولمزيد من التفاصيل عن علاقة الكويت ببنى خالد انظر مقالة الأب أنستاس الكرملى عن الكويت ـ مجلة المشرق بيروت ١٩٥٢ ص ٤٤٩ وما بعدها .

(٢) جمال زكريا قاسم : موقف الكويت من التوسع السعودى فى نجد وسواحل الإحساء ص ٩٧ .

تكن النتيجة فى صالح تلك القوات التى تفرقت أمام الهجمات السعودية وقتل الشيخ ثوينى نفسه فى إحدى المعارك الطاحنة التى نشبت بينه وبين السعوديين[1]، وأعقب ذلك نجاح السعوديين فى الاستيلاء على الإحساء وتأكيد نفوذهم فى المقاطعات الشرقية للجزيرة العربية ، وترتب على ذلك أن أصبحت الكويت ملامسة للقوة للسعودية التى أصبحت تتاخمها جنوبًا . وعلى الرغم من أن الكويت استفادت من سقوط حكم بنى خالد فى التخلص من الارتباطات الواهية التى كانت قائمة بينها وبين تلك الأسرة الحاكمة إلا أن شيوخ الكويت أخذوا يتعرضون بعد سقوط حكم بنى خالد للعديد من الهجمات السعودية المتكررة[2]. على أنه ينبغى أن نشير هنا إلى أنه لما كانت الوكالة البريطانية قد انتقلت إلى الكويت فى عام ١٧٩٣ فقد حرص المستر صمويل مانيستى القائم بأعمال الوكالة آنذاك أن يستبقى طرادًا فى ميناء الكويت حماية لإمارة الكويت من احتمال قيام هجوم سعودى ضدها ، كما أمر بإقامة فرقة حرس من الهنود يقودها ضابط هندى على الشاطئ ، وقد حاول السعوديون بالفعل السيطرة على الكويت واتجهوا إلى منع المياه عنها وذلك بسيطرتهم على الآبار العذبة[3].

وعلى الرغم من أن الوثائق الرسمية البريطانية قد حرصت على أن تنفى نفيا قاطعًا قيام الوكالة البريطانية فى الكويت بأى دور فى صد الهجمات السعودية عن الإمارة وعللت ذلك بأن هذا الموقف كان متمشيًا مع السياسة البريطانية العامة التى كانت تقوم على عدم التدخل فى الصراعات الداخلية، وخاصة إذا كانت تلك الصراعات لها ارتباط بالدولة السعودية باعتبارها دولة إسلامية؛ ومن ثم كانت التعليمات البريطانية صريحة فى أن تقف الوكالة البريطانية فى الكويت موقفًا محايدًا من الصراعات الدائرة بين السعوديين والكويت خوفًا على بريد شركة الهند الشرقية البريطانية الصحراوى من أن يتعرض لانتقام السعوديين ، كما ذكر السير هارفورد جونز العديد من المبررات الأخرى التى الزمت الوكالة بهذا الموقف المحايد وأكد أن أهالى الكويت هم الذين دافعوا عن إمارتهم وأن شيخهم هو الذى نجح بفضل عدله وسماحته أن يجنب إمارته الخضوع للسعوديين، وأنه تمكن بمدفع

---

(١) أحمد مصطفى أبو حاكمة : تاريخ الكويت الجزء الأول القسم الأول ص ٢٥٦ .

(٢) ج . ج لوريمر: دليل الخليج جـ ٣ ص ١٥٠٩ .

(٣) Brydges, op . cit., p. 12 ff .

قديم أمر بنقله من إحدى سفنه أن يصد هجومًا سعوديًا قام به أكثر من خمسمائة رجل، وواضح أن السير هارفورد جونز كان حريصًا على التأكيد بأن الوكالة البريطانية لم تقم بأى دور بين الطرفين بل كان حريصًا على التأكيد أيضًا بأن العلاقات كانت طيبة بين الوكالة البريطانية وبين الإمام السعودى، وأن الوكالة لم تستجب لمساعدة شيخ الكويت رغم إلحاحه الشديد فى طلب تلك المساعدة لأن مصلحة الوكالة البريطانية أن تكون على وئام مع الأمير سعود من أجل سلامة مراسلاتها التى كانت تنقل من الكويت أو تصل إليها عن طريق الصحراء[(١)].

ومع وجاهة تلك المبررات إلا أننا نجد بعض المصادر الأخرى التى تؤكد على حدوث مساعدات إنجليزية للكويت ضد السعوديين وتستند تلك المصادر على ما ذكره المستر رينو Reinaud - أحد العاملين فى الوكالة البريطانية فى الكويت - الذى ذكر أنه فى خلال إقامته بالكويت مساعداً للمستر مانيستى فى الفترة بين ١٧٩٣ و ١٧٩٥ تعرضت الكويت لهجمات سعودية كثيرة، وقدر مستر رينو إحدى الهجمات الكبيرة التى تعرضت لها الكويت بألفى جمل يحمل كل بعير رجلين، الراكب الأمامى مسلح ببندقية وزميله مسلح برمح ليحميه أثناء إعادة ملء بندقيته بالرصاص. وذكر رينو أن المستر مانيستى أصدر أوامره بإنزال مدفعين من إحدى السفن العسكرية الإنجليزية التى كانت راسية فى ميناء الكويت وأنه أمر الجنود الهنود بالاشتراك مع الكويتيين فى صد الهجوم السعودى، وأن السعوديين خسروا كثيراً من رجالهم نتيجة نيران المدفعية البريطانية التى صوبت إليهم أثناء فرارهم إلى الساحل[(٢)]. وقد رد السعوديون على هذا الاشتراك من جانب الوكالة البريطانية بهجومهم على بريدها الصحراوى مما كان سببًا فى رحلة رينو إلى الدرعية حيث كلف من قبل مانيستى رئيس الوكالة البريطانية فى الكويت بمقابلة الأمير السعودى فى عاصمته ، وبذلك اشتهر رينو بأنه كان أول أوربى قدر له أن يزور الدرعية عاصمة الدولة السعودية الأولى[(٣)].

(١) Brydges, H., op. cit., See Wahauby pp. 12 - 16.

(٢) أورد لوريمر هذه الرواية نقلاً عن ما ذكره المستر رينو فى حديثه إلى الدكتور سيتزن Seetzen الذى ورد فى كتاب فون زاش Zach مراسلات موتاليش ص ص ٢٣٤ - ٢٤٥ وعلى الرغم من أن لوريمر يقر بأن المستر هارفورد جونز يعد مصدرا أكثر اطلاعًا إلا أنه لا يستطيع أن يعتبر ما جاء فى رواية رينو من نسج الخيال - انظر: ج.ج لوريمر جـ ٣ ص ص ١٥٠٩ - ١٥١٠.

(٣) جمال زكريا قاسم: الدوافع السياسية لرحلات الأوربيين إلى نجد والحجاز، من أعمال ندوة مصادر تاريخ الجزيرة العربية الرياض ١٩٧٧.

وعلى الرغم من التناقض الذى يبدو واضحًا بين ما ذكره السير هارفورد جونز والمستر رينو إلا أن ما ذكره الأخير يبدو لنا مقبولاً لأن الوكالة البريطانية كانت تخشى بطبيعة الحال ، رغم عدم إظهار عداوتها للسعوديين ، على أموالها وبضائعها المودعة بالكويت فيما لو نجحت إحدى الغزوات السعودية لأنها سوف تصبح فى هذه الحالة غنيمة مشروعة فى عرف الوهابيين باعتبارها من أموال الكفر ، وفضلاً عن ذلك فإن مساعدة الوكالة لشيخ الكويت فى رد الهجوم السعودى عن إمارته كان التزامًا أدبيًا وتعبيراً لشيخ الكويت عن الاعتراف بجميله حينما أفسح لها مكانًا فى بلاده[1].

وعلى الرغم من أن السعوديين استمروا فى مواصلة عملياتهم الهجومية ضد الكويت إلا أن تلك الهجمات لم تؤد إلى نتيجة إيجابية من حيث إخضاع الإمارة لنفوذهم، وعلى العكس من ذلك استطاعت إمارة الكويت أن تحقق انتصارات اقتصادية هامة ضد السعوديين نتيجة لما ترتب على الغزوات السعودية المستمرة على الإحساء من تحول تجارة الهند إلى أواسط الجزيرة العربية عن مجراها المعتاد مروراً بموانى الإحساء إلى الكويت، حيث أصبح ميناء الكويت يستخدم بدلاً من موانى القطيف والعقير، وكان ذلك مما أثار السعوديين وجعلهم ينظرون بقلق بالغ إلى منافسة ميناء الكويت لموانى الإحساء بل طالب السعوديون بنصيبهم من الأموال التى كانت تتدفق على الكويت . وفى عام ١٨٠٨ أعد السعوديون حملة كبيرة للاغارة على الكويت ولكن أهالى الكويت نجحوا فى مقاومة الحصار الذى فرضه السعوديون عليهم، وتمكنت الإمارة أن تبقى بمنأى عن النفوذ السعودى الذى بلغ فى ذلك الوقت درجة كبيرة من التفوق والانتعاش وإن استمر إحساس الكويتيين بالخطر الذى يمكن أن تتعرض له إمارتهم من جانب السعوديين، ولعل ذلك يفسر شدة ترحيب شيخ الكويت ، وكان فى ذلك الوقت ، الشيخ جابر الصباح بالتقدم الذى أحرزته القوات المصرية التى زحفت على نجد وأسقطت الدرعية عاصمة الدولة السعودية الأولى فى عام ١٨١٨ ؛ إذ تؤكد بعض المصادر أن الشيخ جابر

---

(١) جمال زكريا قاسم : موقف الكويت من التوسع السعودى فى نجد وسواحل الإحساء ص ٩٨ . انظر : للمقارنة بين الروايتين:
Brydges. H. J., A Brief History of the Wahauby p. 12 SQ.

قدم مساعـدات لإبراهيم باشا فى أثناء حصاره للدرعيـة . ومن المعروف أن الشيخ جابر تولى الحكم خلفًا للشيخ عبد الله بن صباح بعد وفاته فى عام ١٨١٣ بعد أن حقق للكويت نموًا مطردًا، كما عرف عنه بأنه كان حاكمًا حازما قريبًا إلى الحق محبًا للعدالة حسن السياسة لا يبت فى أمر مهم إلا بعد مشاورة كافية، وكان لا يخالف الجماعة فيما يرونه صوابًا[١] . وبوفاته تولى الشيخ جـابر الذى لقب بجابر العيش لكثرة ما كان يتصدق به على الفقراء ، وقد امتد حكمه حتى عام ١٨٦٠ ولعل أهم ما يميز حكمه هو تلك العلاقات الطيبة التى وجدت بينه وبين الدولة العثمانية.

والأمر الذى لا شك فيه أن مجاورة الكويت للدولة العثـمانية جعل علاقتها بهذه الدولة الإسلاميـة الكبيرة أمرًا حيويًا وظهـر ذلك فى أن سفن الكويت كانت تحمل الراية العثمانية[٢] . وحين قضى العثمانيون على داود باشا آخر مماليك العراق فى عام ١٨٣١ حاولوا أن يمدوا نفوذهم إلى الكويت وذلك عن طريق الزام الشيخ جابر بدفع أمـوال سنوية ذكرت بعض المصادر أنها كـانت تقدر بأربعين كيـسًا من الأرز وأربعمـائة سباطه من التـمور[٣]، وأنه كـان يتـلقى فى كل سنة خلـعـة من السلطات العثمانية تكريما له. ولكـن لم يستمر دفع تلك الأموال من قبل الكويت ولعل ذلك يرجع فى الدرجة الأولى إلى أن الدولة العـثمانية كـانت فى حاجة إلى مساعـدة أسطول الكويت للدفاع عن شط العرب حتى كـانت هى التى تدفع إعانة سنوية لشـيخ الكويت . وفى عـام ١٨٣١ أغارت عـشائر بـنى كعب على مـدينة البصرة مما اضطر متسلمها للجـوء إلى الكويت حيث أنجده الشيخ جابر بعدة سفن مليئة بالرجال والذخيرة[٤]، وفى عام ١٨٣٦ وحـسب أوامر السـلطات العثمانية قدم الشيخ جابر عونه للسلطات العثمانيـة فى البصرة فى القضاء علي تمرد سكان الزبير وكان عـونه قاصرًا على حصـار مداخل المدينة من ناحيـة البحر ، وحـين سقطت الزبير فى أيدى السـلطات العثمانية لجـأ واحد من شيوخ عائلة الزهير إلى الكويت، ومن هناك قيل أنه باع للـشيخ جابر إمارة صـوفية بشط العـرب المشهورة ببسـاتين

---

(١) القناعي : مصدر سبق ذكره ص ١٠ .

(٢) لم تكن الكويت ضمن الإمـارات الموقعة على المعـاهدة العامة التى فرضـتها بريطانيـا على بعض إمارات الخليج فى عام ١٨٢٠ ، ولذلك فإنها لم تكن ملتزمة برفع راية ساحل الصلح البحرى .

(٣)ج . ج لوريمر: دليل الخليج جـ ٣ ص ١٥١٣ .

(٤) القناعي ، صفحات من تاريخ الكويت ص ص ١٤ ، ١٥ انظر أيضًا عبد العزيز الرشيد : تاريخ الكويت ص ٩٨ .

النخيل وهذه الحادثة ستثير مشاكل كثيرة فى المستقبل بين الكويت والدولة العثمانية ثم بينها وبين العراق بعد استقلاله[1]. ولعل أبرز المساعدات التى قدمها الشيخ جابر للدولة العثمانية هو تصديه لاغارات شيوخ بنى كعب ضد البصرة وكان كثيراً ما يمد السلطات العثمانية بالبصرة بالعون والمساعدة ، وحين نجح شيوخ بنو كعب فى محاصرة مدينة البصرة سار بقواته إليها، وكان من أعظم المساعدين على استخلاصها من بنى كعب ،كما وجه أسطوله ضد بنى كعب حين تغلبوا على الحامية العثمانية فى المحمرة . ويؤثر عن الشيخ جابر رفضه طلبًا تقدم به الإنجليز فى عام ١٨٢٩ لإقناعه برفع العلم الإنجليزى على قلعته وذلك حفاظًا منه على العلاقات التى كانت قائمة بينه وبين الدولة العثمانية رغم تهديدات الإنجليز له بمنع التعامل مع سفنه التجارية التى كانت تذهب إلى موانى الهند . ولعل الموقف الودى الذى وقفه الشيخ جابر إلى جانب الدولة العثمانية سواء بمساعدته لها فى صد الهجمات القبلية أو فى موقفه المعارض للإنجليز كان سببًا من الأسباب التى جعلت الدولة العثمانية تكافئه بمائة وخمسين كارة من التمر سنويًا كما منحته فرمانًا وعلمًا أخضر، واستمر ذلك الراتب يجرى لآل صباح حتى انقطع بتولية الشيخ مبارك حكم الكويت فى عام ١٨٩٦[2].

نخلص من ذلك أنه منذ أن تأسست الكويت فى منتصف القرن الثامن عشر استطاعت الإمارة أن تحمى نفسها من التدخل فى شئونها من قبل القوى المجاورة والتى كانت تتمثل فى الفرس والعثمانيين والسعوديين والمصريين كما أنه لم يثبت وجود سيادة عثمانية على الكويت ، وعلى العكس من ذلك كانت الدولة العثمانية تميل إلى تشجيع شيوخ الكويت على التخلص من الأخطار التى كانت تهدد الكويت أو ولاية البصرة ، وكما أشرنا كان شيوخ الكويت يتلقون رواتب سنوية من خزانة البصرة نظير قيامهم بحماية شط العرب دون إلزام بهذه الحماية ؛ كما أن رفع الراية العثمانية على السفن الكويتية كان لا يعنى ممارسة الدولة العثمانية سيادة على الكويت إذ كان الكويتيون يفضلون أن تبحر سفنهم وهى حاملة للرايات

---

(١) جمال زكريا قاسم ؛ الخليج العربى دراسة لتاريخ الإمارات العربية ١٩١٤ ـ ١٩٤٥ ص ١٤٧ وما بعدها.

(٢) عبد العزيز الرشيد : تاريخ الكويت ص ٩٨ . انظر أيضًا القناعى : صفحات من تاريخ الكويت ص ١٤.

العثمانية لأنه لم يكن هناك اعتراف من قبل الدول الأخرى بالرايات المحلية الكويتية ، ومن ناحية أخرى أن رفع الراية العثمانية لم يكن يقترن في الأذهان بالتبعية إلى الدولة العثمانية أكثر مما كان يعد مظهراً روحياً لاحترام دولة الخلافة الإسلامية[1].

(1) Rouire, la Question de Golfe Persique, le Reglement des Questions des Mascate et de koweit, Revue des Deux Mondes pp. 370 - 371 tome XVII, 1903 Cinquieme Periode. See also Whigham, The Persian Problem pp. 102 - 103 .



الفصل الثانى عشر

نشأة إمارتى البحرين وقطر

التركيبة القبلية والطائفية لإمارتى البحرين وقطر ـ الأوضاع الداخلية فى البحرين عقب انهيار السيطرة البرتغالية ـ محاولات أئمة اليعاربة السيطرة على البحرين ـ الظروف التى مكنت آل خليفة من السيطرة على البحرين ـ علاقات آل خليفة بسلطنة مسقط ـ العلاقات بين آل خليفة والسعوديين ـ نجاح الجلاهمة فى السيطرة على أجزاء من شبه جزيرة قطر ـ نجاح السعوديين فى السيطرة على الحويلة والزبارة ـ انهيار النفوذ السعودى عقب سقوط الدرعية ـ ظهور سلطة آل ثانى ـ انفصال قطر عن البحرين .

إن معالجة تاريخ نشأة إمارتى البحرين وقطر فى فصل واحد أمر يحتمه الواقع التاريخى إذ أنه من الصعب دراسة نشأة أية إمارة من هاتين الإمارتين دون الرجوع إلى الإمارة الأخرى ، ويكفى أن نشير بصدد ذلك إلى أن آل خليفة حكام البحرين بدأو حكمهم فى الزبارة فى شبه جزيرة قطر وذلك قبل أن يتجهوا إلى البحرين لكى يؤسسوا لهم إمارة فيها . على أنه مما تجدر الإشارة إليه أنه فى الوقت الذى كان فيه آل خليفه يسيطرون على الزبارة كانت كثير من قبائل شبه جزيرة قطر تمارس نوعًا من الحكم الخاص بها، واستمر الأمر على ذلك حتى تمكن آل ثانى من الوصول إلى مجال الزعامة ونجحوا فى تكوين إمارة خاصة بهم بعد انفصالهم عن آل خليفة فى البحرين فى عام ١٨٦٨ . ومن الطبيعى أن يصاحب ذلك ظهور كثير من المشكلات الإقليمية والديموجرافية بين قطر والبحرين نظرًا لما كان يجمع بينهما فى الماضى من وحدة سياسية . ومن المؤسف أن تتحول روابط الماضى إلى إثارة العديد من المشكلات بين الإمارتين كمطالبة قطر بجزيرة حوار ، وهى إحدى جزر البحرين ، أو مطالبة البحرين بالسيادة على آل النعيم فى ميناء الزبارة ، وهذا المطلب الأخير لا يمكن تصنيفه تصنيفًا قانونيًا كما يشير إلى ذلك أحد الباحثين فى القانون الدولى لأن الأمر لا يتعلق بالمطالبة بإقليم يقع خارج الإمارة فحسب وإنما المطالبة برعايا إمارة يعيشون فى إقليم تابع لإمارة أخرى[١] .

(١) Al Bahrna, Hussain, The Legal Status of the Arabian Gulf States - A Study of their treaty relations and their Inernational Problems, Manchester 1968 p. 249 .

وقد يكون من المناسب قبل أن نعرض لنشأة الإمارتين أو تتبع التطورات السياسية في كل منهما أن نبدأ بالتعرف على التركيبة القبلية والبشرية التي تتكون منها عناصر السكان في كل من الإمارتين . ومما يسترعي الانتباه أن البحرين تختلف عن قطر بتعدد العناصر البشرية التي استوطنت بها وربما يعزى ذلك إلى طبيعة موقعها وتوافر موارد الرزق بها التي كانت تعتمد في الدرجة الأولى على استخراج اللؤلؤ ، وهي حرفة رئيسية كانت تجتذب إليها الكثير من العاملين في الخليج أو في مناطق أخرى.

وعلى الرغم من كثرة العناصر التي كانت تفد إلى البحرين إلا أن السكان الأصليين في البحرين ينتمون إلى قبائل من شبه الجزيرة العربية أو سواحل الخليج وإن كانت قد خالطتهم بعض العناصر التي ترجع إلى أصول فارسية ؛ والتي نزحت في بعض العهود التاريخية إلى البحرين ، وخاصة خلال الفترات التي خضعت فيها جزر البحرين للسيادة الفارسية ، كما حدث بعد طرد البرتغاليين من البحرين على عهد الشاه عباس الكبير في عام ١٦٠٢ ، أو على عهد نادر شاه مؤسس الأسرة الإفشارية حين أخذ يتطلع إلى مد السيادة الفارسية على سواحل الخليج العربي . وعلى الرغم من ذلك فإن السكان الأصليين من العرب هم الذين يشكلون المجموعة السكانية الكبيرة في البحرين ، وإن كان ينبغي أن نقرر مع ذلك أن العناصر الأخرى التي وفدت على البحرين من السواحل الشرقية للخليج تكون عنصراً هاما من عناصر السكان، وقد انتقلت هذه العناصر إلى البحرين منذ أوائل القرن الثامن عشر الميلادي ومعظمهم يدينون بالمذهب السني[١]. وعلى الرغم من وجود بعض العناصر الفارسية إلا أنه ينبغي أن نقرر أن هناك مجموعات كبيرة من العناصر العربية التي تشكل مجموعة عرب الهولة التي وفدت من السواحل الشرقية للخليج . أما العناصر العربية التي وفدت من أواسط الجزيرة العربية فيبرز من بينها مجموعات العتوب والسادة والدواسر وآل النعيم وغيرهم ، ومن مجموعة العتوب برز آل خليفة الذين نجحوا في الوصول إلى السلطة في البحرين منذ أواخر القرن الثامن عشر الميلادي[٢]. ويمكننا أن نضيف إلى تلك المجموعات القبلية مجموعات

---

(١) جمال زكريا قاسم : الادعاءات الإيرانية في الخليج العربي أصول المشكلة وتطورها التاريخي، من أعمال المؤتمر الدولي للتاريخ بغداد ١٩٧٣.

(٢) أحمد محمود صبحي : البحرين ودعوى إيران، الإسكندرية ١٩٦٢، ص ١١.

أخرى كانت قد استقرت فى شبه جزيرة قطر واستعان بهم آل خليفة فى السيطرة على البحرين، وعلى الرغم من أن كثيرا من تلك المجموعات قد استقرت فى جزر البحرين إلا أن أصولهم لا تزال قائمة فى شبه جزيرة قطر ، ويبرز من بين تلك المجموعات القبلية آل بوكوارة والسلاته وآل مسلم والمعاودة وغيرهم كثيرون .

ومما هو جدير بالذكر أن الغموض يكتنف تاريخ البحرين منذ الفترة التى انهار فيها النفوذ البرتغالى على أيدى الفرس فى عام ١٦٠٢ حتى وصول آل خليفة إلى حكم البحرين فى عام ١٧٨٣ . وعلى الرغم من أن المصادر الإيرانية تحاول تأكيد تبعية البحرين لفارس طيلة الفترة المشار إليها والتى تبلغ مائة وثمانين عامًا إلا أن دراسة أحداث الخليج خلال تلك الفترة تؤكد أن الحكم الفارسى فى البحرين، أو على الأحرى السيادة الفارسية على البحرين لم تتعد أكثر من تسعين عامًا[٢].

حقيقة أن البحرين تعرضت لغزوات فارسية من قبل بعض حكام الأسرة الصفوية وكذلك على عهد نادر شاه إلا أن تلك الغزوات لم تكن ناتجة عن إيمان الحكام الفرس بأن البحرين تشكل جزءًا من فارس وإنما كان يحرك تلك الغزوات الأطماع الاقتصادية[٣]، أو الخلافات المذهبية وخاصة ضد شيوخ الإحساء من بنى جبر أو بنى خالد الذين كانوا يخضعون البحرين لسيطرتهم . وقد أتيح للشاه عباس الكبير فى عام ١٦٠٢ أن يخلف البرتغاليين فى السيطرة على البحرين حين نشبت الخلافات الطائفية بين عناصر سكانها الشيعة والسنة فى أعقاب انهيار النفوذ البرتغالى، ونجح الشاه عباس فى إرسال قوة بحرية عهد بقيادتها إلى قولى خان الذى نجح فى احتلال البحرين وأصبحت البحرين منذ السنوات الأولى من القرن السابع عشر الميلادى تحت الحكم الفارسى حيث تعاقب عليها العديد من الحكام

---

(١) يؤكد الكتاب الإيرانيون على خضوع البحرين للسيادة الفارسية التى لم تضعف إلا بعد عهد كريم خان الزندى فى عام ١٧٧٩ راجع بصدد ذلك :

Farroughy, Abbas, The Bahrein Islands, 750 - 1951, A Contribution to the study of power politics in the Persian Gulf New York 1951. pp. 67 - 69 .

(٢) قدر الرحالة إبراهام بارسونز قيمة اللؤلؤ المستخرج من البحرين فى عام ١٧٧٥ بستين ألف تومان .

Parsons, A., Travels in Asia and Africa P. 202 .

الفرس . ويظهر من دراستنا لعهود أولئك الحكام عدم رضا سكان البحرين بالحكم الفارسى ، وبالتالى كانت البحرين مهيأة لقبول حكم عربى يسود فى عهده الأمن ويحقق العدالة بين طوائف السكان[١] . وقد تقدمت من أجل ذلك قوتان عربيتان هما الأئمة الأباضيون فى عمان وآل خليفة من جماعات العتوب . ومما يستلفت الانتباه أن تقدم الأئمة الأباضيين للسيطرة على البحرين قد تميز بالنزعة الطائفية إذ يعتبر شيعة البحرين الأباضيين من الخوارج وبذلك وقف الخلاف الطائفى حائلاً دون نجاح الأباضيين فى عمان فى اخضاع البحرين لنفوذهم رغم المحاولات العديدة التى بذلوها من أجل ذلك .

ولعل أبرز تلك المحاولات حدثت على عهد الإمام سيف بن سلطان من أسرة اليعاربة حين انتهز فرصة الاضطرابات التى حدثت فى المملكة الفارسية فقام بحملة كبيرة على البحرين فى عام ١٧٠٠ وفر شيعة البحرين إلى القطيف ، كما لجأ بعضهم إلى السواحل الشرقية للخليج وقد أثار غزو اليعاربة للبحرين ثائرة فارس ومن ثم عزم الشاه حسين رغم ضعف قوته على تخليص البحرين من سيطرة اليعاربة واضطر إلى الاستعانة بالشركات الأوربية التجارية العاملة فى الهند وجزر الهند الشرقية[٢]، حيث أرسل بعثة برئاسة ميرزا نصر إلى بومباى فى عام ١٧٠٧ للاستعانة بشركة الهند الشرقية البريطانية، كما توجهت بعثة أخرى إلى باتافيا للاستعانة بشركة الهند الشرقية الهولندية ، ولما كانت هاتان الشركتان لا تزالان حتى ذلك الوقت تسعيان إلى الربح المادى ولم تكن أى منهما تضع المغامرات العسكرية فى حسبانها فقد فشلت هاتان البعثتان[٣]، مما دفع الشاه إلى ارسال بعثة ثالثة للبلاط الفرنسى نجحت فى التفاوض على معاهدة صداقة بين فارس وفرنسا فى عام ١٧٠٨ وكان ذلك على عهد لويس الرابع عشر ، وجاء فى بعض نصوص هذه المعاهدة على أن تمد فرنسا فارس بكل ما تحتاجه من مساعدة

---

(١) على أبا حسين : تاريخ البحرين من خلال المخطوطات والوثائق ص ص ٢٤٦ ـ ٢٤٧ من أعمال الحلقة الرابعة لمراكز دراسات الخليج والجزيرة العربية أبو ظبى نوفمبر ١٩٧٩ .

(٢) Curzon, G., Persia and The Persian Question Vol. II P. 484 See also Bombay Govt., S.R.S.G. Muscat Vol. XXIV p. 168 SQ.

(٣) أحمد محمود صبحى : البحرين ودعوى إيران ص ٧٠ .

ووسائل نقل بحرى لاحتلال مسقط ، ولكن فرنسا لم تلبث أن ترددت فى تنفيذ تلك المعاهدة مما دفع فارس إلى تكليف سفيرها فى باريس بأن يتفاوض من أجل عقد معاهدة أخرى تعطى فرنسا امتيازات تجارية أكثر مما قررتها المعاهدة السابقة، وكانت المعاهدة الجديدة تنص على أن تساعد فرنسا فارس فى تخليص البحرين من الاحتلال العمانى وتوافق فارس من ناحيتها على إبقاء حامية عسكرية فرنسية ، وأن تشترك فرنسا مع فارس فى اقتسام موارد اللؤلؤ فى البحرين ؛ غير أن تلك المعاهدة لم يتم المصادقة عليها وبالتالى لم تصل إلى مرحلة التنفيذ وفيما يرجع أن المشكلات الخارجية العديدة التى كان يواجهها لويس الرابع عشر لم تتح الفرصة لتنفيذها[1] .

ومما تجدر الإشارة إليه أن فارس اتجهت فى محاولتها لإجلاء العمانيين عن البحرين إلى الاستعانة بالبرتغاليين فى قاعدتهم الرئيسية فى جوا بالهند وحدث ذلك فى عام ١٧١٨ مما أثار ثائرة الإنجليز الذين أخذوا من جانبهم يقدمون مساعداتهم إلى سلطان بن سيف إمام عمان مما مكنه من تثبيت سيطرته على البحرين ، ولكن العداء الذى واجهه العمانيون من عرب الهولة فى البحرين كان من أهم الأسباب التى دفعت بإمامة عمان إلى الدخول فى مفاوضات مع فارس وقد قبلت فارس أن تدفع لعمان ثمانية آلاف تومان فارسى مقابل انسحاب القوات العمانية من البحرين ووافق اليعاربة على ذلك وتم انسحابهم من البحرين بالفعل فى عام ١٧١٨ . على أن ذلك لم يؤد إلى استقرار الأوضاع فى البحرين إذ ترتب على السيطرة الفارسية إثارة التعصب المذهبى بين السنة والشيعة مما أحال البحرين إلى فوضى عارمة . ومما يستلفت الانتباه أنه على الرغم من أن فارس استطاعت أن تسيطر على البحرين منذ عام ١٧١٨ إلا أنها لم تمارس الحكم بصورة مباشرة إذ سيطر عرب الهولة على حكم البحرين تحت السيادة الفارسية حتى تمكن زعيم الهولة من التخلص من تلك السيادة وشجعه على ذلك تداعى حكم الشاه حسين[2]، وتعرض فارس للغزو الأفغانى، واستمر الشيخ جبارة زعيم الهولة

---

(1) Masson, Histoire du Commerce Francais dans Le levant au 18 Siecle P. 525. See also Flasson, Histoire da La Diplomatique Francais, Livre II. D'Avrile, La Golfe Persique p. 7 SQ .

(٢) صادق نشأت : تاريخ الخليج السياسى ص ٢٠٠ .

يحكم البحـرين خلال الفترة من ١٧١٨ حتى أطاح بـه نادر شاه فى عام ١٧٣٦ . ولم يلبث عرب الهولة أن استردوا زعامتهم على البحرين على أثر اغتيال نادر شاه فى عام ١٧٤٧[١] . ولكن سيادة عرب الهولة لم تلـبث أن انهارت حين قام الشيخ نـصر آل مـذكـور ـ وهـو شيخ عربى من قـبيلـة المطاريش التى تنتمى أسـاسًا إلى عمان ـ بالقضاء على نفوذهم فى عام ١٧٥٥ ، وقد عهد كريم خان الزندى للشيخ نصر آل مذكـور الحكم فى البحرين بالإضافة إلى بوشـهر وبندر ريق حتى تم لآل خليفة القضاء على حكم آل مذكور فى البحرين فى عام ١٧٨٣[٢] .

ويمكننا أن نسـتـخلص مما أوردناه أنه على الرغـم من أن البحـرين كـانت تخـضع للسـيـادة الفارسـية إلا أن القـبائل العـربية هى التى كـانت تمارس الحكم الفعلى ، وكثيرًا ما كانت هذه القبائل تقوم بالـثورة على التبعية الفارسية . ولعلنا قد لاحظنا ذلك فى المحاولات العديدة التى قام بها عرب الهولة من أجل التخلص من السيادة الفـارسية . ومما يسترعى الانـتباه أنه قد عاصـر وصول المطاريش أو عرب بوشهر إلى حكم البـحرين هجرة آل خليفـة إلى الزبارة فى عام ١٧٦٦ وذلك بعد انشقاقهم عن تحـالف العتوب حيث بدأت العلاقات بين الفـريقين ، والتى انتهت بنجاح آل خليفة فى السيطرة على البحرين . وحـين وفد آل خليفة إلى شبه جزيرة قطر لم يتمكنوا من السـيطرة إلا على ميناء الزبارة أما بقية شبه الجزيرة القطرية فقد كانت تقطن بها مجموعات قبلية بلغت درجة كبيرة من التعقيد فهناك المناصير وبنى مرة وقسم من قـبيلة النعيم وآل بوعينين وآل سودان ، وكـانت هذه القبائل تـسكن مناطق وقرى مختلفـة من شبه جزيرة قطر كالوكرة والفويرط والبدع (الـدوحة فيما بعد)[٣] . ومن الثابت أن شـبه جـزيرة قطر برمتـها كانت تخـضع فى ذلك الوقت لنفوذ بنى خالد فـى الإحساء ، وكما يذكـر صاحب كتاب لمع الشهـاب فى سيرة الشيخ محمد بن عبد الوهاب أن آل مسلم أبرز قـبائل قطر ينتمون أساسًا إلى قبيلة ربيعة وهم بذلك يعدون فرعًا من فروع بنى خالد وكانوا يقيمون فى الحويلة الواقعة

---

(١) ج.ج لوريمر : دليل الخليج جـ ٣ ص ١٢٧٠ .
(٢) النبهانى : التحفة النبهانية فى تاريخ الجزيرة العربية المجلد السادس البحرين ص ١٧٢ .
(٣) kelly, John, Britain and The Persian Gulf See Chapter I, The Persian Gulf in the late eighteenth .

على الساحل الشرقى من شبه جزيرة قطر[1]، ويستمدون نفوذهم من علاقتهم ببنى خالد . وقد تمكن آل خليفة أخيراً من الاستقرار فى ميناء الزبارة المواجه لجزر البحرين، ومن ذلك الميناء بدأوا يوجهون طموحهم للسيطرة على تلك الجزر[2].

وبصدد سيطرة آل خليفة على البحرين تؤكد بعض المصادر الفارسية أن الشيخ أحمد بن خليفة ألح على الشيخ نصر آل مذكور شيخ بوشهر والبحرين على أن يترك له حكم البحرين مقابل دفع ضريبة سنوية إلى أمير شيراز، ووافق الشيخ نصر على ذلك وأصبح الشيخ أحمد بن خليفة حاكماً على الزبارة والبحرين تحت السيادة الفارسية . على أن ما ذكرته المصادر الفارسية كان أمراً لا يتفق مع منطق الأشياء إذ إن الشيخ نصر حاكم بوشهر كان يخضع البحرين لسيطرته ، ومن الطبيعى ألا يقبل أن يحل غيره فى حكم البحرين ، كذلك تذكر بعض المصادر الفارسية الأخرى بأن سيطرة آل خليفة على البحرين حدثت بعد وفاة الشيخ نصر آل مذكور فى عام ١٧٧٧ وأن الشيخ أحمد بن خليفة انتهز فرصة وفاة الشيخ نصر ليكتب إلى كريم خان الزندى كى ينيبه عنه فى حكم البحرين ، وقبل كريم خان هذا الطلب الذى يعنى اعتراف آل خليفة بالسيادة الفارسية ودفع ضرائب للخزانة الفارسية بنفس القدر الذى كان يتحصل عليه من شيوخ بوشهر ، ولكن ما كاد الشيخ أحمد بن خليفة يصل إلى تحقيق هدفه هذا حتى بدأ يتخلص من دفع الأموال لفارس وأعانه على ذلك اغتيال كريم خان الزندى فى عام ١٧٧٩، وتعرض الأقاليم الفارسية للاضطراب والفوضى. وفى أثناء فترة الاضطرابات هذه عمل شيوخ بوشهر على استرجاع سيطرتهم على البحرين مما دفع بالشيخ أحمد بن خليفة إلى التراجع إلى الزبارة . وحين نجح شيوخ بوشهر فى استعادة السيطرة على حكم البحرين استعان آل خليفة بالقواسم والجلاهمة ، وبفضل المساعدات التى قدمت لهم نجح أحمد بن خليفة فى دخول البحرين وهرب حكام البحرين من آل مذكور ليستعينوا بالسلطات الفارسية فى الخليج ؛ بيد أن أحمد بن خليفة فوت عليهم الفرصة حين أعلن بعد وصوله إلى حكم البحرين استعداده لدفع الضرائب السنوية إلى أمير شيراز، ولم تكن فارس تطلب من حكامها المحليين أكثر من دفع

---

(١) لمع الشهاب فى تاريخ الشيخ محمد بن عبد الوهاب ص ١٦٩ .

(٢) ج . ج لوريمر : دليل الخليج، القسم التاريخى جـ ٣ ص ص ١٢٧٣ - ١٢٧٤ .

الأموال والاعتراف بسيادتها . ويؤكد المؤرخ الإيرانى صادق نشأت أن الشيخ أحمد بن خليفة ظل طوال حياته لا ينكر ارتباط البحرين بفارس كما ظل لعدة سنوات يدفع الأموال لها باعتباره تابعًا لأمير شيراز[١].

وإذا دققنا النظر فيما ذكرته المصادر الفارسية بشأن استيلاء آل خليفة على البحرين نجد أن الروايات التى أثيرت بصدد ذلك تحفل بكثير من المتناقضات[٢]. ولذلك فقد يكون من الأسلم أن نأخذ بما ذكرته المصادر العربية والوثائق البريطانية التى تقرر أن آل خليفة وصلوا إلى حكم البحرين بعد تخليصها من السيادة الفارسية، وأن البحرين كانت موضع اهتمامهم منذ استقرارهم فى الزبارة، وقد اتخذ الشيخ خليفة بن محمدبعد نزوله فى الزبارة عدة إجراءات استهدف بها تقوية نفوذه فنزل عند قبيلة آل بنعلى وتزوج منهم وبعد مصاهرته لتلك القبيلة قويت صلاته ونفوذه لدى القبائل الأخرى، وعزز ذلك سيرته الحسنة بين الناس ، وفى الزبارة شيد لنفسه بيتا محصنًا لا تزال أطلاله قائمة حتى وقتنا الحاضر ويعرف بقلعة مرير . وفى البداية اعترف الشيخ خليفة بن محمد بسلطة آل مسلم باعتبارهم نوابًا لبنى خالد فى قطر وكان يدفع لهم الخراج كأية قبيلة أخرى تقطن فى شبه جزيرة قطر، ولكن بعد أن نمت ثروة آل خليفة وازداد نفوذهم امتنعوا عن دفع الخراج وتحصن الشيخ خليفة بالقلعة التى بناها وكانت هذه القلعة أساسًا لنفوذ آل خليفة فى الزبارة كما أنها اتخذت نقطة وثوب على البحرين[٣]. وساعدت الأحداث التاريخية التى مرت على الخليج العربى فى تطور مركز الزبارة فقد هاجر إليها تجار البصرة الأثرياء أثناء الاحتلال الفارسى للبصرة ١٧٧٦/١٧٧٩، كذلك هاجر إليها الجلاهمة، وهم الفرع الثالث من تحالف العتوب، بعد انشقاقهم عن آل صباح ، كما أخذت تتركز فى الزبارة تجارة شرق الجزيرة العربية والهند فضلاً عن أنها أصبحت مركزًا هامًا لتجارة اللؤلؤ . ولا شك أن هذا التطور الذى حدث فى ميناء الزبارة قد أثار مخاوف الشيخ نصر آل مذكور حاكم بوشهر والبحرين ولذلك

---

(١) صادق نشات : مرجع سبق ذكره ص ١٢٦ . انظر ايضا :
Farroughy, Abbas, Bahrein Islands p. 67 ff.

(٢) احمد محمود صبحى : مرجع سبق ذكره ص ص ٨٠/٨١ .

(٣)صادق عبدوانى : علاقات الدولة السعودية الأولى مع دول شرق الجزيرة العربية ١٧٥٠ ـ ١٨٢٠ القاهرة ١٩٧٢، ص ٤٧.

أصبح غزو الزبارة من أهم الأهداف التى سعى إليها ذلك الحاكم. وقد وجد الشيخ نصر تشجيعًا من حاكم إقليم فارستان فكان أن بدأ مناوشاته مع آل خليفة وقد نبهت تلك المناوشات آل خليفة إلى الخطر الذى بدأ يحدق بهم من البحرين ولذلك ما كادت تتردى الأقاليم الفارسية فى الاضطرابات التى وقعت بعد اغتيال كريم خان الزندى فى عام ١٧٧٩ حتى انقضوا على البحرين، وبعد صدام مسلح تمكن آل خليفة من العودة إلى قاعدتهم فى الزبارة بعد إستيلائهم على الكثير من الاسلاب، وكان من بينها إحدى السفن التابعة للشيخ نصر حاكم بوشهر والتى كانت راسية فى إحدى موانى البحرين[(١)].

واستجابة لتعليمات مراد خان حاكم إقليم فارستان أعد الشيخ نصر حملة تأديبية ضد آل خليفة فى الزبارة فى عام ١٧٨٢ وانضم إلى هذه الحملة عرب بندر ريق ودوستان وغيرهم حيث نجحت فى حصار الزبارة، ولما عجز آل خليفة عن مقاومة ذلك الحصار عرض شيوخ آل خليفة الصلح ورد الاسلاب إلى الشيخ نصر، وتوسط الشيخ راشد حاكم رأس الخيمة فى الخلاف الذى نشب بين الطرفين، ولما فشلت مفاوضات الصلح بادر الشيخ نصر بشن هجوم على الزبارة بعد أن استطاع أن يجذب إليه بعض القوى العربية ضد آل خليفة ومن بينهم الشيخ راشد زعيم القواسم الذى حول موقفه تجاه آل خليفة واتجه به إلى موقف معادى. ولكن القوات المهاجمة فشلت فى اسقاط قلعة الزبارة وانتشى آل خليفة بنجاحهم فى صد ذلك الهجوم وأخذوا يتعقبون القوات المغيرة ولم يثنهم عن تعقبها إلى البحرين سوى افتقارهم إلى وسائل النقل ولذلك ما كاد آل خليفة يتلقون عونًا من الجلاهمة وآل صباح حتى نجحوا فى مد سيطرتهم على البحرين فى عام ١٧٨٣[(٢)]. ولا شك أن آل خليفة قد استغلوا الظروف السياسية الحرجة التى كانت تمر بها فارس ومن بينها تفكك أسرة الزند وحالة الفوضى التى سبقت وصول أسرة قاجار إلى الحكم. ومما تجدر الإشارة إليه أنه شارك آل خليفة فى السيطرة على البحرين بالإضافة إلى الجلاهمة وآل صباح بعض القبائل القطرية والتى كان

---

(١) ج . ج لوريمر : مصدر سبق ذكره جـ ٣ ص ص ١٢٧٣ ـ ١٢٧٤ . انظر أيضًا محمد خليفة النبهانى : التحفة النبهانية فى إمارات الجزيرة العربية القسم السادس البحرين ص ص ١٢٣ ، ١٢٧ وما بعدها . .

(٢) Bombay Government, op. cit., Historical Sketch of The Utoobee Tribe of Arabs p. 364. ff See also Report by Captain Tyler R. Relating to Oman and adjoining Countries .

من أبرزها آل مسلم من الحويلة وآل بنعلي من الفويرط وآل سودان من الدوحة وآل بوعينين من الوكرة والقبيسات من خورحسان وآل سليط من الدوحة والسادة والدواسر من داخل شبه الجزيرة القطرية . وكان من أثر ذلك الهجوم الذى تزعمه آل خليفة أن استسلمت الحامية الفارسية فى حصن المنامة فى ٢٩ يولية ١٧٨٣ وسمح آل خليفة لأفرادها بالعودة إلى بوشهر بعد شهرين من الحصار[١].

والأمر الذى يستلفت الانتباه أن توسع آل خليفة فى البحرين كان ظاهرة طبيعية للانتعاش الذى حققته الزبارة إذ إن المدينة لم تعد تستوعب التزايد الواضح فى نمو السكان الذين تدفقوا عليها من نجد والكويت، كما أن آل خليفة اتجهوا إلى التوسع فى البحرين بينما لم يفكروا فى التوسع على حساب شبه جزيرة قطر ، وربما يرجع تعليل ذلك إلى أنهم ظلوا محافظين على علاقات حسن الجوار مع بنى خالد ، كما أن التوسع السعودى إلى سواحل الخليج هو الذى دفع آل خليفة للاتجاه صوب البحرين لعدم وجود أسطول للسعوديين يستطيع أن يتعقبهم داخل تلك الجزر[٢]. وبالإضافة إلى الظروف السياسية المضطربة التى كانت تمر بها فارس كانت الأوضاع الداخلية فى البحرين مساعدة لآل خليفة للسيطرة عليها ونعنى بذلك الخلافات المذهبية الحادة بين الطائفتين الإسلاميتين السنة والشيعة ، وقد أدت تلك الخلافات إلى مقتل أحد أفراد آل خليفة فى جزيرة سترا مما دفع الشيخ أحمد بن خليفة إلى شن حملة على البحرين. وحين استنجد شيعة البحرين بأمير شيراز أصدر أوامره إلى شيخ بوشهر بتجهيز حملة للسيطرة على الزبارة ثم تطور النزاع إلى السيطرة على البحرين من قبل آل خليفة .

وعلى أية حال فإن ضم البحرين إلى الزبارة يرتبط بالشيخ أحمد بن خليفة الذى لقب بأحمد الفاتح، وقد ظل مقيماً فى ميناء الزبارة حتى وفاته بينما ترك الحكم فى البحرين لاثنين من أبنائه، ولم ينتقل مركز الحكم إلى البحرين إلا بعد

---

(١) ج . ج لوريمر : دليل الخليج جـ ٣ ص ١٢٧٤ .
(٢) أحمد مصطفى أبو حاكمة : تاريخ الكويت جـ ١ القسم الأول ص ص ١٨٨/١٨٩ .

وفاته حين اتفق ابنا الشيخ أحمد فيما بينهما على استمرار مشاركتهما فى الحكم حيث اتخذ الأول مدينة الرفاع مركزاً لحكمه واتخذ الثانى من جزيرة المحرق مركزاً له، ومما هو جدير بالذكر أن هذا التقليد ظل متبعاً فى البحرين حتى عام ١٨٦٨ حين توحدت السلطة فى البحرين وانفصلت الزبارة عن تبعيتها لآل خليفة لتشكل مع بقية أجزاء قطر إمارة قائمة بذاتها[١].

تطور إمارة البحرين والعلاقات بينها وبين القوى المجاورة لها .

وفى غضون العشرين عاماً الأولى من حكم آل خليفة للبحرين ١٧٨٣/١٨٠٣ تقدمت البحرين تقدماً سريعا فى النواحى التجارية وكان مقدراً لها أن تنتزع من مسقط أهميتها التجارية يساعدها على ذلك وقوعها فى منطقة تتوسط مضيق هرمز وشط العرب ومقدرتها على التحكم فى التجارة العابرة فى الخليج، كما أن التدهور الذى لحق بالبصرة دفع عملية التطور الاقتصادى فى البحرين دفعة كبيرة، كما يرجع الفضل فى الازدهار التجارى الذى حققته البحرين إلى حكامها الجدد من آل خليفة الذين برزت قدراتهم التجارية فى الكويت أولاً ثم فى الزبارة ثانيا . والأمر الذى لا شك فيه أن ازدهار موارد الثروة فى البحرين قد أثار الأطماع الفارسية حيث ضاقت فارس ذرعاً بضياع البحرين منها ، وإن كان اضطراب الأوضاع بها قد حال بينها وبين العودة لمحاولة استرجاع البحرين. كما أن آل خليفة رأوا فى بداية حكمهم ترضية فارس وذلك بدفع مبلغ من المال سنوياً إلى أمير شيراز ولكن ذلك لم يستمر لفترة طويلة وخاصة بعد أن أيقن شيوخ آل خليفة أن فارس لم تعد تشكل خطراً عليهم[٢]. على أنه فى الوقت الذى لم تعد فيه فارس تشكل خطراً على آل خليفة كانت هناك أخطار أخرى تتربص بهم، ولعل أهم تهديد واجهه آل خليفة كان من قبل سلطنة مسقط حيث قام سلطان بن أحمد بمحاولات ثلاث للسيطرة على البحرين فى أعوام ١٧٩٩ و ١٨٠١ و ١٨٠٣ على التوالى[٣]. وكان ذلك مما دفع آل خليفة للاستنجاد بالقوى المجاورة لهم دفعاً

---

(١) عن انفصال قطر عن البحرين انظر ، جمال زكريا قاسم : الخليج العربى دراسة لتاريخ الإمارات العربية ١٨٤٠ ـ ١٩١٤ القاهرة ١٩٦٦ ص ص ١٧٨ ـ ١٧٩ .

(٢) جون كلي : بريطانيا والخليج جـ ١ ص ص ٥٢/٥٤ .

(٣) عن محاولات سلطان بن أحمد السيطرة على البحرين راجع كتابنا دولة بوسعيد فى عمان وشرق إفريقيا ص ص ٧٧ ـ ٧٨ .

لتلك الغزوات، ففى الحملة الأولى التى وجهتها مسقط إلى البحرين بادر آل خليفة بالاستنجاد بأعدائهم القدامى شيوخ بوشهر حيث أعربوا لهم بأنهم على استعداد لتأكيد السيادة الفارسية ودفع الخراج السنوى لفارس، وكان من أثر المساعدات الفارسية التى قدمت لشيوخ آل خليفة فشل حملة مسقط الأولى التى لم تسفر عن شىء سوى احتلال جزيرة خرج فى عام ١٨٠٠ ، ولكن ذلك الاحتلال لم يستمر طويلاً إذ اضطرت القوات المسقطية إلى اخلائها .وفى عام ١٨٠١ خرج سلطان بن أحمد فى حملة ثانية لاحتلال البحرين ونجح فى السيطرة عليها بالفعل حتى أنه نصب ابنه سالمًا واليًا عليها، ولما كان سالم هذا حدثًا صغيراً فقد جعل فى معيته الشيخ محمد بن خلف، وكان ينتمى إلى المذهب الشيعى وفيما يبدو أنه قصد بذلك إرضاء شيعة البحرين ، ولكنه فى نفس الوقت أساء إلى العتوب الذين نقضوا عهدهم معه لما بينهم وبين الشيعة من العداء المذهبى[1]. كذلك حرص سلطان بن أحمد أن يأخذ من البحرين مجموعة من الرهائن كانت ممثلة فى خمسة وعشرين شخصًا من أعيان البحرين كما وضع حامية من الجنود التابعين له فى قلعة عراد بالمحرق وأرغم آل خليفة على مغادرة البحرين فالتجأوا إلى الزبارة . ويرى الباحث الإيرانى فريدون أداميات أن هذه الحملة كانت بتنسيق تم بين سلطان مسقط وحاكم شيراز، وأن فارس وافقت بعد تردد على إرسال تلك الحملة مقابل مشاركتها مسقط فى إيرادات البحرين ، وأنها أسهمت فى هذه الحملة بألفى فارس وألفين من المشاة وقدمت تلك القوة من قبل شيخ بوشهر وحسين على ميرزا حاكم إقليم فارستان[2].

ولكن لم يلبث أن تمكن آل خليفة من استرداد البحرين وأعانهم على ذلك ظهور القوة السعودية فى الإحساء حيث تمكنوا من طرد الحامية المسقطية من البحرين وأجبروا النائب الذى وضعه سلطان بن أحمد من قبله لحكم البحرين على

---

(١) ابن رزيق : الفتح المبين فى تاريخ السادة البوسعيديين ص ص ٤٢٩ ـ ٤٣٠ وكذلك النبهانى : التحفة النبهانية ـ البحرين ص ١٣٠ .

(٢) Adamyiat, F., Bahrein Islands p. 37 .
انظر أيضًا ج . ج لوريمر : دليل الخليج جـ ٣ ص ص ١٢٧٧ ـ ١٢٧٨ .

مغادرة الجزيرة(١) . وحين تـوجه سلطان بن أحـمد إلى البـحرين للانتـقام من آل خليفة فى عام ١٨٠٣ كـان واضحًا أنهم قد ألقوا بأنفسهم فى أحـضان السعوديين ولذلك آثر سلطان مـسقط الانسحـاب وخاصة أن القـوات السعودية كـانت تهدد الأراضى العمانية ذاتها(٢) . وهكذا أسفرت محاولات سلطان مسقط عن فشل ذريع ولم يجن منها سوى نقـمة آل خليفة عليه حيث ظلوا يتـربصون به حتى تمكنوا من اغتياله فى عام ١٨٠٤ بالاشتراك مع جماعة من القواسم(٣) .

غير أنه لم يكد آل خليـفة يتخلصون من نفوذ كل من فارس ومـسقط حتى وجدو أنفسهم خـاضعين للنفوذ السعودى بل ولم يلبث أن جـرهم السعوديون فى عام ١٨٠٣ إلى توجيه حملة ضد مسقط ، وبطلب من السعوديين أبحر أسطول آل خليفة إلى مسقط فى عام ١٨٠٥ ، وكان ذلـك بهدف مراقبة الأحداث التى نجمت عن اغتيال سلطان بن أحـمد. ومما يستلفت الانتباه أن خضوع البـحرين للضغوط السعودية أدى إلى تحويل موقف حكامـها إذ ما كاد بدر بن سيف يصل إلى السلطة فى مسقط حتى بادر آل خليـفة بإعلان تحالفهم مع مسقط بل أخذوا يدفـعون إليها مبالغ من المال ؛ وهى المبالغ التى كانوا قد أهملوا دفـعها لسلطنة مسقط من قبل، واستنادًا إلى ذلك التـحالف أعلنوا فى عـام ١٨٠٩ رفـضهم طلـب السعـوديين الاشتراك مع القواسم فـى حملة بحرية ضد مسقط أو ضد إخـوانهم آل صباح فى الكويت(٤) .

أسفر عن هذا الموقف المعادى للسعوديين من قـبل شيوخ آل خليفة أن أصدر الأمير السعودى فى عام ١٨١٠ أمرًا بتعيـين عبد الله بن عفيصان ليكون وكيلاً عنه للإشراف على شئون البـحرين وقطر والإحساء ، وقد اتخذ عبد الله بن عـفيصان من البـحرين قاعـدة له بيد أنه حـدث فى العام التـالى أن اضطر السعـوديين إلى تقليص قـواتهم فى الزبارة والبحـرين والإحسـاء وذلك بسبب التـوتر فى الجبـهة

(١) Bombay Government, op. cit. See Historical Sketch of the Rise and Progress of the Government of Muscat vol, XXIV p. 173 ff.

(٢) ج . ج لوريمر : دليل الخليج جـ ٣ ص ١٢٧٨ .

(٣) محمد مرسى عبد الله : إمارات الساحل وعمان والدولة السعودية الأولى ص ١٩٠ .

(٤) ج . ج لوريمر : دليل الخليج جـ ٣ ص ١٢٧٩ .

الغربية نتيجة تقدم القوات المصرية التركية فى هذا الاتجاه، وقد أفاد هذا الوضع السيد سعيد بن سلطان الذى استطاع أن يخلص البحرين من النفوذ السعودى[1]، مما كان يبشر بتحالف وثيق بين مسقط وآل خليفة ولكن ذلك التحالف لم يقدر له الاستمرار طويلاً إذ إن طموح مسقط فى السيطرة على البحرين دفعت آل خليفة فى عام ١٨١٦ إلى الاستنجاد بالسعوديين ضد سلطان مسقط ؛ كما دخلوا فى علاقات تحالف مع القواسم وخاصة بعد أن وضع رحمة بن جابر زعيم الجلاهمة نفسه تحت لواء مسقط .

نخلص من ذلك أنه لم تكن هناك سياسة ثابتة لشيوخ آل خليفة بالنسبة لعلاقتهم بكل من فارس ومسقط والسعوديين والقواسم وإنما كانت سياستهم تتحدد طبقًا للظروف أو الأخطار التى يواجهونها، فحينما استولى سلطان بن أحمد على البحرين استعان آل خليفة بالسعوديين، وحين سيطر السعوديون على البحرين استعان آل خليفة بألد أعدائهم وهو سلطان مسقط، وحين ضغط السعوديون على البحرين فى عام ١٨١٧ أرسل آل خليفة رسالة يستنجدون بها بالفرس وأنهم يتطلعون إلى الشاه فى مساعدتهم ضد (خطر الوهابيين)، ورغم أننا لا نستبعد أن تكون هذه الرسالة قد صدرت بالفعل من شيوخ آل خليفة ؛ وذلك فى محاولة منهم استغلال العداء المذهبى بين الفرس والسعوديين، إلا أن الملاحظ أن كثيراً من المصادر الإيرانية تركز على هذه الرسالة باعتبارها بمثابة اعتراف من شيوخ البحرين بالسيادة الفارسية عليهم . وفى يقيننا أن هذه الرسالة لم تكن إلا مجرد إثارة الناحية المذهبية بهدف تدخل الفرس لإنقاذ البحرين من نفوذ السعوديين ، ولا تدل هذه الرسالة على شىء أكثر مما تدل عليه رسالة أخرى طلب فيها آل خليفة النجدة من السعوديين ضد سلطان مسقط، أو رسالة ثالثة طلب فيها آل خليفة من السيد سعيد العون ضد السعوديين. على أنه منذ عام ١٨٢٠ أخذ آل خليفة يتطلعون إلى الحكومة البريطانية لحمايتهم ولم يكن هناك عقبة إزاء ذلك سوى أن بريطانيا كانت

---

(١) تركز المصادر الفارسية على الخلافات المذهبية بين الشيعة والسنة وأن فارس كانت تتجه للتحالف مع سلطنة مسقط لتخليص البحرين من النفوذ السعودى ولم يقف حائلاً دون ذلك إلا طموح السيد سعيد فى السيطرة على البحرين انظر :

Adamyiat, F., Bahrein Islands pp. 62 - 65 .

تعتبر البحرين ميناء من موانى القرصنة هذا على الرغم من أن آل خليفة لم يرتكبوا أية عمليات بحرية ضد السفن البريطانية إلا أن صداقتهم للقواسم وبيع القواسم أسلابهم فى البحرين جعل بريطانيا تقف هذا الموقف من شيوخ آل خليفة فى البحرين . ومع ذلك فعلى الرغم من العلاقة الوثيقة التى كانت تربط بريطانيا بالسيد سعيد سلطان مسقط إلا أنها لم تشأ أن تتدخل لمناصرته فى السيطرة على البحرين، وعلى العكس من ذلك وقفت الحكومة البريطانية ضد المحاولات التى قام بها بهدف السيطرة على البحرين، ومن ثم بدا واضحاً لشيوخ آل خليفة أن بريطانيا هى القوة الوحيدة التى يمكن أن تحميهم من أخطار جيرانهم ، ولذلك ما كادت بريطانيا تبرم معاهدة السلام العامة مع شيوخ الساحل العمانى فى عام ١٨٢٠ حتى أعلن آل خليفة إنضمامهم إلى تلك المعاهدة[١] .

وحين أدرك سلطان مسقط عدم اهتمام حكومة بومباى بالاستجابة إلى طموحه بشأن ضم البحرين اقترح على الشيخ سلمان والشيخ عبد الله بن خليفة - وكانا يقبضان على زمام الأمور فى البحرين أن يدفعا له مبلغ ثلاثين ألف كوورونة كضريبة سنوية[٢]، مقابل تنازله عن المطالبة بالبحرين. ومما تجدر الإشارة إليه أن الإنجليز رفضوا الاشتراك كطرف ثالث فى الاتفاقية المقترحة لضمان دفع المبلغ المذكور؛ ولما رأى شيوخ آل خليفة اعتراض الإنجليز استغلوا هذه الفرصة وخفضوا الضريبة السنوية إلى ثمانية عشر ألف كوورونة[٣]. غير أنه على أثر توقف شيوخ البحرين عن دفع الأموال المتفق عليها قام سلطان مسقط فى عام ١٨٢٨ بمحاولته الأخيرة لضم البحرين؛ غير أن مخططاته العسكرية لم تلبث أن منيت بفشل ذريع وذلك حين طلب شيوخ البحرين النجدة من السعوديين، وحاول سلطان مسقط الاستفادة من هذا التحول المفاجئ فى سلوك شيوخ البحرين فطلب من الإنجليز مساعدته، وتوجه فى هذه المرة إلى وزارة الخارجية البريطانية مباشرة مؤكداً الأضرار التى يمكن أن تنجم عن سيطرة السعوديين على البحرين؛ غير أن هزيمة سلطان مسقط العسكرية فى البحرين وإصرار الحكومة البريطانية على موقفها الذى

---

(١) أحمد محمود صبحى : مرجع سبق ذكره ص ١٠٠ .
(٢) تعادل الكوورونة $\frac{١}{٤}$ جنية سترلينى .
(٣) صادق نشأت : تاريخ الخليج السياسى ص ١٤٨ .

كان يتلخص فى أن ضم السيد سعيد للبحرين سوف يثير الفوضى فى المنطقة جعلته ييأس من الحصول على أية انتصارات سياسية أو عسكرية حتى أنه أراق ماء وجهه فى سبيل عقد صلح مع شيوخ آل خليفة، وتم ذلك بالفعل فى نوفمبر ١٨٢٩[١]. وفيما يبدو أن هزيمة السيد سعيد وضياع آماله فى الخليج كانت من أهم الأسباب التى دفعت به إلى توجيه اهتمامه إلى ميدان جديد أقل وعورة من الخليج وهو الميدان الإفريقى حيث بدأ منذ ذلك الوقت يركز على القسم الإفريقى من ممتلكاته أكثر من تركيزه على القسم الآسيوى منها. ويهمنا أن نشير فى ذلك المجال أن الحروب التى دارت بين السيد سعيد سلطان مسقط وآل خليفة شيوخ البحرين لم تكن تتعارض مع معاهدة السلام العامة التى كان شيوخ البحرين طرفًا فيها ؛ وذلك لأن هذه المعاهدة كانت لا تضع حظراً على الحرب النظامية ، وعلى الرغم من ذلك فقد أصدرت حكومة بومباى أوامرها إلى المقيم السياسى البريطانى فى الخليج لكى يعرض وساطته لإنهاء هذا النزاع، وهو أمر قبله السيد سعيد الذى كان متلهفًا إلى عقد صلح يتمكن بواسطته من تصفية مشاكله فى الخليج العربى. ولكن على أثر إصرار شيوخ آل خليفة على أن يكون الإنجليز ضامنين لشروط ذلك الصلح أعلن المقيم البريطانى سحب وساطته، وكعقاب لهم أصدر المقيم البريطانى أوامره بسحب الطراد البريطانى الذى كان موجوداً فى مياه البحرين للمحافظة على النظام فى مواسم الغوص على اللؤلؤ، ولذلك اضطر شيوخ آل خليفة إلى الموافقة على عقد الصلح الذى نص على ألا يتدخل أحد من الطرفين فى الشئون الداخلية للطرف الآخر إلى جانب تقديم كل من الطرفين عونه للآخر حالة تعرض أحدهما لهجوم من قبل طرف ثالث . وعلى الرغم من عقد ذلك الصلح إلا أن العلاقات بين مسقط والبحرين ظل يعتورها التوتر وفقدان الثقة بدليل أن بريطانيا لم تدع شيوخ البحرين للتوقيع على الهدنة البحرية الأولى التى عقدتها مع شيوخ الساحل العمانى فى عام ١٨٣٥، وكان استبعاد بريطانيا لشيوخ البحرين من التوقيع على

---

(١) تعزو وثائق بومباى فشل السيد سعيد فى محاولته ضم البحرين إلى تخلى جيرانه الذين كان يعتمد عليهم ومن بينهم الشيخ طحنون حاكم أبو ظبى : على حين يؤكد كيرزون أن بريطانيا كانت تحول دون أية قوة للسيطرة على البحرين بعد انضمامها إلى المعاهدة العامة انظر :
Bombay Government, S.R.B.G, vol XXIV p. 381 See also G. Curzon, Persia and the Persian Question Vol. II P. 458 .

تلك الاتفاقية يعود لسببين هامين، أولهما أن سلوكهم فيما يتعلق بسلامة أمن الخليج البحرى لم يكن خاليًا من الشوائب، أما السبب الثانى وهو الأهم فقد قدرت حكومة بومباى أنه إذ سمح لآل خليفة بالانضام إلى الهدنة البحرية فقد يترتب على ذلك مطالبتهم السلطات البريطانية فى الخليج بحماية البحرين من الهجوم عليها فى حالة استئناف الحرب بينهم وبين سلطنة مسقط وهو أمر كانت ترفضه تماما، ومن ناحية أخرى أدى عدم تحديد الموقف البريطانى بشأن البحرين فيما يتعلق بعلاقاتها مع سلطنة مسقط أو فى عدم ضمان حمايتها إلى تطلع السعوديين للسيطرة عليها وخاصة حين بدأ تركى بن سعود يوطد حكمه فى الإحساء وأخذ يطالب شيوخ آل خليفة بالزكاة، ومن ثم خاض آل خليفة حروبًا طويلة ضد السعوديين حيث تمكنوا من مهاجمة موانى القطيف والعقير إلى أن تم فى عام ١٨٣٦ عقد الصلح بينهم وبين الإمام فيصل بن تركى، وإن كان وصول القوات المصرية إلى سواحل الإحساء فى عام ١٨٣٨ له أثر كبير فى تبدل العلاقات بين آل خليفة والسعوديين من ناحية وبينهم وبين الحكومة البريطانية من ناحية أخرى[1].

الأوضاع الداخلية فى شبه جزيرة قطر :

وبينما كانت الأمور تسير على هذا النحو فى البحرين كانت هناك تطورات أخرى مرت بها شبه الجزيرة القطرية؛ ففى خلال الفترة من عام ١٧٨٣، وهو تاريخ سيطرة آل خليفة على البحرين حتى عام ١٨٢٦، وهو العام الذى انتهى فيه نفوذ الجلاهمة، كان هؤلاء قد نجحوا فى أن يشكلوا فى قطر قوة يعتد بها إذ إن الجلاهمة اعتبروا المكافأة التى قدمها لهم آل خليفة غير لائقة بالتضحيات الكبيرة التى قدموها لهم ومكنوهم بها من السيطرة على البحرين، وقد دفع الخلاف الذى قام بينم وبين آل خليفة، إلى مغادرتهم الزبارة التى كانت فى ذلك الوقت مركزًا لحكم آل خليفة والتجئوا إلى الرويس، ولذلك اتجه آل خليفة إلى العمل على التخلص منهم نهائيًا وأخذ الصراع بينهما يحتدم حيث عبأ آل خليفة كل الموارد

---

(١) انظر بصدد ذلك صورة الجورنال المحضر من طرف محمد أفندى رفعت المتضمن بيان الأحوال الصادرة من مادة البحرين وغيرها ـ محفظة ٢٦٧، وثائق القاهرة .

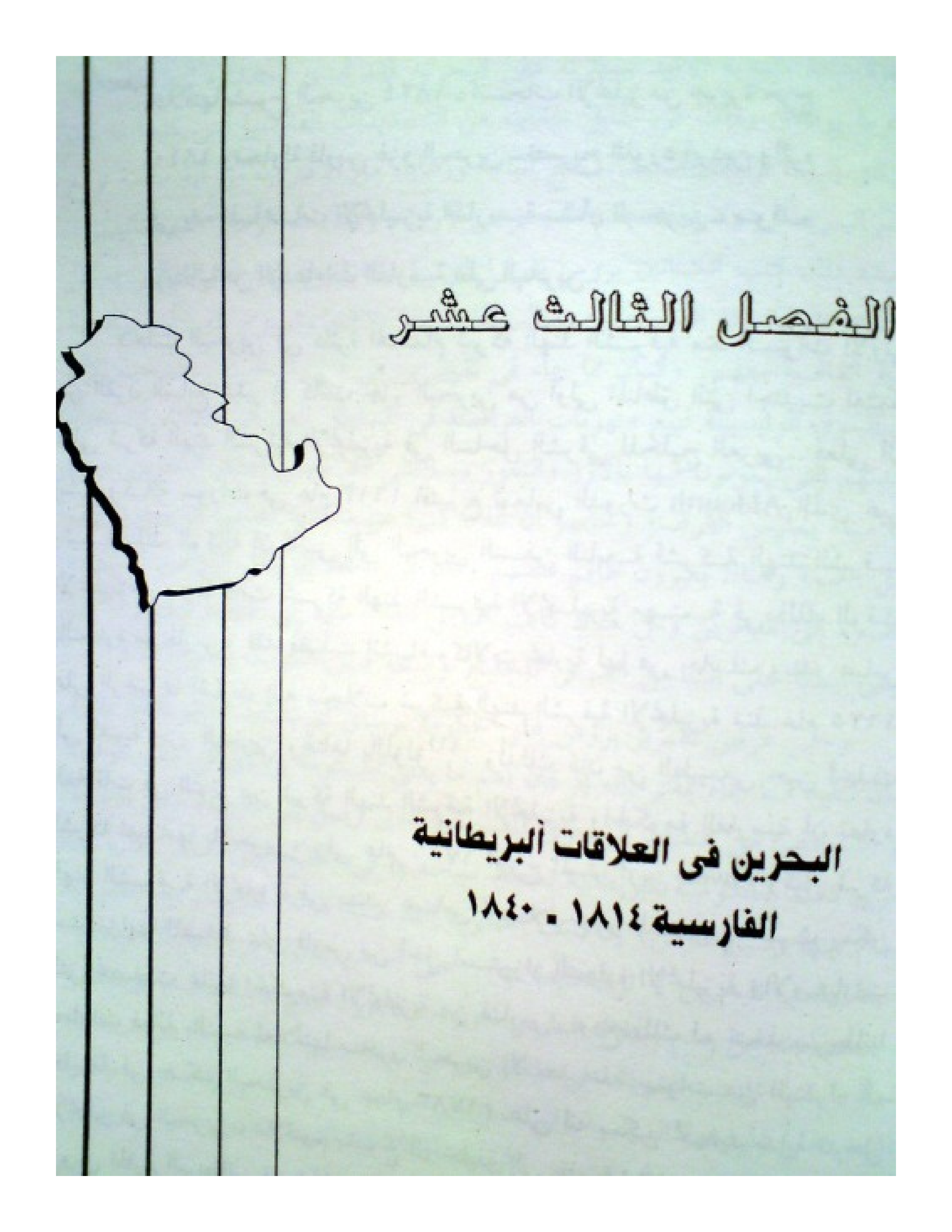
التى يمتلكونها واستأجروا عدداً لا يستهان به من القوات المرتزقة مما دفع الجلاهمة إلى طلب الحماية السعودية. وليس من شك فى أن الدعم البحرى الذى قدمه الجلاهمة للسعوديين هو الذى مكن لنفوذ الأخيرين فى كل من الإحساء وقطر والبحرين(١).

ومما يسترعى الانتباه أنه بينما حظيت مدينتا الزبارة وخورحسان فى شبه جزيرة قطر بشىء كبير من اهتمام المصادر المحلية لتاريخ الخليج حيث خضعت الأولى لنفوذ آل خليفة والثانية لنفوذ الجلاهمة فإن بقية مناطق قطر لم تحظ بأى اهتمام باستثناء بعض اللمحات البسيطة التى وردت فى مؤلفات ابن بشر وابن غنام، وقد استطاع السعوديون نتيجة الغزوات المتتالية التى وجهوها إلى قطر اخضاع معظم مناطقها لسيطرتهم على أنه بانحسار النفوذ السعودى من قطر والإحساء بسبب تقدم القوات المصرية التركية بدأ يظهر نفوذ القبائل المحلية فى شبه جزيرة قطر وخاصة آل بوعينين فى البدع الذين اشتبكوا فى صراعات حادة فى عام ١٨٢٨ مع شيوخ آل خليفة فى البحرين دمرت فيها قلاعهم، كذلك يسجل عام ١٨٣٥ تمرد أهالى الحويلة على سلطة شيوخ البحرين، وكان الزعيم المتنفذ على الحويلة عيسى بن طريف زعيم قبائل آل بن على وقد حاول أن يتخذ من أبو ظبى قاعدة لعملياته ضد آل خليفة ولكنه فشل فى ذلك بسبب اصرار السلطات البريطانية فى الخليج على عدم الإخلال بمعاهدة السلام العامة . والأمر الذى لا شك فيه أن الطابع الذى تميزت به قطر من حيث رفض قبائلها الخضوع لآل خليفة قد حولها إلى ساحة للحروب الأهلية التى نشبت بين شيوخ البحرين المتنازعين حول السلطة فى البحرين مما جعل بريطانيا تتجه فى سياستها إلى العمل على فصلها نهائيًا عن البحرين حيث اعترفت بسلطة آل ثانى عليها منذ عام ١٨٦٨ ، ولذلك يعد ذلك التاريخ بداية انفصال قطر عن البحرين وبروزها كإمارة جديدة بعد أن كان يشار إليها قبل ذلك بتوابع البحرين،كما نلحظ ذلك فى المعاهدات التى أبرمت بين بريطانيا وشيوخ البحرين بدءاً من معاهدة السلام العامة حتى عام ١٨٦٨(٢).

(١) Bombay Govt., op. cit., See Hisrorical Sketch of the Utoobee Tribe of Arabs pp. 368 - 369 .

وتذكر وثائق بومباى بصدد ذلك أن السعوديين نجحوا فى عام ١٨١٠ فى توحيد البحرين وقطر والقطيف فى إدارة واحدة عين عليها ابن عفيصان نائبا عن الأمير السعودى سعود بن عبد العزيز .

(٢) جمال زكريا قاسم: الخليج العربى دراسة لتاريخ الإمارات العربية ١٨٤٠ ـ ١٩١٤ ص ص ١٧٨ ـ ١٧٩.



الفصل الثالث عشر

البحرين فى العلاقات البريطانية الفارسية ١٨١٤ - ١٨٤٠

بدء العلاقات البريطانية بالبحرين - انضمام شيوخ البحرين إلى معاهدة السلام العامة ١٨٢٠ - اتفاقية شيراز ١٨٢٢ - تأكيد بريطانيا علاقتها بشيوخ البحرين ١٨٢٤ - انسحاب الإنجليز من جزيرة خرج ١٨٤٠ ومحاولة فارس غزو البحرين - تصريح اللورد أبردين وأثره فى بدء المباحثات الإنجليزية الفارسية بشأن البحرين - موقف بريطانيا من الإدعاءات الفارسية على البحرين .

دخلت البحرين فى دائرة اهتمام شركة الهند الشرقية منذ السنوات الأولى من القرن السابع عشر إذ كانت جزر البحرين من أولى المناطق التى اجتذبت اهتمام ممثلى شركة الهند الشرقية الإنجليزية فى الساحل الشرقى للخليج العربى. فعلى أثر إنشاء وكالة سورات فى عام ١٦١٣ اقترح توماس الدورث Aldourth الذى عين رئيسًا لتلك الوكالة أن تأتى إلى البحرين السفن التابعة لشركة الهند الشرقية الإنجليزية ، ولما كانت شركة الهند الشرقية الإنجليزية مهتمة فى ذلك الوقت بالتجارة مع فارس، فقد فضلت إنشاء وكالات تجارية لها فى جاسك وبندر عباس على الرغم مما أشارت إليه سجلات شركة الهند الشرقية الإنجليزية منذ عام ١٦٢٥ إلى أهمية جزر البحرين وغناها باللؤلؤ[١] . ولذلك كان من الطبيعى حين أخذت العلاقات فى التوتر بين شركة الهند الشرقية الإنجليزية والحكومة الفارسية أن تعاود الشركة اهتمامها بالبحرين، وفى عام ١٧٠٠ اقترح المستر أوين Owen وكيل شركة الهند الشرقية الإنجليزية فى بندر عباس احتلال جزر البحرين حيث يمكن استخدامها للضغط على فارس من أجل استمرار التجارة الإنجليزية والامتيازات التى تحصلت عليها الحكومة الإنجليزية من فارس. ومع ذلك لم تتخذ بريطانيا خطوات فعالة بالنسبة لعلاقتها بجزر البحرين إلا بعد عدة سنوات من استقرار آل خليفة فى حكم البحرين فى عام ١٧٨٣ . على أنه يمكن تحديد بداية تدخل الإنجليز فى البحرين وعلاقتهم بشيوخ آل خليفة إلى عام ١٨١٤ حين توجه الكابتن بروس المقيم البريطانى فى الخليج إلى البحرين موفدًا من حكومة بومباى، وهناك

(١) ج . ج لوريمر : دليل الخليج جـ ٣ ص ص ١٢٧١ - ١٢٧٢ .

تقابل مع حاكمها الشيخ عبد الله بن خليفة للتباحث معه فى بعض الشئون المتعلقة بضمان أمن الملاحة فى الخليج العربى[١] . ولما كان الشيخ عبد الله يعتبر هذه المبادرة هامة بالنسبة لتأكيد سيطرته على البحرين فقد أبدى استعداده لتنفيذ مطالب حكومة بومباى وذلك فى مقابل حمايته من التهديدات الفارسية التى كثيراً ما كان يتعرض إليها، وأبدى استعداده لمنع أتباعه ورعاياه من الاقتراب من أية سفينة ترفع العلم البريطانى وكذلك عدم التعرض لأرواح وممتلكات الرعايا البريطانيين. وبصدد ذلك كتب الكاتبن بروس تقريرا إلى رؤسائه شرح فيه الفوائد التى يمكن أن تعود على شركة الهند الشرقية البريطانية من علاقتها بشيوخ آل خليفة وأهمية توقيع اتفاقية معهم. وكان مما جاء فى تقرير بروس « إن البحرين أصبحت الآن هى السوق الرئيسية لبيع منهوبات القراصنة فى الساحل العمانى كذلك أصبحت قاعدتهم التى يمونون فيها بالأرز والتمور وبالتالى فلا يمكن اعتبار البحرين سوى أنها ميناء يمارس القرصنة وخاصة أن عدداً كبيراً من سكانها اعتادوا أن يبحروا إلى رأس الخيمة وهناك يغيرون طاقم سفنهم وكان من المعتاد أن ينقل القواسم أسلابهم مباشرة إلى البحرين ومن هناك كانت تحمل أجزاء منها إلى كنجون وغيرها من الموانى المطلة على الساحل الشرقى للخليج بواسطة سفن الكويت وغيرها[٢] » .

وحين عرض تقرير بروس على حكومة بومباى لم تتخذ الحكومة أية بادرة بشأن تنفيذ ما جاء بمقترحاته إذ كان أهم ما يعنى حكومة بومباى فى ذلك الوقت هو التخلص من النشاط البحرى للقواسم الذى وصل إلى ذروته، ومن ناحية أخرى كانت الحكومة البريطانية تخطط سياستها فى الخليج على أساس تجنب أى صدام بينها وبين فارس، إذ كانت الحكومة الفارسية لا تعترف بشرعية حكم آل خليفة وتعتبر البحرين لا تزال تابعة لها . على أنه من ناحية أخرى نجد أن بريطانيا قد استفادت من عدم امتلاك فارس لقوة بحرية فى الخليج واستطاعت بوسائلها الدبلوماسية تدعيم نفوذها فى المنطقة، ومن ثم اقتصرت المواجهة بين بريطانيا وفارس على المواجهة السياسية ولم تصل إلى مواجهة عسكرية بين الطرفين. وأكثر من ذلك نجد أن فارس لم تعترض على حملة ١٨١٩ التى أرسلتها حكومة بومباى

---

(١) صادق نشأت : تاريخ الخليج السياسى ص ٣٠٣ .
(٢) ج . ج لوريمر ، مرجع سبق ذكره جـ ٣ ص ١٢٨٢ .

إلى رأس الخيمة وذلك بعد أن أكدت حكومة بومباى عدم اتجاهها للقيام بأية عمليات عسكرية على الشاطئ الفارسى، ومن ثم قدرت فارس أهمية هذه الحملة للتخلص من نفوذ القوى العربية المتاخمة لها على سواحل الخليج العربى[1].

ومما لا شك فيه أن حملة ١٨١٩ قد نبهت فارس إلى ضعف مركزها فى الخليج. وعلى الرغم من أن السلطات الفارسية وجدت فى هذه الحملة تخليصاً لها من نفوذ القوى العربية على نحو ما أشرنا إليه إلا أنه من ناحية أخرى كانت تنظر إلى ما قد يترتب على هذه الحملة من ضياع نفوذها فى الخليج، ولذلك حاولت استثمار نتائج الحملة البريطانية لصالحها مستغلة فى ذلك السياسة العامة التى أعلنتها حكومة الهند البريطانية ، وكذلك التعليمات التى صدرت لقادة الحملة بالامتناع عن ممارسة أى لون من ألوان النشاط العسكرى فى سواحل بلاد فارس[2]. وفيما يبدو أن حكومة الهند البريطانية كانت حريصة كل الحرص على عدم إثارة فارس، فعلى الرغم من أنه كان من أهداف حملة ١٨١٩ البحث عن قاعدة بحرية لبريطانيا فى الخليج، واختيرت جزيرة قشم من أجل ذلك بموجب تنازل من سلطان مسقط الذى كان يعتبر تلك الجزيرة خاضعة لنفوذه إلا أن بريطانيا رأت مع ذلك ضرورة التباحث مع الحكومة الفارسية حول وضع جزيرة قشم وخاصة بعد أن تقدمت الحكومة الفارسية باحتجاج ضد احتلال القوات البريطانية للجزيرة، ومن أجل ذلك أرسلت حكومة بومباى الجنرال مالكولم إلى البلاط الفارسى ليتباحث مع فتح على شاه حول القاعدة البريطانية فى قشم، وكلف من قبل حكومة بومباى أن يدرس الأوضاع فى الجزيرة أثناء مروره عليها قبل وصوله إلى البلاط الفارسى. وقد خلص مالكولم بعد دراسة قانونية قام بها إلى أن الجزيرة تابعة لسلطنة مسقط. وحين وضع نتائج دراسته هذه أمام السلطات الفارسية أبدت فارس معارضتها الشديدة وبادر فتح على شاه بارسال ممثل من قبله إلى بريطانيا لكى يتباحث مع اللورد كاسرلى وزير الخارجية البريطانية حول وضع جزيرة قشم ولكى يؤكد أحقية فارس فى السيادة عليها وعلى غيرها من جزر

(١) صلاح العقاد : التيارات السياسية فى الخليج العربى ص ١٤٤ .
(٢) صادق نشات : مرجع سبق ذكره ص ص ١٥٤ ـ ١٥٥ .

وموانى الخليج العربى. وحين وجدت حكومة بومباى أن المباحثات الإنجليزية الفارسية حول جزيرة قشم لا تشكل أية أهمية بالنسبة لها وخاصة بعد معاناة الحامية البريطانية فى تلك الجزيرة من جدب الحياة وقسوة المناخ فقد أصدرت أوامرها بالانسحاب منها، ولم تكن الحامية البريطانية قد استقرت فى تلك الجزيرة أكثر من عامين[1]. ولكن حكومة الهند لم تلبث أن أوجدت أزمة جديدة مع فارس حين اتجهت إلى استبدالها بجزر البحرين إذ أنه فى استطاعتها فى هذه الحالة أن تؤكد لفارس بطريقة منطقية أن هناك فرقًا كبيرًا بين قشم والبحرين فإذا كان لدى الحكومة الفارسية ما يعزز مطالبها بالنسبة لجزيرة قشم حيث من الممكن أن تتذرع باقتراب الجزيرة من سواحلها فإن البحرين لا ينطبق عليها ذلك الوصف لأنها منفصلة عن فارس بخليج واسع، وأنها أكثر التصاقًا بالسواحل العربية منها بالسواحل الفارسية فضلاً عن استقرار آل خليفة بالحكم بها وعدم اعترافهم بالسيادة الفارسية عليهم . وحين أدرك ساسة الفرس السياسة التوسعية البريطانية فى الخليج رأوا ضرورة تقوية مركز فارس بارسال حملة عسكرية لضم البحرين فى عام ١٨٢٢[2]. وكان الدافع إلى هذه الحملة عاملان أولهما اتجاه حكومة الهند إلى توثيق علاقتها بشيوخ آل خليفة، وثانيهما ما أقدمت عليه حكومة الهند بالفعل من اشراك شيوخ البحرين فى معاهدة السلام العامة التى وقعت مع شيوخ الساحل العمانى فى عام ١٨٢٠ وما يعنيه ذلك من الاعتراف بشيوخ آل خليفة كحكام مستقلين عن أية تبعية فارسية[3]. ومن الطريف فى الأمر أن حسين على ميرزا حاكم إقليم فارستان طلب من الجنرال جرانت كير خمس سفن لنقل الجنود واستند فى ذلك إلى معاهدة طهران الموقعة بين بريطانيا وفارس فى عام ١٨١٤ والتى كانت تنص على أنه إذا طلب صاحب الجلالة الشاه العون من الحكومة البريطانية

(١) عن جزيرة قشم ومحاولة بريطانيا اتخاذها قاعدة انظر : S.R.B.G. vol. XXIV p. 317 .
وكذلك ج . ج لوريمر : دليل الخليج جـ ٢ ص ١٠٣١ ، وجون كلى : بريطانيا والخليج جـ ١ ص ص ٢٧٧ ـ ٢٨٨ .

(٢) Adamyiat, F., Bahrein Islands, Alegal Study of Anglo- Persian Controversy pp. 98-99.

(٣) Al Bahrna, Hussain, The Legal Status of The Arabian Gulf States pp. 166 - 168 .

فإنها تقدم له ذلك العون إذا كان هذا العون مقبولا ويمكن تنفيذه عملياً. وكان من الطبيعى أن ترفض بريطانيا تـقديم مساعدتها لفارس فى غزو البـحرين واعترضت على مطلب الحكومة الفارسية بأن معاهدة طـهران لا تلزم بريطانيا بتقديم المساعدة إذا لم تكن فارس هى المعتدى عليها، أى أن معـاهدة طهران كانت معاهدة دفاعية وليست معاهدة هجومية[١].

ولما كانت فـارس لا تملك القوة البحرية التى تعـينها فى ضم البحريـن فقد اتجهت إلى طلب المساعدة من سلطان مـسقط، ولكن سلطان مسقط منع من تقديم تلك المسـاعدة بـعد تدخل وليـام كـير وهنرى ويـللوك فى الوساطـة بين مسـقط والبحرين[٢]. مما أثار نقمة الحكومة الفارسية التى لجأت إلى الشيوخ العرب المقيمين على سواحلها حيث طلبت المساعدة من الشيخ عـبد الرسول حاكم بوشهر ورحمة بن جابر الجلاهمة فى الوقت الذى سارع فيـه بروس بمقابلة شيخ البحرين وقدم له ضمانًا بوقوف بريطانيا ضد الغزو المنتظر؛ ومن ناحية أخرى نجح الكابتن بروس فى تهدئة الموقف بين شيخ البحرين وسلطان مسـقط، حيث تعهد سلطان مسقط بعدم التدخل فى شئون البحرين، وهكذا وصلت العلاقات البريطانية الفارسية إلى درجة كبـيرة من التـأزم فى عام ١٨٢٢؛ وكـانت الحكومة البـريطانية تعـتبر نفـسهـا قد أصبحت مـسئولة عن تأكيـد نفوذ آل خليفة فى البحـرين وذلك بموجب ارتباطهم بمعاهدة السـلام العامة وأن افساح المجال لفارس لضم البحرين لن يقضى على نفوذ آل خليفة فحسب بل سيقضى على السيـاسة التى وضعتها حكومة الهند فى منطقة الخليج العربى بعـد حملة ١٨١٩ بما اسفـرت عنه من نتائج[٣]. ولعل مما يسترعى انتباهنا بصدد ذلك هو التساؤل عن الدوافع التى دفعت بشـيوخ البحرين إلى تقييد حريتهم وحرية رعاياهم بالانضمـام إلى معاهدة الصلح البحرى على الرغم من أن البحرين لم تكن تدخل ضمن مخططات الحملة العسكرية البريطانية لضرب معاقل القواسـم فى الساحل العـمانى ، وبمعنى آخـر أن معاهدة الـصلح البحـرى كانت تستهدف شيوخ الساحل العـمانى فقط ودخول حكام آخرين فى تلك المعاهدة كان

---

(١) احمد محمود صبحى : البحرين ودعوى إيران ص ص ٩٦ ـ ٩٨ .

(٢) Adamyiat, F., op. cit., pp. 97 - 98 .

(٣) صادق نشات : مرجع سبق ذكره ص ١٥٦ .

يعد إلى حد كبير بمحض إرادتهم ورغبتهم المطلقة[1]. ويتضح من إجابتنا على تلك التساؤلات أن انضمام شيوخ البحرين إلى معاهدة الصلح البحرى العام كان رغبة منهم فى ضمان الحماية البريطانية إذ إن معاهدة الصلح كانت تتضمن اعترافًا باستقلال الأطراف المتعاقدة وبالتالى فإن بريطانيا بناء على هذه المعاهدة كان عليها أن تقف أمام القوى المتطلعة للاستيلاء على البحرين، ولذلك وجد شيوخ البحرين فى انضمامهم لتلك المعاهدة الفرصة للتخلص من محاولات سلطان مسقط وفارس أو كليهما، ومن ثم فإن الفائدة التى عادت على شيوخ البحرين من جراء انضمامهم إلى تلك المعاهدة هى أنهم استطاعوا أن يضعوا بريطانيا وجه لوجه أمام محاولات فارس فى الاستيلاء على البحرين بعد أن كانت المقاومة من قبل آل خليفة وحدهم وهؤلاء كان لا يمكنهم بطبيعة الحال أن يتصدوا لهجوم فارسى عليهم ، هذا بالإضافة إلى أن فارس كانت على استعداد للتحالف مع أية قوة أخرى فى سبيل السيطرة على تلك الجزر . ومن ثم كان من الطبيعى أن تعارض فارس اشتراك شيوخ البحرين فى التوقيع على معاهدة السلام العامة على اعتبار تبعية البحرين لها.

وفى الوقت الذى كلفت فيه فارس الشيخ عبد الرسول حاكم بوشهر باحتلال البحرين فى عام ١٨٢٢ بادرت السلطات البريطانية من ناحيتها بإيفاد الكابتن بروس المقيم البريطانى فى الخليج إلى البحرين كى يؤكد لشيوخها بصفة رسمية بأن بريطانيا تعتبر شيوخ آل خليفة هم الحكام الشرعيون للبحرين وأن الحكومة البريطانية على استعداد للدفاع عن البحرين ضد أى أخطار يتعرضون لها من قبل فارس وذلك بعد أن أخذت تعهداً من سلطان مسقط بعدم مهاجمة البحرين. على أن الكابتن بروس لدى عودته إلى بوشهر من البحرين بدأ يتصرف تصرفًا خاصًا يختلف بل ويناقض التعليمات التى أرسلت له من حكومة الهند إذ أنه اتجه إلى شيراز لمقابلة حاكم فارستان بهدف إيقاف الحملة الفارسية على البحرين[2]. وترى بعض المصادر أن بروس قام بهذا التصرف لأغراض شخصية تتعلق بمصالحه التجارية فى بوشهر، إذ كانت السلطات الفارسية اعترضت على بقائه فى بوشهر

---

(١) أحمد محمود صبحى : البحرين ودعوى إيران ص ٩٦ .

(٢) Adamyiat, F., op. cit., pp. 251 - 252 .

وطلبت من السير هنرى ويللوك Willock ممثل بريطانيا فى تبريز أن تبادر الحكومة البريطانية بسحبه من منصبه وتعيين آخر بدلاً منه. وفيما يبدو أن بروس حرصاً على مصالحه التجارية فى بوشهر اتخذ سياسة مناقضة لتعليمات حكومته رغبة منه فى التقرب إلى السلطات الفارسية ووجد أن فى مقدوره استخدام صلاحياته باعتباره مقيماً سياسياً فى الخليج لكى يضع حلاً للمشكلات القائمة بين بريطانيا وفارس، ولذلك كانت زيارته إلى شيراز بهدف التفاوض مع زكى خان ميرزا حاكم شيراز فيما يتعلق بشئون الخليج بصفة عامة وشئون البحرين بصفة خاصة. ونجح فى التوصل إلى اتفاقية بينه وبين حاكم شيرازفى ٣٠ أغسطس ١٨٢٢. وتعرف هذه الاتفاقية باسم اتفاقية شيراز وقد نصت مقدمة هذه الاتفاقية على رغبة الطرفين فى حل المشكلات القائمة بينهما[١]. إذ ورد فيها أنه لما كانت هناك أخطاء بسيطة قد وقعت من جانب الطرفين لا تتفق مع النيات الحسنة ولا العلاقات الطيبة بينهما، ورغبة فى إزالة كل سوء تفاهم بين الطرفين فإن محمد زكى خان والكابتن بروس قد دخلا فى اتفاقية ودية تستهدف توثيق روابط الود والصداقة بين حكومة الهند والحكومة الفارسية[٢]. كما نصت المقدمة على حرص حكومة الهند على فرض الأمن البحرى فى الخليج. أما المواد المتعلقة بهذه الاتفاقية فهى خمس مواد تناولت ما يأتى :

أولاً: إن جزر البحرين كانت دائما تابعة لإقليم فارس وأن حكامها العرب من العتوب شقوا عصا الطاعة أخيراً وإذا كانوا قد طلبوا من القائد البريطانى العام لحملة ١٨١٩ علماً مميزاً لهم أو إذا كانوا قد منحوا هذا العلم بالفعل فلا بد أن يسحب منهم على الفور ولا تقدم لهم أية مساعدات بعد ذلك إذ أنه من شأن هذه المساعدة أن تؤدى إلى تماديهم فى عنادهم ضد فارس. ولما كان الطرفان يعربان عن رغبتهما فى توثيق أواصر الصداقة بين حكومتيهما فقد وصفت حملة ١٨١٩ التى

(١) كانت جزر البحرين قبل وصول آل خليفة إليها تتبع مقاطعة فارستان فى جنوب فارس التى كان يحكمها أمير شراز وكانت تدخل فى حوزتها جزر وموانى الخليج الواقعة على سواحله الشرقية. انظر تقرير روبرت تايلور فى مختارات حكومة بومباى ص ص ٢٧ ـ ٢٩.

(٢) Treaty of Shiraz Signed by Mirza Mohamed Zaki Khan, The Minister of Fars and Captain Bruce 30 - 8 - 1822 F.O 60/21 Persia.

قادها السير ويليام كير على الساحل العمانى بأنها انتهاك لتلك الصداقة. ومما تجدر الإشارة إليه أن نص اتفاقية شيراز على سحب أعلام الصلح البحرى كان يتعارض مع المادة الثالثة من معاهدة السلام العامة التى انضم إليها شيوخ البحرين والتى كانت تنص صراحة على أن يحمل العرب المتصالحون ومن بينهم عرب البحرين علمًا أحمر ضمن حاشية بيضاء[1].

ثانيًا: نصت اتفاقية شيراز على أن الخسائر التى تحملها سكان لنجة وخرج بسبب الحملة العسكرية البريطانية فى عام ١٨١٩ وما ترتب عليها من تدمير لسفنهم ينبغى أن تتحملها الحكومة البريطانية وأن تعوضهم بالأموال أو بسفن أخرى[2].

ثالثًا: أن الحكومة الفارسية توافق على تأجير جزيرة قشم لبريطانيا لمدة خمس سنوات على أن تستخدمها الحكومة البريطانية لحفظ الأمن البحرى فى الخليج حتى تتمكن فارس من تكوين قوتها البحرية، وخلال الخمس سنوات يقلل عدد القوات البريطانية تدريجيًا ويحل محلها قوات فارسية وأن تقوم القوات البريطانية الفارسية المشتركة بالتمركز فى أية جزيرة على السواحل الفارسية يكون مناخها معتدلاً .

رابعًا: إذا رغبت فارس فى استرداد البحرين فإن الحكومة البريطانية تجد نفسها ملزمة بأن تضع السفن الحربية تحت تصرف الحكومة الفارسية وأن تسمح لها بالإضافة إلى ذلك بشراء كل ما تريده من السفن والأخشاب اللازمة لتجهيزات تلك الحملة من الهند[3].

خامسًا: تتراجع الحكومة الفارسية عن طلبها الخاص بسحب الكابتن بروس المقيم السياسى فى الخليج واحلال غيره بدلاً منه إذ إن السلطات الفارسية أصبحت

---

(١) عن التفصيلات الخاصة بهذه الاتفاقية راجع :

Adamyiat F., op. cit., pp. 105 - 107 .

ومما تجدر الإشارة إليه أن الكتاب الإيرانيين يعلقون أهمية بالغة على هذه الاتفاقية حتى أن أدميات اورد نصوصها كاملة فى كتابه راجع ص ص ٢٥١ ـ ٢٥٢ .

(٢) انظر المادة الثالثة من اتفاقية شيراز .

(٣) المادة الخامسة من الاتفاقية .

مقتنعـة تمامًا بتثبيتـه فى منصبه وأن الشكوك التى كانت ألحـقتها به فى قيـامه بعدة تصـرفـات تتعـارض مع حسن التفاهم القـائم بين الدولتين أصبـحت لا تتفق مع الأمر الواقع .

ومما تجدر الإشارة إليه أن ما جاء فى هذه المادة يـؤكد الدوافع الشخصية التى حركت الكابتن بروس لعقد هذه الاتفاقية هذا بالإضافة إلى أنه كان مدفوعًا باعتقاد مؤداه أن عودة جـزر البحرين إلى الحكومة الفـارسية سيؤدى إلى تحـقيق مزيد من الهدوء على الجانب الغربى من الخليج،ويمكّن حاكم إقليم فارس من الاستفادة من خدمات الأسطول البريطانى، كما أن تثبيت السلطة الـفارسية سيضع حداً للأعمال العدوانية والمشاحنات القـائمة بين مختلف فروع العتوب من آل خليـفة وآل صباح والجلاهمة[١] . ولا شك أن ضيق الكابتن بروس بتلك الحروب والمنازعات هو الذى دفعه إلى تقديم تلك التنازلات لحاكم شيراز .

ولعل أول انتقاد وجه إلى هذه المعاهدة هو ما نصت عليه بالاعتراف بالسيادة الفارسية على البحرين حيث ذكر المستر فرانسيس واردن Warden سكرتير حكومة بومـباى أنه لم يقم أى دليـل على هذه السيـادة فـضلاً عن أن اعـتراف الحكومـة البريطانية بها سيؤدى إلى إساءة الثقة بينها وبين أصدقائها لا سيما سلطان مسقط، كما سيضـعف الثقة بينها وبين شيوخ البحـرين، فضلاً عن أن تلك المعاهدة تعنى انتهاكًا واضحًا لمعاهدة السلام العامة[٢] . وقد لخص فرانسيس واردن انتقاداته على الوجه التالى :

أولاً: إن الكابتن بروس دخل فى مفاوضات لم يـكلف بها كما أنه لم يزود بتعليمات من حكومته وأنه ليست لديه السلطة المخولة لتوقيع تلك الاتفاقية.

ثانيًا: أنه لا يمكن للحكومة البريطانية أن تعترف باتفاقـية ليست متمشية مع التزاماتها لأن ذلك يؤدى بطبيعة الحال إلى إهدار كرامتها وقلب سياستها رأسًا على عقب أمام القوى الأخرى المتواجدة فى الخليج .

---

(١) جمال زكريا قاسم : رحمة بن جابر الجلاهمـة حوليات كلية الآداب ـ جامعة عين شمس ١٩٦٤ ص ص ٦٤ ـ ٦٥ .

(٢) ج . ج لوريمر : دليل الخليج جـ ٣ ص ص ١٢٨٨ ـ ١٢٨٩ .

ثالثًا: إن معاهدة شيراز نسبت إلى بريطانيا بعض الأخطاء وطالبتها بتعويض عنها فى الوقت الذى كـان الإجراء الذى اتخذته بريطانيا ضـد سكان لنجه وخرج إجراء ضروريًا .

رابعًا: إن المعاهدة تتناقض تمامًا مع السياسة التى اتبعها جرانت كير فى حملة ١٨١٩ نحوتأكـيد الكيانات الذاتية للإمـارات العربية على حين أن المعـاهدة كانت تنص على الاعتراف بأحـقية فارس فى ملكية جزر البحـرين وهو أمر لم يقم عليه دليل مقنع ، كـما أنه مخـالف لمطالب سلطان مسقط واسـتقلال آل خليـفة الذين أصبحت تربطهم ببريطانيا معاهدة الصلح البحرى .

خامسًا: إن معاهدة شـيراز تمنع آل خليفة من حمل رايـة الصلح البحرى مما يشكل انتقاصًا لمعاهدة السلام العامة التى اشترك فيها شيوخ البحرين.

سادسًا: أنه يتحتم علـى حكومة بومباى أن تزيل الآثار السيئة التى سببتها معاهدة شيراز وتبادر بإعادة الثقة إلى شيوخ الخليج وإعلامهم بأن الكابتن بروس لم يخول من قبل الحكومة البـريطانية بأية سلطة لعقد مثل تلك الاتفاقـية وأنها سوف تبادر بخلعه واحلال آخر بدلاً منه .

سابعًا: ضرورة الجلاء عـن جزيرة قشم لأنها فى مـوقع لا يمكن الدفاع عنه فيما لو هاجمها الفرس[١] .

وعلى الرغم من أن الكابتن بروس قـدم دفاعًا عن نفـسه وعن الدوافع التى جعلته يتفاوض من أجل عقد هذه المعاهدة مؤكدًا أن إقرار بريطانيا للسيادة الفارسية سيؤدى إلى مـزيـد من الأمن البـحرى فى الخليج إلا أن حاكم بومبـاى الفنستـون Elphinston أصـدر قـراره الخـاص ـ بناء على تـقـرير واردن ـ بسـحب القـوات البريطانـية من جزيرة قـشم وعزل الكابتن بروس من منصـبه كمـقيم سياسى فى الخليج وأرسلت حكومة الهند رسائل إلى كل من شيوخ آل خليفة وسلطان مسقط مؤكـدة فيها أن الموقف البـريطانى لم يتغيـر وأنه لا بد من أن يزيلوا أى شكوك أو مخاوف بالنسبة لعلاقـتهم بالحكومة البريطانية[٢] . وجاء فى الـرسالة الموجـهة إلى

---

(١) احمد محمود صبحى : البحرين ودعوى إيران ص ١٠٥ .

(٢) Persian Claim to Bahrein Islands, Foreign Secretary to the Govt. of India Sept. 1931 F.O. 371/15279 .

شيخ البحرين أن حكومة الهند لا توافق على معاهدة شيراز التى عزلت من أجلها الكابتن بروس وعينت غيره وأن المقيم البريطانى الجديد الكابتن ماكلويد قد زود بكل الصلاحيات الخاصة بتأكيد الصداقة القائمة بين البحرين والحكومة البريطانية. وطبقًا لتعليمات خاصة من حكومة بومباى قام الملازم ماكلويد بجولة هامة على الساحل العربى للخليج زار فيها البحرين فى يناير ١٨٢٣، وكان الهدف الرئيسى من تلك الزيارة هو طمأنة شيخ البحرين فيما يتعلق باتفاقية شيراز وإبلاغه كأنها لم تكن وأن الحكومة البريطانية لن تغير شيئًا من سياستها نحوه[١].

وإذا كان من الطبيعى أن ترفض الحكومة البريطانية معاهدة شيراز للأسباب التى أشرنا إليها فإنه مما يدعو إلى الدهشة أن هذه المعاهدة قد رفضت من حكومة الشاه أيضًا على الرغم من أنها كانت تعطى فارس مكاسب كثيرة، ولعل سبب رفض الشاه لتلك المعاهدة وعدم موافقته على التصديق عليها أن أمير شيراز لم تكن له السلطة المخولة لتنظيم العلاقات بين بريطانيا وفارس دون أن يتلقى تعليماته فى هذا الشأن، هذا بالإضافة إلى أن معاهدة شيراز كانت تعطى الإنجليز حق إقامة حامية عسكرية فى جزيرة قشم لمدة خمس سنوات وهو أمر لم توافق عليه الحكومة الفارسية. وطبقًا لتقرير أرسله الماجور ويلوك Willock ممثل بريطانيا فى تبريز أن الشاه لم يقر هذه المعاهدة بل وجه اللوم إلى حاكم فارستان لدخوله فى المفاوضات التى أدت إلى توقيع تلك المعاهدة دون أن يؤخذ رأيه فى ذلك. وعلى الرغم من أن كلا من الحكومتين البريطانية والفارسية قد رفضت معاهدة شيراز ولم تصادق أى منهما عليها وبالتالى لم تظهر تلك المعاهدة إلى حيز التنفيذ أى أنها أصبحت فى حكم المعاهدات الملغاة إلا أنه مما يستلفت النظر أن الحكومة الفارسية ظلت تستند على تلك المعاهدة فى المباحثات التى قامت بينها وبين الحكومة البريطانية بشأن البحرين والتى استمرت على مدى سنوات عديدة من القرن التاسع عشر وحتى النصف الأول من القرن العشرين[٢].

---

(١) ج . ج لوريمر : دليل الخليج جـ ٣ ص ١٢٨٩ .

(٢) جمال زكريا قاسم: الادعاءات الإيرانية على الخليج العربى ـ من أعمال المؤتمر الدولى للتاريخ ـ بغداد ١٩٧٣ . وعن المباحثات الإيرانية الإنجليزية بشأن البحرين انظر :

Adamyiat, Bahrein Isands P. 134 ff.

وقد أعقب عدم مصادقة الحكومة البريطانية على معاهدة شيراز مبادرتها بتأكيد علاقتها بشيوخ البحرين حيث توسط المقيم البريطانى فى الخليج الكولونيل ستانوس Stanus فى توقيع اتفاقية بين آل خليفة والجلاهمة فى عام ١٨٢٤، وكانت وساطة المقيم البريطانى بمثابة تأكيد لانضمام البحرين إلى معاهدة السلام، وكان لذلك أثره فى أن وقفت بريطانيا ضد المحاولات العديدة التى قام بها كل من سلطان مسقط والسعوديين للسيطرة على البحرين .

وخلال الفترة من عدم المصادقة على معاهدة شيراز ١٨٢٢ حتى تقدم القوات المصرية إلى الخليج العربى ١٨٣٨ لم تشكل فارس أية خطورة على الأوضاع فى البحرين، بسبب ضعف القوة البحرية الفارسية بالإضافة إلى المشكلات الخارجية العديدة التى واجهتها الحكومة الفارسية وبالأخص حروبها مع روسيا والدولة العثمانية، كما كان لاحتلال بريطانيا لجزيرة خرج فى عام ١٨٣٨ أثره الكبير فى أن أعطى الحكومة البريطانية ثقلاً سياسيًا وعسكريًا أصبح يهدد السواحل الفارسية ذاتها، واستمر الوضع على ذلك حتى وصلت القوات المصرية إلى سواحل الخليج العربى فى عام ١٨٣٨ إذ بعث الكولونيل هنل Henell المقيم البريطانى فى الخليج إلى حكومة بومباى يلفت نظرها طبقًا لما تلقاه من وكيله الوطنى فى الشارقة بأن حاكم فارستان يجمع قواته فى كنجون ومن المحتمل أن يقوم بتدبير هجوم مفاجئ على الإنجليز فى جزيرة خرج وإذا نجح فى ذلك فإن اتجاهه صوب البحرين سيكون مؤكدًا، بيد أن حكومة بومباى لم تعر هذه الملاحظات أهميتها إذ كانت جهودها منصبة على مقاومة القوات المصرية بقيادة خورشيد باشا وابعادها عن البحرين ومشيخات الساحل العمانى، وما كادت بريطانيا تتخلص من الوجود المصرى فى سواحل الخليج العربى فى عام ١٨٤٠ حتى قررت حكومة بومباى الانسحاب من جزيرة خرج مما ترك الفرصة لفارس لتعزيز حامياتها فى تلك الجزيرة[١] . حتى أن المقيم البريطانى فى الخليج الكولونيل

---

(١) Henell to Willoughby II th Feb. 1839 Doc. No, 24 of 1839 See also Enclosure I translation of a Letter from Mohmet Ali's Agent at Bahrein to the Resident of the Persian Gulf Feb. 1839 F.O. 78/388 .

انظر الأرشيف الأوربى فى وثائق القاهرة ،محفظة رقم ١٢ .

روبر تسون Robertson كتب إلى حكومة الهند يؤكد أن فارس تبذل محاولات كبيرة لكى تنشئ لها أسطولاً يتكون من جميع السفن التى تمتلكها موانى الساحل الشرقى للخليج وأنها عمدت إلى حاكم بوشهر ليقوم بتنفيذ خطتها هذه، وفى تقرير آخر لروبر تسون أكد أن جزيرة خرج سوف تصبح عما قريب مركزاً لتجمع الأسطول الفارسى الذى سيقوم بغزو البحرين. وقد أجاب حاكم عام الهند على هذين التقريرين بقوله: « إنه فى حالة إرسال الحكومة الفارسية أية قوات من الرجال أو السفن فإنه يجب ملاحظة تلك التحركات وإذا كانت فارس تهدف إلى الاتجاه إلى أية إمارة من إمارات الخليج التى تربطها ببريطانيا علاقات خاصة فيجب أن تقاوم تلك التحركات بكل قوة »[1].

وتعتبر هذه التعليمات التى صدرت عن الحاكم العام فى الهند نقطة تحول هامة فى السياسة البريطانية بالنسبة لعلاقتها بفارس بشأن البحرين فحتى ذلك الوقت لم تكن الحكومة البريطانية تعترض اعتراضاً إيجابياً على مطالب فارس بالسيطرة على البحرين بل وأكثر من ذلك نجد أن الحكومة البريطانية نفسها هى التى عارضت تقدم القوات المصرية إلى البحرين بحجة تبعيتها لفارس. ويرجع هذا التحول فى السياسة البريطانية فى تقديرنا إلى عاملين رئيسين :

العامل الأول: أن الحكومة البريطانية لم تعد تطمئن إلى فارس التى أخذت تتصرف بتأثير واضح من روسيا.

والعامل الثانى: أن الحكومة البريطانية أخذت منذ انسحاب القوات المصرية من الخليج العربى فى عام ١٨٤٠ تقدر أهمية الخليج الاستراتيجية وتعمل على منع أية دولة من الحلول فيه.

ولعل مما يستلفت الانتباه أن معارضة بريطانيا لفارس بشأن إرسالها حملة إلى الخليج العربى لم تقتصر على السلطات البريطانية فى الخليج أو سلطات حكومة الهند البريطانية فحسب وإنما انتقلت هذه المسألة إلى وزارة الخارجية بلندن حيث أرسل اللورد أبردين وزير الخارجية البريطانية إلى السير جستن شيل Sheil القائم بأعمال السفارة البريطانية فى فارس يطلب إليه إقناع الشاه بالطرق

(١) جمال زكريا قاسم: الخليج العربى ١٨٤٠ - ١٩١٤ ص ١٤٦ .

الدبلوماسية بعدم القيام بعمل من شأنه أن يؤدى بالحكومتين إلى تصادم فى منطقة الخليج. وأعلن وزير الخارجية البريطانية بأن حكومته ستقابل التدخل الفارسى بالقوة حتى لو أدى الأمر إلى وقوع صدام مسلح بينها وبين فارس. وفى المذكرة التى قدمها السير جستن شيل إلى الحكومة الفارسية أعربت الحكومة البريطانية عن عدم اعترافها بأحقية فارس فى السيطرة على البحرين إذ أنه منذ أن أتت أسرة قاجار إلى الحكم فى عام ١٧٩٨ فإن أحداً من ملوكها لم يمارس سلطة فعلية على البحرين. وعلى الرغم من أن المذكرة البريطانية كانت حاسمة فى رفض أى اعتراف بالسيادة الفارسية إلا أن اللورد أبردين حاول فى نفس الوقت مراوغة السياسة الفارسية حيث ختم مذكرته بدعوة فارس لكى توضح للحكومة البريطانية ادعاءاتها على البحرين بالطرق الدبلوماسية وذلك بدلاً من اللجوء إلى القوة المسلحة للإعراب عن مطالبها[1]. وبذلك يكون اللورد أبردين قد استهل حقبة طويلة من المباحثات البريطانية الفارسية بشأن البحرين استمرت منذ ذلك الوقت حتى نهاية الوجود البريطانى العسكرى فى الخليج العربى. وكانت وجهة النظر البريطانية فى مباحثاتها مع فارس بشأن البحرين هى أنها منذ أن عقدت معاهدتها الأولى مع شيوخ البحرين فى عام ١٨٢٠ وهى تتصرف مع أولئك الشيوخ طبقًا لما تنص عليه شروط المعاهدة من الاعترف بحكام البحرين من آل خليفة كشيوخ مستقلين وأنها اتخذت من تلك المعاهدة أساسًا لرفض أية محاولات من قبل القوى الأخرى لضم البحرين إليها.

وبمعنى آخر أن بريطانيا كانت تتعامل مع شيوخ البحرين بصفتهم الاستقلالية لا مجرد كونهم اتباعا للحكومة الفارسية، ولذلك أكدت وجهة النظر البريطانية أنه على الرغم من عدم إنكارها خضوع جزر البحرين لفارس على عهد الأسرتين الصفوية والزندية، وهما الأسرتان اللتان سبقتا آل قاجار فى الحكم، إلا أن السيادة الفارسية على البحرين قد سقطت نهائيًا منذ وصول آل خليفة إلى حكم البحرين

Adamyiat, F., op. cit., p. 131

(١) وعن تحليل الإدعاءات الفارسية من الناحية القانونية بما فى ذلك اتفاقية شيراز راجع :
Tadijbache, G.R.,la Qeuestion de Iles Bahrein, Publication de la Revue Generale de Droit Internationale Serie Numero I Paris, 1960.

فى عام ١٧٨٣ . وعلى عكس وجهة النظر هذه كانت فارس تؤكد تبعية البحرين وغيرها من إمارات الخليج العربى لسيادتها، وأن الخليج بدءاً من شط العرب إلى مسقط يعد خاضعاً لسيادتها مستندة فى ذلك على تسميته بالخليج الفارسى، كما أن معظم المصادر الجغرافية القديمة سواء كانت شرقية أو أوربية وكتب الرحالة العرب والأجانب تؤكد تبعية البحرين لفارس(١). وأن شيوخ البحرين المتعاقبون على الحكم كانوا يدفعون الضرائب السنوية لفارس فى عهد الصفويين وخانات الزند، وقبل وصول آل خليفة إلى حكم البحرين كان أمير وشيراز يخضع البحرين لسيطرته، وأن الحكومة الفارسية لم تعترف بشرعية حكم آل خليفة وليست لهم أية صفة استقلالية، وأن شأنهم فى ذلك شأن الخانات المحليين فى بعض مقاطعاتها الذين يتوارثون الحكم أو يتمردون على السلطة القائمة ولكنهم حتماً سيعودون إليها بالولاء، هذا بالإضافة إلى أن شيعة البحرين يؤكدون السيادة الفارسية على تلك الجزر؛ وأنهم يشكلون نسبة كبيرة من السكان الذين يتجهون بولائهم إلى فارس بطبيعة الحال.

ومما يسترعى الانتباه أن المباحثات بشأن البحرين اقتصرت على كونها مباحثات فارسية بريطانية وبالتالى انصرفت عناية كثير من الباحثين إلى دراسة هذا الموضوع باعتباره نزاعاً فارسياً بريطانياً، وربما يرجع السبب فى ذلك إلى عدم نضوج الوعى العربى فضلاً عن أن سيطرة بريطانيا على مقدرات الخليج السياسية ومصالحها كانت تعارض السيادة الفارسية؛ وبمعنى آخر أن موقف بريطانيا لم يكن إيماناً منها بعروبة البحرين بقدر ما كان يتجه إلى المحافظة على مصالحها الاستعمارية فى منطقة الخليج العربى(٢). وفى تحليلنا للادعاءات الفارسية على البحرين يمكننا الوصول إلى الحقائق التالية :

---

(١) راجع بصدد ذلك أسانيد الخليج الفارسى تصنيف على رضا ميرزا محمد ـ الفصل الأول والثانى ـ القاهرة ١٩٧٦ انظر أيضاً :

Sir John Chardin, Travels in Persia and East Indies, London 1665.

ولا يمنع من ذلك ان كثيرا من المصادر الاوروبية قد أقرت غرابة تلك التسمية وعلى سبيل المثال عبر الرحالة إبراهام بارسونز الذى زار البحرين فى عام ١٧٧٥ عن دهشته لكون البحرين تابعة لفارس على الرغم من ملاصقتها لسواحل الجزيرة العربية .

Parsons, A., Travels in Asia and Africa p. 202 .

(٢) جمال زكريا قاسم: الادعاءات الإيرانية فى الخليج العربى من أعمال المؤتمر الدولى للتاريخ ـ بغداد ١٩٧٣ .

أولاً: إن جزر البحرين لا يمكن أن تكون جزءاً من فارس وهى منفصلة عنها بخليج واسع كما أن سكانها ليسوا من العنصر الفارسى تماماً وعلى العكس من ذلك فإن جزر البحرين بحكم طبيعة موقعها الجغرافى أكثر التصاقاً بالسواحل الشرقية للجزيرة العربية، كما أن سكانها من أصول عربية خالصة وإذا وجدت بعض العناصر الفارسية فإنها لا تقارن بالكثافة العربية السكانية مما لا يشكك بأية حال من الأحوال فى عروبة جزر البحرين.

ثانيًا: إن إدعاءات فارس بأن شيعة البحرين تابعون لها أمر لا يستقيم مع المنطق إذ إن الشيعة، وهم أتباع مذهب إسلامى كبير موجودون فى البحرين كما هم موجودون فى غيرها. وقد تأكدت هذه الحقيقة أخيراً حين أثبتت بعثة جوشياردى بأن شيعة البحرين لا يختلفون عن الطوائف الأخرى فى المطالبة بالاستقلال(١).

ثالثًا: إن المحاولات التى كانت تقوم بها فارس بقصد إيجاد حجج وأسانيد تحت زعم أن الخليج فارسى أمر غير منطقى تماماً كالإدعاء بأن كل سواحل البحر الأحمر وجزره تابعة للجزيرة العربية(٢).

رابعًا: تؤكد الوقائع التاريخية أن فارس لم تمارس سيادتها على البحرين فى العصور الحديثة إلا فى خلال الفترة من جلاء البرتغاليين عن تلك الجزر فى عام ١٦٠٢ حتى وصول آل خليفة إلى الحكم فى عام ١٧٨٣. وحتى فى خلال تلك الفترة كانت القبائل العربية هى التى تتولى مسئوليات الحكم المباشر إذ استمرت جزر البحرين فى أيدى رؤسائها القبليين من عرب الهولة والمطاريش، كما أن أئمة عمان اليعاربة سيطروا على البحرين فى بعض سنوات تلك الفترة ولم تعد البحرين لفارس إلا فى عام ١٧٣٧ على عهد نادر شاه، ثم وقعت البحرين بعد اغتياله فى

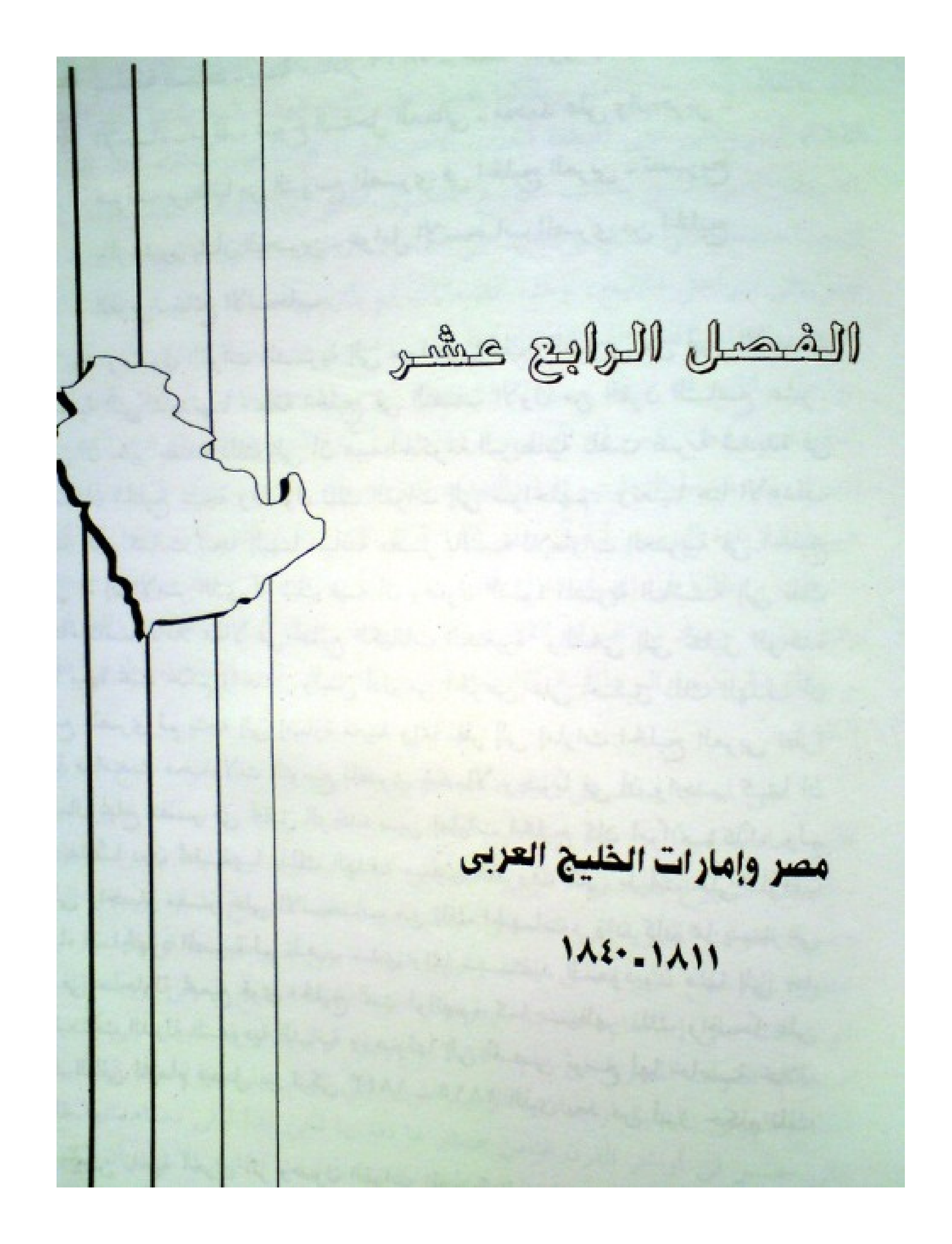
(١) United Nations Official Records: Report of Personal Representative of the Secretary General in Charge of the Good Offices Mission Bahrein 30th April, 1970.

(٢) جمال زكريا قاسم : الخليج العربى دراسة لتاريخ الإمارات العربية - ١٨٤٠ - ١٩١٤ ص ١٤٩ .

عام ١٧٤٧ فى أيدى رؤساء عرب عديدين من بنى طاهر وبنى ماهر والعسيليين وغيرهم أى أن السيادة الفارسية على البحرين خلال الفترة من ١٦٠٢ ـ ١٧٨٣ كانت لا تعدو سيادة إسمية أما الحكم الفعلى فقد كانت تمارسه القبائل العربية، وعلى أية حال فقد انتهت السيادة الفارسية بوصول آل خليفة إلى الحكم ووضعهم الأساس لحكم عربى مستقر منذ عام ١٧٨٣[1].

---

(١) من أبرز الدراسات التى تؤكد وجهة النظر الفارسية يمكن الرجوع إلى صادق نشأت: تاريخ الخليج السياسى وعباس إقبال مطالعاتى درباب بحرين وجزاير خليج فارس وكذلك فريدون آدميات Bahrein Islands وعباس الفاروقى . وعن وجهة النظر العربية يمكن الرجوع إلى أحمد محمود صبحى ، البحرين ودعوى إيران وحسين البحارنة The Legal Status of the Arabian Gulf States ومجيد خدورى، البحرين وإيران وصلاح العقاد، التيارات السياسية فى الخليج العربى وجمال زكريا قاسم، الإدعاءات الإيرانية فى الخليج العربى .



الفصل الرابع عشر

مصر وإمارات الخليج العربى

١٨١١ـ١٨٤٠

أهداف التوسع المصرى فى الخليج العربى - علاقة محمد على بسلطنة مسقط - بعثة سادلر ١٨١٩ - حملة خورشيد باشا على الإحساء - موقف شيوخ الساحل العمانى - محمد على والبحرين - موقف بريطانيا من التوسع المصرى فى الخليج العربى - تصريح بالمرستون بشأن البحرين - عوامل الانسحاب المصرى من الخليج العربى - نتائج الانسحاب .

يعد وصول القوات المصرية إلى سواحل الخليج العربى من أبرز الأحداث السياسية التى شهدتها منطقة الخليج فى النصف الأول من القرن التاسع عشر . ويكفى أن نشير بصدد ذلك إلى أن هيبة الحكومة البريطانية تلقت ضربة شديدة فى نظر سكان الخليج نتيجة وصول تلك القوات إلى سواحلهم . وتعنينا هنا الأهداف الخاصة التى كانت تتجه إليها سياسة مصر بالنسبة للإمارات العربية فى الخليج العربى إذ إن الأمر الذى لا شك فيه أن وصول القوة المصرية الناشئة إلى تلك الأنحاء كانت عاملاً فعالاً فى تجميع الكيانات الصغيرة والسعى إلى تحقيق الوحدة فيما بينها تحت حكم واحد . وليس أدل من الحرص على تحقيق ذلك الهدف أن التوسع المصرى لم يتجه إلى إمارة معينة وإنما نظر إلى إمارات الخليج العربى نظرة شاملة فامتدت محاولات التوسع المصرى شمالاً وجنوباً فى آن واحد . كما أن احتمال نجاح مصر فى تحقيق الوحدة بين إمارات الخليج كان أمراً مؤكداً، ولم يقف عائقاً دون تحقيقها لذلك الهدف سوى الظروف التى طرأت على الموقف الدولى واجبار مصر على الانسحاب من تلك الجهات، وإن كان مما يسترعى الانتباه أن الجهود المصرية لم تذهب سدى وإنما سيستفيد السعوديون منها إلى حد كبير فى محاولة تجميع قوى الخليج تحت لوائهم، كما سيظهر ذلك واضحاً على أثر انبعاث الدولة السعودية الثانية ووصولها إلى أقصى توسع لها خاصة خلال العهد الثانى للإمام فيصل بن تركى ١٨٤٣ - ١٨٦٥ الذى يعد من أبرز حكام تلك الدولة .

ومن ناحية أخرى أثر وصول القوات المصرية إلى سواحل الخليج تأثيراً كبيراً فى تطور علاقة بريطانيا بالإمارات العربية فى الخليج العربى إذ لم تقتصر أهداف

بريطانيا على مراقبة الأوضاع البحرية فى المنطقة وإنما امتدت أهدافها إلى أبعد من ذلك فى فرض حمايتها على إمارات الخليج. وكما تعبر المصادر البريطانية بصدد ذلك بالقول إنه بينما كانت بريطانيا تعمل على تأكيد الهدنة البحرية بما يكفل فرض السلام البريطانى على المنطقة أخذت الأحداث ؛ أو ما عبرت عنه تلك المصادر بالأخطار، تعم الخليج بسبب التوسع المصرى الذى كان مناقضًا للضمانات التى قدمها محمد على لممثل بريطانيا فى القاهرة بأن توسعاته فى الجزيرة العربية لن تصل إلى سواحل الخليج، وهذه الضمانات لم يلتزم بها محمد على أو على الأقل خورشيد باشا قائد القوات المصرية الذى وضح بعد حملاته التى قام بها فى سواحل الخليج أنه كان يستهدف إخضاع البحرين ومشيخات الساحل العمانى وسلطنة مسقط، ومن ثم اتجهت بريطانيا إلى إثارة شيوخ المنطقة ضد التوسع المصرى مستخدمة الترغيب تارة والتهديد تارة أخرى، وأوفدت حكومة بومباى أحد ضباطها لزيارة البريمى ليعمل على إثارة قبائل النعيم ضد التحركات المصرية، كما توسطت بريطانيا فى إنهاء النزاع الذى كان قائمًا بين السيد سعيد سلطان مسقط وابن عمه حمود بن عزان الذى استقل بصحار حيث أبرم تحالف بين الطرفين بوساطة الحكومة البريطانية لمقاومة التوسع المصرى فى سلطنة مسقط فى عام ١٨٣٩ .

على أنه مما يسترعى الانتباه أن التوسع المصرى فى سواحل الخليج العربى أظهر تعاطفًا كبيرًا من شيوخ الخليج تجاهه، ومن المحتمل أن يكون ذلك تعبيرًا عن مناهضة الشيوخ للضغوط البريطانية التى كانوا يعانون من آثارها ومن ثم فإن وصول القوات المصرية إلى التعامل مباشرة مع أولئك الشيوخ قد نبه بريطانيا إلى خطورة الأوضاع على إحدى المنافذ الحيوية الموصلة إلى إمبراطوريتها فى الهند ومن ثم عملت على إحكام حلقات سيطرتها على إمارات الخليج العربى فى أعقاب انسحاب القوات المصرية فى عام ١٨٤٠. حقيقة أن بريطانيا قد تنبهت إلى أهمية الخليج العربى بالنسبة لمواصلاتها الإمبراطورية إلى الهند منذ عهد الحملة الفرنسية على مصر فى أواخر القرن الثامن عشر مما دفعها لكى تبدأ أولى معاهداتها مع سلطنة مسقط ولكنها لم تصل إلى توطيد علاقتها بإمارات الخليج إلا بعد أن نبهها التقدم المصرى إلى ضرورة توطيد تلك العلاقات، وهو الأمر الذى تحقق لها خلال

النصف الثانى من القرن التاسع عشر . ولعل مما تجدر الإشارة إليه بصدد ذلك أن التوسع المصرى فى الجزيرة العربية والخليج العربى كان من أهم الأهداف التى سعى إليها محمد على لتحقيق أمله فى تأسيس إمبراطورية عربية كبيرة، ومن الواضح أن نجاحه فى تحقيق ذلك الهدف كان يشكل خطراً كبيراً على بريطانيا لأن سيطرته على سواحل جنوب وشرق الجزيرة العربية سوف تجعله متحكماً فى كل من طريق البحر الأحمر والخليج العربى وهما المنفذان الحيويان الموصلان إلى المستعمرات البريطانية فى الشرق[1].

وتكشف الوثائق المصرية عن مخطط محمد على للتصدى للنفوذ البريطانى فى سلطنة مسقط ومشيخات الساحل العمانى، كما تكشف أيضاً عن المحاولات التى بذلها محمد على للسيطرة على المناطق التى لم تكن قد امتدت إليها السيطرة البريطانية فى السواحل الشمالية الغربية من الخليج، ونعنى بذلك البحرين والكويت والبصرة بل والعراق كله، وخاصة أن التقارير التى كان يتلقاها خورشيد باشا القائد المصرى فى الإحساء من عملائه فى البصرة وبغداد كانت تكشف عن تدهور الأوضاع فى هاتين الولايتين العثمانيتين حتى أن بعض القوات العثمانية فى البصرة تمكنت من الفرار لكى تلتحق بقوات خورشيد باشا فى الإحساء. وبينما كان من المتوقع أن تحرز القوات المصرية نجاحًا كبيراً فى تحقيق أهدافها إلا أن الوقت جاء متأخراً حيث كان الموقف الدولى قد أخذ يحتدم ضد محمد على وجاءت النتائج على عكس ما كان يتوقعها واضطر فى عام ١٨٤٠ أن يصدر أوامره إلى خورشيد باشا بأ يغلق باب مصروفات هذا المشروع ويعد العدة لسحب قواته من الخليج والجزيرة العربية والعودة بها إلى مصر[2].

ولعله من المفيد أن نشير إلى أن التوسع المصرى فى الخليج العربى مر بمرحلتين، الأولى من عام ١٨١١ - ١٨١٩، والثانية من ١٨٣٣ - ١٨٤٠ وتتميز المرحلة الأولى بعدم معارضة بريطانيا لوصول القوات المصرية إلى سواحل الخليج بل حدثت محاولات للتعاون معها من قبل الإنجليز، ولعل ذلك يرجع إلى أن

---

(١) Hoskins, British Routes to India p. 269 .

(٢) عبد الرحيم عبد الرحمن : من وثائق شبه الجزيرة العربية فى عصر محمد على ١٨١٩ - ١٨٤٠ الدوحة ١٩٨٢ ص ص ٣٩ - ٤٠ .

النفوذ البريطاني لم يكن قد تدعم بعد كما أن وصول القوات المصرية إلى سواحل الخليج في هذه المرحلة المبكرة كان مقتصراً على تأمين العمليات العسكرية في نجد، أما المرحلة الثانية فقد اختلفت عن المرحلة الأولى وفيها كان النفوذ البريطاني قد وضح في منطقة الخليج كما وضحت الأهداف المصرية في التوسع في المنطقة، ولذلك كان من الطبيعي أن يحدث الصدام فيما بينهما. ولعل مما يستلفت الانتباه أن الوثائق المصرية تحدد بدء العلاقات بين محمد على وشيوخ الخليج العربي إلى عام ١٨١١ أي أنها ترجع هذه العلاقات منذ بدء وصول حملة طوسن باشا إلى الحجاز في عام ١٨١١ وليس بوصول إبراهيم باشا إلى الإحساء في عام ١٨١٩. ووضحت تلك العلاقات الأولى مع سلطنة مسقط بصفة خاصة التي كانت في ذلك الوقت على عداء مع السعوديين الذين تطلعوا إلى السيطرة على كثير من مقاطعاتها ولذلك ما أن علم سلطان مسقط بتقدم القوات المصرية لقمع الحركة الوهابية حتى أسرع بتقديم عرض صريح إلى طوسن باشا الذي كان على رأس القوات المصرية التركية الزاحفة على نجد ويقضي هذا العرض بإيجاد تحالف بين محمد على وسلطان مسقط[1]، وبذلك التحالف يستطيع محمد على أن يعتمد على المساعدات التي سوف يبعث بها إليه سلطان مسقط بهدف القضاء على العدو المشترك بينهما[2].

وعندما أرسل طوسن باشا إلى والده محمد على يستطلع رأيه في شأن ذلك أجاب محمد على أنه لا يجد ثمة حاجة لعقد مثل ذلك التحالف ولذلك اكتفى طوسن باشا بطلب تأجير عشرين سفينة من مسقط لأنه كان في حاجة إلى قطع بحرية لنقل المئون والإمدادات إلى جنوده[3]. وقد يعلل رفض محمد على التحالف مع سلطان مسقط في أنه كان لا يريد التورط في عقد معاهدة تحالف مع مسقط حيث كان النفوذ الإنجليزي قد تغلل في تلك السلطنة، ومن ناحية أخرى أن الموقف العسكري في داخل نجد أخذ يتحول سريعاً إلى صالحه بعد مقتل القائد السعودي مطلق المطيري في أواخر عام ١٨١٣ ثم وفاة الإمام سعود الكبير في العام

---

(١) عن علاقة محمد على بسلطنة مسقط راجع كتابنا دولة بوسعيد في عمان وشرق إفريقيا ص ص ١٨١ - ١٨٦.

(٢) Shaikh Mansour, History of Seyyid Said p. 89.

(٣) Burchardt, Notes on the Bedouins and Wahabuys London 1830 p. 252.

التالى. ومع توالى الانتصارات التى حققتها القوات المصرية التركية فى نجد رغم المشكلات الكبيرة التى تعرضت لها تم لإبراهيم باشا اسقاط الدرعية عاصمة الدولة السعودية فى عام ١٨١٨ ، ومن الدرعية اتجهت القوات المصرية التركية بقيادة إبراهيم باشا إلى الإحساء. وتذكر بعض المصادر أن إبراهيم باشا تلقى دعوة صريحة من آل عريعر الذين شجعوه على فتح الإحساء على أن يكونوا نوابا عنه فى حكم تلك البلاد[1]. والحقيقة أن إبراهيم باشا وجد فى الإحساء خير قاعدة يمكنه بواسطتها الانطلاق لتحقيق أهدافه فى التوسع فى سواحل وإمارات الخليج، ولذلك لم يكن الأمر فى تقديرنا مجرد وفاء من قبله للوعود التى قدمها لآل عريعر بقدر ما كان ذلك يتفق مع السياسة المصرية التى رسمها للسيطرة على تلك الأنحاء فالأمر الذى لا شك فيه أن إبراهيم باشا أدرك أهمية الإحساء الاقتصادية والاستراتيجية بالنسبة للوجود المصرى فى نجد ولعله استجاب لطلب آل عريعر لكى يمهدوا له الاستيلاء على الإحساء دون أن يكلفه ذلك الكثير من النفقات والرجال.

وبفضل الدعم المصرى لشيوخ بنى خالد من آل عريعر تمكن بنو خالد من السيطرة على الإحساء دون مقاومة؛ لأن فهد بن عفيصان عامل الوهابيين عليها قد تركها وفر إلى البحرين، كذلك نجح شيوخ بنو خالد فى السيطرة على القطيف وعاد إقليم الإحساء لبنى خالد ولكن ذلك لم يستمر طويلاً حيث أرسل إبراهيم باشا محمد بك كاشف وبرفقته مائتان وأربعون رجلاً حيث أمرهم بالاستيلاء على ما فى بيت المال وما كان لآل سعود من أموال وسلاح وخيل ففعلوا ذلك؛ بل وصادروا أموال كل من كان له علاقة بآل سعود وقتلوا قاضى الإحساء الشيخ عبد الرحمن بن نافع وجميع أعضاء هيئة الوعظ والإرشاد التابعة للوهابيين، وعندما رأى آل عريعر تلك الفظائع ترتكب أمام أعينهم أيقنوا أن وضعهم لن يستتب فى الإحساء فغادروها هربًا إلى العراق[2].

---

(١) محمد بن عبد الله الانصارى : تحفة المستفيد بتاريخ الإحساء فى القديم والجديد جـ ١ ص ١٤٤ الرياض ١٩٦٠ .

(٢) محمد عرابى نخلة : تاريخ الإحساء السياسى ١٨١٣ - ١٩١٣ ص ٣٥ وعن الوثائق المصرية الخاصة بأهمية فتح الإحساء انظر عبد الرحيم عبد الرحمن : من وثائق الدولة السعودية الأولى فى عصر محمد على جـ٢ القاهرة ١٩٨٣ ص ٦٥٦ وثيقة رقم ١٨ .

وعلى أثر سقوط الدرعية رأت بريطانيا أن تنتهز تلك الفرصة لتضرب بشدة على القواسم بعد أن فقدوا السند المعنوى الذى كانوا يعتمدون عليه بعد سقوط الدولة السعودية، وكانت الخطة البريطانية تهدف إلى التنسيق بين السيد سعيد ومحمد على للقضاء على نفوذ القواسم البحرى، ولعل مما ساعد بريطانيا على تنفيذ تلك الخطة مشاعر السرور التى عبر عنها السيد سعيد على أثر سقوط الدرعية حيث أرسل كتابًا إلى محمد على يهنئه فيه على الانتصارات التى أحرزتها قواته فى نجد وعبر عن استعداده للتعاون معه، ومن ثم بادرت حكومة بومباى بارسال أحد ضباطها وهو الليفتنانت جون فوستر سادلر Sadlier ومعه رسالة إلى كل من إبراهيم باشا والسيد سعيد تحثهما على توثيق أواصر الصداقة والتعاون فيما بينهما بهدف تحقيق الأمن البحرى فى الخليج والقضاء على نفوذ القواسم البحرى.

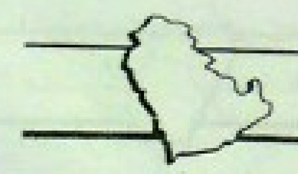
على أن بعثه سادلر لم تحرز أى تقدم يذكر وربما يرجع ذلك إلى رفض محمد على التورط فى تلك المشروعات[1]. ومن ناحية أخرى أن مركزه فى الإحساء أخذ يهتز بشدة حين تمكن شيوخ بنو خالد الذين أصبحوا فى ذلك الوقت مناوئين للحكم المصرى التأثير على والى العراق العثمانى الذى لم يكن بدوره ينظر إلى تقدم القوات المصرية إلى الخليج بعين الرضى، وكان والى العراق فى ذلك الوقت هو الوالى المملوكى داود باشا الذى كان يخشى من أن تلتقى مطامع محمد على مع المطامع البريطانية فى الخليج، واستطاع بذلك التأثير على الباب العالى الذى أوعز بدوره إلى محمد على بضرورة الانسحاب من الجزيرة العربية ونفذ إبراهيم باشا أوامر أبيه فى يوليه ١٨١٩، وعاد آل عريعر إلى الإحساء بمثابة ولاة من قبل الدولة العثمانية ويتبعون بغداد من الناحية الإدارية أى أنهم عادوا إلى الوضع السابق الذى كانوا عليه قبل الغزو السعودى لأراضيهم فى أواخر القرن الثامن عشر[2].

وعلى الرغم من أن الخطة البريطانية قد باءت بفشل ذريع ولم يتحقق التحالف بين محمد على والسيد سعيد إلا أن العلاقات ظلت ودية بين الحاكمين. ويتضح لنا من إحدى الوثائق المصرية أن السيد سعيد وقد حاجًا إلى مكة

---

(١) Ruete, R., Said Bin Sultan pp. 37 - 38 .

(٢) محمد عرابى نخلة: مرجع سبق ذكره ص ٣٦ .



فى عام ١٨٢٤ وهناك استقبله والى جدة استقبالا طيبًا وأرسل محمد على بعثة من كبار رجاله لاستقباله تقديرًا للدور الذى قام به لمواجهة النفوذ السعودى فى بلاده[1]. كما أحسن شريف مكة يحيى بن سرور استقبال السيد سعيد، وكان السيد سعيد قد وفد من مسقط إلى جدة على ظهر سفينته الكبيرة ليفربول التى استقبلت من والى جدة استقبالاً حافلاً، وفيما يبدو أن السيد سعيد حرص على توقيت حجه فى ذلك العام لكى يعبر عن تأييده لمحمد على بعد أن نجحت القوات المصرية فى السيطرة على نجد والحجاز.

وعلى الرغم من أن الوثائق المصرية قد سجلت لنا العديد من الرسائل الودية التى تبودلت بين محمد على والسيد سعيد[2]. إلا أن علاقة الاثنين فيما بينهما لم تقتصر فقط على تلك العلاقات الودية وإنما يسترعى الانتباه أن الأمور تحرجت بين الحاكمين تحرجًا شديدًا، ويحدثنا الشيخ منصور، وهو طبيب إيطالى عمل فى خدمة السيد سعيد ورافقه فى كثير من حروبه ضد السعوديين وتسمى بذلك الاسم، أنه عقب نجاح المصريين فى الاستيلاء على الحجاز كان والى جدة لا يكف عن تحذير السيد سعيد بعدم تخطى حدود ممتلكاته بالتوغل فى الداخل[3]. ومن المؤكد أن تلك التحذيرات كانت نتيجة لما كان يبذله السيد سعيد من محاولات للامتداد بسيطرته على أنقاض السلطة السعودية المتداعية وإن كان السيد سعيد آثر التراجع عن هذه المحاولات لتقديره أنه فى حاجة إلى الاحتفاظ بممتلكاته الأصلية قبل أن يفكر فى توسعات أخرى.

وإذا كانت المرحلة الأولى من مراحل التوسع المصرى فى الجزيرة العربية قد شهدت بعض العلاقات بين مصر وسلطنة مسقط فإن المرحلة الثانية من مراحل الوجود المصرى فى الجزيرة العربية ١٨٣٣ - ١٨٤٠ شهدت علاقات أكثر اتساعًا إذ أنها لم تقتصر على سلطنة مسقط فحسب وإنما امتدت لكى تشمل معظم إمارات الخليج خاصة الكويت والبحرين ومشيخات الساحل العمانى. ويمكننا أن نؤرخ

---

(١) Guillian, Documents Sur L'Histoire, La Geographie et Le Commerce de L'Afrique Orientale, tome I p. 186

(٢) حفلت محافظ الحجاز بالكثير من المراسلات الودية التى تبودلت بين محمد على والسيد سعيد - راجع وثائق القاهرة محافظ الحجاز رقم ٢٦١ - ٢٦٢ و ٨ بحر برًا ١٢٣٤ - ١٢٣٦هـ.

(٣) Shaikh Mansour (Vincenzo), History of Seyyid Said pp. 90 - 91.

للمرحلة الثانيــة من الوجود المصرى فى الجزيرة العربيــة منذ عام ١٨٣٣ وهو العام الذى شهـد توقيع صلح كوتاهيـة بين محمـد على والسلطات فى إبريل من ذلك العام إذ أتاح توقيع تـلك المهادنة انسحاب قسم كـبير من القوات المصـرية من آسيا الصغرى واتجاهـها إلى الجزيرة العربية، وفى السنوات التاليـة تحركت تلك القوات التى كانت تتـألف من عدة آلاف مقاتل مـن قلب الجزيرة العربية صـوب سواحل الإحساء بقيادة خورشيد باشا حيث أحرزت نجـاحًا كبيرًا فى اخضاع القبائل العربية تحت لوائها، وعند مصب شط العرب كان مـقدرًا أن تلتقى هذه القوات بالأسطول المصرى الذى كان قد أبحر عن طريق البحر الأحمر لتحقيق أهداف التوسع المصرى فى سواحل الخليج العربى[1].

وتختلف هذه المرحلة من مراحل التوسع المصرى اختلافًا كـبيرًا عن المرحلة التى سبـقتهـا من حيث موقف بـريطانيا فـبينما كانت بريطانـيا فى المرحلة الأولى حـريصة على الاسـتفـادة من وصول القـوات المصـرية فى قمع النشـاط البحـرى للقواسم نجد أنهـا وقفت فى المرحلة الثانية مـوقفًا معارضًـا للتوسع المصرى وذلك بعد أن نجـحت فى توقيع معـاهدات الصلح البحرى مع شـيوخ الساحل العـمانى وأخذت فى تدعيم نفـوذها فى المنطقة ومن ثم كان من المسـتبعد بطبيـعة الحال أن تقـبل ظهور قـوة جـديدة تنازعهـا النفـوذ فى الخليج، وظهـر ذلك واضحـًا فى معارضتها لأى اتصال يقوم به خورشيد باشا مع شيوخ الخليج خاصة حينما حاول خورشـيد باشا أن يتخـذ من القطيف مركزًا لـلاتصال بالإمارات المجاورة مـحاولاً إغراء شـيوخها بالانضـواء تحت سيادة محـمد على، حيث لقـيت هذه المحاولات معـارضة شديدة من بريطانيا الـتى قدرت أن وصول القوات المصـرية إلى سواحل الخليج سيمكن مصر من السيطرة على الخطوط الملاحية التى تصل أوربا بالهند[2].
ومما يستلفت الانتباه أن محـمد على لم يشأ فى البداية الاصطدام بالإنجليز إذ أعلن أنه لم يبغ من توسعه فى الجزيرة العربية وسـواحل الخليج العربى أكثر من اخضاع السعوديين وحماية الحـرمين الشريفين[3]، كمـا أعلن عن استعـداده لتقديم كـافة

---

(١) Dodwell, op. cit., pp. 142 - 145.

(٢) عن المعارضـة البريطانية للتـوسع المصرى فى الخليج انظر كتـابنا الخليج العربى، دراسة لتـاريخ الإمارات العربية ١٨٤٠ _ ١٩١٤ ص ص ٦٥ _ ٧١.
Palmerston to Colonel Campell 29th November 1838 F.O. 78/343.

(٣) راجع الأرشيف الأوربى بوثائق القاهرة (القلعة سابقًا) محفظة رقم ١٢.
See also Temperley, Documents Old and New Doc.No. 27.

الضمانات لتيسير سبل الاتصال بين مصر والهند، غير أنه لم يكن من السهولة أن تسلم بريطانيا بذلك وإنما سارعت بتوطيد علاقاتها بشيوخ الخليج كما كلفت بعثة كسني بمسح نهري دجله والفرات واختبار صلاحيتهما للملاحة البخارية في عام ١٨٣٤، وذلك لكي تفتح طريقًا آخر للمواصلات بدلاً من طريق البحر الأحمر الذي أصبح تحت السيطرة المصرية حتى احتلال بريطانيا لعدن في عام ١٨٣٩، كما أرسلت بريطانيا بعض قواتها إلى البصرة واحتلت جزيرة خرج ١٨٣٨، التي تقع عند مدخل الخليج العربي في ناحيته الشمالية؛ بهدف مراقبة التحركات المصرية في الأجزاء الشمالية من الخليج العربي[1].

ولم يلبث أخذ الموقف يتأزم بين بريطانيا ومحمد علي تأزمًا شديداً في عام ١٨٣٨ حيث كتب الليفتنانت كولونيل تايلور المقيم البريطاني في بغداد إلى اللورد بالمرستون وزير الخارجية البريطانية يوضح العواقب التي سوف تترتب على تقدم القوات المصرية في سواحل الخليج، وبادر بالمرستون بالكتابة إلى الكولونيل كمبال ممثل بريطانيا في القاهرة يبلغه بتلك المعلومات التي كان مفادها اتجاه القوات المصرية إلى الإحساء والقطيف تمهيداً للسيطرة على البحرين وطلب منه الاستفسار من السلطات المصرية في القاهرة عن صحة هذه المعلومات مؤكداً أن هذه التحركات تنظر إليها الحكومة البريطانية نظرة غير ودية. وسلم كامبل احتجاج بالمرستون إلى باغوص بك وزير محمد علي، حيث كان محمد علي متغيبًا في السودان في ذلك الوقت، وحصل كامبل على وعد من باغوص بك بأنه سيبادر بتبليغ ذلك الاحتجاج إلى الوالي فور عودته وأنكر باغوص بك بأن يكون لمحمد علي أية أطماع في جزر البحرين[2]. ومما تجدر الإشارة إليه أن تحركات القوات المصرية في الخليج قد أثارت وزارة الخارجية بلندن، ومن المعروف أن شئون الخليج كانت من اختصاص حكومة بومباي ولم يكن تدخل الحكومة البريطانية في لندن في شئون الخليج إلا في الأمور الهامة التي تستوجب تدخلها، ومن ثم فإن اهتمام وزارة الخارجية بلندن بالتحركات المصرية في الخليج العربي يؤكد لنا أهمية تلك

---

(١) من خورشيد باشا إلى الباشمعاون الخديوي ١٦ أبريل ١٨٣٩ حول احتلال الإنجليز لجزيرة خرج، محافظ الحجاز - محفظة رقم ٢٦٧، ٧ أصلية و ٥٠ حمراء ٢١ محرم ١٢٥٥هـ عن عبد الرحيم عبد الرحمن: محمد علي وشبه الجزيرة العربية ١٨١٩ - ١٨٤٠ - الجزء الثاني - القاهرة ١٩٨١ ص ٥١٣.

(٢) جون كلي: بريطانيا والخليج العربي جـ ١ ص ص ٥٢٥ - ٥٢٧.

التحركـات ليس بكونها خطراً على حكومة الهند فحـسب وإنما على الامبراطورية البريطانية بأسرها وبصدد ذلك أرسل بالمرستون إلى حكومة الهند يلفت نظرها إلى ضرورة مـعارضة أى تقـدم يقوم به خـورشيد باشـا فى الخليج ويطالبهـا بالتدخل المسلح إذا ما اقتضت الضرورة ذلك[1]. وقد ركز بالمرستون، وقـد عرف بسياسته العدائية ضد مـحمد على، على جزر البحرين وما يمكن أن يشكله اسـتيلاء مصر على تلك الجزر من خطر على مركز بريطانيا فى الخليج العربى.

والحقيقة أن خورشيد باشا كان يتـجه فعلاً للسيطرة على البحرين، كما كان يعمل على استغلال المطالب السعودية لتحـقيق نشاطه فى منطقة الخليج برمتها وقد وضح ذلك حين أسر فيصـل بن تركى وبعث به إلى القاهرة وأحل بدلاً منه الأمير خالد بن سـعود الذى كان يتـحرك وفقـاً لمشورته[2]. وباسم الأمـير خالـد تحرك خورشـيد باشـا للسيطرة عـلى الإحسـاء. وقـد يكون من المفـيد أن نشـير إلى أن الإحساء قد عادت إلى حكم بنى خـالد فى عام ١٨١٨ إلى أن نجح السعوديون فى استـردادها على يد الإمام تركى بن عبـد الله فى عام ١٨٣٠، ولكن الاضطرابات التى حدثت فـى الإحساء بعـد أسر الأميـر فـيصل جعلت الفرصـة سانحـة أمام خورشيد باشا لاسـتردادها باسم الأمير خالد بن سعود، كما شـدد خورشيد باشا جهوده على البـحرين خاصة بعد أن التجـأ إليهاعدد كبيـر من السعوديين المناوئين لخالد بن سعود وعلى رأسهم القائد السعودى عمر بن عفيصان[3].

ومما تجدر الإشارة إليه أن خورشيد باشا استكتب خالد بن سعود عدة مطالب قدمت باسمه إلى شيوخ البحرين، ومن بين هذه المطالب إعادة قلعة الدمام وجزيرة طاروت إلى السعوديين وتسليم عمر بن عفـيصان. وقد أفزعت تلك المطالب شيخ البحريـن، الشيخ عبد الله ، الذى بادر بطلب الحـماية الفارسيـة كى يتخلص من

(1) Hoskins, Background of the British Posistion in Arabia, Middle East Journal Vol. I No.2 pp. 138 - 143 . 1947

(٢) كان الأمير خالد بن سعود من الأسرى السعوديين الذين اعتقلهم إبراهيم باشا عند تحطيم الدرعية فى عام ١٨١٨ وأرسلهم إلى مصر وعندما كبر خالد بن سعود نال حظوة لدى محـمد على الذى رأى أن يجعله أميرا على نجد ولذا أرسله إلى نجد بصحبة خورشيد باشا وبعد القبض على فيصل بن تركى أعلن خالد بن سعود أميرا على نجد، راجع الزينى دحلان : خلاصة الكلام فى أمراء بيت الله الحرام ص ٣١٢ .

(٣) ج . ج لوريمر: دليل الخليج جـ ٣ ص ص ١٣٠٦ ـ ١٣٠٧ .

تقدم القوات المصرية خاصة وأنه كان يعتقد بأن السيد سعيد بن سلطان يتآمر مع محمد على للاستيلاء على البحرين وحكمها نيابة عنه، وقد بادر أمير شيراز بارسال مبعوث من قبله هو حاجى قاسم ليقيم فى البحرين، ولم يكن لذلك التحرك أى أثر فى تهدئة مخاوف شيوخ البحرين الذين أذعنوا للتقدم المصرى وخاصة لما أشيع فى ذلك الوقت عن احتمال إبرام تحالف بين محمد على والشاه لمواجهة الأطماع الإنجليزية فى الخليج العربى(١). وفيما يرجح لدينا أن محمد على كان يفكر بالفعل فى إيجاد تحالف بينه وبين فارس ولكن حال دون ذلك معارضة بريطانيا لقيام تحالف من ذلك النوع إذ استغلت بريطانيا الإدعاءات الفارسية على البحرين لكى تقاوم التقدم المصرى إلى تلك الجزر كما يفهم ذلك من تأكيد القنصل البريطانى فى الإسكندرية لمحمد على بأن البحرين لا تكون جزءاً من الجزيرة العربية حيث أنها تابعة لفارس وعلى ذلك فإن بريطانيا لن تسمح لا للدولة العثمانية ولا لقوات محمد على بالسيطرة عليها(٢).

وهكذا اتجهت السياسة البريطانية إلى منع القوات المصرية من السيطرة على البحرين لأهميتها الاقتصادية والاستراتيجية، وشدد بالمرستون على استخدام القوة أو إلى احتلال فعلى تقوم به حكومة بومباى من أجل ذلك(٣)، ولذلك سارع الأدميرال فردريك ميتلاند Maitland قائد البحرية البريطانية فى الهند إلى الخليج العربى ليقدم ما يلزم من حماية إلى شيوخ البحرين وغيرهم من شيوخ الخليج العربى(٤). وقد وصل ميتلاند إلى البحرين فى الوقت الذى كان فيه خورشيد باشا قد انتهى من احتلاله للقطيف والعقير ووجد أن شيوخ البحرين كانوا على استعداد للاعتراف بالسيادة المصرية، ولذلك رأى من الحكمة عدم القيام بأى عمل عسكرى، وطلب من الكولونيل هنيل المقيم البريطانى فى الخليج أن يعمل على وقف الضغط المصرى بالطرق السلمية. ويقرر هنيل فى تقرير بعث به إلى حكومة

---

(1) Claim to Bahrein Islands - Foreign Secretary to the Govt. of India, 1937. See also Adamyiat, F., Bahrein Islands pp. 134 - 136 .

(٢) من خورشيد باشا إلى الباشمعاون الخديوى ١٣ أكتوبر ١٨٣٩ وثائق القاهرة (القلعة سابقاً)، محافظ الحجاز ١٢٥٥هـ محفظة رقم ٢٦٧ وثيقة ١٣٩ أصلية ، ٦ حمراء .

(٣) I. O. Political and Secret Dept., 20th Feb. 1840 302 A. See also Dodwell, op. cit., pp. 142 - 143 .

(٤) Rihani, Ameen, Ibn Saud p. 140 .

الهند أنه وجد من الأمراء الذين زارهم أنهم كانوا أكثر تقديراً لعظمة القوات المصرية[١]، كما فوجئ هنيل بأن هناك معاهدة تم توقيعها بين خورشيد باشا وشيوخ البحرين فى مارس ١٨٣٩ ويتضح من توقيع تلك المعاهدة أن شيوخ البحرين أبدوا ترحيبهم بالوجود المصرى أملاً فى التخلص مما كان يحيق بهم من خطر الإنجليز والفرس وسلطان مسقط جميعًا، وخاصة أن محمد على لم يتجه إلى طلب زكاة كبيرة كما كان يفعل الفرس أو السعوديون.

ومما هو جدير بالذكر أن خورشيد باشا كان قد أوفد أحد مبعوثيه ويدعى محمد أفندى رفعت إلى البحرين، للتفاوض فى عقد معاهدة ود وصداقة. وقد حفظت لنا وثائق القاهرة نص المعاهدة التى وقعت بين الطرفين[٢]. كما حفظت لنا التقارير التى كان يبعث بها محمد أفندى رفعت عن مهمته التى قام بها فى البحرين والتى استند فيها على تبعية جزر البحرين للسعوديين وكما هو واضح أن محمد أفندى رفعت كان يحاول أن يسبغ شرعية على التحرك المصرى فى البحرين الذى كان يتم خلال تلك المرحلة باسم الأمير خالد بن سعود. وتؤكد الوثائق المصرية أن محمد أفندى رفعت نجح فى عقد معاهدة مع شيوخ البحرين قبلوا فيها الخضوع للحماية المصرية وأن يسلموا كل سنة ثلاثة آلاف فرانسة على سبيل الزكاة، ولعل توقيع هذه المعاهدة أثار قلقًا شديداً لدى الإنجليز حتى أن هنيل المقيم البريطانى فى الخليج وجه احتجاجًا شديداً إلى خورشيد باشا محملاً إياه أى ضرر يحدث للرعايا الإنجليز فى البحرين. كما أخذ ينشر النشرات المعادية للحكم المصرى وطلب من شيخ البحرين أن يعطيه المعاهدة ليمزقها وأن الإنجليز على استعداد لتقديم الحماية للبحرين وضمان الحكم لأسرة آل خليفة وألا يتقاضوا إيراداً من البحرين لمدة عشرين عامًا. وعلى الرغم من الضغوط التى استخدامها هنيل إلا أن الشيخ عبد الله امتنع عن قبول الحماية البريطانية وأجاب المقيم البريطانى بقوله «إنى وإن كنت قد طلبت منكم الحماية قبلاً ولكن ما قلت لكم أن أكون من جملة رعايا الإنجليز، وأما اليوم فقد تصالحنا ولله الحمد مع خورشيد باشا وربطنا الصلح

(١) Letter fron Abdullah Bin Khalifah to the Resident in the Persian Gulf 26th January 1839 F. O. 78/386 No. 140 Political Department, Henell to Willoughby 14th Feb. 1839 Enclosure No. 3

(٢) من خورشيد باشا إلى عبد الله آل خليفة ٧ مارس ١٨٣٩ مرفق عربى للوثيقة ١٣٧ حمراء، وثائق القاهرة (القلعة سابقًا) محافظ الحجاز ١٢٥٤هـ محفظة رقم ٢٦٧ . راجع الأرشيف الأوربى محفظة ١٢ وثائق القاهرة (عابدين سابقًا) .

بشروط». ولم يكتف هنيل بتهديد شيخ البحرين وإنما أرسل إلى خورشيد باشا محتجًا أن البحرين تتبع فارس ولا يجوز الاستيلاء عليها ومذكرًا له بما كان قد سبق أن صرح به محمد على إلى ممثل بريطانيا فى القاهرة بأن قواته لن تتعدى على بلاد العرب المتصلة بخليج فارس[1]. وقد أجاب خورشيد باشا على احتجاج هنيل بأن ما قام به لا يستوجب أى اعتراض وبرر ذلك بأن المناطق التى يعمل على فتحها كانت فيما مضى خاضعة للسعوديين، وحيث أن محمد على قد أنعم على خالد بن سعود بالحكم فلا موجب إذن للاعتراض خاصة وأن المعاهدة التى وقعت مع شيخ البحرين كانت لا تختلف عما كانت بين هذا الشيخ والسعوديين من قبل[2].

ولعل مما يسترعى انتباهنا الموقف الذى اتخذه شيوخ البحرين فى علاقتهم بكل من الإنجليز والمصريين، وعلى وجه خاص تحولهم إلى صداقة المصريين وفى تحليلنا لذلك الموقف ينبغى أن نؤكد أن الأوضاع الداخلية فى البحرين كانت من أهم أسباب ذلك التحول إذ شهد عهد الشيخ عبد الله بن خليفة خروج بعض أفراد أسرته عليه، وحين استنجد ببريطانيا لم تستطع أن تلزم نفسها بضمان الحكم له فى الوقت الذى تعرض فيه للمنافسات الأسرية. وعلى الرغم من أن الشيخ عبد الله حاول أن يستعين بفارس إلا أن منافسيه سبقوه إليها ولذلك لم يجد أمامه قوة تسانده سوى اللجوء إلى خورشيد باشا. بيد أن أسلوب الضغط الذى استخدمته بريطانيا ضد البحرين كان من أهم العوامل التى أدت إلى تراجع الشيخ عبد الله عن اتفاقه مع خورشيد باشا إذ أوضح للمقيم البريطانى أنه عدل عن اتفاقه بعد أن أدرك أن خورشيد باشا يهدف إلى احتلال البحرين واتخاذها قاعدة لشن هجوم بحرى على البصرة وأنه كان يريد استخدام السفن التابعة لآل خليفة لتحقيق تلك الغاية، وأكد الشيخ عبد الله أنه بعد أن تراجع عن اتفاقه هذا فإنه يطلب من الحكومة البريطانية ضمان الحكم له ولأسرته. وقد أوصى هنيل حكومة بومباى بقبول مبدأ الحماية للبحرين وأكد فى التقرير الذى بعث به إلى حكومته بأن تصرفات الشيخ عبد الله وتردده بين القوى المختلفة كانت بسبب الرغبة فى مسألة

(١) وثائق القاهرة (القلعة سابقًا) ـ محافظ الحجاز ١٢٥٥هـ محفظة رقم ٢٦٧ انظر اعتراض هنيل على اتفاق خورشيد باشا مع شيخ البحرين ـ صورة المرفق العربى للوثيقة رقم ١٤٧ حمراء ٢٧ يونية ١٨٣٩ .

(٢) وثائق القاهرة (القلعة سابقًا) : محافظ الحجاز ١٢٥٥هـ صورة المرفق العربى للوثيقة رقم ١٤٣٧ حمراء ـ رد خورشيد باشا على اعتراض هنيل فى ١٨٣٩/٧/٣١ .

أية دولة قوية تطمع فى السيطرة على البحرين؛ وكانت هذه هى النتيجة التى توصلت إليها بريطانيا فى نهاية الأمر، ومما يذكر بصدد ذلك أن البحرين كانت أولى إمارات الخليج التى خضعت للحماية البريطانية وذلك منذ توقيعها معاهدة ١٨٦١ مع الحكومة البريطانية(١).

لم يقف نشاط خورشد باشا فى علاقته بإمارات الخليج العربى عند إمارة البحرين فحسب بل حاول أيضًا الاستيلاء على المقاطعات التابعة لسلطنة مسقط منتهزًا فرصة التفكك الإقليمى الذى كانت تعانيه تلك السلطنة بانتقال عاهلها إلى زنجبار وإلى الثورة التى تزعمها حمود بن عزان فى عام ١٨٣٠ والتى أدت إلى استقلاله بميناء صحار فى عام ١٨٣٩، ومن الثابت أن محمد على كان يفكر جديًا فى السيطرة على سلطنة مسقط تحقيقًا لمشروع كان يستهدف منه السيطرة على جميع سواحل الجزيرة العربية وخاصة لتقديره أهمية موقع ميناء مسقط ورغبته فى التحكم فى مداخل الطرق البحرية للخليج العربى(٢)، يضاف إلى ذلك أهمية ميناء مسقط فى نقل الامدادات إلى القوات المصرية فى الخليج والجزيرة العربية إذ إن نقل الغلال من مسقط أسهل وأقل تكلفة من نقلها عن طريق القصير وجدة(٣). وتؤكد بعض المصادر أن القوات المصرية سببت فزعًا كبيرًا لحكام مسقط ولو لم تبادر بريطانيا بمساعدتهم لسقطت السلطنة وملحقاتها فى قبضة خورشيد باشا(٤).

والجدير بالذكر أن معاهدة ١٨٣٩ بين السيد سعيد وحمود بن عزان عقدت بمشورة بريطانيا بهدف توحيد الجبهة العمانية ضد القوات المصرية. وقد نصت المعاهدة على أن يحتفظ كل طرف بممتلكاته وأن يتعهد الطرفان بأن يعيش كل منهما داخل ممتلكاته دون عدوان واشترط السيد سعيد أن تعاونه صحار عسكريًا

---

(١) I.O. Political and Secret Department See, Historical Memorandum on Bahrein B. 436 .

(٢) Tamisier, Voyage en Arabie Tome I p. 359 .

(٣) عبد الرحيم عبد الرحمن : من وثائق الجزيرة العربية فى عصر محمد على، المجلد الأول الدوحة ١٩٨١.

(٤) Jackson, European Powers and South East Africa See, Muscat and the Powers p. 170.

حين يطلب منها ذلك. كذلك بادرت بريطانيا فى عام ١٨٣٩ بعقد معاهدة مع سلطنة مسقط بعد أن استنفدت معاهدة ١٧٩٨ أغراضها[١].

ومما يسترعى الانتباه أن مخاوف سلطان مسقط من التوسع المصرى فى سلطته لم تتضح إلا فى عام ١٨٣٩، أما قبل ذلك فقد كان موقف سلطان مسقط مؤيداً للتقدم المصرى فى الجزيرة العربية إذ إن ذلك التقدم قد أعفى سلطنة مسقط من دفع الزكاة السنوية للسعوديين؛ ولذلك كان سرور السيد سعيد عظيماً عندما تمكن خورشيد باشا فى فترة سابقة على ذلك التاريخ من القضاء على حكم الإمام فيصل بن تركى، ولكن يبدو أن سروره لم يستمر طويلاً حينما أصدر محمد على فرمانه الخاص بتعيين خالد بن سعود بدلاً من الإمام فيصل أميراً على نجد. ويتضح لنا قلق السيد سعيد من رسالة بعث بها إلى محمد على فى عام ١٨٣٩ يحذره فيها من خالد بن سعود وقد جاء فى تلك الرسالة : « وقد فرحت الخلق برواح فيصل بن سعود ويدعون لكم آناء الليل وأطراف النهار وإن تمكن خالد بن سعود يقع منه (أى من السعوديين) أكثر مما مضى »[٢]. وتؤكد الوثائق المصرية أن السيد سعيد رغب فى تنسيق سياسته مع محمد على وأنه أرسل له ثلاث رسائل توضح له أهمية ذلك التنسيق، ولكن محمد على أهمل عروض السيد سعيد حتى قرر خورشيد باشا التدخل فى البريمى والساحل العمانى فبدأت المراسلات من جديد للوقوف على مدى استعداد السيد سعيد للتنسيق أو التعاون، وربما كانت العقبة التى حالت دون ذلك الموقف العدائى الذى وقفه خالد بن سعود الذى تابع التقاليد السعودية فى إصراره على أن تدفع مسقط الزكاة السنوية التى كانت مقررة للسعوديين[٣]، وكتب إلى أبناء السيد سعيد - ثوينى وهلال - اللذان كانا يقومان بالحكم فى مسقط نيابة عن أبيهما أثناء إقامته فى زنجبار بأن يكونا فى علاقتهما معه على الوضع الذى كان عليه أبوهما مع أسلافه، تركى وفيصل. وليس من شك فى أن رسالة خالد بن سعود هذه أزعجت سلطان مسقط فأرسل كتاباً إلى محمد على عن طريق حاكم الحجاز موضحاً له استياءه من تلك التصرفات ومبدياً

(١) ج . ج لوريمر : دليل الخليج جـ ٢ ص ٧٠٥ .

(٢) وثائق القاهرة (القلعة سابقاً) - محفظة رقم ٢٦٦ حجاز ١٢٥٥هـ صورة المرفق العربى للوثيقة رقم ١٨١ حمراء و ٤٣ أصلية .

(٣) وثائق القاهرة (القلعة سابقاً) - محفظة رقم ٢٦٦ حجاز ١٢٥٥هـ من خالد بن سعود إلى أبناء السيد سعيد - صورة المرفق العربى للوثيقة رقم ١٨١ حمراء و ٤٣ أصلية (ذكرت بدون تاريخ) .

استعداده للتفاهم مع محمد على وإجابة مطالبه، ولما لم يكن محمد على يرغب في تضييق الخناق على السيد سعيد لأنه كان لا يزال يراوده الأمل فى الاستعانة به لتحقيق مشروعاته التوسعية فى الخليج فقد بادر بالكتابة إلى خالد بن سعود يقول له : « إنه بالنظر للصفوة القائمة بيننا وبين حضرة الإمام المشار إليه لا نوافق على كسر خاطره أصلاً فاجتنب المعاملة التى توجب اضطراب حضرة الإمام المشار إليه وبادر إلى إدخال السرور عليه وتطييب خاطره »[1]. كما أمر فى نفس الوقت أحمد باشا قائد جيش الحجاز بأن يكتب إلى السيد سعيد يؤكد له «أن ماكتبه خالد بك لحضرتكم إنما هو من مقتضيات صبوته وخفة مزاجه وقد كتبنا له بأن يرجع عن مثل هذه الكتابة وأن يراعى خاطركم فى كل حال »[2].

وبينما كان محمد على يتجه إلى استخدام تلك السياسة التلطيفية كان خورشيد باشا يعمل على السيطرة على المقاطعات العمانية وأخذ يمهد لمشروعه هذا عن طريق سيطرته أولاً على واحات البريمى التى هى بمثابة المفتاح الرئيسى لعمان، وكان من المتوقع نجاح خورشيد باشا فى السيطر على سلطنة مسقط بأسرها نظراً لما كانت تعانيه السلطنة من تفكك فى ذلك الوقت، ولعل هذا التفكك كان يهم خورشيد باشا الذى لاحظ حالة البلاد جيداً وكتب إلى محمد على يقول : «إن عمان ثلاثة أقسام جانب فى حكومة سعيد بن سلطان إمام مسكت (مسقط) وجانب فى حكومة ولد عمه حمود بن عزان وجانب من الظاهرة فى حكومة السعوديين »[3]. وقد مهد خورشيد باشا لمشروعه هذا بايفاد سعد بن مطلق إلى واحة البريمى فى عام ١٨٣٩ لكى يعمل على تهيئة الأذهان لتقبل الحكم المصرى القائم فى نجد[4]، فى الوقت الذى وقف فيه السيد سعيد موقفاً مضاداً حيث أخذ يعمل على تأليب شيوخ بنى النعيم ويحرضهم على عدم الإذعان للوضع القائم

---

(١) وثائق القاهرة (القلعة سابقا) - محفظة رقم ٢٦٦ حجاز ١٢٥٥هـ ترجمة للوثيقة ١٠٤ حمراء .

(٢) وثائق القاهرة (القلعة سابقا) - محافظ الحجاز، انظر إرادة رقم ٢٥ من محمد على بتاريخ ٣ ذى القعدة ١٢٥٥هـ .

(٣) وثائق القاهرة (القلعة سابقا) - محفظة رقم ٢٧٠ وثيقة عربية ١٩٠ حمراء بتاريخ ١٢ جمادى الآخر ١٢٥٥هـ رسالة من خورشيد باشا إلى الباشمعاون الخديوى .

(٤) ترى الوثائق السعودية بصدد ذلك أن سعد بن مطلق المطيرى تعاون مع خورشيد باشا بدافع من ولائه =

وأن يحتفظوا باستقلالهم[(١)]. والأمر الذى لا شك فيه أن السيد سعيد كان يفضل استقلال تلك الواحة عن وقوعها فى أيدى المصريين فهو لا يمكن أن يرحب بطبيعة الحال بأن تقوم إلى جواره قوة عسكرية فتية أثبتت كفايتها العسكرية فى الجزيرة العربية وقضت على أكبر قوة بها وهى القوة السعودية. ومما لا شك فيه أيضًا أن الإنجليز اشتركوا مع السيد سعيد فى تحريك قبائل النعيم على الثورة ضد سعد بن مطلق المطيرى ويتضح ذلك من رسالة بعث بها إلى خورشيد باشا يؤكد فيها «إن الفتن والثورات القائمة فى البريمى إنما هى من حركات الإنجليز»[(٢)].

ولعل من المفيد أن نشير إلى أن العلاقة بين آل النعيم والدولة السعودية التى أقامها المصريون فى نجد قد أصابها الفتور ذلك أن آل النعيم لم يعترفوا بإمارة خالد بن سعود كما لم يعترفوا بالوجود المصرى واعتبروا ذلك انحرافًا عن العقيدة الوهابية، وقد استغل هنيل هذا الوضع لإرسال أحد ضباطه إلى البريمى ليقوم بتوزيع السلاح والعتاد والمواد الغذائية وإجراء المصالحات بين قبائل الظواهر والنعيم والشوامس، كما بادر هنيل بارسال احتجاج شديد اللهجة إلى خورشيد باشا جاء فيه : «إنه ينبغى من جنابكم الكف والسكوت عن المداخلة والتصرف فى أمورات البحرين وعمان إلى أن تصل المخاطبة فيما بين الدولتين الإنجليسية والمصرية وتقضى على نهج معلوم»، كما ذكر له أيضًا أنه «إذا ما أرسل عساكر إلى طارفة البريمى سواء من البر أو البحر فسيتخذ ذلك دليلاً واضحًا على أن جنابكم غير راغب فى استقامة الصداقة فيما بين الدولتين بدون خلل»[(٣)]. وثمة ما ينبغى الإشارة إليه أنه فى خلال موجة التوسع المصرى كانت الحكومة البريطانية لا تكف عن تنبيه السيد سعيد بأن يكون على أهبة الاستعداد لمقاومة القوات المصرية الزاحفة فى أى وقت[(٤)]. ومما لاشك فيه أن محمد على كان يعمل فعلاً على الاستيلاء

---

* لآل سعود إذ كان محمد على لا يزال يظهر حتى ذلك الوقت أنه يعمل فى نجد باسم خالد بن سعود، انظر التحكيم لتسوية النزاع الإقليمى بين مسقط وأبو ظبى وبين المملكة العربية السعودية، عرض الحكومة السعودية جـ ١ القاهرة فى ١٩٥٥ ص ١٧٣.

(١) وثائق سعودية : التحكيم لتسوية النزاع الإقليمى بين مسقط وأبو ظبى وبين المملكة العربية عرض الحكومة السعودية جـ ١ ص ص ١٧٣/١٧٥

(٢) وثائق القاهرة ـ محفظة رقم ٢٧٠ وثيقة عربية رقم ٩٤ بتاريخ ١٢ جمادى الأخر ١٢٥٥هـ .

(٣) وثائق القاهرة (القلعة سابقًا) ـ محفظة رقم ٢٦٧ صورة المرفق العربى المؤرخ فى ١٧ جمادى الأخر ١٢٥٥هـ .

(٤) Coupland, R., East Africa and Its Invaders p. 470 .

على سلطنة مسقط وقد أعرب عن رغبته هذه فى حديث بينه وبين الكولونيل هودجس Hodges القنصل البريطانى العام فى القاهرة فى أبريل ١٨٤٠[1]، والتى لم تتحقق بسبب اضطراره إلى الانسحاب من الجزيرة العربية. ويذكر شارل ديدييه إن علاقات الصداقة لم تلبث أن استؤنفت من جديد بين محمد على والسيد سعيد كما تبادل خلفاء محمد على، عباس وسعيد، الهدايا مع السيد سعيد، وقد حفلت وثائق القاهرة بكثير من الرسائل التى تؤكد استمرار العلاقات الودية بين مصر وسلطنة مسقط وزنجبار[2].

وقد أدت محاولات خورشيد باشا السيطرة على البريمى وغيرها من المقاطعات العمانية إلى إيجاد علاقات بينه وبين شيوخ الساحل العمانى التى تعرضت بدورها لموجة التوسع المصرى مما استلزم من الأدميرال ميتلاند الالتقاء بشيوخ الساحل وتذكيرهم بروابط الصداقة بينهم وبين بريطانيا. وعلى حين أكد الشيخ سلطان بن شخبوط شيخ أبو ظبى الذى التقى بالادميرال ميتلاند على مقربة من المنامة حرصه على توثيق الروابط بينه وبين بريطانيا أعرب سلطان بن صقر شيخ القواسم عن ثقته بأن السكان العرب لا يستطيعون وقف خورشيد باشا، وأجاب ميتلاند بأن قبائل الساحل العمانى فى وسعها التصدى لخورشيد باشا لو أنها وحدت صفوفها وأن قبائل القواسم التى تضم رأس الخيمة والشارقة وعجمان وأم القوين تستطيع تعبئة أحد عشر ألف مقاتل. ومما تجدر الإشارة إليه أن سلطان بن صقر رفض تعبئة هذه القوة تحت إشراف بريطانيا لما قد يؤدى إليه ذلك من كثرة الحزازات القبلية. وقد ورد فى التقرير الذى كتبه ميتلاند وبعث به إلى حكومة بومباى إنه لما يحز فى النفس أن زعماء القبائل غير مدركين (للخطر) الذى يداهمهم وأنهم رغم المخاطر التى يتعرضون لها فإنهم لم يتخذوا أية خطوة لمواجهتها[3].

ولم تلبث الأمور أن تأزمت فى الساحل العمانى حينما وصل سعد بن مطلق المطيرى إلى الشارقة وأبلغ سلطان بن صقر أنه جاء موفداً من الأمير خالد بن سعود

---

(1) Ruete, R., Said Bin Sultan London 1929. p.78 .

(٢) جمال زكريا قاسم : دولة بوسعيد فى عمان وشرق إفريقيا القاهرة ١٩٦٧ ص ١٨٧ .

(٣) جون كلى : بريطانيا والخليج جـ ١ ص ٥٤٥ .

لاحتلال البريمى، وقد بادر سلطان بن صقر باحلاله فى إمارته خوفًا من أن ينصرف إلى منافسه خليفة بن شخبوط، ولكن المقيم البريطانى فى الخليج الكولونيل إدموندز Edmonds نصح الشيخ سلطان بضرورة التخلص منه مهما تكن مخاوفه من ردود الفعل لأنه من المؤكد أنه وفد إلى الساحل بتكليف من خورشيد باشا وليس من الأمير خالد بن سعود، وفى ذلك الوقت كانت الشائعات منتشرة فى الساحل العمانى بأن عملاء خورشيد باشا موجودون فى جميع أنحاء الخليج(١).

ولم تلبث أن تحققت صدق المخاوف البريطانية حينما أبلغ سعد بن مطلق الشيخ سلطان صراحة بأنه جاء ممثلاً عن خورشيد باشا ولذلك أدرك هنيل الذى وصل إلى المقيمية البريطانية فى الخليج بأنه إذا سمح لسعد بن مطلق بالبقاء فى منطقة الساحل العمانى فلن يمضى وقت طويل حتى يكون جميع شيوخ الساحل قد خضعوا لمحمد على، ولذلك أسرع هنيل بالحصول على تعهدات خطية من شيوخ الساحل بمقاومة نفوذ خورشيد باشا، وأضيف نص خاص بالنسبة للشيخ سلطان بن صقر يتعهد فيه صراحة بعدم إجراء أية علاقات أو مراسلات أو اتفاقيات مع محمد على أو أنصاره أو أية قوة أجنبية أخرى قبل موافقة الحكومة البريطانية، وأن يعتبر حلفاء تلك الحكومة حلفاءه وأعداؤها أعداءه. وطبقًا لما تقرره الوثائق البريطانية بعث الشيخ سلطان بن صقر إلى المقيم البريطانى يطلب منه التعرف على موقف الحكومة البريطانية إذا ما تعرض لتوسع القوات المصرية ، وكتب المقيم البريطانى إلى حكومة الهند معلقًا على رسالة الشيخ سلطان بأنه كان يريد أن يؤكد للشيخ بأن الحكومة البريطانية تمتنع عن التدخل فى الشئون الداخلية، كما كان يفعل ذلك فى الماضى، ولكن الظروف تبدو مختلفة الآن اختلافًا كبيرًا عما كانت عليه قبل ظهور القوات المصرية، ولعل ذلك ما دفعه إلى تقديم ضمانات الحماية للشيخ سلطان بن صقر مما كان له أثر فى إلزام الشيخ نفسه بالتعهد الذى أشرنا إليه(٢). ومما تجدر الإشارة إليه أن سعد بن مطلق كان يحمل معه رسائل من خورشيد باشا يطلب فيها من شيوخ الساحل تقديم المساعدة له

---

(١) المرجع السابق ص ص ٥٦٠ - ٥٦١.

(٢) Campell to Fackrouse, Secret No. 6 of 1839 29th January 1839 See also Hennell to Willoughby, Secretary to the Govt. of Bombay, Enclosure in India Board 6th May 1839 F.O. 78/336.
انظر الأرشيف الأوربى بوثائق القاهرة محفظة ١٢

ومحذراً إياهم من عـدم الانصياع له[١]، وقد أحـدث هذا التحرك أثر كبـيراً لدى شيوخ الساحل إلى درجة أفـزعت الكولونيل هنيل المقيم البريطانى فى الخليج الذى وجه تحذيرات إلى الشيـوخ فى ٥ يونيه ١٨٤٠ جاء فيها : «فليكن مـعلومًا أننا قد أنذرنا العامة[٢] أن كل أحد من المشـايخ الداخلين فى سلك الصلح البـحرى مع جناب حـضرة السركـار بهادور يعطى لـسعد بن مطـلق مكانًا عنده يقع الخلل فى صداقته مع حضرة السركار ذى الاقتدار ولا يلومن إلا نفسه»[٣]. ونجح هنيل فى الحصـول على تعهدات من شـيوخ الساحل بعـدم التعاون مع سـعد بن مطلق أو خورشيد باشـا إذ إن هذا التعاون يعد خرقًا صريحًـا لروابط الاتحاد والصلح القائم بينهم وبين الحكومة البريطانية. وكان أبرز الشيوخ الذين كتبوا هذه التعهدات الشيخ خليفة بن شـخبوط شيخ بنى ياس ومكتوم بن بطى حـاكم دبى وسلطان بن صقر شيخ القـواسم، ولم تكن هذه التعهدات إلا مـقابل وعد شفـهى بأن يمد أولئك الشيوخ بآلات الحرب ومعدات القتال إذا ما اقتضت الضرورة ذلك[٤].

كذلك امتدت التحركات البريطانية إلى قبائل النعيم فى قطر الذين ظلوا على موقفهم المعارض من تقدم القوات المصـرية على عكس قبائل البوكوارة التى أخذت تدفع الزكاة إلى شيخ البـحرين لصالح القوات المصرية. ومما تجـدر الإشارة إليه أن الصدام بين القوات المصـرية وبريطانيا كاد أن يحدث فى منطقة السـاحل العمانى، ويتضح ذلك من رسالة بعث بها خورشيد باشا إلى محمد على يؤكد فيها أن هدف الإنجليز الاسـتيـلاء على الخليج العربى لينفـذوا إلى فارس ويشكلوا عـقبـة أمام روسيا، ويتساءل خورشيد باشا فيما يجب عمله ضد الإنجليز، ولكن محمد على

(١) Hennell to the Govt. of Bombay 12th Feb. 1939, Enclosure No. 6 from Molla Husse-in, The Native Agent of Sharga to the Resident in The Pesian Gulf 14th January 1839.
F.O. 78/336.
راجع الأرشيف السابق

(٢) الشيوخ الذين اشتركوا فى توقيع معاهدة السلام العامة فى يناير ١٨٢٠ .

(٣) من هنيل إلى سلطان بن صقر ربيع آخر ١٢٥٥هـ (٥ يونية ١٨٤٠) وثائق القاهرة محفظة رقم ٢٧٠ حجاز ١٢٥٥هـ المرفق العربى للوثيقة ١٩٤ حمراء .

(٤) وثائق القاهرة (القلعة سابقا) - محافظ الحجاز ١٢٥٥هـ محفظة رقم ٢٦٧ حجاز صورة المرفق العربى المؤرخ فى ١٧ جمادى الأخرى ١٢٥٥ - من هنيل بالبوز خليج العرب إلى خورشيد باشا سر عسكر نجد.

وكان متورطًا فى مشاكل الشام كتب إليه فى سبتمبر ١٨٤٠[١]. بأن الوقت أصبح غير مناسب للتدخل فى شئون البحرين والساحل وأنه يتعين عليه العودة إلى مصر ويغلق باب المصروفات الذى فتحه فى نجد بعد أن يترك عليها خالد بن سعود. ولعل محمد على كان يأمل باتخاذ قرار الانسحاب من منطقة الخليج العربى كسب ود بريطانيا لكى تغض الطرف عن مشروعاته التوسعية فى الشام وهو أمل لم يتحقق له بطبيعة الحال.

وقبل أن نعرض للعوامل التى أدت إلى انسحاب القوات المصرية من الخليج والجزيرة العربية قد يكون من المفيد أن نشير إلى أن التوسع المصرى كان يضع الكويت ضمن مخططاته العسكرية على الرغم من أن النشاط المصرى لم يتضح فى الكويت بالقدر الذى كان عليه فى الإحساء والبحرين ومنطقة الساحل العمانى وسلطنة مسقط. ولكن من الثابت أنه حينما وصلت القوات المصرية بقيادة خورشيد باشا إلى سواحل الإحساء فى عام ١٨٣٨ أرسل خورشيد باشا مندوبًا عنه ليقيم فى الكويت على أنه وكيل لشراء الامدادات اللازمة للقوات المصرية، ولا شك أن خورشيد باشا كان فى حاجة شديدة إلى الاستعانة بسفن الكويت التى كانت مجهزة تجهيزًا طيبًا وإن لم يثبت مع ذلك استفادة القوات المصرية بالأسطول الكويتى باستثناء شحنة واحدة من الذخيرة والعتاد نقلتها سفن الكويت إلى القوات المصرية خلال وجودها فى الإحساء من ميناء الحديدة على ساحل البحر الأحمر[٢]. على أنه لم يلبث أن اتضح الهدف الحقيقى من إقامة الوكيل المصرى بالكويت وهو أن يكون مبعوثًا سياسيًا وجامعًا للأخبار المتعلقة بإمكانية نجاح خطة خورشيد باشا فى تطويق العراق بقوات من الإحساء والكويت بالإضافة إلى القوات المصرية فى الشام بهدف انتزاع العراق من الدولة العثمانية[٣]. وقد استرعى وجود المندوب المصرى فى الكويت نظر الإنجليز، ولما كان الشيخ جابر بن الصباح حاكم الكويت ١٨١٣ ـ ١٨٥٩ يحرص على علاقات حسن الجوار مع الدولة العثمانية والصلات الودية مع الحكومة البريطانية فقد آثر الوقوف على الحياد وإن لم يمنع ذلك من أنه منح المندوب المصرى مكانة خاصة فى مجلسه كما أبدى فى

---

(١) وثائق القاهرة (القلعة سابقًا) ـ محافظ الحجاز محفظة رقم ٢٦٧ حجاز من خورشيد باشا إلى الباشمعاون الخديوى ٣ شعبان ١٢٥٥هـ وثيقة رقم ٣٩ أصلية و ٧ حمراء.

(٢) ج . ج لوريمر : دليل الخليج جـ ٣ ص ١٥١٥ .

(٣) جمال زكريا قاسم : موقف الكويت من التوسع السعودى فى نجد وسواحل الإحساء العدد ١٧ من مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ص ص ٩٩ ـ ١٠٠ .

بعض المناسبات تعاطفاً إزاء التقدم المصرى فى سواحل الخليج العربى[1]. وتذكر بعض المصادر أنه حدث خلال وجود المندوب المصرى فى الكويت أن عامل الشيخ جابر مسئولاً بريطانيا وهو الليفتنانت إدمونتلز Edmonds معاملة تجافى اللياقة وذلك أثناء زيارته للكويت من أجل مفاوضة حاكمها بشأن إنشاء خط حديدى يعبر صحراء نجد بين الكويت والبحر المتوسط. وتضيف تلك المصادر أن حكومة الهند لم تجد مع ذلك ما يلزم تأنيب الشيخ على تصرفه هذا مبررة أن الأمر لم يصدر عن نوايا سيئة ولكن بهدف خداع الوكيل المصرى . وإن كنا بطبيعة الحال لا نتفق مع ذلك التبرير إذ إن شيخ الكويت لم يختلف عن بقية شيوخ ورؤساء الخليج فى ترحيبه بالتقدم المصرى تخلصاً من الضغوط البريطانية من ناحية وتعاطفاً مع القوات المصرية من ناحية أخرى أو على الأقل تقديراً لما أحرزته تلك القوات من انتصارات كبيرة فى أواسط الجزيرة العربية .

وعلى الرغم من التقدم الذى أحرزته القوات المصرية فى سواحل الخليج العربى إلا أن الأوضاع المتأزمة فى نجد واغتيال مندوب خورشيد باشا فى البحرين[2]، وعدم استطاعة إرسال المزيد من القوات العسكرية إلى الإحساء بسبب عدم مقدرة السفن المصرية من الوصول إلى الخليج العربى بسبب احتلال الإنجليز لميناء عدن فى عام ١٨٣٩، كانت من أهم الأسباب التى أدت إلى الانسحاب المصرى من سواحل الخليج العربى، هذا بالإضافة إلى عوامل أخرى من بينها ما تردد فى بعض المصادر من كثرة الأوامر المشددة التى كان يطلب فيها محمد على من خورشيد باشا ضرورة الانسحاب مما دعا البعض إلى التشكيك فى غيرة محمد على من قائده خورشيد باشا وما حققه من انتصارات متوالية مما جعله يفكر فى ضرورة الحد من نشاطه ومطالبته بالعودة إلى مصر[3]. ولعل ما ذهبت إليه تلك المصادر كان بسبب أن الانسحاب المصرى من الخليج والجزيرة العربية حدث قبل أن تجبر مصر على الانسحاب من المناطق التى توسعت فيها بمقتضى اتفاقية لندن ١٨٤٠ والفرمانات الصادرة على أساسها والتى وضعت نهاية لمخططات محمد على التوسعية ولتطلعاته فى إنشاء امبراطورية عربية تمتد من النيل إلى الفرات،

---

(١) Earl Brampton to J.W. Parren 28th August 1841 F.O. 78/469.

عن الأرشيف الأوربى بوثائق القاهرة محفظة رقم ١٢ .

(٢) عن اغتيال محمد أفندى رفعت مندوب خورشيد باشا فى البحرين راجع ابن بشر : عنوان المجد فى تاريخ نجد جـ٢ ص٨٧، وعبد الرحيم عبد الرحمن : محمد على وشبه الجزيرة جـ٢ القاهرة ١٩٨١ ص ٥٩.

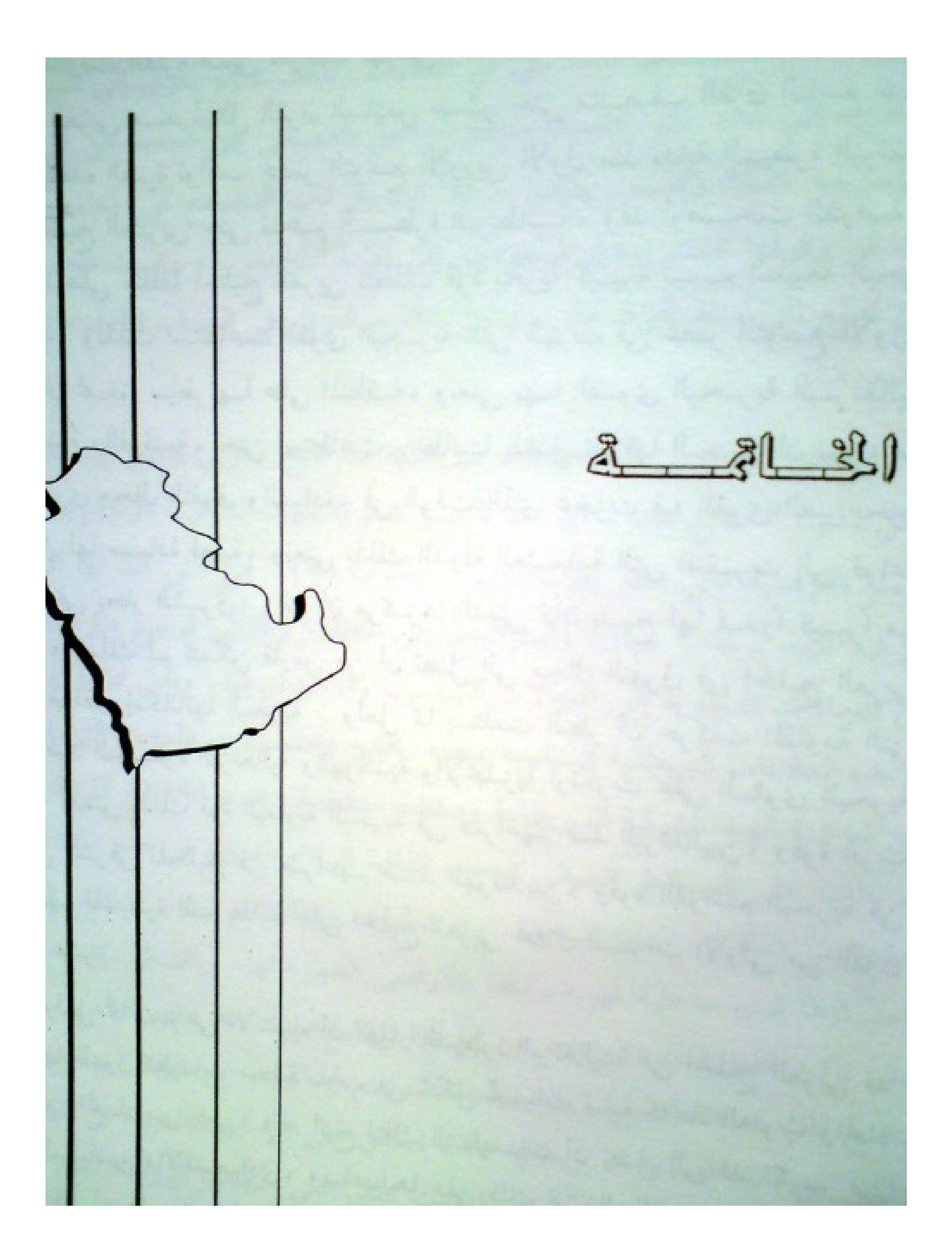
(٣) ج . ج لوريمر : دليل الخليج العربى جـ ٣ ص ص ١٤٤٠/ ١٤٤١ .

وذلك بعد أن توالت الهزائم على الجيش المصرى من قبل قوات التحالف المشتركة من الدولة العثمانية والنمسا وبريطانيا .

على أنه مما تجدر الإشارة إليه أن انسحاب القوات المصرية من الخليج والجزيرة العربية قد أوجد فراغًا كبيرًا،وفى منطقة الخليج لم تتمكن الدولتان الإسلاميتان الكبيرتان ـ فارس والدولة العثمانية ـ أن تقوما بملء هذا الفراغ، فعلى الرغم من أن فارس كانت تجد تأييدًا من روسيا فى مناوأة النفوذ البريطانى فى الخليج إلا أن فشلها فى السيطرة على هيرات ـ وهى منطقة جبلية صغيرة تقع على الحدود الهندية الأفغانستانية ـ واستيلاء الإنجليز على جزيرة خرج ١٨٣٨ الواقعة فى المدخل الشمالى للخليج بالقرب من مصب شط العرب ، وبقاء الاحتلال البريطانى فى تلك الجزيرة حتى عام ١٨٤٢ قد أبعدت فارس عن أن يكون لها دور ملموس فى وراثة التوسع المصرى فى منطقة الخليج ، أما عن الدولة العثمانية فقد كانت منشغلة بتنظيماتها الداخلية وبمشاكلها الخارجية، كما أن الإمارات العربية فى الخليج وصلت إلى درجة كبيرة من الضعف والتفكك بحيث لم تستطع أن تسد جانبًا من هذا الفراغ بما فى ذلك سلطنة مسقط التى انصرف عاهلها إلى زنجبار، ولم تعد هناك قوة محلية يعتد بها سوى القوة السعودية التى أتيحت لها الفرصة للاستفادة من الأوضاع السياسية التى أعقبت انسحاب القوات المصرية من الخليج العربى، وقد ظهرت تلك القوة على أثر انبعاث الدولة السعودية الثانية بعد أن وضع السعوديون نهاية لحكم الأمير خالد بن سعود الذى اعتبر صنيعة للمصريين، وتولى الحكم عبد الله بن ثنيان فى عام ١٨٤٢[١]، ثم خلفه الإمام فيصل بن تركى الذى امتد حكمه من عام ١٨٤٣ إلى ١٨٦٥، ورغم محاولة الدولة السعودية الثانية التوسع فى سواحل الخليج إلا أن بريطانيا وقفت حائلا دون امتدادها إلى الإمارات العربية المرتبطة بمعاهدات وعلاقات خاصة معها، كما عملت فى الوقت نفسه على تأكيد نفوذها السياسى فى منطقة الخليج بصورة أقوى مما كانت عليه فى النصف الأول من القرن التاسع عشر[٢].

(١) وثائق الحكومة السعودية : التحكيم لتسوية النزاع الإقليمى بين مسقط وأبو ظبى وبين المملكة العربية السعودية ـ العرض التاريخى جـ١ ص ص ١٨٠ ـ ١٨١ .

(٢) Hoskins, Background of the British Posistion in Arabia, M.E.J. April 1947 pp. 138 - 143 .



الخاتمة

تناولت الفترة التى تعرضنا لها فى هذا الكتاب تاريخ الإمارات العربية فى الخليج العربى منذ أوائل القرن السادس عشر حتى منتصف القرن التاسع عشر تقريباً وهذه الفترة تواكب عصر التوسع الأوربى الأول منذ بداية السيطرة البرتغالية على الخليج العربى حتى تدعيم السيطرة البريطانية، وقد أوضحت الدراسة أن السيطرة على منطقة الخليج العربى تتطلب قوة بحرية كبيرة بسبب الطبيعة البحرية للمنطقة، ولذلك استطاعت القوى البحرية التى ظهرت فى عصر التوسع الأوربى الأول أن تحقق سيطرتها على المنطقة، ونعنى بها القوى البحرية البرتغالية والهولندية والفرنسية، حتى استطاعت بريطانيا بفضل تفوقها البحرى أن تنتزع من تلك القوى مجال التفوق والسيادة، فى الوقت الذى عجزت فيه القوى الغير بحرية أن تحقق لها سيادة فعلية، ونعنى بذلك الدولة العثمانية التى افتقرت إلى قواعد بحرية فى بحار الشرق؛ رغم أن مركزها الدينى كان يتيح لها قدراً كبيراً من النجاح، كذلك لم تتمكن فارس من أن تصل إلى مجال التفوق فى الخليج العربى بسبب ضعف إمكاناتها البحرية . ولعل مما يستلفت النظر أن حركات المقاومة التى قامت ضد السيطرة البرتغالية والهولندية والإنجليزية ارتكزت على القوى البحرية أيضاً ، ونعنى بذلك قوة اليعاربة البحرية فى صراعهم ضد البرتغاليين، وقوة عرب الساحل الشرقى للخليج فى صراعهم ضد الهولنديين، وقوة القواسم البحرية فى مواجهتهم للسيطرة البريطانية على الخليج العربى خلال السنوات الأولى من القرن التاسع عشر .

ولعل مما يسترعى الانتباه أن انهيار السيطرة البرتغالية فى الخليج العربى قد نتج عنها ظهور تنظيمات محلية بدأت فى شكل تجمعات قبلية كاتحاد العتوب واتحاد القواسم واتحاد بنى ياس، وقد أتيح لتلك التنظيمات أن تصل إلى قدر كبير من النمو السياسى والاقتصادى، وساعدها على ذلك انشغال القوى الأوربية التى ظهرت فى أعقاب السيطرة البرتغالية بالتنافس الذى قام فيما بينها، ولكن هذه التجمعات القبلية لم تلبث أن تفرقت إلى مجموعات من التشكيلات الأقل حجماً بسبب طبيعتها القبلية من ناحية، ولتعاملها مع القوى الاستعمارية من ناحية أخرى، إذ كان من الطبيعى أن تقف بريطانيا - حين بدأت تنفذ إلى الخليج العربى

ضد حركات التجمع السياسى فى المنطقة، ولذلك فإنه يعزى إلى السياسة البريطانية إلى حد كبير تفتيت منطقة الساحل العمانى إلى العديد من الوحدات السياسية، كذلك وقفت بريطانيا حائلاً ضد حركات التجمع فى المنطقة ويتضح ذلك فى وقوفها ضد امتداد السعوديين إلى الإمارات العربية، وضد محمد على حين تطلع إلى بسط نفوذه على سواحل الخليج العربى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر.

وعلى الرغم من أن العلاقات البريطانية بالخليج العربى يمكن إرجاعها إلى أوائل القرن السابع عشر؛ أى منذ تأسيس شركة الهند الشرقية الإنجليزية إلا أن الحملة الفرنسية على مصر بقيادة نابليون بونابرت ١٧٩٨ هى التى كان لها أثر كبير فى شد انتباه بريطانيا سياسيًا واستراتيجيًا إلى المنطقة، وبالتالى توسيع دائرةاهتمامها من المجالات التجارية إلى المجالات السياسية والاستراتيجية. ولعل مما يؤكد ذلك أن بدء العلاقات البريطانية السياسية بمنطقة الخليج وضحت فى المعاهدة التى أبرمت بين شركة الهند الشرقية البريطانية وسلطنة مسقط فى عام ١٧٩٨، ثم بالسيطرة البريطانية على الساحل العمانى بموجب اتفاقية السلام العامة فى عام ١٨٢٠ وما أعقبها من اتفاقيات الهدنة البحرية. وقد تعاملت بريطانيا مع إمارات الخليج العربى باعتبارها قوى ساحلية غير مرتبطة بالأراضى الظهيرة لها، وبالتالى كانت تعمل على تأكيد فصل تلك الإمارات عن أية قوة داخلية فى أواسط الجزيرة العربية وربما يتضح ذلك خلال صراع بريطانيا ضد القواسم إذ اتجهت إلى تحييد السعوديين، وليس من باب الصدفة أن بريطانيا كانت تطلق على الإمارات العربية فى الساحل العمانى اسم المشيخات البحرية، كما كانت تطلق على حكامها الرؤساء البحريين. ولعل دراستنا لتاريخ السيطرة البريطانية على إمارات الخليج العربى تتطلب ضرورة إعادة النظر حول كثير من المفاهيم وعلى سبيل المثال أن السلام البريطانى الذى كانت بريطانيا تفخر بتحقيقه فى منطقة الخليج العربى كان سلامًا من أجل المصالح البريطانية وليس من أجل صالح المنطقة، وأن أعمال القرصنة التى ذكرت فى كثير

من المصادر الأجنبية لم تكن إلا محاولات يائسة قامت بها القوى البحرية المحلية لكى تحقق لنفسها أسلوبًا من الحياة فى خضم المنافسات الاستعمارية و التجارية الكبرى التى لم تكن قادرة على مواجهتها .

وعلى الرغم من أن الفترة التى عالجناها فى ذلك الكتاب كانت بطبيعتها فترة تسلط استعمارى إلا أنه أمكننا مع ذلك تسجيل بعض الصفحات المشرقة لأبناء المنطقة فى كفاحهم ضد السيطرة البرتغالية والهولندية وفى تصديهم للوجود البريطانى وفى محاولتهم تأسيس كيانات خاصة بهم واكساب الخليج شخصيته العربية، وكان ذلك بفضل موجات الهجرة التى اندفعت من أواسط الجزيرة العربية إلى سواحلها الشرقية ، وامتداد تلك الموجات إلى السواحل الشرقية للخليج العربى، وقد أكد على تلك الحقيقة الكثير من الرحالة الأوروبيين الذين جابوا سواحل الخليج الغربية والشرقية فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر .

ولعل مما ينبغى التركيز عليه استخلاصًا من تلك الدراسة إلى أهمية الوحدة فى تاريخ الخليج العربى إذ إن أزهى الفترات التاريخية تلك التى كانت تتمتع فيها القوى العربية فى الخليج بقدر من الوحدة السياسية والاقتصادية . كما أن استقراء الأحداث التاريخية يؤكد لنا أن الخلافات الطائفية والقبلية كانت أقصر الطرق للمخططات الاستعمارية فى المنطقة. وليست الخطورة فى استغلال القوى الاستعمارية لتلك الخلافات بل إن الخطورة تتفاقم حين تعمد القوى المحلية المتنافسة إلى الاستعانة بالقوى الخارجية لتصفية حساباتها فيما بينها . ولعل فى وقائع التاريخ ما يفيد القوى العربية والإسلامية فى منطقة الخليج العربى فى وقتنا الحاضر .



الملاحق

ملحق (أ)

البرتغاليون ·

ملحق (ب)

العلاقات الخارجية لسلطنة مسقط وعمان ·

ملحق (ج)

بريطانيا وإمارت الخليج العربى ·

ملحق (د)

محمد على وإمارات الخليج العربى ·

ملحق (أ)

البرتغاليون

ـ هرمز على عهد السيطرة البرتغالية

نورد فيما يلي مقتطفات عما أورده بعض الرحلة البرتغاليين عن مملكة هرمز في زمن خضوعها للسيطرة البرتغالية .

والنص الأول جاء فيما ذكره باربوسا عن بناء أفونسو البوكيرك للقلعة البرتغالية في هرمز وكيف استغل البرتغاليون الخلافات الداخلية في هرمز لتدعيم سيطرتهم .

أما النص الثاني فقد سجله بدرو تيكسيرا الذي قام برحلاته إلى الشرق بين عامي ١٥٨٦ و ١٦٠٥ . ويفهم من ذلك النص أن هرمز لم تفقد مكانتها التجارية ويدل على ذلك كثرة الرسوم الجمركية التي كان يجبيها البرتغاليين لحسابهم في هرمز وعلى ذلك فإنه من الخطأ المبالغة في أن البرتغاليين حولوا تجارة الشرق بكاملها إلى طريق رأس الرجاء الصالح إذ ظلت الطرق التقليدية القديمة مستخدمة في تجارة الشرق وإن كانت تحت السيطرة البرتغالية .

وقد نقلنا النصين التاليين عن الترجمة الإنجليزية لأعمال دورات باربوسا وبدروتيكسيرا .

خضوع هرمز للبرتغاليين

To this city of Ormuz came a fleet of the King our Lord of which the Captain in Chief was Afonso D'Albuquerque, he desired to have peace with them in all things but, they would not, seeing Afonso D'Albuquerque began to make war on this kingdom, more especially on the seaports, where he caused them great loss proceeding thus he came with the whole fleet to take the city of Ormuz itself in the harbour whereof he fought a mighty battle with a fleet of very great ships full of brave men and well armed. This fleet the Said Afonso D'Albuquerque defeated,

and took and sank many ships, also taking and burning many others which were an anchor hard by the walls of the city. The King and the Governor beholding such destruction of their people and ships and having no power to prevail against him, sued for peace, which the Captain in chief accepted on the condition that they should allow him to build a fortress on one point of city, to which they agreed. But when the building of the fort began, the Moors repented, and were not willingly that it should be carried further. Seeing this the Captain in chief bagan to do them so much harm, and to slay so many of their people, that he made them tributaries of the King our Lord at fifteen thousand Xerafins yearly, and this they always Pay.

A few years later the King and Governor of Ormuz sent an ambassador with great train to the king of our Lord, and with the reply which His Highness sent them Afonso D'Albuquerque came again with a very fine fleet to Ormuz, where they received him in all peace, agreed that he should finish the fortress, which he had begun before. He then ordered that it should be undertaken and made very large and strong as if it had been just now begun.

At this time the King, who is youth of no great age, seeing himself so oppressed by the dominion of the Governor that he dared not do anything of himself, found a way of letting the Cáptain in Chief know secretly how little liberty he had, and how the Governor kept him almost a prisoner taking by force the Governance of the Kingdom and delivering it over to the others who held it, and also how it seemed to him that letters had been sent to the Xeque Ismael, offering to betray the Kingdom to him.

The Captain in Chief when he knew this, kept it quite a secret and arranged to see the king, agreeing with him that the interview should take place in a certain large house close to the sea, The appointed day having

arrived, the Captain in Chief entered this house with ten or twelve Captains leaving his people draw up without, and every thing as it should be. The King and the Governor came with a great band of followers, and when the King had entered the house, and no other person had entered, the gates were at once shut, and as they went in the Captain in Chief ordered the Governor should be slain with dagger strokes. Seeing this the young King began to be angry, but Afonso D'Albuquerque told him not to fear, for what he had done was only to make him a King like the other Moorish Kings, and that he should no longer live in subjection. (1)

ـ الأوضاع الاقتصادية فى هرمز

And so the kings of Ormuz went on prospering such manner that they became rulers of all the Islands in this strait and all the country along the Coasts of Arabia as far as Lassa(2) and Catifa(3) and also others on the shore of Persia, by which they formed a very great rich and prosperous kingdom : principally because the trade of Cays Passed entirely to the Island that is now called Hormuz, wherefore Cays was utterly ruined, both in buildings and in wealth, so that is now totally deserted after having been a sterile and desert island, and a mountain of salt is, among all the wealthy countries of India, and of the wealthiest through the many and rich goods that come thither from all parts of India, and from the whole of Arabia and Persia as far as the territories of the Mogores,(4) and even from Russia in Europe I saw merchants to there and from Venice. And this inhabitants of Ormuz say that the whole world is a ring and Hormuz is the stone thereof. Wherefore it is commonly said that the custom

---

The Book of Durate Barbosa by Mansil Dames vol. I pp. 101 - 103 An Account of (١) the countries bordering on the Indian Ocean and their inhabitants written by Durate Barbosa and completed about the year 1518 .

(٢) الإحساء .

(٣) القطيف .

(٤) لعله يقصد امبراطورية المغول فى الهند .

house of Ormuz is conduit of silver that is always running. The last year[1] that I was in Hormuz having been there, the officials assured me that the custom house had yielded one hundred and fifty thousand pardaos for the King of Portugal beside what it is to be presumed is stolen by the Moors and the Goazil, who are officers of the customs house[2].

ـ مقتطفات مما أورده ابن إياس عن مواجهة السلطان قنصوه الغورى للبرتغاليين واستخدامه الضغوط الدينية من أجل ذلك بعد هزيمة ديو ١٥٠٩.

« . . . وفيه[٣] حضر إلى الأبواب الشريفة رهبان القيامة التى بالقدس وكان السلطان أرسل خلفهم بسبب الفرنج الذين قتلوا الأمير محمد بيك قريب السلطان ونهبوا ما فى المراكب التى جهزها السلطان صحبته فلما وقفوا بين يدى السلطان وبخهم بالكلام على لسان تغرى بردى الترجمان وقال لهم : كاتبوا ملوك الفرنج بأن يردوا ما أخذه الفرنج من المراكب والسلاح وإن لم يردوا ذلك هدمت القيامة وأشنق الرهبان فتسلمهم ناظرالخاص على ما يحرر من أمرهم وكانوا نحوا من عشرين راهبًا » .

ـ وأشيع قتل الأمير مقرن أمير عربان بنى جبر متملك جزيرة بين النهرين[٤] . إلى بلاد هرمز الأعلى وكان أميرًا جليل القدر معظما مبجلاً فى سعة من المال . وكان مالكى المذهب سيد عربان الشرق على الإطلاق وكان أتى مكة وحج فى العام الماضى وكان يجلب إلى مكة اللؤلؤ والمعادن الفاخرة من المسك والعنبر والخام والعود القمارى والحرير الملون وغير ذلك من الأشياء التحفة قيل إنه لما دخل إلى مكة والمدينة تصدق على أهل مكة والمدينة بنحو خمسين ألف دينار فلما حج

---

(١) ١٥٦٩.

(٢) The Travels of Pedro Teixiera with His Kings of Harmuz and Extracted from His kings of Persia - Translated by William F. Sinclair Hakluyt Society 1902 See appendix D, Relation of the Chronicle of the Kings of Ormuz pp. 265 - 266.

(٣) حوادث شهر رجب ٩١٦هـ ابن إياس : ج ٤ ص ١٩٥ .

(٤) البحرين .



ورجع إلى بلاده لاقته الفرنج فى الطريق وتحاربت معه فانكسر الأمير مقرن منهم وقبضوا عليه باليد وأسروه فسألهم أن يشترى نفسه منهم بألف ألف دينار فأبوا الفرنج من ذلك وقتلوه بين أيديهم ولم يغن ماله شيئًا وملكوا جزيرة بين النهرين وملكوا قلعتها التي هناك واستولوا على أموال الأمير مقرن وبلاده وكان ذلك من أشد الحوادث فى الإسلام وأعظمها وقد تزايد شر الفرنج على سواحل البحر الهندى والأمر لله تعالى(١) .

ـ الصراع العمانى البرتغالى

نورد فيما يلى نص مكاتبتين متبادلتين بين البرتغاليين والإمام سيف بن سلطان اليعربى وفيهما يتضح أسلوب البرتغاليين المتعنت والتحدى العنيف الذى قابل به عرب الخليج البرتغاليين . وقد نشر جيان هاتين المكاتبتين بعد ترجمتهما إلى اللغة الفرنسية، أما النصوص العربية فقد أوردها السالمى فى كتابه تحفة الأعيان بسيرة آل عمان .

رسالة من البرتغاليين إلى إمام عمان سيف بن سلطان

(١٦٩٨ ـ ١٧١١)

هذا كتاب من النصارى للإمام سيف بن سلطان اليعربى :

الحمد لله فاطر السموات والأرض ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه مختلفون .

اعلم بأننا جنود الله مخلوقون من سخطة مسلطون على من يحل عليه غضبه لا نرق لشاكى ولا نرحم عبرة باكى قد نزع الله الرحمة من قلوبنا فالويل كل الويل لمن لا يمتثل لأمرنا قد خربنا البلاد وأهلكنا العباد وأظهرنا فى الأرض الفساد فإن أعجبكم شرطنا كان لكم ما لنا وعليكم ما علينا وإن أنتم أبيتم وعلى بغيكم تماديتم فالحصون منا لا تمنع والعساكر لدينا لا ترد ولا تدفع لأنكم أكلتم الحرام وضيعتم الجمع فأبشروا بالذل والجشع اليوم تجزون عذاب الهوان بما كنتم تعملون فإن أعجبكم كلامنا أننا كفرة وقد صارعندنا أنكم فجرة قلوبنا كالجبال وعددنا

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور جـ ٥ ص ٤٣١ حوادث شهر محرم ٩٢٨هـ .

كالرمال كثيركم عندنا قليل وعزيزكم عندنا ذليل قد ملكنا الأرض شرقًا وغربًا . قد أرسلنا إليكم هذا الكتاب فأسرعوا برد الجواب قبل أن ينكشف الغطاء ولم تبق لكم باقية وينادى عليكم بالفناء هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ذكرا . وقد أنصفناكم وأرسلنا عليكم جواهر الكلام والسلام .

رد الإمام سيف بن سلطان على البرتغاليين

قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير . وقد حصل الوقوف علي هذه الكتبة الشاهرة لقولكم قد نزع الله الرحمة من قلوبكم فهذا من أقبح عيوبكم وأشد وأشنع وبغيتم وذكرتم إنكم كافرون ألا لعنة الله على الكافرين . ومن تعلق بالأصول فلا يبالى بالفروع . ونحن المؤمنون حقًا لا يصدنا عنكم عيب ولا يدخلنا شك ولا ريب . والقرآن علينا قد نزل فهو رحيم بنا لا يزل وخيولنا برية وبحرية وهممنا سامية عالية . إن قتلناكم فنعم البضاعة وإن قتلتمونا فبيننا وبين الجنة ساعة ﴿ **ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتًا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما أتاهم الله من فضله** ﴾ .

وقولكم قلوبكم كالجبال وعددكم كالرمال . الجزار لا يبالى بكثرة الغنم، وإن الله مع الصابرين . فنحن بالمنع عالية أمنية إن عشنا سعداء وإن متنا شهداء . ﴿ **ألا إن حزب الله هم الغالبون** ﴾ . ﴿ **لقد جئتم شيئًا إدًا تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال** ﴾ . فقل لصاحبك إذا رصع وشيد مقالته حصل الوقوف على هذا الكتاب كصرير باب وطنين ذباب ﴿ **سنكتب ما قالوا ونمد لهم من العذاب مدا** ﴾ . وما عندنا بعد ذلك إلا الخيل تمطر بالويل والنار مظهرة العار والسيوف مسقية بالحتوف والسلام على من اتبع الهدى وخشى عواقب الردى وأطاع الملك الأعلى واختار الآخرة على الأولى . والصلاة والسلام على خير الأنام محمد عليه أفضل الصلاة والسلام[1] .

---

(١) انظر الترجمة الفرنسية فى :
Guillain, Documents sur l'Histoire, La Geographie et le Commerce de L'Afrique Orientale Tome I. pp. 512 - 514.

ولمزيد من التفاصيل عن الصراع العمانى البرتغالى انظر المجلد الثانى من وثائق جيان =

ملحق (ب)

المعاهدات والعلاقات الخارجية لسلطنة مسقط وعمان

١ ـ رسالة من هلال بن أحمد إلى الكونت داستان الذى قام بمناورة عسكرية فى الخليج العربى عـام ١٧٥٩ يعتذر فيـها عن بعض التصرفـات التى حدثت من حاكم ميناء مسقط إزاء الفرنسيين(١) .

Je suis amis de Francais. Je me regarde comme fils de France vous avez Pris Le Monudy, Puis que vous avez grade le vaisseau, vous devries du moins, renvoyer les gens ce gens la ne sont pas esclaves pourquoi les garder avez vous? ils sont de pauvres miserables que vous deviez relacher. J'ai beaucoup blame le gouverneur de mon Port d'avoir on la hardiesse de rompre l'amitie qui etait entre les Francais et moi, Je vous demande Excuse, et Je offre mon port et tout ce qui dependra de moi l'eau, les boeufs.

Helal:

Fils de Roi

٢ ـ الاتفاقـية المبرمة بـين الكابتن جون مالكولم وسلطان بن أحـمد فى ١٨ يناير ١٨٠٠ بهدف تأكيد اتفاقية أكتوبر ١٧٩٨ .

Agreement entered into by the Imam of the State of Oman with Captain John Malcolm Bahadoor, envoy from the Right Honourable the Governor General. Dated 21st of Shabaan 1213 Hegira or 18th January 1800 (٢)

Article I

The Cowlnamah entered into by the Imam of Oman with Mehdy Aly Khan Bahadoor remains fixed and full force .

---

* Expose critique p. 518 ff

وعن النصوص العـربية انظر الـسالمى : تحـفة الأعيان بسـيرة آل عمان جـ ٢ ص ص ١٠٦ ـ ١٠٧ طبـعة القاهرة ١٣٤٧ هـ .

(١) Auxouz, France et Mascate pp. 6 - 7.

(٢) Aitchison, A Collection of Treaties, Engagements and Sanads relating to India and Neighbouring Countries, vol. XII pp. 208 - 209.

Article II

As improper reports of atendency to interrupt the existing harmony and create misunderstanding between the States have gone abroad, and have been communicated to the High Honourable the Governor General, the Earl of Mornington K.B.P. with a view to prevent such evils in future, We actuated by sentiments of reciprocal friendship, agree that an English gentelman of respectability, on the part of the Honourable Company shall always agent through whom all intercourses between the States shall be fairly and justly stated, and what no opportunity may be afforded to designing men who are over eager to promote dissentions and that friendship of the two states remains under shock till the Sun and Moon finished their revolving career.

Sealed in my presence John Molcolm (Envoy), approved by the Governor General in Council on 26th, April, 1801.

٣ _ معاهدة الصداقة والتجارة بين الولايات المتحدة الأمريكية وسلطان مسقط وتوابعه ١٨٣٣[1].

Treaty of Amity and Commerce between the United States of America and His Majesty Sayeed Saeed Bin Sultan and his dependencies.

Article I

There shall be a perpetual peace between the United States of America and His Majesty Saeed Bin Sultan of Muskat and His dependencies.

Article 2

The citizins of the United States shall have free liberty to enter all the ports of His Majesty Sayeed Saeed Bin Sultan, with their cargoes, of

(١) Ibid., vol. XII pp. CIZI-CIXIII. Bombay Govt., op. cit., vol. XXIV pp. 262-264.

whatever kind the said cargoes may consist, and they shall have liberty to sell the same to any of the subjects of the Sultan, or others who may wish to purchase the same or barter the same for any producers or manufactures of the Kingdom or the other articles that may be found there.

No price shall be fixed by the Sultan or His officers on the articles to be sold by the merchants of the United States, or merchandise they may wish to buy, but the terms shall be free on both sides to sell or buy or exchange on the terns and for the prices the owners may think fit, and whenever the said citizens of the United States may think to depart they shall be at liberty to do so, and if any officer of the Sultan contravene this article he shall be severley punished.

It is uderstood and agreed, however that the articles of the Muskets, powder and ball can only be sold to the government in the island of Zangubar, but in all other ports of the Sultan the said munitions of war may be freely sold without any restriction whatever to the highest bidder.

Article 3

Vessels of the United States entering any port within the Sultan's dominions shall pay no more than five percent duties on the cargo landed and this shall be in full consideration of all import and export duties, tonnage, license to trade, pilotage, anchorage, or any other charge whatever. Nor shall any charge whatever be paid on any vessel of the United States which may enter any of the ports of His Majesty's for purpose of refitting or for refreshments to inquire the state of market.

Article 4

The American Citizens shall pay no other duties export or import tonnage, license to trade, or other charges whatsoever than the nation of the most favoured shall pay.

Article 5

If any vessel of the Unites States shall suffer shipwreck on any port of the Sultan's dominions, the persons escaping from the wreck shall be given care and hospitality entertained at the expense of the Sultan, until they shall find an opportunity to be returned to their Country, for the Sultan can never receive any remuneration whatever for rendering succor to the distressed and the property save from such wreck shall be carefully preserved and delivered to the owner, or the Consul of the United States, or to any authorizid agent .

Article 6

The citizens of the United States resorting to the ports of the Sultan for the purpose of trade shall leave to land and reside in the said ports without paying any tax on the importation whatever for such liberty other than the general duties on imports which the most favoured nation shall pay .

Article 7

If any citizens of the United States or their vessels or other property shall be taken by pirates, and brought within the dominions of the Sultan the persons shall be set at liberty and property restored to the owner if he Would be present, or to the American Consul or to any authorized agent .

Article 8

Vessels belonging to the subjects of the Sultan which may resort to any port in the United States shall pay no other or higher rate of duties or other charges than the nation of the most favoured shall pay.

Article 9

The President of the United States may appoint Consuls to reside in the ports of the Sultan where principal commerce shall be carried on, which Consuls shall be exclusive judges of all disputes on suits wherein

American citizens shall be engaged with each other; they shall have power to receive the property of any American citizen dying within the Kingdom and to send the sums to his heirs, first payiny all his debts due to the subjects of the Sultan.

The Said Consuls shall not be arrested nor shall their property be seized, or any of their household be arrested, but their Persons and their property and their houses shall be inviolate. Should any Consul, however, consist any offence against the Imamm of the Kingdom, complaint shall be made to the President who will immediately displace him.

Concluded, Signed and Sealed at the Royal Palace in the city of Muscat, in the Kingdom of Oman, the 21st day of September, In the year one thousand eight hundred and thirty three of the Christian era. and the fifty seventh year of the independence of the United States of America.

Corresponding to the sixth day of the Month called Jumada el Al Awal in the year of the Higree one thousand two hundred and forty nine .

S.d. Edmund Roberts

ملحق (ج)

بريطانيا ومشيخات الساحل العماني

١ ـ قولنامة (اتفاقية) وقعت فى ميناء بندر عباس بين الشيخ عبد الله بن كروش نيابة عن الشيخ سلطان بن صقر بن راشد والكابتن دافيد سيتون نيابة عن شركة الهند الشرقية فى ٦ فبراير ١٨٠٦ وأكدها سلطان بن صقر بتوقيعه ووافق عليها حاكم بومباى فى ٢٩ أبريل ١٨٠٦ . وقد عقدت هذه الاتفاقية فى أعقاب الحملة البريطانية على القواسم فى عام ١٨٠٥ . وتتميز باحتفاظ القواسم بزعامتهم الموحدة حيث وصف الشيخ سلطان بن صقر بكونه شيخ وأمير القواسم وذلك على خلاف الاتفاقيات التالية التى عقدتها شركة الهند الشرقية البريطانية مع شيوخ الساحل بعد تفكيك الاتحاد القاسمى فى عام ١٨٢٠ حيث أصبح يطلق على كل مشيخة اسم المنطقة التى آلت إليها[١] .

---

(١) عن هذه الاتفاقية وغيرها من الاتفاقيات الخاصة بعلاقة بريطانيا بمشيخات الساحل العمانى انظر المجلد =

Coulnamah or Agreement between Sheikh Abdulla Bin Croosh, on the part of Sheikh Ameer Sultan Bin suggur Bin Rashid Joasmee, and Captain David Seton, on the part of the Honourable East India Company in Bunder Abbas, this 6th day of February 1806 .

Article 1

There shall be peace between the Honourable East India Company and Sultan Bin Suggur Joasmee and the whole of the dependants and subjects on the shores of Arabia and Persia, and they shall respect the flag and property of the Honourable East India Company and their subjects wherever and in whatever it may be, and the same the Honourable East India Company towards the Joasmmee .

Article 2

Should the Joasmmee infringe the above, they shall be liable in the sum of dollars 30,000 and on this Condition Captain David Seton agrees to receive from Ameer Sultan Bin Suggur the Brig now laying at Muscat, and to drop the claims to the cargo, guns, etc. of the said vessel and the Shanon .

Article 3

Whatever British property shall be found in the Sorie fleet shall be restored .

= العاشر فارس والخليج الفارسى من مجموعة معاهدات ايتشيسون طبعة كلكتا عام ١٨٩٢ وكذلك :
Hughes, Thomas, Treaties, Agreements and Engagments between the Honourable East India Company and the Native Princes, Chiefs and States in Western India, The Red Sea, The Persian Gulf etc. also between Her Britanic Majesy's Govt. & Persia Portugal, Turkey Compiled under instructions of Govt. of Bombay, 1851 pp. 21 - 35
See also: Copies of Treaties and Agreements entered into by the Honourable East India Company with the Arab tribes of the Persian Gulf (Annex to Kempall Report S.R.B..G. vol. XXIV p. 80 ff Bombay 1856 .

(١) المقصود بالدولار ريال ماريا تريزا وهو العملة التى كانت سائدة فى منطقة الخليج العربى .
(٢) اسمان لسفينتين كان قد استولى عليهما القواسم فى عملياتهم ضد الإنجليز .

Article 4

Should any British vessel touch on the coasts of the Joasmee for wood or water or be forced on shore by stress of weather, or any other cause the Joasmee shall assist and protect the said vessel and property and permit it be disposed of or carried away as their owners shall see fit without claim or demand.

Article 5

Should Johood[1] Compel the Joasmee to infringe this peace, they shall give three months previous notice in all places .

Article 6

When the above is confirmed and ratified by both parties, the Joasmee shall frequent visit the English ports from Surat to Bengal as be-fore .

S.D. David Seton

Sealed Abdullah Bin Croosh

٢ ـ المعاهدة العمومية مع الأقوام العرب في خليج فارس في سنة ١٨٢٠ ع[٢]

عقدت هذه المعاهدة بين بريطانيا وشيوخ الساحل الجنوبى للخليج العربى عقب الحملة البريطانية التى دمرت رأس الخيمة معقل القواسم فى عام ١٨١٩ .

وتعتبر هذه المعاهدة الأساس الذى ارتكز عليه النفوذ البريطانى فى المنطقة، إذ أنها كرست أوضاع التفكك والتجزئة فهى لم تعقد بين بريطانيا وقوة موحدة وإنما بين بريطانيا و «الطوائف» العربية فى الخليج. وتتميز هذه المعاهدة بمجموعة من الأنظمة والإجراءات البحرية التى كانت وسيلة لضرب القوى البحرية المحلية بحجة المحافظة على الأمن والسلام البريطانى. وقد آثرنا أن نعرض لتلك المعاهدة بنصها العربى رغم ترجمتها الركيكة للتعرف على نموذج للنصوص العربية لتلك المعاهدات[٣].

---

(١) واضح أنه يوجد هنا خطأ فى اسم الأمير السعودى وصحته Saud وهو الأمير سعود أمير الدولة السعودية الأولى ١٨٠٣ ـ ١٨١٣ .

(٢) يرمز حرف ع إلى التاريخ العيسوى أو الميلادى .

(٣) مما يستلفت النظر أن قسم شئون الدولة بحكومة الهند قد نشر بعض الترجمات العربية للاتفاقيات والتعهدات التى عقدتها بريطانيا مع شيوخ الخليج إلى جانب النصوص الإنجليزية وذلك ضمن المجموعات الوثائقية التى نشرت بين عامى ١٩٠٦ و ١٩١٤ انظر :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى جعل الصلح خيرا للأنام وبعد فقد صار الصلح الدائم بين دولة سركار الإنكريز وبين الطوائف العربية المشروطين على هذه الشروط :

الشرط الأول: أن يزال النهب والغارات فى البر والبحر من طرف العرب المشروطين فى كل الأزمان .

الشرط الثانى: إن تعرض أحد من قوم العرب المشروطين على المترددين فى البر والبحر من كافة الناس بالنهب والغارات بلا حرب معروف فهو عدو لكافة الناس فليس له الأمان علي حاله ولا ماله والحرب المعروف هو الذى مناداً به مبين مأمور به من دولة إلى دولة وقتل الناس وأخذ المال بغير به مناد وتبين وأمر دولة فهو النهب والغارات.

الشرط الثالث: إن العرب المصالحين لهم فى البر والبحر علم أحمرفيه حروف أو بلا حروف على مطلوبهم وهو فى كفه أبيض وعرض الأبيض الذى فى الكفة يعادل عرض الأحمر كما هو مصور فى الحاشية وإن هذا هو علم العرب المصالحين فيستعلمون به ولا يستعلمون بغيره .

الشرط الرابع: إن الطوايف المصالحين كلهم على حالة الأوان إلا أنهم صار الصلح بينهم وبين دولة سركار الإنكريز وأن لا يحارب بعضهم بعضاً والعلم هو الشاهد على ذلك فقط وليس هو شاهد على غيره .

الشرط الخامس: إن مركب العرب المصالحين كلهم بأيديهم قرطاس مرشوم بخط أميرهم فيه اسم المركب وطوله وعرضه وكم يحمل من كارة وبأيديهم أيضا مكتوب آخر مرشوم بخط أميرهم فيه اسم صاحب المركب واسم الناخداة وعدد

Government of India (Department of State) Treaties and Engagements inforce between the British Government and the Trucial Chiefs (Calcutta, 1906), Treaties and Undertakings between the British Government and the Rulers of Muscat and Oman (Calcutta, 1914) -

راجع أيضاً النصوص الإنجليزية فى مجموعة معاهدات أيتشيسون :

A Collection of Treaties, Engagements and Sanads relating to India and Neighbouring Countries vol. X Persian Gulf Calcutta, 1982.

الرجال وعدد السلاح ومن أين سار وفى أى وقت وإلى أى بندر يتوجه فإن تعرض لهم مركب من الإنكريز أو غيرهم يعرضون عليه القرطاس والمكتوب .

الشرط السادس: إن العرب المصالحين إن كان مرادهم يرسلون رسولاً إلى سركار الإنكريز فى بحر الفارس ومعه الذى يحتاج إليه فيجلس مع السركار حتى يقضى غرضهم منه وسركار الإنكريز إن كان مراده يرسل رسولاً أيضاً إلى عندهم كذلك والرسول يلحق خطه إلى خط أميرهم فى قرطاس مراكبهم المذكور الذى فيه طول المركب وعرضه وكم يحمل من كارة وينبغى خط الرسول يتجدد فى كل سنة وأيضاً كل من المرسولين خرجه على قومه .

الشرط السابع: إن كان طايفة أو غيرهم لا يزالون من النهب والغارات فالعرب المصالحون يقومون عليهم على قدر حالهم ويصير بين العرب المصالحين وبين الإنكريز كلام فى ذلك فى وقت وقوع ذلك النهب والغارات .

الشرط الثامن: إن قتل الناس بعد تسليم السلاح فهو من الغارات ولا من الحرب والمعروف وإن كان طائفة يقتل الناس مسلمين أو غيره بعد تسليم السلاح فهو قد أخلف الصلح فإن العرب المصالحين مع الإنكريز يقومون عليهم وإن شاء الله تعالى فلا يزال عليهم الحرب إلا بعد تسليم من فعل بذلك وحكم به .

الشرط التاسع: إن نهب الرقيق الرجال والنساء والأولاد فى سواحل السودان أو غيره وحملهم فى المراكب فهو من النهب والغارات فالعرب المصالحون لا يفعلون من ذلك شيئاً .

الشرط العاشر: إن مراكب العرب المصالحين الحاملة علمهم المذكور يدخلون فى كل بنادر دولة سركار الإنكريز وفى بنادر رفيقهم على قدرهم يشترون ويبيعون فيها وإن كان أحد تعرض لهم فذلك على سركار إنكريز .

الشرط حادى عشر: إن هذه الشروط المذكورة فهى على جميع الطوايف والناس يقبلونها فى المستقبل كما قبلوها فى الحين تم الشروط .

تم التحرير القول فى رأس الخيمة بثلاثة نسخ فى تاريخ ظهر يوم السبت اثنين وعشرين من شهر ربيع الأول فى سنة ١٢٣٥ الهجرية مائتين خمسن وثلاثين

بعد الألف ورشموه المشروطون فى الأماكن والتواريخ المكتوبة ذيلاً فرشموه فى رأس الخيمة فى تاريخ تحرير القول[1].

خط السردار بيده وخاتمه كتبه حسن بن رحمة بيده كتبه قضيب بن أحمد بيده .

S .B .W. Grant Keir

Major General

ملحق (د)

محمد على وإمارات الخليج العربى

١ ـ مكاتبة صادرة من محمد على إلى الصدر الأعظم بتاريخ ١٣ رمضان ١٢٣٦ (١٥ يونيه ١٨٢١)[2]. حول التحركات الإنجليزية فى سواحل الخليج والجزيرة العربية وفيها يحذر محمد على الصدر الأعظم بعدم التغافل عن تلك التحركات ويطلعه على التحالف القائم بين سلطان مسقط والإنجليز وعن الحملة البريطانية على القواسم وبنى بوعلى فى جعلان .

حضرة سلطانى ومولاى صاحب الدولة والعناية والعطوفة والرأفة والأبهة ولى النعم العالى الهمم الكثير اللطف والكرم .

كان حرر من مقام الصدارة سابقًا إلى صوب عبدكم أنه حيث سمع وقوع تعرض الإنجليزى لطرف مخا يلزم مد أنظار البصيرة إلى حوالى مخا وأفيد أيضًا من طرف خادمكم بعض الكيفيات المتعلقة بهذا الشأن وأنه يجرى العمل على مقتضى الإرادة السنية وقد صار معلومًا لخادكم مضمون ما حرر بالآخرة من طرف

---

(١) تضمنت الاتفاقية توقيعات وأختام الشيخ شخبوط بن سعيد فى ٢٥ ربيع أول ١٢٣٥ والشيخ حسين بن على ٢٩ ربيع أول ١٢٣٥ وزايد بن سيف من طرف محمد بن هزاع شيخ دبى وقع فى الشارقة فى ١٢ ربيع الثانى ١٢٣٥ وتوقيع سلطان بن صقر فى الشارقة بتاريخ ١٢ ربيع الثانى ١٢٣٥ والسيد عبد الجليل بن السيد حسين الوكيل عن الشيخ سلمان بن أحمد والشيخ عبد الله بن أحمد آل خليفة شيخى البحرين فى عشرين ربيع الثانى ١٢٣٥ ثم وقعها عبد الله بن أحمد فى ٩ جمادى الأولى فى البحرين وتوقيع راشد بن حميد وعبد الله بن راشد فى ٢٩ جمادى الأولى ١٢٣٥هـ .

(٢) مقيدة فى الدفتر رقم ٤ ص ٦٣ من محفوظات دار المحفوظات العمومية ومترجمة عن اللغة التركية ، وثائق القاهرة، ملف الحجاز ١٢٣٦هـ .

قائمقاكم العالى صاحب العطوفة عبدكم صالح باشا أنه أفيد فى مضمون ترجمة الخطاب العربي الوارد فى الحالة الحاضرة من طرف متسلم البصرة والمقدم من طرف حضرة صاحب العطوفة والى بغداد[1]، أن طائفة الإنجليز أقلعوا من مرفأ بومباى بست سفن وبعد أن أقاموا فى المحل المسمى مسقط توجهوا إلى المحل المدعو جعلان الذى يقطنه قبيلة بنى أبى على من توابع الجواسم تحت مسقط وأتى أيضا إمام مسقط السيد سعيد برا إلى جعلان فاحتلوا بالاتفاق مع الإنجليز قلعة جعلان وأخلوها وبعد ذلك جمع قبيلة بنى أبى على المذكورة عساكر واستردوا القلعة المذكورة وأعدم قائد واحد من قواد الإنجليز فى مرفأ مخا فجهز الإنجليز لأجل ذلك عساكر وافرة وأرسلوهم بالقوارب إلى جانب مخا فإذا تردد أهالى مخا فى تسليم قاتل القائد المذكور تتصدى إنجلترا للتحرب والقتال وقد تجمع أهل نجد كما فى السابق فى المحل المدعو قصيم وفى بعض المحلات فى تلك الحوالى وهم يتجهزون وأرسلت ست سفن للاستيلاء على بعض المحلات الصغيرة فى طرف اليمن كما استبان ذلك من الورق الوارد من القنصل (باليوس) فى أبوشهر المستر بروس إلى وكيله فإذا استولى الإنجليز على تلك الجهات يسهل مجيئه من بحر السويس إلى ذلك الجانب فلا يبعد من الملاحظة إذ ذاك أن يحدث فتنة وأنه خلال ذلك قد حرر من طرف ملك إنجلترا للإعلان فى الأطراف والأكناف أنه قد عين قائد من طرف دولة إنجلترا لأخذ الثأر ببيان أنه دفع نهب أموال طائفة الإنجليز وأشيائهم والإغارة عليهم والمسارعة إلى الظلم والمضايقة عليهم من طرف حاكم مرفأ مخا الذى هو تحت تصرف إمام صنعاء من توابع إقليم اليمن كما استفيد من ترجمة الصورة المعربة من البيان المقدم من طرف المشار إليه وأن تلك المواد لما عرضت على الأعتاب السلطانية صدر الخط الهمايونى المقرون بالكرامة بإفادتها لصوب خادمكم وتأكيد إجراء العمل على مقتضى الإرادة السنية الصادرة سابقًا فيلزم مد أنظار البصيرة على الدوام إلى تلك الحوالى وعدم التغافل عن أحوال الإنجليزى وحركاته فعلى ذلك كان ينبه أمين جمرك جدة على أن يتجسس ويحقق أحوال الإنجليزى

(١) كان فى ذلك الوقت الوالى المملوكى داود باشا .

وحركاته وكيفيات تلك الحوالى وأن يكتبها إلى طرفنا وها هو يفيد فى مضمون ورقه الوارد فى هذه المرة أن قبيلة بنى أبى على من توابع جواسم كانت فى الأصل تحت طاعة إمام مسقط (مسكت) ثم عصت وقامت ضد الإمام المذكور وحاربت الإمام محاربة كثيرة ولم يتمكن الإمام من الغلبة عليها حتي تراجع منقلبًا إلى مسقط واستمد من الإنجليزى فأمده الإنجليزى بالعساكر على وفق مطلوبة فزحفوا متفقين تكراراً على القبيلة المذكورة وجرت محاربة عظيمة إلا أنهم لم يتمكنوا من التغلب على القبيلة المذكورة لمتانة قلاعها وقتل فى أثناء الحرب من القبيلة المذكورة مقدار مائة وعشرين نفراً وهلك رئيس عساكر إنجلترا (سر عسكر) وثمانية وأربعون نفراً من العساكر الإنجليزيين وأصيب إمام مسقط من ذراعه فتراجع فى نهاية الأمر منهزمًا إلي مسقط وأما الكيفية الواقعة بين الإنجليزى وأهالى مخا فعل الوجه المعروض لمقام الصدارة فيما سبق وبعد أن دامت الحرب عدة أيام وقعت المصالحة على بعض شروط وأقام الإنجليزى قنصلاً فى مخا وقد سطر فى ورق آخر وارد من عبدكم أمين الجمرك المومى إليه أن سفن إنجلترا التى كانت تجاه مخا قد اجتازت مضيق باب المندب وذهبت وإنما بقيت لهم فى مخا سفينة واحدة ذات عمودين واجتمعت تلك السفن فى مرفأ بومباى فأقلعوا تكراراً بست عشرة سفينة إنجليزية وتسع سفن شواطئ من ستة مراكب خشبية مقطورة من صنع العرب استأجروها من المرفأ المذكور ووصلوا إلى مسقط تكراراً وزحفوا متفقين أيضا على قبيلة بنى أبى على فالإنجليزيون من جهة البحر والإمام المذكور من جهة البر ووصلوا إلى تجاه القبيلة المذكورة لكن لم يعلم بعد هل وقعت المحاربة ولا كيف يتم الأمر وأنه توجد بين مسقط وبين القبيلة المذكورة من جهة البحر مسافة يوم ومن جهة البر مسافة خمسة أيام وقد بين أمين الجمرك المومى إليه فى عريضته الواردة عقب ورقة المذكور أنه تحقق أن قبيلة بنى أبى على بعثوا إلى المحل الذى حل فيه الإنجليزيون مائتى هجان وخمسين هجانًا مزدوجة وباغتوا جيش إنجلترا الحاضر فقتلوا مقداراً يتراوح بين سبعين وثمانين من الإنجليزيين وأفاد الأمين المومى إليه فى المرة الرابعة أنه وقعت محاربة عظيمة بين القبيلة المذكورة والإنجليزيين لكن لم يعلم بعد فى أى جهة بقيت الغلبة وقد صار بيان تلك الكيفيات باعثًا لعرض عبوديتى فالأمر والإرادة لدى وصول هذه العريضة وإحاطة علمكم العالى بها بمشيئة الله تعالى لصاحب الدولة.

٢ ـ من محمد على إلى قائد جيش الحجاز يأمره بالكتابة إلى سلطان مسقط يعتذر له عن تعديات خالد بن سعود بتاريخ ٣ ذى القعدة ١٢٥٥هـ رقم ٣٥[١].

من محمد على إلى قائد جيش الحجاز :

اطلعت على كتابكم المؤرخ فى ٢٩ رمضان ١٢٥٥ رقم ٤٣ المشتمل على أنه ورد لطرفكم خطاب حضرة إمام مسقط وبضمنه الخطاب الذى أرسله خالد بك لأولاد سعيد بن سلطان إمام مسقط .

ونظرًا للصفاء القائم والولاء الدائم والمحبة الحاصلة بيننا وبين حضرة الإمام المشار إليه فقد كتبنا لخالد بك أن لا يبدو منه ما يكسر خاطره وأنتم اكتبوا للإمام المشار إليه جوابًا على كتابه وقولوا فيه أن ما كتبه خالد بك لحضرتكم إنما هو من مقتضيات صبوته وخفة مزاجه وقد كتبنا له بأن يرجع عن مثل هذه الكتابة وأن يرعي خاطركم فى كل حال ومحل بكل توفيق وهذا ما لزم إشعاركم به .

٣ ـ أمر من محمد علي إلى خالد بن سعود أن لا يأتى أفعالاً تستوجب غضب إمام مسقط .

من محمد على إلى خالد بن سعود[٢].

إن الخطاب الذى أرسلته أنت إلى ثوينى وهلال ابنى سعيد بن سلطان إمام مسقط بعثه حضرة إمام مسقط إلى ولدنا صاحب النجابة أحمد باشا سر عسكر الحجاز وأعرب فيه عن انكسار خاطره قائلاً أيحتاج المحسوب عليكم أن يكون هدفًا لمثل هذا التعريض وأن السر عسكر الموما إليه قد أرسل لنا كتابًا بتاريخ ٢٩ رمضان ١٢٥٥هـ رقم ٤٣ وبضمنه الكتاب الذى أرسلته أنت لابنى الإمام المشار إليه وكتاب الإمام الذى أرسلته إلى أحمد باشا واطلعت على ذلك كله وها نحن قد أرسلنا لك صورة خطابك الذى أرسلته أنت إلى الموما إليهما لتعلم ما جاء فيه ضمن خطابنا هذا فيا أيها الولد أنه بالنظر للصفوة القائمة والولاء الدائم والمودة الحاصلة بيننا وبين حضرة الإمام المشار إليه لا نوافق على كسر خاطره أصلاً فاجتنب المعاملة

(١) وثائق القاهرة، محفظة رقم ٢٦٦ حجاز ١٢٥٥هـ .
(٢) وثائق القاهرة (القلعة سابقًا)، محفظة رقم ٢٦٦ رقم ١٠٤ حمراء حجاز ١٢٥٥هـ مترجمة عن اللغة التركية .

التى توجب اضطراب حضرة الإمام المشار إليه وبادر إلى إدخال السرور عليه وتطييب خاطره وهذا ما أؤمله منك من كل وجه ومن أجله كتبنا لك.

٤ ـ مكاتبة من خورشيد باشا سر عسكر نجد إلى هنيل باليوز خليج فارس ١٧ جمادى الأولى ١٢٥٥هـ ٣٠ يوليه ١٨٣٩[١].

يرد خورشيد باشا فى هذه المكاتبة على احتجاج هنيل على الاتفاق الذى أبرم بينه وبين شيوخ البحرين (١٨٣٩) ويؤكد أن هذا الاتفاق قد صار طبقًا لما كان الوضع عليه على عهد السعوديين بالنسبة لعلاقتهم بالبحرين وغيرها من إمارات الخليج الأخرى. ويعنى ذلك أن الحكم المصرى كان يستند على الشرعية السعودية كما هو واضح فى تعيين محمد على لخالد بن سعود حاكمًا لنجد تحت التبعية المصرية.

ورد إلينا جوابكم المؤرخ فى ١٣ ربيع الثانى وبه تشيروا عن خصوص التحرك على بنادر العرب المتصلة بسواحل خليج فارس وعن عدم قبول مصالحة البحرين مما نفيد سعادتكم أن الأقاليم النجدية والتابع إليها فى السابق حكم السعوديين حيث أن خالد بك هو ولد سعود وسعادة ذو السطوة والجلالة أفندينا محمد على باشا قد أنعم عليه بتملك آل سعود وأن يكون ما كانوا عليه وكذلك قد صار الاتفاق مع عبد الله بن أحمد آل الخليفة على قدر القانون الذى كان جارى عليهم بمدة السعود فقط وهذا شىء صار فى شريف علم سعادتكم ولا يخفى الجناب العالى أن عبد الله الخليفة فهو الأمين على البحرين وليس القصد بسوق عساكر إليه أو خلافه ولا يكون عندنا مقصد آخر إلا لراحة العباد وإصلاح البلاد وأما من خصوص الدولة العلية الإنكليزية والدولة المصرية فتعلم أنهم أصدقاء لبعض زيادة عن غيرهم وبحول الله وقوته لا يزالون على هذه الحالة على الدوام وأنه بتاريخه قد أرسلنا كتبكم الشريفة مع هاجانه مخصوصين من طرفنا على حسب السرعة وبعشمنا أنه لا يحصل أمر يوجب للاختلاف بين الدولتين العليتين ولابد أن يصدر إليكم أوامر سعادة ذو الشوكة والاقتدار حضرة السركار ونحن بالمثل يصدر إلينا أوامر سعادة أفندينا ولى النعم وبمقتضاها نفيدكم كما تفيدونا ولكم العز والبقاء.

---

(١) وثائق القاهرة (القلعة سابقا)، محفظة رقم ٢٦٧ ملف الحجاز ١٢٥٥هـ صورة الرفق العربى للوثيقة ١٢٧.



المصادر والمراجع

أولاً : وثائق باللغة العربية :

ـ الوثائق المصرية :

محافظ الحجاز ٢٦٠ ـ ٢٦١ ـ ٢٦٣ ـ ٢٦٦ ـ ٢٦٧ ـ ٢٧٠

ـ وثائق المملكة العربية السعودية :

التحكيم لتسوية النزاع الإقليمى بين مسقط وأبو ظبى وبين المملكة العربية السعودية .

المجلد الأول (الأساس) ـ المجلد الثانى (الوثائق) ـ القاهرة ١٩٥٥

ثانيًا : وثائق باللغة الإنجليزية :

Factory Records.

- Gombroon Diary and Consultation.

- Persia and the Persian Gulf, Letters from Bussorah, Gombroon, Bushire, etc .

Vols 15, 16.

Public Foreign Office .[1]

F.O. 78/366, 386, 388 F.O. 371/13010, 15279.

F.O. 60 persia/21.

ثالثًا : مصادر وثائقية بلغة أجنبية :

Aitchison, C.U.

A Collection of Treaties, Engagements and Sanads Relating to India and Neighbouring Countries, ed. 1892, 1909 Calcutta 12 vols.

- Bombay Government

Selections from the Records of Bombay Government.

(١) تتضمن الملفات المذكورة الكثير من الوثائق المتعلقة بالتوسع المصرى فى سواحل الخليج العربي وقد نقلت دار الوثائق المصرية المراسلات المتعلقة بهذا الموضوع، انظر محفظة رقم ١٢ من الأرشيف الأوربى .

Historical and other Information Connected with the province of Oman, Muscat, Bahrein and other places in the Persian Gulf. New Series vol. XXIV Bombay 1856 .

- Bruce, James.

Annals of the Honourable East India Company- London 1810.

- Brydges (Sir Harford Jones)

An Account of His Majesty's Mission to the Court of Persia in the year 1807 - 1811 to which is appended a brief History of the Wahabauy 2 vols. London 1834 .

- Great Britain Foreign Office .

Handbooks prepared under the direction of.., The Persian Gulf No. 67 London 1920 .

- Greenville - Freeman .

Select Documents, The East African Coast Oxford 1962 .

- Guillain, Charles .

Documents Sur L'Histoire, La Geogrophie et le Commerce de L'Afrique Orientale 3 Tomes. Paris 1856 .

- Hughes, Thomas.

Treaties, Agreements and Engagements between the Honourable East India Company and Native Princes, Chiefs and States in Western India, the Red Sea, the Persian Gulf etc. also between Her Britannic Majesty's Government and Persia, Portugal and Turkey Compiled under the Instructions of the Government of Bombay, 1851 .

- Kaye, John .

The Life and Correspondence of Sir John Malcolm. 2 vols London 1856 .

- Saldanha, A.

East India Companies Connection with the Persian Gulf (1600-1800) Selections from Bombay State Papers. Calcutta 1908.

رابعًا: المصادر والمراجع والدراسات العربية :

- أبو الفوز البغدادى السويدى - سبائك الذهب فى معرفة قبائل العرب - بغداد ١٢٨٠هـ .

- أبو عبد الله محمد بن بطوطه - تحفة النظار فى عجائب الأسفار وغرائب الأمصار - مجلدان - القاهرة ١٩٣٣ .

- أحمد محمود صبحى - البحرين ودعوى إيران - الإسكندرية ١٩٦٢ .

- أحمد مصطفى أبو حاكمه - تاريخ الكويت - المجلد الأول - القسم الأول - الكويت ١٩٦٧ .

- آدم متز - الحضارة الإسلامية - ترجمة عبد الهادى أبو ريدة - مجلدان .

- أرنولد ويلسن - الخليج العربى - ترجمة محمد أمين عبد الله - نشر وزارة التراث القومى والثقافة (سلطنة عمان) .

- أمين الريحانى - ملوك العرب أو رحلة فى البلاد العربية - مجلدان - بيروت ١٩٢٩ .

- أنور عبد العليم - ابن ماجد الملاح العدد ٦٣ من سلسلة أعلام العرب - القاهرة ١٩٦٦ .

- جاكلين بيرين (مترجم) - اكتشاف جزيرة العرب - بيروت ١٩٦٣ .

- جان جاك بيريبى (مترجم) - الخليج العربى - بيروت ١٩٥٩ .

- ج . ج لوريمر - دليل الخليج - القسم التاريخى ٧ مجلدات - ترجمة مكتب ديوان حاكم قطر - الدوحة ١٩٦٧ .

- جمال زكريا قاسم

* الخليج العربى - دراسة لتاريخ الإمارات العربية ١٨٤٠ - ١٩١٤ - القاهرة - جامعة عين شمس ١٩٦٧ .

* الخليج العربى ـ دراسة لتاريخ الإمارات العربية ١٩١٤ ـ ١٩٤٥ ـ دار الفكر العربى ـ القاهرة ١٩٧٣ .

* الأصول التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية ـ معهد البحوث والدراسات العربية القاهرة ١٩٧٥ .

* دولة بوسعيد فى عمان وشرق إفريقيا ١٧٤١ ـ ١٨٦١ ـ القاهرة .

* مختارات من وثائق الكويت والخليج العربى المحفوظة فى دور السجلات البريطانية ـ جامعة الكويت ١٩٧٢ .

* الادعاءات الإيرانية فى الخليج العربى ـ من أعمال المؤتمر الدولى للتاريخ بغداد ١٩٧٣ .

* الدوافع السياسية لرحلات الأوربيين إلى نجد والحجاز من أعمال ندوة مصادر تاريخ الجزيرة العربية ـ الرياض ١٩٧٧ .

* رحمة بن جابر الجلاهمة ـ حوليات كلية الآداب ـ جامعة عين شمس المجلد التاسع ١٩٦٤ .

* موقف الكويت من التوسع السعودى فى نجد وسواحل الإحساء ـ العدد ١٧ من مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ـ القاهرة ١٩٧١ .

* الأسس التاريخية لوحدة الإمارات العربية ودور الاستعمار فى تجزئتها، من أعمال ندوة تجربة دولة الإمارات العربية ـ التجارب الوحدوية العربية المعاصرة ـ مركز دراسات الوحدة العربية ـ بيروت مارس ١٩٨١ .

* استقرار العرب فى ساحل شرق إفريقيا ـ العدد العاشر ـ حوليات كلية الآداب ـ جامعة عين شمس ١٩٦٥ .

ـ جون كلى (مترجم) ـ بريطانيا والخليج ١٧٩٥ ـ ١٨٧٠ ـ مجلدان ـ نشر وزارة التراث القومى والثقافة ـ سلطنة عمان ١٩٧٩ .

ـ حسن أحمد إبراهيم ـ المطامع الأوربية فى الخليج العربى من مطلع القرن السادس عشر حتى منتصف التاسع عشر ـ من أعمال مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية ـ المجلد الثانى الدوحة ـ قطر ١٩٧٦ .

- حسين بن غنام - تاريخ نجد المعروف بروضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الإمام وتعداد غزوات ذوى الإسلام - تحقيق الدكتور ناصر الدين الأسد - القاهرة ١٩٦١ .

- حميد بن محمد بن رزيق - الفتح المبين فى سيرة السادة البوسعيديين - تحقيق عبد المنعم عامر ودكتور محمد مرسى عبد الله وزارة التراث القومى والثقافة - سلطنة عمان ١٩٧٧ .

- زين الدين (الشيخ) - تحفة المجاهدين فى بعض أحوال البرتغاليين - ترجمة دافيد لويز ونشر جمعية لشبونة الجغرافية ١٨٩٨ .

- سالم بن حمود السيابى - إيضاح المعالم فى تاريخ القواسم - مراجعة أحمد التدمرى - دمشق ١٩٧٦ .

- سرحان بن سعيد الأزكوى العمانى - كشف الغمة، مخطوطة بالمتحف البريطانى بلندن رقم OR6568

- تاريخ عمان « المقتبس من كتاب كشف الغمة » - تحقيق عبد المجيد القيسى - وزارة التراث القومى والثقافة - سلطنة عمان .

- سعيد بن على المغيرى - جهينة الأخبار فى تاريخ زنجبار - تحقيق عبد المنعم عامر - ونشر وزارة التراث القومى والثقافة - سلطنة عمان .

- شارل ديل (مترجم) - البندقية جمهورية أرستقراطية - ترجمة الدكتور توفيق إسكندر ومراجعة الدكتور أحمد عزت عبد الكريم - الجمعية الملكية للدراسات التاريخية - القاهرة ١٩٤٧ .

- شركة الزيت العربية الأمريكية - عمان والساحل الجنوبى للخليج الفارسى - إدارة العلاقات العامة - شعبة البحث - القاهرة ١٩٥٥ .

- صادق نشأت (ميرد آماد) - مترجم عن الفارسية - تاريخ الخليج السياسى - ترجمة دكتور أحمد كمال حلمى وتحقيق بدر الدين عباس طبعة أولية على الألة الكاتبة - الكويت ١٩٧٢ .

- صادق عبدوانى - علاقات الدولة السعودية الأولى مع دول شرق الجزيرة - عمان - ساحل عمان - قطر - البحرين ١٧٥٠-١٨٢٠ - القاهرة ١٩٧٢ .

- صالح أوزبران (مترجم) - البرتغاليون والأتراك العثمانيون فى الخليج العربى - ترجمة دكتور عبد الجبار ناجى - منشورات مركز دراسات الخليج العربى - جامعة البصرة ١٩٧٩ .

- صالح محمد العابد

* موقف بريطانيا من النشاط الفرنسى فى الخليج العربى ١٧٩٨ - ١٨١٠ - بغداد ١٩٧٩ .

* دور القواسم فى الخليج العربى ١٧٤٧ - ١٨٢٠ - بغداد ١٩٧٦ .

- صلاح العقاد - التيارات السياسية فى الخليج العربى - القاهرة ١٩٧٤ .

- عباس إقبال - مطالعاتى درباب بحرين وسواحل وجزاير خليج فارس - القاهرة ١٩٥٦ .

- عبد الحميد البطريق - إبراهيم باشا في بلاد العرب - من أعمال ذكرى البطل الفاتح إبراهيم باشا - الجمعية الملكية المصرية للدراسات التاريخية - القاهرة ١٩٤٨ .

- عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم

* الدولة السعودية الأولى - القاهرة ١٩٦٩ .

* من وثائق الدولة السعودية الأولى فى عصر محمد على ١٢٢٢هـ - ١٢٣٤هـ / ١٨٠٧ - ١٨١٩م - القاهرة ١٩٨٣ .

* محمد على وشبه الجزيرة العربية ١٨١٩ - ١٨٤٠ - القاهرة ١٩٨١ .

- عبد الأمير محمد أمين

* القوى البحرية فى الخليج العربي فى القرن الثامن عشر - بغداد ١٩٦٦ .

* المصالح البريطانية فى الخليج العربى ١٧٤٧ - ١٧٧٨ منشورات مركز دراسات الخليج العربى بجامعة البصرة - بغداد ١٩٧٧ .

* مقاومة إمارات شرق الجزيرة العربية وقبائل الخليج العربى للاستعمار الأوربى ١٥٠٠ ـ ١٨٢٠، من أعمال ندوة تجربة دولة الإمارات العربية المتحدة ـ مركز دراسات الوحدة العربية ـ بيروت ـ مارس ١٩٨١ .

ـ عبد الله بن خلفان بن قيصر ـ سيرة الإمام ناصر بن مرشد ـ تحقيق عبد المجيد القيسى ـ وزارة التراث القومى والثقافة ـ سلطنة عمان ١٩٧٧ .

ـ عبد الله صالح العثيمين ـ العلاقة بين الإحساء وحركة محمد بن عبد الوهاب، من أعمال مؤتمر تاريخ شرق الجزيرة العربية ـ المجلد الثانى ـ الدوحة ـ قطر ١٩٧٦ .

ـ عبد العزير الرشيد ـ تاريخ الكويت ـ طبعة منقحة وضع حواشيها وأشرف على تنسيقها يعقوب عبد العزيز الرشيد ـ منشورات مكتبة الحياة ـ بيروت .

ـ عبد العزيز الشناوى ـ المراحل الأولى للوجود البرتغالى فى شرق الجزيرة العربية من أعمال مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية ـ المجلد الثانى ـ الدوحة ـ قطر ١٩٧٦ .

ـ عبد العزيز عبد الغنى :

* علاقة ساحل عمان ببريطانيا، دراسة وثائقية فى العلاقات التعاهدية ـ مطبوعات دارة الملك عبد العزيز رقم ٢٥، الرياض ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م ـ وكذلك طبعة البصرة ١٩٧٨ .

* حكومة الهند البريطانية والإدارة فى الخليج العربى، دراسة وثائقية ـ الرياض ١٩٨١ .

ـ عبد الفتاح إبراهيم ـ على طريق الهند ـ الرسالة الأولى من رسائل الأهالى ـ بغداد ١٩٣٥ .

ـ عبد القوى فهمى ـ القواسم ونشاطهم البحرى ١٧٤٧ ـ ١٨٥٣ ـ رأس الخيمة ١٩٨٣ .

ـ عبد اللطيف ناصر الحميدان

* التاريخ السياسى لإمارة الجبور فى نجد وشرق الجزيرة العربية ٨٢٠ ـ ٩٣١هـ (١٤١٧ ـ ١٥٢١م) ـ العدد ١٦ من مجلة كلية الآداب ـ جامعة البصرة ١٩٨٠ .

* نفوذ الجبور فى شرق الجزيرة العربية بعد زوال سلطتهم السياسية ١٥٢٥ ـ ١٧٨١ ـ العدد ١٧ من مجلة كلية الآداب ـ جامعة البصرة ١٩٨١ .

ـ عبد الهادى التازى ـ الصلات التاريخية بين المغرب وعمان ، من حصاد ندوة الدراسات العمانية ـ المجلد الثانى وزارة الثقافة والتراث القومى ـ سلطنة عمان نوفمبر ١٩٨٠ .

ـ عثمان بن بشر النجدى ـ عنوان المجد فى تاريخ نجد ـ جزءان ـ مكة المكرمة ١٣٤٩هـ .

ـ عثمان بن سند البصرى ـ سبائك العسجد فى أخبار أحمد نجل رزق الأسعد ـ بومباى ١٣١٥هـ .

ـ علي رضا ميرزا محمد ـ أسانيد الخليج « الفارسى » ـ دار الرائد العربى ـ القاهرة ١٩٧٦ .

ـ على عبد الرحمن أبا حسين ـ تاريخ البحرين خلال المخطوطات والوثائق من أعمال الحلقة الرابعة لمراكز دراسات الخليج والجزيرة العربية ـ أبو ظبى ١٩٧٩ .

ـ على نعمة الحلو ـ الأحواز ـ إمارة كعب العربية (المحمرة) ـ بغداد ١٩٦٩ .

ـ فاروق عمر فوزى ـ الخليج العربى فى العصور الإسلامية ـ دار القلم ـ دبى ١٩٨٣ .

ـ فضلو حورانى (مترجم) ـ الملاحة العربية فى المحيط الهندى ـ القاهرة ١٩٥٨ .

ـ فؤد حمزة ـ قلب جزيرة العرب ـ مكة المكرمة ١٣٥٢هـ .

ـ فالح حنظل ـ المفصل فى تاريخ الإمارات العربية ـ جزءان ـ نشر لجنة التراث والتاريخ بدولة الإمارات العربية المتحدة ١٩٨٣ .

ـ مجهول المؤلف ـ لمع الشهاب فى سيرة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ـ تحقيق أحمد مصطفى أبو حاكمة ـ بيروت .

- مجيد خدوري - البحرين وإيران، العدد الأول من منشورات صوت البحرين - بيروت ١٩٥٣ .
- محمد بن أحمد (ابن إياس) الحنفى - بدائع الزهور فى وقائع الدهور - تحقيق محمد مصطفى جـ٤ ، جـ٥ - الطبعة الثانية نشر فرانز شتاينر فيسبادن - القاهرة ١٩٦٠ ، ١٩٦١ .
- محمد بن خليفة النبهانى - التحفة النبهانية فى تاريخ الجزيرة العربية - ٦- البحرين - القاهرة ١٣٤٢هـ .
- محمد بن عبد الله السالمى وناجى عساف - عمان تاريخ يتكلم - دمشق ١٩٦٣ .
- محمد بن عبد الله بن عبد القادر الأنصارى - تحفة المستفيد بتاريخ الإحساء فى القديم والجديد - مجلدان - الرياض ١٩٦٠ .
- محمد مرسى عبد الله
* إمارات الساحل وعمان والدولة السعودية الأولى ١٧٩٣ - ١٨١٨ - القاهرة ١٩٧٨ .
* دولة الإمارات العربية المتحدة وجيرانها - الكويت ١٩٨١ .
- محمد عرابى نخلة - تاريخ الإحساء السياسى ١٨١٨/ ١٩١٣ - ذات السلاسل - الكويت ١٩٨٠ .
- محمود على الداود
* محاضرات فى التطور السياسى لقضية عمان - معهد الدراسات العربية العالية - القاهرة ١٩٦٤ .
* تاريخ العلاقات الهولندية فى الخليج العربى - مجلة كلية الآداب - جامعة بغداد العدد الثانى يناير ١٩٦١ .
- مصطفى عبد القادر النجار - التاريخ السياسى لمشكلة الحدود الشرقية للوطن العربى في شط العرب دراسة وثائقية - من منشورات جمعية الدفاع عن عروبة الخليج - البصرة ١٩٧٤ .

- مصطفى مراد الدباغ - الجزيرة العربية موطن العرب ومهد الإسلام - المجلد الأول - دار الطليعة - بيروت ١٩٦٣ .

- معهد البحوث والدراسات العربية - دولة الإمارات العربية المتحدة - دراسة مسحية شاملة - القاهرة ١٩٧٧ .

- نور الدين عبد الله السالمى - تحفة الأعيان بسيرة آل عمان - مجلدان - تحقيق إسحاق طفيش الجزائرى - القاهرة ١٣٤٧هـ. وكذلك طبعة ١٩٦١ .

- هولى (دونالد) - عمان ونهضتها الحديثة ، ترجمة فؤاد حداد وعادل صلاحى وتحقيق محمد نين - نشر مؤسسة ستايس الدولية - لندن (بدون تاريخ) .

- ياقوت الحموى - معجم البلدان - المواد المشار إليها - القاهرة ١٩٠٦ .

- يعقوب الرشيد - الكويت فى ميزان الحقيقة والتاريخ ١٩٦٣ .

- يوسف الفلكى - قضية البحرين بين الماضى والحاضر - القاهرة ١٩٥٣ .

- يوسف القناعى - صفحات من تاريخ الكويت - الكويت ١٩٤٦ .

خامساً : المراجع والدراسات الأجنبية :

- A damyiat, Fereydoun.

Bahrein Islands, A legal and Diplomatic Study of the British - Iranian Controversy. New York 1955.

- Aubin, Jean.

Le Prince d'Ormuz au XIIIE au VE siecles. Journal Asiatique CDXLI, 1953 .

- Auzoux, A.

La France et Mascate aux XVIII et XIX siecles. Extrait de la Revue d'Histoire Diplomatique. Paris 1910.

- Bahrna (Hussain E1).

The Arabian Gulf States their Legal and Political Status & their International problems. Manchester 1968.



- Barbosa (Durate)

The Book of Durate Barbosa 2 vols. London 1918.

- Bartlett (Moyse, H.).

The Pirates of Trucial Oman. London 1966.

- Bent (Theodore).

Southern Arabia. London 1900.

- Bertram, Thomas.

* Arab Rule under the Al Bu Said Dynasty in Oman and East Africa. London 1938.

* Alarms and Excursions in Arabia, London 1931.

- Buckingham.

Travels in Assyria, Media and Persia 2 vols. London 1829.

- Burchardt, L.

Notes on the Bedouins and Wahabuys London 1830.

- Boxer, C.

* New Lights on the relationship of Oman and Portuguese 1613 - 1633.

Proceedings of Omani Studies Sympesium vol. 2 November, 1980 .

Ministry of Culture and National Heritage - Sultanate of Oman.

* Glimpses of the Goa Archives, Bulletin of S.O.A.S. vol. XIV London 1952.

* Some Aspects of the Struggle between Omanis & the Portuguse A.D. 1650 - 1730. Proceedings of the Fourth Seminar of Arab Gulf Centres Abu Dahabi 1979.

- Brich (Walter de Gray) The Commentaries of Afonso Dalbuquerque 4 vols Hakluyt Society 1875 - 1884 .

- Chappuis, F.

Visite à l'Imam de Mascate au Zangubar.

Extrait de Memoires de la Socite de Geographie de Geneve 1860 .

- Chardin, John.

Travels in Persia and East Indies, London 1691.

- Colomb R.N.

Slave Catching in the Indian Ocean.

A Record of Naval Epxerience London 1873.

- Coupland, Sir Reginald.

* East Africa and Its Invaders from the Earliest Times to the Death of Seyyid Said in 1856, London 1938.

* Exploitation of East Africa 1856 - 1890. London 1939.

- Curzon, George N.

Persia and the Persian Question 2 vols London 1892.

- D'Avrille.

Le Golfe Persique route de L'Inde et de la Chine.

Extrait de la Revue des Questions Diplomatique et Coloniales Paris, 1905.

- Danvers, F.C.

The Portuguese in India 2 vols, London 1894.

- Dennis, Alfred.

Eastern Problem at the Close of the 18th Century. Cambridge 1901.

- Dickson, H.R.P.

Kuwait and Her Neighbours. London 1956.

- Dodwell, H.H.

* The Founder of Modern Egypt Cambridge 1951.

* The Cambridge Shorter History of India, Delhi 1964.

- Farinha, A.D.

Arabic Documents in the Torro Do Tombo procceding of the fourth Seminar of Arab Gulf Centres. Abu Dhabi, 1979.

- Farroughy (Abbas),

Bahrein Islands 750 - 1951.

A Contribution to the Study of Power Politics in the Persian Gulf New York 1951.

- Flasson.

Histore de la Diplomatique Francaise. Livre II.

- Foster, William.

England's Quest in Eastern Trade London 1933.

- Fryer (John)

A New Account of East India and Persia 1672 - 1681 London.

- Gaffrel (Paul).

Les Colonies Francaise, Quatrieme edition Paris 1882.

- Gardane, Comte Alfred.

La Mission du General Gardane en Perse sous le Premier Empire Paris 1865.

- Goldsmid, F.

Telegraph and Travels, A Narrative of the formation and development of telegraphic communication between England and India under the orders of Her Majestey's Government with incidental notices of the countries taversed by the Lines. London 1874.

- Grover, B.L. and Sethi, R.R.

Studies in Modern Indian History, Delhi 1963.

- Haje Khalefah.

The History of the Maritime Wars of Turks. London 1831.

- Hawley (Donald)

The Trucial States. London 1970 .

- Hoskins, Harford L.

British Routes to India. London 1928 .

- Huede, William.

A Voyage up the Persian Gulf and Journey overland from India to England in 1817. London 1928 .

- Huart. (C.L)

Histoire des Arabes 2 Tomes Paris 1912 .

- The Imperial Gazeteer of India vol. II Historical Oxford 1908 .

- Ireland, Philip

Iraq, London 1945.

- Kajare, Firouz.

Le Sultanate d'Oman et la Question de Mascate, Etude d'Histoire Diplomatique et Droit Internationale, paris 1914.

- Kassim, G.Z.

Omani - Portuguese Conflict in the 17th Century.

Bulletin of the Arab Research and Studies Institute, Cairo 1980 .

- kelly, John.

Britain and the Persian Gulf 1795 - 1880. London, 1968.

- Krapf, Rev. Dr. Lewis.

Travels, Researches and Missionary Labours during an eighteen years residence in Eastern Africa London 1860,

- Landen, R.G.

Oman Since 1856 Disruptive Modernisation in a traditional Arab Society, Princeton Uneversity 1967 .

- Lockhart, L,

* The Fall of the Safavi Dynasty and Afghanistan Occupation to Persia. Cambridge 1938.

* Nadir Shah.

A Critical study based only upon contemporary sources London 1938.

* The Navy of Nadir Shah.

Proceedings of the Iran Society vol. I part I, London. 1936.

- Lopes, David (Editor).

Historia des Portuguese No Malabar Lisbon 1898.

- Low, Charles R.

History of the Indian Navy 1613 - 1863 2 vols. London, 1877.

- Mann (Clarence)

Abu Dhabi, Birth of an Oil Shaikhdom Beirut 1969.

- Masson.

Histoire de Commerce Francaise dans le Levant Paris, 1911.

- Maurizi (Vincenzo)

History of Seyyid Said of Muscat together with an account of the countries and people on the shores of the Persian Gulf London 1819.

- McMillan (Mona).

Introducing East Africa London 1945.

- Miles, Samuel.

The Countries and Tribes of the Persian Gulf 2 vols, London 1919 2nd ed. in one volume 1966.

- Morrier, James.

A Journey through Persia, Armenia and Asia Minor to Constantinppole London, 1812.

- Neibuhr, Carsten.

* Travels through Arabia and other Countries in the East translated by Rupert Heren 2 vols. Edinburgh 1792.

* Description de l'Arabie Paris LXXIX.

- Owen, Roderick.

The Golden Buble, Arabian Gulf Documentary London 1957.

- Palgrave, W. G.

* Narrative of a year's Journey through Central and Eastern Arabia 1862 - 1863 2 vols. London 1865.

* Personal Narrative of a year's Journey through Central and Eastern Arabia. London 1877.

- Pankhurst, E. Sylvia.

Ex - Italian Somaliland, London 1951.

- Pearce.

Zanzibar, The Island Metroplis of Eastern Africa London 1920.

- Parsons (Abraham)

Travels in Asia and Africa London 1808.

- Perrin, N.

Relation de la Compagne d'Ibrahim Pacha Contre les Wahabites Paris 1913.

- Philips, Wendell.

Oman A History London 1967.

- Rabaud, Alfred,

Zanzibar, La Côte Orientale d'Afrique Equatoriale, Extrait de Bulletin de la Societe Geographie de Marsailles 1881.

- Ravenstein.

Journal of the first voyage of Vasco de Gama, Hakluyt Society London 1898.

- Rouire, M.

* La Question de Golfe Persique- l'Angleterre en Arabie, Revue des deux Mondes LXIII Annee, Cinquieme periode, Tome XIV Paris, 1903.

* La Question de Golfe Persique les Reglements des Questions de Mascate et de Koweit, Revue des deux Mondes LXXIIIe Cinquieme periode XVII, Paris 1905.

- Ruete, Said.

Said Bin Sultan Ruler of Oman and East Africa 1791 - 1856 London 1929.

- Ruete, Emily.

Memoires d'une Princesse Arabe Paris 1905.

- Salil Bin Razik.

History of the Imams and Seyyids of Oman.

Translated from the Original Arabic and edited with notes, appendices and introduction continuing the History down to 1870 by G. Percy Badger London 1871,

- Sanger, R.

The Arabian Peninsula New York 1954.

- Sirhan Bin Said.

Annals of Oman, tanslated by E.C. Ross, London 1872.

- Steven. John.

Translation of a Manual de Faria Sousa.

The Portugese Asia, 3 vols. London 1695.

- Skeet, Ian.

Muscat and Oman.

The End of an Era, London 1974.

- Sykes, Percy.

History of Persia 2 vols. London 1951.

- Tadijbakche, Gholma Reza.

La Question de Iles Bahrein, publication de la Revue Generale de Droit Internationale public nouvelle serie Paris 1960 .

- Texiera, Pedro.

Travels of Pedro Texiera with His Kings of Harmuz, Translated by William F. Sinclair, Hakluyt Society 1902 .

- Vambery, A.

Sidi Ali Reis.

Travels and Adventures of the Turkish Admiral Sidi Ali Reis in India, Afghanistan, Central Asia and Persia during the years 1553 - 1556 London 1899.

- Watson, Rebert Grant.

History of Persia from the begining of the 19th century to the year 1858 London 1866.

- Wellested.

Travels in Arabia 2 vols. London 1838.

- Whigham, E.J.

The Persian Problem London 1903 .

هذا الكتاب ... وهذه المجموعة

يسر **دار الفكر العربي** أن تقدم لجمهرة المؤرخين والباحثين العرب المجموعة الكاملة لمؤلفات الأستاذ الدكتور جمال زكريا قاسم عن الخليج العربي.

وتقع هذه المجموعة فى خمسة مجلدات تناولت مايقرب من خمسة قرون من تاريخ الخليج العربى الحديث والمعاصر منذ بداية العصور الحديثة حتى أزمة الخليج ١٩٩٠ ـ ١٩٩١، وهذه الدراسة الموسوعية هى حصيلة سنوات عديدة قضاها المؤلف فى رصد وتحليل الأحداث التى شهدتها المنطقة من مختلف جوانبها السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

ويتناول هذا المجلد (الأول) تاريخ الإمارات العربية فى الخليج فى عصر التوسع الأوروبى الأول الذى استهله البرتغاليون فى السنوات الأولى من القرن السادس عشر الميلادى، حيث يعرض للسيطرة البرتغالية الاحتكارية على الخليج والعوامل التى أدت إلى إضعافها، مع التركيز على الدور الذى قام به عرب الخليج فى القضاء على النفوذ البرتغالى ومانجم عن انهيار ذلك النفوذ من نشأة الوحدات السياسية الحديثة فى الخليج التى وصلت إلى درجة من القوة والازدهار، مما مكن لإحداها ـ وهى دولة البوسعيد، فى عُمان ـ أن تمتد إلى سواحل شرق أفريقيا ودواخلها، حيث وضعت الأساس لأول دولة عربية أفريقية ظهرت فى تاريخنا العربى الحديث.

غير أن تلك الوحدات السياسية لم تلبث أن اصطدمت بالنفوذ البريطانى ـ منذ نهاية القرن الثامن عشر ـ الذى عمد إلى تفكيكها وإضعاف قوتها البحرية من أجل السيطرة عليها.

والفترة من بداية الغزو البرتغالى حتى بداية تدعيم النفوذ البريطانى ـ فى الخليج هى الفترة التى يتناولها هذا المجلد ١٥٠٧ ـ ١٨٤٠. ولم يلجأ المؤلف إلى معالجتها فى إطار المصالح الاستعمارية ـ كما فعلت ذلك كثير من المصادر الأجنبية ـ وإنما عنى بالتركيز على المقومات الذاتية لإمارات الخليج العربية وبتصحيح كثير من المفاهيم والأحكام الخاطئة التى حفلت بها تلك المصادر متبعا فى ذلك المنهج التحليلى والرؤية الموضوعية.